

« إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ »
« فِي غَدِهِ : لَوْ غُيِّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ »
« يُسْتَحْسَنُ ، وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ »
« أَجْمَلَ . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِبْلَاءِ »
« النِّقْصِ عَلَى جَمَلَةِ الْبَشَرِ » .

العماد الأصفهاني

الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

مولاي

لله على نعمة التوفيق الى الاتصال بك، والانقطاع لخدمتك،
والاستغلال بظلك؛ فأنا أحد هؤلاء الكثيرين الذين تعهدهم فضلك،
ونقفهم نصحك، وهذبهم أدبك . أولئك الذين أنت لهم أبٌ برٌّ،
ومثقف حكيم، وأستاذ رشيد .

وكنت قد أخذت نفسي بأن أقف على خدمتك ما أملك من
وقت وجهد، ولكن الإنسان طُلعةً بطبعه، فاذا اتصل بك فلا حد
لرغبته في البحث، وحرصه على الجِد، وطُمُوحه الى الكمال .
وكذلك أراد الله أن أقطع من هذا الوقت الذي وهبته لك خالصاً
ما أمكنتني من وضع هذا الكتاب .

فهل تأذن لي يا مولاي أن أرفع اليك "عصر المأمون" على
أنه أثر يَهْدِي الى مُنشئه، وحقُّ يَرُدُّ الى أهله، واعترافٌ بالجميل من
رجلٍ مَهْمَا يَفْعَل ومَهْمَا يَقُول فلن يوقيك بعض ما يدينُ به ضميره لك
من حبٍّ وإجلال .

مد الله في حياة مولاي، وجعل مستقبلها كإضيها حافلاً بالجِد
والتوفيق في خدمة أمته وعصره ومليكاه

أحمد فريد رفاعي

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ — الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله . وبعد فإني أتقدم بهذا الأثر الضئيل من "عصر المأمون" الى أمتي، وإلى الناطقين بالضاد من أبناء لغتي . وأملُ بفضل إرشاد العلماء والنقاد أن يوفقني الله الى إكمال النقص، وإصلاح الخطأ، وتلافي التقصير في الطبّعات القادمة . معترفاً، في صدق وإخلاص، بأن طبعتي هذه لا تعدو أن تكون "مُحاولةً" لكتابة التاريخ العربي على النظم العلمية الحديثة . وأنت تعلم أن تاريخنا العربي لا يزال، بلا مبالغة ولا إغراق، يُعوّزُه شتّى المصادر كما يُعوّزُه التنظيم والترتيب والتحقيق والاستقراء . وإني أسأله تعالى أن يجعلني ممن يُدعَى لكلمة الحق . فيرعى حرمتها، ويهتدي بهديها ٢ غير مفتونٍ بمدح المادح، ولا مُبتئسٍ بقدر القادح . كما أسأله أن يُرشدني الى المضىّ موفقاً مسدداً فيما أخذتُ به نفسي من البحث عن عصور "معاوية" و"المنصور" و"الرشيد" و"عبد الرحمن الأندلسي" . وأملُ بمعاونته تعالى، وبإرشاد العلماء والأدباء، ومُعونة المستشرقين والباحثين، وبما يهبُّ لي الله من صبر وجلد، ومُواظبةٍ ومُثابرةٍ، ومُتابعةٍ للدرس والاستقراء، وبما أوفقُّ إليه من مصادر ونصوص، ومراجع ومُظانٍّ، أن أكون — عند الانتهاء من كتابة ما ارتهنتُ به، لو كان في العمر بقية — قد وفّقتُ الى تنظيم دراسة تلك البحوث تنظيمًا جزئياً، يتفق ووسائل ومقدوري، ويمتشي — الى حدٍّ ما — والطريقة التحليلية الحديثة في كتابة التاريخ، وأن يكون عملي حين ذاك مما يسمح لي أن أقول، في ثقة وإيمان، إني قد قمت

حقاً "بمحاولة" ذات أثر نافع تمكّن غيرى من اتخاذها أساساً لكتابة تاريخ المديّنات العربية الواسعة المدى ، البليغة الأثر في الثقافات الإنسانية عامة ، كتابةً تاريخية صحيحة .

٢ - وقد وقع "عصر المأمون" في مجلدات ثلاثة ، خصصت أولها بالتاريخ وما إلى التاريخ ، وثانيها وثالثها بالأدب وما إلى الأدب . وأعتمدت في تلخيصي للشعراء فيهما على أمهات المظان الأدبية لا سيما كتاب الأغاني ، وأعترف - في صدق وإخلاص - أنّ مهمتي في المجلدين الآخرين لم تخرج عن مهمة المتخير لى في تلك العصور الزاهية من غرر ودُرر ، المتقّب عما فيها من طُرف ومِلح ، الملخص لحياة أدبائها وشعرائها ، المحتفظ بعبارات المعاصرين وشيوخ المؤلفين عنها . وقسمت المجلد الأول الى كتب ثلاثة . عالجْتُ فيها البحث عن عصور بنى أمية وبنى العباس والمأمون . وقد توخّيت الإيجاز في فذلكتي التاريخية عن عَصْرِى الأمويين والعباسيين لأنهما بمثابة تُكَاة وأساس لموضوعنا ، كما لاحظتُ الاستمساك بالحيدة التامة وعدم التطوح مع أولئك المؤرخين والرواة الذين تأثروا بأهوائهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية والذين نكبت بهم عن حجة الصواب مغالاًتهم في الانتصار لفكرتهم الحزبية . وقسمتُ المجلدين الثانى والثالث الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، نشرت فيها ما وسَّعه المقام من المنشور والمنظوم والنصوص الطويلة والمقالات المستفيضة . وعُنيْتُ عنايةً خاصة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص على أنهما نموذجان لتمثيل عصرهما . واتخذتُ من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبى ربيعة نموذجاً أموياً ، ومن أبى الربيع محمد بن الليث وبسّار بن بُرد مثلاً عباسياً ، ومن عمرو ابن مسعدة وأبى نواس نموذجاً لتصوير الحياة الكتابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون ، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام ، فجاء المجلدان الثانى والثالث بذلك مكملين للمجلد الأول .

وأعتقد اعتقاداً راسخاً أنّه لن يعترض علىّ معترض لعنايتى بالعصر العباسى من وجهتيه التاريخية والأدبية ، فلم يعد "عصر المأمون" عن كونه شطراً يُحْفَلُ به من العصر العباسى ، كما أعتقد أنّه مما لا مندوحة لنا عنه لتفهم العصر العباسى أن نصوّر لك العصر الذى قبله

بما يسعه المقام . وهذا ما عالجناه لك في كتابنا بصورة متواضعة نأمل أن تكون فيها الغنية والكفاية لما نروم تصويره .

ولقد عدلت عما كنتُ ذهبتُ اليه من بيان المصادر والمراجع في نهاية كل صفحة ، رغبة في ألا أشغلَ نظر القارئ بما لا يُجدي عليه ، وحرصا على توحيد مجهوده في استيعاب الموضوع وتفهُّم شتّى مناحيه ، مُلِحِّقًا في الوقت نفسه نهاية المجلد الثالث بيان مصادر الكتاب لمن أراد توسعا فتراجع ثمة .

٣ — وأحمد الله أن أبرز كتابي هذا في عصر النهضة الاستقلالية المصرية التي ازدانت برعاية مولانا المليك ”فؤاد الأول“ حفظه الله . كما ازدانت بناصعة خدم أقطابنا وزعمائنا ، ذوى الصُّحف البيضاء ، والآثار الخالدات الباقيات ، وعلى رأسهم أصحاب الدولة الأجلاء ، فقيدنا المرحوم المبرور ”سعد زغلول باشا“ والقُطبان الخطيران ”عدلى يكن باشا“ و”عبد الخالق ثروت باشا“ . فهؤلاء الثلاثة ، قد وهب الله لهم أصالة الرأي ، ونبالة القصد ، وثروة الذهن ، وغنى العقل ، وجباهم سدادا في سياسة ، وتواضعا مع رياسة ، وحكمة في كياسة ، ونبوغا مع ثقافة ، وحرما في حصافة . وأمتعهم بثقوب النظر ، ورجاحة الفكر ، وأفاض على أشخاصهم لينا ودماثة ، وسماحة ودّاعة ، حتى أجمع القوم على حبهم وإجماعهم على الاعتراف بوافر فضلهم ، والإشادة بعطر ذكركم ، وتسابقوا الى الاستفادة من سديد مواقفهم ، وحكيم صنعهم ، ونزّيه أعمالهم ، استفادتهم من أفاويق عرفانهم ، وفَيْضَ بيانهم ، ومُقْنَعِ برهانهم . وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا في تكوين الأمة من الوجهة السياسية ، نجاحهم في تكوينها من الوجهة القومية . فاللهم رحمة واسعة لزعيمنا الراحل الكريم ، وعوضنا اللهم من خسارتنا الفادحة في فقده ، أحوج ما كنا الى عظيم جُهوده ، وهَب اللهم حياة طويلة لقطيئنا محطّ الآمال ومَعْقِدِ الرجاء .

وأحمده تعالى على أن دخلت البلاد عهدًا جديدًا من حياتها العلمية ، برعاية وزير معارفنا الهام ، مُرْهَفِ العَزَمَات ، مسدّد الوثبات ، صاحب المعالي ”على الشمسي باشا“ ومدير

جامعتنا المصرية العالم الجليل الأستاذ "أحمد لطفى السيد بك" وغيرهما من رجالات العلم والأدب فى هذا الجليل .

٤ - وإننى أتهنئ هذه الفرصة لأشيد بما للرحوم الأستاذ محمد الخضرى بك من فضل عظيم . ومعترفا بما لصديقى الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية من معونة قيمة فى غير موضع من الكتاب ، كما أتهنئها لأشكر لسادتى العلماء والأدباء ، ورجال الصحافة والمجلات حسن استقبالهم لكتابى . كما أحمد لحضرات النقاد الأجلاء جميل تشجيعهم وحكيم أخذهم الأمور بهوادة ورفق . معترفاً بصادق رغبتهم فى الأخذ بناصر العلم والعلماء قادرا أعظم قدر روحهم العالية فيما ديجوه فأجاده ، وكتبوه فارتفعوا بعلم النقد عندنا عما وُصِم به أخيراً من التَّطاحن والرَّاء ، والجَلاد والشَّحناء ، والعمل على الهدم لا على البناء ، كما أشكر لسادتى الأستاذين الجليلين محمد عبد الوهاب النجار وعبد الخالق عمر والكاتبين الأديبين محمد الهياوى ومحمد صادق عنبر ، حُسن صنيعهم فى تهذيب "عصر المأمون" معترفا بعظيم جهد ثانيهما اللغوى أحسن الله جزاءهم .

وإننى أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية وعلى رأسهم حضرات الأساتذة محمد أسعد برادة بك مدير الدار ذى الخلق الوديع والهمة الشَّماء . وأحمد زكى العدوى افندى رئيس القسم الأدبى بالدار وصاحب الموامش الحسان . وعبد الرحيم محمود افندى ومحمد عبد الجواد الأصمعى افندى المصححين به وصاحبى الأثر الطيب الجليل . ورجال هذا القسم كافة فلهم الفضل الكثير، بهمة رئيسهم الفاضل ، فى ضبط الكتاب وتصحيح مسوداته . كما أشكر حضرة الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ الطباعة بالدار المشهور بالدقة والإتقان . ويلوح لى أن الله تعالى أحسن جزاء المأمون على حدِّه وكبير عنايته بدور الحكمة (دور الكتب) العديدة فى عصره ، بأن وفق دار الحكمة فى مصر، فى هذا العصر، الى رعاية عصره ، بهمة وإخلاص ، ودقيق وتحقيق ما

أحمد فريد رفاعى

ملحق الكتاب الأول

باب المنشور

ذكرنا في مقدمة المجلد الأول من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثاني الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، وعُنيّا عناية خاصّة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما . واتخذنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة أنموذجا أمويًا ، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وبشار بن بُرد مثالا عباسيا ، ومن عمرو بن مسعدة وأبي نُوّاس نموذجا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية في عصر الأئمين والمأمون، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان - اللهم إلا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة - فهي في وضوحها ودلالاتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .
وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به .

١ - رسالتنا أبي بكر وعلى

قال أبو حيان على بن محمد التّوحيديّ البغداديّ : سَمَرْنَا لَيْلَةً عند القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروزيّ ببغداد، فتصرف في الحديث كلّ متصرفٍ، وكان غزير الرواية،

(١) انظر كتاب صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١

لطيف الدراية، فجرى حديث السقيفة، فركب كلُّ مركبا، وقال قولاً، وعرض بشيء، ونزع إلى فن. فقال: هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصديق^(١)، رضى الله عنه، إلى على بن أبي طالب كرم الله وجهه، وجواب على عنها، ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة؟ فقال الجماعة: لا والله؛ فقال: هي والله من بنات الحقائق، ونجبات الصنادق، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا لأبي محمد المهلب في وزارته، فكتبها عني بيده. وقال: لا أعرف رسالة أعقل منها ولا أئين؛ وإنما لتدل على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وبعد غور، وشدة غوص. فقال له العباداني: أيها القاضي، فلواتممت المنية علينا بروايتها! أسمعناها، فنحن أوعى لك من المهلب، وأوجب ذمًا ما عليك؛ فاندفع وقال:

حدثنا الخُزاعي بمكة عن أبي ميسرة، قال حدثنا محمد بن أبي فليح عن عيسى بن دؤاب بن المتأح، قال سمعت مولاي أبا عبيدة يقول: لما آستقامت الخلافة لأبي بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار، بعد فتنة كاد الشيطان بها، فدفع الله شرها ويسر

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة صاحب رسول الله وأول خليفة له في الإسلام وخطيب يوم السقيفة.

ويجتمع فيه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب. ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بستين وبضعة أشهر. ونشأ من أكرم قریش خلقاً، وأرجحهم حلماً، وأشدّهم عفة. وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفانها. صحب رسول الله قبل النبوة. وكان أول من آمن به من الرجال وصدقه في كل ما جاء به، ولذلك سمي الصديق، وأفق أمواله في تأييد دعوته، وهاجر معه إلى المدينة مؤثراً صحبته على كل أهله وولده، وشهد معه أكثر الغزوات. وما زال ينفق ماله وقوته في معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى. واختلفت العرب، وارتدت عن الإسلام، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وتقيف بالطائف، فجرد عليهم الجيوش حتى قمعهم، وجمع العرب على الإسلام، وساقهم قوا إلى فتح ممالك كسرى وقيصرو. وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم. وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً، خطيباً مفوهاً، حاضر البديهة، قوى الحجّة، شديد التأثير، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفة له عليهم؛ فأبى الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم، وأبى المهاجرون من قریش إلا أن يكون منهم. واشتد النزاع حتى كادت تقع الفتنة، فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفة. وكانت وفاته سنة ١٣ هـ ومدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال.

(١) بلغ أبا بكر عن عليّ تلْكُوْ وِشْمَاس، وتهْم ونِفَاس، فكره أن يتمادى الحال فتبدو العورة، وتشعل الجحرة، وتنفرق ذاتُ البين؛ فدعاني بمحضته في خلوة، وكان عنده عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وحده، فقال: يا أبا عُبَيْدة، ما أَيْنَ نَاصِيَتِكَ، وأَيْنَ الخَيْرِ بين عَيْنِكَ، وطالما أعزَّ الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يدِكَ، ولقد كنتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوْط، والمحلّ المغبوْط؛ ولقد قال فيك في يوم مشهود: "لكل أمة أمينٌ وأمينُ هذه الأمة أبو عُبَيْدة"، ولم تزل للدين مُلتجأ، ولِلْمُؤْمِنِينَ مُرْتَجَى؛ ولأهلك ركنًا، ولإخوانك رِدْءًا. قد أردتُكَ لأمرٍ خَطَرُهُ مُحْوَفٌ، وإصلاحُهُ من أعظم المعروف، ولئن لم يَنْدِمِ لْجُرْحِهِ بَيْسَارُكَ وَرِفْقُكَ، ولم يُجِبْ حَيْثُ بُرْقِيَتِكَ، وقع اليأس، وأَعْضَلَ اليأس؛ وأحتج بعد ذلك الى ما هو أَمْرٌ مِنْهُ وَأَعْلَقُ، وَأَعْسَرَ مِنْهُ وَأَغْلَقُ؛ والله أسألُ تمامه بك، ونظامه على يدِكَ. فَتَاتَ لَهُ أبا عُبَيْدة وتَلَطَّفَ فيه، وَأَنْصَحَ الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذه العِصَابَةُ غَيْرَ آلٍ جَهْدًا، ولا قَالٍ حَمْدًا، والله كَالثَّكِّ وَنَاصِرُكَ، وهاديكَ ومبصِّرُكَ، ان شاء الله. امضِ الى عليّ واخْفِضْ له جناحَكَ، وأَغْضُضْ عنده صوتَكَ، واعلم أنه سُلَالَةُ أَبِي طَالِبٍ، ومكانُهُ مِمَّنْ فَقَدْنَاهُ بِالْأَمْسِ — صلى الله عليه وسلم — مكانُهُ، وقل له: الْبَحْرُ مَغْرَقَةٌ، وَالْبَرُّ مَفْرَقَةٌ، وَالْجَوْأُ أَكْلَفٌ، وَاللَّيْلُ أَغْدَفٌ، وَالسَّمَاءُ جَلَوَاءُ، وَالْأَرْضُ صَلْعَاءُ، وَالصُّعُودُ مَتَعَدَّرٌ، وَالْمُهْبُوطُ مَتَعَسَّرٌ، وَالْحَقُّ عَطُوفٌ رَعُوفٌ، وَالْبَاطِلُ عَنُوفٌ عَسُوفٌ، وَالْعُجْبُ قَدَاحَةُ الشَّرِّ، وَالضُّغْنُ رَائِدُ الْبَوَارِ، وَالتَّعْرِيزُ شِجَارُ الْفِتْنَةِ، وَالْقِحَّةُ ثَقُوبُ الْعِدَاوَةِ، وَهَذَا الشَّيْطَانُ مَتَكَيٌّ عَلَى شِمَالِهِ، مَتَحِيلٌ بِيَمِينِهِ، نَافِخٌ حِضْنِيهِ لِأَهْلِهِ، يَنْتَظِرُ الشَّتَاتِ وَالْفُرْقَةَ، وَيَدِبُّ بَيْنَ الْأُمَّةِ بِالشَّحْنَاءِ وَالْعِدَاوَةِ، عَنَادًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

- (١) الشَّيْءُ : المعادة والمعادنة . (٢) تهْم الشيء : طلبه وتحسسه . (٣) نَافَسَ فِي الشَّيْءِ : منافسة : رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة . (٤) تَجِبَ : تقطع . (٥) تَأَتَى فُلَانٌ لِّلْأَمْرِ : تهيأ له وأتاه من وجهه .
- (٦) الْجَوْأُ أَكْلَفٌ : أسود تعلوه حمرة . (٧) اللَّيْلُ أَغْدَفٌ : مريح سدوله مظلم . (٨) السَّمَاءُ جَلَوَاءُ : مصحبة . (٩) خَالِيَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا . (١٠) أَيْ مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ يَعْمَلَ عَمَلَهُ مِنَ الشَّرِّ .

أولاً، ولآدمَ ثانياً، ولنبيه — صلى الله عليه وسلم — ودينه ثالثاً، يُوسُوسُ بالفُجُورِ، ويُذلي بالغرور، ويمني أهل الشرور . يُوحى الى أوليائه زُخْرُفُ القول غُرُوراً بالباطل، دأباً له مُنْذُ كان على عهد أدينا آدمَ صلى الله عليه وسلم، وعادةً له مُنْذُ أهانه الله تعالى فى سالف الدهر، لا مَنَجى منه إلا بعضُ الناجذ على الحق، وَغَضُّ الطَّرْفِ عن الباطل، وَوَطْءُ هَامَةِ عدو الله بالأشدَّ فالأشدَّ، والأكْدِ فالأكْدِ، وإسلام النفس لله عز وجل فى ابتغاء رضاه . ولا بد الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السكوت وخيف غيبه ؛ ولقد أرشدك من أفاء ضالتك^(١)، وصافاك من أحيا مودته بعتابك، وأراد لك الخير من أثر البقاء معك ؛ ما هذا الذى تُسَوِّلُ لك نفسك، ويدوى به قلبك، و يلتوى عليه رأيك، ويتخاوصُ دونه طَرْفُكَ، ويسرى فيه ظعنك، ويتراذُّ معه نفسك، وتكثر عنده صعداًؤك، ولا يفيضُ به لسانك . أعجمةٌ بعد إفصاح ! أنليس بعد إفصاح ! أدين غير دين الله ! أخلق غير خلق القرآن ! أهذى غير هدى النبى صلى الله عليه وسلم ! أمثل "تمشى له الضراء وتدب له الخمر" ! أم مثلك ينقبض عليه الفضاء، ويكسف فى عينه القمر ! ما هذه القعقة بالشَّان ! وما هذه الوعوعة باللسان ! إنك والله جدُّ عارفٍ باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا، هجرةً الى الله عز وجل، ونصرةً لدينه فى زمان أنت فيه فى كِنِّ الصَّبا، وخذرِ الغرارة، وعفوانِ الشَّيبة، غافلٌ عما يُشيب ويريب، لا تعى ما يراد ويُسَاد، ولا تحصل ما يُساق ويُقاد، سوى ما أنت جارٍ عليه الى غايته التى اليها عدل بك، وعندها حطَّ رحلك، غير مجهول القدر ولا مجهود الفضل ؛ ونحن فى أثناء ذلك نُعاني أحوالاً تُزِيلُ الرِّواسى ؛ ونُقاسى أهوالاً تُشيب النِّوَاصى ، خائضين غمارها، راكبين تيارها، نتجوع صابها، ونُشرج عيابها، ونُحْكِمُ آساسها، ونبرم

(١) أفاء : أربيع . (٢) يتخاوص : ينض من بصره . (٣) الضراء : الاستخفاء . والخمر :

ما وارك من شجر، وهو مثل يضرب لمن يخدع صاحبه . (٤) الشنان جمع شن وهو القربة الخلق

الصغيرة . والقعقة : الصوت، يريد أنه لا يخوف بمثل هذا . (٥) نشرج عيابها : ننضدها ونضم بعضها

الى بعض . والياب : جمع عيبة ، وهى زبيل من آدم تجعل فيه الثياب .

أَمْرَ اسْمَها، والعيونُ تَحْدِجُ بالحسد، والأنوفُ تَعِطُسُ بالكِبَر، والصدورُ تَسْتَعِرُ بالغَيْظ، والأعناقُ تَتَطاوَلُ بالفخر، والشَّفَارُ تُشْحَذُ بالمكر، والأرضُ تَمِيدُ بالخوف؛ لا ننتظر عند المساء صباحاً، ولا عند الصباح مساءً، ولا ندفع في نَحْرِ أمرٍ إلا بعد أن نَحْصُو الموتَ دونهُ، ولا نبلغ مُرَاداً إلا بعد الإياس من الحياة عنده؛ فإدينَ في جميع ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأُم، والخال والعَم، والمسال والنَّشَب، والسَّيْد^(٢) واللَّبَد، والهِلَّة^(٣) والِبَلَّة، بِطِيبِ أَنْفُسٍ، وَقُرَّةِ أَعْيُنٍ، وَرَحْبِ أَعْطَانٍ، وَثَبَاتِ عِزَائِمٍ، وَصِحَّةِ عَقُولٍ، وَطَلَاقَةِ أَوْجِهٍ، وَذَلَاقَةِ أَلْسُنٍ؛ هذا مع خَفِيَّاتِ أَسْرَارٍ، وَمَكْنُونَاتِ أَخْبَارٍ، كُنْتُ عَنْهَا غَافِلاً، وَلَوْلَا سِنُّكَ لَمْ تَكُنْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا نَاقِلاً، كَيْفَ وَفَوَادُكَ مَشْهُومٌ، وَعُودُكَ مَعْجُومٌ! .

والآن قد بلغ الله بك وأنهض الخَيْرَ لك، وجعل مرادك بين يديك، وعن علم أقول ما تسمع؛ فارتقب زمانك، وقلصْ أَرْدَانَكَ، ودعِ التَّقَعُّسَ والتَّجَسُّسَ لِمَنْ لَا يَظْلَعُ لك إذا خطأ، ولا يترجح عنك إذا عَطَا^(٥)؛ فالأمرُ غَضٌّ، والنفوسُ فيها مَضٌّ، وإنك أَدِيمُ هذه الأُمة فلا تَحْلُمَ بِلُجَاأٍ، وَسَيْفُهَا الْعَضْبُ، فلا تَنْبُ أَعْوِجَاأٍ، وماؤها العَذْبُ فلا تَحُلْ أُجَاأٍ. والله لقد سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر، فقال لي: «يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يُجَاهِشُ عليه^(٧)، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يَتَفَجَّحُ إليه^(٨)، هو لمن يقال هو لك لا لمن يقول هو لي» .

ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصَّهْر، فذكرَ فِتْيَاناً من قريش، فقلت: أين أنت من علي! فقال صلى الله عليه وسلم: إني أكره لفاطمة مِيعَةَ شَبَابِهِ، وَحَدَاثَةَ سَنَةِ. فقلت له: متى كَنَفْتَهُ يَدُكَ، وَرَعْتَهُ عَيْنُكَ، حَقَّتْ بِهِمَا الْبَرَكَةُ، وَأُسْبِغَتْ عَلَيْهِمَا النِّعْمَةُ؛ مع كلامٍ كثيرٍ خاطبته به رغبةً فيكَ، وما كنتُ عرفتُ منك في ذلك لا حَوَاجاً^(٩)

(١) جمع مرس ككفف وهو الخيل . (٢) السيد: الشعر. واللبد: الصوف . (٣) يقال: جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة أى لم يأتنا بشئ، فالهلة من الفرح والاستهلال، والبله من الليل والخير . (٤) مشوم (بالشين المعجمة) : ذكى متوقد . (٥) عطا : مَدَّ اليك عتقه وأقبل نحوك . (٦) حلم الجلد (من باب فرح) : فسدت وتَقَبَّ . (٧) أى يطلبه ويدافع عنه . (٨) يتطلع اليه ويفتخر به . (٩) أى ما كنت عرفت منك شيئاً .

ولا لَوْجاء، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك، وأجد رائحةَ سِواك؛ وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى . ولئن كان عرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، فلم يكن مُعرضاً عن غيرك: وإن كان قال فيك فما سكت عن سِواك؛ وإن تلجَّج في نفسك شيء فهمم، فالحكم مرضى، والصواب مسموع، والحق مطاع . ولقد نُقِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل، وهو عن هذه العصابة راض، وعليها حذر، يسره ما سرها ويسوءه ما ساءها، ويكيده ما كادها، ويُرضيه ما أرضاها، ويُسيِّطه ما أسخطها. أمّا تعلم أنه لم يدع أحداً من أصحابه وأقاربه وسُجرائه، إلا أبانه بفضيلة، وخصه بمزية، وأفرده بحالة! أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سُدىً بدداً، عابِهاً مَباهِلاً، طَلَّاحِ مفتونةً بالباطل، مغبونةً عن الحق، لا رائد ولا ذائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقٍ ولا واقٍ، ولا هادى ولا حادى! كلا! والله ما أشتاقت إلى ربه تعالى ولا سأله المصير إلى رضوانه وقربه، إلا بعد أن ضرب المدي، وأوضح الهدى، وأبان الصوى، وأتمن المسالك والمطارج، وسهل المبارك والمهايج، وإلا بعد أن شَدَخَ يافوخَ الشرك بإذن الله، وشَرَمَ وجهَ النفاق لوجه الله سبحانه، وجَدَعَ أنفَ الفتنة في ذات الله، وتفل في عين الشيطان بعون الله، وصَدَعَ بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل .

وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة ودار جامعة، إن استقالوني لك وأشاروا عندي بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك . وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحتهم، والفتاح لمغالقتهم، والمرشد لضلالتهم، والراصد لغوايتهم . فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، والتأصر على الحق . ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن .

(١) سجنائه: أصدقائه . (٢) عابهاً مَباهِلاً (بالباء الموحدة في الكلمتين): مهملة . (٣) الصوى: الأعلام . (٤) المهايج: الطرق . (٥) اليافوخ (يهرز ولا يهرز) جزء الرأس الذي يترك في الطفل . (٦) في صبح الأعشى: «فهذه» .

وبعد، فالناس ثَمَامَةٌ فارتُق بهم وأُحْنُ عليهم ولِنْ لهم، ولا تُشَقِّ نفسَكَ بنا خاصة فيهم،
وأترك ناجمَ الحقد حصيدا، وطائرَ الشر واقعا، وبابَ الفتنة مُغلَقا، فلا قال ولا قيل ولا لوم
ولا تبِيع، والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة : فلما تأهبتُ للنهوض، قال عمر رضى الله عنه : كُنْ لَدَى الباب
هَنِيئَةً فلى معك دورٌ من القول ؛ فوقفْتُ وما أدري ما كان بعدى ، إلا أنه لحقنى بوجه
يَنْدَى تهللاً، وقال لى : قل لعلّى : الرقادُ محَلَمَةٌ، والهوى مَقَحَمَةٌ، ومامنّا إلا له مقامٌ
معلوم، وحق مشاعٌ أو مقسوم، ونباٌ ظاهر أو مكتوم ؛ وإن أكيس الكيس من منح
الشارد تألُفاً، وقاربَ البعيد تَلُفُفاً، ووَزَنَ كلَّ شىء بميزانه، ولم يخلط خبره بعيانه،
ولم يجعل قُتره مكانَ شِبره، ديناً كان أو دُنْياً، ضاللاً كان أو هُدى . ولا خير فى علم
مستعملٍ فى جهل، ولا خير فى معرفة مشوبة بُنْكر . ولسنا بكَلْدَةٍ رَفَعُ البعير بين العِجَانِ
والذنب . وكلَّ صَالٍ فبناره، وكلَّ سِيلٍ فإلى قَراره . وما كان سكوت هذه العصابة إلى
هذه الغاية لى وشى^(٢)، ولا كلامُها اليوم لفرقٍ أورفى . وقد جدع الله بمحمد
صلى الله عليه وسلم أنف كل ذى كبر، وقَصَمَ ظهر كل جبار، وقطع لسان كل
كذوب، فماذا بَعْدَ الحق إلا الضلال . ما هذه الخِزْوَانَةُ التى فى فَرَّاشِ رأسك ! ما هذا
الشَّجَا المعترض فى مَدَارِجِ أنفاسك ! ما هذه القَدَاة التى تَغَشَّتْ ناظرك ! وما هذه
الوَحْرَةُ التى أَكَلَتْ شَرَّاسِيفَكَ ! وما هذا الذى لَبَسَتْ بسببه جلد النمر، وأَشْمَلَتْ عليه
بالشَّخْء والنُّكْر ! ولسنا فى كِسْرِيَّة كِسْرَى، ولا فى قِصْرِيَّة قِصْر ! تأمل لإخوان فارس
وأبناء الأصفر ! قد جعلهم الله جَزْراً لسيوفنا، ودريئةً لرماحنا، ومرمىً لبطعانا، وتبعاً
لسلطانتنا؛ بل نحن فى نور نبوة، وضياء رسالة، وثمرة حكمة، وأثره رحمة، وعُنوان نعمة،

(١) الرفغ : أصل الفخذ من باطن . والعجان : الاست . يريد أن منزلهم بين الأحياء والعشائر ليست

حقيرة مهينة . (٢) الشى بالكسر إتباع لى . (٣) الخِزْوَانَةُ : الكبر . . (٤) الوحرة

(بالتحريك) : والحقد العداوة والشراسيف : جمع شرسوف، والشرسوف مقط الضلع .

وظلَّ عِصْمَةً ، بين أمة مهديَّة بالحق والصدق ، مأمونة على الرِّقِّ والفتق ، لها من الله قلبٌ
أبيّ ، وساعدٌ قوى ، ويدٌ ناصرة ، وعينٌ باصرة . أنظنُّ ظناً ياعلى أن أبا بكر وثب على هذا
الأمر مُقتاتاً على الأمة خادعاً لها أو متسلطاً عليها ! أترأه حلَّ عقودها وأحال عقولها ! أترأه
جعل نهارها ليلاً ، ووزنها كيلاً ، ويقظتها رقاداً ، وصلاحيها فساداً ! لا والله ! سلا عنها فولهت
له ، وتطامن لها فلصقت به ، ومال عنها فالت إليه ، وأشمأز دونها فأشتمت عليه ، حَبْوةً
حبَّاه الله بها ، وعاقبةً بلغه الله إليها ، ونعمةً سرَّ به جمالها ، ويدٌ أوجب الله عليه شكرها ،
وأمةً نظر الله به إليها . والله أعلم بخلقه ، وأرأف بعباده ، يختار ما كان لهم الخيرة . وإنك
بحيث لا يُجهل موضعك من بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ولا يُجحد حقك فيما آتاك الله ،
ولكن لك من يراحمك بمنكيب أضخم من منكبك ، وقُرب أمس من قرابتك ، وسنُّ أعلى من
سنِّك ، وشيئة أروع من شيبتيك ، وسيادة لها أصلٌ في الجاهلية وفرعٌ في الإسلام ،
ومواقف ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة ، ولا تُذكر منها في مقدمة ولا ساقية ، ولا تُضرب فيها
بذراع ولا إصبع ، ولا تُخرج منها بيازٍ ولا هُج . ولم يزل أبو بكر حبة قلب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعلاقة نفسه ، وعيئة سرِّه ، ومقرع رأيه ومشورته ، وراحة كفه ،
ومرمى طرفه . وذلك كله بحضرة الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار ، شهرته مغنية
عن الدليل عليه . ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً ، ولكنه
أقرب منك قرابةً ، والقرباةُ لحم ودم ، والقربةُ نفس وروح . وهذا فرق عَرَفَه المؤمنون ،
ولذلك صاروا إليه أجمعون . ومهما شككت في ذلك ، فلا تشك أن يدَّ الله مع الجماعة ،
ورضوانه لأهل الطاعة . فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع لك غداً وألفظ من فيك
ما يعلق بلهاتك ، وأنفث سخيمة صدرك عن ثقاتك ، فإن يك في الأمد طولٌ ، وفي الأجل
قُسحة ، فستا كله مريثاً أو غير مريء ، وستشربه هنيئاً أو غير هنيء ، حين لا راد لقولك إلا
من كان آيساً منك ، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك ، يمض إهابك ، ويعرك أديمك ،

(١) البازل : الجمل القوى الذي دخل في سنته التاسعة . والهبع : التفصيل الذي ينتج في الصيف فيكون ضعيفاً .

(٢) يمض إهابك : يحرق جلده . (٣) يعرك : يبدك .

وَيُزِيرِي عَلَى هَذِيكَ . هنالك تقَرَع السن من ندم، وتَجَرَع الماء ممزوجاً بدم، وحينئذ تَأْسَى على ما مضى من عمرك ودارج قوتك ، فتَوَدُّ أن لو سُقِيَتْ بالكأس التي أبيتها ، ورُدِدَتْ إلى حالتك التي آسَغَوِيَتْهَا . ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالغه، وغيبٌ هو شاهده، وعاقبةٌ هو المرجو لسرائها وضرائها، وهو الولي الحميد، الغفور الودود .

قال أبو عبيدة : فتمشيت مترملاً أنوء كَأَمَّا أَخْطُو على رأسي ، فرَقاً من الفُرقة ، وشَفَقاً على الأئمة ، حتى وصلتُ إلى عليّ رضي الله عنه في خَلَاء ، فابْتِئْتُهُ بَنِي كُلِّهِ ، وَبَرِئْتُ إِلَيْهِ مِنْهُ ، وَرَفَقْتُ بِهِ . فلما سمعها ووعاها ، وَسَرَتْ في مفاصله حُمَيَّاهَا ، قال : ”حَلَّتْ مُعْلُوْطَةٌ ، وَوَلَّتْ مُخْرُوْطَةٌ“ ، وَأَنشَأَ يَقُولُ :^(١)

إحدى لِيَالِيكَ فِيهِبِي هَيْبِي * لَا تَتَعَمَّى اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسِ^(٢)

نعم يا أبا عبيدة ، أَكُلُّ هذا في أَنفُسِ القوم ، وَيُحَسِّنُونَ بِهِ ، وَيَضْطَغِنُونَ عَلَى ! قال أبو عبيدة : فقلت : لا جواب لك عندي ، إِنَّمَا أَنَا قَاضٍ حَقَّ الدِّينِ ، وَرَاتِقٌ فَتَقَ الْمُسْلِمِينَ ، وَسَادُّ ثُلُمَةِ الْأُئِمَّةِ ، يَعْلَمُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ جُلْجُلَانِ قَلْبِي ، وَقَرَارَةِ نَفْسِي .^(٣)

(١) هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب . وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزوج ابنته . وزابع الخلفاء الراشدين . وإمام الخطباء من المسلمين .

ولد رحمه الله بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة . وهو أول من آمن من الصبيان . وكان شجاعاً لا يشق له غبار . أيداً جليداً . شهد الغزوات كلها مع النبي إلا غزوة تبوك . وأبلى في نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يبيله أحد . ولما قتل عثمان بايعه الناس بالجهاز وامتنع عن بيعته معاوية وأهل الشام شيعة بنى أمية غضباً منهم لمقتل عثمان وقلة عنايته بالبحث عن القتلة على حسب اعتقادهم ، فحدث من جراء ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين وافتراقهم إلى طائفتين فحاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعل أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج علياً غيلةً بمسجد الكوفة . وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله . وأكثرهم علماً وزهداً وشدة في الحق : وهو إمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

(٢) معلوطة : مقتحمة من غير روية . (٣) مخروطة : مسرعة . (٤) هيبى : سبرى أى سير كان .

(٥) أى ينظرون على الضغن وهو الحقد . (٦) جلجلان قلبي ، أى حبه .

فقال عليّ رضي الله عنه : والله ما كان قُعودي في كِنِّ هذا البيت قصداً للخلاف ، ولا إنكاراً للعروف ، ولا زِرايةً على مسلم ، بل لما قد وقَدَّني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقده . وذلك أني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد عليّ حزناً ، وذكرني شجناً . وإن الشوق إلى الخالق به كافٍ عن الطمع في غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرق ، رجاء ثواب مُعدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومشيئته ، وأمره ونهيه . على أني ما علمت أن التظاهر عليّ واقع ، ولا عن الحق الذي سيق إلى دافع . وإذا قد أُفِعم الوادي بي ، وحشد النادی من أجلي ، فلا مرجباً بما ساء أحداً من المسلمين وسرّني . وفي النفس كلامٌ لولا سابق عقد وسالف عهد ، لَشَفِيتُ غيظي بِنَحْصَرِي وبِنَحْصَرِي ، وخُضْتُ لِحُتِّهِ بِأَنْحَصِي وَمَقَرِّي ، ولكنني ملجئٌ إلى أن ألقى الله ربي ، وعنده أحسب ما نزل بي . وإني غادٍ إلى جماعتكم ، فبايعُ صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءني وسرّكم ، لِيَقْضِيَ الله أمراً كان مفعولاً .

قال أبو عبيدة : فعدتُ إلى أبي بكر رضي الله عنه فقَصَصْتُ عليه القول على غِره^(١) ، ولم أحتزل شيئاً من حُلوه ومُره ، وبَكَرتُ غُدوةً إلى المسجد ، فلما كان صباحُ يومئذ وإذا عليّ مخترق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما فبايعه ، وقال خيراً ، ووصف جميلاً ، وجلس زميناً^(٢) ، وآستأذن للقيام فضى وتبعه عمر مُكرماً له ، مستأثراً لما عنده .

فقال عليّ رضي الله عنه : ما قعدتُ عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيته فِرَقاً ، ولا أقول ما أقول تَعَلَّةً . وإني لأعرف منتهى طرفي ، ومحطَ قدمي ، ومتزَع قوسي ، وموقع سهمي ؛ ولكن قد أزمْتُ على فائِسِي ثِقَّةٍ برّبي في الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضي الله عنه : كَفَيْكَ غَرْبَكَ ، وآستَوْقِف سِرْبَكَ ، ودَعِ العِصْيَ بِلِحَائِهَا ، والدَّلَاءَ على رِشَائِهَا . فإنّا من خَلْفِهَا وورائِهَا ، إن قَدَحْنَا أَوْ رَيْنَا ، وإن مَتَحْنَا أَوْ رَوَيْنَا ،

(١) على غِره ، أي كما هو وكما قص عليّ . (٢) زميناً : حلياً وقورا . (٣) يقال :

أزم الفرس على فأس الجمام إذا عضها وقبض عليها . وفأس الجمام : الحديدة المعترضة منه في الخنك . يريد أنه ألجم نفسه ثقة الخ .

وإن قَرَحْنَا أَدْمِينَا . ولقد سمعتُ أمائِكَ التي لَغَزَتْ بها عن صدرِ أكلِ بالجوَى ، ولو شئتُ لقلتُ على مقالِكَ ما إن سمعته نِدِمْتَ على ما قلتَ . وزعمتَ أنك قعدتَ في كَنِّ بيتِكَ لما وَقَدَكَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فقيدِه ، فهو وَقَدَكَ ولم يَقْدُ غيرَكَ ! بل مصابه أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حقِّ مُصابه ألاَّ تَصْدَع شَمْلُ الجماعة بفرقة لا عصام لها ، ولا يؤمن كيدُ الشيطان في بقائها . هذه العرب حولنا ، والله لو تداعت علينا في صبح نهار لم نلتق في مسائه . وزعمتَ أن الشوق إلى اللّاق به كافٍ عن الطمع في غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصره دينه ، ومؤازرة أوليائه ومعاوتهم . وزعمتَ أنك عَكَفْتَ على عهد الله تجمع ما تفرّق منه ؛ فمن العكوف على عهد الله النصيحة لعباد الله ، والرأفة على خلق الله ، وبذل ما يصلحون به ، ويرشدون عليه . وزعمتَ أنك لم تعلم أن الظاهر واقعٌ عليك ، وأى حقٍّ لَطَّ ^(١) دونك ! . قد سمعتَ وعلمتَ ما قال الأنصار بالأمس سرّاً وجهاً ، وتقلبتَ عليه بطناً وظهراً ، فهل ذكرتَ أو أشارتَ بك ، أو وجدتَ رضاهم عنك ؟ هل قال أحدُهم بلسانه إنك تصلح لهذا الأمر ؟ أو أوماً بعينه أو هم في نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلُّوا من أجلك ، وعادوا كفاراً زهداً فيك ، وباعوا الله تحاملاً عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءني عَقِيل ابن زياد الخزرجي في نَفَرٍ من أصحابه ومعهم شُرَحْبِيل بن يعقوب الخزرجي وقالوا : إن علينا ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من غيره ، ويُنكر على من يعقد الخلاف ؛ فأنكرتُ عليهم ، ورددتُ القول في نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحى ويتوكف ^(٢) مناجاة الملك ؛ فقلت : ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أكان الأمر معقوداً بأنشؤة ^(٣) ، أو مشدوداً بأطراف لِيطة ^(٤) ؟ كلا ! والله لا أعجاء بحمد الله إلا أفصحتُ ، ولا شوكاء إلا وقد تفتّحتُ . ومن أعجب شأنك قولك : « ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفيتُ غيظي » وهل ترك الدين لأهله أن يَشْفُوا غيظهم بيد أو بلسان ؟ تلك جاهلية وقد استأصل الله شأقتها وأقتلع جُرماتها ، وهور ليلها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروحَ والريحان ، والهدى والبرهان .

(١) لط : بجد . (٢) يتوكف : ينتظر . (٣) الأنشؤة : عقدة يسهل انحلالها ،

إذا أخذ بأحد طرفيها افتتحت . (٤) الليطة قشرة القصة التي تليط بها أى تلتق .

وزعمت أنك مُلجَمٌ؛ ولعمري إن من آتق الله، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه وأطبق فاه، وجعل سعيه لما وراه .

فقال على رضى الله عنه : مهلاً يا أبا حفص، والله مابذلتُ مابذلتُ وأنا أريد نكته، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغى حَولاً عنه . وإن أخسر الناس صفقةً عند الله من أثر النفاق، وأحتضن الشقاق، وفي الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل في جميع الحوادث . ارجع يا أبا حفص الى مجلسك نافع القلب، مبرود الغايل، فسيح اللبان، فصيح اللسان، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشد الأزر، ويحطّ الوزر، ويضع الإصر، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فانصرف على وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ على بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .



٢ - ومن كلام عائشة^(٢) رضى الله عنها فى الانتصار لآيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلت الى أزفلة^(٣) من الناس، فلما حضروا، أسدلت أستارها، وعلت وسادها، ثم قالت : أبى، وما أبىسه ! أبى والله لا تعطوه الأيدي، ذاك طودٌ مُنيف، وفرعٌ مديد، هيهات، كذبت الظنون ! أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ وثيتم ؛ سبق الجواد إذا استولى على الأمد . ففى

(١) اللبان : الصدر . (٢) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى قحافة، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع، وكان مولدها سنة أربع من النبوة، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداقها أربعمئة درهم، وكانت أحب نساءه إليه، وكنتها أم عبد الله، كنىته بابن أختها أسماء، ولها خطب ووقائع . وكانت من أكبر العالمات فى وقعة الجمل المشهورة فى الاسلام صحبة الزبير وطلحة . وكانت أفصح أهل زمانها وأبينهم منطقاً وأحفظهم للحديث وأفقههم . توفيت سنة سبع وخمسين ودفنت ليلاً بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩) .

(٣) الأزفلة : الجماعة . (٤) لا تعطوه : لا تناله .

قريش ناشئاً، وكهفها كهلاً، يَفُكَّ عَانِيَهَا، وَيَرِيشُ مُمْلِقَهَا، وَيَرَأُبُ شَعْبَهَا، وَيَلْمُ شَعْبَهَا، حتى حَلَيْتَهُ قُلُوبُهَا، ثم استَشَرَى في دين الله فما بَرِحَتْ شَكِيمَتُهُ في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائها مسجداً يُحْيِي فيه ما أمات المَبْطُلُونَ . وكان رحمه الله غَيْرَ الدَّمْعَةِ، وَفَيْدَ الْجَوَانِحِ، شَيْخِي النَّشِيجِ، فَاثْقَضَتْ إِلَيْهِ نِسْوَانُ مَكَّةَ وَوُلْدَانُهَا يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ (اللهُ يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) فَاكْبُرَتْ ذَلِكَ رِجَالَاتٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَخَنَتْ قَيْسِيَّهَا، وَفَوَقَتْ سَهَامَهَا، وَانْتَبَلَوْهُ غَرَضًا، فَمَا قَلُّوا لَهُ صَفَاةٌ، وَلَا قَصَفُوا لَهُ قَنَاقَةً، وَمَرَّ عَلَى سَيْسَانَهُ (١)، حتى إذا ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَّانِهِ، وَرَسَتْ أَوْتَادُهُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْوَاجًا، وَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أَرْسَالًا وَأَشْنَاتًا، اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مَا عِنْدَهُ، فَلَمَّا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ رِوَاقَهُ، وَمَدَّ طُنْبُهُ، وَنَصَبَ حَبَائِلَهُ، وَأَجْلَبَ بِحَيْلِهِ وَرَجْلَهُ، وَأَضْطَرَبَ حَبْلُ الْإِسْلَامِ، وَمَرَجَّ عَهْدُهُ وَمَاجَ أَهْلُهُ، وَبَغَى الْغَوَائِلَ، وَظَنَّتْ رِجَالٌ أَنْ قَدْ أَكْثَبَتْ أَطْعَامُهُمْ نُهْرَهَا، وَلَاتَ حِينَ الَّذِي يَرْجُونَ، وَأَتَى وَالصَّدِيقُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ! فَفَاقَ حَاسِرًا مُشْتَمًا، بِجَمْعِ حَاشِيَتِيهِ وَرَفَعِ قُطْرِيهِ، فَرَدَّ رَسْنَ الْإِسْلَامِ عَلَى غَرْبِهِ، وَلَمْ شَعْنَهُ يَطْبَسْهُ، وَأَتَنَاشَ الدِّينَ فَنَعَشَهُ، فَلَمَّا أَرَاكَ الْحَقُّ عَلَى أَهْلِهِ، وَقَزَرَ الرُّعُوسَ عَلَى كَوَاهِلِهَا، وَحَقَّنَ الدَّمَاءَ فِي أَهْلِهَا، أَتَنَتْهُ مَنِيَّتُهُ، فَسَدَّ ثُلُمَتُهُ بِظُلْمِهِ فِي الرَّحْمَةِ، وَشَقِيقُهُ فِي السَّيْرِ وَالْمَعْدِلَةِ، ذَاكَ ابْنَ الْخَطَّابِ، اللَّهُ دَرَّ أَمَّ حَمَلَتْ بِهِ وَدَرَّتْ عَلَيْهِ ! لَقَدْ أَوْحَدْتُ بِهِ، فَفَنَخَ الْكُفْرَةَ وَدَيَّحَهَا (٢)، وَشَرَّدَ الشَّرْكَ شَدَّرَ مَادَرٍ، وَبَعَجَ الْأَرْضَ وَبَجَعَهَا، فَقَاءَتْ أَكْلَهَا، وَلَفْظَتْ خَبَأَهَا (٣)، تَرَامَهُ وَيَصْدِفُ عَنْهَا، وَتَصَدَّى لَهُ وَيَأْبَاهَا . ثُمَّ وَزَعَ فِيهَا فَيْئَهَا وَوَدَّعَهَا كَمَا صَحَّيَهَا . فَأَرُونِي مَاذَا تَرْتَوُونَ، وَأَيُّ يَوْمِي أَيْ تَتَّقِمُونَ : أَيُّ يَوْمٍ إِقَامَتُهُ إِذْ عَدَلْتُ فِيكُمْ، أَمْ يَوْمَ ظَنَعْتُهُ إِذْ نَظَرْتُ لَكُمْ ؟ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِهَا فَقَالَتْ : أَنُشَدُّكُمْ اللَّهَ هَلْ أَنْكَرْتُمْ مِمَّا قُلْتُ شَيْئًا ؟ قَالُوا : أَلَّهِمَّ لَا .

(١) على سَيْسَانَهُ، أَي على دَأْبِهِ وَعَادَتِهِ .

(٢) فَنَخَ : غَلَبَ وَقَهَرَ .

(٣) خَبَأَهَا :



٣ - كلمة أم الخير بنت الحريش^(١)

ومن كلام أم الخير بنت الحريش البارقية يوم صفين في الانتصار لعلّ رضى الله عنه :
 يروى أن معاوية كتب الى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أم الخير بنت الحريش البارقية
 برحّلها ، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشر شرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب
 اليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : أنا أنا فغير زائغة عن طاعة ولا معتلة بكذب ! ولقد كنت
 أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدرى . فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها :
 يا أم الخير ، إن أمير المؤمنين كتب الى أنه يجازيني بقولك في بالخير خيرا وبالشر شرا ؛
 فما عندك ؟ قالت : يا هذا لا يطعمك رُك بى أن أسرك بباطل ، ولا تؤيسك معرفتى بك
 أن أقول فيك غير الحق . فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية ، فأنزلها مع حريمه ثلاثا ،
 ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين
 ورحمة الله وبركاته ؛ قال لها : وعليك السلام يا أم الخير ، وبالرغم منك دعوتنى بهذا الاسم ؛
 قالت : مه يا أمير المؤمنين ! فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه ولكل أجل كتاب ؛
 قال : صدقت ، فكيف حالك يا خالة ؟ وكيف كنت في مسيرك ؟ قالت : لم أزل في عافية
 وسلامة حتى صرتُ اليك فأنا في مجلس أنيق ، عند ملك رفيق ؛ قال معاوية : بحسن نيتي
 ظفرتُ بكم ؛ قالت : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله من دحض المقال وما تُريدى عاقبته ،
 قال : ليس هذا أردنا ، أخبرينى كيف كان كلامك يوم قُتل عمار بن ياسر ؟ قالت :
 لم أكن والله زورته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نَفَثَ لسانى حين الصدمة ،
 فان شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت ؛ قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت الى
 أصحابه فقال : أيكم يحفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين
 كحفظى سورة الحمد ؛ قال : هايت ؛ قال : نعم كأتى بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم عليها

(١) منقولة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ (٢) زور الكلام في نفسه : هياه .

برّد زَيْدِيّ كَثِيفَ الحَاشِيَةِ، وَهِيَ عَلَى جِملِ أَرْمَكْ^(١) وَقَدْ أَحِيطَ حَوْلَهَا، وَبِيَدِهَا سَوْطٌ مَنْتَشِرُ الضَّفَرِ، وَهِيَ كَالْفَحْلِ يَهْدِرُ فِي شِقْشِقَتِهِ تَقُولُ :

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)) ! إِنْ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ الْحَقَّ، وَأَبَانَ الدَّلِيلَ، وَنَوَّرَ السَّبِيلَ، وَرَفَعَ الْعِلْمَ، فَلَمْ يَدْعَمْ فِي عَمِيَاءٍ مُبْهَمَةٍ ! وَلَا سُودَاءٍ مُدْهِمَةٍ، فَالْيَ أَيْنَ تَرِيدُونَ رَحِمَكُمُ اللَّهَ ! أَفِرَارًا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَمْ فِرَارًا مِنَ الزَّحْفِ، أَمْ رَغْبَةً عَنْ الْإِسْلَامِ، أَمْ ارْتِدَادًا عَنْ الْحَقِّ ! أَمَّا سَمِعْتُمُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ((وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)).

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول :

قَدْ عِيلَ الصَّبْرُ، وَضَعُفَ الْيَقِينُ، وَانْتَشَرَ الرَّعْبُ، وَبِيَدِكَ يَا رَبُّ أَرْمَةُ الْقُلُوبِ، فَاجْمَعْ الْكَلِمَةَ عَلَى التَّقْوَى، وَأَلْفَ الْقُلُوبَ عَلَى الْهُدَى . هَلُمُّوا رَحِمَكُمُ اللَّهَ إِلَى الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَالْوَصِيِّ الْوَفِيِّ، وَالصَّدِّيقِ الْأَكْبَرِ ! إِنَّهَا إِحْنٌ بِدْرِيَّةٍ، وَأَحْقَادُ جَاهِلِيَّةٍ، وَضَغائنُ أُحْدِيَّةٍ، وَثَبَّ بِهَا مَعَاوِيَةُ حِينَ الْغَفْلَةِ لِيُذْرِكَ بِهَا ثَارَاتُ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ .

ثم قالت : قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . صَبِرًا مَعَشَرَ الْمُجَاهِدِينَ وَالْأَنْصَارِ، قَاتِلُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَثَبَاتٍ مِنْ دِينِكُمْ، وَكَأَنِّي بِكُمْ غَدًا قَدْ لَقِيتُمْ أَهْلَ الشَّامِ كَحُمُرٍ مُسْتَنْفِرَةٍ، فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ، لَا تَدْرِي أَيْنَ يُسَلِّكُ بِهَا مِنْ بَحَااجِ الْأَرْضِ، بَاعُوا الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا، وَاشْتَرَوْا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى، وَبَاعُوا الْبَصِيرَةَ بِالْعَمَى، وَعَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ، حِينَ تَحُلُّ بِهِمُ النَّدَامَةُ، فَيَطْلُبُونَ الْإِقَالََةَ ! إِنَّهُ وَاللَّهِ مَنْ ضَلَّ عَنْ الْحَقِّ وَقَعَ فِي الْبَاطِلِ، وَمَنْ لَمْ يَسْكُنِ الْجَنَّةَ نَزَلَ فِي النَّارِ . أَيُّهَا النَّاسُ، إِنْ الْأَيْكَاسَ آسَتْ قَصُرُوا عَمَرَ الدُّنْيَا فَرَفَضُوهَا وَاسْتَبْطَئُوا مَدَّةَ الْآخِرَةِ فَسَعَوْا لَهَا . وَاللَّهِ أَيُّهَا النَّاسُ لَوْلَا أَنْ تَبْطُلَ الْحَقُوقُ، وَتُعْطَلَ الْخُدُودُ، وَيُظْهَرَ الظَّالِمُونَ، وَتَقْوَى كَلِمَةُ الشَّيْطَانِ، لَمَا اخْتَرْنَا وَرُودَ الْمَنَآيَا عَلَى خَفْضِ الْعَيْشِ وَطَيْبِهِ، فَالْيَ أَيْنَ تَرِيدُونَ — رَحِمَكُمُ اللَّهَ — عَنْ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) جمل أرمك : لونه لون الرماد .

وزوج ابنته وأبى آبنه؟ خُلِقَ من طِينَتِهِ، وَتَفَرَّعَ عن نَبْتِهِ، وَخَصَّه بِسِرِّهِ، وجعله باب مدينته، وأَعْلَمَ بحبه المسلمين، وأَبَانَ ببغضه المنافقين. فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته، ويمضي على سنن استقامته، لا يعترج لراحة اللذات. وهو مُفَلِّقُ الهام، ومكسّر الأصنام، إذ صلّى والناس مُشْرِكُونَ، وأطاع والناس مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قَتَلَ مُبَارِزِي بَدْر، وأفنى أَهْلَ أُحُد، وفَرَّقَ جَمَعَ هَوازِن، فإلها وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقا، وِرْدَةً وشقاقا. وقد آجَتهَدْتُ في القول، وبالغْتُ في النصيحة، وبالله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أُمَ الخير ما أردت بهذا إلا قتلى! والله لو قتلْتُك ما حَرَجْتُ في ذلك.

قالت: والله ما يسوءني يابن هند أن يُجِرِّيَ الله ذلك على يَدَيَّ من يُسعدني الله بشقائقه؛ قال: هيئات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عَسَيْتُ أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال: أيها يا أم الخير، هذا والله أصلك الذي تبين عليه؛ قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا، ما أردتُ بعثمان نقصا، ولقد كان سَبَاقا إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة. قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة، اغْتِيلَ من مَأْمَنِهِ، وَأُتِيَ من حيث لم يَحْذَرُ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: يا هذا لا تَدَعْنِي كَرَجِيعِ الصَّبِيغِ يُعَرِّكُ في المِرْكَنِ^(١)؛ قال: حَقًّا لتقولين ذلك وقد عَزَمْتُ عليك؛ قالت: وما عَسَيْتُ أن أقول في الزبير ابن عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان سَبَاقا إلى كل مَكْرَمَةٍ في الإسلام. وإني

(١) المِرْكَن: الإِجَانة وهي إِياء تفصل فيه الثياب. ويعرك: يحك. والرجيع المزدرد. أي لا تجعلني كالثوب المصبوغ يحك في الإِياء مرة بعد أخرى لإِنجِاج صبغه منه: تشبه محاورَة معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج ما في قسمها بما يفصل من الثياب المصبوغة لاستخراج صبغها منها.

أسألك بحق الله يا معاوية، فإن قرشنا تحدث أنك من أحبيها، أن تَسَعِنِي بفضل حلمك، وأن تُعَفِّنِي من هذه المسائل، وأمض لما شئت من غيرها، قال: نعم وكرامة، قد أعفيتك، وردّها مكرمة إلى بلدّها .



٣ - كلمة الزرقاء بنت عدى^(١)

ومن كلام الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية ما قالته يوم صفين أيضا :

يروى أنها ذُكرت عند معاوية يوما، فقال جلسائه : أيكم يحفظ كلامها؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين ؛ قال : فأشيروا علىّ في أمرها ؛ فأشار بعضهم بقتلها، فقال : بشئ الرأي ! أيحسنُ بمثل أن يقتل امرأة ! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثقة من ذوى محرمها وعدة من فرسان قومها، وأن يمهد لها وطاءً لينا، ويستترها بستر خفيف، ويوسع لها في النفقة . فلما دخلت على معاوية، قال : مرحباً بك وأهلاً ! قدِمَت خيرَ مقدّم قديمه وافد، كيف حالك ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة ! قال : كيف كنت في مسيرك ؟ قالت : ربيبة بيت أو طفلاً ممهداً ؛ قال : بذلك أمرناهم . أتدريين فيم بعثت إليك ؟ قالت : وأنى لي بعلم ما لم أعلم ؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل ؛ قال : ألسيت الراكبة الجمل الأحمر، والواقفة بين الصفيين بصفيين تحضين الناس على القتال، وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبتر الذنب، ولن يعود ما ذهب ؛ والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمرُ يحدث بعده الأمر ؛ قال

(١) هي الزرقاء بنت عدى بن غالب بن قيس الهمدانية، كانت من أهل الكوفة، وكانت ذات شجاعة فائقة، وبلاغة نادرة، شهدت مع قومها واقعة صفين، ولها عدة خطب تحرض الناس فيها على القتال ضد معاوية . وبعد أن تم لمعاوية ما أراد كتب إلى عامله بالكوفة باستدعائها، فأحضرت إليه، وبعد محاورته بينه وبينها سألها حاجتها، فقالت : « يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً » ثم انصرفت، وبعد ذلك أرسل لها معاوية جائزة . (٢) خفيف : غليظ .

لها معاوية: أتخفظين كلامك يومئذ؟ قالت: لا والله، ولقد أنسيتُ؛ قال: لكني أحفظه،
 لله أبوك حين تقولين:

أيها الناس، اِرْعَوْوا وَاَرْجِعُوا! إنكم أصبحتم في فتنَةٍ غَشَّتْكم جلايبُ الظلم، وجارت
 بكم عن قصد المحجة. فيا لها فتنَةٍ عمياء، صمَاءٌ بَكَاءٌ، لا تسمع لنا عقها، ولا تَسْلُسُ لقائدها.
 إن المصباح لا يُضئ في الشمس، والكواكب لا تُتير مع القمر، ولا يقطع الحديد
 إلا الحديد. ألا مَنْ أسترشد أرشدناه، وَمَنْ سألنا أخبرناه.

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها! فصبراً يامعاشر المهاجرين والأنصار
 على الغُصَص؛ فكان قد أندمل شَعْبُ الشَّتات، والتأمت كلمة التقوى، ودَمَغَ الحقُّ باطله!
 فلا يجهلن أحدٌ فيقول: كيف العدلُ وأنتي! ليقضى الله أمراً كان مفعولاً. ألا وإن خضاب
 النساءِ الحنَّاء، وخضاب الرجال الدماء! ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خيرٌ في عواقب
 الأمور. أيها إلى الحرب قُدُماً غيرَنا كصين ولا مُتَشاكسين.

ثم قال لها: يازرقاء، لقد شَرِكْتَ علياً في كل دم سَفَكه؛ قالت: أحسن الله بشارتك،
 وأدام سلامتك؛ فمثلك من بشر بخير وسرّ جليسه؛ قال: ويسرك ذلك؟ قالت: نعم سِررتُ
 بالخبر فأنتي لى بتصديق الفعل! فضحك معاوية وقال: لو فَاؤُكم له بعد موته أعجبُ عندي
 من حُكم له في حياته! أذكرى حاجتك؛ قالت: يا أمير المؤمنين، آليتُ على نفسي ألا
 أسأل أميراً أعنتُ عليه أبداً، ومثلك من أعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلبه؛ قال:
 صدقت، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكسا.

٤ — عكرشة بنت الأطرش

ومن كلام عكرشة بنت الأطرش ما قالته يوم صَفَّين أيضاً:
 يُروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عكاز لها، فسألت عليه بالخلافة ثم جلست؛
 فقال لها معاوية: الآن صرْتُ عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إذ لا على حَى! قال:

ألسيت المتقلدة حائل السيف بصفين وأنت واقفة بين الصفين تقولين : أيها الناس ، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهدتكم . إن الجنة لا يحزن من قطنهما ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم ، مستظهرين على حقهم ؛ إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون ما الحكمة . دعاهم الى الباطل فأجابوه ، واستدعاهم الى الدنيا فلبّوه . فالله الله عباد الله في دين الله ! وإياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عرى الإسلام ، ويطفى نور الحق . هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . يامعشر المهاجرين والأنصار ، أمضوا على بصيرتكم ، وأصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحجر الناهقة تقصع قصع البعير^(١) .

ثم قال : فكأنى أراك على عصاك هذه قد انكفأ عليك العسكران يقولون هذه عكرشة بنت الأطرش ، فإن كدت لتفليين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، يقول الله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلْكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ الآية ، وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته ؛ قال : صدقت ، فاذكري حاجتك ؛ قالت : كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا ، وقد فقدنا ذلك ، فما يُجبر لنا كسير ، ولا يُنعش لنا فقير ؛ فإن كان عن رأيك فمثلك من آنتبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك من استعان بالحنونة ، ولا استعمل الظلمة ؛ قال معاوية : يا هذه ، إنه ينبؤنا من أمور رعيتنا ثغور نتفتق ، وبحور نتدقق ؛ قالت : سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقاً نجعل فيه ضرراً لغيرنا وهو علام الغيوب ؛ قال معاوية : هيات يا أهل العراق ، نبهكم على فلن تطاقوا . ثم أمر برد صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

(١) يقال : قصع البعير بجزته يقصع قصعا : مضعها .

٦ - رسالة لعبد الحميد الكاتب^(١)

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لبعض من ولّاه^(٢) :

أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين - عند ما اعتزم عليه من توجيهك الى عدوّ الله الخلف الجافي الأعرابي ، المتسكع في حيرة الجهالة ، وظلم الفتنه ، ومهاوى الهلكة ، ورعاعه الذين عاثوا في أرض الله فساداً ، وآتھكوا حرمة الإسلام استخفافاً ، وبدلوا نعمة الله كفراً ، وآستحلوا دماء أهل سائمه جهلاً - أحب أن يعهد اليك في لطائف أمورك ، وعوام شؤنك ، ودخائل أحوالك ، ومضطرف تنفلك عهداً يملك فيه أدبه ، ويشرع لك به

(١) هذه الرسالة منقولة عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٩٥ (٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامري ولّاه الشامي داراً ، شيخ الكتاب الأوائل ، وأول من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بني عامر ، وتخرج في البلاغة والكتابة على ختّه أبي العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك ، كاتب دولته وأحد بلغاء العالم والنفلة من اليونانية . وكان عبد الحميد في أول أمره معلم صبيان ينقل في البلدان حتى فطن له مروان بن محمد أيام توليته أرمينية وانتدابه لتسكين فتنها ، فكتب له مدّة ولايته ، حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة سجد مروان لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان لم لا تسجد ؟ فقال : ولم أسجد ؟ أعلّ أن كنت معنا فطرت عنا ! قال : إذا تطير معي قال : الآن طاب لي السجود وسجد ، فاتخذ مروان كاتب دولته ، فصدر عنه من الرسائل ما صار نموذجاً يحاكيه من بعده من البلغاء .

ولما دهم مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه في كل هذه الشدة ، فقال له مروان : قد احتجت أن تصير مع عدوّي وتظهر الغدر بي ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم الى كتابتك ، تحوجهم الى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفني في حياتي وإلا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي ، فقال له : إن الذي أشرت به على أفقع الأمرين لك وأقبحهما بي ، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وأنشد :

أسرّ وفاء ثم أظهر غدره * فنلى بعذريوسع الناس ظاهره

وبقي معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ ففروا خبأ عند صديقه ابن المقفع ففاجأه الطلب وهو في بيته ، فقال الذين دخلوا عليهم : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، خوفاً على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يبرحوا الى ابن المقفع فقال : ترفقوا بنا فإن كلاً منا له علامات ، فوكوا بنا بعضكم ويمضي بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا وأخذ عبد الحميد الى السفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ . انظر ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي .

عِظَتَهُ ، وإن كنت بحمد الله من دين الله وخلافته بحيث أصطنعك الله لولاية العهد مختصاً لك بذلك دون لُحُنتك وبني أبيك . ولولا ما أمر الله تعالى به دالاً عليه ، وتقدمت فيه الحكماء أميرين به : من تقديم العِظَةِ ، والتذكير لأهل المعرفة ، وإن كانوا أولى سابقة في الفضل وخِصِّصاء في العلم ، لأعتمد أمير المؤمنين على أصطناع الله إياك وتفضيله لك بما رآك أهله في محلّك من أمير المؤمنين ، وسبقك الى رغائب أخلاقه ، وأتراءك محمود شيمه ، وأستبلائك على مشايه تديره . ولو كان المؤدّبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ، أولقنوه إلهاماً من تلقائهم ولم نصّبهم تعلّموا شيئاً من غيرهم ، لتحلّناهم علم الغيب ، ووضعناهم بمنزلة قصصهم عنهم خالفهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته في فردانيته وسابق لاهوتيته ، احتجاجاً منهم لتعقيب في حكمه ، وثبّت في سلطانه وتنفيذ إرادته ، على سابق مشيئته . ولكن العالم الموفق للخير ، المخصوص بالفضل ، المحبّب بمزية العلم وصفوته ، أدركه معاناً عليه بلطف بحثه ، وإذلال كنفه ، وصحّة فهمه ، وهجر سأمته .

وقد تقدّم أمير المؤمنين إليك ، آخذاً بالحجة عليك ، مؤدياً حق الله الواجب عليه في إرشادك وقضاء حقك ، وما ينظر به الوالد المعنى الشفيق لولده . وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبيح يهش له طمع ، وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد ، وأن يحصنك من كل آفة استولت على أمرئ في دين أو خلق ، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعود ويؤريه من آثار نعمة الله عليك ، سامية بك الى ذروة الشرف ، متبجّجة بك بسطة الكرم ، لائحة بك في أزهر معالي الأدب ، موروثة لك أنفس ذخائر العزّ ، والله يستخلف عليك أمير المؤمنين ويسأل حياطتك ، وأن يعصمك من زيف الهوى ، ويحضرك داعي التوفيق ، معاناً على الإرشاد فيه ، فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو .

اعلم أن الحكمة مسالك تفضي مضائق أوائلها بمن أمها سالكا ، وركب أخطارها قاصدا ، الى سعة عاقبتها ، وأمن سرحها ، وشرف عزّها . وأنها لا تعار بسخف الخفة ، ولا تنشأ بتفريط الغفلة ، ولا يتعدى فيها بامرئ حده . وربما أظهرت بسطة النّيّ

مستور العيب . وقد تلقتك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تعب البحث في طلبها ، ولا متناول لمناول ذروتها ؛ بل تأملت منها أكرم نبعاتها ، واستخلصت منها أعتق جواهرها ؛ ثم سموت الى لباب مصاصها ^(١) ، وأحرزت منفس ذخاؤها ، فاقتعد ما أحرزت ، ونافس فيما أصبت .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَحْتَوَاكَ عَلَى ذَلِكَ وَسَبَقَكَ إِلَيْهِ بِإِخْلَاصٍ تَقْوَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ مُؤَثِّرًا لَهَا ، وَإِضْمَارٍ طَاعَتِهِ مَنْطَوِيًّا عَلَيْهَا ، وَإِعْظَامٍ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ شَاكِرًا لَهُ ، مَرْتَبطًا فِيهِ لِلزَّيْدِ بِحَسَنِ الْحَيَاةِ لَهُ وَالذَّبِّ عَنْهُ مِنْ أَنْ تَدْخُلَكَ مِنْهُ سَامَةٌ مَلَالٌ ، أَوْ غَفْلَةٌ ضَيَاعٌ ، أَوْ سِنَةٌ تَهْوَنُ ، أَوْ جَهَالَةٌ مَعْرِفَةٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَحَقُّ مَا يُدْئِي بِهِ وَنُظْرُفِهِ ، مَعْتَمِدًا عَلَيْهِ بِالْقُوَّةِ وَالْآلَةِ وَالْعُدَّةِ وَالْأَنْفَرَادِ بِهِ مِنَ الْأَصْحَابِ وَالْحَامَةِ . فْتَمَسَّكَ بِهِ لِاجْتِنَاءِ إِلَيْهِ ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهِ مُؤَثِّرًا لَهُ ، وَالتَّجَيَّى إِلَى كَنَفِهِ مَتَحِيِّرًا إِلَيْهِ : فَإِنَّهُ أَلْبَغُ مَا طُلِبَ بِهِ رِضَا اللَّهِ وَأَنْجَحُهُ مَسْأَلَةٌ ، وَأَجْزَلُهُ ثَوَابًا ، وَأَعُوذُهُ نَعْمًا ، وَأَعْمَهُ صَلَاحًا ؛ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِحَقِّكَ ، وَفَهَّمَكَ سَدَادَهُ ، وَأَخَذَ بِقَلْبِكَ إِلَى مَحْمُودِهِ . ثُمَّ أَجْعَلِ اللَّهَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ يُنْعِمُ عَلَيْكَ بِلُوغِهِ ، وَيُظْهِرُ مِنْكَ السَّلَامَةَ فِي إِشْرَاقِهِ ، مِنْ نَفْسِكَ نَصِيبًا تَجْعَلُهُ لَهُ شُكْرًا عَلَى إِبْلَاغِهِ إِيَّاكَ يَوْمَكَ ذَلِكَ بِصِحَّةِ جَوَارِحِ وَعَافِيَةِ بَدَنٍ ، وَسُبُوحِ نِعَمٍ ، وَظُهُورِ كَرَامَةٍ ، وَأَنْ تَقْرَأَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ — تَبَارَكَ وَتَعَالَى — جَزْءًا تُرَدِّدُ رَأْيَكَ فِي آيِهِ ، وَتَرْتَلُّ لَفْظَكَ بِقِرَاءَتِهِ ^(٢) ، وَتُحْضِرُهُ عَقْلَكَ نَاطِرًا فِي مُحْكَمِهِ ، وَتُنْفِثُهُ مَفْكَرًا فِي مُتَشَابِهِهِ : فَإِنَّ فِي الْقِرَاءَانِ شِفَاءَ الصَّدُورِ مِنْ أَمْرَاضِهَا ، وَجِلَاءَ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَصَعَاصِعِهِ ^(٣) ، وَضِيَاءَ مَعَالِمِ النُّورِ ، تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . ثُمَّ تَعَاهَدُ نَفْسَكَ بِمُجَاهَدَةِ هَوَاكَ ، فَإِنَّهُ مِغْلَاقُ الْحَسَنَاتِ ، وَمِفْتَاحُ السَّيِّئَاتِ ، وَخَصَمُ الْعَقْلِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَهْوَاكَ لَكَ عَدُوٌّ يُحَاوِلُ هَلَكَتَكَ ، وَيَعْتَرِضُ غَفْلَتَكَ ، لِأَنَّهَا خُدْعُ إِبْلِيسَ ، وَخَوَاتِلُ مَكْرِهِ ، وَمَصَايِدُ مَكِيدَتِهِ ؛ فَاحْذَرِهَا بِجَانِبِهَا ، وَتَوَقَّهَا مُحْتَرِسًا مِنْهَا ؛ وَاسْتَعِذْ

(١) المصاص : خالص كل شيء .

(٢) كَذَا فِي صَبِيحِ الْأَعَشَى وَفِي مِفْتَاحِ الْأَفْكَارِ (ص ٢٨٢) وَغَيْرِهِ « وَتَرْتَلُّ » . (٣) الصعاصع :

جَمْعُ صَعَصَعٍ وَهُوَ طَائِرٌ أَشْبَهَ بِصَيْدِ الْجَنَادِبِ ، شَبَّهِهُ وَسُوسَةُ الشَّيْطَانِ بِهِ . وَفِي بَعْضِ الْمُؤَلَّفَاتِ « وَسَفَاسِقُهُ » .

بأنه عز وجل من شرها، وجاهدها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا ونية فيه، وحزم نافذ لا مشيئة^(٢) لرأيك بعد إصداره، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه؛ ومضاء صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة لا خلجة شك فيها: فإن ذلك ظهري صادق لك على ردعها عنك، وقعيها دون ما نتطلع إليه منك؛ فهي واقية لك من سخطه ربك، داعية إليك رضا العامة عنك، سارة عليك عيب من دونك؛ فازدبن بها متحليا، وأصيب بأخلاقك مواضعها الحميدة منها، وتوق عليها الآفة التي تقطعك عن بلوغها، وتقصر بك دون شأوها: فإن المؤونة إنما أشتدت مستصعبة، وقدحت باهظة أهل الطلب لأخلاق أهل الكرم المتحليين سمو القدر، بجهالة مواضع ذميم الأخلاق ومجودها، حتى فترط أهل التقصير في بعض أمورهم، فدخلت عليهم الآفات من جهات أمئوها، فئسبوا إلى التفريط، ورضوا بذلك المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، عَمَّهين عن درج الشرف، ساقطين دون منزلة أهل الجبا. فحاول بلوغ غاياتها محمزا لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصنا أعمالك من العجب: فإنه رأس الهوى، وأول الغواية، ومقاد الهلكة؛ حارسا أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي الألقاب وذميم تنابزها، من حيث أتت الغفلة، وانتشر الضياع، ودخل الوهن. فتوق غلوب الآفات على عقلك، فإن شواهد الحق ستظهر بأماراتها تصديق آرائك عند ذوى الجبا حال الرأي وفحص النظر. فاجتلب لنفسك محمود الذكر وباقي لسان الصديق بالحذر لما تقدم إليك فيه أمير المؤمنين، متحرزا من دخول الآفات عليك من حيث أمنك وقلة ثقتك بمحكمها: من ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتدارى جندك بالإحسان، وتصون سرك بالكتان، وتداوى حقدك بالإنصاف، وتذل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أودك، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المردي. وأنانك فوقها الملال وفوت العمل، ومضاء تك فدرعها روية النظر وأكنفها بأناة الحلم. وخلوتك فاحرسها من الغفلة وأعماد الراحة، وصمتك

(١) لا ونية: لا تواني. (٢) أى لا استثناء.

فَانْفِ عَنْهُ عِيَّ اللَّفْظِ ، وَخَفْ سَوْءَ الْقَالَةِ ؛ وَأَسْتَمَاعَكَ فَأَرْعِهِ حُسْنَ التَّفْهَمِ ، وَقُوَّةَ بَاشِهَادِ
 الْفِكْرِ ؛ وَعَطَاءَكَ فَأَمْهَدْ لَهُ بَيُوتَاتِ الشَّرَفِ وَذَوِي الْحَسَبِ ، وَتَحَرُّزُ فِيهِ مِنَ السَّرَفِ وَأَسْطَلَالَةِ
 الْبَذْخِ وَأَمْتِنَانِ الصَّنِيعَةِ ؛ وَحَيَاءَكَ فَاْمَنْعِهِ مِنَ التَّجَمُّلِ وَبِلَادَةِ الْحَصَرِ ؛ وَحِلْمَكَ فَزَعِهِ عَنِ
 التَّهَانِ وَأُخْضِرْهُ قُوَّةَ الشَّكِيمَةِ ؛ وَعَقُوبَتَكَ فَقَصِّرْ بِهَا عَنِ الْإِفْرَاطِ ، وَتَعَمَّدْ بِهَا أَهْلَ
 الْأَسْتِحْقَاقِ ؛ وَعَفْوَكَ فَلَا تُدْخِلْهُ تَعْطِيلَ الْحَقُوقِ ، وَخُذْ بِهِ وَاجِبَ الْمَقْتَرَضِ ، وَأَقِمْ بِهِ أَوْدَ
 الدِّينِ ؛ وَأَسْتِثْنَاكَ فَاْمَنْعْ مِنْهُ الْبَدَاءَ وَسَوْءَ الْمُنَاقَاةِ ^(١) . وَتَعَهَّدْكَ أُمُورَكَ فَخُذْهُ أَوْقَاتًا ، وَقُدِّرْهُ
 سَاعَاتٍ لَا تَسْتَفْرِغْ قُوَّتَكَ ، وَلَا تَسْتَدْعِي سَأْمَتَكَ ؛ وَعَزِّمَاتِكَ فَاْمَنْعْ عَنْهَا عَجَلَةَ الرَّأْيِ ،
 وَبِلَاحَاجَةِ الْإِقْدَامِ ؛ وَفِرْحَاتِكَ فَاشْكُهَا عَنِ الْبَطَرِ ، وَقَيِّدْهَا عَنِ الزَّهْوِ ؛ وَرُوعَاتِكَ فَخُطْهَا مِنْ
 دَهْشِ الرَّأْيِ وَأَسْتِسْلَامِ الْخُضُوعِ ؛ وَحَدَرَاتِكَ فَاْمَنْعْهَا مِنَ الْجَبَنِ ، وَأَعْمِدْ بِهَا الْحَزْمَ ؛
 وَرَجَاءَكَ فَقَيِّدْهُ بِخَوْفِ الْفَائِثِ ، وَأَمْنَعِهِ مِنْ أَمْنِ الطَّلَبِ .

هذه جوامعٌ خِلالَ ، دَخَّالُ النَقِصِ مِنْهَا وَاصِلٌ إِلَى الْعَقْلِ بِلَطَائِفِ أَثْبَتِهِ ، وَتَصَارِيفِ
 حَوِيلِهِ ^(٢) ، فَأَحْكِمْهَا عَارِقًا بِهَا ، وَتَقَدَّمْ فِي الْحِفْظِ لَهَا ، مَعْتَرِمًا عَلَى الْأَخْذِ بِمَرَاشِدِهَا وَالْإِتِّهَاءِ مِنْهَا
 إِلَى حَيْثُ بَلَغَتْ بِكَ عِظَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَدَبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ لَتَكُنْ بِطَانَتُكَ وَجَلَسَاؤُكَ فِي خُلُوتِكَ وَدَخْلَاؤُكَ فِي سِرِّكَ ، أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْوَرَعِ مِنْ
 خَاصَّةِ أَهْلِ بَيْتِكَ ، وَعَامَّةِ قَوَادِكِ مَنْ قَدْ حَنَّتْهُ السَّنُّ بِتَصَارِيفِ الْأُمُورِ ، وَخَبَطَتْهُ فِضَالُهَا
 بَيْنَ فَرَاسِنِ الْبُزْلِ مِنْهَا ، وَقَلْبَتِهِ الْأُمُورِ فِي فَنُونِهَا ، وَرَكِبَ أَطْوَارَهَا ، عَارِفًا بِحَاسَنِ الْأُمُورِ ^(٣)
 وَمَوَاضِعِ الرَّأْيِ وَعَيْنِ الْمَشُورَةِ ؛ مَأْمُونِ النَّصِيحَةِ ، مَنْطُوبِ الضَّمِيرِ عَلَى الطَّاعَةِ . ثُمَّ أَخْضِرْهُمْ
 مِنْ نَفْسِكَ وَقَارًا يَسْتَدْعِي لَكَ مِنْهُمْ الْهَيْبَةَ ، وَأَسْتِثْنَاكَ يَعْطِفُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ الْمَوَدَّةَ ، وَإِنْصَاتَا
 يَقُلُّ إِفَاضَتَهُمْ لَهُ عِنْدَكَ بِمَا تَكْرَهُ أَنْ يُنْشَرِعَنَّكَ مِنْ سَخَافَةِ الرَّأْيِ وَضَيَاعِ الْحَزْمِ . وَلَا يَغْلِبَنَّ
 عَلَيْكَ هَوَاكَ فَيَصْرِفَكَ عَنِ الرَّأْيِ وَيَقْتَطِعَكَ دُونَ الْفِكْرِ . وَتَعَلَّمْ أَنَّكَ وَإِنْ خَلُوتَ بِسِرِّ

(١) يقال : نَاقَتْ فُلَانٌ فُلَانًا بِالْكَلَامِ : آذَاهُ . (٢) الْحَوِيلُ : الْحَذَقُ وَالْقُدْرَةُ عَلَى التَّصَرُّفِ .

(٣) الْفَرَاسِنُ : وَاحِدُهَا فَرْسٌ وَهُوَ طَرَفٌ خَفِيفٌ الْبَعِيرِ .

فَأَلْقَيْتَ دُونَهُ سُتُورَكَ، وَأَغْلَقْتَ عَلَيْهِ أَبْوَابَكَ، فَذَلِكَ لَا مُحَالَةَ مَكْشُوفٌ لِلْعَامَّةِ، ظَاهِرٌ عَنْكَ وَإِنْ أَسْتَرْتَ بِرَبِّمَا وَلَعَلَّ وَمَا أَرَى إِذَاعَةَ ذَلِكَ وَأَعْلَمُ، بِمَا يَرُونَ مِنْ حَالَاتٍ مِنْ يَنْقَطِعُ بِهِ فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ . فَتَقَدَّمُ فِي إِحْكَامِ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ، وَأَسَدُّ خَلْلَهُ عَنْكَ : فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَسْرَعُ إِلَيْهِ سِوَا الْقَالَةِ وَلَقَطُ الْعَامَّةِ بَخِيرٌ أَوْ شَرٌّ مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِكَ وَمَكَانِكَ الَّذِي أَصْبَحَتْ بِهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَالْأَمَلِ الْمَرْجُوِّ الْمُنْتَظَرِ فِيكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ يَغْمِزَ فِيكَ أَحَدٌ مِنْ حَامَتِكَ وَيَطَانَةَ خَدَمَتِكَ بِضَعْفَةٍ يَجِدُ بِهَا مَسَاغَا إِلَى النُّطْقِ عِنْدَكَ بِمَا لَا يَعْتَرِكَ عَلَيْهِ، وَلَا تَخْلُو مِنْ لَأْمَتِهِ، وَلَا تَأْمَنُ سِوَا الْأَحْدُوثَةِ فِيهِ، وَلَا يَرْخُصُ سِوَا الْقَالَةِ بِهِ إِنْ نَجِمَ ظَاهِرًا أَوْ عَلَنَ بَادِيًا، وَلَنْ يَجْتَزُوا عَلَى تِلْكَ عِنْدَكَ إِلَّا أَنْ يَرَوْا مِنْكَ إِصْغَاءً إِلَيْهَا وَقَبُولًا لَهَا وَتَرْخِيصًا لَهُمْ فِي الْإِفَاضَةِ بِهَا . ثُمَّ إِيَّاكَ وَأَنْ يُفَاضَ عِنْدَكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْفِكَاهَاتِ وَالْحِكَايَاتِ وَالْمِزَاحِ وَالْمُضَاحِكِ الَّتِي يَسْتَحِفُّ بِهَا أَهْلُ الْبَطَالَةِ، وَيَتَسَرَّعُ نَحْوَهَا ذُورُ الْجَهَالَةِ؛ وَيَجِدُ فِيهَا أَهْلُ الْحَسَدِ مَقَالًا لَعِيبٍ يُذِيعُونَهُ، وَطَعْنًا فِي حَقِّ يَجْحَدُونَهُ؛ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الرَّأْيِ، وَدَرَنَ الْعِرْضِ، وَهَدَمَ الشَّرْفِ، وَتَأْثِيلَ الْغَفْلَةِ، وَقُوَّةَ طِبَاجِ السُّوءِ الْكَامِنَةِ فِي بَنَى آدَمَ كَكُؤُنِ النَّارِ فِي الْحَجَرِ الصَّلْدِ، فَإِذَا قُدِحَ لَاحَ شَرُّهُ، وَتَلَهَّبَ وَمِضُّهُ، وَوَقَدَ تَضَرُّمُهُ . وَلَيْسَتْ فِي أَحَدٍ أَقْوَى سَطْوَةً، وَأَظْهَرَ تَوْقُدًا، وَأَعْلَى كُؤُنًا، وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ بِالْعِيبِ وَتَطَرُّقِ الشَّيْئِ مِنْهَا لَمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ سِنِّكَ : مِنْ أَغْفَالِ الرِّجَالِ وَذَوَى الْعُنْفُوانِ فِي الْحَدَاثَةِ الَّذِينَ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِمْ سِمَاتُ الْأُمُورِ، نَاطِقًا عَلَيْهِمْ لِأَيْحُهَا، ظَاهِرًا فِيهِمْ وَشُمُّهَا، وَلَمْ تَمَحَّضْهُمْ شَهَامَتَهَا، مَظْهِرَةً لِلْعَامَّةِ فَضْلَهُمْ، مُذِيعَةً حَسَنَ الذِّكْرِ عَنْهُمْ؛ وَلَمْ يَبْلُغْ بِهِمُ الصَّبِّ فِي الْحَنَكَةِ مُسْتَمْعَا يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ نَوَاطِقَ أَلْسُنِ أَهْلِ الْبَغْيِ، وَمَوَادَّ أَبْصَارِ أَهْلِ الْحَسَدِ .

ثُمَّ تَعَهَّدُ مِنْ نَفْسِكَ لَطِيفَ عَيْبٍ لَزِمَ لكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ وَالْقُدْرَةِ : مِنْ إِبْطَارِ الدَّرْعِ وَنُخُوةِ الشَّرْفِ وَالتَّيِّهِ وَعَيْبِ الصِّلَفِ ؛ فَإِنَّهَا تُسْرِعُ بِهِمْ إِلَى فُسَادٍ وَتَهْجِينٍ ^(٢)

(١) الْأَغْفَالُ جَمْعُ غَفْلٍ وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُورَ . (٢) يُقَالُ : أَبْطَرَهُ ذَرْعُهُ إِذَا حَمَلَهُ فَوْقَ

مَا يُطَبِّقُ . وَفِي صَبْحِ الْأَيْعَشَى (ج ١٠ ص ٢٠١) «أَبْطَالُ الدَّرْعِ» . وَقَدْ تَوَقَّفَ فِيهَا مُصَحِّحُهُ .

عقولهم في مواطنَ حجة، وأنحاءَ مضطربة، منها قلةٌ آفتدارهم على ضبط أنفسهم في مواكبتهم ومسائرتهم العامة: فمن مُقلِّل شخصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله، تَزْدِيهِهِ الخِفة، ويُطِرُهُ إجلابُ الرجال حوله؛ ومن مُقْبِل في موكبِهِ على مداعبة مُسَايِرِهِ بالمفاكهة له والتضاحك إليه، والإيجاف في السير مَرَحاً، وتحريك الجوارح متسرِّعاً يخال أن ذلك أسرع له وأحثُّ لمطيته. فلتَحَسِّنْ في ذلك هيئتَكَ، ولتُجَمِّلْ فيه دَعَتَكَ؛ وليَقِلَّ على مُسَايِرِكَ إقبالُك إلا وأتَ مطرِقَ النظر، غير مُلتفتٍ إلى محدث، ولا مقبل عليه بوجهك في موكبِكَ لمحدثه، ولا مُوجِف في السير مُقلِّل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض؛ فإن حسنَ مسَايرةِ الوالى وأتداعه في تلك الحالة دليلٌ على كثير من غيوب أمره ومستتر أحواله.

وأعلم أن أقواماً يتسرعون إليك بالسعاية، ويأتونك على وجه النصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعونك بالإغراء والشبهة، ويوطئونك عُشوة الخيرة: ليجعلوك لهم ذريعة إلى استئكال العامة بموضعهم منك في القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظنَّة؛ فلا يَصِلُ^(١) إلى مشافهتك ساجٍ بشبهة، ولا معروفٌ بتهمة، ولا منسوبٌ إلى يدعة فيعرضك لإيتاغ دينك، ويحملك على رعيَّتكَ^(٢) بما لاحقية له عندك، ويُلْحِمَكَ أعراض قوم لا علم لك بدخلهم، إلا بما أقدم به عليهم ساعياً وأظهر لك منهم مُتَصِحِّحاً. وليكن صاحبُ شُرطتك المتولَّى لإنهاء ذلك هو المنصوب لأولئك، والمستمع لأقوالهم، والفاحص عن نصائحهم؛ ثم لينه ذلك إليك على ما يُرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه، وتقفه على رأيك من غير أن يظهر ذلك للعامة: فإن كان صواباً نالتك خيرته، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو فرطاً سعى بها كاذب، فنالت الساعي منها أو المظلوم عقوبةً، أو بدر من واليك إليه عقوبةً ونكال، لم يعصب ذلك الخطأ بك ولم تُنسب إلى تفریط، وخلوت من موضع الذم فيه مُحَضِّراً إليه ذهنك وصواب رأيك.

(١) أوتق دينه بالإثم: أفسده. (٢) أُلْجِه عرض فلان: أمكنه منه يشتمه. (٣) دخل

الرجل (بالفتح والكسر): نيته ومذهبه. (٤) لم يعصب أى لم يلحق.

وتقدّم الى من تُؤلّى ذلك الأمر وتعمّد عليه فيه ألا يُقدّم على شيء ناظرًا فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارقًا له ، ولا يُعاقب أحدًا مُنكلاً به ، ولا يُخلّى سبيل أحد صاخًا عنه لإفحام^(١) براءته وصحّة طريقته ، حتى يرفع إليك أمره ، ويُنبئ إليك قضيته على جهة الصدق ، ومنحى الحق ، ويقين الخبر ؛ فإن رأيت عليه سبيلا لمحبس أو مجازًا لعقوبة ، أمرته بتؤلّى ذلك من غير إدخاله عليك ، ولا مشافهة لك منه ؛ فكان المتؤلّى لذلك ولم يجر على يديك مكروه رأى ولا غلظة عقوبة . وإن وجدت إلى العفو عنه سبيلا ، أو كان مما قُرف به خليًا ، كنت أنت المتؤلّى للإنعام عليه بتخلية سبيله ، والصفح عنه بإطلاق أسرته ؛ فتولّيت أجز ذلك واستحققت دُخره ، وأنطقت لسانه بشكرك ، وطوّقت قومه حمدك ، وأوجبت عليهم حقك ؛ فقرنت بين خصلتين ، وأحرزت حظوتين : ثواب الله في الآخرة ، ومحمود الذكر في الدنيا .

ثم إياك أن يصل إليك أحد من جندك وجلسائك وخاصتك ويطائيك بمسألة يكشفها لك ، أو حاجة يبدّك بطلبها ، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذى أهدفته لذلك ونصبت له ، فيعرضها عليك مُنبها لها على جهة الصدق عنها ، وتكون على معرفة من قدرها : فإن أردت إسعافها بها ونجاح ما سأل منها ، أذنت له فى طلبها ، باسطًا له كفك ، مُقبلاً عليه بوجهك ؛ مع ظهور سرورك بما سالك ، وفُسحة رأى وبسطة ذرع ، وطيب نفس . وإن كرهت قضاء حاجته ، وأحببت رده عن طلبته ؛ وثقل عليك إجابته إليها وإسعافه بها ، أمرت كاتبك فصفحه عنها ، ومنعه من مواجهتك بها ؛ نخفت عليك فى ذلك المؤونة ، وحسن لك الذكر ، ولم يُنشر عنك تجهّم الرد ، ويتلك سوء القالة فى المنع ، ومحل على كاتبك فى ذلك لائمة أنت منها برىء الساحة .

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرسل ، فلا يصلح إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك ، وعلم ما قدّم له عليك ، وجهة ما هو مكلمك

(١) أى لوضوح براءته ، فى حديث على : فأصحّر لعدوك ، أى كن من أمره على أمر واضح .

(٢) صفحه عنها ، رده عنها .

به ، وقدر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك ، فأصدرت رأيك في حوائجه ، وأجلت فكرك في أمره ، وأخترت معترماً على إرادتك في جوابه ، وأنفذت مصدور رويتك في مرجوع مسألته قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول حاله إليك ؛ فرفعت عنك مؤونة البديهة ، وأرخت عن نفسك خناق الروية ، وأقدمت على رد جوابه بعد النظر وإجالة الفكر فيه . فإن دخل إليك أحد منهم فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتيك وطوى عنه حاجته قبلك ، دفعته عنك دفعا جميلا ، ومنعته جوابك منعا وديعا ؛ ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له والغلظة عليه ، ومنعه من الوصول إليك ؛ فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب ، صارفاً عنك مؤوتتها ، ومسهلاً عليك مستصعبها .

احذر تضییع رأيك وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب واعتوارهما إياك ، فلا يزدھینك إفراط عجب تستخفك روائعه ، ويستهوئك منظره ، ولا يبدرك منك ذلك خطأ وزق خفة لمكروه إن حل بك ، أو حادث إن طرأ عليك . وليكن لك من نفسك ظهري ملجأً تحوز به من آفات الردى ، وتستعصده في مهم نازل ، وتتعقب به أمورك في التدبير . فإن أحتجت إلى مادة من عقلك ، وروية من فكرك ، أو أنيساط من منطقك ؛ كان أنحيازك إلى ظهريك مُزدادا مما أحبت الأمتیاح منه والامتیار ؛ وإن استندرت من أمورك بوادٍ جهل أو مضى زلل أو معاندة حق أو خطئ تدبير ، كان ما أحتجت إليه من رأيك عذرا لك عند نفسك ، وظهرياً قوياً على رد ما كرهت ، وتخفيفاً لمؤونة الباغين عليك في القالة وانتشار الذكر ؛ وحصناً من غلوب الآفات عليك ، وأستعلاها على أخلاقك .

وأمنع أهل بطانتك وخاصة خديمك من استلحام أعراض الناس عندك بالغبية ، والتقريب اليك بالسعاية ، والإغراء من بعض ببعض ؛ أو النيمة اليك بشيء من أحوالهم

(١) في صبح الأعشى : « وتستعصده في مهم نازل » . وفي رسائل البلاء : « وتستعصده في مهم نازل » .

وأخترنا من العبارتين ما يناسب المقام . (٢) كذا في صبح الأعشى والمفتاح ورسائل البلاء ، ولعله وإن ابتدأت ... الخ .

المستتر عنك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة : فإن ذلك أبلغ بك سموًا الى منالة الشرف ، وأعوذُ لك على محمود الذكر ، وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير .

وأملك نفسك عن الانبساط في الضحك والآنفهاق ، وعن القطوب بإظهار الغضب وتخله : فإن ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل ، وخروج من اتحال اسم الفضل . وليكن ضحكك تبسمًا أو كشرًا في أحايين ذلك وأوقاته ، وعند كل رائع مستخف مطرب ، وقطوبك إطرًا في مواضع ذلك وأحواله ، بلا عجلة الى السطوة ، ولا إسراع الى الطيرة ، دون أن تكنفها روية الحلم ، وتملك عليها بادرة الجهل .

إذا كنت في مجلس مملك ، وحيث حضور العامة مجلسك ، فإياك والرمي بنظرك الى خاص من قوادك ، أو ذى أثره عندك من حشمك . وليكن نظرك مقسومًا في الجميع ، وإراعتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور فهم مجتمع ، وقلة تضجر بالحدث . ثم لا يبرح وجهك الى بعض حرسك وقوادك متوجها بنظر ركين ، وتفقد محض . وإن وجه اليك أحد منهم نظره محققًا ، أو رماك ببصره ملتحًا ، فاخفض عنه إطرًا بهيلا بانداع وسكون . وإياك والتسرع في الإطراق ، والحقة في تصريف النظر ، والإلحاح على من قصد اليك في مخاطبته إياك رامقًا بنظره .

واعلم أن تصفحك وجوه جلسائك وتفقدك مجالس قوادك من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، وذكاء الفطنة ، وانتباه السنة . فتفقد ذلك عارًا بمن حضرك وغاب عنك ، عالمًا بمواضعهم من مجلسك ، ثم أعدبهم عن ذلك سائلًا لهم عن أشغالهم التي منعتهم من حضور مجلسك ، وعاقبتهم بالتخلف عنك .

إن كان أحد من حشمك وأعوانك تثق منه بغيب ضمير ، وتعرف منه لين طاعة ، وتشرف منه بنلى صحة رأى ، وتأمنه على مشورتك ، فإياك والإقبال عليه في كل حادث يرد عليك ، والتوجه نحوه بنظر عند طوارق ذلك ، وأن تزيه أو أحدا من أهل مجلسك أن

بك حاجةً إليه مُوحِشة ، أو أن ليس بك عنه غنى في التدبير، أو أنك لا تقضي دونه رأيا، إشرافاً منك له في رويتك، وإدخالاً منك له في مشورتك، وأضطراباً منك إلى رأيه في الأمر يعرّوك: فإن ذلك من دخائل العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك، فانفها عن نفسك خائفاً لاعتلاقها ذكرك، وأحجبها عن رويتك قاطعاً لأطاع أوليائك عن مثلها عندك ، أو غلوهم عليها منك .

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِلشُّورَةِ مَوْضِعَ الْخُلُوءِ وَانْفِرَادِ النَّظَرِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ غَايَةٌ تُحِيطُ بِمَحْدُودِهِ، وَتَجْمَعُ مَعَالِمُهُ . فَايْنَمَا مُحَرَّرَ لَهَا، وَرُمِيَ طَالِبٌ لِنَيْلِهَا، وَإِيَّاكَ وَالْقَصُورَ عَنْ غَايَتِهَا أَوْ الْعِزَّ عَنْ دَرَكِهَا، أَوْ التَّفْرِيطَ فِي طَلِبِهَا . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

إِيَّاكَ وَالْإِغْرَامَ عَنْ حَدِيثٍ مَا أَعْجَبَكَ، أَوْ أَمْرٍ مَا أَزْدَهَاكَ بِكَثْرَةِ السُّؤَالِ، أَوْ الْقَطْعَ لِحَدِيثٍ مَنْ أَرَادَكَ بِحَدِيثِهِ حَتَّى تَقْضِيَهُ عَلَيْهِ بِالْخَوْضِ فِي غَيْرِهِ أَوْ الْمَسْأَلَةَ عَمَّا لَيْسَ مِنْهُ : فَإِنَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْعَامَّةِ مَنْسُوبٌ إِلَى سُوءِ الْفَهْمِ وَقِصَرِ الْأَدَبِ عَنْ تَنَاوُلِ مُحَاسِنِ الْأُمُورِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَسَاوِيهَا ، وَلَكِنْ أَنْصِتْ لِمَحَدِّثِكَ وَأَرِعْهُ سَمْعَكَ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ قَدْ فُهِمَتَ حَدِيثُهُ ، وَأَحْطَتْ مَعْرِفَتُهُ بِقَوْلِهِ ؛ فَإِنْ أَرَدْتَ إِجَابَتَهُ فَعَنْ مَعْرِفَةٍ بِحَاجَتِهِ وَبَعْدَ عِلْمِ بَطَلِيَّتِهِ ؛ وَإِلَّا كُنْتَ عِنْدَ انْقِضَاءِ كَلَامِهِ كَالْمُتَعَجِّبِ مِنْ حَدِيثِهِ بِالتَّسْمِ وَالْإِغْضَاءِ، فَأَجْزَى عَنْكَ الْجَوَابُ، وَقَطَعَ عَنْكَ أَلْسُنُ الْعَتَبِ .

إِيَّاكَ وَأَنْ يَظْهَرَ مِنْكَ تَبَرُّمٌ بِطَوِيلِ مَجْلِسِكَ ، أَوْ تَضَجُّرٌ مِمَّنْ حَضَرَكَ ؛ وَعَلَيْكَ بِالتَّثَبُّتِ عِنْدَ سُورَةِ الْغَضَبِ ، وَحِمَاةِ الْأَنْفِ ، وَمَلَالِ الصَّبْرِ : فِي الْأَمْرِ تَسْتَعْجِلُ بِهِ وَالْعَمَلِ تَأْمُرُ بِإِنْفَاذِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُخَفِّ شَائِنٌ، وَخِفَّةُ مُرْدِيَةٍ ، وَجَهَالَةٌ بَادِيَةٌ . وَعَلَيْكَ بِثَبُوتِ الْمَنْطِقِ ، وَوَقَارِ الْمَجْلِسِ ، وَسُكُونِ الرِّيحِ ، وَالرَّفِضِ لِحُشْوِ الْكَلَامِ ، وَالتَّرْكِ لِفَضُولِهِ وَالْإِغْرَامِ بِالزِّيَادَاتِ فِي مَنْطِقِكَ، وَالتَّرِيدِ لِلْفُظْكَ : مِنْ نَحْوِ أَسْمَعَ، وَأَفْهَمَ غَنَى، وَيَا هَنَاهُ، وَأَلَا تَرَى، أَوْ مَا يُلْهَجُّ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْفُضُولِ الْمُقْصَرَّةِ بِأَهْلِ الْعَقْلِ، الشَّائِنَةِ لِدَوَى الْجَحَا فِي الْمَنْطِقِ، الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِمْ بِالْعِيِّ، الْمُرْدِيَةِ لَهُمْ بِالذِّكْرِ . وَخِصَالٌ مِنْ مَعَايِبِ الْمُلُوكِ ، وَالسُّوقَةِ عَنْهَا غِيَّةٌ

النظر إلا من عرفها من أهل الأدب ، وقلما حامل لها ، مضطلع بها ، صابر على ثقلها ، أخذ لنفسه بجوامعها ، فأنفها عن نفسك بالتحفظ منها ، وأملك عليها أعتيادك إياها معتنيا بها ، منها كثرة التنخم ، والتبصق ، والتنخع ، والثوباء ، والتمطى ، والجشأ ، وتحريك القدم ، وتقيض الأصابع ،^(١) والعبث بالوجه واللحية أو الشارب أو المخصرة أو ذؤابة السيف ، أو الإيماض بالنظر ، أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمر إن أردته ، أو السرار في مجلسك ، أو الاستعجال في طعمك أو شربك . وليكن طعمك متدعا ، وشربك أنفاسا ، وجرعك مصا . وإياك والتسرع إلى الأيمان فيما صغر أو كبر من الأمور ، والشئمة بقول :
يا بن الهنأه ، أو الغميرة لأحد من^(٢) خاصتك بتسويغهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك أو دارك وفناؤك : فإن ذلك كله مما يقبح ذكره ، ويسوء موقع القول فيه ، وتحمّل عليك معائبه ، وينالك شينه ، ويتشّر عليك سوء النبأ به . فاعرف ذلك متوقيا له ، وأحذره مجانباً لسوء عاقبته .

أستكثر من فوائد الخير : فانها تنشر المحمدة ، وتقبل العثرة ، وأصبر على كظم الغيظ :
فانه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ، وتعهد العامة بمعرفة دخلهم ، وتبطن أحوالهم ، وأستشارة دفاتنهم ؛ حتى تكون منها على رأي عين ، ويقين خبرة ؛ فتنبش عديمتهم ، وتجبر كسيرهم ؛ وتقيم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم : فإن ذلك من فلك بهم يورثك العزة ، ويقدمك في الفضل ؛ ويبقى لك لسان الصدق في العاقبة ، ويحرز لك ثواب الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المتنحية عنك .

قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحجج والرأى والعقل والتدبير والصّيت في العامة ، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله ، والحمول عند مباهاة النسب ؛ وأنظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل ؛ وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرف بك . فاعتمد عليهم مدخلا لهم في أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعا منهم ؛ وإياك وتضييعهم مفرطا ، وإهمالهم مضيعا .

(١) يقال : أقتض أصابعه : صوّت بها وليس في كتب اللغة نقض بالتضعيف . (٢) الغميرة : المظن .

هذه جوامع خصال قد نلخصها لك أمير المؤمنين مفسراً، وجمع لك شواذها مؤلفاً، وأهداها إليك سرّيسداً، فقف عند أوامرها، وتناه عن زواجرها، وثبتت في مجامعها، وخُذ بوثائق عُرّاها، تسلم من معاطب الردى، وتسل أنفُس الحفظ والوعظ، ورغب الشرف، وأعلى درج الذكرا، وتأنل سطر العز. والله يسأل لك أمير المؤمنين حُسن الإرشاد، ونُجاع المزيد، وبلوغ الأمل، وأن يجعل عاقبة ذلك بك الى غبطة يسوِّغك إياها، وعافية يُحِلُّك أكلها، ونعمة يُلْهِمُكَ شكرها : فإنه الموفق للخير، والمعين على الإرشاد، منه تمام الصالحات، وهو مؤتي الحسنات، عنده مفاتيح الخير، وبيده الملك وهو على كل شيء قدير.

فاذا أفضيت نحو صدوك، وأعترمت على لقائهم، وأخذت أهبة قتالهم، فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها، وثقتك التي تأمل النجاة بها، وركك الذي ترتجى منالة الظفر به وتكتف به (٢) لمعالي الحذر، تقوى الله مستشعراً لها بمراقبته، والاعتصام بطاعته متبعاً لأمره، محتنباً لسخطه، محتذياً سنته، والتوق لمعاصيه في تعطيل حدوده، أو تعدى شرائعه، متوكلاً عليه فيما صمدت له، واثقاً بنصره فيما توجهت نحوه، متبرئاً من الحول والقوة فيما نالك من ظفر وتلقاك من عز، راغباً فيما أهاب بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد، ورمى بك إليه محمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين، أكلبهم عليه وأظهره عداوة لهم، وأفدحه بثقل لعاقبتهم، وآخذه بريقهم، وأعلاه عليهم بغيا، وأظهره عليهم فسقا وبغورا، وأشدّه على قيئهم الذي أصاره الله لهم وفتحهم عليهم مؤونة (٣) وكلاً. والله المستعان عليهم، والمستنصر على جماعتهم، عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصرخ عليهم، وإليه يفوض أمره، وكفى بالله ولياً وناصراً ومعيناً، وهو القوى العزيز.

ثم خذ من معك من تباعك وجندك بكف معرتهم، وردة مشتعل جهلهم، وإحكام ضياع عملهم، وضم منتشر قواصيمهم، ولم شعث أطرافهم، وتقييدهم عن مروا به من

(١) تأنل : تثبت . (٢) اكتهف الكهف : دخله . (٣) أهاب بك : دعاك .

(٤) من قولهم كلب الدهر على أهله إذا اشتد وأح . (٥) الكل : النقل .

أهل ذِمَّتِكَ ومِلَّتِكَ بحُسْنِ السيرة، وعِفَافِ الطَّعْمَةِ، ودَعَةِ الْوَقَارِ، وَهَذَى الدَّعَةِ، وَجَمَامِ
المُسْتَجْتَمِ، محكما ذلك منهم، متفقدا لهم تفقدك إِيَّاهُ من نفسك . ثم أَسْجَدُ لِعَدْوِكَ المتسمى
بالإسلام، الخارج من جماعة أهله، المتحلل ولاية الدين مستحلا لدماء أوليائه، طاعنا
عليهم، راغبا عن سُتْهِمْ، مفارقا لشرائعهم، يَبْغِيهِمُ الْغَوَائِلُ، وَيَنْصِبُ لَهُمُ الْمَكَائِدَ؛ أَضْرَمَ
حَقْدًا عَلَيْهِمْ، وَأَرْصَدَ عداوَةً لَهُمْ، وَأَطْلَبَ لِفِرَاقِ فُرْصِهِمْ مِنَ التُّرْكِ وَأُمِّ الشَّرْكِ وطواغِي
الْمِلَلِ؛ يَدْعُو إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَالْفُرْقَةِ، وَالْمُرُوقِ مِنْ دِينِ اللَّهِ إِلَى الْفِتْنَةِ، مَخْتَرًا بَهْوَاهُ لِلْأَدْيَانِ
الْمُتَحَلَّةِ وَالْبِدْعِ الْمُتَفَرِّقَةِ خَسَارًا وَتَخْسِيرًا، وَضَلَالًا وَتَضْلِيلًا، بِغَيْرِ هَدًى مِنْ اللَّهِ وَلَا بَيَانٍ .
سَاءَ مَا كَسَبَتْ لَهُ يَدَاهُ وَمَا اللَّهُ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ، وَسَاءَ مَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ،
وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِ بِالْمِرْصَادِ : (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) .

حَصَّنَ جَنْدَكَ، وَأَشْكُمُ نَفْسَكَ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي مَجَاهَدَةِ أَعْدَائِهِ، وَأَرْجُ نَصْرَهُ، وَتَحْجِزُ
مَوْعُودَهُ، مُتَقَدِّمًا فِي طَلَبِ ثَوَابِهِ عَلَى جِهَادِهِمْ، مُعْتَرِمًا فِي ابْتِغَاءِ الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ عَلَى لِقَائِهِمْ :
فَإِنْ طَاعَتِكَ إِيَّاهُ فِيهِمْ، وَمَرَّاقَبَتِكَ لَهُ وَرَجَاءَكَ نَصْرَهُ مَسْهَلٌ لَكَ وَعُورَةٌ، وَعَاصِمُكَ مِنْ كُلِّ
سُبَّةٍ، وَمُنْجِيكَ مِنْ كُلِّ هُوَةٍ، وَنَاعِشُكَ مِنْ كُلِّ صَرَعَةٍ، وَمُقِيلُكَ مِنْ كُلِّ كَبُوءَةٍ، وَدَارِيٌّ
عَنْكَ كُلَّ شَبْهَةٍ، وَمُدْهِبُ عَنْكَ لَطْخَةَ كُلِّ شَكٍّ، وَمُقَوِّكُ بِكُلِّ أَيْدٍ وَمَكِيدَةٍ، وَمُعَزِّكُ
فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ قِتَالٍ، وَمُوَيْدُكَ فِي كُلِّ تَجَمُّعٍ لِقَاءٍ، وَكَالِئُكَ عِنْدَ كُلِّ قِتْنَةٍ مُغْشِيَةٍ، وَحَاطِئُكَ
مِنْ كُلِّ شَبْهَةٍ مُرْدِيَةٍ؛ وَاللَّهُ وَلِيُّكَ وَوَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَيْكَ، وَالْمُسْتَخْلَفُ عَلَى جَنْدِكَ
وَمِنْ مَعَكَ .

اعْلَمْ أَنَّ الظُّفَرَ ظَفَرَانِ : أَحَدُهُمَا — وَهُوَ أَعَمُّ مَنْفَعَةٍ، وَأَبْلَغُ فِي حَسَنِ الذِّكْرِ قَالَةً، وَأَحْوَطُهُ
سَلَامَةً، وَأَتَمُّهُ عَافِيَةً، وَأَحْسَنُهُ فِي الْأُمُورِ وَأَعْلَاهُ فِي الْفَضْلِ شَرْفًا، وَأَصَحُّهُ فِي الرَّوْيَةِ حَزْمًا،
وَأَسْلَمُهُ عِنْدَ الْعَاقَةِ مَصْدَرًا — مَا نَبِيلُ بِسَلَامَةِ الْجُنُودِ، وَحُسْنِ الْحِيلَةِ، وَلُطْفِ الْمَكِيدَةِ
وَيَمْنِ النَّيْبَةِ، وَاسْتِئْزَالِ طَاعَةِ ذَوِي الصُّدُوفِ بِغَيْرِ إِخْطَارِ الْجِيُوشِ فِي وَقْدَةِ جَهْرَةِ الْحَرْبِ،

(١) الأيد : القوة . (٢) أي مدلهمة سوداء، من قرلم : أغشى الليل إذا أظلم .

ومبارزة الفرسان في معترك الموت؛ وإن ساعدتك طُلُوق الظفر، وذلك مزيد السعادة في الشرف، ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب، وعِضاضُ السيوف وألم الجراح، وقِصَاصُ الحروب وسجالتها بُمُغَاوَرَةٍ^(١) أَبْطَالِهَا . على أنك لا تدري لأى يكون الظفر في البديهة، ومن المغلوب بالدولة، ولعلك أن تكون المطلوب بالتحريض. خاول إصابة أبلغيهما في سلامة جندك ورعيّتك، وأشهرهما صينياً في بدؤ تديريك ورأيك، وأجمعهما لألفة وليك وعدوك، وأعونيها على صلاح رعيّتك وأهل ملّتك، وأقواهما شكيمة في حزنك، وأبعدهما من وضم عزمك، وأعلقهما بزمام النجاة في آخرتك، وأجزلها ثوابا عند ربك .

وأبدأ بالإعذار إلى عدوك، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة وعِزِّ الألفة، آخذاً بالحق عليهم، متقدماً بالإندار لهم، باسطاً أمانك لمن لجأ إليك منهم، داعياً لهم إليه بالإنش لفظك والطف حيلك، متعطفاً برأفك عليهم، مترقفاً بهم في دعائك، مشفقاً عليهم من غلبة العواية لهم وإحاطة الهلكة بهم، منفذا رُسُلَكَ إليهم بعد الإندار: تَعُدُّهُمْ إعطاء كل رغبة يهش إليها طمُعهم في موافقة الحق، وتبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم؛ موطناً نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك؛ قابلاً توبة نازعهم عن الضلالة، ومراجعة مُسيئهم إلى الطاعة؛ مُرْصِداً للنجاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم إجابةً إلى مادعوته إليه وبصرته إياه من حَقِّك وطاعتك، بفضل المنزلة، وإكرام المثنوى، وتشريف الجاه . وليظهر من أترك عليه وإحسانك إليه ما يرغب في مثله الصادق عنك، المُصرُّ على خلافك ومعصيتك؛ ويدعو إلى اعتلاق جبل النجاة وما هو أملك به في الاعتصام عاجلاً، وأنجي له من العقاب^(٢) آجلاً، وأحوطه على دينه ومهجته بدءاً وطاقبة؛ فإن ذلك مما يستدعى به من الله نصره عليهم، ويعتضد به في تقديمه الحجة إليهم، مُعْذِراً أو مُنْذِراً، إن شاء الله .

(١) المغاورة : المقاتلة . (٢) كذا في صبح الأعشى و يظهر أن السياق يقتضى معمولاً لهذا الفعل

أما ضميراً أو اسماً ظاهراً .

ثم أذك عيونك على عدوك متطلعا لعلم أحوالهم التي يتقبلون فيها، ومنازِلهم التي هم بها، ومطامِعهم التي قد مدّوا أعناقهم نحوها، وأى الأمور أدعى لهم إلى الصلح، وأقودها لرضاهم إلى العافية، وأسهلها لاستئصال طاعتهم، ومن أى الوجوه مأتاهم : أمن قبل الشدة والمنافرة والمكيدة والمباعدة والإرهاب والإبعاد، أم الترغيب والإطاع، متبئنا فى أمرك، متخيرا فى رويتك، مستمكا من رأيك، مستشيرا لذوى النصيحة الذين قد حنكهم السن، وخبطتهم التجربة، ونجذتهم الحروب، مُشَرِّزنا فى حربك، آخذا بالحزم فى سوء الظن، مُعِدّا للخطر، محترسا من الغرة، كأتك فى مسيرك كله ونزولك أجمع مواقف لعدوك رأى عين تنتظر حملاتهم، وتتحوف كراتهم، مُعِدّا أقوى مكائيدك، وأرهب عتادك، وأنكأ جذك، وأجدد تسميرك، معظما أمر عدوك لأعظم مما بلغك، حذرا يكاد يفريط : لتعد له من الاحتراس عظيما، ومن المكيدة قويا، من غير أن يفتأك ذلك عن إحكام أمورك، وتدير رأيك، وإصدار رويتك، والتأهب لما يحزبك، مصغرا له بعد استشعار الحذر، وأضطار الحزم، وإعمال الزوية، وإعداد الأهبة . فإن ألفت عدوك كليل الحد، وقم الحزم، نضيض الوفر،^(٤) لم يضرك ما اعتدت له من قوة وأخذت له من حزم، ولم يزدك ذلك إلا جرأة عليه، وتسرها إلى لقائه . وإن ألفتته متوقفا الحرب، مستكنف الجمع، قوى التبغ، مستعلي سورة الجهل، معه من أعوان الفتنة وتبع إبليس من يؤقد لهب الفتنة مسعرا، ويتقدم الى لقاء أبطالها متسرها، كنت لأخذك بالحزم، وأستعدادك بالقوة، غير مهين الجند، ولا مفرط فى رأى، ولا متلهف على إضاعة تدبير، ولا محتاج الى الإعداد وعجلة التأهب مبادرة تدهشك، وخوفا يقلبك . ومتى تغتر بتريق المرققين، وتأخذ بالهويناء فى أمر عدوك لتصغير المصغرين، ينتشر عليك رأيك، ويكون فيه أنتقاض أمرك ووهن تدبيرك، وإهمال للحزم فى جندك،

(١) تشزن للامر : استعد له .

(٢) يفتاك (بالفاء والناء المثلثة) أى يكسرك ويؤنرك . (٣) كذا فى صبح الأعشى . ولعلها

موقوم الحزم أى مقهورة أو لعلها محروقة عن كلمة أخرى بمعنى الضعف أو القلة . (٤) نضيض : قليل .

والوفر : المال .

وتَضْيِيعُ له وهو مُمَكِّنُ الإِصْحَارِ، رَحْبُ الْمَطْلَبِ، قُوَى الْعِصْمَةِ، فَسِيحُ الْمُضْطَرَبِ؛ مع ما يَدْخُلُ رَعِيَّتِكَ مِنَ الْإِغْتِرَارِ وَالْغَفْلَةِ عَنْ إِحْكَامِ أَحْرَاسِهِمْ، وَضَبْطِ مَرَاكِرِهِمْ، لِمَا يَرَوْنَ فِيهِ مِنْ أَسْتِنَامَتِكَ إِلَى الْغَرَّةِ، وَرُكُونِكَ إِلَى الْأَمْنِ، وَتَهَاوُنِكَ بِالتَّدْبِيرِ؛ فَيَعُودُ ذَلِكَ عَلَيْكَ فِي أَنْتِشَارِ الْأَطْرَافِ، وَضِيَاعِ الْأَحْكَامِ، وَدُخُولِ الْوَهْنِ بِمَا لَا يُسْتَقَالُ مَحْذُورُهُ، وَلَا يُدْفَعُ مُحْزُونُهُ.

إِحْفَظْ مِنْ عَيُونِكَ وَجَوَاسِيسِكَ مَا يَأْتُونُكَ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ عَدُوِّكَ. وَإِيَّاكَ وَمَعَاقِبَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى خَبَرٍ إِنْ أَتَاكَ بِهِ أَتَهَمْتَهُ فِيهِ أَوْ سُوِّتَ بِهِ ظَنًّا وَأَنَّاكَ غَيْرُهُ بِخِلَافِهِ، أَوْ أَنْ تَكْذِّبَهُ فِيهِ فَتَرُدَّهُ عَلَيْهِ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَحَضَكَ النِّصِيحَةَ وَصَدَّقَكَ الْخَبَرَ وَكَذَّبَكَ الْأَوَّلُ، أَوْ خَرَجَ جَاسُوسُكَ الْأَوَّلُ مُتَقَدِّمًا قَبْلَ وَصُولِ هَذَا مِنْ عِنْدِ عَدُوِّكَ، وَقَدْ أُرْمُوا لَكَ أَمْرًا، وَحَافِلُوا لَكَ مَكِيدَةً وَأَرَادُوا مِنْكَ غِرَّةً فَازْدَلَفُوا إِلَيْكَ فِي الْأُهْبَةِ، ثُمَّ أَنْتَقَضَ بِهِمْ رَأْيُهُمْ وَآخْتَلَفَ عَنْهُ جَمَاعَتُهُمْ، فَأَرَادُوا رَأْيًا، وَأَحْدَثُوا مَكِيدَةً، وَأَظْهَرُوا قُوَّةً، وَضَرَبُوا مَوْعِدًا، وَأَمُوا مَسَلَكًا لَمَدَّ أُنَاهُمْ، أَوْ قُوَّةً حَدَّثَتْ لَهُمْ، أَوْ بَصِيرَةً فِي ضَلَالَةٍ شَغَلَتْهُمْ؛ فَالْأَحْوَالُ بِهِمْ مُتَنَقِّلَةٌ فِي السَّاعَاتِ، وَطَوَارِقُ الْحَادِثَاتِ. وَلَكِنْ أَلْبَسَهُمْ جَمِيعًا عَلَى الْإِتِّصَاحِ، وَأَرْصَحَ لَهُمْ بِالْمَطَامِعِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَعِيدَهُمْ بِمِثْلِهَا. وَعِذُّهُمْ بِجَزَالَةِ الْمَثَاوِبِ، فِي غَيْرِ مَا أَسْتِنَامَةٍ مِنْكَ إِلَى تَرْقِيقِهِمْ أَمْرَ عَدُوِّكَ، وَالْإِغْتِرَارِ إِلَى مَا يَأْتُونُكَ بِهِ دُونَ أَنْ تُعْمَلَ رِيَّتُكَ فِي الْأَخْذِ بِالْحَزْمِ، وَالِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْعُدَّةِ. وَاجْعَلْهُمْ أَوْثَقَ مِنْ تَقْدِيرِ عَلَيْهِ، وَأَمِّنْ مَنْ تَسْكُنُ إِلَى نَاحِيَتِهِ، لِيَكُونَ مَا يُبْرِمُ عَدُوِّكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِنْدَكَ إِنْ أَسْتَطَعْتَ ذَلِكَ، فَتَنْقُضَ عَلَيْهِمْ بِرَأْيِكَ وَتَدِيرِكَ مَا أُرْمُوا، وَتَأْتِيَهُمْ مِنْ حَيْثُ أَمِنُوا، وَتَأْخُذَ لَهُمْ أَهْبَةٌ مَا عَلَيْهِ أَقْدُمُوا، وَتَسْتَعِدَّ لَهُمْ بِمِثْلِ مَا حَذَرُوا.

وَأَعْلَمْ أَنَّ جَوَاسِيسَكَ وَعَيُونَكَ رَبِّمَا صَدَقُوكَ وَرَبِّمَا غَشَّوْكَ، وَرَبِّمَا كَانُوا لَكَ وَعَلَيْكَ: فَنَصَحُوا لَكَ وَغَشَّوْا عَدُوَّكَ، وَغَشَّوْكَ وَنَصَحُوا عَدُوَّكَ؛ وَكَثِيرًا مَا يَصْدُقُونَكَ وَيَصْدُقُونَهُ. فَلَا تَبْدُرَنَّ مِنْكَ قَرْطَةُ عَقُوبَةٍ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا تَعْجَلْ بِسُوءِ الظَّنِّ إِلَى مَنْ أَتَهَمْتَهُ عَلَى

ذلك؛ وأستنزِل نَصائِحَهُم بِالْمِيَاخَةِ وَالْمَنَالَةِ^(١)، وَأَبْسُطَ مِنْ آمَالِهِمْ فِيكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنَّكَ أَخَذْتَ مِنْ قَوْلِهِ أَخَذَ الْعَامِلُ بِهِ وَالْمُتَبِعُ لَهُ، أَوْ عَمِلْتَ عَلَى رَأْيِهِ عَمَلَ الصَّادِرِ عَنْهُ، أَوْ رَدَدْتَهُ عَلَيْهِ رَدَّ الْمَكْذُوبِ بِهِ، الْمُتَهَمُ لَهُ، الْمُسْتَخَفِّ بِمَا أَتَاكَ مِنْهُ، فَتُفْسِدَ بِذَلِكَ نَصِيحَتَهُ، وَتُسْتَدْعَى غِيْشُهُ، وَتُجْتَرَّ عِدَاوَتُهُ. وَأَحْذَرُ أَنْ يُعْرِفُوا فِي عَسْكَرِكَ أَوْ يُشَارَ إِلَيْهِمْ بِالْأَصَابِعِ. وَلَكِنْ مَنِّلَهُمْ عَلَى كَاتِبِ رِسَائِلِكَ وَأَمِينِ سِرِّكَ، وَيَكُونُ هُوَ الْمَوْجَّهَ لَهُمْ، وَالْمُدْخِلَ عَلَيْكَ مِنْ أَرَدْتَ مَشَافَهَتَهُ مِنْهُمْ.

وَأَعْلَمْ أَنَّ لِعَدُوِّكَ فِي عَسْكَرِكَ عِيُونًا رَاصِدَةً، وَجَوَاسِيسَ مُتَجَسِّسَةً^(٢)، وَأَنَّهُ لَنْ يَقَعَ رَأْيُهُ^(٣) عَنْ مَكِيدَتِكَ بِمِثْلِ مَا تُكَيِّدُهُ بِهِ، وَسَيَحْتَالُ لَكَ كَاحْتِيَالِكَ لَهُ، وَيُعِدُّ لَكَ كَاعْدَادِكَ فِيمَا تُزَاوِلُهُ مِنْهُ، وَيُحَاوِلُكَ كَمَحَاوِلَتِكَ إِيَّاهُ فِيمَا تَقَارِعُهُ عَنْهُ؛ فَاحْذَرُ أَنْ يُشْهَرَ رَجُلٌ مِنْ جَوَاسِيسِكَ فِي عَسْكَرِكَ فَيُلْقَ ذَلِكَ عَدُوُّكَ وَيَعْرِفَ مَوْضِعَهُ، فَيُعِدُّ لَهُ الْمَرَاوِدَ، وَيَحْتَالُ لَهُ بِالْمَكَايِدِ. فَإِنْ ظَفِرَ بِهِ فَاطْهَرَ عَقُوبَتَهُ، كَسَرَ ذَلِكَ ثِقَاتِ عِيُونِكَ، وَخَذَلَهُمْ عَنْ تَطَلُّبِ الْأَخْبَارِ مِنْ مَعَادِنِهَا، وَأَسْتَقْصَانِهَا مِنْ عِيُونِهَا، وَأَسْتِعْذَابِ اجْتِنَائِهَا مِنْ يَنَابِيعِهَا، حَتَّى يَصِيرُوا إِلَى أَخْذِهَا مِمَّا عَرَضَ مِنْ غَيْرِ الثِّقَةِ وَلَا الْمَعَانِيَةِ، لَقَطًا لَهَا بِالْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَحَادِيثِ الْمُرْجُفَةِ. وَأَحْذَرُ أَنْ يَعْرِفَ بَعْضُ عِيُونِكَ بَعْضًا: فَإِنَّكَ لَا تَأْمَنُ تَوَاطُؤَهُمْ عَلَيْكَ، وَمُمَالَاتِهِمْ عَدُوَّكَ، وَاجْتِمَاعَهُمْ عَلَى غِيْشِكَ، وَتَطَابُقَهُمْ عَلَى كَذِبِكَ، وَإِصْفَاقَهُمْ^(٤) عَلَى خِيَانَتِكَ، وَأَنْ يورِطَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عِنْدَ عَدُوِّكَ. فَاحْكِمْ أَمْرَهُمْ فَإِنَّهُمْ رَأْسُ مَكِيدَتِكَ، وَقِوَامُ تَدْيِيرِكَ، وَعَيْنُهُمْ مَدَارُ حَرْبِكَ، وَهُوَ أَوَّلُ ظَفَرِكَ. فَاعْمَلْ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ وَحَيْثُ رَجَاؤُكَ بِهِ، تَسَلَّ أَمْلَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ، وَقَوَّتِكَ عَلَى قِتَالِهِ، وَاحْتِيَالَكَ لِإِصَابَةِ غِرَّاتِهِ وَاتِّهَازِ فُرْصِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَإِذَا أَحْكَمْتَ ذَلِكَ وَتَقَدَّمْتَ فِي إِتْقَانِهِ، وَأَسْتَظْهَرْتَ بِاللَّهِ وَعَوْنِهِ، فَوَلَّ شُرْطَنَكَ وَأَمَرَ عَسْكَرِكَ أَوْثَقَ قَوَادِكِ عِنْدَكَ، وَأَظْهَرَهُمْ نَصِيحَةً لَكَ، وَأَنْفَذَهُمْ بِصِيرَةً فِي طَاعَتِكَ، وَأَقْوَاهُمْ

(١) المياخة : الإعطاء .

(٢) في مفتاح الأفكار ورسائل البلاغ : « كامنة » . (٣) في رسائل البلاغ : « وأن رأيه

في مكيدهتك مثل ما تكايده به » . (٤) إصفاقهم : اجتماعهم .

شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريمة^(١)، وأصدقهم عفافا، وأجزأهم غناء، وأكفاهم أمانة، وأصحهم ضميرا، وأرضاهم في العامة ديناً، وأحدهم عند الجماعة خلقاً، وأعطفهم على كآبتهم رافة، وأحسنهم لهم نظراً، وأشدّهم في دين الله وحقه صلابة. ثم فوض إليه مقويا له، وأبسّط من أمّله مظهرها عنه الرضا، حامداً منه الابتلاء. وليكن عالماً بمراكز الجنود، بصيرا بتقدم المنازل، مجرباً، ذا رأى وحزم في المكيّدة؛ له نباهة في الذّكر، وصيت في الولاية؛ معروف البيت، مشهور الحسب. وتقدم إليه في ضبط معسكره، وإذكاء أحراسه في آباء ليله ونهاره؛ ثم حدّره أن يكون منه إذنٌ لجنوده في الانتشار والاضطراب، والتقدم لطلائع، فتصاب لهم غزوة يجترئ بها عدوك عليك، ويسرع إقداما إليك، ويكسر من إيراد جندك ويوهن من قوتهم: فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل الواحد^(٢) من جندك أو عبيدهم مطمع لهم فيك، مقوّ لهم على شتدّ اتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك، وتوهمينهم تدبيرك. فحدّره ذلك وتقدم إليه فيه؛ ولا يكون منه إفراط في التضيق عليهم، والخصر لهم، فيعمهم أزلّه^(٣)، ويشملهم ضنكه؛ وتسوء عليهم حاله، وتشتدّ به المؤونة عليهم، وتخبّث له ظنونهم. وليكن موضع إنزاله إياهم ضاماً لجماعتهم، مستديراً بهم جامعاً لهم؛ ولا يكون منبسّطاً منتشراً متبدداً، فيشتق ذلك على أصحاب الأحراس، وتكون فيه التهمة للعدوّ، والبعد من المادّة إن طرق طارق في فجاء الليل وبقعاته. وأوعز إليه في أحراسه، وتقدم إليه فيهم كأشدّ التقدم وأبلغ الإيعاز. ومثله فليول عليهم رجلا ركيناً مجرباً جرى الإقدام، ذا كي الصرامة، جلد الجوارح، بصيراً بمواضع أحراسه، غير مصانع ولا مشفع للناس في التنحّي إلى الرفاهية والسّعة، وتقدم العسكر والتأثر عنه، فإن ذلك مما يضعف الوالى ويؤهّنه لاستنামته إلى من ولّاه ذلك وأمنه به على جيشه.

وأعلم أن مواضع الأحراس من معسكرك، ومكانها من جندك، بحيث الغناء عنهم والردّ عليهم، والحفظ لهم، والكلاءة لمن بغتهم طارقاً، أو أرادهم خائلاً، ومراصدها المنسلّ

(١) الصريمة: الغزيرة. (٢) في مفتاح الأفكار وغيره: «أفئدة». وإياد كل شيء: ما يقوى به

من جانيه ومنه إيادا العسكر وهما ميمته وميسرته. (٣) الصوت: كالصيت والصات: الذكر والشهرة.

(٤) الأزل: الضيق والشدة. (٥) المادّة: كل مدد تستعين به في حرب أو غيره.

منها والآتي من أرقائهم وأعبدتهم؛ وحفظها من العيون والجواسيس من عدوهم. واحذر أن تضرب على يديه أو تشككه عن الصرامة بمؤامرتك في كل أمر حادث وطارئ إلا في المهم النازل والحدث العام : فإنك إذا فعلت ذلك به ، دعوته إلى نصحك ، وأستوليت على محصول ضميره في طاعتك ؛ وأجهدت نفسه في ترتيبك ، وأعمل رأيه في بلوغ موافقتك وإعانتك ؛ وكان يثقتك وردأك وقوتك ودعامتك ، وتفترغت أنت لمكيدة عدوك ، مربحاً لنفسك من هم ذلك والعناية به ، ملقياً عنك مؤونة باهظة وكلفة فادحة .

وأعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ، ولا بمثل محله أحد من الولاة : لما يجري على يديه من مغاليط الأحكام ومجاري الحدود . فليكن من توليه القضاء في عسكريك [من ذوى] الخير والقناعة والعفاف والتزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع ، والبصر بوجوه القضايا ومواقيعها ، قد حنكته السن وأيدته التجربة وأحكمته الأمور ، ممن لا يتصنع للولاية ويستعد للثغرة ، ويحتري على المحاباة في الحكم ، والمداهنة في القضاء ، عدل الأمانة ، عفيف الطعمة ، حسن الإنصاف ، فهم القلب ، ورع الضمير ، متخشع السميت ، بادى الوقار ، محتسباً للخير . ثم أجر عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه ؛ وفرغه لما حملته ، وأعنه على ما وليته : فإنك قد عرضته لهلكة الدنيا وبوار الآخرة ، أو شرف الدنيا وحظوة الآجلة ، إن حسنت نيته ، وصدقت رويته ، وصحت سريرته ، وسلط حكم الله على رعيته ، مطلقاً عنانه ، منفذاً قضاء الله في خلقه ، عاملاً بسنته في شرائعه ، آخذاً بحدوده وفرائضه .

وأعلم أنه من جندك بحيث ولايتك^(٣) ، الجارية أحكامه عليهم ، النافذة أقضيته فيهم ؛ فأعرف من توليه ذلك وتسنده إليه . ثم تقدم في طلائعك فإنها أول ميكيدتك ، ورأس حربك ، ودعامة أمرك ، فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالاً ذوى نجدة وبأس ، وصرامة وخبرة ، حمة كفاة ، قد صلوا بالحرب وذاقوا سجالها ، وشربوا مرار كؤوسها ، وتجزعوا

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وغيره . (٢) الطعمة بالضم والكسر وجه الكسب

الطيب أو الخيث . (٣) في مفتاح الأفكار وغيره : « بحيث ولايتك وفي الموضع الجارية » الخ .

غُصَصَ دِرَّتِيهَا؛ وَزَبَنْتَهُمْ بِتَكَرُّرِ عَوَاطِفِهَا، وَحَمَلَتْهُمْ عَلَى أَصْعَبِ مَرَاكِبِهَا، وَذَلَّلَتْهُمْ بِثِقَافِ
 أَوْدِهَا. ثُمَّ أَنْتَقِيَهُمْ عَلَى عَيْنِكَ، وَأَعْرِضْ كُرَاعَهُمْ بِنَفْسِكَ؛ وَتَوَخَّ فِي أَنْتَقَائِكَ ظُهُورَ الْجَلَدِ،
 وَشَهَامَةَ الْخُلُقِ، وَكَيْالَ الآلَةِ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ دَوَابِّهِمْ إِلَّا الْإِنَاثَ مِنَ الْخَيْلِ الْمَهْلُوبَةِ^(١)،
 فَإِنَّهُنَّ أَسْرَعُ طُلُبَا، وَأَنْجَى مَهْرَبَا، وَأَلَيْنَ مَعْطَفَا، وَأَبْعَدُ فِي الْخُحُوقِ غَايَةً، وَأَصْبَرُ فِي مَعْتَرَكِ
 الْأَبْطَالِ إِقْدَامَا. وَخُذْهُمْ مِنَ السَّلَاحِ بِأَبْدَانِ الدَّرُوعِ، مَازِيَّةِ الْحَدِيدِ، شَاكَّةِ النَّسِجِ، مُتَقَارِبَةِ
 الْحَلِاقِ، مُتَلَاحِمَةِ الْمَسَامِيرِ وَأَسْوَقِ الْحَدِيدِ، مُمَوَّهَةِ الرِّكَبِ، مُحْكَمَةِ الطَّبْعِ خَفِيفَةِ الصَّوْغِ؛
 وَسَوَاعِدَ طَبْعُهَا هِنْدِيَّةً، وَصَوْغُهَا فَارِسِيَّةً؛ رِقَاقِ الْمَعَاطِفِ بِأَكْفَافِ وَاقِيَةٍ وَعَمَلِ مُحْكَمِ.
 وَيَلْمِيقُ الْبَيْضُ مُذْهَبَةً وَنَجْمَةً، فَارِسِيَّةِ الصَّوْغِ، خَالِصَةِ الْجَوْهَرِ، سَائِغَةِ الْمَلْبَسِ، وَاقِيَةِ
 الْجُنَنِ، مُسْتَدِيرَةِ الطَّبْعِ، مُبْهَمَةِ السَّرْدِ، وَاقِيَةِ الْوِزْنِ كَثْرِيكَ النِّعَامِ فِي الصَّنْعَةِ وَأَسْتَدَارَةِ
 التَّقْبِيبِ، وَأَسْتَوَاءِ الصَّوْغِ، مُعَلِّمَةِ بَأْصَنَافِ الْحَرِيرِ وَالْوَلَوَانِ الصَّبِغِ؛ فَإِنَّهَا أَهْيَبُ لِعَدُوِّهِمْ،
 وَأَفْتَى لِأَعْضَادِ مَنْ لِقِيَهُمْ، وَالْمُعَلِّمُ نَحْشِيٍّ مُحْذَرٍ، لَهُ بِيْدِيَّةٌ رَادِعَةٌ، وَهَيْبَةٌ هَائِلَةٌ؛ مَعَهُمُ
 السِّبُوفُ الْهِنْدِيَّةُ، وَذُكُورُ الْبَيْضِ الْيَمَانِيَّةُ؛ رِقَاقُ الشَّفَرَاتِ، مَسْنُونَةُ الشُّحُذِ، مَشْطَبَةُ^(٥)
 الضَّرَائِبِ. مَعْتَدِلَةُ الْجَوَاهِرِ، صَافِيَةِ الصَّفَافِخِ؛ لَمْ يَدْخُلْهَا وَهْنُ الطَّبْعِ، وَلَا عَابَهَا أَمْتُ^(٦)
 الصَّوْغِ، وَلَا شَانِهَا خِفَّةُ الْوِزْنِ، وَلَا قَدَحُ حَامِلَتِهَا بَهْرُ الثَّقَلِ؛ قَدْ أَشْرَعُوا لَدُنَ الْقَنَاءِ،
 طَوَالَ الْهَوَادِي، مُقَوِّمَاتُ الْأَوْدِ، زُرُقُ الْأَسِنَّةِ، مُسْتَوِيَّةُ الثَّعَالِبِ؛ وَمِيضُهَا مُتَوَقِّدٌ،
 وَسِنْخُهَا مُتَلَهَّبٌ، مَعَاقِصُ عُقْدَتِهَا مَنْحَوْتَةٌ، وَوُصُومُ أَوْدِهَا مَقْوَمَةٌ، وَأَجْنَاسُهَا مُخْتَلِفَةٌ،
 وَكُوعُوبُهَا جَعْدَةٌ، وَعُقْدَتُهَا حَبْكَةٌ؛ شَطْبَةُ الْأَسْنَانِ، مُمَوَّهَةُ الْأَطْرَافِ، مُسْتَحْدَةُ الْجَنَابَاتِ،
 دِقَاقُ الْأَطْرَافِ، لَيْسَ فِيهَا آلَتَوَاءُ أَوْدٍ، وَلَا أَمْتُ وَصَمٍّ، وَلَا بِهَا مَسْقَطُ عَيْبٍ، وَلَا عَنَّا

(١) المهلوبة: المتوفرة الهلب، وهو شعر الذنب أو الشعر كله. (٢) أى خالصة وحيدته.

(٣) اليلقي: القباء المحشو. (٤) التريك: بيضة النعام خاصة، ومنه قوله:

* وتلقى بها بيض النعام ترائكا *

(٥) سيف شطب: ذو شطب وهي طراقة التي في منته. (٦) الأمت: العوج والاختلاف.

(٧) الثعلب: طرف الرمح الداخل في جبة السنان. (٨) في مفتاح الأفكار وغيره: «وشحذها متلهب»

وسنخ النصل: الحديدية التي تدخل في رأس السهم. (٩) المعاقص: السهام المعوجة.

وقوع أُمّية؛ مُستَحَقِّي كَنَائِ النَّبْلِ وَقِسَى الشُّوْحَطِ^(١) وَالنَّبْعِ؛ أَعْرَاسِيَّةُ التَّعْقِيبِ ، رُومِيَّةُ النَّصُولِ ، مَسْمُومَةُ الصَّوْغِ؛ وَلَتَكُنْ سِهَامُهَا عَلَى خَمْسِ قَبْضَاتِ سِوَى النَّصُولِ ، فَإِنَّمَا أُبْلَغُ فِي الْغَايَةِ ، وَأَنْفَذُ فِي الدَّرُوعِ ، وَأَشْكُ فِي الْحَدِيدِ؛ سَامِطِينَ^(٢) حَقَائِبَهُمْ عَلَى مَتُونِ خِيُولِهِمْ ، مُسْتَحَقِّينَ مِنَ الْآلَةِ وَالْأَمْتَةِ وَالزَّادِ ، [إِلَّا مَا لَا غَنَاءَ بِهِمْ عَنْهُ] .

وَأَحْذَرُ أَنْ تَكِلَ مَبَاشِرَةَ عَرَضِهِمْ وَاتِّخَافِهِمْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَعْوَانِكَ وَتَحَابِكَ : فَإِنَّكَ إِنْ وَكَلْتَهُ إِلَيْهِمْ أَضَعْتَ مَوَاضِعَ الْحَزْمِ ، وَفَرَطْتَ حَيْثُ الرَّأْيِ ، وَوَقَفْتَ دُونَ عِزِّمِ الرُّوِيَّةِ ، وَدَخَلَ عَمَلُكَ ضِيَاعُ الْوَهْنِ ، وَخَلَصَ إِلَيْكَ عَيْبُ الْحَابَاةِ ، وَنَالَهُ فُسَادُ الْمُدَاهَنَةِ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ طَلِيعَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا عُدَّةً وَلَا حِصْنًا يَدْرِثُونَ بِهِ ، وَيَكْتَهِفُونَ بِمَوْضِعِهِ . وَالطَّلَائِعُ حِصُونُ الْمُسْلِمِينَ وَعِيُونُهُمْ ، وَهُمْ أَوَّلُ مَكِيدَتِكَ ، وَعُرْوَةُ أَمْرِكَ ، وَزِمَامُ حَرْبِكَ . فَلْيَكُنْ أَعْتَنَاؤُكَ بِهِمْ ، وَأَنْتَقَاؤُكَ إِيَّاهُمْ بِحَيْثُ هُمْ مِنْ مُهِمِّ عَمَلِكَ ، وَمَكِيدَةِ حَرْبِكَ ؛ ثُمَّ اتَّخِذْ لِلْوِلَايَةِ عَلَيْهِمْ رَجُلًا بَعِيدَ الصَّوْتِ ، مَشْهُورَ الْأِسْمِ ، طَاهِرَ الْفَضْلِ ، نَبِيهَ الذِّكْرِ ؛ لَهُ فِي الْعَدُوِّ وَقَعَاتُ مَعْرُوفَاتٍ ، وَأَيَّامُ طُوَالٍ وَصَوْلَاتُ مُتَقَدِّمَاتٍ ؛ قَدْ عُرِفَتْ نَكَائِيَّتُهُ ، وَحُدِرَتْ شَوْكَتُهُ ، وَهَيَّبَ صَوْتُهُ ، وَتَشَكَّبَ لِقَاؤُهُ ؛ أَمِينَ السَّرِيرَةِ ، نَاصِحَ الْجَيْبِ ؛ قَدْ بَلُوتَ مِنْهُ مَا يُسَكِّتُكَ إِلَى نَاحِيَّتِهِ : مِنْ لَيْنِ الطَّاعَةِ ، وَخَالِصِ الْمَوَدَّةِ ، وَرَكَانَةِ الصَّرَامَةِ ، وَغُلُوبِ الشَّهَامَةِ ، وَاسْتِجْمَاعِ الْقُوَّةِ ، وَحَصَافَةِ التَّدْبِيرِ . ثُمَّ تَقَدَّمْ إِلَيْهِ فِي حَسَنِ سِيَاسَتِهِمْ ، وَاسْتَنْزَالِ طَاعَتِهِمْ ، وَاجْتِلَابِ مَوَدَّاتِهِمْ وَاسْتِعْذَابِ ضَمَائِرِهِمْ ؛ وَأَجْرِ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ أَرْزَاقًا تَسْعُهُمْ ، وَتُمَدُّ مِنْ أَطْمَاعِهِمْ سِوَى أَرْزَاقِهِمْ فِي الْعَاقَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَّةِ لَكَ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِسْتِنَامَةِ إِلَى مَا قَبْلَهُمْ .

وَأَعْلَمْ أَنَّهُمْ فِي أَهَمِّ الْأُمَاكِنِ لَكَ ، وَأَعْظَمِهَا غَنَاءً عَنْكَ وَعَمَّنْ مَعَكَ ، وَأَقْمَعِهَا كَيْتَابَ الْمُحَادَّةِ ، وَأَشْجَاهَا غِيظًا لِعَدُوِّكَ : وَمَنْ يَكُنْ فِي الثِّقَةِ ، وَالْجَلَدِ ، وَالْبَاسِ ، وَالطَّاعَةِ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالنَّصِيحَةِ ، وَالْعُدَّةِ ، وَالنَّجْدَةِ حَيْثُ وَصَفَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرَكَ بِهِ ، يَضَعُ عَنْكَ مَوْزُونَ الْهَمِّ ، وَيُرِيخُ

(١) الشوْحَطُ : شَجَرٌ تَخُذُ مِنْهُ الْقِسَى . (٢) الزِّيَادَةُ عَنْ مَفْشَاحِ الْأَفْكَارِ (ص ٢٥١) .

(٣) يُقَالُ : فَلَانٌ نَاصِحٌ الْجَيْبِ يَرَادُ بِذَلِكَ قَلْبُهُ وَصَدْرُهُ أَيْ أَمِينٌ .

من خناقك روع الخوف ، وتلجئ إلى أمرٍ منيع ، وظهر قوى ، ورأيٍ حازم ، تأمن به بفاتٍ عدوك ، وغراتٍ بغتاتهم ، وطوارقٍ أحداثهم ؛ ويصير إليك علم أحوالهم ، ومتقدّمات خيولهم ؛ فاتتخيم رأي عين ، وقوهم بما يصلحهم من المنالات والأطامع والأرزاق ، وأجعلهم منك بالمنزل الذى هم به من محارز علاقتك ، وحصانة كهوفتك ، وقوة سياره عسكرك . وإياك أن تدخل فيهم أحدا بشفاعه ، أو تحتمله على هواده ، أو تقدمه لأثرة ؛ أو أن يكون مع أحدٍ منهم بغلٌ نفيل ^(١) ، أو فضلٌ من الظاهر ^(٢) ، أو ثقلٌ فادح ، فتشتد عليهم مؤونة أنفسهم ، ويدخلهم كلال السامة فيما يعالجون من أنقاعهم ، ويشغلون به عن عدوهم إن دهمهم منه رائع ؛ أو فخاهم منه طليعة . فنفق ذلك محكاه ، وتقدم فيه آخذا بالحزم فى إمضائه ؛ أرشدك الله لإصابة الحظ ، ووفّقك ليمن التدبير ، وقصد بك لأسهل الرأى وأعوذه نفعا فى العاجل والآجل ، وأكتبته لعدوك وأشجاء لهم ، وأردعه لعاديتهم .

ولّ دراجة عسكرك وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكرهم رجلا من أهل بيوتات الشرف ، محمود الخبرة ، معروفاً بالنجدة ، ذا سنٍّ وتجربة ، لينّ الطاعة ، قديم النصيحة ، مأمون السريرة ، له بصيرة بالحق نافذة تقدمه ، ونية صادقة عن الإدهان تحجزه ^(٣) . وأضّم إليه عدّة نفر من ثقات جندك وذوى أسنانهم يكونون شرطة معه ؛ ثم تقدم إليه فى إخراج المصاف ، وإقامة الأحراس وإذكاء العيون ، وحفظ الأطراف ، وشدة الحذر ؛ ومره فليضع القواد بأنفسهم مع أصحابهم فى مصافهم ، كلّ قائد بإزاء مكانه ، وحيثُ منزله ، قد سدّ ما بينه وبين صاحبه بالرمح شارعة ، والترسة موضونة ^(٤) ، والرجال راصدة ، ذاكية الأحراس ، وجلة الرّوع ، خائفة طوارق العدو وبياته . ثم مره فليخرج كلّ ليلة قائداً فى أصحابه أو عدّة منهم إن كانوا كثيراً ، على غلوة أو آنتين من عسكرك ، متبداً عنك محيطاً بمنزلك ، ذاكية أحراسه ، قلقة التردد ، مفرطة الحذر ، معدة للزوع ، متأهبة للقتال ، آخذة على أطراف المعسكر ونواحيه ، متفرقين فى اختلافهم كردوسا كردوسا ؛ يستقبل بعضهم بعضا

(١) النفل محرّكة : الغنيمه والهبة . (٢) النقل : متاع المسافر . (٣) الإدهان : المداهنة وهى أن يظهر

الإنسان خلاف ما يبطن . (٤) الترسه موضونة ، أى منسوجة حلقتين حلقتين . (٥) أى كتيبة كتيبة .

[في الاختلاف^(١)] وَيَكْسَعُ تَالٍ مُتَقَدِّمًا فِي التَّرَدُّدِ ؛ وَاجْعَلْ ذَلِكَ بَيْنَ قُودَاكَ وَأَهْلِ عَسْكَرِكَ نَوْبًا مَعْرُوفَةً ، وَحِصَصًا مَقْرُوضَةً ، لَا تُغَرِّ مِنْهَا مُزْدَلِفًا مِنْكَ بِمَوْتَةٍ ، وَلَا تُحَامِلَ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ بِمَوْجِدَةٍ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَوْضَ إِلَى أُمَرَاءِ أَجْنَادِكَ وَقُودَاكَ خَيْلِكَ أُمُورَ أَصْحَابِهِمْ ، وَالْأَخْذَ عَلَى قَافِيَةِ أَيْدِيهِمْ ، رِيَاضَةً مِنْكَ لَهُمْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأُمَرَائِهِمْ ، وَالْأَتْبَاعِ لِأَمْرِهِمْ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ نَهْيِهِمْ ؛ وَتَقَدُّمَ إِلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ فِي النُّوَابِ الَّتِي أَلْزَمْتَهُمْ بِهَا ، وَالْأَعْمَالِ الَّتِي اسْتَنْجَدْتَهُمْ لَهَا ، وَالْأَسْلِحَةِ وَالْكَرَاعِ الَّتِي كَتَبْتَهَا عَلَيْهِمْ ؛ وَاحْذَرِ اعْتِلَالَ أَحَدٍ مِنْ قُودَاكَ عَلَيْكَ بِمَا يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَأْدِيبِ جَنْدِكَ ، وَتَقْوِيمِهِمْ لَطَاعَتِكَ ، وَقَمْعِهِمْ عَنِ الْإِخْلَالِ بِمَرَآئِهِمْ لَشَيْءٍ مِمَّا وَكَلَّوَابَهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ لِلْجَنْدِ ، مَفْثَاةٌ لِلْقُودَادِ^(٢) عَنِ الْجِدِّ وَالْإِيثَارِ لِلنَّاصِحَةِ ، وَالتَّقَدُّمِ فِي الْأَحْكَامِ .

وَأَعْلَمْ أَنَّ فِي اسْتِخْفَافِهِمْ بِقُودَادِهِمْ وَتَضْيِيعِهِمْ أَمْرَ رُؤَسَائِهِمْ دُخُولًا لِلضِّيَاعِ عَلَى أَعْمَالِكَ ، وَاسْتِخْفَافًا بِأَمْرِكَ الَّذِي يَأْتُمُّونَ بِهِ وَرَأْيِكَ الَّذِي تَرْتَبِي . وَأَوْعِزْ إِلَى الْقُودَادِ أَلَّا يَقْدِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى عَقُوبَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، إِلَّا عَقُوبَةً تَأْدِيبِيَّةً فِي تَقْوِيمِ مَيْلٍ ، وَتَشْقِيفِ أَوْدٍ ؛ فَأَمَّا عَقُوبَةٌ تَبْلُغُ تَلَفَ الْمُهْجَةِ ، وَإِقَامَةً حَدٍّ فِي قَطْعٍ ، أَوْ إِفْرَاطًا فِي ضَرْبٍ ، أَوْ أَخْذَ مَالٍ ، أَوْ عَقُوبَةً فِي شَعَرٍ ، فَلَا يَلِيَنَّ ذَلِكَ مِنْ جَنْدِكَ أَحَدٌ غَيْرُكَ ، أَوْ صَاحِبُ شُرْطَتِكَ بِأَمْرِكَ وَعَنْ رَأْيِكَ وَإِذْنِكَ ؛ وَمَتَى لَمْ تُدَلِّلِ الْجَنْدَ لِقُودَادِهِمْ ، وَتُضَرِّعَهُمْ لِأُمَرَائِهِمْ ؛ تُوجِبُ لَهُمْ عَلَيْكَ الْحِجَّةَ بِتَضْيِيعِ — إِنْ كَانَ مِنْهُمْ — لِأَمْرِكَ ، أَوْ خَلَلَ — إِنْ تَهَاوَنُوا بِهِ — مِنْ عَمَلِكَ ، أَوْ عَجَزَ — إِنْ فَرَطَ مِنْهُمْ — فِي شَيْءٍ مِمَّا وَكَلَّتَهُمْ بِهِ أَوْ أَسْنَدْتَهُ إِلَيْهِمْ ؛ وَلَا تَجِدَ إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ بِاللَّوْمِ وَعَضِّ الْعَقُوبَةِ عَلَيْهِمْ مَجَازًا تَصِلُ بِهِ إِلَى تَعْنِيفِهِمْ ، بِتَفْرِيطِكَ فِي تَذْلِيلِ أَصْحَابِهِمْ لَهُمْ ، وَإِفْسَادِكَ إِيَّاهُمْ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا مُحْكَمًا ، وَتَقَدَّمْ

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٢) . (٢) أى يقعد بهم عن الجد الخ .

فيه برِّقك تقدماً بليغاً، وإيّاك أن يدخل حزمك وهنٌ، أو يشوب عزمك إيثار، أو يخلط رأيك ضياع، والله يستودع أمير المؤمنين نفسه ودينك .

إذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاءٍ مختصر، وكان من عسكريك مقترباً قد شامت طلائعك مقدمات ضلّالته وحماة فتنته، فتأهب أهبة المناجز، وخُذ اعتداد الحذر، وكتب^(١) خيولك، وعبّ جندك . وإيّاك والمسير إلا في مقدمة ومنيمة وميسرة وساقفة، قد شهروا الأسلحة، ونشروا البنود والأعلام . وعرف جندك مراكرهم سائرين تحت ألويتهم قد أخذوا أهبة القتال، واستعدّوا للقاء، ملتجئين إلى موافقهم، عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومُسكرهم . وليكن تحلّهم وتنزّلهم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكرهم، قد عرف كل قائد منهم أصحابه موافقهم : من الميمنة والميسرة والقلب والساقفة والطليعة، لازمين لها، غير مُخلّين بما استنجدوا له، ولا مُتهاولين فيما أُهيب بهم إليه؛ حتى تكون عساكرُك في منهل تصل إليه، ومسافة تختارها، كأنها عسكرٌ واحد في اجتماعها على العبدوق، وأخذها بالحزم، ومسيرها على راياتها، ونزولها في مراكرها، ومعرفتها بمواضعها : إن ضلت دابةً من مواضعها، عرف أهل العسكر من أي المراكز هي، ومن صاحبها، وفي أي المحلّ حلوله منها، فُرِدت إليه، هداية معروفة بسمت صاحب قيادتها؛ فإن تقدّمك في ذلك وإحكامك له طارح عن جندك مؤونة الطلب، وعناية المعرفة، وأبتغاء الضلالة .

ثم أجعل على ساقنتك أوثق أهل عسكريك في نفسك صرامةً ونفاذاً ورضاً في العاقبة، وإنصافاً من نفسه للرعية، وأخذاً بالحق في المعادلة، مستشعراً تقوى الله وطاعته؛ أخذاً بهديك وأدبك، واقفاً عند أمرِك ونهيك، معتزماً على مناصحتك وتزيينك، نظيراً لك في الحال، وشيهاً بك في الشرف، وعديلاً في الموضع، ومقارباً في النسب؛ ثم أكثف^(٢) معه الجمع، وأيدّه بالقوة، وقوّه بالظهور، وأعنه بالأموال، وأعمده بالسلاح، ومُرّه بالتعطف على ذوي الضعف من جندك ومن أزحف به دابّته وأصابته نكبة : من مريض أو رجله أواقة^(٣)،

(١) كتب الجيش أو الخيل : جعلها ككتاب . (٢) في مفتاح الأفكار وغيره : « في الصيت » .

(٣) الرجل بالضم : أن يشكو رجله وقد رجل كفرح أصابه في رجله ما يكره .

من غير أن يأذن لأحدٍ منهم في التنجى عن عسكره، أو التخلف بعد ترحله، إلا للجهود سقماً، أو لمطروقٍ بأفةٍ جائحةٍ . ثم تقدم إليه محذراً، ومُره زاجراً، وأنه مُغلظاً في الشدة على من مرّ به منصرفاً عن معسكرك من جنسك بغير جوازك، شاداً لهم أسراً، وموقراًهم حديداً، ومُعاقبهم موبعاً، وموجههم إليك فتنهكهم عقوبةً، وتجعلهم لغيرهم من جنسك عظة .

وأعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واثقاً بنصيحته قد بلوت منه أمانة تُسكتك إليه، وصرامة تُؤمّنك مهانته، ونفاذاً في أمرك يُنحى عنك خنساك الخوف في إضاعته — لم يأمن أمير المؤمنين تسأل الجند عنك لوأذاً، ورَفَضَهُم مراكرهم، وإخلاصهم بمواضعهم، وتخلّفهم عن أعمالهم، آمين تغيير ذلك عليهم، والشدة على من آجرتهم منهم، فأوشك ذلك في وهنك، وخذل من قوتك، وقلل من كثرتك .

اجعل خلف ساقك رجلاً من وجوه قوادك، جليداً، ماضياً، عفيفاً، صارماً، شهيم الرأى، شديد الحذر، شكيم القوة، غير مُداهن في عقوبة، ولا مهين في قوة، في خمسين فارساً يحشُر إليك جندك، ويلحق بك من تخلف عنك بعد الإبلاغ في عقوبتهم، والنهك لهم، والتنكيل بهم . وليكن بعقوتك في المنزل الذي ترحل عنه، والمنهل الذي تتقوض منه، مُفْرِطاً في التفض له، والتبع لمن تخلف عنك به، مشتداً في أهل المنزل وساكبه بالتقدم، موعِزاً اليهم في إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجهم عن مكائهم، وإبعاد العقوبة الموجهة والنكال المُبْسِل في الأشعار والأبشار، وأستصفاء الأموال وهدم العقار لمن آوى منهم أحداً أو ستر موضعه، أو أخفى محله . وحذره عقوبتك إياه في الترخيص لأحد، والمحابة لذي قرابة، والاختصاص بذلك لذي أثره وهوادة . ولتكن فرسانه مستخين في القوة، معروفين بالنجدة، عليهم سوايغ الدروع دونها شعار الحشو وجبب الاستجنان، متقلدين سيوفهم، سامطين كائنهم، مستعدين لميج إن بدّهم [أو كمين إن يظهر لهم ^(٤)] . وإياك

(١) لوأذا : مراوغة أى مستحقين يستتر بعضهم ببعض . (٢) القوة : ما حول الدار أو ساحته .

(٣) سامطين : معلقين . (٤) الزيادة عن مفتاح الأفكار وغيره .

أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرسا قويا أو برذونا^(١) ونجيا : فإن ذلك من أقوى القوة لهم ،
وأعون الظهري على عدوهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إباناً واحداً ، وقتاً معلوماً : لتخف المؤونة بذلك على جندك ، ويعلموا
أوان رحيلهم ، فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأغلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم
الى الوقت الذى وقفوا عليه ، ويطمئن ذوو الرأى الى إبان الرحيل . ومتى يكن رحيلك
مختلفاً ، تعظم المؤونة عليك وعلى جندك ولا يزال ذوو السّفه [والنّزق] يترحلون بالإرجاف
ويتزلّون بالتوهم ، حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة .

إيّاك أن تظهر استقلاًلاً ، أو تُنادى برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمر صاحب
تعبتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك آخذاً بحبنتي فوهته ، بأسلحتهم عدّة لأمر إن حضر
أو مفاجأة من طليعة العدو إن رأت منكم نهزة ، أو لحّت عندكم غيرة . ثم أمر الناس
بالرحيل وخيلك واقفة ، وأهبتك معدّة ، وجئتُك واقفة ، حتى إذا استقلتكم من معسكركم ،
وتوجهتم من منزلكم ، سرتم على تعبنتكم بسكون ريح ، وهدو حمله ، وحسن دعة . فاذا
انتهيت الى منزل أردت نزوله أو هممت بالمعسكر به ، إيّاك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ،
والمعرفة بمراقفه ؛ وممر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستشير لك علم دفينه ،
ويستبين علم أموره ثم ينهيها اليك على ما صارت اليه : لتعلم كيف احتماله لعسكرك ، وكيف
ماؤه وأغلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك — إن أردت مقاماً به ، أو مطاولة عدوك
أو مكايده فيه — قوة تحملك ومدد يأتيه ؛ فإنك إن لم تفعل ذلك ، لم تأمن أن تهجم على
منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وانقطاع موائده ، إن أردت بعدوك
مكيدة ، أو احتجت من أمورهم الى مطاولة ، فإن ارتحلت منه كنت غرضاً لعدوك ،
ولم تجد الى المحاربة والإخطار سبيلاً ؛ وإن أقمت به أقمت على مشقة وحصر وفى أزل

(١) برذونا ونجيا : كثير اللحم .

(٢) كذا فى صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفاً صوابه : قوة تصلك ومدد يأتيك .

وضيق ، فاعرف ذلك وتقدم فيه . فإن أردت نزولاً أمرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس فوقفت خيله متنجية من معسكرك ، عدة لأمرٍ إن غالك ، ومقزعاً لبيده إن راعتك ، فقد أمنت بحمد الله وقوته بقاءً عدوك ، وعرفت موقعها من حرك ، حتى يأخذ الناس منازلهم ، وتوضع الأثقال مواضعها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجةً ودباباً يحيطين بمعسكرك ، وعدة إن احتجت إليها . ولتكن دبابات جندك أهل جلد وقوة ، قائداً أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم ، في كل ليلة ويوم نوباً بينهم . فاذا غربت الشمس ووجب نورها ، أخرج اليهم صاحب تعينتك أبدالهم ، عسسا بالليل في أقرب من مواضع دبابي النهار ، يتعاور ذلك قوادك جميعا بلا محابة لأحد فيه ولا إدهان .

إياك وأن يكون منزلك إلا في خندق وحصن تأمن به بيات عدوك وتستقيم فيه الى الحزم من مكيدتك . اذا وضعت الأثقال وحطت أبنية أهل العسكر ، لم يمدد طنب ، ولم يرفع خباء ، ولم ينصب بناء حتى تقطع لكل قائد ذرعا معلوماً من الأرض بقدر أصحابه ، فيحفروه عليهم خندقاً يطيفونه بعد ذلك بخنادق الحسك^(٢) ، طارحين لها دون أشجار الرماح ، ونصب الترس ، لها بابان قد وكلت بحفظ كل باب منهما رجلاً من قوادك في مائة رجل من أصحابه ، فإذا فرغ من الخندق كان ذاك الرجلان القائدان بمن معهما من أصحابهما أهل ذلك المركز ، وموضع تلك الخيل ، وكانوا هم البوابين والأحراس لذيئك الموضعين ، قد كفؤهما وضبطوهما وأعفوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرها .

وأعلم أنك إذا كنهت في خندق ، أمنت بإذن الله وقوته طوارق عدوك وبغائتهم ، فإن راموا تلك منك ، كنت قد أحكمت ذلك وأخذت بالحزم فيه ، وتقدمت في الإعداد له ، ورتقت مخوف الفتق منه ؛ وإن تكن العافية استحققت حمد الله عليها ، وأرتبطت شكره بها ، ولم يضررك أخذك بالحزم : لأن كل كلفة ونصب ومؤونة إنفاق ومشقة عمل مع

(١) أي ذهب وغاب . (٢) الحسك : أسلاك كالشوك تعمل من الحديد تلقى حول المعسكر لتشتب

في رجل من يدومها من الخيل والناس الطارقين له ، وهي المعروفة الآن : « بالأسلاك الشائكة » .

السلامة غمٍّ وغير خطرٍ بالعاقبة، إن شاء الله . فإن أبتليت ببيات عدوك أو طرقت رائعا في ليالك، فليُلقَ حذرًا مشمرًا عن ساقك، حاسرًا عن ذراعك، متشزنًا^(١) لحربك؛ قد تقدّمت دراجتك إلى مواضعها على ما وصفه لك أمير المؤمنين، ودبّابتك في أوقاتها التي قدر لك، وطلائعك حيث أمرك، وجندك على ما عبأ لك، قد خطرت عليهم بنفسك؛ وتقدّمت إلى جندك، إن طرقهم طارق أو فاجأهم عدو، ألا يتكلم منهم أحد رافعا صوته بالتكبير مُفرقا في الإجلاب، مُعلنا بالإرهاب لأهل الناحية التي يقع بها العدو طارقا، وليشرعوا رماحهم ناشيين بها في وجوههم، ويرشقوهم بالنبل مكنتين بترسهم، لازمين لمراكزم، غير مُزِيل قدم عن موضعها، ولا متجاوزين إلى غير مراكزم، وليكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون، لتعرف موضع عدوك من معسكرك، فتمدّ أهل تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطتك، ومن آتتجت قبل ذلك عدّةً للشدائد بحضرتك، وتدسّ إليهم النشاب والرماح .

وإياك وأن يشهروا سيفًا يتجالدون به، وتقدّم إليهم ألا يكون قتالهم في تلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرماح مُسندين لها إلى صدورهم، والنشاب راشقين به وجوههم؛ قد ألبدوا بالترسة، وأستجنوا بالبيض، وألقوا عليهم سوايغ الدروع وجباب الحشو . فإن صد العدو عنهم حاملين على جهة أخرى، كبر أهل تلك الناحية التي يقع فيها كفعل الناحية الأولى، وبقية العسكر سكوت والناحية التي صد عنها العدو لازمةً لمراكزم منتطقة الهدوء ساكنة الرمح، ثم عملت في تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك في إخوانهم .

وإياك أن تُخمد نار رواقك؛ وإذا وقع العدو في معسكرك فأبجها ساعرا لها وأوقدها حطبًا جزلًا يعرف به أهل العسكر مكانك وموضع رواقك، فيسكن نافر قلوبهم، ويقوى واهي قوتهم، ويشتد منخزل ظهورهم، ولا يرجعون بك الظنون، ويعملون لك آراء

(١) متشزنًا : منجهزا .

السوء، ويُرْجفون بك آتاء الخوف؛ وذلك من فعلك رَأْدُ عدوك بغِيْظِهِ لم يستفْلِلْ منك ظُفْرًا، ولم يبلُغْ من نكابتك سرورا . وإن أنصرف عنك عدوك ونكَلْ عن الإصابة من جندك وكانت بجيالك قُوَّةٌ على طلبه أو كانت لك من فرسانك خيلٌ معدَّةٌ وكتيبةٌ منتخبةٌ، [و] قدرت على أن تركبَ بهم أكسَاءَهُمْ^(١)، وتحملهم على سَنَنِهِمْ^(٢)، فأتبعهم جريدة خيل عليها الثقات من فرسانك وأولو النجدة من حمائك؛ فإنك ترهق عدوك وقد أمن من بيأتك، وشغل بكلاله عن التحرز منك والأخذ بأبواب معسكره والضبط لمحارسه عليك، مؤهنةً حُماهُمْ لَغِيبةٍ أبطأهم : لما ألقوكم عليه من التشمير والحد، قد عقر الله فيهم، وأصاب منهم، وجرح من مقاتلتهم، وكسر من أمانى ضلأهم، ورد من مستعلي جماحهم .

وتقدّم إلى من تُوجِّهه في طلبهم، وتُتبعه أكسَاءَهُمْ : في سكونِ الرياح، وقلةِ الرِّفْتِ، وكثرةِ التسبيح والتهليل، وأستنصار الله عز وجل بالسنتهم وقلوبهم سرًّا وجهراً، بلا لَجَبٍ ضجة، ولا ارتفاع ضوضاء، دون أن يردوا على مطلبهم، ويتنزهوا فرصتهم . ثم ليشهروا السلاح، ويتنضوا السيوف، فإن لها هيئةً رائعة، وبديهةً مخوفة، لا يقوم لها في بهمة الليل وحيدسه إلا البطل المحارب، وذو البصيرة المحامي، والمستमित المقاتل، وقليل ما هم عند تلك الحمية وفي ذلك الموضع .

ليكن أول ما نتقدّم به في التهيؤ لعدوك، والاستعداد للقاءه، انتخابك من فرسان عسكرك وحماة جندك ذوى البأس والحنكة والجلد والصرامة، ممن قد اعتاد طراد الكُماة، وكشّر عن ناجذه في الحرب، وقام على ساقٍ في منازلة الأقران، ثَقَفَ الفروسية، مجتمِعَ القوة، مستحصداً المِيرة، صُبوراً على هول الليل، عارفاً بمناهزة الفرص؛ لم تمهته الحنكة ضعفاً، ولا بلغت به السن كلالاً، ولا أسكرته غيرةُ الحداثة جهلاً، ولا أبطرتة نجدة الأغمار صلفاً، جريئاً على مخاطرة التلف، مُقديماً على أدراع الموت، مكابراً لمهيب الهول، متقحماً مخشياً الخوف، خائضاً غمرات المهالك؛ برأى يؤيده الحزم، ونية لا يُخالجهما الشك،

(١) الأكساء : الأبار، واحدها كس . (٢) ترهق عدوك : تنشاه .

وأهواء مجتمعة، وقلوب مؤتلفة؛ عارفين بفضل الطاعة وعزّها وشرفها، وحيث محل أهلها من التأيد والظفر والتمكين؛ ثم أعرضهم رأى عين على كراهم وأسلحتهم . ولتكن دوابهم إناث عتاق الخيل، وأسلحتهم سوانح الدروع وكال آلة المحارب، متقلّدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجوهر وصافي الحديد، المتخيرة من معادن الأجناس، هندية الحديد يمانية الطبع، رفاق المضارب، مسمومة الشحذ، مشطبة الضريبة؛ ملبدين بالترسة الفارسية، صينية التعقيب، معلّمة المقايض بحلق الحديد، أنحاؤها مربعة، ومخارزها بالتجليد مضاعفة، تحملها مستخف، وكائن النبل وجعاب القسي قد استحبوها، وقسي الشريان والنّع أعرابية الصنعة، مختلفة الأجناس، مُحكّمة العمل، مقومة التثقيف؛ ونصول النبل مسمومة، وعملها مصيصة، وتركيبها عراقي، وتريشها بدوي؛ مختلفة الصوغ في الطبع، شتى الأعمال في التشطيب والتجنيح والاستدارة . ولتكن الفارسية مقلوبة المقايض، منبسطة السية، سهلة الأعطاف، مقربة الانحناء، ممكنة المرمى، واسعة الأسهم؛ فرضها سهلة الورود، ومعاطفها غير مقربة المواناة . ثم ولّ على كل مائة رجل منهم رجلاً من أهل خاصتك وثقاتك ونصحاءك، له صيت في الرياسة، وقدم في السابقة، وأولية في المشايعة . وتقدّم إليه في ضبطهم، وكفّ معرتهم، واستنزال نصائحهم، واستعداد طاعتهم، واستخلاص ضمائرهم، وتعاهد كراهم وأسلحتهم : مُعفياً لهم من النواثب التي تلزم أهل عسرك وعامة جندك؛ وأجعلهم عُدّة لأمر إن حرك، أو طارق إن أنك؛ ومرهم أن يكونوا على أهبة معدّة، وحذر نافي لسنة الغفلة عنهم؛ فإنك لا تدري أىّ الساعات من ليالك ونهارك تكون إليهم حاجتك . فليكونوا كرجل واحد في التشمير والتأدب وسرعة الإجابة؛ فإنك عسيت ألا تجد عند جماعة جندك في مثل تلك الروعة والمباغته — إن أحتجت إلى ذلك منهم — معونة كافية، ولا أهبة معدّة . بل ذلك كذلك فليكن هؤلاء القوم الذين تنتخب عدّتك وقوتك، بعوناً قد وظفتها على القواد الذين وليتهم أمورهم، فسميت أولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً؛ فإن آكتفيت فيما يطرقك ويبيدهك

(١) الشريان بفتح الشين وكسرهما : شجر من عصاه الجبال تعمل من القس .

بَعَثَ واحد، كان مُعَدًّا لم تَحْتَجِ إلى آتِخَابِهِمْ في سَاعَتِكَ تِلْكَ، فَقَطَّعَ البَعْثَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ مَا يَرَهْفُكَ . وَإِنْ أَحْتَجَجْتَ إِلَى أَثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ ، وَجَّهْتَ مِنْهُمْ إِرَادَتَكَ أَوْ مَا تَرَى قُوَّتَكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَكُلُّ بَخْرَائِكَ وَدَوَاوِينِكَ رَجُلًا نَاصِحًا أَمِينًا، ذَا وَرَعٍ حَاجِزٍ، وَدِينٍ فَاصِلٍ، وَطَاعَةٍ خَالِصَةٍ، وَأَمَانَةٍ صَادِقَةٍ؛ وَأَجْعَلْ مَعَهُ خِيَلًا يَكُونُ مَسِيرُهَا وَمَنْزِلُهَا وَمَرْحَلُهَا مَعَ خِزَانَتِكَ وَحَوْلِهَا . وَتَقَدَّمْ إِلَيْهِ فِي حِفْظِهَا، وَالتَّوَقُّعِ عَلَيْهَا، وَأَتِّهَامِ كُلِّ مَنْ تُسْنِدُ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْهَا عَلَى إِضَاعَتِهِ وَالتَّهَوُّنِ بِهِ، وَالشَّدَةِ عَلَى مَنْ دَنَا مِنْهَا فِي مَسِيرٍ، أَوْ ضَامَّهَا فِي مَنْزِلٍ، أَوْ خَالَطَهَا فِي مَنْهَلٍ . وَلِيَكُنْ عَامَّةُ الْجُنْدِ وَالْجَيْشِ — إِلَّا مَنْ اسْتَخْلَصْتَ لِلْمَسِيرِ مَعَهَا — مُنْتَحِينَ عَنْهَا، مُجَانِبِينَ لَهَا فِي الْمَسِيرِ وَالْمَنْزِلِ؛ فَإِنَّهُ رُبَّمَا كَانَتْ الْجَوْلَةُ وَحَدَّثَتِ الْفَرْعَةَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْخِزَانِ مَنْ يُوَكِّلُ بِهَا أَهْلَ حِفْظِهَا وَذَبَّ عَنْهَا، وَحِيَاظَةِ دُونِهَا، وَقُوَّةٍ عَلَى مَنْ أَرَادَ أَتْيَاقَهَا، أَسْرَعَ الْجُنْدُ إِلَيْهَا وَتَدَاعَوْا نَحْوَهَا، حَتَّى يَكَادُ يَتَرَامَى ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَتْيَابِ الْعَسْكَرِ وَأَضْطِرَابِ الْفِتْنَةِ؛ فَإِنْ أَهْلُ الْفِتَنِ وَسُوءِ السَّيْرِ كَثُرُوا، وَإِنَّمَا هُمُتُّهُمْ الشَّرَّ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي خِزَانَتِكَ وَدَوَاوِينِكَ وَبُيُوتِ أَمْوَالِكَ مَطْعَمٌ، أَوْ يَجِدَ سَبِيلًا إِلَى اغْتِيَابِهَا وَمَرْزَاقِهَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَحْسَنَ مَكِيدَتِكَ أَثَرًا فِي الْعَامَةِ، وَأَبْعَدَهَا صِيئًا فِي حَسَنِ الْقَالَةِ؛ مَا نَلَتْ الظُّفْرَ فِيهِ بِحَزْمِ الرُّوِيَّةِ، وَحَسَنِ السَّيْرِ، وَلُطْفِ الْحِيلَةِ . فَلْتَكُنْ رَوِيَّتُكَ فِي ذَلِكَ وَحِرْصُكَ عَلَى إِصَابَتِهِ بِالْحِيلِ لَا بِالْقِتَالِ وَأَخْطَارِ التَّافِ؛ وَأَدْسُسْ إِلَى عَدُوِّكَ، وَكَاتِبْ رُؤْسَاءَهُمْ وَقَادَتَهُمْ وَعِدَّهُمُ الْمَنَالَاتِ، وَمَنْهُمْ الْوَلَايَاتِ، وَسَوْغَهُمُ الثَّرَاثِ، وَضَعْ عَنْهُمْ الْإِحْنَ، وَأَقْطَعْ أَعْنَاقَهُمْ بِالْمَطَامِعِ، وَأَسْتَدْعِهِمْ بِالْمَتَاوَبِ؛ وَأَمْلَأْ قُلُوبَهُمْ بِالْتَرَهيبِ إِنْ أَمَكَّتَكَ مِنْهُمْ الدَّوَائِرُ، وَأَصَارَتَهُمْ إِلَيْكَ الرُّوَايَجُ؛ وَأَدْعُهُمْ إِلَى الْوُثُوبِ بِصَاحِبِهِمْ أَوْ أَعْتَرَالِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِالْوُثُوبِ عَلَيْهِ طَاقَةٌ؛ وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَطْرَحَ إِلَى بَعْضِهِمْ كِتَابًا كَأَنَّهَا جَوَابُ كِتَابٍ لَهُمْ إِلَيْكَ، وَتَكْتُبَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كِتَابًا إِلَيْكَ تَدْفَعُهَا إِلَيْهِمْ وَتَحْمِلُ بِهَا صَاحِبَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَتُنْزِلُهُمْ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ التَّهْمَةِ وَمَحَلِّ

الظَّنة ؛ فلعل مَكِيدَتَكَ في ذلك أن يكون فيها أَقْرَأُ كلمتهم ، وتشيتُ جماعتهم ، وإحْنُ قلوبهم ، وسوءُ الظنِّ من واليهم بهم ، فيوحشهم منه خوفهم إِيَّاه على أنفسهم إذا أيقنوا بآثامه إِيَّاهم ؛ فان بَسَطَ يَدَه فقتلهم ، وأولغ سيفه في دِمَائهم ، وأسرع الوثوبَ بهم ، أشعرهم جميعا الخوف ، وشملهم الرُّعب ، ودعاهم إليك الحرب ، فتهاقنوا نحوكَ بالنصيحة وأموك بالطلب . وإن كان متأنياً محتيلاً رجوت أن يستميل إليك بعضهم ، ويستدعي الطمع ذوى الشره منهم ، وتنال بذلك ما يُحِبُّ من أخبارهم ، إن شاء الله .

إذا تدانى الصفان ، وتواقف الجمعان ، واحتضرت الحرب ، وعبأت أصحابك لقتال عدوهم ، فأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، والتوكل على الله عز وجل والتفويض إليه ، ومسأله توفيقك وإرشادك ، وأن يعزم لك على الرشد المنجى ، والعصمة الكائلة ، والحياطة الشاملة . ومُر جنودك بالصمت وقلة التلفت عند المصاولة ، وكثرة التكبير في أنفسهم والتسبيح بضائيرهم ، ولا يُظهروا تكبيراً إلا في الكرات والحملات ، وعند كل زُلْفَةٍ يزدلفونها ؛ فأما وهم وقوف فان ذلك من الفشل والجن ؛ وليذكروا الله في أنفسهم ويسألوه نصرهم وإعزازهم ، وليكثر من قول : ” لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم أنصرنا على عدوك وعدونا الباغي ، وأكفنا شوكته المستحدة ، وأيدنا بملائكتك الغالين ، وأعصمنا بعونك من الفشل والعجز إنك أرحم الراحمين “ .

وليكن في معسكر المكبرون في الليل والنهار قبل الموقعة . وقومٌ موقوفون يحضونهم على القتال ويحرضونهم على عدوهم ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، ويذكرونهم الجنة ودرجاتها ، ونعيم أهلها وسكانها ، ويقولون : أذكروا الله يذكركم ، وأستنصروه ينصركم ، وألتجئوا إليه يمنكم . وإن أستطعت أن تكون أنت المباشرة لنعية جندك ووضعهم مواضعهم من رأيك ، ومعك رجالٌ من ثقات فرسانك ذوو سنٍّ وتجربة ونجدة على التعبية التي أمير المؤمنين واصفها لك في آخر كتابك فافعل ، إن شاء الله تعالى .

أيّدك الله بالنصر، وغلب لك على القوّة ، وأعانك على الرّشد، وعصمك من الزّغ،
وأوجب لمن آسّشَهد معك ثواب الشهداء ومنازل الأصفياء، والسلام عليك ورحمة الله
وبركاته .

وكتب سنة تسع وعشرين ومائة .

٧ - رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التي أوصى فيها الكتاب^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، حفّظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووقّكم وأرشدكم ؛ فإن الله عز
وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك
المكرمين أصنافاً ، وإن كانوا في الحقيقة سواءً ؛ وصرفهم في صنوف الصناعات ، وضروب
المحاولات ، الى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف
الجهات ، أهل الأدب والمروءات والعلم والرّزانة ؛ بكم تنتظم الخلافة محاسنها ، وتستقيم
أمورها ؛ وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمّر بلدانهم ؛ لا يستغنى الملك عنكم ،
ولا يوجد كاف إلا منكم ؛ فموقعكم من الملوك موقعُ أشماهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم
التي بها يُبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون ؛ فامتّعكم الله بما خصّكم
من فضل صناعتكم ، ولا تزعّ عنكم ما أضفاه من النّعمة عليكم ؛ وليس أحدٌ من أهل
الصناعات كلّها أحوَج الى اجتماع خلال الخير المحموده ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة
منكم . أيها الكتاب اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج
في نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمّات أموره ، أن يكون حليماً في موضع
الحلم ، فهيماً في موضع الحكم ، مقدّماً في موضع الإقدام ، محجّاماً في موضع الإنجام ، مؤثراً

(١) هذه الرسالة من مقدّمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة إلاق) . (٢) أضفاه : أتمه .

للعفاف والعدل والإنصاف، كُتُومًا للأسرار، وفيًا عند الشدائد، عالمًا بما يأتي من النوازل؛
يَضَعُ الأمورَ مواضعها، والطَّوارقَ في أَمَّا كُنْها؛ قد نَظَرَ في كلِّ فنٍّ من فُنُونِ العِلْمِ فأَحْكَمَ،
وإن لم يُحْكَمْ أَخَذَ مِنْهُ بِمَقْدَارٍ ما يَكْتَفِي بِهِ؛ يَعْرِفُ بِغَرِيزَةِ عَقْلِهِ، وَحُسْنِ أَدَبِهِ، وَفَضْلِ
تَجَرُّبَتِهِ، ما يَرِدُ عَلَيْهِ قَبْلَ وُرُودِهِ، وَعَاقِبَتَهُ ما يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ؛ فَيُعَدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ
وَعَتَادَهُ، وَيُهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ . فَنَتَفَسَّسُوا يا مَعْشَرَ الْكُتَّابِ في صُنُوفِ الْآدَابِ،
وَتَفَهَّمُوا في الدِّينِ، وَأَبْدُوا بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلِّ وَالْفَرَائِضِ، ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا تَقَافُ
الْسَّنَتَكُمْ، ثُمَّ أَجِيدُوا الْخَطَّ فَإِنَّهُ حَلِيبَةُ كُتُبِكُمْ، وَأَرْوُوا الْأَشْعَارَ وَأَعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا،
وَأَيَّامَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَمُكُمْ،
وَلَا تُضَيِّعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ، فَإِنَّهُ قَوَامُ كُتَّابِ الْخَرَجِ، وَأَرْغَبُوا بَأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ سَنِيهَا
وَدَنِيهَا، وَسَفَسَفِ الْأُمُورَ وَمَحَافِرَهَا؛ فَإِنَّهَا مَدَلَّةٌ لِلرَّقَابِ، مَفْسَدَةٌ لِلْكُتَّابِ، وَزَهْوٌ صِنَاعَتَكُمْ
عَنِ الدَّنَاءَةِ، وَأَرْبَتْوا بَأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالنِّيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْجَهَالَاتِ .

وَأَيَّاكُمْ وَالْكِبَرَ وَالسَّخْفَ وَالْعِظْمَةَ، فَإِنَّهَا عَدَاوَةٌ مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ؛ وَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ
عِزَّ وَجَلِّ فِي صِنَاعَتِكُمْ، وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْيَقُ لِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالثَّبَلِ مِنْ
سَلَفِكُمْ؛ وَإِنْ نَبَأَ الزَّمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ، فَأَعْظِفُوا عَلَيْهِ وَوَأَسُّوهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالُهُ، وَيَثُوبَ إِلَيْهِ
أَمْرُهُ، وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمْ الْكِبَرَ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ، فَزُورُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَاوِرُوهُ؛
وَأَسْتَظْهِرُوا بِفَضْلِ تَجَرُّبَتِهِ، وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ؛ وَلْيَكُنِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ أَصْطَنَعَهُ وَأَسْتَظْهَرَ
بِهِ لِيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحْوَطَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ، فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَحْمَدَةٌ فَلَا يَصْرِفُهَا
إِلَّا إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ عَرَضَتْ مَدْمَةٌ فَلْيَحْمِلْهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ؛ وَلْيَحْذَرْ السَّقَطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَلَلِ
عِنْدَ تَغْيِيرِ الْحَالِ، فَإِنَّ الْعَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعْشَرَ الْكُتَّابِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى الْفِرَاءِ، وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ
لَهَا؛ فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا صَحِبَهُ مَنْ يَبْذُلُ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ، مَا يَجِبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ؛
فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَقِدَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ وَشُكْرِهِ، وَأَحْتِمَالِهِ وَنَصِيحَتِهِ، وَكَيْفَانِ سِرِّهِ وَتَدْيِيرِ أَمْرِهِ،

ما هو جزاء لحقه، ويصدق ذلك فعله عند الحاجة اليه، والأضطرار الى ما لديه، فاستشعروا ذلك — وفقكم الله — من أنفسكم في حالة الرِّخاء، والشدة والحرمان والمُواساة والإحسان والسَّراء والضَّراء؛ فنعمت الشيمة هذه لمن وُسِمَ بها من أهل هذه الصناعة الشريفة؛ وإذا ولَّى الرجلُ منكم أو صيِّرَ اليه من أمرٍ خَلَقَ الله وعياله أمرًا، فليُراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته؛ وليكن على الضعيف رفيقًا، وللظالم مُنصفًا؛ فإن الخلق عيال الله، وأحبهم اليه أرفقهم بعياله؛ ثم ليكن بالعدل حاكمًا، وللأشراف مُكرِّمًا، وللنَّفقاء مُوفِّيًا، وللبلاد عامرًا، وللرعيَّة مُتألِّفًا، وعن أذاهم متخلفًا؛ وليكن في مجلسه متواضعًا حليماً، وفي سجلات خراجهِ وأستقضاء حقوقه دقيقًا؛ وإذا صحبَ أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه، فإذا عرَفَ حسنَها وقبيحَها أعانهُ على ما يوافقهُ من الحَسَن، وأَحْتالَ على صَرفه عَمَّا يَهْوَاهُ من القبيح بالطف حيلةً وأَجملَ وسيلةً.

وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رُموحاً لم يهيجها إذا ركبها، وإن كانت شَبوباً اتَّقاهَا من بين يديها، وإن خاف منها شُروداً تَوَقَّاهَا من ناحية رأسها، وإن كانت حَرُوناً قَعَّ برفقِ هَوَاهَا في طُرُقها، فإن آسَمَت عَطْفَهَا يسيراً، فيسلس له قيادها، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم.

والكاتب لفضل أدبه وشریف صنعته ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوله من الناس وينظره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أولى بالرفق لصاحبه ومُداراته وتقويم أوده، من سائس البهيمة التي لا تُخیر جواباً، ولا تُعرَف صواباً، ولا تُفهم خطاباً، إلَّا بقدر ما يُصيرُها اليه صاحبها الرَّاكِب عليها؛ ألا فارقوا رحمكم الله في النظر، وأعملوا ما أمكنكم فيه من الروية والفكر، تأمَّنوا بإذن الله مَن صَحِبْتُمُوهُ النَّبُوَّةَ وَالْإِسْتِقَالَ وَالْجَفْوَةَ؛ ويصير منكم الى الموافقة، وتصيروا منه الى المؤاخاة والشفقة، إن شاء الله؛ ولا يُجاوِزَنَّ الرجلُ منكم في هيئة مجلسه، وملبسه ومركبه، ومطعمه ومشربه وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره قدر حقِّه؛ فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعته، خدمةً لا تُتمَلون في خدمتكم على التقصير، وحفظةً

لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى أَفْعَالِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ، وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَاحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرَفِ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِّ؛ فَإِنَّهُمَا يُعْقِبَانِ الْفَقْرَ، وَيُذِلَّانِ الرَّقَابَ وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا، وَلَا سِيَّما الْكُتَّابَ وَأَرْبَابَ الْآدَابِ . وَلَا أُمُورَ أَشْبَاهِ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ؛ فَاسْتَدْلُوا عَلَى مُؤْتَنَفِ أَعْمَالِكُمْ، بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرُّبُكُمْ؛ ثُمَّ اسْأَلُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّنْذِيرِ أَوْصَحَّهَا حُجَّةً، وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً، وَأَحَدُهَا عَاقِبَةٌ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّنْذِيرِ أَفْعَةً مُتَلَفَةً، وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِمُصَاحِبِهِ، عَنْ إِنْفَازِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ؛ فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ، قَصْدَ الْكَافِي فِي مَنَظِقِهِ؛ وَلْيُوجِزْ فِي أَبْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ، وَلْيَأْخُذْ بِجَمَاعٍ مُحْجَجَةٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِفَعْلِهِ، وَمَدْفَعَةٌ لِلشَّاعِلِ مِنْ إِتْكَارِهِ؛ وَلْيَضْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيقِهِ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْهِيدِهِ؛ خَافَةً وَقُوعِهِ فِي الْغَلَطِ الْمُضَرِّ بِيَدِهِ، وَعَقْلَهُ وَأَدَبِهِ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا أَوْ قَالَ قَاتِلًا: إِنْ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حِيلَتِهِ وَحُسْنِ تَنْذِيرِهِ؛ فَقَدْ تَعَرَّضَ بِحُسْنِ ظَنِّهِ أَوْ مَقَاتِلَتِهِ إِلَى أَنْ يَكَلِّهَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ، فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ؛ وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ، وَأَحْمَلَ لِأَعْيَاءِ التَّنْذِيرِ؛ مِنْ مُرَاقِقِهِ فِي صِنَاعَتِهِ، وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ؛ فَإِنَّ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَنْ رَمَى بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَرَأَى أَنَّ أَصْحَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَجْمَلُ فِي طَرِيقَتِهِ؛ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ شَأْؤُهُ مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ، وَلَا تَرْكِيَةٍ لِنَفْسِهِ؛ وَلَا يُكَاثِّرَ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ، وَمُصَاحِبِهِ وَعَشِيرَتِهِ؛ وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ .

وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ، وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ؛ وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ: "مَنْ تَلَزَمَهُ النَّصِيحَةُ يَلَزِمَهُ الْعَمَلُ" وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَهُ وَنِعْمَتُهُ بِهِ . تَوَلَّانا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِهِدِهِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

٨ - رسالة الثالثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة في الشطرنج^(١) :

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بإنهاج سُبُلِهِ ، وإيضاح مَعَالِمِهِ بإظهار فرائضه ، وبعث رسَلَهُ الى خلقه دلالةً لهم على ربوبيته ، واحتجاجاً عليهم برسالاته ، ومقدماً اليهم بإنذاره ووَعِيدِهِ ، لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن بَيْتِهِ ، ويَحْيَا من حَيَّ عن بَيْتِهِ ؛ ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وَحْيَهُ ، وَفَقَّى به رسَلَهُ ، وأَبْعَثَهُ لإحياء دينه الدارس مرتضياً له على حين انطمست الأعلامُ مخفيةً ، وتَشَتَّتَ السبيلُ متفرقةً ، وَعَفَّتْ آثارُ الدين دَارِسَةً ، وَسَطَعَ رَجَحُ الْفِتَنِ ، وَأَعْتَلَى قَتَامُ الظُّلَمِ ، وَأَسْتَهْدَ الشُّرُكُ ، وَأَسْدَفَ الْكُفْرُ ، وَظَهَرَ أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ لَطْمُوسِ الْأَعْلَامِ ، وَنَطَقَ زَعِيمُ الْبَاطِلِ بِسَكَّةِ الْحَقِّ ، وَأَسْتَطَرَّقَ الْجَوْرُ وَأَسْتَنْكَحَ الصُّدُوفُ عَنِ الْحَقِّ ، وَأَقْطَرَتْ سَلْهَبُ الْفِتْنَةِ ، وَأَسْتَضِرِمَ لِقَاحُهَا ، وَطَبَّقَتْ الْأَرْضُ ظِلْمَةً كُفْرٍ وَغِيَاةً فَسَادٍ ؛ فَصَدَعَ بِالْحَقِّ مَأْمُورًا ، وَأَبْلَغَ الرِّسَالَةَ مَعْصُومًا ، وَنَصَحَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ، دَالًّا لَهُمَ عَلَى الْمَرَّاشِدِ ، وَقَائِدًا لَهُمَ إِلَى الْهَدَايَةِ ، وَمُنِيرًا لَهُمَ أَعْلَامَ الْحَقِّ ضَاحِيَةً ، مَرشِدًا لَهُمَ إِلَى اسْتِفْتَاكِ بَابِ الرَّحْمَةِ وَإِعْلَاقِ عُرْوَةِ النَّجَاةِ ؛ مُوضِحًا لَهُمَ سُبُلَ الْغَوَايَةِ ، زَاجِرًا لَهُمَ عَنِ طَرِيقِ الضَّلَالَةِ ، مُحَذِّرًا لَهُمَ الْهَلَكَةِ ، مُوعِزًا لَهُمَ فِي التَّقِيْدَةِ ، ضَارِبًا لَهُمَ الْحُدُودَ عَلَى مَا يَتَّقُونَ مِنَ الْأُمُورِ وَيَخْشَوْنَ ، وَمَا إِلَيْهِ يَسَارِعُونَ وَيَطْلُبُونَ ؛ صَابِرًا نَفْسَهُ عَلَى الْأَذَى وَالتَّكْذِيبِ ، دَاعِيًا لَهُمَ بِالترغيبِ والترهيبِ ؛ حَرِيصًا عَلَيْهِمْ ، مَتَحَنِّنًا عَلَى كَافَتِهِمْ ،

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المنظوم والمنثور » لأبن طيفور المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت

رقم (٥٨١ أدب) ومراجعة على نسخة أخرى منه محفوظة برقم (١٨٦٠ أدب) .

(٢) وردت هذه الجملة في رسائل البلغاء هكذا : « على حين انطمست له الأعلام ... » بزيادة "له"

وليس لها محل من السياق فلعلها من زيادات النساخ .

(٣) أسدَفَ الكفر : أظلم وعم النواحي والأرجاء كالليل . (٤) اقطر : اشتد .

(٥) الغيابة ، ما أظل الانسان من فوق كالسحابة والغبرة ونحوهما .

(٦) في رسائل البلغاء : إعلان بالنون بدل القاف ، وهو محويف .

عزیزاً علیہ عتہم ، رعوفاً بہم رحیماً ، تقدمہ شفقتہ علیہم وعنايتہ برشدہم الى تجريد
الطلب الى ربه فيما فيه بقاء النعمة علیہم ، وسلامة أديانہم ، وتخفيف آصار الأوزار عنہم ^(١) ،
حتى قبضہ الله اليہ - صلى الله علیہ وسلم - ناصحاً متنصّحاً ، أميناً مأموناً ، قد بلغ الرسالة ، وأدى
التصیحة ، وقام بالحق ، وعدل عمود الدين ، حتى اعتدل ميلہ ، وأذل الشرك وأهلہ ، وأنجز
الله له وعدہ ، وأراه صدق أنبيائه في إكمالہ للمسلمين دينہ ، واستقامة سنتہ فيہم ، وظهور
شرائعہ علیہم . قد أبان لهم موبقات الأعمال ، ومفطعات الذنوب ، ومهبطات الأوزار ،
وظلم الشبهات ، وما يدعو اليہ نقصان الأديان ، وتستويہم به الغوايات ؛ وأوضح لهم أعلام
الحق ، ومنازل المرشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعالق العصمة ، غير مدّخر لهم
نصحا ولا مبيت في إرشادهم غناً . فكان مما قدم اليہم فيه نهيہ ، وأعلمہم سوء عاقبتہ ،
وحذّره إصره ، وأوعز اليہم ناهياً وواعظاً وزاجراً ، الاعتكاف على هذه التماثيل من
الشّطنج والمواصلۃ علیہا ، لما في ذلك من عظيم الإثم ، ومويق الوزر ، مع مشغلتها
عن طلب المعاش ، وإضرارها بالعقول ، ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتہا مع جميع
المسلمين .

وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً ، ممن قبلک من أهل الإسلام ، قد ألجہم الشيطان
بہا ، وجمعہم علیہا ، وألف بينهم فیہا ، فهم معتكفون علیہا من لدن صبيحہم الى
مُساءہم ، مُلهيةً لهم عن الصلوات ، شاغلةً لهم عما أمرُوا به من القيام بسُنن دينہم ،
وأفترَضَ علیہم من شرائع أعمالہم ، مع مداعتہم فیہا ، وسوء لفظہم علیہا . وإن ذلك من
نعلہم ظاہرٌ في الأندية والمجالس ، غير منكرٍ ولا معيبٍ ولا مُستفطعٍ عند أهل الفقه ،
وذوى الورع والأديان والأسنان منهم ؛ فأکبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمہ ، وكرهہ

(١) آصار : جمع إصر وهو الثقل . وفي رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمشور لابن طيفور « أواصر » بدل
آصار ، وهو تحريف . (٢) في رسائل البلغاء واختيار المنظوم والمشور لابن طيفور « أسبابه » وهو تحريف .

وَأَسْتَكْبِرْهُ ، وَعَلِمَ أَنَّ الشَّيْطَانَ عِنْدَمَا يُؤْسِ مِنْهُ مِنْ بُلُوغِ إِرَادَتِهِ فِي مَعَاصِي اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ ، بِمَصْرِ الْمَسْلُومِينَ وَتَجْمَعُهُمْ صُرَاحًا وَجِهَارًا ، أَقْدَمَ بِهِمْ عَلَى شُبْهَةِ مُهْلَكَةٍ ، وَزَيَّنَ لَهُمْ وَرْطَةً مُؤَبَّقَةً ، وَغَرَّهم بِمَكِيدَةِ حَيْلِهِ ، إِرَادَةً لَأَسْتَهْوَأَهُم بِالْخُدْعِ ، وَأَجْتَنَاهُم بِالشُّبْهِ وَالْمِرَاصِدِ الْخَفِيَّةِ الْمَشْكَلَةِ . وَكُلُّ مَقِيمٍ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، صَغُرَتْ أَوْ كَبُرَتْ ، مُسْتَحِلًّا لَهَا مُشِيدًا بِهَا ، مَظْهَرًا لآرْتِكَابِهِ إِيَّاهَا ، غَيْرَ حَازِرٍ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا ، وَلَا خَائِفٍ مَكْرُوهًا فِيهَا . وَلَا رَاعِيٍّ مِنْ حُلُولِ سَطْوَتِهِ عَلَيْهَا ، حَتَّى تَلْحَقَهُ الْمَنِيَّةُ ، فَتَخْتَلِجَهُ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهَا ، غَيْرَ تَائِبٍ إِلَى اللَّهِ مِنْهَا ، وَلَا مُسْتَغْفِرٍ مِنْ آرْتِكَابِهِ إِيَّاهَا ، فَكَمْ مِنْ أَقَامَ عَلَى مُؤَبِّقَاتِ الْآثَامِ وَكِبَائِرِ الذُّنُوبِ ، حَتَّى مَدَّتْهُ وَتَحَرَّمَ أَيَّامُهُ .

وَقَدْ أَحَبَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ ، فِيمَا بَلَغَهُ عَنْهُمْ ، وَأَنْ يُنْذِرَهُمْ وَيُوعِزَّ إِلَيْهِمْ ، وَيُعَلِّمَهُمْ مَا فِي أَعْنَاقِهِمْ عَلَيْهَا ، وَمَا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْ الْحِظِّ ، وَعَلَيْهِمْ فِي تَرْكِهِ مِنَ الْوِزْرِ ، فَآذَنَ بِذَلِكَ فِيهِمْ ، وَأَشَدَّهُ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَجَمِيعِ أُنْدِيَتِهِمْ ، وَأُوعِزَّ إِلَيْهِمْ فِيهِ . وَتَقَدَّمَ إِلَى عَامِلِ شُرْطَنِكَ فِي إِنْهَاكَ الْعُقُوبَةَ لِمَنْ رُفِعَ إِلَيْهِ : مِنْ أَهْلِ الْإِعْتِكَافِ عَلَيْهَا وَالْإِظْهَارِ لِلْعَبَثِ بِهَا ، وَإِطَالَةِ حَبْسِهِ فِي ضَيْقِ وَضْنِكَ ، وَطَرَحَ اسْمَهُ مِنْ دِيْوَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَفْطَمَهُمْ عَمَّا لَهَجُوا بِهِ مِنْ ذَلِكَ . وَأَلْتَمَسَ بِشِدَّتِكَ عَلَيْهِمْ فِيهِ وَإِنْهَاكَ كَكَ بِالْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ ، ثَوَابَ اللَّهِ وَجَزَاءَهُ ، وَاتَّبَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَرَأْيَهُ . وَلَا يَحْدَثُ أَحَدٌ عِنْدَكَ هَوَادَةً فِي التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ ، وَالتَّعَدَّى لِأَحْكَامِهِ ، فَتُحِلَّ بِنَفْسِكَ مَا يَسُوءُكَ عَاقِبَةُ مَغْبَتِهِ ، وَتُعَرِّضَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ وَنِكَالِهِ . وَآكُتِبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَكُونُ مِنْكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَالسَّلَامُ .

(١) اجتنأهم : حوّلهم عن طريق قصدهم ويحتمل أن يكون : واحتباهم ، والاحتبال : الاصطيد .

(٢) آذنه الأمر به : أعلمه .

رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب

٩ - ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التي وصف بها الصيد ^(١) :

أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيداً بالعز، مخصوصاً بالكرامة، متمتعاً بالنعمة، إنه لم يلق ^(٢) أحد من المقتنصين، ولا منح منطرّف من المتصيدين، إلا دون ما لقانا الله به من ^(٣) اليمن والبركة، ومنحنا من الظفر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد، وحسن المقتنص، وتمكين الجاسة، وقرب الغاية، وسهولة المورد، وعموم القدورة، ^(٤) إلا ما كان من محاولة الطلب، وشدة النصب، لنافر الصيد، وقائد الطريدة التي أمعنا في الطلب لها، وأعجزنا البهر عن اللحاق بها، لتفاوت سبقها، ومنقطع هربها، ومتفرق سبلها، ثم آل بنا ذلك إلى حسن الظفر، وتناوب الأرب، ونهاية الطرب .

وإني أخبر أمير المؤمنين أننا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأنقِف الضواري، أكرمها أجناساً، وأعظمها أجساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدها أطرافاً، وأطولها أعضاءً، قد ثَقَّفَتْ بحسن الأدب، وعُودَتْ شدة الطلب، وسَبَرَتْ أعلامَ المواقف، وخَبَرَتْ المحام، ^(٥) مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدبت . ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة، ^(٦) من الشهيرة الموصوفة بالنجاة، والجري والصلابة . فلم نزل بأخفض سير، وأنقِف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً، فَرَبَتْ منه الأرض، وزَهَرَ البقل، وسكن القتام من مثار ^(٧) السناكب، ومتشعبات الأعاصير، مُهَلَّة أَنْ سِرْنَا غَلَوَاتٍ، ثم برزت الشمس طالعة، ^(٨) وأنكشفت [من] السحاب مسفرة، فتلاأت الأشجار، وضحك النوار، وأنجلت الأبصار، فلم نر منظرًا أحسن حسناً، ولا مرموقاً أشبه شكلاً، من آبتسام نور الشمس عن أخضرار

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المظوم والمنثور » لابن طيفور .

(٢) في الأصل : « يلف » . (٣) في الأصل : « القانا » . (٤) كذا في الأصل ولعلها

محرفة عن الحالة . (٥) القدورة : القدرة، وفي الأصل : « المقدورة » . (٦) الفراهة :

النشاط في السير . (٧) الشهيرة : البراذين . (٨) في الأصل : هكذا « مسا » :

(٩) في الأصل : « تنسماته » .

زهرة الرياض . والخيل تمرح بنا نشاطا ، وتجتنبنا أعتها أنبساطا ؛ ثم لم نلبث أن علتنا ضبابه^(١) تقصر طرف الناطر ، وتُخفي^(٢) سبل السلام ، تعشانا تارة وتكشف أخرى ، ونحن بأرض دميثة التراب ، أشبه الأطراف^(٣) ، مُغدقة الفجاج ، مملوءة صيدا من الطباء والنعالب والأرانب ؛ فأدانا المسير إلى غايه دونها مألَف الصيد ، ومجتمع الوحش ، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممنون ، وبكل حرة جونة متفرقون^(٤) ، فرجع بنا العود على البدء ، وقد آنجلت الضبابه ، وأمتد البصر ، وأمكن النظر ، فاذا نحن برعلة^(٥) من ظباء ، وخلفة آرام يرتعن آنسات ، قد أحالتهن الضبابه عن شخصنا ، وأذهلهن أنيق الرياض عن آستماع حسنا ، فلم ننج إلا والضواري^(٦) لائحة لهن من بُعد الغايه ، ومنتهى نظر الشاخص ؛ ثم مدت الجوارح أجنحتها ، وأجتذبت الضواري مقادها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها ، وسرعة الجوارح في طلبها ، فترت تحف حفيف الريح عند هبوبها ، تُسف الأرض سقا ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارشة بأظفارها ، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد ؛ فمن صائح بها وناعر ، وهاتف بها وناعق ، يدعو الكلب بأسمه ، ويفديه بأبيه وأمه ؛ وراكض تحت مفيره ، وخافق يطلبه الريح ، وطامح يمنعه ، وسائح قد عارضه بارح ، قد حيرتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة ، حتى آمتلأت أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهاب .

ثم ملنا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمته التجارب ، وخبر أعلام المذانب ، إلى غدير أفيح ، وروضة خضرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ، ملتفة^(٧) بصنوف الخمر ، مملوءة من أنواع الطير ، لم يدع رهن صائد ، ولا آقتنصهن قانص ، نخفق لها بطبول ، وصفر بنفير الخنف ، فنار منها ما ملأ الأفق كثرتها ، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها ؛ ثم آنبرت البراة

(١) في الأصل : "تقصر" . (٢) في الأصل : "ويحي" .

(٣) الأشبه : الملتفة الشجر . وفي الأصل «آسبه» . (٤) الحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود ،

وفي الأصل «حر» . (٥) الجونة : السوداء ، وفي الأصل هكذا : «حونه» . (٦) رعلة : جماعة

متفرقة . (٧) في الأصل : «يفح» . (٨) الخمر : الشجر .

لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهيئ ضارية، يرفعن الطلب لها، ويخفِضْنَ الظفرَ بها،
حتى سَمْنَا من الدَّجج، وأمتلأنا من النضيج^(١)؛ كأنَّا كَتَبْتُ ظَفِرْتُ بِنَغِيَّتِهَا، وَسِرِّيَّةٌ نُصِرْتُ عَلَى
عَدُوِّهَا، وَأَلْحَقْتُ ضَعِيفَهَا بِقَوِيَّهَا، وَغَلَبْتُ مُحْسِنَهَا بِمُسِيئِهَا؛ لَا تَمْلِكُ أَنْفَسَنَا مَرَحًا،
وَلَا نَسْتَفِيقُ مِنَ الْجَذَلِ بِهَا فَرَحًا، بَقِيَّةَ يَوْمِنَا، وَاللَّهِ الْمُنْعِمِ الْوَهَّابِ .

ثمَّ غدونا يا أمير المؤمنين إلى أَرْضٍ وَصِفَ لَنَا صَيْدُهَا بِالكَثَرَةِ، وَرِيَاضُهَا بِالنَّزْهَةِ،
فَزَلَّ وَاصْفَهَا عَنِ الطَّرِيقَةِ، وَاعْتَمَدَ بِنَا عَلَى غَيْرِ الْحَقِيقَةِ؛ فَأَتَيْنَاهَا فَلَمْ نَرِ صَيْدًا وَلَا عُشْبًا،
وَلَا نَزْهَةً وَلَا حَسَنًا، بَفَعَلْنَا نَسْلُكُ مِنْهَا حُزُونًا وَوُعُورًا، وَجُدُوبًا وَقَفْرًا، حَتَّى قَصَّرَ بِنَا الْيَأْسُ
عَنِ الْطَلْبِ، وَقَطَعَ بِنَا عَنِ الطَّمَعِ النَّصَبِ . فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ، إِذْ بَدَأَ لَنَا جَابٌ قَدْ أَوْفَى^(٣)
بِنَا عَلَى حَائِلٍ دَلَّ عَلَى غَايَةِ مِنْ وَرَائِهَا حَمِيرٌ وَحِشٌ كَثِيرٌ، فَأَمْنَمْنَاهَا، فَلَمَّا تَطَرَّفْنَا مَشْيًا وَتَقْرِيبًا^(٤)
إِلَى عَانَاتِهِ، تَوَالَى نَهْيُهُ، وَكَثُرَ شَهيقُهُ، فَالْتَفَتْنَا إِلَيْهِ، فَرَمَقْنَا بِأَعْيُنِنَا مَا مَا اسْتَكْثَرْنَا شَخْصَهُ،
وَأَسْمَهُولْنَا أَمْرَهُ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ أَنْجَذَيْنَا مُوَلِّيَاتٍ، وَهَرَبْنَ مَسِيَّاتٍ، فَأَجْهَدْنَا
الرَّكُضَ فِي طَلَبِنَا، نَتَّبِعُ آثَارَهُنَّ، وَنَسْتَشْفُ بِلَاءَ بَيْنِ أَحْقَارٍ وَدَكَدِكَ^(٥) وَخَنَازِيدٍ^(٦)، حَتَّى أَشْفَى^(٧)
بِنَا الْطَلْبُ لَهَا عَلَى وَاِدِّهَا لِي سَائِلٍ، بِجَنَبَتَيْهِ غَايَةُ أَشْبَهُ قَدْ سَبَقْنَا إِلَيْهَا، وَأَسْتَخْفَيْنَ فِيهَا،
فَنَظَمْنَاهَا بِالْخَيْلِ نَظْمَ الْخَرَزِ، ثُمَّ أَوْغَلَتْ عِدَّةَ فُرْسَانٍ فِي نَفْضِهَا وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا، وَالطَّبْوَلِ
خَافَقَةٍ، وَالْأَصْوَاتُ شَاهِقَةٍ، فَكَانَ وَكَانَ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

(١) النضيج : العرق .

(٢) فِي الْأَصْلِ : "قَلْبٌ" . (٣) الْجَابُ : الْغَلِيزُ مِنْ حِمَارِ الْوَحْشِ . (٤) فِي الْأَصْلِ :

"مَسِيَا" . (٥) التَّقْرِيبُ : ضَرْبٌ مِنَ الْعَدُوِّ . (٦) الْعَانَةُ : الْقَطِيعُ مِنْ حِمَارِ الْوَحْشِ .

(٧) الْأَحْقَارُ جَمْعُ حَفَرٍ وَهُوَ التَّرَابُ الْمَخْرُجُ مِنَ الْحَفُورِ . (٨) الدَكَدَكَ : جَمْعُ دَكَاكٍ وَدَكَدَكَ وَهُوَ أَرْضٌ فِيهَا

غُلْظٌ . (٩) الْخَنَازِيدُ : جَمْعُ خَنَازِيدٍ وَهُوَ رَأْسُ الْجَبَلِ الْمَشْرِفِ ، وَالَّذِي يَتَّفِقُ وَالسِّيَاقُ "أَخَادِيدُ" ،

وَهِيَ جَمْعُ أَخْدُودٍ : الْحَفْرَةُ الْمُسْتَطِيلَةُ فِي الْأَرْضِ .

باب المنظوم

الغزل

ذكرنا في المجلد الأول حالة الغزل في العصر الأموي، وكثرة ما نجد فيه من لوائح الحب ولفحاته، وشكائيات الصب وأناته، وزفرات العاشق وعبراته. وبيننا أنواعه المتباينة التي قسمناها الى أربعة أقسام :

(١) غزل إباحي : ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبي ربيعة زعيما لهذا النوع الذي يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معاني العبت والاستمتاع باللذة المادية مما ينفّر منه الأدب الجاهلي، ومما حظّره عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمته. وقد كانت مكة والمدينة مسرحا لهذا النوع في العصر الأموي. وقد شرحنا سبب ذلك في المجلد الأول فراجعهُ ثمة.

(ب) غزل عُذريّ : وهو غزل الحب الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألّمة المعنّاة، تلك النفس التي تجد لذتها في الكلف بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة في الفناء في حبا، حباً يملك عليه لبّه ويعذب روحه ويُفنى جسمه، كغزل جميل زعيم هذا النوع. وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن كتاب الأغاني اذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاجّه في ذلك أجمل مُحاجة، فكان من جميل ما كان مما تجده مفصّلا في هذا الباب.

(ج) غزل صناعيّ : بين هذا وذاك، همّة الإجابة في الشعر من حيث هو شعر، لا في الحب من حيث هو حب، ولنا في كثير غزاة زعيم لهذا النوع الثالث.

(د) غزل قصصيّ : خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القصص وما يتبع حياة القصص، فنظموا قصائد نخلوها لشعراء لا نستطيع أن نختلّ بتيعة

القول بوجودهم في الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوها لهم وأضافوها إلى شعرهم . وزعيا هذا النوع : قيس بن الملوّح وليلاه، وقيس بن ذريح ولبناه .

وإفاء بما وعدناك به نذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

(١) الغزل الاباحي

عمر بن أبي ربيعة^(١)

« راق عمر بن أبي ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر وشدة الأسر، وحسن الوصف، ودقة المعنى، وصواب المصدر، والقصد للحاجة، وأستنطاق الرّبع، وإنطاق

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي المخزومي، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وكانت أمه نصرانية ، وكان أبوه تاجرا موسرا ، وعاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الثلاثة من بعده ، فشب في نعيم وترّف ، وقال الشعر صغيرا ، وسلك فيه طريق الغزل ، ووصف أحوال النساء وتراورهن ومداعبة بعضهن لبعض ، وما يعتدن قوله من الكلام ، مما يتوقر الشعراء الفحول عن الخوض فيه ، ولذلك لم يحتفلوا بشعره وعدوه من هذيان خلعا المدينة ، فما زال يعالج الشعر والشعرينقاد له ، حتى ملك ناصيته ، وقبض على زمامه ، وبز الشعراء ، وقال رأيته المشهورة على طريقته المبتكرة وهي التي أولها :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر * غداة غد أم رافع فهجرج

والتي قال فيها جرير حين سمعها : ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر .

ثم استطار شره في التشبيب بالنساء : من يعرفها ومن لا يعرفها ، وتعرض لأحصنات المتعفقات من نساء قومه ومن غيرهن ، فوقعن منه في بلاء عظيم وصرن يحفن الخروج إلى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة ، ويتربحن خروجهن للطواف والسعي ويصفهن وهن محرمات . وحلبت عليه رجالات قريش لمكانة نسبه منهم ولتربن توبته وإفلاعه ، فلما تمادى في أمره وشبب بينات السادات والخلفاء ، غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونفاه إلى دهلك : (وهي جزيرة أمام مدينة مصوّع) ، ثم رأى ابن أبي ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد ففزا في البحر فاحترقت السفينة التي كان فيها واحترق هو أيضا سنة ٩٣ هـ وقد اقتبسنا تصدير بحثنا عنه عن أبي الفرج الأصفهاني وتجد ترجمته مطبولة في الأغاني ج ١ ص ٦١ — ٢٤٨ . (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ وابن خلكان (ج ١ ص ٣٧٨) والدميري (ج ١ ص ٣٢٦) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع في ليبزج سنة ١٨٩٣ وفي مصر سنة ١٣١١ ومنه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية .

القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، وإثبات المجّة ،
وترجيح الشك في موضع اليقين ، وطُلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العِلل . وعَطَفَ
المساءة على العُدّال ، وحسن التفجّع ، وبُحْلُ المنازل ، واختصار الخبر ، وصدق الصّفاء ؛
إن قدح أورى ، وإن اعتذر أبرأ ، وإن تشكى أشجى ، وأقدم عن خبرة ، ولم يعتذر بغيره ،
وأسر النوم ، وغم الطير ، وأغدّ السير ، وحير ماء الشّباب ، وسهل وقول ، وقاس الهوى
فأربى ، وعصى وأخلى ، وحالف بسمع وطرفه ، وأبرم نعت الرُّسل وحذر ، وأعلن الحبّ
وأسر ، وبطن به وأظهر ، وألح وأسف ، وأنكح النوم ، وجنى الحديث وضرب ظهره
لبطنه ، وأذلّ صعبه ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، وأعلى قاتله ، وأستبكي عاذله ، ونقض النوم ،
وأغلق رهن منى وأهدر قتلاه ؛ وكان بعد هذا كله فصيحاً .

فمن سهولة شعره وشدة أسره قوله ^(١) :

فلما توافقنا وسأمتُ أشرقَتْ * وجوهُ زهاها الحسنُ أن نتقنَا
تبألحن بالعِرْفان لما رأيْنِي * وقلنَ أمرؤُ باغٍ أكلٌ وأَوْضَعَا ^(٢)

ومن حُسن وصفه قوله :

لها من الرِّيم عيناها ولَفَتَتْهُ * ونحوهُ السابقُ المُخْتَالِ إذ صَهَلَا ^(٣)

ومن دقة معناه وصواب مَصْدَره قوله :

عوجاً نحى الطَّلَلُ المَحْوِلَا ^(٤) * والرَّبعُ من أسماءِ والمنزَلَا ^(٥)
بسايغِ البَوَابَةِ لم يَعُدْهُ * تقادُمُ العهدِ بأن يؤَهَلَا ^(٦)

(١) المراد من شدة الأسر هنا إحكام النسيج ومثانة التركيب . (٢) أكل : أعيأ وأوضع : أسرع

في السير . (٣) الرِّيم : الظبي . (٤) عوجاً : قفا . (٥) المحول والمحيل : الذي أت

عليه أحوال كثيرة فغيرته . (٦) البوابة : الفلاة واسم لصحراء بأرض تهامة اذا خرجت من أطلى

وادی النحلة الجمانية وهي بلاد بنى سعد بن بكر بن هوازن . (معجم البلدان لياقوت) .

ومن قصيده للحاجة قوله :

أيها المنكح الثريا سهيلاً^(١) * عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت * وسهيل إذا استقل يمانى

ومن استنطاقه الربع قوله :

سائلاً الربع بالبلى^(٢) وقولا * هجت شوقاً إلى الغداة طويلاً
أين حتى حلوك إذ أنت محفو * ف بهم أهل أراك جميلاً
قال ساروا فامعنوا واستقلوا^(٣) * وبرغمي ولو وجدت سبيلاً
سميونا وما سميئنا جواراً * وأحبوا دمانه^(٤) وسهولاً

قال إسحاق : أنشد جرير هذه الأبيات فقال : إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه .

ومن إنطاقه القلب قوله :

قال لي فيها عتيق مقالا * بغرت مما يقول الدموع
قال لي ودع سليمي ودعها * فأجاب القلب : لا أستطيع

ومن حسن عزائه قوله :

ألحق إن دار الرباب تباعدت * أو أنبت جبل أن قلبك طائر
أفق قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ * هوى وأستمرت بالرجال المرائر^(٦)
زع النفس واستبق الحياء فإتما^(٧) * تباعد أو تُدني الرباب المقادر
أمت حبها وأجعل قديم وصالحها * وعشرتها كمثل من لا تُعاشر

(١) هي الثريا ابنة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف الأموية . تزوجها سهيل

ابن عبد الرحمن بن عوف الزهري رضى الله عنه ونقلها الى مصر فقال عمر هذا الشعر . (٢) البلى — بضم

وفتح وياء مشددة — تل قصير أسفل حاذة بينها وبين ذات عرق (ياقوت) . (٣) استقلوا : واصلوا

السير وجدوا في الأرتحال . (٤) يقال : دمت الأرض دمانه : سهلت ولانت . (٥) انبت :

انقطع . (٦) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عزائمهم وهو يريد أن يسلسلهم .

(٧) زع النفس ، أى أزجرها وكفها عن هواها .

وهيها كشيء لم يكن أو كخارج * به الدار أو من غيبته المقابر
وكالناس علقت الرباب فلا تكن * أحاديث من يبدو ومن هو حاضر^(١)

وهذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكثير، ويرويها الكوفيون للكثير بن معروف
الأسدي ، وذكر بعضها الزبير بن بكار عن ابن عبيدة لكثير في أخباره .

ومن حسن غزله في مخاطبة النساء — قال مضعب الزبيري : وقد أجمع أهل بلدنا
ممن له علم بالشعر أن هذه الأبيات أغزل ما سمعوا — قوله :

تقول غداة ألقينا الرباب * أياذا أفلت أفول السماء
وكفت سوابق من عبرة * كما أرفض نظم ضعيف السلا
فقلت لها من يطع في الصديق أعداءه يحتنبه كذاك
أغرك أنى عصيت الملا * م فبك وأن هوانا هواك
وأن لا أرى لذة في الحياة * تقر بها العين حتى أراك
فكان من الذنب لي عنديكم * مكارمتي وأتباعي رضاك
فليت الذي لأم في حُبكم * وفي أن تزارى بقرب^(٢) وقاك
هموم الحياة وأسقامها * وإن كان حثف جهين فذاك^(٣)

ومن عفة مقاله قوله :

طال ليلى وأعتادني اليوم سقم * وأصابت مقاتل القلب نعم
حرّة الوجهه والسمايل والجو * هير تكليمها لمن نال غم
وحديث بمثله تترل^(٤) العصم * ثم رخم يشوب ذلك حلم
هكذا وصف ما بدا لي منها * ليس لي بالذي تغيب علم
إن تجودي أو تجلي فبحمد * لست يا نعم فيهما من يدم

(١) أى من يقيم في البدو والحضر . (٢) المراد به قرن المنازل ، وكثيرا ما يذكره في شعره .

(٣) جهيز : سريع . (٤) العصم : جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه بياض ،

وهي تعصم غالبا بقطن الجبال .

ومن قلة آتقاله قوله :

أيها القائل غير الصواب * أمسك النصح وأقل عتابي
 وأجتنبي وأعلم أن ستعصى * ونحير لك طول آجتاني
 إن تقل نصحا فمن ظهر غش^(١) * دائم الغمر بعيد الذهب
 ليس بي عي بما قلت لاني * عالم أفتقه رجع الجواب
 إنما قرة عيني هواها * فدع اللوم وكلني لمابي
 لا تلمني في الرباب وأمسست * عدلت للنفس برد الشراب
 هي والله الذي هو ربّي * صادقا أحلف غير الكذاب
 أكرم الأحياء طرا علينا * عند قرب منهم واجتناب
 خاطبتني ساعة وهي تبكي * ثم عزت خلتي في الخطاب^(٢)
 وكفى بي مدرها لخصوم * لسواها عند حد تباني^(٣)

ومن إثباته الحجة قوله :

خليلي بعض اللوم لا ترحلا به^(٤) * رفيقا حتى تقولاً على علم
 خليلي من يكف بأخر كالذي * كلفت به يذمل فؤادا على سقيم^(٥)
 خليلي ما كانت تُصاب مقاتلي * ولا غررتي حتى وقعت على نعم
 خليلي حتى لف حيلي بخاديع^(٦) * موق إذا يرعى صيود إذا يرعى^(٧)
 خليلي لو يرق خليل من الهوى * رقيت بما يذني النوار من العضم^(٨)
 خليلي إن باعدت لانت وإن ألن * تباعد فلم أنبل بحرب ولا سلم^(٩)

- (١) الغمر (بكسر الغين) : الحقد والغل . والغمر (بفتح الغين) : الماء الكثير ، وكلاً المعنيين يحتمله البيت .
 (٢) عدلت : ساوت . (٣) أي غلبتني صدقتي في الخطاب قال تعالى : (وعزني في الخطاب) .
 (٤) يريد : حسبي غالباً لكل خصم سواها إلى حد هلاكى . (٥) يقال : رجل فلان بما يكره ، والمراد أنه يتفلسه باسماعه إياه .
 (٦) يذمل : يطوى . قال في اللسان : ويقال : آدمّل القوم ، أي أطوهم على ما فهم . (٧) يكنى بهذا عن الوقوع في شركها . (٨) النوار : النافرة من الظباء .
 (٩) لم أنبل : لم أصب ، أو لم أحسن الرمي .

ومن ترجيحه الشك في موضع اليقين قوله :

نظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ مِنْ مَنِي * ولى نظراً لولا التَّحَرُّجِ عَارِمٌ^(١)
 فقلت : أشمسُ أم مَصَابِيحُ بَيْعَةٍ * بدتْ لك خَلْفَ السَّجْفِ أم أنت خَالِمٌ^(٢)
 بعيدةٌ مَهْوَى القُرْطِ إِمَّا لِنُوفَلٍ * أبوها وإما عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمٌ^(٣)
 ومدَّ عليها السَّجْفَ يَوْمَ لَقِيَتْهَا * على عَجَلٍ تَبَاعُهَا وَالْخَوَادِمُ
 فلم أستطعها غير أن قد بدا لنا * عَشِيَّةَ رَاحَتِ وَجْهَهَا وَالْمَعَاصِمُ
 معاصمٌ لم تَضْرِبْ على البَهِيمِ بالضَّحَى^(٤) * عَصَاهَا وَوَجْهَهُ لَمْ تَلْجِهْ السَّمَائِمُ^(٥)
 نُضَارٌ تَرَى فِيهِ أَسَارِيْعَ مَائِهِ * صَبِيحٌ تُعَادِيهِ الْأَكْفُ النَّوَاعِمُ
 إِذَا مَادَعَتْ أَتْرَابَهَا فَأَكْتَنَفَهَا * تَمَائِلُنْ أَوْ مَالَتْ بِهِنَ الْمَائِمُ^(٦)
 طَلَبْنِ الصَّبَا حَتَّى إِذَا مَا أَصْبَنَهُ * نَزَعْنَ وَهْنِ الْمُسْلِمَاتِ الظَّوَالِمُ^(٧)
 ومن طُلَاوَةِ اعْتِدَارِهِ قَوْلُهُ :

عَاوَدَ الْقَلْبَ بَعْضُ مَا قَدْ شَجَاه * مِنْ حَبِيبٍ أَمْسَى هَوَانَا هَوَاهُ
 يَا لَقَوْنِي فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَمَّنْ * لَا تَرَى النَّفْسُ طَيْبَ عَيْشٍ سِوَاهُ
 أَرْسَلْتُ إِذْ رَأْتُ بَعَادَى الْأَا * يَقْبَلُنْ بِي مُحَرَّشًا إِنْ أَنَاهُ^(٨)
 دُونَ أَنْ يَسْمَعَ الْمَقَالَةَ مِنَّا * وَلِيُطِغْنِي فَإِنَّ عِنْدِي رِضَاهُ
 لَا تُطِغْ بِي قَدْ تَكَّ نَفْسِي عَدُوًّا * لِحَدِيثٍ عَلَى هَوَاهُ أَفْطَرَاهُ
 لَا تُطِغْ بِي مَنْ لَوْ رَأَى وَإِيَّا * لَكَ أَسِيرِي ضَرْوَرَةٍ مَا عَنَاهُ
 مَا ضَرَّارِي نَفْسِي بِهَجْرِي مَنْ لَيْد * سِمْسِينًا وَلَا بَعِيدًا تَرَاهُ^(٩)
 وَأَجْتَنَابِي بَيْتَ الْحَبِيبِ وَمَا خَلَدُ * لِدُ بَاشَمِي إِلَى مَنْ أَنْ أَرَاهُ

(١) عارم : حادّ . (٢) السجف : السرّ . (٣) كناية عن طول العنق ، وبه فسر في المثل
 السائر (طبعة بولاق ص ٣٨٣) . (٤) البهم : جمع بهمة ، وهى الصغير من أولاد الضأن والمغز والبقر .
 (٥) لم تلجه : لم تغيره . (٦) أساريْع الماء : طرائقه . والمراد أنه يفرق فيه ماء الشباب .
 (٧) المائِم : جمع ماكمة وهى العجيزة . (٨) المحرّش : المغرّ ، من التحريش وهو الاغراء والافساد .
 (٩) الترى : الخير .

ومن نهجه العَلَلُ قوله :

وآيةُ ذلك أن تَسْمَعِي * إذا جئتكم ناشداً يَنْشُدُ
فُرحنا سِراعاً وراح الهوى * دليلاً إليها بنا يَقْصِدُ
فلما دنونا لِجَرَسِ النَّبَا^(١) * ح والصوت، والحى لم يَرْقُدوا
بعثنا لها باغياً ناشداً * وفي الحى بُغْيَةٌ من يَنْشُدُ

ومن فتحة الغزل قوله :

إذا أنت لم تعشَقْ ولم تدرِ ما آلهوى * فكنْ حجراً من يابس الصَّخَرِ جَلَمَداً
ومن عطفه المساءة على العُدال قوله :

لا تَلْمِني عَتِيقُ حَسْبِي الذي بى * إك بى ياعَتِيقُ ما قد كَفَانِي
لا تَلْمِني وأنت زَيْنَتُها لى * أنت مثلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

ومن حُسن تفجُّعه قوله :

هَجَرَتِ الحَيِّبَ اليَوْمَ من غيرِ ما أَجْتَرَمُ * وقطَّعتَ من ذى وَدَّكَ الحَبْلَ فانصرمُ
أَطَعْتَ الوُشَاةَ الكاشِحينَ ومن يُطْعُ * مقالةً وإشٍ يَقْرِعُ السَّنَّ من نَدَمِ
أَتَانِي رَسولٌ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّهُ * شَفِيقٌ عَلَيْنَا ناصِحٌ كالذى زعمُ
فلما تَبَاثَنَّا الحَدِيثَ وصرَّحتُ * سَرَّاءُهُ عن بَعْضِ ما كانَ قد كَتَمُ
تَبَيَّنَ لى أنَ المُحَرَّشِ^(٢) كاذِبٌ * فعنْدِي لكَ العُتْبَى على رَغَمٍ من رَغَمِ
فِإِلَّا نَ لَمْتُ النَفْسَ بعدَ الذى مَضَى * وبعدَ الذى آلتِ وآلَيْتُ من قَسَمِ
ظَلَمْتَ ولم تُعْتَبْ وكانَ رَسولُها * إِلَيْكَ سَريعاً بِالرَّضَا لَكَ إِذْ ظَلَمَ

(١) الجرس : الصوت . (٢) بث الحديث : إفضاؤه . (٣) المحرّش : المغرّى ، يقال :

حرّش بن القوم : أفسد بينهم .

ومن تخيله المنازل قوله :

ألم تسأل الأطلال والمتربعا * بيطن حليات دوارس بلقعا^(١)
إلى السرح من وادي المغمس بدلت^(٢) * معالمها وبلا ونكباء زعزعا^(٣)
فيخطن أو يخيرن بالعلم بعدما * نكان فؤادا كان قدما مفيجا^(٤)

ومن اختصاره الخبر قوله :

أين آل نعيم أنت غاد فمبكر * غداة غد أم رائح فمهجّر
بحاجة نفس لم تقّل في جوابها * فتبلغ عذرا والمقالة تعذر
أشارت بمدراها وقالت لتربها^(٥) * أهذا المغيرى الذى كان يدكر
لئن كان إياه لقد حال بعدنا * عن العهد والإنسان قد يتغير

قال الزبير حدثنى إسحاق الموصلى قال : قلت لأعرابي : ما معنى قول ابن أبي ربيعة :
بحاجة نفس لم تقّل في جوابها^(٦) * فتبلغ عذرا والمقالة تعذر
فقال : قام كما جلس .

ومن صدقه الصفاء قوله :

كل وصل أمسى لديك لأننى * غيرها وصلها إليها أداء
كل أننى وإن دنت لوصول * أونات فهى للرباب الفداء

- (١) حليات (بضم الخاء المهملة وفتح اللام وتشديد الياء) : اسم موضع ذكره البكري وياقوت ولم يبيناه ، ولعله موضع قرب مكة بقرينة ذكره مع المغمس الوارد في البيت بعده .
(٢) السرح : موضع .
(٣) المغمس (بتشديد الميم وفتحها كما في ياقوت ، وضبطه البكري في معجمه بكسر الميم وتشديدها) : موضع قرب مكة في طريق الطائف ، مات فيه أبو رغال وقبره يرجح لأنه كان دليل أبرهة صاحب الفيل . (٤) النكباء : الريح التي تنكب عن مهاب الرياح . (٥) يقال : ريج زعزع ، أى شديدة ، وكذلك زعزاع وزعزوع .
(٦) يقال : نكا الجرح : فشره قبل أن يلتئم . (٧) المدرى والمدراة : حديدة يحك بها الرأس .
(٨) أى هى في غاية من السر لا يجاب عنها إذا سئل عنها ، والإعذار : فنى العذر .

وقوله :

أُحِبُّ لِحَبِّكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ * صَفِيًّا لِنَفْسِي وَلَا صَاحِبًا
وَأَبْذُلُ مَالِي لِمَرْضَاتِكُمْ * وَأُعْتَبُ^(١) مِنْ جَاءِكُمْ عَاتِبًا
وَأَرْغَبُ فِي وَدِّ مَنْ لَمْ أَكُنْ * إِلَى وَدِّهِ قَبْلَكُمْ رَاغِبًا
وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي جَانِبٍ * مِنَ الْأَرْضِ وَأَعْتَلَّتْ جَانِبًا
لَيَمَّمْتُ^(٢) طَيْبَهَا إِنَّنِّي * أَرَى قُرْبَهَا الْعَجَبَ الْعَاجِبًا

ومما قَدَحَ فِيهِ فَأَوْزَى قَوْلُهُ .

طَالَ لَيْلِي وَتَعَنَّنِي الطَّارِبُ^(٣) * وَأَعْتَرَانِي طَوْلُ هَمٍّ وَوَصَبٍ^(٤)
أَرْسَلْتُ أَسْمَاءَ فِي مَعْتَبَةٍ * عَتَبَتْهَا وَهِيَ أَحْلَى مِنْ عَتَبٍ
أَنْ أَنَّى مِنْهَا رَسُولٌ مُوَهَّنًا^(٥) * وَجَدَ الْحَيَّ نِيَامًا فَأَنْقَلَبَ
ضَرَبَ الْبَابَ فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ * أَحَدٌ يَفْتَحُ بَابًا إِذَا ضَرَبَ
قَالَ : أَيَقَاطُ، وَلَكِنْ حَاجَةٌ * عَرَضَتْ تُكَلِّمُنَا فَأَحْتِجِبُ
وَلَعَمْرَدًا رَدَّنِي، فَاجْتَهَدْتُ * بَيْنَ حَلْفَةٍ عِنْدَ الْغَضَبِ
يَشْهَدُ الرَّحْمَنُ لَا يَجْمَعُنَا * سَقْفُ بَيْتٍ رَجَبًا بَعْدَ رَجَبٍ
قُلْتُ حَلًّا فَاقْبَلِي مَعْذِرَتِي * مَا كَذَا يَجْزِي حُبًّا مِنْ أَحَبِّ
إِنْ كَفَى لَكَ رَهْنٌ بِالرِّضَا * فَاقْبَلِي يَا هِنْدُ، قَالَتْ قَدْ وَجَبَ

قالوا : ومن شعره الذي آعْتَذَرَ فِيهِ فَأَبْرَأَ قَوْلُهُ :

فَالْتَقَيْنَا فَرَجَبَتْ حِينَ سَلَّمَ * سَتُوكَفَّتْ دَمْعًا مِنَ الْعَيْنِ مَارًا^(٦)
ثُمَّ قَالَتْ عِنْدَ الْعِتَابِ رَأَيْنَا * مِنْكَ عَنَّا تَجَلُّدًا وَأَزْوَارًا^(٧)

(١) يقال : أعتبه إذا أعطاه العتبي وأرضاه . (٢) طيبها : ناحيتها وقصدها . (٣) تمناني : أوقعني في العناء . (٤) الطرب : خفة تعترى الإنسان عند شدة الفرح أو الحزن والهم . (٥) الموهن : نحو من نصف الليل . (٦) مار : جرى وسال . (٧) الأزوار : الإعراض .

قُلْتُ كَلَّا لَآءِ ابْنِ عَمِّكَ بَلْ خَفَ * نَا أُمُورًا نَكَّأَ بِهَا أَغْمَارًا^(٢)
 بَجَعَلْنَا الصَّدُودَ لَنَا حَشِينَا * قَالَةَ النَّاسُ لِلْهَوَى أَسْتَارَا
 لَيْسَ كَالْعَهْدِ إِذْ عَهِدْتَ وَلَكِنْ^(٣) * أَوْقَدَ النَّاسُ بِالنِّيمَةِ نَارَا
 فَلِذَاكَ الْإِعْرَاضُ عَنْكَ وَمَا آ * ثَرْقُلِي عَلَيْكَ أُخْرَى اخْتِيَارَا
 مَا أَبَالِي إِذَا النَّوَى قَرَّبَتْكُمْ * فَدَنُوتُمْ مَنْ حَلَّ أَوْ مَنْ سَارَا
 فَالِلْيَالِي إِذَا نَأَيْتَ طَوَالَ * وَأَرَاهَا إِذَا قُرْبَتْ قِصَارَا

وَمَنْ تَسْكِيهِ الَّذِي أُشْجِيَ فِيهِ قَوْلُهُ :

لَعَمْرُكَ مَا جَاوَرْتُ غُمْدَانُ طَائِعًا * وَقَصَرَ شَعُوبُ^(٥) أَنْ أَكُونَ بِهِ صَبَاً
 وَلَكِنْ حُمَى أَضْرَعْتَنِي^(٦) ثَلَاثَةً * مُجْرِمَةٌ ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ بِنَا غِيَاً^(٨)
 وَحَتَّى لَوْ أَنَا لَخَلَدْتُ يَعْزُضُ^(٩) إِنْ مَشَتْ * إِلَى الْبَابِ رِجْلِي مَا نَقَلْتُ لَهَا إِرْبَاً^(٩)
 فَإِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَ يَوْمَ سَوَيْقَةٍ^(١٠) * مُنَاخِي وَحَبْسِي الْعَيْسَ دَامِيَةً حَذْبَاً^(١١)
 وَمَضَرَخَ إِخْوَانٍ كَأَنَّ أَيْنَهُمْ * أَنْيُنُ مَكَاكِي فَارَقْتُ بِلْدَا خَضْبَاً^(١٢)
 إِذَا لَأَقْشَعَرَّ الْخَلْدُ مِنْكَ صَبَابَةً * وَلَا سَتَفَرَعْتُ عَيْنَاكَ مِنْ عِبْرَةِ سَجَا

وَمِنْ إِقْدَامِهِ عَنْ خِبْرَةٍ وَلَمْ يَفْتَذِرْ بِغُرَّةٍ قَوْلُهُ :

صَرَمْتُ وَوَاصَلْتُ حَتَّى عَرَفْتُ * تُتْ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمَسُورِدُ
 وَجَرَّبْتُ مِنْ ذَاكَ حَتَّى عَرَفْتُ * تُتْ مَا أَتَوَقَّى وَمَا أَعْمَدُ

- (١) لآء بمعنى لله . (٢) الغمر (بضم الغين وفتحها مع سكون الميم ، وفتحتين ، وفتح فكسر) : الغمر الجاهل الذي لم يجزب الأمور . (٣) أى ليس الأمر كما تعهد من قبل .
 (٤) غمدان : قصر باليمن بناء « يشرخ بن يحصب » . (٥) قصر شعوب : قصر عال مرتفع باليمن .
 (٦) أضرعتنى : أضعفتنى وأذلتنى . (٧) مجرمة كعظمة : تامة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة .
 (٨) الغب من الحمى : ما تأخذ يوماً وتدع يوماً . (٩) أى ما حركت له عضواً . (١٠) سويقة : موضع .
 (١١) حذبا جمع حذباء ، وأصل الحذب : ما أرتفع من الأرض ، يريد أنه أعيها السير فهمى دامية متقوسة الظهور هزالا . (١٢) المكاكى : جمع مكاء ، وهو طريق يشبه القبرة إلا أن في جناحيه بلقا ، وهو حسن الصوت في تغريده .

ومن أسيره النوم قوله :

نام صَحِي وَبَات نَوْمِي أَسِيرًا * أَرْقُبُ النَجْمَ مَوْهِنًا أَنْ يَغُورَا

ومن غمّه الطير قوله :

فَرَحْنَا وَقَلْنَا لِلْغَلَامِ أَقْضَى حَاجَةً * لَنَا ثُمَّ أَدْرِكُنَا وَلَا نَتَغَبَّرُ

سِرَاعًا نَعْمُ الطَّيْرُ إِنْ سَنَحَتْ لَنَا * وَإِنْ تَلَقَّنَا الرُّكْبَانُ لَا تَتَغَبَّرُ^(٢)

نتغبر من قولهم : غبر فلان ، أى لبت .

ومن إغذاؤه السير قوله^(٣) :

قُلْتُ سِيرًا وَلَا تُقِيَا بَبْصَرِي^(٤) * وَحَفِيرٍ فَمَا أُحِبُّ حَفِيرًا^(٥)

وَإِذَا مَا مَرَرْتُمَا بِمَعَانٍ^(٦) * فَأَقْلًا بِهِ الثَّوَاءَ وَسِيرًا

إِنَّمَا قَصَرْنَا إِذَا حَسَرَ السَّيْرُ^(٧) * رُبُّ بَعِيرًا أَنْ نَسْتَجِدَّ بَعِيرًا^(٨)

ومن تحييره ماء الشباب قوله :

أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَاةِ تَهَادَى * بَيْنَ نَحْمَسٍ كَوَاعِبِ أَتْرَابِ

ثُمَّ قَالُوا تَحْبُّهَا قُلْتُ بِهِرًا * عَدَدَ الْقَطْرِ وَالْحَصَى وَالْأَتْرَابِ

وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحِيرُ مِنْهَا * فِي أَدِيمِ الْخَلْدَيْنِ مَاءُ الشَّبَابِ

ومن تقويله وتسهيله قوله :

قَالَتْ عَلَى رِقْبَةٍ يَوْمًا لِحَارَتِهَا * مَا تَأْمُرِينَ فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ تَبَيَّلَا^(٩)

وَهَلْ لِيَ الْيَوْمَ مِنْ أُخْتٍ مُوَاخِيَةٍ * مِنْكَنْ أَشْكُو إِلَيْهَا بَعْضَ مَا فَعَلَا

(١) لعله يريد : نخزنها بالسبق ، أو نهرها ونغلبها ، من قولهم : غم القمر النجوم : بهرها وكاد يستر ضوءها .

(٢) التغبر : السؤال عن الخبر . (٣) أغذ السير وأغذ فيه : أسرع . (٤) بصرى : بلد بالشأم .

(٥) حفير : نهر بالأردن ببلاد الشام . (٦) معان : مدينة في طرف بادية الشام لقاء الحجاز من نواحي

اللقاء . (٧) قصرنا ، أى قصارانا وغايتنا . (٨) حسر السير بعيرا : أجهده وأعياه .

(٩) المتبول : من أسقمه الهوى وغلبه الحب على أمره .

(١) فراجعها حصان غير فاحشة * برجع قول ولب لم يكن خطلاً (٢)
لا تذكري حبه حتى أراجعه * إني سأكفيك إن لم أمت عجلاً
فأقني حياءك في ستر وفي كرم * فليست أول أنى علقت رجلاً (٣)
وأما ما قاس فيه الهوى فقله :

وقربن أسباب الهوى لمتيم * يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعاً
ومن عصيانته وإخلائه قوله :

وأنص المظي يتبعن بالرك * يب سراً نواعم الأظعان (٤)
فنصيد الغرير من بقر الوح * ش ولهو بلذة الفتيان (٥)
في زمان لو كنت فيه ضجيجي * غير شك عرفت لي عصياني
وتقلبت في الفراش ولا تد * رين إلا الظنون أين مكاني
ومن مخالفته بسمعه وطرفه قوله :

سمعي وطرفي حليفاً على جسدي * فكيف أصبر عن سمعي وعن بصري
لو طوعاني على ألا أكلّمها * إذا لقضيت من أوطارها وطري
ومن إبرامه نعت الرسل قوله :

فبعثت كاتمة الحديد * ب رقيقة بجوارها
وحشية إنسيّة * خراجة من بامها
فرقت فسهلت المعأ * رض من سبيل نقابها

ومن تحذيره قوله :

لقد أرسلت جاريتي * وقلت لها خذي حذرَكَ
وقولي في ملاطفة * لزنب نولي عمركَ

(١) حصان : عقيقة . (٢) الخطل : الفاسد المضطرب . (٣) أقني حياءك : الزميه .

(٤) نص المظي : استخراج أقصى ما عندها من السير . (٥) الغرير : الغافل .

فإن داويتِ ذا سَقَمٍ * فأخزى الله من كفرِكَ
فهزّت رأسها عجباً * وقالت من بدأ أمرَكَ
أهذا سحرَكَ النِّسوا * ن، قد خبرتني خبرَكَ
وقلن إذا قضى وطراً * وأدرك حاجةَ هجرَكَ

ومن إعلانه الحب وإسراره قوله :

شكوتُ إليها الحبُّ أعلنُ بعضه * وأخفيتُ منه في الفؤادِ غليلاً
وما أبطن فيه وأظهر قوله :

حُبكم يا آلَ لَيْلى قاتلي * ظهرَ الحبُّ بجسمي وبطنِ
ليس حبٌّ فوق ما أحببتكم * غيرَ أن أقتلَ نفسي أو أُجَنِّ
وما ألحَّ فيه وآسَفَ قوله :

ليت حظي كطرفة العين منها * وكثيرٌ منها القليلُ المهنّا
أو حديثٌ على خلاءٍ يُسَلَّى * ما يُجِنُّ الفؤادُ منها ومنا
كبرتُ ربَّ نعمةٍ منك يوماً * أن أراها قبل المماتِ ومنا
ومن إنكاحه النومَ قوله :

حتى إذا ما الليلُ جَنَّ ظلامه * ونظرتُ غفلةً كاشح أن يعقلا
واستنكح النومُ الذين تخافهم * وسقى الكرى بوابهم فاستثقلوا^(١)
خرجتُ تَطَرُّ في الثياب كأنها * أيمٌ يسيبُ على كئيبٍ أهيلاً^(٢)
ومن جنيته الحديثَ قوله :

وجوارٍ مُساعِفَاتٍ على اللهـ * ومُسرَّاتٍ باطنِ الأضغانِ
صَيِّدٍ للرجالِ يَرشُقن بالطَّر * في حِسانٍ تُخْذَلُ الغزلانِ^(٣)

(١) يقال : أثقله النوم فهو مستقل بصيغة المفعول . (٢) تاطر أصله تاطر تخذفت إحدى تاءيه ومعناه

تبثني . والأيم : الأنهى . ويسيب : يمشي . والكئيب الأهيل : الرمل المنهال . (٣) الخذل : جمع خاذل وهي الظية تخلف عن صواحبها أو أولادها .

قد دَعَانِي وقد دَعَاهُنَّ لِلَّهِ * وَتُحْجُونَ مُهِمَّةُ الْأَشْجَانِ
فَاجْتَنَيْنَا مِنَ الْحَدِيثِ ثِمَارًا * مَا جَنَى مِثْلَهَا لِعَمْرُكَ جَانِي
وَمَنْ ضَرَبَهُ الْحَدِيثَ ظَهْرَهُ لِبَطْنِهِ قَوْلُهُ :

فِي خَلَاءٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَمِنَ * فَبَثْنَا غَلِيلَنَا وَأَشْتَفَيْنَا
وَضَرَبْنَا الْحَدِيثَ ظَهْرًا لِبَطْنِ * وَأَتَيْنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا آسْتَهْنَيْنَا
فَمَكَّنْنَا بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ * فَقَضَيْنَا دِيُونَنَا وَأَقْضَيْنَا
وَمَنْ إِذْ لَالَهُ صَعَبَ الْحَدِيثِ قَوْلُهُ :

فَلَمَّا أَقْضَيْنَا فِي الْهَوَى نَسْتَبِينَهُ * وَعَادَ لَنَا صَعَبُ الْحَدِيثِ ذُلُّوْلًا
شَكُوْتُ إِلَيْهَا الْحَبِّ أَظْهَرُ بَعْضُهُ * وَأَخْفِيَتْ مِنْهُ فِي الْفُؤَادِ غَلِيلًا
وَمَنْ قَنَاعَتِهِ بِالرَّجَاءِ مِنَ الْوَفَاءِ قَوْلُهُ :

فَعِدْدِي نَائِلًا وَإِنْ لَمْ تُنِيلِي * إِنَّهُ يَنْفَعُ الْحَبَّ الرَّجَاءُ

قال الزبير : هذا أحسن من قول كثير :

وَلَسْتُ بِرَاضٍ مِنْ خَلِيلٍ بَنَائِلٍ * قَلِيلٌ وَلَا أَرْضَى لَهُ بِقَلِيلٍ

وَمَنْ إِعْلَانُهُ قَاتَلَهُ قَوْلُهُ :

فَبَعَثْتُ جَارِيَّتِي وَقُلْتُ لَهَا أَذْهَبِي * فَاشْكِي إِلَيْهَا مَا عَلِمْتَ وَسَلِّمِي
قَوْلِي يَقُولُ تَحْرَجِي فِي عَاشِقِي ^(٢) * كَلِّفَ بِكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ مُتِمِّ
وَيَقُولُ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ بِأَنْكُمْ * أَصْبَحْتُمْ يَا بَشَرُ أَوْجَهَ ذِي دِمِ ^(٣)
فُكِّي رَهِيئَتَهُ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلِي * فَأَعْلِي عَلَى قَتْلِ ابْنِ عَمِّكَ وَأَسْلَمِي
فَتَضَاحَكْتُ عَجَبًا وَقَالَتْ حَقُّهُ * أَلَا يَعْلَمُنَا بِمَا لَمْ نَعْلَمِ

(١) أى مثيرة الأشجان . (٢) أى كفى عن الحرج والاثم .

(٣) أى أحق إنسان آخذ منه بدمى .

علمي به والله يغفر ذنبه * فيما بدا لي ذوهوى متقسم
طرف ينازعه الى الأدنى الهوى * ^(١) ويبت خلة ذى الوصال الأقدم

ومن تنفيذه النوم قوله :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت * مصابيح شبت بالعشاء وأنور
وغاب فمير كنت أرجو غيوبة * وروح رعيان ونوم سمر ^(٢)
ونقضت عني النوم أقبلت مشية الـ * حجاب وركني خشية القوم أزور ^(٣)

ومن إغلاقه رهن مني وإهداره قتلاه قوله :

فكم من قتيل ما يباء به دم ^(٤) * ومن غلق رهنًا إذا لفته مني ^(٥)
ومن مالى عينيه من شيء غيره * اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى ^(٦)
وكان بعد هذا كله فصيحًا شاعرًا مقولًا ^(٧) .

ومن شعره المشهور قوله :

أمن آل نعيم أنت غاد فميرك * غداة غد أم راح فميجر
لحاجة نفس لم تقل في جوابها * فتبلغ عذرا والمقالة تعذر
أشارت بمذراها وقالت لأختها * أهذا المغيرى الذى كان يدكر
فقلت نعم لا شك غير لونه * سرى الليل يطوى نصه والتمجر ^(٨)
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت * فيضجى وأما بالعشى فيخصر

(١) الطرف : من لا يثبت على امرأة ولا صاحب . (٢) روح من الرواح وهو وقت العشي . والرعيان :

جمع راع كالرعاة والرعاة والرعاة . وتوم الرجل تنويما : مبالغة في نام . (٣) الحجاب : الحية . وأزور

كأحسن : مائل من زور يزور إذا مال . (٤) يقال : أباه القاتل بالقتيل : قتله به ، والمراد هنا : فكم

من قتيل يطل دمه ولا يؤخذ له بثأر . (٥) يقال : غلق الرهن في يد المرتين يغلق غلقا : لم يقدر

الراهن على أفتكاكه في الوقت المشروط . يريد : وكمن قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على أفتكاكها .

(٦) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المنقشة من العاج ونحوه . (٧) المقول : الحسن القول المفصح المبين .

(٨) نص السرى : لإسراعه ، وأصله حث الدابة واستخراج أقصى ما عندها من السير .

أخا سفر جَوَابَ أَرْضٍ تَقَاذَفَتْ * به فَلَوَاتٌ فَهَوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ
 قَلِيلًا عَلَى ظَهْرِ الْمَطِيَّةِ ظِلُّهُ * سَوَى مَا تَقَى عَنْهُ الرِّدَاءُ الْمُخْبِرُ^(١)
 وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ * وَرَيَانُ مُلْتَفِ الْحَدَائِقِ أَخْضَرُ
 وَوَايَ كَفَاها كُلَّ شَيْءٍ يَهْمُهَا * فَلَيْسَتْ لَشَيْءٍ آخَرَ اللَّيْلِ تَسْمَرُ
 وَلَيْلَةُ ذِي دُورَانَ جَشَمَتْنِي السَّرَى^(٢) * وَقَدْ يَجْشَمُ الْهَوَلُ الْحُبَّ الْمَغْرَرُ^(٣)

ومن شعره قوله في فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية :

تَشِطُّ غَدًا دَارُ جِيرَانِنَا * وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَبْعَدُ^(٤)
 إِذَا سَلَكَتْ غَمْرَ ذِي كِنْدَةٍ * مَعَ الرِّكْبِ قَصْدُهَا الْفَرْقَدُ^(٥)
 وَحَثَّ الْحُدَاةُ بِهَا عَيْرَهَا * سِرَاعًا إِذَا مَا وَنَتْ تُطْرَدُ^(٦)
 هُنَالِكَ إِمَّا تُعْزَى الْفَوَاذُ * وَإِمَّا عَلَى إِثْرِهَا تَكْمَدُ^(٧)
 وَلَيْسَتْ يَبْدُعُ إِذَا دَارُهَا * نَأَتْ وَالْعَزَاءُ إِذَا أَجْلَدُ
 صَرَمْتُ وَوَاصَلْتُ حَتَّى عَلِمَ * سَتْ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمَوْرِدُ
 وَجَرَبْتُ مِنْ ذَاكَ حَتَّى عَرَفَ * سَتْ مَا أَتَوَّقُ وَمَا أَحَدُ
 فَلَمَّا دَنَوْنَا لِحَرْسِ النَّبَاِ^(٨) * حَجَّ وَالضُّوءُ وَالْحَيُّ لَمْ يَرْفُدُوا
 نَأَيْنَا عَنْ الْحَيِّ حَتَّى إِذَا * تَوَدَّعَ مِنْ نَارِهَا الْمَوْقِدُ^(٩)
 وَنَامُوا بَعَثْنَا لَهَا نَاشِدًا * وَفِي الْحَيِّ بَغِيَّةٌ مِنْ يَنْشُدُ^(١٠)

(١) المخبر : المزين الحسن . (٢) ذو دوران — بفتح أوله وبعد الواو راء مهملة وآخره

نون — : موضع بين قديد والحنفة (ياقوت) . (٣) أي كلفتنى السير ليلا .

(٤) تشط : تبعه . (٥) غمر ذى كندة : موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين .

(٦) كذا في ديوانه ، وفي الأغاني « الصبح » . (٧) الفرقد : نجمان في السماء من نجوم الدب الأصغر

وهى في الشمال ، ويقال لها : الفرقد بالإنفراد ، والفرقدان بالثنائية . ولعله يريد أنها تسير جهته ، لأن العراق التى

تقصده في الشمال الشرقى من مكة . (٨) الحداة : جمع حاد وأصله المعنى للابل لتشط في السير ، وقد يراد به

الزاجر والسائق . والعير : الإبل ، ولا واحد له من لفظه . وونت : ضعفت وتباطأت . وتطرد : تساق .

(٩) الحرس : الصوت . (١٠) تودع : سكنت ناره وأنطفأت .

أَتَنَّا تَهَادَى عَلَى رِقَبَةٍ ^(٢) * من الخوف أحشاؤها تُرْعَدُ
تَقُولُ وَتُظْهِرُ وَجْدًا بِنَا ^(٣) * وَوَجْدِي وَإِنْ أَظْهَرْتُ أَوْجَدُ
لَمَّا شَقَائِي تَعَلَّقْتُكُمْ ^(٤) * وَقَدْ كَانَ لِي عَنْكُمْ مَقْعَدُ
وَكَفْتُ سَوَائِقَ مِنْ عَبْرَةٍ ^(٥) * عَلَى الْخَدِّ جَالٍ بِهَا الْإِمْدُ
فَإِنَّ التِّي شَيَّعَتْنَا الْغَدَاةَ ^(٦) * مَعَ الْفَجْرِ قَلْبِي بِهَا مُقَصَّدُ

وَشَبَّ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ زَيْنَبَ بِنْتِ مُوسَى الْجَحِيَّةِ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

يَا حَلِيلِي مِنْ مَلَامٍ دَعَانِي * وَالْمَا الْغَدَاةَ بِالْأَظْعَانِ
لَا تَلُومَا فِي آلِ زَيْنَبَ إِنْ أَلَا * قَلْبَ رَهْنٍ بِآلِ زَيْنَبَ غَانِي
مَا أَرَى مَا بَقِيَتْ أَنْ أَذْكُرَ الْمَو * قَفَّ مِنْهَا بِالْخَيْفِ إِلَّا شَجَانِي ^(٧)
لَمْ تَدْعَ لِلنِّسَاءِ عِنْدِي حُظًّا * غَيْرَ مَا قُلْتُ مَا زِحًّا بِلِسَانِي
هِيَ أَهْلُ الصَّفَاءِ وَالْوُدِّ مَنَى * وَإِلَيْهَا الْهَوَى فَلَ تَعْدُلَانِي
حِينَ قَالَتْ لِأَخْتِهَا وَلِأُخْرَى * مِنْ قَطِينٍ ^(٨) مُؤَلَّدٍ : حَدَّثَانِي
كَيْفَ لِي الْيَوْمَ أَنْ أَرَى عُمَرَ أَلْمُرُ * سِلَّ سِرًّا فِي الْقَوْلِ أَنْ يَلْقَانِي
قَالَتَا : نَبْتَسِّنِي رَسُولًا إِلَيْهِ * وَنُمِيتُ الْحَدِيثَ بِالِكْتِمَانِ
إِنَّ قَلْبِي بَعْدَ الَّذِي نَلْتُ مِنْهَا * كَالْمَعْمَى ^(٩) عَنْ سَائِرِ النِّسْوَانِ

- (١) تهادى : تمشى في تمايل وسكون . (٢) الرقبة : التحفظ والفرق . (٣) الوجد : الشغف والشوق الشديد . (٤) المراد : قد كان لي غنى عن حبكم . (٥) الإمد : حجر للكحل وأجوده بأصهبان . (٦) أقصده : رماه بهم فقتله . (٧) الخيف : ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدار عن غلط الجبل . قال ابن سيدة : وخيف مكة موضع فيها عند منى ، سمي بذلك لانحداره عن الغلط وارتفاعه عن السيل . (٨) القطين : الخدم والأتباع والحشم ، والمولد من العبيد والإماء . من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم . (٩) كذا في الأغاني . وفي ديوانه " كالمعمى " أى المأسور المحبوس عن غيرها .

وكان سبب ذكره لها أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده يوماً فأطراها ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها ، فقال فيها الشعر وشبب بها ، فبلغ ذلك ابن أبي عتيق ، فلامه فيه وقال له : أتتطق الشعر في أبنه عمي ؟ فقال عمر :

لا تلمني عتيق حسبي الذي بي * إن بي يا عتيق ما قد كفاني
لا تلمني وأنت زيتها لي * أنت مثل الشيطان للإنسان
إن بي داخلا من الحب قد أب * لي عظامي مكنونه وبراني
لو بعينيك يا عتيق نظرنا * ليلة السفح قزيت العينان
إذ بدا الكشح والوشاح من الد * وفصل فيه من المرجان^(١)
وقلى قلبي النساء سواها * بعد ما كان مغرماً بالغواني
لم تدع للنساء عندي نصيباً * غير ما قلت مازحاً بلساني

وأنشد ابن أبي عتيق قول عمر :

من لسقيم يكتم الناس ما به * لزيب تجوى صدره والوساوس^(٢)
أقول لمن ينبغي الشفاء متى تجي * بزيب أدرك بعض ما أنت لا ميس^(٣)
فإنك إن لم تسف من سقمي بها * فإني من طب الأطباء آيس^(٤)
ولست بنايس ليلة الدار مجلسا * لزيب حتى يعلو الرأس رامس^(٥)
خلاء بدت قراؤه وتكشفت * دجته وغاب من هو جارس^(٦)
وما نلت منها محرماً غير أننا * كلانا من الثوب المورد لا يس^(٧)
تجيب تقضي اللهو في غير مأثم * وإن رعبت الكاشحين المعاطس^(٨)

(١) الكشح : ما بين الحجة — وهي رأس الورك الذي يشرف على الخاصرة — إلى الإبط . والوشاح :

شبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها .

(٢) هذا البيت دخل عليه الخرم وهو حذف الفاء من فعولن . (٣) الرامس : الدافن في الرمس وهو القبر .

(٤) المورد : الذي صبغ على لون الورن .

قال : فقال أبنُ أبي عتيق : أَمِنَّا يسخرُ ابنُ أبي ربيعة ؟ فأىُّ محرمٍ بقى ! ثم أتى عمرَ فقال له : يا عمرُ، ألم تُخبرني أنك ما أتيتَ حراماً قطُّ ؟ قال : بلى ، قال : فأخبرني عن قولك :

* كَلَّانَا مِنَ التَّوْبِ الْمُرْدِّ لَا بُسْ *

ما معناه ؟ قال : والله لأخبرنك : خرجتُ أريد المسجدَ وخرجتُ زينبُ تريده ، فالتقينَا فاتَّعدنا لبعضِ الشَّعَابِ ، فلما توسَّطنا الشَّعْبَ أخذتنا السماءُ ، فكِرِهتُ أن يَرى بَنيابها بَلَلُ المطرِ ، فيقال لها : ألا آستريتِ بِسَقَائِفِ المسجدِ إن كنتِ فيه ! فأمرتُ غلمانِي فسترونا بِكساءٍ نَحَرَ كان علىّ ، فذلك حين أقول :

* كَلَّانَا مِنْ أَتْوَابِ الْمَطَارِفِ لَا بُسْ *

فقال له : أبنُ أبي عتيق : يا عاهرُ ! هذا البيت يحتاج الى حاضنة ! .

ومن جيد شعره قوله في زينب بنت موسى :

يَا مَنْ لَقِيْتُ مَتِّمٍ كَلِّفَ * يَهْدِي بِحُودٍ مَرِيضَةٍ النَّظِيرِ^(١)
تَمْشِي الْهُوَيْنَا إِذَا مَشَتْ فُضْلًا * وَهِيَ كَمِثْلِ الْعُسْلُوجِ فِي الشَّجَرِ^(٢)
مَا زَالَ طَرَفِي يَحَارُ إِذْ بَرَزَتْ * حَتَّى رَأَيْتُ النِّقْصَانَ فِي بَصَرِي
أَبْصَرْتُهَا لَيْلَةً وَنِسْوَتَهَا * يَمْشِينَ بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْحَجَرِ^(٣)
مَا إِنْ طَمِعْنَا بِهَا وَلَا طَمِعَتْ * حَتَّى أَلْتَقِينَا لَيْلًا عَلَى قَدَرِ^(٤)
بَيْضًا حَسَانًا نَحْرًا نَدَا قُطْفًا * يَمْشِينَ هَوْنًا كَمِشْيَةِ الْبَقْرِ^(٥)
قَدْ فُزْنَ بِالْحَسَنِ وَالْجَمَالِ مَعًا * وَفُزْنَ بِرِسَالٍ بِالْذَّلِّ وَالْخَفْرِ^(٦)

(١) الخود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة مالم تصر نصفاً ، والنصف : المرأة بين الحدة والمسنة .

(٢) الفضل بضمين : الخيالة التي تفضل من ذيلها . ويروى : « قطفا » والمراد به تقارب الخطو .

(٣) العسلوج : الغصن اللين الأخضر . (٤) على قدر : على غير موعد . والوجه فيه أن التقاءهما كأنه مقدَّر في الأزل لا علم له به ولا سعى إليه كما قيل :

جاء الخلقة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

(٥) جمع قطفوف وهي البطيئة في السير . (٦) الرسل بالكسر : الرفق والتؤدة . والخفر : شدة الاستحياء .

يُنصِتَنَ يَوْمًا لَهَا إِذَا نَطَقَتْ * كَيْمَا يُشْرِفَهَا عَلَى الْبَشَرِ
 قَالَتْ لَتُرِبَ لَهَا تُحْدِثُهَا * لَتُنْفِسِدَنَّ الطَّوَافَ فِي عُمْرِ
 قَوْمِي تَصَدَّى لَهُ لِيَعْرِفَنَا * ثُمَّ أَعْمَزِيهِ يَا أُخْتَ فِي خَفَرِ
 قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبَى * ثُمَّ أَسْبَطْتُ^(١) تَسْعَى عَلَى أَثَرِي
 مِنْ يُسَقِّعُ بَعْدَ الْمَنَامِ رِيْقَتَهَا * يُسَقِّعُ بِمَسْكِ وَبَارِدِ خَصْرِ^(٢)

وقوله فيها أيضا :

أَلَيْمٌ بَزِينَبَ إِنْ الْيَمِينَ قَدْ أَفْدَا * قَلَّ الثَّوَاءُ لَيْنَ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا
 قَدْ حَلَفْتُ لَيْلَةَ الصُّورَيْنِ جَاهِدَةً * وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْحِلْفُ بِجَهْدَا
 لِأُخْتِهَا وَلِأُخْرَى مِنْ مَنَاصِفِهَا^(٤) * لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَجَدَا^(٥)
 لَوْ جُمِعَ النَّاسُ ثُمَّ اخْتِيرَ صَفْوُهُمْ * شَخْصًا مِنَ النَّاسِ لَمْ أُعْدِلْ بِهِ أَحَدَا

ومن شعر عمر في تشوقه الى مكة بعد أن خرج منها الى اليمن قوله :

هِيَمَاتَ مِنْ أَمَةِ الْوَهَابِ مَنْزِلُنَا * إِذَا حَلَلْنَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ مِنْ عَدَنِ^(٦)
 وَأَحْتَلَّ أَهْلُكَ أَجْيَادًا وَلَيْسَ لَنَا * إِلَّا التَّذْكُرُ أَوْ حُطُّ مِنْ الْحَزَنِ
 لَوْ أَنَّهَا أَبْصَرَتْ بِالْجَزْعِ عِزَّتَهُ * مِنْ أَنْ يُعَرِّدَ قُرَيْشٌ عَلَى فَنَنِ
 إِذَا رَأَتْ غَيْرَ مَا ظَنَّتْ بِصَاحِبِهَا * وَأَيَقُنْتُ أَنْ تَجْأَ لَيْسَ مِنْ وَطَنِي
 مَا أُنْسَ لَا أُنْسَ يَوْمَ الْخَيْفِ مَوْقِفُهَا^(٧) * وَمَوْقِفِي وَكَلَانَا ثُمَّ ذُو شَيْخَنِ
 وَقَوْلُهَا لِلثُّرَيَّا وَهِيَ بَاكِيَةٌ * وَالْدمْعُ مِنْهَا عَلَى الْخَلْدَيْنِ ذُو سَنَنِ^(٨)

- (١) اسبطرت : أسرع . (٢) الخصر : البارِد . (٣) أفد كفرج : عجل وأسرع .
 (٤) الصوران : موضع بالمدينة بالبقيع ، وقد ذكره ياقوت وأشهد بالبيت . (٥) المنصف كبير
 ومقعد : الخادم ، والأثنى بالهاء ، جمعه مناصف .
 (٦) سيف البحر : ساحله . (٧) أجياد : موضع بمكة ، سمي بذلك لأن تبعاً لما قدم مكة ربط
 خيله فيه فسمي بذلك ، وهما موضعان : أجياد الكبير وأجياد الصغير . (٨) الخيف : موضع بيني وبه
 سمي مسجد الخيف . (٩) ذو سنن : ذو طرائق .

بالله قولى له فى غير معتبَةٍ * ماذا أردت بطول المكث فى اليمن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بها * فما أخذت بترك الحج من ثمن
وقال أيضا :

خليلى ما بال المطايا كائما * نراها على الأدبار بالقوم تنكص^(١)
وقد قطعت أعناقهن صباة * فأنسنا مما يلا قين شخص
وقد أتعب الحادى سراهن وأنحى * بهن فما يالو عجول مقلص^(٢)
يزدن بنا قريبا فيزداد شوقنا * إذا زاد طول العهد والبعد ينقص

ومن شعره قوله :

جرى ناصح بالود بينى وبينها * فقرئنى يوم الحصاب إلى قتلى^(٣)
فطارت بحد من فؤادى وقارنت * قريتها جبل الصفاء إلى جبل
فلما توافقنا عرفت الذى بها * كمثل الذى بي حدوك النعل بالنعل
فقلن لها هذا عشاء وأهلنا * قريب المأ تسمى مركب البغل
فقلت فما شئت قلن لها أنزلى * فللأرض خير من وقوف على رجلي
مجوم درارى تكفن صورة^(٤) * من البدر وافت غير هوج ولا عجل^(٥)
فسلمت وأستأنست خيفة أن يرى * عدو مقامى أو يرى كاشع فعلي
فقلت وأرخت جانب السرايما * معى فتكم غير ذى رقية أهلى
فقلت لها ما بى لهم من رقب * ولكن سرى ليس يحمله مثلى
فلما أقصرنا دونهن حديثنا * وهن طيبات بحاجة ذى الشكل
عرفن الذى تهوى فقلن أنذنى لنا * نطف ساعة فى برد ليل وفى سهل

(١) تنكص : ترجع وتولى وتحجم . (٢) مقلص : مشرجاذ فى السير . (٣) الحصاب
كالحصب : موضع رمى الجمار . (٤) درارى ممنوعة من الصرف وتوت لضرورة الشعر . (٥) هوج :
جمع هوجاء وهى المتعجلة فى السير كأن بها هوجا وحقا .

فَقَالَتْ فَلَا تَلْبَسَنَّ قُلْنَ تَحْدِثِي * أَتَيْنَاكَ، وَأَتَسَبَّنَ أَنْسِيَابَ مَهَارِ الْمَلِ
فَقَمْنَنَ وَقَدْ أَفْهَمْنَ ذَا اللَّبِّ أَمَّا * أَتَيْنَ الَّذِي يَأْتِيَنَّ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ

وقد كان عمر حين أسن حلف ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة، فانصرف عمر
إلى منزله يحدث نفسه، فجعلت جارية له تكلمه فلا يرد عليها جوابا، فقالت له : إن لك
لأمرا، وأراك تريد أن تقول شعرا، فقال :

تَقُولُ وَلِيَدِي لِمَا رَأَيْتِي * طَرِبْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ حِينَا
أَرَاكَ الْيَوْمَ قَدْ أَحْدَثْتَ شَوْقًا * وَهَاجَ لَكَ الْهَوَى دَاءَ دَفِينَا
وَكُنْتُ زَعَمْتُ أَنَّكَ ذُو عَزَاء * إِذَا مَا شُدَّتْ فَارَقْتَ الْقَرِينَا
بِرِّكَ هَلْ أَتَاكَ لَهَا رَسُولٌ * فَشَاكَ أُمَ لَقِيَتْ لَهَا خَدِينَا^(١)
فَقُلْتُ شَكَ إِلَى أَخٍ حُبِّ * كَبِغِضِ زَمَانِنَا إِذْ تَعَلَّمِينَا
فَقَصَّ عَلَيَّ مَا يَلْقَى بَهْنَد * فَذَكَرَ بَعْضَ مَا كُنَّا نَسِينَا
وَذُو الشَّوْقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَعَزَّى * مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَا
وَكَمْ مِنْ خُلَّةٍ أَعْرَضَتْ عَنْهَا * لَغَيْرِ قَلِيٍّ وَكُنْتُ بِهَا ضَمِينَا^(٢)
أَرَدْتُ بِعَادَهَا فَصَدَدْتُ عَنْهَا * وَلَوْ جُنَّ الْفَوَادُ بِهَا جُنُونَا
ثُمَّ دَعَا تِسْعَةً مِنْ رَفِيقِهِ فَأَعْتَقَهُمْ بِكُلِّ بَيْتٍ وَاحِدًا .

وله :

يَقُولُونَ : إِنِّي لَسْتُ أَصْدُقُكَ الْهَوَى * وَإِنِّي لَا أُرْعَاكَ حِينَ أُغِيبُ
فَمَا بَالُ طَرَفِي عَفَّ عَمَّا تَسَاقَطْتُ * لَهُ أَعْيُنٌ مِنْ مَعَشَرٍ وَقُلُوبُ
عَشِيَّةٍ لَا يَسْتَنْكِفُ الْقَوْمُ أَنْ يَرَوْا * سَفَاهَ أَمْرِي مِمَّنْ يُقَالُ لَيْبُ

(١) الخدين : الصديق الذي يخادتك فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن، ومنه خدن الجارية : محدثها،
وكان العرب في الجاهلية لا يمتنعون من خدن يحدث الجارية بغاء الاسلام بهدمه . وفي النزول العزيز : (اليوم أحل
لكم الطيبات) الى قوله : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيموهن أجورهن محصنين غير مسافحين
ولا متخذين أخدان) الآية . (٢) الخلة : الخلية .

ولا فتنَةً من ناسِكَ أَوْ مَضَتْ^(١) له * بعين الصَّبَا كَسَلِيَ الْقِيَامَ لَعُوبُ
تَوَّحَّحَ يَرْجُو أَنْ تُحِطَّ ذُنُوبُهُ * فآبَ وَقَدْ زِيدَتْ عَلَيْهِ ذُنُوبُ
وَمَا النَّسْكَ أَسْلَانِي وَلَكِنِّ لِلْهَوَى * عَلَى الْعَيْنِ مَنَى وَالْفؤَادِ رَقِيبُ
وله :

أَلَمْ تَسْأَلِ الْمُنْتَزِلَ الْمُقْفِرَا * بَيَانًا فَيَكْتُمُ أَوْ يُخْبِرَا
ذَكَرْتَ بِهِ بَعْضَ مَا قَدْ شَبَّكَ * وَحَقَّ لَدَى الشَّجْوِ أَنْ يَذْكُرَا
مَيِّتَ الْحَبِيبِينَ قَدْ ظَاهَرَا^(٢) * كِسَاءً وَبَرْدِينَ أَنْ يُمَطَّرَا
وَمَشَى الثَّلَاثَ بِهِ مَوْهِنَا * نَحْرَجْنَ إِلَى زَائِرِ زُورَا
إِلَى مَجْلَسٍ مِنْ وَرَاءِ الْقَبَا * بِ سَهْلِ الرُّبَى طَيِّبَ أَغْفَرَا^(٣)
غَفَلَنْ عَنِ اللَّيْلِ حَتَّى بَدَتْ * تَبَاشِيرُ مِنْ وَاضِحِ أَسْفَرَا
فَقُمْنَ يُعَفِّينَ آثَارَنَا * بِأَكْسِيَةِ الْحَزْنِ أَنْ تُقْفَرَا^(٤)
مَهَاتَانِ شَيْعَتَا جُوذَرَا^(٥) * أَسِيلًا مَقْلَدُهُ أَحْوَرَا^(٦)
وَقَنَّ وَقَنَّ لَوَاقِ النَّهَا * رَمَدٌ لَهُ اللَّيْلُ فَاسْتَأْخَرَا
قَضَيْنَا بِهِ بَعْضَ أَشْجَانِنَا * وَكَانَ الْحَدِيثُ بِهِ أَجْدَرَا

وله :

أَفِي رَسْمِ دَارِ دَمْعِكَ الْمَتَرَقُّقِ^(٧) * سَفَاهَا ! وَمَا أَسْتَنْطَاقُ مَا لَيْسَ يَنْطِقُ !
بِحَيْثُ أَلْتَقَى "جَمْعٌ" وَأَقْصَى "مَحْسَرٌ"^(٨) * مَعَالِيهِ كَادَتْ عَلَى الْعَهْدِ تُخْلِقُ^(٩)
ذَكَرْتُ بِهِ مَا قَدْ مَضَى مِنْ زَمَانِنَا * وَذَكَرْتُكَ رَسْمَ الدَّارِ مِمَّا يُسَوِّقُ

(١) أومضت له : سارقه النظر .

(٢) يقال : ظاهر بين الثوبين إذا لبس أحدهما على الآخر . (٣) أغفر : ذى رمل أحمر .

(٤) يقال : قفر الاثرفقرا : اقتفاه وتبعه . (٥) الجوذور (بضم أوله وضم الذال وفتحها) : ولد البقرة .

والررب : القطيع من بقر الوحش وقيل من الظباء ، ولا واحد له من لفظه . (٦) المقلد : موضع القلادة

ويراد به الجيد . (٧) ترقق الدمع : سال . (٨) جمع ، هى المزدلفة . (٩) محسر : موضع

بين منى والمزدلفة .

ليالى من دهرٍ إذ الحى جيرة * وإذ هو مأهول الخيلة مؤنق
مقاماً لنا عند العشاء ومجلسا * به لم يكدره علينا معوق^(١)
ومشى قنّة بالكساء تكثنا * به تحت عين برقها يتألق^(٢)
يبلّ أعالى الثوب قطرً وتحتّه * شعاعٌ بدا يعشى العيون ويشرق
فأحسن شئ بدء أول ليلنا * وآخره حزن إذا تنفّرق

وروى أن ليلي كانت جالسة في المسجد الحرام، فرأت عمر بن أبي ربيعة فوجهت
إليه مولى لها بغاءها به، فقالت له : يابن أبي ربيعة، حتى متى لا تزال سادراً في حرم الله^(٣)
تُسبب بالنساء وتُشيد بذكرهن ! أما تخاف الله ! قال : دعيني من ذلك وأسمعي ما قلت ،
قالت : وما قلت ؟ فأنشدتها الأبيات المذكورة، فقالت له القول الذى تقدّم أنها أجابته به .
قال : وقال لها : اسمعي أيضاً ما قلتُ فيك، ثم أنشدتها قوله :

أمن الرسم وأطلال الدمن * عادلى وجدي وعاودت الحزن
إن حبي آل ليلي قاتلى * ظهر الحب يحسمى وبطن
يا أبا الحارث قلبي طائر * فأتمر أمر رشيد مؤتمن
التمس للقلب وصلاً عندها * إن خير الوصل ما ليس بمن^(٤)
علق القلب، وقد كان صحاً، * من بنى بكر غزلاً قد شدن^(٥)
أحور المقلّة كالبدر، إذا * قلّد الدرّ قلبي ممتحن^(٦)
ليس حب فوق ما أحببتكم * غير أن أقتل نفسي أو أجن
خلقت للقلب منى فتنة * هكذا يخلق معروض الفتنة

(١) معوق : عائق ومانع . (٢) العين : السحاب .

(٣) السادر : الذى لا يهتم ولا يبالي ما صنع .

(٤) كذا فى الديوان ، ومعناه ما ليس يقطع ، ومنه قوله تعالى : (وإن لك لأجراً غير ممنون) .

(٥) شدن : شب وترعرع . (٦) ممتحن : واقع فى محنة .

وفيها يقول :

إِن لَّيْلِي وَقَدْ بَلَغْتُ الْمَشِيئَا * لَمْ تَدْعُ لِلنِّسَاءِ عِنْدِي نَضِييَا
هَاجِرٌ بِلَيْتِهَا لِأَنْفِي عَنْهَا * قَوْلَ ذِي الْعَيْبِ إِنْ أَرَادَ عِيَابَا

وله في النَّوَارِ وَقَدْ شَغَلَتْ قَلْبَهُ :

عَلِقَ النَّوَارَ فَنَوَادُهُ جَهْلًا * وَصَبَا فَلَمْ تَتْرِكْ لَهُ عَقْلًا
وَتَعَرَّضْتُ لِي فِي الْمَسِيرِ فَمَا * أَمْسَى الْفَوَادُ يَرَى لَهَا مِثْلًا
مَا نَجَّجْتُ مِنْ وَحْشٍ ذِي بَقِيرٍ * تَغْدُو بِسَقَطِ صَرِيمَةٍ طِفْلًا^(٢)
بِالَّذِ مِنْهَا إِذْ تَقُولُ لَنَا * وَأَرَدْتُ كَشْفَ قِنَاعِهَا مَهْلًا
دَعْنَا فَإِنَّكَ لَا مُكَارِمَةَ * تَجْزِي وَلَسْتَ بِوَاصِلٍ حَبْلًا
وَعَلَيْكَ مَنْ تَبَلَ الْفَوَادَ وَإِنْ * أَمْسَى لِقَلْبِكَ ذِكْرُهُ شُغْلًا
فَأَجِبْتُهَا إِنْ الْحَبَّ مَكْلَفٌ^(٣) * فَدَعِيَ الْعَتَابَ وَأَحْدِثِي بَذْلًا

اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنينه ، فقالت سكينه بنت الحسين عليهما السلام : أنا لكنن به ، فأرسلت إليه رسولا وواعدته الصورين ، وسمت له الليلة والوقت وواعدت صواحباتها ، فوافاهن عمر على راحته ، فحدثهن حتى أضاء الفجر وحن أنصرافهن ، فقال لهن : والله إنني لمحتاج إلى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده ولكن لا أخاطب بزيارتكن شيئا ، ثم أنصرف إلى مكة وقال :

(١) ذوبقر : موضع . (٢) سقط الصريمة : متهاها . والصريمة : الرملة المنصرفة من الرمال ذات الشجر . (٣) مكلف : لهج بالحب ، يقال : كاف بالشئ كافا ، أى لهج به فهو كاف ومكلف ، والأبيات من الكامل الأخذ ، وهو ما حذف من عروضه وضربه الوند المجموع «علن» من «مقاعن» . وقد جاء عروض هذا البيت تاما على خلاف بقية الأبيات ، وظاهر أن حذف الوند في اصطلاح علماء العروض غلّة ، والعلّة إذا لحقت بعروض أو ضرب لزم استعمالها في سائر الأبيات ولو قال : * فأجبني إلى بكم مكلف * تخللت القصيدة من هذا العيب .

(١) قالت سَكِينَةُ والدموعُ ذَوَارِفُ * منها على الخدين والجلباب
 ليت المَغِيرَى لَهْدَى لم أجْزِه * فيما أطال تصيْدى وطَلابي
 كانت تَرُدُّ لنا المَنَى أيا مَنا * إذ لا نُلامُ على هوى وتَصَابِي
 خُبِرْتُ ما قالَتْ فَبِتْ كأَنا * رُمِيَ الحَشا بنوافذِ النَّشَابِ (٢)
 أَسْكِنِ ما ماءَ الفَرايِ وطِيبُه * مِنِّي على ظمِئٍ وفَقْدِ شَرَابِ
 بالَّذِ منك وإن نَائِيتِ وَقَلَمَا * تَرعى النِّساءُ أمانةَ الغِيَابِ

وقال فيها :

أَحِبُّ لِحَبِّكَ من لم يَكُن * صَفِيًّا لِنَفْسِي ولا صاحِبًا
 وأَبْذُلُ نَفْسِي لِمَرْضاتِكُم * وأُعْتَبُ (٣) من جاءكم عَاتِبًا
 وأَرعَبُ في وُدِّ من لم أَكُن * الى وُدِّه قَبْلَكم رَاغِبًا
 ولو سَلَكَ النَّاسُ في جَانِبِ * من الأرضِ وأَعْتَرَلَتْ جَانِبًا
 لَيَمَّمتُ طِيبَها ، إِنَني * أَرى قَرِيبَها العَجَبُ العَاجِبَا
 فَبِظَنِيَّةٍ من ظَبَاءِ الأَرَا * لَك تَقَرُّو دَمِيتِ الرُّبَى عَاشِبَا (٤)
 بِأَحْسَنَ منها غَدَاةَ الغَمِمْ (٦) * وَقَد أَبَدتِ الخَدَّ والحَاجِبَا
 غَدَاةَ تَقولُ على رِقَبَةٍ * لَخادِمَها : يا أَحَبِّسِي الرَّاكِبَا (٧)
 فَقالَتْ لها : فِيمَ هَذا الكَلامُ * وَأَبَدتِ لها عابِساَ قاطِبَا (٨)
 فَقالَتْ كَرِمْ أَتى زائِرا * يُمِرُّ بِكم هَكَذا جَانِبَا
 شَرِيفُ أَتى رِبْعًا زائِرا * فَأَكرَهُ رَجَعَتِه خائِبَا

- (١) الجلباب : القميص أو هو الخمار ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها . (٢) النشاب : النبل .
 (٣) أعتب : أزال سبب العتب ، فاهتمزة للسلب . والمعنى أعذر . (٤) قراه يقرؤه : يتبعه .
 (٥) دميت الربى : مهلها وليتها . (٦) الغميم كأمير : موضع بين مكة والمدينة . (٧) الخادم :
 واحد الخدم غلاما كان أو جارية . (٨) قاطبا من القطوب : وهو تروى ما بين العينين من العيون .

وقال في جاريته بَغُوم :

صَرَمَتْ حَبْلَكَ الْبَغُومُ وَصَدَّتْ * عَنْكَ فِي غَيْرِ رِيَّةِ أَسْمَاءُ
وَالْفَوَانِي إِذَا رَأَيْتُكَ كَهَلًا * كَانِ فِيهِنَّ عَنْ هَوَاكَ أَتْنَاءُ
جَبَدًا أَنْتِ يَا بَغُومُ وَأَسْمَا * ءُ وَعِصْ يَكُنَّا وَخَلَاءُ
وَلَقَدْ قُلْتُ لَيْلَةَ الْجَزَلِ مَا * أَخْضَلْتُ رَيْطِي عَلَى السَّمَاءِ^(١)
لَيْتَ شَعْرِي هُوَ لِي يَرُدَّنَّ لَيْتَ * هَلْ لِهَذَا عِنْدَ الرَّبَّابِ جَزَاءُ
كُلُّ وَصَلٍ أَمْسَى لَدَى لَأْنِي * غَيْرِهَا وَضَلُّهَا إِلَيْهَا أَدَاءُ
كُلَّ خَلْقٍ وَإِنْ دَنَا لَوْصَالِ * أَوْ نَأَى فَهُوَ لِلرَّبَّابِ الْفِدَاءُ
فَعِيدِي نَائِلًا وَإِنْ لَمْ تُنِيلِ * إِنَّمَا يَنْفَعُ الْحَبَّ الرَّجَاءُ

وكان يهوى حميدة جارية ابن تَفَّاحَةَ، وفيها يقول :

حُمِّلَ الْقَلْبُ مِنْ حَمِيدَةٍ ثِقَلًا * إِنْ فِي ذَاكَ لِلْفُؤَادِ لَشَغْلًا
إِنْ فَعَلْتُ الَّذِي سَأَلْتَ فَقُولِي * حَمْدُ خَيْرًا وَأَتَّبِعِي الْقَوْلَ فَعْلًا
وَصِلِينِي وَأَشْهَدُ اللَّهَ أَنِّي * لَسْتُ أَصْنِي سِوَاكَ مَا عَشْتُ وَصَلًا

وفيها يقول :

يَا قَلْبُ هَلْ لَكَ عَنْ حَمِيدَةٍ زَاجِرُ * أَمْ أَنْتِ مَذْكُورُ الْحَيَاءِ فَصَابِرُ
فَالْقَلْبُ مِنْ ذِكْرِي حَمِيدَةٌ مُوجِعُ * وَالِدَمْعُ مِنْ حُدُرٍ وَعَظْمِي فَاتِرُ
فَدَكَنْتُ أَحْسَبَ أَنِّي قَبْلَ الَّذِي * فَعَلْتُ عَلَى مَا عِنْدَ حَمْدَةٍ قَادِرُ
حَتَّى بَدَأَ لِي مِنْ حَمِيدَةٍ خُلَّتِي * بَيْنَ وَكُنْتُ مِنَ الْفِرَاقِ أَحَازِرُ

(١) الجزل : موضع قرب مكة . وأخضل : بل . والرَيْطَةُ : ملاءة كلها نسج واحد وقطعة

وله في هند :

أَرَبْتُ إِلَى هِنْدٍ وَتَرَيْنَ مَرَّةً * لَهَا إِذْ تَوَاقَفْنَا بِفَرْعِ الْمُقَطَّعِ
 لَتَعْرِيجَ يَوْمٍ أَوْ لَتَعْرِيسَ لَيْلَةٍ * عَلَيْنَا بَجْعَ الشَّمْلِ قَبْلَ التَّصَدِّعِ
 فَقُلْنَا لَهَا لَوْلَا أَرْتَقَابُ صَحَابَةٍ * لَنَا خَلْفُنَا عُجْنًا وَلَمْ تَتَوَرَّعِ
 فَقَالَتْ فَتَاةٌ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّهَا * مَغْفَلَةٌ فِي مَثَرٍ لَمْ تَدَّرِعِ
 لَهَنَ - وَمَلْشَاوَزْنَهَا - لَيْسَ مَا أَرَى * بِحُسْنِ جَزَاءٍ لِلْجَبِيبِ الْمَوْدِعِ
 فَقُلْنَا لَهَا لَا شَبَّ قَرْنُكَ فَافْتَحِي * لَنَا بَابَ مَا يَخْتَنِي مِنَ الْأَمْرِ نَسْمَعِ

- (١) يقال : أرب بكذا : كلف به ، وأرب إلى كذا : احتاج إليه . ولعل المراد : دعاني الشوق إليهن .
 (٢) التعريس : قبل هو نزول القوم في السفر آخر الليل يستريحون قليلا ثم يرحلون مع الصبح . وقيل : هو النزول
 أول الليل . وقيل : النزول في أي وقت كان من ليل أو نهار . والمراد هنا : لإقامة يوم أو لإقامة ليلية .
 (٣) لم تدرع : لم تلبس الدرع ، يقال : درعت الصبية إذا ألبست الدرع ، والدرع : جبة مشقوقة المقدم .
 (٤) قال الأصمعي : يقال أشبه الله وأشبه الله قرنه بمعنى واحد (وهو الدعاء له بأن يشب ويكبر) ، والقرن
 زيادة في الكلام اهـ . والقرن : الضفيرة . والمراد التعجب من حديثها كما يقال في هذا المقام : قاتلك الله .
 (٥) البابة : الوجه والطريق ، قال تميم بن مقبل :

بني عامر ما تأمرون بشاعر * تخير بابات الكتاب بهجائيا

أي تخير هجائي من وجوه الكتاب ، كما فسره صاحب اللسان . وللبابة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهي : القليل
 والنوع — كما قال الجاحظ في «كتاب الحيوان» ج ٢ ص ٤٥ : «فليس الديك من بابة الكلب لأنه إن ساوره قتله
 قتلا ذريعا» وقال أيضا في ج ٧ ص ٤٣ : «وقد أيقنا أنهما ليسا من بابه» . وقال في كتاب البخل ص ٤٥ ،
 ١٤٣ : «أنت من ذى البابة ... وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه البابة» . ومثل ذلك في نقح الطيب
 ج ١ ص ٥٥٩ طبع لندن ، ج ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضي محمد بن بشير الأندلسي :

إنما أزرى بقدرى أننى * لست من بابة أهل البلد

وإذا قال الناس : «من بابت» فمعناه من الوجه الذي أريده ويصلح لي .

والشرط — ومثله ما في «تاج العروس» : هذا بابته أي شرطه .

والغاية — ويستعمل ذلك في الحساب والحدود . وفي «شفاء الغليل» أنهم يقولون للعب خيال الظل بابة
 فيقولون : بابات خيال الظل ، وعلى ذلك قول ابن إلياس المؤرخ المصري : فكانوا مثل بابات خيال الظل فشيء ينجي .
 وشيء يروح (بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ٣٤٧) .

ويجوز أن يسمى به كل فصل من فصول التمثيل المسماة الآن فصول الرواية . (انظر كتاب التاج للجاحظ ص ٣٨

وله :

لَيْتَ هَذَا أَتَجَزَّتْ مَا تَعَدُّ * وَشَفَّتْ أَنْفَسَنَا مِمَّا تَجِدُ^(١)
وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً * إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبَدُّ^(٢)
وَلَقَدْ قَالَتْ لِحَارَاتِهَا * ذَاتَ يَوْمٍ وَتَعَرَّتْ تَبْتَرِدُ^(٣)
أَكْمَا يَنْتَعِنِي تُبْصِرَتْنِي * عَمَّرَكُنَّ اللَّهُ أَمْ لَا يَقْتَصِدُ^(٤)
قَهَّانُ قَدْ قُلْنَا لَهَا * حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مِنْ تَوَدُّ^(٥)
حَسَدًا حُمْلَتَهُ مِنْ أَجْلِهَا * وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ

وله :

يَا مَنْ لِقَلْبٍ دَنِيْفٍ مُغْرَمٍ * هَامَ إِلَى هِنْدٍ وَلَمْ يَظْلِمِ^(٦)
هَامَ إِلَى رِيمٍ هَضِيمٍ الْحَشَى * عَذِبِ الثَّنَائِيَا طَيِّبِ الْمُبَسِّمِ^(٧)
لَمْ أَحْسِبِ الشَّمْسَ بَلِيلَ بَدَتْ * قَبْلِي لَذَى لَحْمٍ وَلَا ذَى دَمِ^(٨)

- (١) وجد به يحسد وجدا : أحبه حبا شديدا ، ووجد عليه يوجد وجدا : حزن . (٢) تبتد : تفعل بالماء البارد . (٣) كذا في الكامل للبرد طبع ليبرز ص ٥٩٤ وهي رواية جيدة . والتهافت كالأهتاف والمهاينة : ضحك فيه فتور كضحك المستمزي . وفي الأغاني والديوان : « فضا حكن » . وقد رجحنا الرواية الأولى لأنها تؤدي تمام المعنى المراد . (٤) هام تتعدى بالياء وقد ضمنت هنا معنى صبا ولهذا تعدت بالي . (٥) كذا في الأغاني ، وفي ديوانه : « رثم » بالهمز . والرثم : الظلي الأبيض الخالص البياض ، وقيل ولد الظلي ، يهمز ولا يهمز . (٦) كذا في الأغاني ، وبين هذا البيت والذي قبله في ديوانه : كالشمس بالأسعد إذ أشرقت * في يوم دجرب بارد مقسم يريد بالأسعد هنا سعد النجوم ، وهي عشرة : أربعة منها في برج الجدي والدلو يترها القمر وهي سعد الذابح وسعد بلع وسعد الأخبية وسعد السعود وهو كوكب منفرد نير . وأما الستة التي ليست من المنازل فسعد ناشرة وسعد الملك وسعد البهام وسعد الهام وسعد البارع وسعد مطر . وكل سعد من هذه الستة كوكبان بين كل كوكبين في رأي العين قدر ذراع وهي متناسقة . وأما سعد الأخبية فتلاثة أنجم كأنها أنافى ورابع تحت واحد منهم . أنظر المرتضى والمقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية للإمام العيني المطبوع بهامش الخزانة ج ١ ص ٨٠ في الكلام على البيت : إذا دبران منسك يوما لقيته * أوثقل أن ألقاك غدوا بأسعد وقال في اللسان في مادة « سعد » بعد أن ذكر هذه السعود : فأحسن ما تكون الشمس والقمر والنجوم في أيامها لأنك لا ترى فيها غيرة ، وقد ذكرها النابغة الذبياني فقال : قامت ترامي بين سحبي كلة * كالشمس يوم طلوعها بالأسعد وقد ضبط خطأ في اللسان بفتح العين . وقال :
- بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها * لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار

قالت ألا إنك ذو مَلَّةٍ * يَصْرِفُكَ الأدنى عن الأَقْدَمِ
قلت لها بل أنتِ معتَلَّةٌ * في الوَصْلِ يَاهِنْدُ لَكَ تَصْرِمِي

بينما عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ،
وكانت من أجمل أهل دهرها ، وهي تريد الركن تستلمه ، فبهت لما رآها ورأته ، وعلمت
أنها قد وقعت في نفسه ، فبعثت إليه بجارية لها وقالت : قولي له : اتق الله ولا تقل هجراً ،
فإن هذا مقام لا بد فيه مما رأيت ، فقال للجارية : أقرئها السلام وقولي لها : ابن عمك
لا يقول إلا خيراً ، وقال فيها :

لعائشة ابنة التيمي عندي * جمى في القلب ، لا يرعى حماها
يدكرني ابنة التيمي طيبي * يرود بروضة سهل رباها
فقلت له وكاد يرأع قلبي * فلم أرقط كالיום اشتباها
سوى حميش بساقك مستبين^(١) * وأن شواك لم يشبه شواها^(٢)
وأنت عاطل عار وليست * بعارية ولا عطيل يداها
وأنت غير أفرع^(٣) وهي تدلي * على المتنين^(٤) أسحم قد كساها
ولو قعدت ولم تكلف بود^(٥) * سوى ما قد كلفت به كفاها
أظلل إذا أكامها كاني * أكلم حية غلبت رفاها
تبيت إلى بعد النوم تسري * وقد أمسيت لا أخشى سراها

وله :

إنني وأول ما كلفت بحبها * عجب وهل في الحب من متعجب
نعت النساء فقلت لست بمبصر * شباها أبداً ولا بمقرب

(١) الحمش : دقة الساقين . (٢) الشوى : الأطراف . (٣) الأفرع : طويل شعر الرأس .

(٤) الأسحم : الأسود ، يريد به الشعر .

فَكَثَّنَ حِينًا ثُمَّ قُلْنَ تَوَجَّهَتْ * لِلْحَجِّ ، مَوْعِدُهَا لِقَاءَ الْأَخْشَبِ ^(١)
 أَقْبَلْتُ أَنْظُرَ مَا زَعَمَنَ وَقُلْنَ لِي * وَالْقَلْبُ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ
 فَلَقِيْتُهَا تَمْشِي بِهَا بَغْلَاتُهَا * تَرِي الْجَمَارَ عَشِيَّةً فِي مَوْكِ
 غَرَاءَ يُعْشَى النَّاطِرِينَ بِيَاضُهَا * حَوْرَاءَ فِي غُلُوَاءٍ عَيْشٍ مُعْجِبٍ ^(٢)
 إِنَّ الَّتِي مِنْ أَرْضِهَا وَسَمَائِهَا * جُلِيتَ لَحْنِيكَ لَيْتَهَا لَمْ تُجَلِّبِ

وكان عمر بن أبي ربيعة يهوى كَلِّمَ بنتَ سَعْدِ الْمُخَزُومِيَّةِ ، فأرسلَ إليها رسولا فضرِبَتْهَا
 وحلَقَتْهَا وأحلفَتْهَا أَلَّا تُعَاوِدَ ، ثم أعادها ثانية ففعلتُ بها مثلَ ذلك ، فَتَحَامَاهَا رُسُلُهُ ؛ فابْتَاعَ
 أُمَّةً سَوْدَاءَ لَطِيفَةً رَقِيقَةً وَأَتَى بِهَا مَنْزِلَهُ فَأَحْسَنَ إِلَيْهَا وَكَسَاهَا وَأَتَسَّهَا وَعَرَفَهَا خَبْرَهُ وَقَالَ لَهَا :
 إِنْ أَوْصَلْتَ لِي رُقْعَةً إِلَى كَلِّمَ فَقَرَأْتُهَا فَأَنْتِ حَرَّةٌ وَلِكِ مَعِيشَتُكَ مَا بَقِيَتْ ؛ فَقَالَتْ : اكْتُبْ لِي
 مَكْتُبَةً ^(٣) وَأَكْتُبْ حَاجَتَكَ فِي آخِرِهَا ، ففعلَ ذلك ، فَأَخَذْتُهَا وَمَضَتْ بِهَا إِلَى بَابِ كَلِّمَ
 فَاسْتَأْذَنْتُ فَنَجَرْتُ إِلَيْهَا أُمَّةً لَهَا فَسَأَلْتُهَا عَنْ أَمْرِهَا ؛ فَقَالَتْ : مَكْتُبَةٌ لِبَعْضِ أَهْلِ مَوْلَاتِكَ
 جِئْتُ أَسْتَعِينُهَا فِي مَكَاتِبِي ، وَحَادَثْتُهَا وَنَاشَدْتُهَا حَتَّى مَلَأْتُ قَلْبَهَا ، فَدَخَلْتُ إِلَى كَلِّمَ وَقَالَتْ :
 إِنْ بِالْبَابِ مَكْتُبَةٌ لَمْ أَرَقُطُ أَجْمَلُ مِنْهَا وَلَا أَكَلُ وَلَا آدَبُ ؛ فَقَالَتْ : إِئْذَنْ لِي لَهَا ، فَدَخَلْتُ ،
 فَقَالَتْ : مَنْ كَاتِبُكَ ؟ قَالَتْ : عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْفَاسِقُ ! فَاقْرَأِي مَكَاتِبِي ، فَدَتَّ يَدَهَا
 لَتَأْخُذَهَا فَقَالَتْ لَهَا : لِي عَلَيْكَ عَهْدُ اللَّهِ أَنْ تَقْرَأِيهَا ، فَإِنْ كَانَ مِنْكَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا أُحِبُّهُ وَإِلَّا
 لَمْ يَلْحَقْنِي مِنْكَ مَكْرُوهٌ ؛ فَعَاهَدْتُهَا وَفِطَنْتُ وَأَعْطَيْتُهَا الْكِتَابَ ، فَإِذَا أَوَّلُهُ :

مِنْ عَاشِقٍ صَبَّ لَيْسَ الْهَوَى * قَدْ شَقَّه الْوَجْدُ إِلَى كَلِّمَ
 رَأَيْتُكَ عَيْنِي فِدَاعِي الْهَوَى * إِلَيْكَ لِلْحَيْنِ وَلَمْ أَعْلَمْ

(١) الأخشب : مفرد الأخشين وهما جبلان بمكة أحدهما أبوقيس والآخر قعيقان ، ويقال : هما أبوقيس
 والجبل الآخر المشرف هناك ، وقد تفرد هذه الشئبة فيقال لكل واحد منهما : الأخشب ، قال ساعدة بن جؤية .

ومقامهن إذا حبسن بمازم * ضيق ألف وصدقهن الأخشب

(٢) في غُلُوَاءٍ عَيْشٍ : في أنضره وأرغده . (٣) المكاتبة : أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجما
 (مقسطا) فإذا آذاه صار حرا ، وسميت كذلك لأنه يكتب على نفسه لمولاه ثمه ، ومولاه يكتب له عليه عتقه .

قَتَلْنَا ، يَا حَبِّذَا أَتُمْ * فِي غَيْرِ مَا جُرِّمَ وَلَا مَأْتُمْ
 وَاللَّهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي وَحْيِهِ * مُبَيَّنًا فِي آيَةِ الْمُحْكَمِ
 مَنْ يَقْتُلِ النَّفْسَ كَذَا ظَالِمًا * وَلَمْ يُقِدِّهَا نَفْسَهُ يَظْلَمِ
 وَأَنْتِ تَأْرِي فِتْلَاقِي دَمِي * ثُمَّ أَجْعَلِيهِ نِعْمَةً تُنْعِمِي
 وَحَكْمِي عَدْلًا يَكُنْ بَيْنَنَا * أَوْ أَنْتِ فِيمَا بَيْنَنَا فَاحْكُمِي
 وَجَالِسِيْنِي مَجْلِسًا وَاحِدًا * مِنْ غَيْرِ مَا عَارٍ وَلَا مُحَرَّمِ
 وَخَبِّرِي مَا الَّذِي عِنْدَكُمْ * بِاللَّهِ فِي قَتْلِ أَمْرِي مُسْلَمِ

فلما قرأت الشعر قالت لها : إنه خذاع ملق وليس لما شكاه أصل ؛ قالت : يا مولاتي ،
 فما عليك من أمتحانه ؟ قالت : قد أذنت له وما زال حتى ظفر بيغيته ! فقول لي : إذا كان
 المساء فليجلس في موضع كذا وكذا حتى يأتيه رسولي ؛ فأنصرفت الجارية فأخبرته فتأهب لها ،
 فلما جاءه رسولها مضى معه حتى دخل إليها وقد تهيأت أجل هيئة ، وزينت نفسها ومجلسها
 وجلست له من وراء ستر ، فسلم وجلس ، فتركته حتى سكن ثم قالت له : أخبريني عنك
 يا فاسق ! ألسنت القائل :

هَلَّا أَرْعَوَيْتِ قَرَحِي صَبَا * صَدْيَانِ لَمْ تَدْعِي لَهُ قَلْبَا
 جَشِمَ الزِّيَارَةَ فِي مَوَدَّتِكُمْ * وَأَرَادَ أَلَّا تُرْهِقِي ذَنْبَا
 وَرَجَا مُصَالِحَةً فَكَانَ لَكُمْ * سَلَامًا وَكُنْتَ تَرِيَنَهُ حَرْبَا
 يَا أَيُّهَا الْمُصْغَفَى مَوَدَّتَهُ * مَنْ لَا يَرَاكَ مُسَامِيًا خُطْبَا^(١)
 لَا تَجْعَلُنْ أَحَدًا عَلَيْكَ إِذَا * أَحْبَبْتَهُ وَهَوَيْتَهُ رَبًّا
 وَصِلِ الْحَبِيبَ إِذَا شُغِفَتْ بِهِ * وَأَطْوِ الزِّيَارَةَ دُونَهُ غِيَا
 فَلَذَلِكَ أَحْسَنُ مِنْ مُوَاطَبَةٍ * لَيْسَتْ تَزِيدُكَ عِنْدَهُ قُرْبَا
 لَا بَلْ يَمْلِكُ عِنْدَ دَعْوَتِهِ * فَيَقُولُ هَاهُ وَطَالَمَا لِي^(٢)

(١) الخطب : الخطاب . (٢) وهاه : كلمة وعيد ، وحرك لضرورة الشعر وقد روى البيت في ديوانه :

لا بل يملك ثم تدعوا باسمه * فيقول هاه وطالما لي

ورأى عمرُ لُبَابَةَ بنتَ عبدِ الله بن العباسِ امرأةَ الوليد بن عُتبَةَ بن أبي سفيان تطوف بالبيت فرأى أحسنَ خلقِ الله ، فكاد عقله يذهب ، فسأل عنها فأخبر بنسبها ، فنسب بها وقال فيها :

وَدَّعْ لُبَابَةَ قَبْلَ أَنْ تَرَحَّلَا * وَأَسْأَلُ فَإِنَّ قُلَّاهُ أَنْ تَسْأَلَا
إِلَيْتُ بِعَمْرٍكَ سَاعَةً وَتَأَنَّنَا * فَعَلَلْ مَا بَحَلَتْ بِهِ أَنْ يُبْدَلَا
قَالَ أَتَمَرُ مَا شِئْتَ غَيْرُ مُحَالَفٍ * فِيهَا هَوَيْتُ فَإِنَّا لَنْ نَعْجَلَا
لَسْنَا نُبَالِي حِينَ تَقْضِي حَاجَةً * مَا بَاتَ أَوْ ظَلَّ الْمَطِيُّ مُعَقَّلَا
حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ ظَلَامُهُ * وَرَقَبْتُ غَفْلَةً كَأَشْيِ أَنْ يُحْمَلَا
نَخَرَجَتْ تَأَطَّرُ فِي الثِّيَابِ كَأَنَّا * أَيْمُ يَسِيبُ عَلَى كَثِيبِ أَهْيَلَا
رَحَبْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا فَتَبَسَّمتُ * لَتَحِيَّتِي لَمَّا رَأَتْنِي مُقْبِلَا
وَجَلَّ الْقِنَاعُ سَحَابَةً مَشْهُورَةً * غَرَاءَ تُعْشِي الطَّرْفَ أَنْ يَتَأَمَّلَا
فَلَبِثْتُ أَرْقِيهَا بِمَا لَوْ عَاقِلٌ * يَرْقِي بِهِ مَا أَسْطَاعَ إِلَّا يَتَزَلَا

وَحَجَّتْ رَمْلَةً بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلِيفِ الْخَزَاعِيَّةِ فَقَالَ فِيهَا :

أَصْبَحَ الْقَلْبُ فِي الْحَبَالِ رَهِينَا * مُقْصِداً يَوْمَ فَارَقَ الظَّاعِنِينَا
عَجَلْتُ حُمَةً الْفِرَاقِ عَلَيْنَا * بِرَحِيلٍ وَلَمْ نَخَفْ أَنْ تَبِينَا
لَمْ يَرْعُنِي إِلَّا الْفَتَاةُ وَإِلَّا * دَمْعُهَا فِي الرِّدَاءِ سَحَابٌ سَسِينَا
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ مَكَّةَ سِرًّا * قَبْلَ وَشِكِّ مَنْ بَيْنَكُمْ نَوَّلِينَا
أَنْتِ أَهْوَى الْعِبَادِ قُرْبًا وَدَلًّا * لَوْ تُنِيلِينَ عَاشِقًا مُحْزُونَا
قَادَهُ الطَّرْفُ يَوْمَ مَرٍّ إِلَى الْحَيَةِ * مِنْ جِهَارًا وَلَمْ يَخْفُ أَنْ يَحِينَا

(١) القلال كفراب وسحاب : القليل . (٢) اتمر ما شئت : افعل ما شئت فإننا لا نعصى لك أمراً .

(٣) تأطر : مخدوفة إحدى تأويه ، أى تتنقى . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الوعل

يعقل عقولاً : امتنع في الجبل ، وبه سمى الوعل عاقلاً على حد التسمية بالصفة ، ومنه المثل : « إنما هو كجراح

الأرعى قليلاً ما يرى » . والأرعى : جمع أروية وهى تيمس الجبل البرية .

فَإِذَا نَجِجْتُ تَرَاعَى نِعَاجًا * وَمَهَّاهُجَ الْمَنَاطِرِ عَيْنَا
 قُلْتُ مَنْ أَتَمُّ فَصَدَّتْ وَقَالَتْ * أَمِيدُ^(١) سَوَالِكَ الْعَالَمِينَ
 قُلْتُ بِاللَّهِ ذِي الْجَلَالَةِ لِمَا * أَنْ تَبَلَّتِ الْفُؤَادَ أَنْ تَصْدُقِينَا
 أَى مِنْ تَجْمَعُ الْمَوَاسِمُ قَوْلِي * وَأَيْبِنِي لَنَا وَلَا تَكْتُمِينَا
 نَحْنُ مِنْ سَاكِنِي الْعِرَاقِ وَكُنَّا * قَبْلَهُ قَاطِنِينَ مَكَّةَ حِينَا
 قَدْ صَدَقْنَاكَ إِذْ سَأَلْتَ فَمَنْ أُنْ * تَ عَسَى أَنْ يَجْرَّ شَأْنُ شُؤُونَا
 وَزَرَى أَنَا عَرَفْنَاكَ بِالنَّعْمِ * يَتِ بَطْنٌ وَمَا قَتَلْنَا يَقِينَا
 بِسَوَادِ الثَّيْتَيْنِ وَنَعِيتِ * قَدْ نَرَاهُ لَنَاظِرٍ مُسْتَيِّنَا

وقال في الثريا وقد صرَّمته :

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرِيَا فَإِنِّي * ضُفِّتُ ذَرْعًا بِهِجْرِهَا وَالْكَتَابِ
 سَلَبْتَنِي بِحَاجَةِ الْمِسْكِ عَقْلِي * فَسَلُّوْهَا مَاذَا أَحَلَّ اغْتِصَابِي
 وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحِيَّرُ مِنْهَا * فِي أَدِيمِ الْخَدَّيْنِ مَاءُ الشَّبَابِ
 أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَابَةِ تَهَادِي * بَيْنَ خَمْسِ كَوَاعِبِ أَثْرَابِ^(٢)
 ثُمَّ قَالُوا تُحِبُّهَا قُلْتُ بِهِرًا * عَدَدَ الْقَطْرِ وَالْحَصَى وَالتَّرَابِ
 أَزْهَقْتُ أَمْ نُوْفِلُ إِذْ دَعَيْتُهَا * مُهْجَتِي^(٤) ، مَا لِقَائِي مِنْ مَتَابِ
 حِينَ قَالَتْ لَهَا أَحِبِّي فَقَالَتْ * مَنْ دَعَانِي قَالَتْ أَبُو الْخَطَّابِ
 فَاسْتَجَابَتْ عِنْدَ الدَّعَاءِ كَمَا لَبِي * رَجُلٌ يَرْجُونَ حَسَنَ الثَّوَابِ

(١) قال في اللسان مادة بدد بعد أن أورد هذا الشطر : « معناه أمقم أنت سؤالك على الناس واحدا واحدا حتى تعيهم » . من البداد وهو أن يبد المال القوم فيقسم بينهم ، وأبدى المال والعتاء : فرقه فيهم ، والمراد : لماذا تسألنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! . أو معناه : « أنت ملزم سؤالك الناس ، من قولهم : مالك منه بد » ، والمراد : أنت ملزمنا الإجابة عن سؤالك ! إننا لانحييك . (٢) بحاجة المسك ، يريد بذلك وصفها بطيب ريقها وبأنه كالسك . (٣) تهادى ، يريد يهدى بعضها بعضا في مشيتها (الكامل للبرد طبع ليزج ص ٣٧٩) . (٤) في الكامل للبرد طبع ليزج ص ٣٧٩ : أزهقت : أبطلت وأذهبت قال الله عز وجل : (فيدمه فإذا هو زاهق) اه . يريد : أذهبت أم نوفل فسمى إذ دعت الثريا لوصالى فلم تجبها .

ومن شعره :

كُتِبْتُ إِلَيْكَ مِنْ بِلْدِي * كِتَابٌ مُؤَلَّهٌ كَمِيدٌ
كَيْفَ وَالْكَافِ الْعَيْنِ (١) * مِنْ بِالْحَسَرَاتِ مَنْفَرِدِ
يُورِقُهُ هَيْبُ الشَّو * قِيَامِ السَّحْرِ وَالْكَيدِ (٢)
فِيْمَسْكُ قَلْبِهِ بِيَدِ * وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ بِيَدِ

لما تزوج سهيل بن عبد العزيز الثريا ونقلها الى الشام، بلغ عمر بن أبي ربيعة الخبر، فأتى المنزل الذي كانت الثريا تنزل، فوجدها قد رحلت منه يومئذ، فخرج في أثرها فلحقها على مرحلتين، وكانت قبل ذلك مهاجرة لأمر أنكرته عليه، فلما أدركهم نزل عن فرسه ودفعه الى غلامه ومشي متنكرا حتى مر بالخيمة، فعرفته الثريا وأثبتت حركته ومشيته، فقالت لحاضنتها: كلبه، فسألت عليه وسألته عن حاله وعاتبته على ما بلغ الثريا عنه، فاعتذر وبكى، فبكى الثريا، فقالت: ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرحيل، فحادثها الى وقت طلوع الفجر ثم ودعها وبكى طويلا، وقام فركب فرسه ووقف ينظر اليهم يرحلون، ثم أتبعهم بصره حتى غابوا، وأنشأ يقول:

يا صاحبي قفا تسخير الظللا * عن حال من حله بالأُمس ما فعلا
فقال لي الرُّعُ لما أن وقفتُ به * إن الحليط أجَدُ البينِ فاحتملا (٣)
وخادعتك النوى حتى رأيتهم * في الفجر يَحْتِثُ حَادِي عيسهم زجلا (٤)

(١) يقال: وكفت العين: سالت دموعها. (٢) السحر: الرثة.
(٣) أي عرفتهما حق المعرفة. (٤) لحاضنتها: لمريبتها. (٥) يرحلون يشدون على إبلهم
الرجال. (٦) أجَدُ البين: اعترفه. (٧) احتمل: ارتحل. (٨) النوى: الفراق
والبعد. ويحث: يسوق. وزجلا: رافعا صوته في حذاء الإبل لتسرع في السير، وأصل الزجل الجلبة ورقع
الصوت وخص به التطريب، وأنشد سيبويه في وصف حمار وحش:

له زجل كأنه صوت حاد * إذا طلب الوسيقة أو زمير

وذكره في باب ما يحتمل الشعر من استباحة الضرورة، وهي هنا حذف الواو المهيئة لحركة الهاء في قوله: كأنه،
والوسيقة: أناء التي يضمها ويجمعها، من وسقت الشيء: جمعته.

لما وَقَفْنَا نُحْيِيهِمْ وَقَدْ صَرَحْتَ * هَوَاتِفُ الْبَيْنِ وَأَسْتَوْلَتْ بِهِمْ أَصْلًا^(١)
 صَدَتْ بِعَادَاً وَقَالَتْ لَلَّتِي مَعَهَا * بِاللَّهِ لُومِيهِ فِي بَعْضِ الَّذِي فَعَلَا
 وَحَدَّثِيهِ بِمَا حَدَّثْتَ وَأَسْتَمِعِي * مَاذَا يَقُولُ وَلَا تَعْنِي بِهِ جَدَلًا^(٢)
 حَتَّى يَرَى أَنْتَ مَا قَالَ الْوَشَاةُ لَهُ * فِينَا لَدَيْهِ إِلَيْنَا كُلُّهُ نُقْلَا
 وَعَرَفِيهِ بِهِ كَالْمَزَبِ وَأَحْفِظِي * فِي بَعْضِ مَعْتَبَةٍ أَنْ تُغْضِبِي الرِّجْلَا
 فَإِنَّ عَهْدِي بِهِ وَاللَّهُ يَحْفَظُهُ * وَإِنْ أَتَى الذَّنْبَ مِنْ يَكْرِهِ الْعَبْدَلَا
 لَوْ عِنْدَنَا أَغْتِيبَ أَوْ نِيلَتْ نَقِصَتُهُ * مَا آبَ مُغْتَابُهُ مِنْ عِنْدِنَا جَدَلَا
 قُلْتُ أَسْتَمِعِي فَلَقَدْ أَبْلَغْتَ فِي لَطِيفِ^(٣) * وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَى ذِي اللَّبِّ مِنْ هَزَلَا
 هَذَا أَرَادَتْ بِهِ بُحْلًا لِأَعْذِرَهَا * وَقَدْ أَرَى أَنَّهُ لَنْ تَعْدَمَ الْعِلَلَا
 مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ * وَلَا الْفُؤَادُ فُؤَادًا غَيْرَ أَنْ عَقْلًا^(٤)
 أَمَا الْحَدِيثُ الَّذِي قَالَتْ أُتَيْتَ بِهِ * فَمَا عَبَّأْتُ بِهِ إِذَا جَاءَنِي حَوْلَا
 مَا إِنْ أَطَعْتُ بِهَا بِالْغَيْبِ قَدْ عَلِمْتُ * مَقَالَةَ الْكَاشِخِ الْوَاشِي إِذَا حُجِّلَا
 إِنِّي لَأَرْجِعُهُ فِيهَا بِسَخَطَتِهِ * وَقَدْ يَرَى أَنَّهُ قَدْ غَرَنِي زِلَالَا
 وَهِيَ قَصِيدَةُ طَوِيلَةٍ مَذْكُورَةٍ فِي شِعْرِهِ .

(١) فِي دِيْوَانِهِ :

لما وَقَفْنَا نُحْيِيهِمْ وَقَدْ شَحَطَتْ * نَعَامَةُ الْبَيْنِ فَاسْتَوْلَتْ بِهِمْ أَصْلَا
 وشحطت نعامة البين : ارتحلوا وفرقهم البين ، وفي اللسان مادة نعم وشال : يقال للقوم إذا ارتحلوا عن منزلهم
 أو فرقوا : قد خفت نعامتهم وشالت نعامتهم ، والأصل : جمع أصيل وهو العشي وقيل هو مفرد ، أنشد نعلب :
 وتمذرت نفسي لذلك ولم أزل * بدلنا نهاري كله حتى الأصل
 فقوله : بدلنا نهاري كله ، يدل على أن الأصل هاهنا واحد . (٢) لا تعني به جدلا : لا تعجزني في مجادلته .
 (٣) اللطف لغة في اللطف . (٤) قال في اللسان : والتفؤد : التوقد ، والفؤاد : القلب لتفؤده
 وتوقده . وقال في القاموس وشرحه : والتفؤد : التحرق والتوقد ، ومنه الفؤاد للقلب ، لأن عقل الفؤاد للعلومات
 نتيجة اشتغاله وتوقده وتحركه وجولته فيها حتى يحصها ، ويميز الصحيح من الفاسد والحق من الباطل .

وله :

هل تعرف الدار والأطلال والدمنا * زدت الفؤاد على علاته حزنا^(١)
 داراً لأسماء قد كانت تحل بها * وأنت إذ ذاك قد كانت لكم وطناً
 لم يحجب القلب شيئاً مثل حبكم * ولم تر العين شيئاً بعدكم حسناً
 ما إن أبالي أدام الله قربكم * من كان شطاً من الأحياء أو طعناً
 فإن نأيتم أصاب القلب نأيتكم * وإن دنت داركم كنتم لنا سحناً
 إن تجحلي لا يسأل القلب بحولكم * وإن تجودي فقد عنيتمني زمناً
 أمسى الفؤاد بكم يهند مرتهنا * وأنت كنت الهوى والهوى والوسناً
 إذ تستيك بمصقول عوارضه * ومقلتي جؤذير لم يعد أن شدنا

وقال :

أعبد ما ينسى مودتك القلب * ولا هو يسليه رخاء ولا كرب
 ولا قول وإش كاشع ذى عداوة * ولا بعد دار إن نأيت ولا قرب
 وما ذاك من نعمي لديك أصابها * ولكن حباً ما يقاربه حب
 فإن تقبلي يا عبد توبة تائب * يئب ثم لا يوجد له أبداً ذنب
 أذل لكم يا عبد فيما هويتكم * وإني إذا ما رامت غيركم صعب
 وأعدل نفسي في الهوى فتعوقني * ويأصرنى قلب بكم كلف صب
 وفي الصبر عمن لا يؤاتيك راحة * ولكنه لا صبر عندي ولا لب
 وعبد بيضاء المحاجر طفلة * منعمة نضي الحليم وما تصبو
 قطوف من الحور الأوانس بالضحي * متى تمش قيس الباع من بهرها تربو
 فلست بناس يوم قالت لأربع * نوايم غر كلهن لها ترب
 ألا ليت شعري فيم كان صدوده * أعلق أخرى ! أم على به عتب

(١) كذا في ديوانه وفي الأغاني ج ١ ص ٢٧٩ « على ما عنده » .

وقال :

إِنَّ طَيْفَ الْخِيَالِ حِينَ الْمَنَّا * هَاجَ لِي ذِكْرُهُ وَأُحْدِثَ هَمًّا
جَدَّدِي الْوَصْلَ يَأْسُكَيْنِ وَجُودِي * لِحُبِّ رَحِيلِهِ قَدْ أَحْمَا
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا * أَنْ يَرُدُّوا جَمَاهُمْ فُتْرَمَّا
وَلَقَدْ قُلْتُ مُخْفِيًّا لَغَرِيضِ * هَلْ تَرَى ذَلِكَ الْغَزَالَ الْأَحْمَا
هَلْ تَرَى فَوْقَهُ مِنَ النَّاسِ شَخْصًا * أَحْسَنَ الْيَوْمِ صُورَةً وَأَتَمَّا
إِنْ تَيْسَلِي أَعِشْ بِخَيْرٍ وَإِنْ لَمْ * تَبْدُلِي الْوَدَّ مَتًى بِالْهَمِّ غَمًّا

وله أيضا :

أَيَا مَنْ كَانَ لِي بَصْرًا وَتَمَمَّا * وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَنْ بَصْرِي وَسَمْعِي
وَعَمَّنْ حِينَ يَذْكُرُهُ فُؤَادِي * يَفِيضُ كَمَا يَفِيضُ الْغَرْبُ دَمْعِي
يَقُولُ الْعَاذِلُونَ نَأَتْ قَدْعُهَا * وَذَلِكَ حِينَ تَهَيَّأِي وَلَيْعِي
أَأَهْجُرُهَا فَأَقْعُدُ لَا أَرَاهَا * وَأَقْطَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِقَطْعِي
وَأَصْرِمُ حَبَاهَا لِمَقَالِ وَاشِ * وَأَجْفَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِفَجْعِي
وَأَقْسِمُ لَوْ خَلَوْتُ بِهِجْرٍ هَنَدٍ * لَضَاقَ بِهِجْرُهَا فِي النَّوْمِ ذَرْعِي

وهو القائل :

مَا كُنْتُ أَشْعُرُ إِلَّا مُدَّ عَرَفَتُكُمْ * أَنَّ الْمَضَاجِعَ تُمَسِّي تُنْبِتُ الْإِبْرَا
لَقَدْ شَقِيتُ وَكَانَ الْحَيْنُ لِي سَبَبًا * أَنْ عَلَّقَ الْقَلْبُ قَلْبًا يُشْبِهُ الْحَجْرَا
قَدْ لُمْتُ قَلْبِي فَأَعْيَانِي بِوَاحِدَةٍ * وَقَالَ لِي لَا تَلُبْنِي وَأَدْفَعِ الْقَدْرَا
إِنْ أَكْرَهَ الطَّرْفُ يَحْسَرُدُونَ غَيْرَكُمْ * وَلَسْتُ أَحْسِنُ إِلَّا نَحْوَكِ النَّظْرَا
قَالُوا صَبَوْتَ فَلَمْ أَكْذِبْ مَقَالَتَهُمْ * وَلَيْسَ يَنْسَى الصَّبَا إِنْ وَالَهُ كِبَرَا

وقال أيضا :

أَلَا لَيْتَ قَبْرِى يَوْمَ تُقْضَى مِيتَتِى * بتلك التى مِنْ بَيْنَ عَيْنَيْكَ وَالْفِمْ
وَلَيْتَ طَهْوَرِى كَانَ رِيْقَكَ كُلَّهُ * وليت حَنُوطِى مِنْ مُشَاشِكَ وَالْدَّم
أَلَا لَيْتَ أُمَّ الْفَضْلِ كَانَتْ قَرِيْنَتِى * هُنَا أَوْ هُنَا فِي جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمَ

نظر عمر بن أبى ربيعة فى الطَّوْافِ الى امرأة شريفة فرأى أحسنَ خَلْقِ الله صورةً،
فذهب عقله عليها وكلَّمها فلم تُجِبْهُ، فقال فيها :

الرَّيْحُ تَسْحَبُ أَذْيَالًا وَتَسْهُرُهَا * يَا لَيْتَنِى كُنْتُ مِمَّنْ تَسْحَبُ الرِّيحُ
كَيْمَا تَجْرُبُنَا ذِيلاً فَتَطْرَحُنَا ^(١) * على التى دونها مغبرة سوح ^(٢)
أَنَّى بُقْرِىكُمْ أُمَّ كَيْفَ لِي بِكُمْ * هَيْهَاتَ ذَلِكَ مَا أَمْسَتْ لَنَا رُوحُ
فَلَيْتَ ضِعْفَ الَّذِى أَلْقَى يَكُونُ بِهَا * بل ليت ضِعْفَ الَّذِى أَلْقَى تَبَارِيحُ ^(٤)
إِحْدَى بُنْيَاتٍ عَمَّى دُونَ مَرْطَا * أَرْضُ بَقِيعَاتِهَا الْقَيْصُومُ وَالشَّيْحُ ^(٥)

فبلغها شعره فجزعت منه، فقيل لها : اذكريه لزوجك، فإنه سيُنكر عليه قوله، فقالت :
كَلَّا وَاللهِ لَا أَشْكُوهُ إِلَّا إِلَى اللهِ، ثم قالت : اللهم إِنْ كَانَ نَوَّهَ بِاسْمِى ظَالِمًا فَاجْعَلْهُ طَعَامًا
لِلرَّيْحِ، فَضَرَبَ الدَّهْرُ مِنْ ضَرْبِهِ، ثم إنه غدا يوماً على فرس فهبَّت رِيحٌ فَتَزَلَّ فَاسْتَتَرَ
بَسَلَمَةٍ، فَعَصَفَتِ الرِّيحُ نَحْدَ شَهِ غُصْنٍ مِنْهَا، فَدَمِيَ وَوَرِمَ بِهِ وَمَاتَ مِنْ ذَلِكَ .

(١) هذا أحد الوجهين فى الفعل الواقع بعد كَيْمَا : الرفع على أَنَّ مَا كَافَتْ لَهَا عَنِ الْعَمَلِ، وَالتَّصَبُّعُ عَلَى أَنَّ
مَا زَائِدَةٌ وَكَيْ عَامِلَةٌ فِيهَا بَعْدَهَا، وَقَدْ زَوَى بِالْوَجْهِينِ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْفَعِ فَضُرَّ فَإِنَّمَا * يَرِجُ الْفَتَى كَيْمَا يَضُرَّ وَيَنْفَعِ

(٢) مغبرة، يريد بها القلاة المجذبة . (٣) سوح : جمع ساحة وهى الفضاء . (٤) تباريح
الشوق : توهجه، قال السيد محمد مرتضى : قال شيخنا وهو من الجوع التى لا مفرد لها وقيل : مفردة تبريح
وَأَسْتَعْمَلَهُ الْمُحَدِّثُونَ وَلَيْسَ بِثَبَتٍ . (٥) قال فى اللسان : القيصوم : ما طال من العشب، ثم قال :
وَالْقَيْصُومُ مِنْ نَبَاتِ السَّهْلِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : الْقَيْصُومُ مِنَ الذُّكُورِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَهُوَ طِيبُ الرَّائِحَةِ مِنْ رِيَّاحِينَ الْبَرِّ
وَوَرَقُهُ هَدَبٌ وَلَهُ نَوْرَةٌ صَفْرَاءٌ وَهِيَ تَهْتَضُ عَلَى سَاقٍ وَتَطُولُ .

(ب) الغزل العذري

جميل^(١)

قال نصيب مولى عبد العزيز بن مروان: قَدِمْتُ المدينة فسألتُ عن أعلم أهلها بالشعر، فقيل لي: الوليد بن سعيد الأشجعي، فوجدته بشعب سَلَعَ مع عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أزهر، فإنا جُلوسٌ إذ طلع علينا رجل طويلُ بين المنكبين يقود راحلةً

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر من عذرة، وكان شاعرا فصيحاً مقدّماً جامعاً للشعر والرواية. اشتهر بحبه بشينة ابنة عمه، ولذلك عرف بجميل بشينة، وكانا يقيان في وادي القرى، وكان أول عهده بها وهي صغيرة. ومن أوائل نظمها فيها قوله:

وأول ما قاد المودة بيننا * بوادي بغيض يا بشين سباب

وقلت لها قولاً فجاءت بمثله * لكل كلام يا بشين جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة، فأخذ ينظم القصائد فيها حتى اشتهر أمره. وأتفق مرة أن توبة بن الحير صاحب ليل مر ببنى عذرة فرأته بشينة فجعلت تنظر إليه وجميل حاضر فنارت الغيرة في قلب جميل، فقال لتوبة: من أنت؟ قال: أنا توبة بن الحير، قال: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك، فأعطته بشينة ملادة حمراء فأتزرها، ثم صارعه فصرعه جميل. ثم قال: هل لك في النضال؟ قال: نعم، ففاضله فضله جميل. ثم قال: هل لك في السباق؟ قال: نعم. فسابقه فسبقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما فعل ذلك بريح الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادي، فهبط، فصرعه توبة ونضله وسبقه.

وكان عند بشينة مثل ما عند جميل، ولما رأت مناضله عنها زادت شغفا به، ولكنهما لم يكونا يجتمعان إلا خلسة على موعد. ولم يكن جميل يخلو من الرقاء، لكنهم لم يستطيعوا رميه بريية. وأخباره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام. ولم يزل يجتمع بها سرا عن أهلها، فألحوا بالشكوى منه إلى العامل، ففر إلى اليمن حتى عزل العامل. وانجم أهل بشينة الشام، فرحل جميل إليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، فغته أهل هددوه، فانقطع عنها، وأخيراً لجأ إلى مصر، وعاملها عبد العزيز بن مروان، فأحسن وفادته، ومرض هناك ومات. وكان طويل القامة عريض بين المنكبين جميل الخلقة حسن البزة، توفي سنة ٨٢ هـ.

ولجميل ديوان شعر كبير كان مشهوراً في أيام ابن خلكان ولم تقف على خبره، ولكن منه أشعاراً مجموعة في كتاب منه نسخة خطية في مكتبة برلين.

أنظر الكلام على جميل في الأغاني ج ٧ ص ٧٧ وج ١ ص ٨٠ وابن خلكان ج ١ ص ١١٥ وخزانة الأدب ج ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠

عليها بزة حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهري: يا أبا جبر، هذا جميل فادعه لعله يُنشدنا، فصاح به عبد الرحمن: هيا جميل، فالتفت فقال: من هذا؟ فقال: أنا عبد الرحمن بن أزهري، فقال: قد علمت أنه لا يجترئ على إلا مثلك، فأناه، فقال له: أنشدنا، فأنشدهم:

ونحن منعنا يوم أول نساءنا * ويوم أقي والأسنة ترعى^(١)
يحب الغواني البيض ظل لوائنا * اذا ما أنانا الصارخ المتلهف
نسير أمام الناس والناس خلقنا * فإن نحن أوماننا الى الناس وقفوا
فأى معد كان قى رماحه * كما قد أفاننا والمفانير ينصف
وكننا اذا ما معشر نصبوا لنا * ومررت جوارى طيرهم وتعيفوا^(٢)
وضعنا لهم صاع القصاص رهينة * بما سوف نوفيها اذا الناس طفقوا^(٣)
اذا استبق الأقوام مجدا وجدنا * لنا معروفا مجدا وللناس معروفا

ثم قال له: أنشدنا هزجا، قال: وما الهزج؟ لعله القصير! قال: نعم، فأنشده:

رسم دار وقفت في طلله * كدت أقضى الحياة من جلله^(٤)
موحشا ما ترى به أحدا * تنسج الريح ترب معتدله
وصريعا بين الثمام ترقى * عازفات المدب في أسله
بين علباء رائش فبلى * فالغميم الذى الى جبله
واقفا في ديار أم جسير * من صحنى يومه الى أصله^(٥)
يا خلى إنا أم جسير * حين يدنو الضجيع من غلله^(٦)
روضة ذات حنوة وخزاي * جاد فيها الربيع من سبله
بينما نحن بالأراك معا * اذ بدا راكب على جماله

(١) ترعى: تقطردما. (٢) تعيفوا: من العيافة، وهى زجر الطير والاعتبار بأسمائها ومساقتها وأصواتها، فيتسعد أو يشام. (٣) التطفف: نقص الكيل. (٤) من أجله. (٥) الغلال: جمع غلة، وهى ما يتوارى فيه أو شعار تحت الثوب. (٦) السبل: المطر.

فَنَاطَرْتُ ثُمَّ قُلْتُ لَهَا * أَكْرَمِيهِ حَيْثُ فِي نَزْلِهِ
 فَظَلَمْنَا بِنِعْمَةٍ وَآتَكُنَا * وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلْلِهِ
 قَدْ أَصَوْنُ الْحَدِيثَ دُونَ أَخٍ * لَا أَخَافُ الْأَذَاةَ مِنْ قِبَلِهِ
 غَيْرَ بَغِضٍ لَهُ وَلَا مَلَقٍ * غَيْرَ أَنِّي أَشْفَعُ^(٢) مِنْ وَجَلِهِ
 وَخَلِيلٍ صَافِيٍّ مَرْضِيًّا * وَخَلِيلٍ فَارِقْتُ مِنْ مَلَلِهِ

ثم اقتاد راحلته موليا؛ فقال ابن الأزهري: هذا أشعر أهل الإسلام؛ فقال ابن حسان:
 نعم والله وأشعر أهل الجاهلية، والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيبه؛ فقال عبد الرحمن
 ابن الأزهري: صدقت.

قال محمد بن سَلَام: كان لكثير في النسب حظا وافر، وجميل مقدم عليه وعلى
 أصحاب النسب في النسب، وكان جميل صادق الصباغة والعشق، ولم يكن كثير بعاشق
 ولكنه كان يتقوّل، وكان الناس يستحسنون بيت كثير في النسب، وهو:
 أُرِيدُ لِأَنسِي ذِكْرَهَا فَكُنْ أُنْمَا * تَمْثُلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلٍ
 ورأيت من يفضل عليه بيت جميل:

« خَلِيلِي فَمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا * قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي

قيل إن بثينة واعدت جميلا أن يلتقيا في بعض المواضع، فأتى لوعدها، وجاء أعرابي
 يستضيف القوم، فأنزلوه وقرّوه، فقال لهم: قد رأيْتُ في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متفرقين
 متوارين في الشجر وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم، فعرفوا أنه جميل وصاحبه،
 فخرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده، فلما أسفر له الصبح انصرف كئيبا سيئ الظن بها
 ورجع إلى أهله؛ فجعل نساء الحى يقرّعنّه بذلك ويقلن له: إنما حصلت منها على الباطل
 والكذب والغدر، وغيرها أولى بوصلك منها، كما أن غيرك يحظى بها؛ فقال في ذلك:

فأجبتها بالقول بعد تسرُّ * حيَّ بُثينةَ عن وصالكِ شاغلي
 أبين إنك قد ملكيت فأسجحي ^(١) * وخُذِي بِحُظِّكَ مِنْ كَرِيمٍ وَاصِلٍ
 فلو ربَّ عارضةٍ علينا وصلها * بالحدِّ تخلطه بقبول الهازل
 لو كان في صدرى كقدرِ قَلَامِيَةِ * فضلاً وصلتكِ أو أئتكَ رسائلِي
 ويقن إنك قد رضيت بي باطلٍ * منها فهل لك في اجتناب الباطل
 ليُرْلَنَ عَنْكَ هَوَايَ ثُمَّ يَصِلَنِي * وإذا هَوَيْتُ فما هَوَايَ بَزَائِلِ
 صادت فؤادي يا بُثَيْنِ حبالكم * يومَ الحُجُونِ وأخطأتكِ حبالِي
 مَنِّيَنِي فَلَوَيْتُ مَا مَنِّيَنِي * وجعلتِ عاجل ما وعدتِ كآجلِ
 وتناقلت لما رأت كلفِي بها * أَحِبِّ إِلَىٰ بَذاكَ مِنْ مُتَنَاقِلِ
 وأطعت في عواذلاً فهجرتني * وعصيتُ فيكَ وقد جَهدَنَ عواذلي
 حاولتني لأبُتَّ حبلَ وصالكم * متى ولستُ وإن جَهدَنَ بفاعِلِ
 فرددتُهم وقد سَعَيْنَ بهجركم * لما سَعَيْنَ لَهُ بِأَفُوقٍ نَاصِلِ ^(٢)
 يَعْضَضُنَ مِنْ غِيْظٍ عَلَىٰ أَنَامِلَا * ووَدِدْتُ لَوْ يَعْضَضُنَ صُمَّ جَنَادِلِ
 ويقن إنك يا بُثَيْنِ بخيلةٌ * نفسِي فداؤُكِ مِنْ ضَمِينٍ باخِلِ

وقال جميل في وعد بُثينة بالطلاق وتأخرها قصيدةً أولها :

يا صاح عن بعض الملامة أقصر * إن المني للقاء أم المسور

ومنها :

وكانت طارقها على علل الكرى * والنجم وهنا قد دنا لتغور
 يستأف ريح مدامية معجونة ^(٣) * بذكي مسكٍ أو سحيق العنبر

(١) أسجحي : أحسنى العفو . (٢) الأفوق : السهم الذي كسرفوقه ، وهو مشق رأس السهم حيث

يقع الوتر . وناصل : لا نصل فيه . (٣) يستأف : يشم .

ومنها :

إِنِّي لَأَحْفَظُ غَيْبَكُمْ وَيُسْرَتِي * اذْ تَذَكِّرِينَ بِصَالِحٍ أَن تَذَكَّرِي
وَيَكُونُ يَوْمٌ لَا أَرَى لَكَ مُرْسَلًا * أَوْلَتْ سِقِي فِيهِ عَلَى كَاشِهَرٍ
يَا لَيْتَنِي أَلْقَى الْمَنِيَّةَ بَغْتَةً * إِنْ كَانَ يَوْمٌ لِقَائِكُمْ لَمْ يُقَدَّرِ
أَوْ اسْتَطِيعَ تَجَلُّدًا عَنْ ذِكْرِكُمْ * فَيُفِيقَ بَعْضُ صِبَابِي وَتَفَكَّرِي

وفيه يقول :

لَوْ قَدْ تُجِنُّ كَمَا أُجِنُّ مِنَ الْهَوَى * لَعَذَرْتَ أَوْ لَظَلَمْتَ إِنْ لَمْ تَعْدِرِ
وَاللَّهِ مَا لِلْقَلْبِ مِنْ عِلْمٍ بِهَا * غَيْرُ الظَّنِّ وَغَيْرُ قَوْلِ الْخَبِيرِ
لَا تَحْسَبِي أَنِّي هَجَرْتُكَ طَائِعًا * حَدَّثَ لِعَمْرُكَ رَائِعٌ أَن تُهَجَّرِي
فَلْتَبْكِينَ الْبَاكِاتُ وَإِنْ أُجِنُّ * يَوْمًا بِسَرِّكَ مُعَلِنًا لَمْ أَعْدِرِ
يَهْوَاكَ مَا عَشْتُ الْفَوَادُ فَإِنْ أُمْتُ * يَتَّبِعُ صَدَائِي صَدَاكَ بَيْنَ الْأَقْبَرِ
إِنِّي إِلَيْكَ بِمَا وَعَدْتِ لَنَاظِرٌ * نَظَرَ الْفَقِيرِ إِلَى الْغَنَى الْمُكْثَرِ
يَعْدُ الدِّيُونَ وَلَيْسَ يُنْجِزُ مَوْعِدًا * هَذَا الْغَرِيمُ لَنَا وَلَيْسَ بِمُعْسِرِ
مَا أَنْتِ وَالْوَعْدَ الَّذِي تَعْدِينِي * إِلَّا كَبْرِي سَحَابَةٍ لَمْ تُمَطَّرِ
قَلْبِي نَصَحْتُ لَهُ فَرَدْتُ نَصِيحَتِي * فَتَى هَجَرْتِيهِ فَنَهَ تَكْثَرِي

وقال في إخلافاها إياه هذا الموعد :

أَلَا لَيْتَ رِيْعَانَ الشَّبَابِ جَدِيدُ * وَدَهْرًا تَوَلَّى يَا بُشَيْنَ يَعُودُ
فَتَنَقَّى كَمَا كُنَّا نَكُونُ وَأَنْتُمْ * قَرِيبٌ وَاذْ مَا تَبْذُلِينَ زَهِيدُ
وَمَا أَنْسَ مِلْأَشْيَاءَ لَا أَنْسَ قَوْلَهَا * وَقَدْ قَرَبْتُ نِصْوِي أَمَصَّرْتِيدُ
وَلَا قَوْلَهَا لَوْلَا الْعِيُونُ الَّتِي تَرَى * أَتَيْتُكَ فَاغْدِرْنِي فَدَتِكَ جَدُودُ
حَلِيلِي مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ ظَاهِرُ * وَدَمَعِي بِمَا قَلْتُ الْغَدَاةَ شَهِيدُ

(١) البضو : المهزول من الابل وغيرها .

أَلَا قَدْ أَرَى وَاللَّهِ أَنَّ رَبَّ عَبْرَةٍ * إِذَا الدَّارُ شَطَطَتْ بَيْنَنَا سَتَرِدُ
 إِذَا قُلْتُ مَا بِي يَا بَشِينَةً قَاتِلِي * مِنْ الْحَبِّ قَالَتْ ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
 وَإِنْ قُلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعِشْ بِهِ * مَعَ النَّاسِ قَالَتْ ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
 فَلَا أَنَا مُرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا * وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَدِيدُ يَدِيدُ
 جَزَيْكَ الْجَوَازِي يَا بَشِينَ مَلَامَةً * إِذَا مَا خَلِيلٌ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ
 وَقُلْتُ لَهَا بَيْنِي وَبَيْنِكَ فَاعْلَمِي * مِنْ اللَّهِ مِيثَاقٌ لَهُ وَعَهْدُودُ
 وَقَدْ كَانَ حُيَّيْكُمْ طَرِيقًا وَتَالِدًا * وَمَا الْحُبُّ إِلَّا طَارِفٌ وَتَلِيدُ
 وَإِنْ عَرَّوْضُ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * وَلَئِنْ سَهَّلْتَهُ بِالْمَنَى لَصَعُودُ
 فَأَقْنِيتُ عَيْشِي بِاتْتِظَارِي نَوَالَهَا * وَأُبْلِيتُ ذَاكَ الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ
 فَلَيْتَ وَشَاةَ النَّاسِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * يَدُوفُ لَمْ سُمَّا طَاطِمٌ سُودُ^(٢)
 وَلَيْتَ لَمْ فِي كُلِّ مُنْمَسَى وَشَارِقٍ * تَضَاعَفُ أَكْبَالُ لَمْ وَقِيُودُ
 وَيَحْسِبُ نِسْوَانٌ مِنَ الْجَهْلِ أَنِّي * إِذَا جِئْتُ لِإِيَّاهُنَّ كُنْتُ أُرِيدُ
 فَأَقْسِمُ طَرْفِي بَيْنَهُنَّ فَيَسْتَوِي * وَفِي الصَّدْرِ بَوْتُ بَيْنَهُنَّ بَعِيدُ
 أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً * بَوَادِي الْقُرَى لَئِنْ إِذَا لَسَعِيدُ
 وَهَلْ أَهْبِطُنَ أَرْضًا تَظَلُّ رِيَّاحُهَا * لَهَا بِالْتَّائِيَا الْقَاوِيَاتُ وَثِيدُ^(٣)
 وَهَلْ أَلْقَيْنَ سَعْدِي مِنَ الدَّهْرِ مَرَّةً * وَمَا رَثَ مِنْ حَبْلِ الصَّفَاءِ جَدِيدُ
 وَقَدْ تَلْتَقَى الْأَهْوَاءُ مِنْ بَعْدِ يَأْسَةٍ * وَقَدْ تُطَلَّبُ الْحَاجَاتُ وَهِيَ بَعِيدُ
 وَهَلْ أَزْجُرُنَّ حَرْفًا عِلَاقَةً شِمْلَةً * بِحَرْقِ ثُبَارِيهَا سَوَاهِمُ قُودُ^(٤)
 عَلَى ظَهْرِ مَرْدُوبٍ كَأَنَّ نَشُوزَهُ * إِذَا جَازَ هُلَاكُ الطَّرِيقِ رُقُودُ^(٥)

(١) العروض : الطريق في عرض الجبل في مضيق ، يريد الطريق إلى وصلها . (٢) يدوف : ر
 يخلط . وطاطم : جمع ططم وهو من في لسانه عجمة ، وأراد بالطاطم هنا : الموالى . (٣) القاربات :
 الخاليات . (٤) الوثيد : الصوت العالي الشديد . (٥) الحرف : الناقة الضامرة الصلبة . والعلاة :
 المشرفة الصلبة . والشملة : السريعة . والحرق : الأرض الواسعة . والساهمة : الناقة الضامرة .

سَبَّيْنِي بَعْنِي جُودِرٍ وَسَطَ رَبِّ * وصدر كفاثور اللجين^(١) وجيد^(٢)
 تَرِفٌ كَمَا زَاغَتْ إِلَى سَلِفَاتِهَا * مُبَاهِيَّةٌ طَيَّا الْوِشَاحَ مَيُّودَ^(٣)
 إِذَا جَثَّتْهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ زَائِرًا * تَعَرَّضَ مَنْقُوضُ الْيَدَيْنِ صَدُودُ
 يَصُدُّ وَيَغْضِي عَنْ هَوَايَ وَيَحْتَنِي * ذُنُوبًا عَلَيْهَا إِنَّهُ لَعُنُودُ
 فَأَضْرُمُهَا خَوْفًا كَأَنِّي مُجَانِبٌ * وَيَفْعُلُ عَنَا مَرَّةً فَنَعُودُ
 فَنُيْعَظُ فِي الدُّنْيَا قَرِينًا كَثَلُهَا * فَذَلِكَ فِي عَيْشِ الْحَيَاةِ رَشِيدُ
 يَمُوتُ الْهَوَى مَتَى إِذَا مَا لَقِيَتْهَا * وَيَحْيَا إِذَا فَارَقَتْهَا فَيَعُودُ
 يَقُولُونَ جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بَغْزُوهُ * وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ
 لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ * وَكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ
 وَمَنْ كَانَ فِي حَبِيٍّ بُشَيْنَةً يَمْتَرِي * فَبَرَقَاءُ ذِي ضَالٍ عَلَى شَهِيدِ
 أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أُمُّ ذِي الْوَدْعِ أَنِّي * أَضَاحَكَ ذِكْرًا كَمْ وَأَنْتِ صَلُودُ

بعثت أمة لبثينة إلى أبيها وأخيها وقالت لهما: إن جميلا عندها الليلة، فأتياها مشتملين
 على سيفين، فرأياه جالسا منها حجرة يحدها ويشكو لها بته، ثم قال لها: يا لبثينة، أرايت ودي
 إياك وشغفي بك ألا تجزيينيه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحايين، فقالت له:
 يا جميل، أهذا تبغي! والله لقد كنت عندى بعيداً منه، ولئن عاودت تعريضا بريئة لارأيت
 وجهي أبدا! فضحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه، ولو علمت
 أنك تجيئيني لعلمت أنك تجيئين غيري، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسيفي هذا
 ما استمسك في يدي، ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة الأبد، أو ما سمعت قولي:

وإني لأرضى من بشينة بالذي * لو أبصره الواشي لقرت بلأبله
 بلا وبالا أستطيع وبالمنى * وبالأمل المرجو قد خاب آمله
 وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضى * أو أخره لا تلتقى وأوائله

(١) الفانور: الخوان من رخام أوفضة أو ذهب. (٢) في البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروي

بالرفع والكسر. (٣) زاف: تجتر. (٤) أي ناحية.

فقال أبوها لأخيها : قم بنا، فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقاءها،
فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إنَّ المنازلَ هَيَّجَتْ أَطْرَافِي * وَأَسْتَعْجَمْتُ آيَاتَهَا بِجَوَائِي
قَفَرًا تَلَوَّحُ يَدَى الْجَحِينِ كَأَنَّهَا * أَنْضَاءُ رَسِيمٍ أَوْ سَطُورُ كِتَابٍ
لَمَّا وَقَفْتُ بِهَا الْقُلُوصُ تَبَادَرْتُ * مِنْ الدَّمُوعِ لِفُرْقَةِ الْأَحْبَابِ
وَذَكَرْتُ عَصْرًا يَا بَثِينَةَ شَاقِي * وَذَكَرْتُ أَيَّامِي وَشَرَحَ شَبَابِي

لما نذر أهل بثينة دم جميل وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميل ، فكان يصعد
بالليل على قوز رمل يتنسم الريح من نحو ^(١) حتى بثينة ويقول :

أَيَا رِيحَ الشَّامِلِ أَمَا تَرَنِينِي * أَهْمٌ وَأَنْتِ بَادِي التَّحْوِيلِ
هَيَّ لِي نَسْمَةً مِنْ رِيحِ بَثْنِ * وَمُنَى بِالْهُبُوبِ إِلَى جَمِيلِ
وَقُولِي يَا بَثِينَةَ حَسْبُ نَفْسِي * قَلِيلُكَ أَوْ أَقْلُ مِنْ الْقَلِيلِ

ومن قوله :

يَقِيكَ جَمِيلٌ كُلُّ سَوْءٍ أَمَّا لَهُ * لَدَيْكَ حَدِيثٌ أَوْ أَلَيْكَ رَسُولُ
وَقَدْ قُلْتُ فِي حُبِّي لَكُمْ وَصَبَابِي * مُحَاسِنَ شَعْرِ ذِكْرِهِنْ يَطُولُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَوْلِي رِضَاكَ فَعَلَّيْ * هُبُوبَ الصَّبَا يَابِثُنْ كَيْفَ أَقُولُ
فَمَا غَابَ عَنْ عَيْنِي خَيَالُكَ لَحْظَةً * وَلَا زَالَ عَنْهَا وَإِنْ خَيَالُ يَزُولُ

ومنه :

خَلِيلِي عُوجَا الْيَوْمَ حَتَّى تُسَلِّمَ * عَلَى عَذْبَةِ الْأَنْبِيَاءِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ
أَلَيْهَا ثُمَّ اشْفَعَا لِي وَسَلِّمَ * عَلَيْهَا سَقَاهَا اللَّهُ مِنْ سَائِعِ الْقَطْرِ

(١) القوز : المستدير من الرمل ، وقال الأزهري : إنه الكتيب المشرف :

إذا ما دنتُ زدتُ اشتياقًا وإن نأتُ * جَزَعْتُ لِنَايَ الدارِ منها وللبعد
أبى القلبَ إلا حُبَّ بَشْنَةٍ لم يرد * سواها وحبُّ القلبِ بَشْنَةٍ لا يجدى

وفيها يقول :

سلى الركبَ هل نُجِنَا لَمَغْنَاكَ مرَّةً * صُدُورَ المطايا وهي مُوقِرَةٌ تَخْدِي^(١)
وهل فاضتِ العينُ الشُّرُوقُ بمائها * مِنْ أَجْلِكَ حَتَّى أَخْضَلَ مِنْ دَمْعِهَا بُرْدِي
وإني لَأَسْتَجِرِي لَكَ الطَّيْرَ جَاهِدًا * لَتَجْرِي بَيْنِي مِنْ لِقَائِكَ أَوْ سَعِدِ
وإني لَأَسْتَبْكِي إِذَا الرُّكْبُ غَرَّدُوا * بِذِكْرِكَ أَنْ يَحْيَا بِكَ الرُّكْبُ إِذْ يَجْدِي
قَهْلٌ تَجْزِيئِي أَمْ عَمْرٍو بَوْدَهَا * فَانْ الذِّى أَخْفَى بِهَا فَوْقَ مَا أُبْدِي
وَكُلَّ حُبٍّ لَمْ يَزِدْ فَوْقَ عَهْدِهِ * وَقَدْ زِدْتُهَا فِي الْحُبِّ مِنِّي عَلَى الْعَهْدِ

ومن قوله فيها :

لها في سواد القلبِ حُبٌّ ومنعَةٌ * هِيَ الْمَوْتُ أَوْ كَادَتْ عَلَى الْمَوْتِ تُشْرِفُ
وما ذَكَرْتُكَ النَّفْسُ يَا بَشْنُ مرَّةً * مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا كَادَتْ النَّفْسُ تَتَلَفُ
وإلا اعترنني زَفَرَةٌ وَاسْتِكَانَةٌ * وَجَادَ لَهَا سَجَلٌ مِنَ الْعَيْنِ يَذْرِفُ
وما اسْتَطَرَفَتْ نَفْسِي حَدِيثًا خُلَّةً * أَسْرَبَهُ إِلَّا حَدِيثُكَ أَطْرَفُ

وأول هذه القصيدة :

أَمِنْ مَتَرٍ قَفَرٍ تَعَفَّتْ رِسْمُهُ * شَمَالٌ تُغَادِيهِ وَنَجَاءٌ حَرْجَفُ^(٢)
فَأَصْبَحَ قَفْرًا بَعْدَ مَا كَانَ أَهْلًا * وَجُمْلُ الْمُنَى تَشْتَوِيهِ وَتُصَيِّفُ
ظَلَلْتُ وَمُسْتَنٌّ مِنَ الدَّمْعِ هَامِلٌ * مِنَ الْعَيْنِ لَمَّا عَجْتُ بِالْدارِ يَتَرَفُ
أُمْنِصَفْتِي جَمَلٌ فَعَدِلَ بَيْنَنَا * إِذَا حَكَمْتَ وَالْحَاكِمُ الْعَدْلُ يُنْصَفُ
تَعَلَّقْتُهَا بِالْجِسْمِ مِنِّي مَصْحَحٌ * فَمَا زَالَ يَنْمِي حُبُّ جَمِلٍ وَأَضْعَفُ

(١) موقرة : محملة الوقور وهو الحمل . وخدى البعير يخدى : أسرع وزج بقوامه .

(٢) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

الى اليوم حتى سُئِلَ جسمي وَشَفَّيَ * وَأُنْكُرْتُ مِنْ نَفْسِي الَّذِي كُنْتُ أَعْرِفُ
 قَنَاءُ مِنَ الْمَزَانِ مَا فَوْقَ حَقْوَاهَا ^(١) * وَمَا تَحْتَهُ مِنْهَا نَقًّا يَتَقَصَّفُ ^(٢)
 لَهَا مُقَلَّتَا رِيمٍ وَجِيدُ جَدَايَةٍ ^(٣) * وَكَشَحُ كَطِي السَّابِرِيَّةِ أَهِيْفُ
 وَلَسْتُ بِنَاسِ أَهْلِهَا حِينَ أَقْبَلُوا * وَجَالُوا عَلَيْنَا بِالسِّيُوفِ وَطَوَّفُوا
 وَقَالُوا بِجَمِيلٍ بَاتَ فِي الْحَيِّ عِنْدَهَا * وَقَدْ جَرَّدُوا أَسْيَافَهُمْ ثُمَّ وَقَفُوا
 وَفِي الْبَيْتِ لَيْثُ الْغَابِ لَوْلَا مَخَافَةُ * عَلَى نَفْسِ جَمِيلٍ وَالْإِلَهِ لِأُرْعَفُوا
 هَمَمْتُ وَقَدْ كَادَتْ مَرَارًا تَطْلُعُ * إِلَى حَرْبِهِمْ نَفْسِي وَفِي الْكَفِّ مُرْهَفُ
 وَمَا سَرَّنِي غَيْرُ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ * وَمَنِي وَقَدْ جَاءُوا إِلَى وَأَوْجَفُوا
 فَكَمْ مُرْتِجٍ أَمْرًا أُتِيحَ لَهُ الرَّدَى * وَمَنْ خَائِفٌ لَمْ يَنْتَقِصْهُ التَّخَوُّفُ
 وَمِنْهَا :

أَنْ هَتَفْتُ وَرَقَاءُ ظَلَّتْ سَفَاهَةً * تُبَكِّي عَلَى جَمِيلٍ لُورِقَاءَ تَهْتِفُ
 فَلَوْ كَانَ لِي بِالصَّرْمِ يَصَاحُ طَاقَةٌ * صَرَمْتُ وَلَكِنِّي عَنِ الصَّرْمِ أَضْعَفُ

قيل : إن مروان طلب الى جميل أن ينزل فيرجز به ، وهو يريد أن يمدحه ، فنزل

جميل فقال :

أَنَا بِجَمِيلٍ فِي السَّنَامِ الْأَعْظَمِ * الْفَارِجِ النَّاسِ الْأَعَزِّ الْأَكْرَمِ
 أَحْمِي ذِمَّارِي وَوَجَدْتُ أَقْرَمِي ^(٥) * كَانُوا عَلَى غَارِبِ طَوْدٍ خَضْرَمِ ^(٦)
 * أَعْيَا عَلَى النَّاسِ فَلَمْ يَهْتَمِ *

فقال : عدَّ عن هذا ؛ فقال جميل :

لَهْفًا عَلَى الْبَيْتِ الْمَعْدَى لَهْفًا * مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ قَدْ اسْتَكْفَا
 وَلَوْ دَعَا اللَّهَ وَمَدَّ الْكَفَا * لَرَجَفَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ رَجْفًا

(١) الحقو : الخصر . (٢) يتقصف : يتهيل ويتقطع بعضه عن بعض . (٣) الجداية :

الغزالة . والسابري : ثوب من أجود الثياب منسوب الى سابور على غير قياس . (٤) يرجزه : ينشده

أرجوزة . (٥) أقرم : جمع قرم (بالفتح) وهو السيد العظيم . (٦) خضرم : عظيم .

وطلب ذلك إليه الوليد فقال :

أنا جميل في السنام من معدّ * في الذروة العليا والركن الأشدّ
والبيت من سعد بن زيد والعدّد * ما يتغنى الأعداء منى ، ولقد
أضيرى بالشتم لسانى ومرّد * أقود من شئت وصعب لم أقد
فقال له الوليد : اركب لاحملك الله ! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل في مُراجعة جَواس بن قُطبة ، وكان ذلك بوادى القرى :

يا أُم عبد الملكِ أصيرمى * فيّنى صرى أو صلينى
أبكى وما يدريك ما يُكبنى * أبكى حذار أن تُفارقينى
وتجلى أبعّد منى دونى * إن بنى عمك أوعدونى
أن يقطعوا رأسى إذا لقونى * ويقتلونى ثم لا يدونى^(١)
كلا ورب البيت لو لقونى * شفعا ووترّا لتواكلونى^(٢)
قد علم الأعداء أن دونى * ضربا كإزاع المخاض الجون^(٣)
ألا أسب القوم إذ سبونى * بلى وما مرّ على دفين
وسابحات بلوى الجحون * قد جرّبونى ثم جرّبونى
حتى إذا شابوا وشيّبونى * أخزاهم الله ولا يخزونى
أشبه أعيار على معين * أحسن حس أسد حرون
فهن يضرطن من اليقين * أنا جميل فتعرفونى
وما تقنعت فتذكرونى * وما أعنيكم لتسألونى

(١) يدونى : من الدية وهى ما يعطى لولى القتل من المال بدل النفس . (٢) تواكلونى : تركونى .

(٣) أوزعت الناقة بيولها : رمت به دفعة دفعة . ومنه الطعنة توزع بالدم أى ترمى به كذلك .

أَتَى إِلَى عَادِيَّةٍ طَحُونُ * يَشْقُ عَنْهَا السَّيْلُ ذُو الشُّوْنِ
 عَمْرِي زَفْرٌ رَجَحَ السَّفِينِ ^(١) * ذُو حَدَبٍ ^(٢) إِذَا يَرَى حُجُونِ ^(٣)
 * تَحَلَّ أَحْقَادُ الرِّجَالِ دُونِي *

ومن قوله يمدح أخواله من جذام :

جُذَامُ سَيُوفُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ * إِذَا أَرِزْتَ يَوْمَ اللَّقَاءِ أَرَامٍ
 هُمْ مَنَعُوا مَا بَيْنَ مَضْرَفِ الْقُرَى * إِلَى الشَّامِ مِنْ حِلٍّ بِهِ وَحَرَامٍ
 بَضْرِبٍ يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ سَكَاتِهِ * وَطَعْنٍ كَأِزَاغِ الْخَاضِ تَوَامٍ
 إِذَا قَصُرَتْ يَوْمًا أَكُفُّ قَبِيلَةٍ * عَنْ الْمَجْدِ نَالَتْهُ أَكُفُّ جُذَامٍ

اجتمع جميل وعمر بن أبي ربيعة بالأبطح، فأنشده جميل قصيدته :

لَقَدْ فَرِحَ الْوَاشُونَ أَنْ صَرَمْتَ حَبْلِي * بُثْنَةً أَوْ أَبَدْتَ لَنَا جَانِبَ الْبُخْلِ
 يَقُولُونَ مَهَلًا يَا جَمِيلَ وَإِنِّي * لِأَقْسِمَ مَا بِي عَنْ بُثْنَةٍ مِنْ مَهْلٍ
 أَحَلَمَّا فَقَبْلَ الْيَوْمِ كَانَ أَوَانُهُ * أَمْ أَحْشَى فَقَبْلَ الْيَوْمِ أُوْعِدْتُ بِالْقَتْلِ
 لَقَدْ أَنْكَحُوا حَرْبِي نُبَيْهَا ظَعِينَةً * لَطِيفَةً طَى الْبَطْنِ ذَاتَ شَوَى جَزْلِ
 وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا سَاعِيًا بَنِيْمَةً * لِأَخْرَمَ يَعْمِدُ بِكَفٍّ وَلَا رَجَلٍ
 إِذَا مَا تَرَاَجَعْنَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بُثْنَةً بِالْكُحْلِ
 كَلَانَا بَكَى أَوْ كَادَ يَبْكِي صَبَابَةً * إِلَى الْإِلْفِ وَأَسْتَعْجَلْتُ عَبْرَةً قَبْلِي
 فَلَوْ تَرَكْتُ عَقْلِي مَعِيَ مَا طَلَبْتُهَا * وَلَكِنْ طَلَايِبُهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِي
 فَيَاوَيْحِ نَفْسِي حَسْبَ نَفْسِي الَّذِي بَهَا * وَيَاوَيْحِ أَهْلِي مَا أُصِيبَ بِهِ أَهْلِي
 وَقَالَتْ لِأَتَرَابٍ لَهَا لَا زَعَانِفَ * قِصَارٌ وَلَا كُؤْسُ الثَّنَايَا وَلَا تُعَلِّ ^(٥)

(١) يزف : يجعلها تسرع . (٢) ذو حدب : ذو موج . (٣) حجون : موج .
 (٤) أريمت : اشتدت . (٥) الكس مسخرة : قصر الأسنان أو صفرها أو لصوقها بسنوها .
 وتعلت سنه ولته فهي تعلأ : تراكت أسنانها .

إذا حَمِثَ شمسُ النهارِ أَتَقِيْتَهَا * بأَكْسِيَةِ الدِّيَاجِ والخَزْذَى الخَمَلِ
تَدَاعَيْنِ فَاسْتَعْجَمْنَ مَشِيًّا بِذَى الغَضَى * دَيْبِ القَطَا الكُدْرَى في الدَّمِثِ السَّهْلِ
إذا آرَتْنِ أَوْ فُزَعْنَ فَمَنْ حَوَاهَا * قِيَامَ بَنَاتِ المَاءِ في جَانِبِ الضَّحْلِ^(٢)
أَجِدَّكَ لَا أَلْقَى بُثْنَةَ مَرَّةً * مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا خَائِفًا أَوْ عَلَى رِجْلِ
خَلِيلِي فِيمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتَا * قَتِيلًا بَكَى مِنْ حَبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي
أَيِّتُ مَعَ الهَلَاكِ ضَيْفًا لِأَهْلَهَا * وَأَهْلَى قَرِيبٍ مُوسِعُونَ ذَوُ وَفَضْلِ
أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي حِيلَ دُونَهُ * بِنَا أَنْتَ مِنْ بَيْتِي وَأَهْلِكَ مِنْ أَهْلِي
ثَلَاثَةُ آيَاتٍ فَبَيْتُ أَحَبَّهُ * وَبَيْتَانِ لَيْسَا مِنْ هَوَايَ وَلَا شَكْلِي

وقال في هجرة هجرته إياها بثينة :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبَّ القَوَاءَ فَيَنْطِقُ * وَهَلْ تُخْبِرُنِي الْيَوْمَ بِيَدَاءِ سَمَلِي^(٤)
وَقَفْتُ بِهَا حَتَّى تَجَلَّتْ عَمَائِي * وَمَلَّ الوُقُوفُ الأَرْحَى^(٥) المُنَوَّقُ
تَعَزَّوْا إِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ كَرِيمَةٌ * لَعَلَّكَ مِنْ رِقِّ لَبْنَةٍ تُعَتَّقُ
لَعَمْرُكَ إِنْ الْعِبَادَ لَشَائِقُ * وَبَعْضُ بَعَادِ الْبَيْنِ وَالنَّأَى أَشَوْقُ
لَعَلَّكَ مُحْزُونٌ وَمُبْدٍ صَبَابَةٍ * وَمُظْهِرُ شَكْوَى مَنْ أَتَانِسُ تَفَرَّقُوا
وَبَيْضُ غَرِيَرَاتٍ تُثْنِي خُصُورَهَا * إِذَا فَمَنْ أَعْجَازُ نِقَالٍ وَأَسْوَاقُ
عَزَائِرُ لَمْ يَلْقَيْنِ بؤْسَ مَعِيشَةٍ * يُجِنُّ بِهِنَّ النَّاطِرُ المُنْتَوِقُ
وَغُلْغُلْتُ مِنْ وَجْدٍ إِلَيْهِنَّ بَعْدَ مَا * سَرَيْتُ وَأَحْشَأْنِي مِنَ الْخَوْفِ تَحْفُوقُ
مَعِيَ صَارِمٌ قَدْ أَخْلَصَ الْقَيْنُ صَقْلَهُ * لَهُ حِينَ أُغْشِيهِ الضَّرِيَّةَ رَوْنِقُ
فَلَوْلَا أَحْتِيَالِي ضِفْنِ ذَرْعًا بَزَائِرٍ * بِهِ مِنْ صَبَابَاتِ إِلَيْهِنَّ أَوْلِقُ^(٦)

(١) بنات الماء : ما يألف الماء من السمك والطيور والصفادع (أنظر المضاف والمضاف إليه) .

(٢) الضحل : الماء القليل على الأرض لا عمق له . (٣) الهلاك : الصعاليك . (٤) السملق :

القاع الصفصف . (٥) الأرحي : الفجل النجيب نسبة إلى أرحب وهي قبيلة من همدان تشب

إليها النجائب الأرحية . والمتوق : المحسن المزين . (٦) أولق : جنون .

تُسَوِّكُ بِقَضْبَانِ الْأُرَاكِ مُفْلَجًا * يُسْعَشِعُ فِيهِ الْفَارِسِيُّ الْمُرَوِّقَ
أَبْنَثَةً لِلْوَصْلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * نَضًا مِثْلَ مَا يَنْضُو الْخَضَابُ فِيَخَلُّقُ
أَبْنَثَةً مَا تَتَأَنَّ إِلَّا كَأَنِّي * بِنَجْمِ الثَّرِيَا مَا نَأَيْتُ مُعَلَّقُ

قال الرشيد لإسحاق الموصلي : أنشدني أحسن ما يُحِبُّ في عتابٍ مُحِبٍّ وهو ظالم
مَتَعَتَّبٌ ، فأنشده قول جميل :

رَدَّ الْمَاءُ مَا جَادَتْ بِصَفْوِ ذَنَابِهِ * وَدَعَهُ إِذَا خِصَّتْ بِطَرَفِ مَشَارِبِهِ
اعْتَابُ مَنْ يَحُلُّو لَدَى عَتَابِهِ * وَأَتْرَكَ مَنْ لَا أَشْتَهَى وَأَجَانِبِهِ
وَمِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَإِنْ كُنْتَ ظَالِمًا * عَنَاقُكَ مَظْلُومًا وَأَنْتَ تَعَاتِبُهُ

ومن قوله في زيارة له :

زُورًا بَنِيْنَةً فَالْحَبِيبُ مَرْوَرُ * إِنْ الزَّيَارَةُ لِلْحَبِّ يَسِيرُ
إِنْ التَّرَحُّلُ أَنْ تَلَيْسَ أَمْرُنَا * وَأَعْتَقْنَا قَدَرُ أَحْمُ بِكُورِ
إِنِّي عَشِيَّةٌ رُحْتُ وَهِيَ حَزِينَةٌ * تَشْكُو إِلَى صَابَاةٍ لَصَبُورِ
وَتَقُولُ بِنْتُ عِنْدِي فَدَيْتُكَ لَيْلَةً * أَشْكُو إِلَيْكَ فَإِنْ ذَاكَ يَسِيرُ
غَرَاءُ مُبْسَامٍ كَأَنَّ حَدِيثَهَا * دُرٌّ تَحْدَرُ نَظْمُهُ مَشْهُورِ
مَخْطُوطَةُ الْمَتْنَيْنِ مُضْمَرَةُ الْحَشَى * رِيًّا الرَّوَادِفِ خَلَقَهَا فَمَكُورِ
لَا أَحْسِنُهَا حُسْنًا وَلَا كَدَلَاهَا * دَلٌّ وَلَا كَوَقَارَهَا تَوْقِيرِ
إِنْ اللِّسَانَ بَذَرَهَا لِمَوْكَلٍّ * وَالْقَلْبُ صَادٍ وَالْخَوَاطِرُ صُورِ
وَلَيْتَ جَزَيْتِ الْوَدَّ مَتَى مِثْلَهُ * إِنِّي بِذَلِكَ يَا بَيْتِينَ جَدِيرِ

وعذله فيها ابن عمه رَوْقٌ ، فقال :

لَقَدْ لَأَمَنِي فِيهَا أَخٌ ذُو قَرَابَةٍ * حَبِيبٌ إِلَيْهِ فِي مَلَامَتِهِ رُشْدِي
وَقَالَ أَفَنِي حَتَّى مَتَى أَنْتَ هَائِمٌ * بَيْئْتُهُ فِيهَا قَدْ تُعِيدُ وَقَدْ تُبْذَرِي

(١) الطرق : الماء الذي خوضته الابل ويقلت فيه وبعرت .

(٢) مخطوطة المتنين : ممدودتهما . والمكورة : المطوية الخلق .

فقلتُ له فيها قضى الله ما ترى * على وهل فيما قضى الله من رد
 فإن يك رُشدًا حبها أو غواية * فقد جئته، ما كان منى على عمد
 لقد بَلَغَ ميثاقُ من الله بيننا * وليس لمن لم يوف الله من عهد
 فلا وأبيها الخير ما خنتُ عهدًا * ولا لي علم بالذي فعلتُ بعدى
 وما زادها الواشون إلا كرامة * على وما زالت مودتها عندي
 أفى الناس أمثالي أحبَّ لحالم * كحالي أم أحببتُ من بينهم وحدي
 وهل هكذا يلقى المحبون مثل ما * لقيتُ بها أم لم يجد أحدٌ وجدى

وقال فيها :

خيلى عوجا اليوم حتى تُسَلِّما * على عذبة الأنبياء طيبة النشر
 ألبا بها ثم أشفعنا لي وسلِّما * عليها سقاها الله من سائع القطر
 وبوفا بذكري عند بثنة وأنظرا * أترتاح يوما أم تهش إلى ذكري
 فإن تلك لم تقطع قوى الود بيننا * ولم تنس ما أسلفت في سالف الدهر
 فكيف يرى منها اشتياق ولوعة^(١) * بين وغرب من مدامعها يحرى
 وإن تلك قد حالت عن العهد بعدنا * وأصغت إلى القول المؤنب والمزرى
 فسوف يرى منها صمود ولم تكن * - بنفسى - من أهل الخيانة والغدر
 أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى * ببثنة في أدنى حياى ولا حشرى
 وجاور إذا ما مت بينى وبينها * فيا حبذا موتى إذا جاورت قبرى
 عذمتك من حب أما منك راحة * وما بك عنى من توانٍ ولا فتر
 ألا أيها الحب المبرح هل ترى * أبا كلف يغرى بحب كما أغرى
 أجلك لا يئلى وقد بلى الهوى * ولا ينتهى حبي ببثنة للزجر

(١) هكذا وردت «فكيف» ولعلها فسوف ليستقيم بها السياق .

ومن قوله فيها :

فَقِنِي نَسْلُكَ عَنْكَ النَّفْسُ بِالْخَطَّةِ الَّتِي * تُطِيلِينَ تَخْوِيفِي بِهَا وَوَعِيدِي
فَقَدْ طَالَمَا مِنْ غَيْرِ شَكْوَى قَبِيحَةٍ * رَضِينَا بِحُكْمِ مَنْكَ غَيْرِ مُسَدِّدِ

ومنه :

بُشَيْنَ سَلِينِي بَعْضَ مَالِي فَإِنَّمَا * بَيْنَ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ بِخِيلِ
فَإِنِّي وَتَكَرَّرَ الزِّيَارَةُ نَحْوَكُمْ * لَيْنَ يَدَيَّ هَجْرَ بَيْنَ طَوِيلِ
فِيَالَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَقُولِينَ بَعْدَنَا * إِذَا نَحْنُ أَزْمَعْنَا غَدًا لِرَحِيلِ
أَلَا لَيْتَ أَيَّامًا مَضِيَّةً رَوَّاعَةً * وَلَيْتَ النَّوَى قَدْ سَاعَدَتْ بِجِيلِ

ومنه :

أَتَعْجَبُ أَنْ طَرِبْتُ لَصَوْبِ حَادٍ * حَادًا بَزَلًا يَسْرُنَ بِبَطْنِ وَادٍ
فَلَا تَعْجَبُ فَإِنَّ الْحَبَّ أَمْسَى * لَبَثْنَا فِي السَّوَادِ مِنَ الْفَوَادِ

ومنه :

خَلِيلِي عَوَجًا بِالْمَحَلَّةِ مِنْ جُمَلِ * وَأَتَرَاهَا بَيْنَ الْأَصْفَرِ وَالْخَلِيلِ
تَقِفْ بِمَغَانٍ قَدْ حَا رَسْمَهَا إِلَيَّ * تُعَاقِبُهَا الْأَيَّامُ بِالزَّيْجِ وَالْوَبَلِ
فَلَوْ دَرَجَ النَّمْلُ الصَّغَارُ بِجِلْدِهَا * لَأَنْدَبَ أَعْلَى جِلْدِهَا مَدْرَجُ النَّمْلِ
وَأَحْسَنُ خَلَقَ اللَّهُ جِيدًا وَمُقَلَّةً * تُشَبِّهُ فِي النَّسْوَانِ بِالشَّادِنِ الْطِفْلِ^(١)

ومن قوله :

أَمِنْكَ سِرِّي يَا بَشَرًا طَيْفًا تَأْوِبًا * هُدُوا فَهَاجَ الْقَلْبَ شَوْقًا وَأَنْصَبًا
عَجِبْتُ لَهُ أَنْ زَارَنِي النَّوْمُ مَضْجَعِي * وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَقِظًا كَانَتْ أَعْجَابًا

لَمَّا قَدِمَ جَمِيلٌ مِنَ الشَّامِ بَلَغَ بَشِينَةَ خَبْرِهِ ، فَرَأَسَلَتْهُ مَعَ بَعْضِ نِسَاءِ الْحَيِّ تَذَكُّرَ شَوْقِهَا
إِلَيْهِ وَوَجَدَهَا بِهِ ، وَطَلَبَهَا لِلْخِيَالَةِ فِي لِقَائِهِ ، وَوَعَدَتْهُ لِمَوْضِعٍ يَلْتَقِيَانِ فِيهِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا وَحَدَّثَهَا

(١) الطفل : الرخص الناعم من كل شيء .

طويلاً وأخبرها خبره بعدها ، وقد كان أهلها رَصَدوها ، فلما فَقَدوها تَبِعَها أبوها وأخوها
حتى هجا عليهما ، فوثبَ جميلٌ فانتضى سيفه وشدَّ عليهما ، فاتقياه بالحرب ، وناشدته بثينة
الله إلا أنصرف ، وقالت له : إن أقمْتُ فضحتني ، ولعلَّ الحى يَلْحَقونكَ ، فأبى وقال :
أنا مقيمٌ وأمضى أنتِ وليصنعوا ما أحبوا ، فلم تزل تناشده حتى أنصرف وقال في ذلك ،
وقد هجرته وأقطع التلاقي بينهما مدة :

هي البدرُ حُسْنًا والنساءُ كواكبٌ * وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلتُ حسناً على الناس مثل ما * على ألف شهرٍ فضلت ليلة القدر

وقال :

لقد خفتُ أن يقتالني الموتُ عَنوةً * وفي النفس حاجاتُ اليك كما هيأ
ولمَّا لُتِني الحفيظةُ كلَّما * لقيتُك يوماً أن أبُتَّك ما يبى
ألم تعلمي يا عدبَةَ الرِّيقِ أني * أظَلَّ إذا لم أُسَقِ ريقك صَاديًا
ورحل إلى مصر فأدركته بها مَنيتهُ ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صَدَعَ النَّعْيُ وما كُنِي بِجَمِيلٍ * وثوى بمصر ثَوَاءً غيرِ قُفُولٍ
ولقد أجزَّ الذَّيْلُ في وادي القرى * نَشوانَ بين مزارع ونخيل
قومي بثينة فاندبى بعويل * وابكى خليلك دون كل خليل
ولمَّا أنشدت بثينة قولَ جميلٍ قالت :

وإن سُلُوِي عن جميلٍ لساعةً * من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سَوَاءٌ عَلَيْنَا يا جميلُ بنَ مَعْمَرٍ * إذا مَتَّ بأساء الحياة ولينها

وقال :

رَحَلَ الخَلِيطُ جِمالهم بسوادٍ * وحدًا على أثرِ البَخيلةِ حادى
ما إن شَعَرْتُ ولا سَمِعْتُ بَيْنَهُم * حتى سمعت به الغراب ينادى

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَيْنَ قُلْتُ لَصَاحِبِي * صَدَعْتُ مُصَدَّعَةَ الْقُلُوبِ فَوَادِي
بَانُوا وَغَوْدِرَ فِي الدِّيارِ مُتَمِّمٌ * كَلَّفَ بَذْكَرِكِ يَا بُشَيْنَةُ صَادِي

وقال أيضا :

خَلِيلٌ هَلْ فِي نَظَرَةٍ بَعْدَ تَوْبَةٍ * أَدَاوِي بِهَا قَلْبِي عَلَى الْخُورِ
إِلَى رُجْحِ الْأَكْفَالِ هَيْفَ خُصُورُهَا * عَذَابُ النَّسَايَا رِيقُهُنَّ طُهُورُ
تَذَكَّرْتُ مَنْ أَصْحَحْتُ قُرَى اللَّذِّ دُونَهُ ^(١) * وَهَضْبُ لَيْثِيَا وَالْهَضَابُ وَغُورُ
فَطَلَّتْ لِعَيْنِكَ الْجُوجَيْنِ عَبْرَةٌ * يَهِيْجُهَا بَرْحُ الْمَسْوَى قَمُورُ
عَلَى أَنْيِّ بِالْبَرْقِ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهَا * إِذَا قَصُرَتْ عَنْهُ الْعَيُونُ بِصِيرُ
وَأِنِّي إِذَا مَا الرِّيحُ يَوْمًا تَنَسَّمْتُ * شَامِيَّةً عَادَ الْعِظَامُ قُتُورُ
أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ لَوْ نُكَ شَا حَبٌ * وَأَنْتَ بَرَوَاتِ الْفِرَاقِ جَدِيرُ
فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ فَاصْبَحْتُ * هُمُومُكَ شَقِيٌّ وَالْخَنَاحُ كَسِيرُ
وَدُرْتُ بِأَعْدَاءِ حَبِيبِكَ فِيهِمْ * كَمَا قَدْ تَرَانِي بِالْحَبِيبِ أَدُورُ
وَكَيْفَ بِأَعْدَاءِ كَأَنَّ عَيُونَهُمْ * إِذَا جَانِ اثْنَانِي بُشَيْنَةُ عُورُ
فَأِنِّي وَإِنْ أَصْبَحْتُ بِالْحَبِّ عَالِمًا * عَلَى مَا بَعَيْنِي مِنْ قَدَى لَخِيرُ

وله أيضا :

فَلَوْ أَرْسَلْتُ يَوْمًا بُشَيْنَةَ تَبْتَغِي * يَمِينِي وَلَوْ عَزَّتْ عَلَى يَمِينِي
لَأَعْطَيْتُهَا مَا جَاءَ يَبْتَغِي رَسُولُهَا * وَقُلْتُ لَهَا بَعْدَ الْيَمِينِ سَلِينِي
سَلِينِي مَالِي يَا بُشَيْنُ فَإِنَّمَا * يَمِينٌ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ ضَمِينِ
فَمَا لَكَ لَمَّا خَبَرَ النَّاسُ أَنْي * أَسَأْتُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لَمْ تَسَلِينِي
فَأَبْلَى عُذْرًا أَوْ أَحْبَى بَشَاهِد * مِنَ النَّاسِ عَدْلٍ أَنَّهُمْ ظَالِمُونِي
وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَى بَقَائِلِ * لَهَا بَعْدَ صَرِيمٍ يَا بُشَيْنُ صَلِينِي

(١) اللد بالضم والتشديد : قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين .

وَبَنَيْتُ قَوْمًا فِيكَ قَدْ نَذَرُوا دَمِي * فليت الرجال الموعدين لقوئي
إذا ما رأوني مُقْبِلًا عن جنابة * يقولون من هذا وقد عرفتوني

وله أيضا :

تَنَادَى آلُ بَنِيهِ بِالرَّوَّاحِ * وقد تَرَكُوا فؤَادَكَ غيرَ صَاحٍ
فِيَاكَ مَنْظَرًا وَمَسِيرَ رَكْبٍ * شَجَانِي حِينَ أَمَعَنَّ فِي الْفَيَاحِ
وَيَاكَ خُلَّةً ظَفِرْتُ بِعَقْلِي * كَمَا ظَفِرَ الْمُقَامِرُ بِالْقِدَاحِ
أُرِيدُ صِلَاحَهَا وَتُرِيدُ قَتْلِي * فَشَتَّى بَيْنَ قَتْلِي وَالصَّلَاحِ
لَعَمْرُ أَيْبِكَ لَا تَجْعِدِينَ عَهْدِي * كَعَهْدِكَ فِي الْمَوَدَّةِ وَالسَّمَاحِ
وَلَوْ أُرْسِلَتْ تَسْتَهْدِينِ نَفْسِي * أَتَاكَ بِهَا رَسُولُكَ فِي سَرَاحٍ

وله أيضا :

فَإِنْ يَكُ جُحْمَانِي بَارِضٍ سَوَاكُم * فَإِنَّ فؤَادِي عِنْدَكَ الدَّهْرَ أَجْمَعُ
إِذَا قُلْتُ هَذَا حِينَ أَسْلُو وَأَجْتَرِي * عَلَى صَرْمِهَا ظَلَّتْ لَهَا النَّفْسُ تَشْفَعُ
وَإِنْ رُمْتُ نَفْسِي كَيْفَ آتَى لَصْرْمِهَا * وَرُمْتُ صَدُودًا ظَلَّتْ الْعَيْنُ تَدْمَعُ

وله أيضا :

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا عَذْبَةَ الْمَاءِ أَنِّي * أَظَلُّ إِذَا لَمْ أُسْقَ مَاءُكَ صَادِيَا
وَمَا زِلْتُ بِي يَا بَيْتُنْ حَتَّى لَوْ أَنِّي * مِنَ الْوَجْدِ اسْتَبَيْكِي الْحَمَامُ بَكَى لِيَا
وَدِدْتُ عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ لَوْ أَنَهَا * يُزَادُ لَهَا فِي عَمْرِهَا مِنْ حَيَاتِيَا

وله أيضا :

وَقُلْتُ لَهَا أَعْتَلَّتْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ * وَشَرُّ النَّاسِ ذُو أَلْعُلِّ الْبَخِيلُ
فَقَاتِنِي إِلَى حَكَمٍ مِنْ أَهْلِي * وَأَهْلِكَ لَا يَحْيِفُ وَلَا يَمِيلُ
فَقَالَتْ أَبْتَغِي حَكَمًا مِنْ أَهْلِي * وَلَا يَذْرَى بِنَا أَلْوَاشِي الْحَوْلُ
فَوَلَّيْنَا الْحُكُومَةَ ذَا مُجْجُوفٍ * أَخَا دُنْيَا لَهُ طَرْفٌ كَلِيلُ

فقلنا ما قَضَيْتَ به رَضِينَا * وَأَنْتَ بِمَا قَضَيْتَ به كَفِيل
 قَضَاؤُكَ نَافِذٌ فَاحْكُمْ عَلَيْنَا * بِمَا تَهْوَى وَرَأْيُكَ لَا يَفِيل
 فقلتُ لَهُ قُتِلْتُ بِغَيْرِ جُرْمٍ * وَغِبُّ الظُّلْمَ مَرَّتَهُ وَيَسِيل
 فَسَلْ هَذِي مَتَى تَقْضِي دُيُونِي * وَهَلْ يَقْضِيكَ ذُو الْعِلَلِ الْمُطُول
 فَقَالَتْ إِنْ ذَاكَ كَذِبٌ وَبُطْلٌ * وَشَرٌّ مِنْ خُصُومَتِهِ طَوِيل
 أَأَقْتُلُهُ وَمَالِي مِنْ سِلَاحٍ * وَمَا بِي لَوْ أَقَاتِلُهُ حَوِيل ^(١)
 وَلَمْ أَخْذُ لَهُ مَالًا فَيُلْفَى * لَهُ دَيْنٌ عَلَيَّ كَمَا يَقُول
 وَعِنْدَ أَمِيرِنَا حُكْمٌ وَعَدْلٌ * وَرَأْيٌ بَعْدَ ذَلِكَ أَصِيل
 فَقَالَ أَمِيرُنَا هَاتُوا شَهُودًا * فَقُلْتُ شَهِيدُنَا الْمَلِكُ الْجَلِيل
 فَقَالَ يَمِينُهَا وَبِذَاكَ أَقْضَى * وَكُلُّ قَضَائِهِ حَسَنٌ جَمِيل
 فَبَيَّتُ حَلْفَةً مَالِي لَدِيهَا * نَقِيرُ ادَّعِيَهُ وَلَا فَتِيل
 فقلتُ لَهَا وَقَدْ غُلِبَ التَّعَزَّى * أَمَا يُقْضَى لَنَا يَا بَنَى سُؤْلُ
 فَقَالَتْ ثُمَّ زَجَّجْتُ حَاجِبِيهَا * أَطَلَّتْ وَلَسَتْ فِي شَيْءٍ تُطِيل
 فَلَا يَجِدَنَّكَ الْأَعْدَاءُ عِنْدِي * فَتَشْكَنِي وَإِيَّاكَ النَّكُول
 وله أيضا :

حَلَقْتُ يَمِينًا يَا بُشَيْنَةَ صَادِقًا * فَإِنْ كُنْتُ فِيهَا كَاذِبًا فَعَمِيْتُ
 إِذَا كَانَ جِلْدُكَ غَيْرَ جِلْدِكَ مَسْنِي * وَبَاشَرَنِي دُونَ الشُّعَارِ شَرِيْتُ ^(٢)
 وَلَوْ أَنَّ رَاقِيَ الْمَوْتِ يَرِيقُ جَنَازَتِي * بِمَنْطِقِهَا فِي النَّاطِقِينَ حَيَّتْ

وقال أيضا :

فَقَدْ لَانَ أَيَّامُ الصَّبَا ثُمَّ لَمْ يَكَدْ * مِنَ الدَّهْرِ شَيْءٌ بَعْدَهُنَّ يَلِينُ
 ظُعَانُنِ مَا فِي قُرَيْهِنَّ لَذِي هَوَى * مِنَ النَّاسِ إِلَّا شِقْوَةٌ وَفُتُونُ

(١) الحويل : القوة والحذق والقدرة على التصرف . (٢) يقال : شرى جلده : خرج عليه الشرى ،

وهو شور صغير حركه مكربة تحدث دفعة واحدة غالبا وتستند ليلا لبخار حار شور في البدن دفعة .

وواكلته والهَمُّ ثم تركته * وفي القلب من وجدٍ بهن رهين
 فواحسرتا إن حيل بيني وبينها * وياحين نفسي كيف فيك تحين
 فشيب روعات الفراق مفارق * وأنشزن نفسي فوق حيث تكون
 شهدت بأنني لم تغير مودتي * وأنى بكم حتى المات ضنين
 وأن فؤادي لا يلين إلى هوى * سواك وإن قالوا بلى سيلين
 وإني لأستغشي وما بي نعمة * لعل لقاء في المنام يكون
 ولما علوت الألبتين تسوقت * قلوب إلى وادي القرى وعيون
 كأن دموع العين يوم تحملت * بشينة يسقيها الرشاش معين
 ورحن وقد ودعن عندي لبانة * لبانة سر في الفؤاد كمين
 كسر الثرى لم يعلم الناس أنه * نوى في قرار الأرض وهو دفين
 فإن دام هذا الصرم منك فإني * لأغبر هاري الجانين رهين
 لكما يقول الناس مات ولم آهن * عليك ولم تثبت منك قرون

(ج) الغزل الصناعي

(١)
كثير

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز: ما قصّد القصيدة ولا نعت الملوكة مثل كثير.
وقال إبراهيم بن سعد: إني لأروى لكثير ثلاثين قصيدة أو رُقي بها مجنوناً لأفاق، وكان
بعض أصحاب الحديث يأتونه، وهو خبيث النفس، فيسألونه عن شعر كثير فتطيب نفسه
ويحدثهم. وقال عبد الله بن أبي عبيدة: من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع
شعره. وكان ابن أبي عبيدة يملئ شعره بثلاثين ديناراً. وسئل مضعّب: من أشعر الناس؟
فقال: كثير بن أبي جمعة، وقال: هو أشعر من جرير والفرزدق والراعي وعامتهم، يعني الشعراء.
ولم يدرك أحد في مدح الملوكة ما أدرك كثير. وقال محمد بن سلام: كان كثير شاعراً أهل
الحجاز، وهو شاعر فحل ولكنه منقوص حظّه بالعراق. وقال يونس النحوي: كثير أشعر

(١) هو كثير بن عبد الرحمن من خزاعة، ويعرف بكثير عزة، نسبة إلى عشيقته التي كان يشبب بها. وكان يدخل
على عبد الملك وينشده، وكان رافضياً شديداً للعصب لآل أبي طالب، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره،
فاذا أراد أن يصدقه بشئ، حلقه بعل. وكان له صديق اسمه خندق الأسدي، شديد التشيع مثله، وبلغ من جرأة خندق
هذا أنه وقف مرة في الموسم والناس مزدحمون وقال: «أيها الناس، إنكم على غير حق، قد تركتم بيت نبيكم والحق
لهم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس، فضر به ورموه حتى قتلوه، ودفن خندق بقنونا، فقال إذ ذاك كثير يرثيه.

أصادرة حجاج كعب ومالك * على كل عجلي ضامر البطن محقق

بمريضة فيها ثناء محبر * لأزهر من أولاد مرة معرق

والقصيدة طويلة. أما معشوقته عزة فهي بنت حميد بن وقاص من ضمرة، وكانت من أجمل النساء وأدبين
وأعقلهن. ويقال إنه لم ير لها وجهاً إلا أنه استهم بها قلبه لما ذكر له عنها. وعاتبه بعض أهلها فقالوا: «قد شهرت
نفسك وشهرت صاحبتنا فأكفف نفسك» فقال: «إني لا أذكرها بما تكرهون».

وأتفق خروجهم إلى مصر في عام الحلاء، فتبعهم على راحلته فزجروه فأبى إلا أن يلحقهم، فترى له بعضهم
في بعض الطريق وقبضوا عليه وجعلوه في جيفة حارور بطوها عليه فتر به صديقه خندق فأطلقه وألحقه بيلاده. وكان
كثير دميماً قليلاً أحمر أقيشر عظيم الهامة قبيحاً. وأكثراً شعاره في عزة هذه. توفي سنة ١٠٥ هـ، وأخباره كثيرة
تجدها في الأغاني (ج ١١ ص ٤٦) و(ج ٨ ص ٢٧) و(ج ٧ ص ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) وابن
خلكان (ج ١ ص ٤٣٣) والعقد الفريد (ج ١ ص ١١٥ و ٢٠٣) ونزاة الأدب (ج ٢ ص ٣٨١) وله ديوان
شرحه أبو عبد الله الرشدي منه نسخة خطية في الاسكوريال.

أهل الإسلام، وكان ابن أبي حفصة يعجبه مذهبه في المديح جدا، ويقول: كان يستقصي المديح، وكان فيه مع جودة شعره خطل وعجب. وقال المسور بن عبد الملك: ما ضرت من يروى شعر كثير وجميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان .

وكان قصيرا، قال الوقاصي: رأيت كثيرا يطوف بالبيت، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذبه . وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول: طأطأ رأسك لا يصبه السقف . وقال كثير: في أي شيء أعطى هؤلاء الأخوص عشرة آلاف دينار؟ قالوا: في قوله فيهم:

وما كان مالى طارفاً من تجارة * وما كان ميراثا من المال مُتِلداً
ولكن عطايا من إمام مبارك * ملا الأرض معروفاً وجوداً وسودداً
فقال كثير: إنه لضرع قبحه الله! ألا قال كما قلت:

دع عنك سلمي إذ فات مطلبها * وأذكر خليلك من بنى الحكم
ما أعطيتني ولا سألتها * ألا وإني لحاجزى كرمي
إني متى لا يكن نوالها * عندي بما قد فعلت أحتشم
مبدي الرضا عنهما ومنصرف * عن بعض ما لو فعلت لم ألم
لا أنزر النائل الخليل إذا * ما أعتل نزر الطؤور لم ترم
وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرضاً له يقال لها: غريب، وقدم بين يدي طلبه تلك الأبيات:

جرتك الجوازي عن صديقك نصرة * وأدناك ربي في الرفيق المتقرب
فإنك لا يعطى عليك ظلامه * عدو ولا تنأى عن المتقرب
وإنك ما تمنع فإنك مانع * بحق وما أعطيت لم تتعقب
فقال له: أترغب غرباً؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: آكتبوها له، ففعلوا.

(١) يقول: لا ألح عليه بالمألة. يقال: نزرته أنزره إذا ألحت عليه. والظؤور: العاطة على أولاد غيرها. ولم ترم: لم ترام.

وُسَبَّ كَثِيرٌ لَكثرة نسيبه بَعْزَةُ الصَّمْرِيَّةِ إليها، وعُرف بها قليل : كثير عزة، وهى عَزَّةُ ابنة حميد بن وقاص. وكان ابتداء عشقه إياها أنه مر بنسوة من بنى صَمْرَةَ ومعه جَلَب غنم، فأرسلن إليه عَزَّة وهى صغيرة، فقالت : يقلن لك النسوة : يَعا كَبْشًا من هذه الغنم وأنسِنَا بَنَنَهُ إلى أن ترجع، فأعطاها كبشًا، وأعجبته، فلما رجع جاءت امرأة منهم بدرهميه؛ فقال : وأين الصَّيِّبَةُ التى أخذت منى الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها وهذه دراهمك ؟ قال : لا آخذ دراهمى إلا ممن دفعت الكبش إليها، وخرج وهو يقول :

قَضَى كُلُّ ذى دِينَ فَوْقَى غَرِيمَةٍ * وَعَزَّةٌ مَمْلُوءٌ مُعْنَى غَرِيمِهَا
فَكَانَ أَوَّلَ لِقَائِهِ إِيَّاهَا . ثم قال فيها :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً وَهِيَ عَاتِقٌ * عَلَى حِينِ أَنْ شَبَّتْ وَبَانَ نُهُودُهَا
وَقَدْ دَرَّعُوهَا وَهِيَ ذَاتُ مُؤَصِّدٍ * ^(١) مَجُوبٌ وَلَمَّا يَلْبَسُ الدَّرْعَ رِيْدُهَا
مِنَ الْخَيْفَرَاتِ الْبَيْضِ وَدَّ جَلِيسُهَا * إِذَا مَا أَنْقَضَتْ أَحْدُوْتَهُ لَوْ تَعِيدُهَا
نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً مَا يَسْرُنِي * بِهَا حُمُرُ أَنْعَامِ الْبِلَادِ وَسُودُهَا
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ سَعْدَى بِأَرْضِهَا * أَرَى الْأَرْضَ تَطْوِي لِي وَيَدْنُو بَعِيدُهَا
ثُمَّ أَحَبَّتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ عَزَّةٌ أَشَدَّ مِنْ حُبِّهِ إِيَّاهَا .

قال محمد بن صالح الأسلمى : دخلت عَزَّةُ على عبد الملك بن مروان وقد عَجَزَتْ ؛ فقال لها : أَنْتِ عَزَّةٌ كَثِيرٌ؟ فقالت : أَنَا عَزَّةُ بِنْتُ حَمِيدٍ؛ قال : أَنْتِ التى يقول لك كثير : لَعَزَّةُ نَارٌ مَا تَبُوخُ كَأَنَّهَا * ^(٢) إِذَا مَا رَمَقْتَاهَا مِنَ الْبَعْدِ كَوُكْبُ

فما الذى أعجبه منك ؟ قالت : كَلَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي عَهْدِهِ أَحْسَنَ مِنَ النَّارِ فِي اللَّيْلَةِ الْقَرَّةِ . وَيُرَوَّى أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ : أَعْجَبَهُ مِنِّى مَا أَعْجَبَ الْمُسْلِمِينَ مِنْكَ حِينَ صَيَّرَكَ خَلِيفَةً، وَكَانَتْ لَهُ سِنَّ سَوْدَاءٍ يَخْفِيهَا، فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ، فَقَالَتْ لَهُ : هَذَا الَّذِى أَرَدْتُ أَنْ أَبْدِيهِ؛ فَقَالَ لَهَا : هَلْ تَرَوِينَ قَوْلَهُ :

(١) مؤصد : الئس الأصد (بالضم) وهى قبض صغير يلبس تحت الثوب . والمجوب : القميص ذو الجيب .
(٢) تبوخ : الترب . والرند (يمز ولا يهز) : الترب .

وقد زَعَمْتُ أَنى تَغَيَّرَتْ بعدها * ومن ذا الذى يا عَزَّ لا يَتَغَيَّرُ
تَغْيِيرَ جَسْمى والخَلِيقَةُ كَالتى * عَهْدَتِ ولم يُخْبَرْ بِسِرِّكَ مُخْبَرٌ

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قوله :

كَأْنى أَنادى صَخْرَةً حينَ أَعْرَضْتُ * من العُصْمِ لو تَمَشَّى بها العُصْمُ زَلَّتْ
صَفُوحًا فَمَا تَلَقَّاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ * فمن مَلَّ منها ذلك الوصلَ مَلَّتْ

فأمر بها ، فأدخلت على عاتكة بنت يزيد؛ فقالت لها : أرايت قول كثير :

قضى كل ذى دين فوقى غريمه * وعزّة تمطول معنّى غريمها

ما هذا الذى ذكره؟ قالت : قبلة وعدته إياها؛ قالت : أنجزها وعلى إثمها .

ومما قال فيها

خَلِيلِ هَذَا رَسْمُ عَزَّةٍ فَأَعْقِلَا * قَلُوصِيكَا ثُمَّ أَبْكَا حَيْثُ حَلَّتْ
وما كُنْتُ أَدْرِى قَبْلَ عَزَّةٍ مَا الْبُكَ * وَلَا مُوجِعَاتِ الْقَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتْ
فَقَدْ حَلَفْتُ جَهْدًا بِمَا نَحَرْتُ لَهُ * قَرِيشُ غَدَاةِ الْمَازِمِينَ ^(١) وَصَلَّتْ
أُنَادِيكَ مَا حَجَّ أَيْبُجُ وَكَبَّرْتُ * بَنِيْفًا غَزَالَ رُقَقَةً وَأَهَلَّتْ ^(٢)
وَكُنْتُ لَقَطْعِ الْحَبْلِ بَنَى وَبَيْنَهَا * كَنَازِرَةٍ نَذْرًا وَفَتْ فَأَحَلَّتْ
فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلِّ مَصِيبَةٍ * إِذَا وُطِنْتُ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ
وَلَمْ يَلْقَ إِنْسَانٌ مِنَ الْحَبِّ مِيعَةً * تَعْمُ وَلَا غَمَاءَ إِلَّا تَجَلَّتْ
كَأْنى أَنادى صَخْرَةً حينَ أَعْرَضْتُ * من العُصْمِ لو تَمَشَّى بها العُصْمُ زَلَّتْ
صَفُوحًا فَمَا تَلَقَّاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ * ^(٣) فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتْ
أَبَاحَتْ حِمَى لَمْ يَرَعَهُ النَّاسُ قَبْلَهَا * وَحَلَّتْ تَلَاعًا لَمْ تَكُنْ قَبْلُ حَلَّتْ

(١) المازمان : بين عرفة والمزدلفة . (٢) فيفا غزال : بمكة حيث ينزل الناس فيها

الى الأبطح . وأناديك : أجالسك ، مأخوذ من التدى والادى جميعا وهما المجلس .

(٣) الصفوح : المعرصة .

فليتَ قُلُوصِي عندَ عِزَّةٍ قُبِدَتْ * بحبلٍ ضَعِيفٍ عُرِّ مِنْهَا فَصَلَّتْ
 وَغُودِرَ فِي الْحَيِّ الْمُقِيمِينَ رَحْلُهَا * وَكَانَ لَهَا بَاغٌ سِوَايَ ^(١) قُبِلَتْ
 وَكُنْتُ كَذِي رَجُلَيْنِ رَجُلٍ صَحِيحَةٍ * وَرَجُلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشَلَّتْ
 وَكُنْتُ كَذَاتِ الظَّلَعِ لَهَا تَحَامَلَتْ * عَلَى ظَلْعِهَا بَعْدَ الْعِنَارِ اسْتَقَلَّتْ
 أُرِيدُ الثَّوَاءَ عِنْدَهَا وَأُظْنَهَا * إِذَا مَا أَطْلُنَا عِنْدَهَا الْمُكْتَمَتْ
 فَمَا أَنْصَفَتْ، أَمَّا النِّسَاءُ فَبَغَضَتْ * إِلَى وَأَمَّا بِالْأَسْوَالِ فَضَنَّتْ
 يُكَلِّفُهَا الْغَيْرَانُ شَتَّى وَمَا بَهَا * هَوَانِي وَلَكِنْ لِيكَ اسْتَدَلَّتْ
 هَبْنِيَا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ * لَعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
 فَوَاللَّهِ مَا قَارَبْتُ إِلَّا تَبَاعَدْتُ * بِضُرْمٍ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلْتُ
 فَإِنْ تَكُنِ الْعَتْبَى فَأَهْلًا وَمَرْجَبًا * وَحَقَّتْ لَهَا الْعَتْبَى لَدَيْنَا وَقَلَّتْ
 وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى فَإِنَّ وَرَاءَنَا * مَنَادِحَ ^(٣) لَوْ سَارَتْ بِهَا الْعَيْسُ كَلَّتْ
 خَلِيلِي إِنْ الْحَاجِيَّةُ طَلَعَتْ * قُلُوصِيكَمَا وَنَاقِي قَدْ أَكَلَتْ ^(٤)
 فَلَا يَبْعَدُنْ وَصْلُ لَعَزَّةٍ أَصْبَحَتْ * بِعَاقِبَةِ أَسْبَابِهِ قَدْ تَوَلَّتْ
 أَسِئْتُ بِنَا أَوْ أَحْسَنِي لَا مَلُومَةٌ * لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ
 وَلَكِنْ أَنْيَلِي وَأَذْكَرِي مِنْ مَوَدَّةٍ * لَنَا خُلَّةٌ كَانَتْ لَدَيْكُمْ فَطُلَّتْ ^(٥)
 فَإِنِّي وَإِنْ صَدَّتْ لَمْ تُنْ وَصَادِقُ * عَلَيْهَا بِمَا كَانَتْ إِلَيْنَا أَزَلَّتْ ^(٦)
 فَمَا أَنَا بِالْأَدْعَى لَعَزَّةٍ بِالْجَوَى * وَلَا شَامِتٌ إِنْ تَعُلُّ عِزَّةٌ زَلَّتْ
 فَلَا يَحْسِبُ الْوَاشُونَ أَنَّ صَبَابِي * بِعِزَّةٍ كَانَتْ غَمْرَةً فَتَجَلَّتْ
 فَأَصْبَحْتُ قَدْ أَبْلَلْتُ مِنْ دَنَفٍ ^(٧) بِهَا * كَمَا أُدْنِفْتُ هَيَاءً ثُمَّ اسْتَبَلَّتْ

(١) بليت : ذهب . (٢) العتبي : الإعتاب ، يقال : عاتبني فلان فأعتبه إذا نزع عما عاتبك عليه ،
 والعتبي الأثم والإعتاب المصدر (٣) المنادح : المفاوز . (٤) الطليح : المعى الذى سقط من الأعياء .
 (٥) طلت : هدرت . . . (٦) أزلت : اصططعت . (٧) يقال : بل من مرضه وأبل واستبل إذا
 برأ . . والهياء : التى أصابها داء الهيام ، وهو داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستنقعا فقيم فى الأرض لاترى .

ومنها :

ولست برأى نحو مصحابة * وإن بعدت إلا قعدت أشيم
 فقد يقعد النكس الدني عن الهوى * عز وفأ ويصبو المرء وهو كريم
 وقال خليلي ما لها إذ لقيتها * غداة السنا فيها عليك وجوم^(١)
 فقلت له إن المودة بيننا * علي غير خيش والصفاء قديم
 وإني وإن أعرضت عنها تجلدا * على العهد فيما بيننا لمقيم
 وإن زمانا فرق الدهر بيننا * وبينكم في صرفة لمشوم
 أفي الحق هذا أن قلبك سالم * صحيح وقلبي في هواك سقيم
 وأن يجسمي منك داء مخامرا * وجسمك موفور عليك سليم
 لعمرك ما أنصفتني في مودتي * ولكني ياعز عنك حلیم
 فإما ترينى اليوم أبدى جلادة * فإني لعمرى تحت ذاك كلم
 ولست أبنه الضمري منك بناقم * ذنوب العدى إني إذا لظالم
 وإني لذو وجد إذا عاد وصلها * وإني على ربى إذا لكريم

ومن نسيبه بها :

لعزة أطلال أبت أن تكلمنا * تبيع مغانيها الفؤاد المكلما
 وكنت إذا ما جئت أجلن مجلسي * وأظهرن مني هبة لا تجهما
 يحاذرن مني غيرة قد عرفها * قديما فما يضحكن إلا تبسما

ومنه :

خليلي عوجا منك ساعة معي * على الربع نقض ساعة ونودع
 ولا تعجلاني أن ألم يدمنة * لعزة لاحت لي ببيداء بلقع
 وقولا لقلب قد سلا راجع الهوى * وللعين أذرى من دموعك أودعي
 فلا عيش إلا مثل عيش مضى لنا * مصيفا أقمتا فيه من بعد مريع

(١) . وجم : سكت على غيظ .

ومنه :

بليلى وجارات ليلي كأنها * نَعَاجُ الْفَلَا تُحْدِي بَيْنَ الْأَبَاعِرُ
أَمْتَقِطَعُ يَاعَزَّ مَا كَانَ بَيْنَنَا * وَشَاجِرُنِي يَاعَزَّ فَيْكَ الشَّوَابِرُ
إِذَا قِيلَ هَذَا بَيْتُ عَزَّةَ قَادِنِي * إِلَيْهِ الْهُوَى وَأَسْتَعِجِلْنِي الْبُؤَادِرُ
أَصْدُوبِي مِثْلَ الْجَنُونِ لَكِي يَرَى * رُؤَاةُ الْخَلَا أَنِّي لَيْتَكَ هَاجِرُ
أَلَا لَيْتَ حَظِّي مِنْكَ يَاعَزَّ أَنَّنِي * إِذَا بَنَيْتَ بَاعَ الصَّبْرِ لِي عَنْكَ تَاجِرُ

ومنه :

وَمَا زِلْتُ مِنْ لَيْلٍ لَدُنْ طَرْ شَارِبِي * إِلَى الْيَوْمِ أَخْفَى حَبِّهَا وَأُدَاجِنُ
وَأَحْمِلُ فِي لَيْلِي ضَغَائِنَ مَعَشَرٍ * وَتُحْمَلُ فِي لَيْلِي عَلَى الضَّغَائِنِ

ومنه :

وإني لأرعى قومها من جلالها * وَإِنْ أَظْهَرُوا غِشَاءَ نَصَحَتُهُمْ جَهْدِي
وَلَوْ حَارَبُوا قَوْمِي لَكُنْتُ لِقَوْمِهَا * صَدِيقًا وَلَمْ أَحْمِلْ عَلَى حَرْبِهَا حَقْدِي

ومنه :

هَلَا سَأَلْتَ مَعَالِمَ الْأَطْلَالِ * بِالْجَزْعِ مِنْ حُرْضٍ وَهَنْ بَوَالِ^(١)
سَقِيًّا لِعَزَّةَ خُلَّةً سَقِيًّا لَهَا * إِذْ نَحْنُ بِالْهَضَبَاتِ مِنْ أَمَلَالِ^(٢)
إِذَا لَا تَكَلَّمْنَا وَكَانَ كَلَامُهَا * نَفْلًا تَوْمَلُهُ مِنَ الْأَنْفَالِ

ومنه :

أَلَا حَيًّا لَيْلِي أَجَدَّ رَحِيلِي * وَأَذِنَ أَصْحَابِي غَدًا يَقُولُ^(٣)
تَبَدَّتْ لَهُ لَيْلِي تُذْهِبُ عَقْلَهُ * وَشَاقَّتْ أُمُّ الصَّلْتِ بَعْدَ دُهُولِ
أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا * تَمَثَّلُ لِي لَيْلِي بِكُلِّ سَبِيلِ
إِذَا ذُكِرْتُ لَيْلِي تَغَشَّيْتُكَ عَبْرَةً * تُعَلِّبُهَا الْعَيْنَانِ بَعْدَ هَوْلِ

(١) حرض : واد من وادي قناة ، من المدينة على ميلين .

(٢) أراد ملل ، وهو منزل على طريق المدينة من مكة . (٣) فقول : رجوع .

فوالله ثم الله ما حَلَّ قبلها * ولا بعدها من حُلَّةٍ حيث حَلَّتْ
وما مَرَّ من يومٍ على كيومها * وإن عَظُمَتْ أيامُ أخرى وجَلَّتْ
وأصَحَّتْ بأعلى شاهقٍ من فؤاده * فلا القلبُ يَسْلَاها ولا العينُ مَلَّتْ
فيا عَجَباً للقلبِ كيف أَعْتَرَفَهُ ^(١) * وللنفسِ لما وُطِنَتْ كيف ذَلَّتْ
وإني وَهَيْامِي بعِزَّةٍ بعد ما * تَخَلَّيْتُ مما بَيْننا وَتَحَلَّتْ
لكلِّ مُرْتَجِي ظِلِّ العَمامَةِ كَلِمَا * تَبَوَّأَ مِنْهَا لِلْقِيلِ أَصْحَمَلَّتْ
كأني وإياها سَحَابَةٌ مُجَحِل * رَجَّاهَا فَلَمَّا جَاوَزَتْهُ أَسْتَهَلَّتْ
فإن سألَ الوَاشُونَ فيمِ هَجَرَتِهَا * قُفِّلَ نَفْسُ حُرٍّ سُلِّيتْ فَتَسَلَّتْ
قال ابنُ سَلامٍ : كان كثيرَ مَدْعِيَا ولم يكن عاشقاً، وكان جميلَ صادق الصبابة والعشق .
وأخبرته عِزَّةُ ذاتِ مرَّةٍ فوجدت علامة ذلك، وكانت مستقبية فأسفرت، فأبلس ولم ينطق
وبُهِتَ، فلما مضت أنشأ يقول :

^(٢)
ألا ليتني قبل الذي قلتُ شِيبَ لي * من السمِّ خَضُخاضَ بَماءِ الذَّرَّارِحِ
مَتَّ ولم تعلمِ على خِيانَةٍ * وكَمِ طَالِبٍ لِلرَّجْحِ لَيْسَ بِرَاجِحِ
أَبُوءُ بِذَنْبِي، إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُهَا * وَإِنِّي بِيَاقِي سَرَّهَا غَيْرَ بَائِحِ

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتَمِ عَلَيَّ ولم تُخَفِ * بَرِيًّا ولم تَتَّبِعْ مَقَالَةَ مُجْرِمِ
وَقَاتَ فَصَدَّقْتَ الَّذِي قُلْتَ بِالَّذِي * فَعَلْتَ فَاضْحَى رَاضِيًّا كُلُّ مُسْلِمِ
أَلَا إِنَّمَا يَكْفِيهِ الْفَتَى بَعْدَ زَيْغِهِ * مِنْ الْأَوْدِ الْبَاقِي ثِقَافُ الْمَقُومِ
لَقَدْ لَيْسَتْ لِبَسِ الْمَلُوكِ بِيَابِهَا * تَرَأَى لَكَ الدُّنْيَا بِكَفِّ وَمِعْصَمِ
وَتَوُضُّ أحياناً بَعِينَ مَرِيضَةٍ * وَتَبْسِمُ عَنْ مِثْلِ الْجُمَانِ الْمُنْظَمِ

(١) اعترافه : اصطباره ، يقال : نزلت به مصيبة فوجد عروفاً ، أى صبورا .

(٢) أبلس : انكسروا . (٣) الذراح : دويبة حراء منقطة بسواد تطير، وهى من السموم

القائلة ، والذراح جمع . والخضخاض : فقط أسود لا خثورة فيه تهاى به الإبل الجرب .

فَأَعْرَضَتْ عَنْهَا مُشْمِرًا كَأَنَّمَا * سَقَتَكَ مَدُوقًا^(١) مِنْ سِمَامٍ وَعَلَقَمَ
 وَقَدْ كُنْتَ مِنْ أَجْبَالِهَا فِي مُنْعٍ * وَمِنْ بَحْرِهَا فِي مُزِيدِ الْجُودِ مُفْعَمَ
 وَمَا زِلْتَ سَبَاقًا إِلَى كُلِّ غَايَةٍ * صَعِدَتْ بِهَا أَعْلَى الْبِنَاءِ الْمَقْدَمِ
 فَلَمَّا أَتَاكَ الْمُلْكُ عَفَّوْا وَلَمْ يَكُنْ * لَطَالِبِ دُنْيَا بَعْدَهُ مِنْ تَكَلُّمِ
 تَرَكْتَ الَّذِي يَقْنَى وَإِنْ كَانَ مُوقَفًا * وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مُصَمِّمِ
 فَأَضْرَرْتَ بِالْفَانِي وَشَمَّرْتَ لِلذَّيْ * أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ مِنَ الْهَوْلِ مَظْلَمِ
 وَمَالِكَ أَنْ كُنْتَ الْخَلِيفَةَ مَانِعٌ * سِوَى اللَّهِ مِنْ مَالٍ رَغِيبٍ وَلَا دَمِ
 سَمَّا لَكَ هَمٌّ فِي الْفُؤَادِ مُؤَرَّقٌ * صَعِدَتْ بِهِ أَعْلَى الْمَعَالِي يُسَلِّمُ
 فَمَا بَيْنَ شَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ كُلِّهَا * مُنَادٍ يَنَادِي مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِ
 يَقُولُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ظَلَمْتَنِي * بِأَخْذِ لَدِينَارٍ وَأَخْذِ لِدَرْهَمِ
 وَلَا بَسِطَ كَفٌّ لَأَمْرِي ظَلَمَ لَهُ * وَلَا السَّفِكُ مِنْهُ ظَالِمًا مَلَأَ نَجْمِ
 فَلَوْ يَسْتَطِيعُ الْمَسَامُونَ تَقَسَّمُوا * لَكَ الشَّطْرُ مِنْ أَعْمَارِهِمْ غَيْرُ نَدَمِ
 فَعِشْتَ بِهِ مَا حَجَّ اللَّهُ رَاكِبٌ * مُغْدٍ^(٢) مُطِيفٌ بِالْمَقَامِ وَزَمَزَمِ
 فَأَرْبَحُ بِهَا مِنْ صَفْقَةِ لُبَايِعٍ * وَأَعْظِمُ بِهَا أَعْظَمَ بِهَا ثُمَّ أَعْظِمِ
 وَمِنْ نَسِيْبِهِ بَعْزَةٌ لَمَّا أُتْرِجَتْ إِلَى مِصْرَ :

لَعِزَّةٌ مِنْ أَيَّامِ ذِي الْغَصَنِ شَاقِفِي * بِيضَاحِي قَرَارِ الرُّوضَتَيْنِ رُسُومِ
 هِيَ الدَّارُ وَخَشَا غَيْرَ أَنْ قَدْ يُحْلَاهَا * وَيَقْنَى بِهَا شَخْصٌ عَلَى كَرِيمِ
 فَمَا يَرْسُومُ الدَّارَ لَوْ كُنْتَ عَالِمًا * وَلَا بِالتَّلَاعِ الْمُقْوِيَّاتِ أَهْمِ^(٣)
 سَأَلْتَ حَكِيمًا أَيْنَ شَطَطُهَا النَّوَى * نَحْبَرُنِي مَا لَا أَحَبَّ حَكِيمِ^(٤)
 أَجَدُّوْا فَمَا أَلَّ عِزَّةٌ غُدُوَّةً * فَبَانُوا وَأَمَّا وَاسِطُ فَقِيمِ
 لَعَمْرِي لَئِنْ كَانَ الْفُؤَادُ مِنَ الْهَوَى * بَقِيَ سَقَمًا إِنِّي إِذَا لَسَقِيمِ

(١) مدوقا : مخلوطا ، داف الدواء والزعفران يدوفه : خلطه . (٢) مغد : مسرع .

(٣) أقوت الدار : خلت من ساكنها . (٤) هو أبو السائب بن حكيم .

وكم من خليل قال لي هل سألتها * فقلت له ليس أضرت خليل
 وأبعده نبلاً وأوشكه^(١) قللى * وإن سئلت عرقاً فشر مسؤل
 حلفت برب الرافصات الى منى^(٢) * خلال الملا يمددن كل جديل^(٣)
 تراها رفاقاً بينهم تفاوت * ويمددن بالإهلال كل أصيل^(٤)
 تواهقن بالبحاج من بطن نخلة * ومن عزور والحب خبت طفيل^(٥)
 بكل حرام خاشع متوجه * الى الله يدعوه بكل تقيل
 على كل مدعان الرواح معيدة * ومخشية ألا تعيد هزيل
 شوامذ قد أرتجن دون أجنة^(٦) * وهوچ تبارى فى الأزقة حول^(٧)
 يمين امرئ مستغلظ من ألية^(٨) * ليكذب فيلا قد ألح بقيل
 لقد كذب الواشون ما بحث عندهم * بللى ولا أرسلتهم برسول^(٩)
 فإن جاءك الواشون عنى بكذبة * فروها ولم يأتوا لها يحويل^(١٠)
 فلا تعجل ياليل أن تتفهى * بنصح أئى الواشون أم يحبول
 فإن طببت نفسا بالعطاء فأجزلى * وخير العطا ياليل كل جزيل
 وإلا فإجمال إلى فإننى * أحب من الأخلاق كل جميل
 وإن تبدلى لى منك يوما مودة * فقدما تحذت القرض عند بذول
 وإن تبخلى ياليل عنى فإننى * توكلنى نفسى بكل بخيل
 ولست براض من خليل بنائل * قليل ولا راض له بقليل

- (١) أوشكه : أسرعه . والقلى : البغض . (٢) الرافصات : الإبل ، والملا : الفضاء ، والجديل : زمام مجدول أى مضافور . (٣) الأصيل : العشى . (٤) تواهقن : تبارين ، وبطن نخلة : بيتان بنى عامر ، وعزور : ثنية الحفصة . والحب : المطعم من الأرض . وطفيل : موضع . (٥) التقيل : الطريق . (٦) المدعان : المذلة . ومعيدة : قد عاودت السفر . (٧) الشوامذ : الشائلات الأذنان ، وأرتجن : أغلقن أرحامهن على أولادهن . والحول : جمع حائل وهى التى لا تلقح . (٨) الألية : اليمين . (٩) فروها من الفرية ، يقال فرى فرى . والحويل : المحاولة . (١٠) الحبول : الدوام .

وليس خليلي بالملول ولا الذي * اذا غبت عنه باعني بخليل
 ولكن خليلي من يديم وصاله * ويحفظ سرى عند كل دَخِيل^(١)
 ولم أر من ليلي نوالا أعدّه * ألا ربما طالبت غير مُنِيل
 يلومك في ليلي وعقلك عندها * رجالٌ ولم تذهب لهم بعقول
 يقولون ودّع عنك ليلي ولا تهم * بقاطعة الأقران ذات حَلِيل
 فما نعت نفسي بما أمروا به * ولا نجت من أقوالهم بفَتِيل^(٢)
 تذكّرت أترابا لعزة كلمها * حين يليط ناعم وقبول^(٣)
 وكنت اذا لاقيتهم كأنني * محالطةٌ عقلي سلاف شمول
 تأطرن حتى قلت لسن بوارحا * رجاء الأمانى أن يقلن مقيلي^(٤)
 فابدين لي من بينن تجمهما * وأخلفن ظني إذ ظننت وقيلي^(٥)
 فلأيا يلائي ما قضين لبانة * من الدار وأستقلن بعد طويل
 فلما رأى وأستيقن البين صاحبي * دعا دعوة يا جبر بن سلول
 فقلت وأسررت الندامة ليتني * وكنت أمراً أغتش كل عدول
 سلكت سبيل الرامحات عشيّة * مخارم^(٦) نضع أو سلكن سبيل
 فأسعدت نفسا بالهوى قبل أن أرى * عوادي^(٧) تأتي بيننا وشغول
 ندمت على ما فاتني يوم بنتم * فياحسرتا ألا يرين عويل
 كأن دموع العين واهية الكلى^(٨) * وعث ماء غرب يوم ذاك سجيل

- (١) الدخيل : الذي ينسب الى قوم وليس منهم . (٢) أى ما رويت . (٣) الأتراب : الأقران . والليط : اللون وهو الجلد أيضا . (٤) تأطرن : تلبنن ، وأصل التأطر : التعطف . (٥) الاى : البطء . واللبانة : الحاجة . (٦) المخارم : جمع مخرم وهو متقطع أنف الجبل . ونضع : جبل أسود بين الصفراء وينبع . (٧) العوادي : الصوارف . (٨) الكلى : جمع كلبة وهي الرقعة تكون في أصل غرزة المزاد . والغرب : الدوا العظيمة . وسجيل : خضم .

تَكْتَفِيهَا حُرْقٌ تَوَاكَلْنَ خَرَزَهَا * فَأَيَّجَلَنَّهُ وَالسَّيْرُ غَيْرُ بَحِيلٍ ^(١)
 أَقِيصِي فَإِنَّ الْغَوْرَ يَاعِزُّ بَعْدَكُمْ * أَلَى إِذَا مَا بِنْتٌ غَيْرُ بَحِيلٍ
 كَفَى حَزَنَا لِلْعَيْنِ أَنْ رَدَّ طَرَفُهَا * لَعَزَّةٌ غَيْرُ آذَنْتُ بِرَحِيلٍ
 وَقَالُوا نَأَتْ فَأَخْتَرْنَا مِنَ الصَّبْرِ وَالْبُكََا * فَقُلْتُ الْبُكََا أَشْفَى إِذَا لَغَلِيلِي
 تَوَلَّيْتُ مَحْزُونًا وَقُلْتُ لِمُصَاحِبِي * أَفَاتَلِقَى لَيْلِي بِغَيْرِ قَيْلٍ
 لَعَزَّةٌ أَذَى يَحْتَلُّ بِالْخَيْفِ أَهْلُهَا * فَأَوْحَشَ مِنْهَا الْخَيْفُ بَعْدَ حُلُولِ
 وَبَدَّلَ مِنْهَا بَعْدَ طَوْلِ إِقَامَةٍ * تَبَعْتُ نَكَبَاءَ الْعَشِيِّ جَفُوقِ ^(٢)
 لَقَدْ أَكْثَرَ الْوَاشُونَ فِينَا وَفِيكُمْ * وَمَالُ بَنِي الْوَاشُونَ كُلِّ مَيْمِلٍ
 وَمَا زِلْتُ مِنْ لَيْلٍ لَدُنْ طَرِّ شَارِبِي ^(٣) * إِلَى الْيَوْمِ كَأَلْفَصَى بِكُلِّ سَبِيلٍ

وله :

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوُ لَمْ تَثْنِ هَمَّهُ * حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمٌ دُرٌّ يَزِينُهَا
 نَهْتُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ * بَكَتْ فَبَكَى مِمَّا شَجَّاهَا قَطِينُهَا ^(٤)
 وَلَمْ يَنْتَبِهْ يَوْمَ الصَّبَابَةِ بَنُهَا * عَدَاةٌ اسْتَهَلَّتْ بِالْدموعِ سُؤُوءُهَا
 وَلَكِنْ مَضَى ذُو مِرَّةٍ مُتَبَيَّنٌ * بُسْنَةً حَقٌّ وَاضِحٌ مُسْتَبِينُهَا

وله في مدح عبد الملك بن مروان :

أَحَاطَتْ يَدَاهُ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ مَا * أَرَادَ رِجَالُ آخَرُونَ اغْتِيَالَهَا
 فَمَا أَسْلَمُوهَا عَنْوَةً عَنْ مَوَدَّةٍ * وَلَكِنْ بِحَدِّ الْمَشْرِقِ اسْتَقَالَهَا
 وَكُنْتَ إِذَا نَابَتْكَ يَوْمًا مُلِمَّةٌ * نَبَلَتْ لَهَا أبا الْوَلِيدِ نِبَالَهَا ^(٥)
 سَمَوْتَ فَأَدْرَكْتَ الْعَلَاءَ وَإِنَّمَا * يُلْقَى عَالِيَاتِ الْعُلَا مِنْ سَمَا لَهَا
 وَصَلْتَ فَنَالَتْ كَفْكَ الْمَجْدَ كُلَّهُ * وَلَمْ تَبْلُغْ الْأَيْدِي السَّوَامِي مَصَالَهَا

(١) خرق : جمع خرقاء ، وهى التى لا تحسن العمل . وأيجلته : أوسعته . والبجيل الغليظ ، يريد أنهن

أغلظن الإشفى وأدققن السير . (٢) النكباء : الريح التى تهب بين مهبي ريحين . والجفوق : التى تذهب التراب .

(٣) طرور الشارب : نباته . (٤) القطين : الخدم . (٥) نبك : أعدته .

وله أيضا :

أَهَاجَكَ بَرْقُ آخِرِ اللَّيْلِ وَاصِبٌ * تَضَمَّنَهُ فَرْشُ الْحَبَا فَلَمَسَارِبُ
يَجُرُّ وَيَسْتَأْنِي نَسَاصًا كَانَهُ ^(١) * بَغِيقَةً حَادٍ جَلَجَلُ الصَّوْتِ جَالِبُ
تَالَّقُ وَأَحْمَوُمِي وَخَمِيمَ الرُّبَا * أَحْمُ الدَّرَى ذُو هَيْدَبٍ مُتْرَاكِبُ
إِذَا حَرَّكَتَهُ الرِّيحُ أَرْزَمَ ^(٢) جَانِبُ * بَلَا هَرْزَقٍ مِنْهُ وَأَوَمَضَ جَانِبُ
كَمَا أَوَمَضَتْ بِالْعَيْنِ ثُمَّ تَبَسَّمتُ * خَرِيعٌ ^(٣) بَدَا مِنْهَا جَبِينٌ وَحَاجِبُ
يَمِجُّ النَّدَى لَا يَذْكُرُ السَّيْرَ أَهْلُهُ * وَلَا يَرْجِعُ الْمَاشِي بِهِ وَهُوَ جَادِبُ

وله أيضا :

سَهْلُكَ فِي الدُّنْيَا شَفِيقٌ عَلَيْكُمْ * إِذَا غَالَهُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ غَائِلُهُ
وَيُخْفِي لَكُمْ حُبًّا شَدِيدًا وَرَهْبَةً * وَلِلنَّاسِ أَشْغَالٌ وَحُبٌّ شَاغِلُهُ
وَحُبُّكَ يُنْسِينِي مِنَ الشَّيْءِ فِي يَدِي * وَيُذْهِلُنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ أَزَاوِلُهُ
كَكْرِيمٍ يُمِيتُ السَّرَّ حَتَّى كَانَهُ * إِذَا اسْتَبَحُّثُوهُ عَنْ حَدِيثِكَ جَاهِلُهُ
يَوَدُّ بَابَ يُنْسِينِي سَقِيًّا لَعَلَّهَا * إِذَا سَمِعَتْ عَنْهُ بِشَكْوَى تُرَاسَلُهُ
وَيَرْتَاحُ لِلْعُرُوفِ فِي طَلَبِ الْعَلَا * لِيُحْمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلٍ شَمَائِلُهُ
فَلَوْ كُنْتُ فِي كُلِّ وَبُخْتُ ^(٤) بَلَوَعْتِي * إِلَيْهِ لَأَنْتَ رَحْمَةً لِي سَلَايِلُهُ

وله أيضا :

أَقُولُ لِمَاءِ الْعَيْنِ أَمْعِنُ لَعَلَّهُ * بِمَا لَا يُرَى مِنْ غَائِبِ الْوَجْدِ يَشْهَدُ
فَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْعَيْنَ قَبْلَ فِرَاقِهَا * غَدَاةَ الشَّبَابِ مِنْ لَاعِ الْوَجْدِ تَجْمَدُ
وَلَمْ أَرْمِثْ الْعَيْنَ صَنَّتْ بِمَائِهَا * عَلَى وَلَا مِثْلِي عَلَى الدَّمْعِ يُحْسَدُ

(١) النشاص : السحاب المرتفع بغضه فوق بعض . (٢) أرزم : صوت . (٣) الخزيق :

شدة صوت الرعد . (٤) خريع : امرأة حسناء . (٥) بكل : قيد شديد .

وله أيضا :

تَسْمَعُ الرِّعْدَ فِي الْمَخِيلَةِ مِنْهَا * مِثْلَ هَزَمِ الْقُرُومِ فِي الْأَشْوَالِ ^(١)
وَتَرَى الْبَرْقَ عَارِضًا مُسْتَطِيرًا * مَرَحَ الْبُلُقِ جُلْنَ فِي الْأَجَالِ ^(٢)
أَوْ مَصَائِيحَ رَاهِبٍ فِي يَفَاجٍ * سَغَمَ الزَّيْتِ سَاطِعَاتِ الذُّبَالِ

وله أيضا :

فِيَا عَزَّ إِنِّ وَايْشَ وَشَى بِي عِنْدَكُمْ * فَلَا تُكْرِمِيهِ أَنْ تَقُولِي لَهُ أَهْلَا
كَمَا لَوْ وَشَى وَايْشَ بَعِزَّةً عِنْدَنَا * لَقَلْنَا تَرْخُوحَ لَا قَرِيْبًا وَلَا سَهْلَا

(١) القروم : الفحول التي أعفيت من الحمل عليها وتركت للفحلة .

(٢) الأشوال : الإبل التي مضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وجف لبنها .

الحزب الأول (د) الغزل القصصي

١ - أخبار قيس بن الملوّح (المجنون)^(١)

قال الأصفهاني عن محدّثيه عن ابن دأب قال : قلتُ لرجل من بني عامر : أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً؟ قال : أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار المجانين ! إنهم لكثير ! فقلتُ : ليس هؤلاء أعني ، إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق ، فقال : هيهات ! بنو عامر أغلظُّ أجبأداً من ذلك ، إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعافِ قلوبها ، السخيفة عقولها ، الصَّعْلة^(٢) رؤسها ، فأما نزارُ فلا .

وقال الرّياشي سمعت الأصمعي يقول : رجلان ما عُرِفا في الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بني عامر ، وابن القرية^(٣) ، وإنما وضعهما الرواة .

وقال المدائني : المجنون المشهور بالشعر عند الناس صاحبُ ليلى قيس بن معاذ من بني عامر ، ثم من بني عُقيل ، أحد بني مُيمر بن عامر بن عُقيل ، قال : ومنهم رجل آخر يقال له : مهدي بن الملوّح من بني جَعْدَةَ بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

وقال ابن الكلبي : حدّثت أن حديث المجنون وشعره وضعه قتي من بني أمية كان يهوى أبنّة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يرويها الناس للمجنون ونسبها إليه .

(١) هو قيس بن الملوّح ، ويقال : ابن معاذ بن مزاحم من بني عامر بن صعصعة ، ويعرف بمجنون ليلى ، نسبة إلى ليلى التي كان يتعشقها وهو مشهور ، ولكن بعض أهل النقد من علماء الشعريون أن قصته موضوعة ، وضعها رجل من بني أمية كان يحب أبنّة عم له ويكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يظنها الناس للمجنون ، وقد زاد الناس فيه بعدئذ . ويؤيد ذلك أن كثيراً مما ينسب إليه من الأشعار رويت لغيره ، فقصته إذا من قبيل الشعر التمثيلي (درام) الذي يراد به تمثيل بعض الفضائل . وهي تمثل العشق مع التعفف ، أو لعل لها أصلاً قليلاً وزاد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عنترة التي تمثل الشجاعة والعشق ، وعلى كل حال فإن بين الأشعار المنسوبة إلى المجنون طائفة تمثل شاعر المحبين كما هي على طبيعتها . وأخبار المجنون في الأغاني (ج ١ ص ١٦٧) والشعر والشعراء (ص ٣٥٥) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصعلة : صفر الرأس . (٣) هو أيوب ابن زيد بن قيس والقرية أمه قتله الحجاج لاتهامه بالليل لابن الأشعث .

وعن حماد بن طالوت بن عباد : أنه سأل الأصمعي عنه ، فقال : لم يكن مجنوناً ، بل كانت به لؤنةٌ أحدثها العشق فيه ، كان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليلي ، واسمه قيسُ ابن مُعاذ .

وذكر عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه أن اسمه قيسُ بن مُعاذ .
وذكر شعيب بن السَّكَن عن يونس النحوي أن اسمه قيسُ بن الملوّح ، قال أبو عمرو الشيباني : وحدثني رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقيّه وسأله عن اسمه ونسبه ، فذكر أنه قيسُ بن الملوّح .

(١) وذكر هشام بن محمد الكلبي أنه قيسُ بن الملوّح ، وحدث أن أباه مات قبل اختلاطه ، فمقر على قبره ناقته وقال في ذلك :

عقرتُ على قبر الملوّح ناقتي * بذى السَّرح لما أن جفاه الأقاربُ
وقلتُ لها كوني عقيراً فإنني * غداً راجلاً أمشي وبالأُمس راكبُ
فلا يُبعدنك الله يا بنَ مراحِم * فكلُّ بكأس الموت لاشكَّ شاربُ

وقال الأصمعي : سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن المجنون العاصمي فقال : عن أيهم تسألني ؟ فقد كان فينا جماعة رُموا بالمجنون ، فعن أيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذي كان يُشبَّب بليلى ، فقال : كلُّهم كان يُشبَّب بليلى ، قلت : فأنشدني لبعضهم ، فأنشدني لمزاحم بن الحارث المجنون :

ألا أيها القلبُ الذي لجَّ هائماً * بليلى وليداً لم تُقطِّعْ تمائمهُ
أفّق قد أفاق العاشقون وقد أُنِي * لك اليوم أن تلقى طيباً تلاميهُ
أجذك لا تُنسيك ليلى مُلمّةً * تلمّ ولا عهدٌ يطولُ تقادُمةً

(١) يقال : اختلط عقله إذا فتر وفسد . (٢) ذو السرح : واد بأرض نجد .
(٣) عقيراً ، أى معقورة ، وأصل العقر : قطع القوائم ثم أطلق بمعنى النحر . قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أى يخرونها ويقولون : إن صاحب القبر كان يعقر لآضياف أيام حياته فنكحته بمثل صبيحه بعد وفاته . وإنما أطلق العقر على النحر لأنهم كانوا إذا أرادوا نحر البعير عقروه لئلا يشرد عند النحر اه من اللسان مادة عقر . (٤) أنى : حان وقرب .

قلت : فأنشدني لغيره منهم ، فأنشدني لمعاذ بن كليب المجنون :

ألا طامًا لا عبتُ ليلي وقادني * إلى اللهو قلبٌ لحسان تبوع
وطال أمترأ^(١) الشوق عني كلبًا * نزفت دموعًا تستجد دموع
فقد طال إمساكي على الكبد التي * بها من هوى ليلي الغداة صدوع

قلت : فأنشدني لغير هذين ممن ذكرت ، فأنشدني لمهدي بن الملووح :

لو أن لك الدنيا وما عدت به * سواها وليلى بائن عنك بينها^(٢)
لكنت إلى ليلي فقيرا وإنما * يقود إليها ود نفسك حينها

قلت له : فأنشدني لمن بقي من هؤلاء ، فقال : حسبك ! فوالله إن في واحد من هؤلاء
لن يؤزن بعقلكم اليوم .

وقال الجاحظ : ما ترك الناس شعرا مجهول القائل قيل في ليلي إلا نسبوه إلى المجنون ،
ولا شعرا هذه سبيله قيل في لُبني إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح .

قال أبو الفرج : وأنا أذكر مما وقع إلى من أخباره جملاً مستحسنة ، متبرئاً من العهدة
فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورة في أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من
حكيت عنه إليه ، وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتبع للعيوب .

أخبرني بخره في شقيقه بليلى جماعة من الرواة ، ونسخت ما لم أسمع من الروايات
وجمعت ذلك في سياقة خبره ما اتسق ولم يختلف ، فاذا اختلفت نسبت كل رواية
إلى راويها .

فمن أخبرني بخره أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلبي ، قالا :
حدثنا عمر بن شبة عن رجاله وإبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة ، ونسخت أخباره من
رواية خالد بن كلثوم وأبي عمرو الشيباني وابن دأب وهشام بن محمد الكلبي وإسحاق بن
الخصاص وغيرهم من الرواة .

(١) الامترأ : الاستدرا . (٢) بينها هنا معناه وصلها لأنه من أسماء الأجداد ، يطلق على الوصل والفراق .

قال أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة : كان المجنون يهوى ليلي بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك ، وهما حينئذ صبيان ، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعان مواشي أهلهما ، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحُجبت عنه ، قال : ويدل على ذلك قوله :

تَلَقْتُ لَيْلَى وَهِيَ ذَاتُ دُؤَابَةٍ ^(١) * وَلَمْ يَبْدُ لِلْأَتْرَابِ مِنْ نَذِيهَا حِمٌّ
صَغِيرِينَ نَزَعَى الْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَا * إِلَى الْيَوْمِ لَمْ نَكْبُرْ وَلَمْ تَكْبُرِ الْبَهْمُ

وقال ابن الكلبي : كان سببُ عشقِ المجنون ليلي ، أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حُلَّتَانِ مِنْ حُلَلِ الْمُلُوكِ ، فَمَرَّ بِأَمْرَأَةٍ مِنْ قَوْمِهِ يَقَالُ لَهَا : كَرِيمَةُ ، وعندها جماعة نسوة يتحدثن ، فبين ليلي ، فأعجبتهن جماله وكأله ، فدعونه إلى النزول والحديث ، فنزل وجعل يتحدثن وأمر عبداً له كان معه فعقرهن ناقته ، وظلَّ يتحدثن بقية يومه ، فبينما هو كذلك ، إذ طلع عليهم قتي عليه بُرْدَةٌ مِنْ بُرْدِ الْأَعْرَابِ يقال له : "مُنَازِلُ" يسوق معزى له ، فلما رأيته أقبلن عليه وتركن المجنون ، فغضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول :

أَعْقِرْ مِنْ جَرٍّ كَرِيمَةٍ نَاقَتِي * وَوَضِلِي مَفْرُوشُ لَوْضِلِ مُنَازِلِ
إِذَا جَاءَ قَعْقَعَنَ الْحُلِيِّ وَلَمْ أَكُنْ * إِذَا جِئْتُ أَرْضِي صَوْتَ تِلْكَ الْخَلَائِلِ
مَتَى مَا أَتْتَضَلْنَا بِالسَّهَامِ نَضَلْتُهُ ^(٢) * وَإِنْ نَزِمَ رَشَقًا ^(٣) عِنْدَهَا فَهُوَ نَاضِلِي ^(٤)

قال : فلما أصبح ليس حلتته وركب ناقة له أخرى ومضى متعرضاً لهن ، فالتى ليلي قاعدةً بفناء بيتها وقد علق حبه بقلبها وهويته ، وعندها جويرياتٌ يتحدثن معها ، فوقف بهن وسلم ، فدعونه إلى النزول وقلن له : هل لك في مُحَادَثَةٍ مِنْ لَا يَسْغَلُهُ عَنْكَ مُنَازِلٌ وَلَا غَيْرُهُ؟ فقال :

(١) الذؤابة : شعر الناصية .

(٢) أى من أجل ، يقال : فعلت ذلك من جزاك أى من أجلك ومما أنشد على هذا :

أَمِنْ جَرٍّ أَسَدُ غَضَبْتُمْ * وَلَوْ شِئْتُمْ لَكَانَ لَكُمْ جَوَارُ

(٣) أى ترامينا بالسهم ، ونضلت : غلبته . (٤) الرشق : رمى أهل الضال ما معهم من السهام

في جهة واحدة .

إلى لَعْمَرِي، فنزل وفعل مثل ما فعله بالأمس، فأرادت أن تعلم، هل لها عنده مثل ما له عندها، فجعلت تُعْرِضُ عن حديثه ساعةً بعد ساعةٍ وتُحَدِّثُ غيره، وقد كان عَلَوٌ بقلبه مثل حبِّها إياه وشغفته وأستلحها، فيينا هي تُحَدِّثُهُ، إذ أقبل فتى من الحى فدعته وسارته سرارا طويلا، ثم قالت له: انصرف، ونظرت إلى وجه المجنون قد تغير وأنتقع لونه وشقَّ عليه فعلها، فأنشأت تقول:

كَلَانَا مُظْهِرٌ لِلنَّاسِ بَغْضًا * وَكُلُّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِينُ

تُبَلِّغُنَا الْعُيُونَ بِمَا أَرَدْنَا * وَفِي الْقَلْبَيْنِ ثُمَّ هَوَى دَفِينُ

فلما سمع البيتين شَقَّ شَهْقَةً شَدِيدَةً وَأَغْمَى عَلَيْهِ، فمكث على ذلك ساعةً، ونَضَحُوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكَّن حبُّ كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كُلُّ مَبْلَغٍ.

وعن أبي الهيثم العقيلي قال: لما شهِرَ أَمْرُ الْمَجْنُونِ وَلِئِي وَتَنَاشَدَ النَّاسُ شَعْرَهُ فِيهَا، خَطَبَهَا وَبَدَّلَ لَهَا خَمْسِينَ نَاقَةً حَمْرَاءَ، وَخَطَبَهَا وَرَدَّ بَنُ مُحَمَّدٍ الْعَقِيلِ وَبَدَّلَ لَهَا عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ وَرَاعِيهَا، فَقَالَ أَهْلُهَا: نَحْنُ نَخَيِّرُهَا بَيْنَكَا، فَمِنْ آخَرَاتٍ تَزَوَّجَتْهُ، وَدَخَلُوا إِلَيْهَا فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ تَخَارِي وَرَدًّا لِنُثْلِلَ بِكَ، فَقَالَ الْمَجْنُونُ:

أَلَا يَا لَيْلَ إِنْ مُلِّكْتَ فِينَا * خِيَارَكَ فَانْظُرِي لِمَنِ الْخِيَارُ

وَلَا تَسْتَبْدِلِي مِنِّي دَنِيًّا * وَلَا بَرًّا إِذَا حُتَّ الْقُتَارُ^(٢)

يَهْرُولُ فِي الصَّغِيرِ إِذَا رَأَاهُ * وَتُعْجِزُهُ مُلَيَّاتُ كِبَارُ

فَنُثْلُ نَائِمٍ مِنْهُ نِكَاحٌ * وَمِثْلُ تَمْوٍ مِنْهُ آفِتْقَارُ

فَاخْتَارَتْ وَرَدًّا فَتَزَوَّجَتْهُ عَلَى كَرِّهِ مِنْهَا.

وقال:

أَيَاوَجْجَ مَنْ أَمْسَى تَحْلُسُ^(٣) عَقْلُهُ * فَأَصْبَحَ مَذْهُوبًا بِهِ كُلِّ مَذْهَبٍ

خَلِيًّا مِنَ الْخِلَالِ إِلَّا مُعْبَدًّا^(٤) * يُضَاكِحُنِي مَنْ كَانَ يَهْوَى تَجَنُّي

(١) البرم: الثقيل. (٢) القنار: ربح اللحم المشوي. (٣) تحلس: سلب. (٤) هو المقصر الذي لا عذر له ولكنه يتكلف العذر، ومنه قوله تعالى: (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم).

هذا سادس الذي هو للمحب
أبو الذي RS

الانسا

إذا ذُكِرْتُ ليلي عَقَلْتُ وراجعتُ * روائعُ عَقْلِي من هَوَى مُتَشَعِّبٍ^(١)
 وقالوا صحیحٌ ما به طيفُ جنّةٍ * ولا لهم إلا بافتراء التَكْذِيبِ
 وشاهدٌ وجدى دمعُ عيني وحُبها * برى اللّٰم عن أحناءٍ عظمى ومنكبي^(٢)
 تجنّبت ليلي أن يَلِجَ بك الهوى * وهياتَ كان الحبُّ قبل التجنّبِ
 ألا إنّما غادرتِ يا أُمّ مالكٍ * صدّى^(٣) أينما تذهب به الريحُ يذهب
 فلم أرَ ليلي بعد مَوْقِفٍ ساعةٍ * بخيفٍ مِنِّي تَرى حمارَ المحصبِ
 ويبدى الحصى منها إذا قذفت به * من البردِ أطرافَ البنانِ المُخَصَّبِ
 فأصبحتُ من ليلي الغداةَ ككاظِرٍ * مع الصبحِ في أعقابِ نجمٍ مُغرَّبِ

قال أبو الفرج : أنشدني الأخفش عن أبي سعيد السُّكْرَى عن محمد بن حبيب

للجنون :

فوالله ثم الله لاني لدائبٌ * أفكر ما ذنبي إليها وأعجبُ
 ووالله ما أدري علامَ قتلتنى * وأى أمورى فيك ياليل أركبُ
 أقطعُ جبل الوصل فالموتُ دونه * أم أشربُ رنقا منكم ليس يشربُ
 أم أهرُبُ حتى لا أرى لى مجاورا * أم أصنعُ ماذا أم أبوج فأغلبُ
 فأيهما ياليل ما ترتضينه * فإنى لمظلومٍ وإنى لمعتبُ

وقال :

عرّضتُ على قلبي العزاء فقال لى * من الآنَ فإياش لا أعزك من صبرِ
 إذا بان من تهوى وأصبح نائياً * فلا شئ أجدى من حلوك في القبرِ

(١) الروائع : جمع رائحة ، أى مرتاعة . (٢) الأحناء : جمع حنو وهو كل شئ فيه أعوجاج كعظم

الحجاج (العظم الذى ينبت عليه الحاجب) واللى والضم . (٣) الصدى : الجسد من الآدمى بعد موته ،

ويطلق على الرجل النعيف الجسد ، كما أنه يطلق على الصوت الذى يسمعه المصوت عقب صياحه راجعا اليه من

نحو الجبل والبناء المرتفع .

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى * فهِيجَ أطراب الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلي غيرها فكأنما * أطار بلي طائرا كان في صدرى
دعا باسم ليلي ضلل الله سعيه * ويلي بأرض عنه نازحة فقر

وقال :

أيا جبلى نعمان بالله خليا * سبيل الصبا يخلص إلى تسميها
أجد بردها أو تسف من حرارة * على كبد لم يبق إلا صميمها^(٢)
فان الصبا ريح إذا ما تنسمت * على نفس محزون تجلت همومها

وقال :

أيا حرجات الحى حيث تتملوا * بذي سلم لا جادكن ربيع^(٤)
وخيأتك اللاتى بمنعرج اللوى * يلين بلى لم تبلهن ربيع^(٥)
ندمت على ما كان منى ندامة * كما يندم المغبون حين يبيع^(٦)
فقدت من نفس شعاع فإنى * نهيتك عن هذا وأنت جميع^(٧)
فقربت لى غير القريب وأشرفت * إليك ثانيا ما لهن طلوع^(٨)

وله :

يا صاحبي الما بى بمزلة * قد مر حين عليها أيما حين
إنى أرى رجعات الحب تقتلنى * وكان فى بدنها ما كان يكفينى^(٩)
لا خير فى الحب ليس فيه قارعة * كأث صاحبها فى نزع موتون

- (١) الأطراب : جمع طرب وهو خفة تعترى الشخص من شدة الفرح أو الحزن . (٢) صميمها : أصلها .
(٣) الحرجات : جمع حرجة وهى الغيضة ، وسميت بذلك لضيقها ، وقيل : الشجر الملتف ، وهى أيضا الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها الآكلة وهى ما رعى من المال . (٤) ذو سلم : موضع بالحجاز .
(٥) يقال : نفس شعاع إذا انتشروا بها فلم تنج لأمر جزم . (٦) الجميع : ضد المتفرق .
(٧) أشرفت : ظهرت وأرتفعت . (٨) الثانيا : جمع ثنية وهى الطريقة فى الجبل ، وقيل : هى العقبة ، وقيل : هى الطريق العالى فيه ، يريد أن الوصول الى لى صعب لا يستطيعه . (٩) الموتون : المضروب على الوتين ، وهو عرق معلق بنياط القلب .

إِنْ قَالَ عُدَّاهُ مَهْلًا فَلَا نَ لَهُمْ * قَالَ الْهُوَى غَيْرُ هَذَا الْقَوْلِ يَعْنِي
أَلْقَى مِنَ الْيَأْسِ تَارَاتٍ فَتَقْتُلُنِي * وَلِلرَّجَاءِ بَشَاشَاتٌ فَتُحْيِينِي

وله :

أُمَسْتَقِيلِي نَفْحُ الصَّبَا ثُمَّ شَائِقِي * بِيَرْدِ شَايَا أُمِّ حَسَّانَ شَائِقِي
كَأَنَّ عَلَى أُنْيَابِهَا الْخَمْرَ شَجَّهَا ^(١) * بِمَاءِ النَّدَى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ عَائِقِي ^(٢)
وَمَا شِمْتُهُ إِلَّا بِعَيْنِي تَفَرُّسًا * كَمَا شِيمَ فِي أَعْلَى السَّحَابَةِ بَارِقُ

وروى الأصمعيّ له قوله :

أَخَذْتُ مُحَاسِنَ كُلِّ مَا * ضَمَنْتُ مُحَاسِنُهُ بِحُسْنِهِ
كَادَ الْغَزَالُ يَكُونُهَا * لَوْلَا الشَّوَى وَشُورُ قَرْنِهِ

قال : وهو القائل :

وَلَمْ أَرِ لَيْلَى بَعْدَ مَوْقِفِ سَاعَةٍ * بِحَيْفٍ مِنِّي تَرِمِي جِمَارَ الْمُخَضَّبِ
وَيُئِدِي الْخَصِي مِنْهَا إِذَا قَذَفَتْ بِهِ * مِنَ الْبُرْدِ أَطْرَافَ الْبَنَانِ الْمُخَضَّبِ
فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةَ كَظَرٍ * مَعَ الصَّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغْرِبٍ
أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ * صَدَى أَيْنَمَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ

وقال :

يَقُولُ أَنَاسٌ عَلَى مَجْنُونٍ عَامِرٍ * يَرُومُ سُؤْلُوا قُلْتُ أَنَّى لِمَا بَيَا
وَقَدْ لَامَنِي فِي حُبِّ لَيْلَى أَقَارِبِي * أَنَحِي وَأَبْنُ عَمِّي وَأَبْنُ خَالِي وَخَالِيَا
يَقُولُونَ لَيْلَى أَهْلُ بَيْتِ عَدَاوَةٍ * بِنَفْسِي لَيْلَى مِنْ عَدُوٍّ وَمَالِيَا ^(٣)
وَلَوْ كَانَ فِي لَيْلَى شَدًّا مِنْ خُصُومَةٍ * لَلَّوَيْتُ أَعْنَاقَ الْمَطِيِّ الْمَلَاوِيَا

(١) شجها : مزجها . (٢) العاتق : البكر التي لم تبن عن أهلها ، والظاهر أنها ليست مرادة

هنا وأن كلمة «عائق» محذوفة عن «عائق» وهو السائق في الغبوق أى العشى .

(٣) الملاوى : جمع ملوى وهو مصدر ميمى من لوى بمعنى خلف .

وقال :

ألا ما ليلى لا ترى عند مضجعي * بليلى ولا يحمرى بذلك طائر
 بلى إن عجم الطير تجرى إذا جرت * بليلى ولكن ليس للطير زاجر
 أزلت عن العهد الذى كان بيننا * بذى الأثل أم قد غيرتها المقادر
 فوالله ما فى القرب لى منك راحة * ولا البعد يسلينى ولا أنا صابر
 ووالله ما أدرى بأية حيلة * وأى مرام أو خطار^(١) أخاطر
 وتالله إن الدهر فى ذات بيننا * على لها فى كل حال لجائر
 فلو كنت إذ أزمعت هجرى تركتني * جميع^(٢) القوى والعقل منى وافر
 ولكن أياي يحفل عذبة^(٣) * وبالرزم أيام جناها التجاور
 وقد أصبح الود الذى كان بيننا * أمانى نفس والمؤمل حائر
 لعمري لقد رقت^(٤) يا أتم مالك * حياتي وساقتي إليك المقادر

وقال :

يا للرجال لهم بات يعرفونى * مستطرف وقديم كان يعنينى
 على غريم مليء غير ذى عدم^(٥) * أبى فيمطلني ديني ويلويني^(٦)
 لا يذكر البعض من ديني فينكره * ولا يحدثني أن سوف يقضيني
 وما كشرى شكر لو يوافقني * ولا منى كمنه إذ يميني

(١) الخطار : مصدر من خاطر بمعنى راهن .

(٢) جميع : مجتمع . (٣) الحقل : المزرعة ويطلق على الموضع البكر الذى لم يزرع فيه قط .
 وعذبة : موضع بين البصرة ومكة . والرزم : موضع على ستة أميال من زبالة ، وزبالة : منزل معروف بطريق
 مكة من الكوفة . (٤) رقت : كدرت ، والترنق كما يطلق على التكدير يطلق على ضده الذى هو التصفية .
 (٥) مليء بالهمز أى ثقة غنى . قال صاحب اللسان : وقد أولع فيه الناس بترك الهمز وتشديد الياء .
 (٦) عدم أى فقر ومثله العدم بضم العين وسكون الدال . قال صاحب اللسان : اذا ضمت أوله خففت فقلت :
 العدم واذا فتحت أوله ثقلت فقلت : العدم . (٧) يلوينى : يطلنى ، يقال : لواه دينه وبدينه : مطله .

أطعته وعصيتُ الناسَ كُلَّهُمْ * في أمره ثم يَأْبَى فهو يَعِصِنِي
خَيْرِي لمن يبتغي خيري ويأمله * من دون شَرِي وشَرِي غير مأْمون
وما أشاركُ في رأيي أبا ضَعِيفٍ * ولا أقولُ أخِي مَنْ لا يُوَاتِنِي^(٢)

وله :

ألا أيها البيتُ الذي لا أزوِّره * وإن حلَّه شخصٌ إلى حبيبٍ
هجرتك إشفاقاً وزرْتُك خائفاً * وفيك على الدهر منك رقيبٌ
سأستعيبُ الأيامَ فيك لعلها * بيومٍ سرورٍ في الزمانِ تؤوبُ

وبلغ المجنون أن أهل ليلي يريدون نقلها إلى الثَّقَفِي فقال :

كَأَتِ القلبَ ليلةً قِيلَ يُغْدَى * بِلَيْلى العامريةِ أو يُرَاحُ
قِطَافٌ عَزَّها شَرَكٌ فَبَاتَتْ * تُجاذِبُهُ وَقَدِ عَلِقَ الجَنَاحُ

فلما نُقِلَتْ ليلي إلى الثَّقَفِي قال :

طربتَ وشاقتك الحُمُولُ الدَوَافِعُ * غَدَاةُ دعا بالبين أسْفَعُ نازِعُ^(٤)
شَحَا فَاهُ نَعْبًا بالفراقِ كَأَنَّهُ * حَرِيبٌ سَلِيبٌ نازِحُ الدارِ جازِعُ^(٧)
فَقُلْتُ ألا قد بينَ الأمرُ فأنصرف * فَقَدِ راعَنَا بالبينِ قَبْلَكَ رَائِعُ^(٨)
سُقِيتَ سُمُوماً من غرابٍ فَإِنِّي * تَبَيَّنْتُ ما خَبَّرْتُ مَذْأَنْتَ واقِعُ

(١) الضعف هكذا بالتحريك : لغة في الضعف بالفتح والسكون . ويستعمل في ضعف الرأي والعقل ،

وأنشد عليه ابن الأعرابي هذا البيت . ويستعمل في ضعف الجسم وأنشد عليه :

ومن يلق خيراً يغمز الدهر عظمه * على ضعف من حاله وقصور

(٢) يواتني : يساعدني .

(٣) الحمول في الأصل : الهوادج واحداً حمل ثم اتسع فيها وصارت تستعمل في الإبل التي عليها الهوادج .

والدوافع : المندفعة في السير . (٤) كذا في أغلب النسخ وتزين الأسواق . وفي ب ، سد :

«أسخ» والأسفع والأسخم معناهما واحد وهو الأسود . والنازع : المسرع . والمراد بالأسفع النازع «الغراب» .

(٥) شحافه يشحوه ويشحاه : فتحه . (٦) نعبا : صياحا وتصويتا . (٧) الحريب : من

سلب حريته وهي ماله الذي يقوم به أمره . (٨) بين بمعنى تين ، ومنه المثل : «قد بين الصبح لذي عينين» .

ألم تَرَ أَنِّي لَا أُحِبُّ أَلْوَمَهُ * وَلَا يَسْدِيلُ بَعْدَهُمُ أَنَا قَانِعُ
 أَلَمْ تَرِ دَارَ الْحَيِّ فِي رَوْنِقِ الضَّحَى * بِحَيْثُ آنَحْتُ لِلْهَضْبَتَيْنِ الْأَجَارِعُ^(١)
 وَقَدْ يَتَنَاءَى الْإِلْفُ مِنْ بَعْدِ أُلْفَةٍ * وَيَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْخَلِيطَيْنِ صَادِعُ^(٢)
 وَكَمْ مِنْ هَوَى أَوْ جِرَةٍ قَدْ أَلْفَتْهُمْ * زَمَانًا فَلَمْ يَنْعَهُمُ الْبَيْنَ مَانِعُ^(٣)
 كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ مَيِّتٌ جَوْبَةٍ * أَخُو ظَمًا سُدَّتْ عَلَيْهِ الْمَشَارِعُ^(٤)
 تَحْلُسُ مِنْ أَوْشَالٍ مَاءٍ صُبَابَةٍ * فَلَا الشَّرْبُ مَبْذُولٌ وَلَا هُوَ نَاقِعُ^(٥)
 وَبَيْضُ تَطَلَّى بِالْعَبِيرِ كَأَنهَا * نِعَاجُ الْمَلَا جِيَّتْ عَلَيْهَا الْبَرَاقِعُ^(٦)
 تَحْمَلْنَ مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ فَأَوْمَضَتْ * لَهْنٌ بِأَطْرَافِ الْعَيُونِ الْمَدَامِعُ^(٧)
 فَمَا رَمَنْ رِبْعِ الدَّارِ حَتَّى تَشَابَهَتْ * هِجَائِنُهَا وَالْجُؤُنُ مِنْهَا الْخَوَاضِعُ^(٨)
 وَحَتَّى حَمَلْنَ الْحَوْرَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَخَاضَتْ سُدُولَ الرَّقْمِ مِنْهَا الْأَكَارِعُ^(٩)

(١) الهضبتان : منى هضبة وهى الزاوية أو الجبل المنبسط على الأرض أو الجبل المخلوق من صخرة واحدة ، والأجارع : جمع أجرع ، والأجرع كالجرعاء : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل أو الرملة السهلة المستوية أو القطعة من الرمل لا تبت شئاً (انظر اللسان فى مادى هضب وجرع) . (٢) الهوى بمعنى المهوى وهو المحبوب ، ومنه قول الشاعر :

هَوَاىَ مَعَ الرِّكَبِ الْيَمَانِينَ مُصْعِدٌ * جَنِيْبٌ وَجُنَانِي بِمَكَّةَ مُوقِفٌ

(٣) الجسوبة : فضاء أملت سهل بين أرضين . (٤) تحلس الشئ : اتبته وأخذته خلسة .
 (٥) الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل . والصباية : بقية الماء تبقى فى الأناة والسقاء . (٦) هو من تقع بمعنى روى . (٧) الملا : الصحراء . (٨) أى قطعت . (٩) هو واد قرب مكة .
 (١٠) معناه ما برحن . يقال : ما رام المكان أى ما برحه . (١١) الهجائن : الإبل البيضاء الكريمة واحدها هجان . والجون : جمع جون بفتح الجيم وهو الأسود المشرب بحمرة ، ويطلق على الأسود اليعنومى وعلى الأبيض فهو من أسماء الأضداد . (١٢) الخواضع : الإبل وإنما يقال لها خواضع لأنها تخضع أعناقها حين يجذ بها السير ، قال جرير :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْمَطَى خَوَاضِعٌ * وَكَأَنَّهُنَّ قَطَاً فَالَاةَ مَجْهَلٌ

(١٣) الحور : جمع حوراء وهى البيضاء أو من فى عينا حور وهو شدة سواد المقلة فى شدة بياضها .
 (١٤) السدول : جمع سدبل وهو ما يجلل به الهودج من الثياب . (١٥) الأكراع : جمع أكرع والأكرع جمع كراع ، أو الأكراع كما يقول سيويه جمع كراع على غير قياس . والكراع من الإنسان : مادون الركبة الى الكعب ، ومن الدابة قواعها مطلقاً .

فلما آستوت تحت الخدور وقد جرى * عَيْرٌ ومِسْكٌ بالعرانين رَادِعٌ^(١)
 أَشَرْنَ بأن حُثُوا الجمال فقد بدا * من الصيف يوم لَأَغُ الحَرَّ مَاتِعٌ^(٢)
 فلما حَقَقْنَا بالجُحُول تَبَاشَرَتْ * بنا مُقْصِرَاتٌ غَابَ عنها المطامِعُ^(٣)
 يُعَرِّضْنَ بالدَّلِّ المَلِيجِ وإن يَرُدُّ * جَنَاهُنَّ مشغوفٌ فهنَّ مَوَانِعُ
 فقلتُ لأصحابي ودمعي مُسْبِلٌ * وقد صَدَعَ الشَّمْلُ المَشْتَتَ صَادِعُ
 أليلى بأبواب الخدور تَعَرَّضْتُ * لِعَيْنِي أم قرُّ من الشمس طالعُ
 وروى أن أبا المجنون حجَّ به ليدعوا الله عزَّ وجلَّ في الموقف أن يُعَافِيَهُ، فسار ومعه ابنُ
 عمه زياد بن كعب بن مُزَاحِمٍ، فترَّ بحمامة تدعو على أَيْكَةٍ فوقف يبكي، فقال له زياد:
 أى شئ هذا؟ ما يُبْكِيكَ أيضا؟ سربنا نلحق الرُّقَّةَ، فقال:

أأن هَتَفْتُ يوما بوادٍ حمَامَةً * بكيت ولم يَعْدِرْكَ بالجهل عَاذِرُ
 دَعَتْ ساقَ حَرٍّ بعد ما عَلَتِ الضُّحَى * فهاج لك الأُحْزَانُ أن نَاحَ طَائِرُ^(٥)
 تُغْنِي الضُّحَى والصُّبْحَ في مُرْجَحَةٍ * كَأَفِ الأَعَالِي تحتها المَاءُ حَائِرُ^(٦)
 كأن لم يكن بالغَيْلِ أو بطنِ أَيْكَةٍ * أو الحَزْجِ من تولِ الأَشَاءِ حَاضِرُ^(٧)^(٨)^(٩)^(١٠)^(١١)

- (١) المراد بالرادع هنا المدروع به الجسد أو الثوب وهو العير والمسك . وأصل الردع الطخ بالطيب والزعفران، يقال : قبض رادع ومدروع أى فيه أثر الطيب والزعفران ، وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما : « لم ينه عن شئ من الأدوية الا عن المزعفرة التى تردع الجلد » أى تنفض صبغها عليه . (٢) الماتع : الطويل . (٣) مقصرات : جمع مقصرة أى داخلة فى القصر وهو العشى ، يقال : أتته قصرا أى عشيا ، وأقصرنا أى دخلنا فى قصر العشى ، كما تقول أمسينا من المساء من أعصرت الجارية اذا بلغت عصر شبابه ، أو من أعصرت أى دخلت فى العصر (انظر لسان العرب مادة قصر) . (٤) تدعو : تصوت وتسبح . (٥) ساق حرّ : أصله صوت القمارى ويطلق على الذكر من القمارى تسمية له باسم صوته وهو المراد هنا (انظر اللسان مادق سوق وخر) . (٦) المرجحة : المهترئة المتأيلة . (٧) حائر : متردد . (٨) الغيل : اسم لعدّة مواضع والظاهر أن المراد هنا واد لبنى جعدة وهم قوم المجنون . (٩) الأيكة : الغيضة الملتفة الأشجار ولم نجد فى الكتب التى بأيدينا « أَيْكَةٍ » ولا « بطن أَيْكَةٍ » اسما لموضع خاص كما هو المناسب للسياق . (١٠) الحزج : منعطف الوادى ولعله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون جزع بنى حجاز وهو واد باليمامة . (١١) الأشامة : موضع باليمامة فيه نخيل . ولعل كلمة « تول » محذوثة عن « تال » والتال : صغار النخل واحدة تالة .

يقول زيادٌ إذ رأى الحىَّ هَجَرُوا^(١) * أرى الحىَّ قد ساروا فهل أنت سائرٌ
وإنى وإن غَالَّ^(٢) التقادُّمُ حاجتى * مُلِمٌّ على أوطانٍ لَيْلَى فَنَاطِرُ

كان المجنونُ ولىّى وهما صبيّانِ يرعيانِ غنًا لأهلّهما عند جبلٍ فى بلادهما يقال له
التوباد، فلما ذهب عقله وتوحش، كان يجرى إلى ذلك الجبل فيقيمُ به، فإذا تذكر أيام
كان يُطيف هو ولىّى به جرع جزعا شديدا وأستوحش فهام على وجهه حتى يأتى نواحي
الشام، فإذا تاب إليه عقله رأى بلدا لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم : أبى أتم، أين
التوباد من أرض بنى عامر ؟ فيقال له : وأين أنت من أرض بنى عامر ! أنت بالشام
عليك بنجم كذا فأَمَّه، فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلادا
يُنكرها وقوما لا يعرفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بنى عامر، فيقولون : وأين أنت من
أرض بنى عامر ! عليك بنجم كذا وكذا، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوباد، فإذا رآه
قال فى ذلك :

وأَجْهَشْتُ^(٤) للتوبادِ حينَ رأيتهُ * وَكَبَّرَ^(٥) للرحمنِ حينَ رَأَيْتِ
وأذريتُ دمعَ العينِ لما عرفتُهُ * ونادى بأعلى صوتِهِ فدعاني
فقلتُ له قد كان حولكَ جيرةٌ * وعهدى بذاك الصَّرمِ منذَ زمانٍ
فقال مَضُوا وأستودعُونى بلادَهُم * وَمَنْ ذا الذى يبقَى على الحدَثانِ
وإنى لأبكى اليومَ من حَذَرى غدا * فِرَاقَكَ^(٦) والحَيَّانِ مُجْتَمِعانِ
سَجَالًا^(٧) وَتَهْتَانًا^(٨) وَوَبَلًا^(٩) وَدِيمَةً^(١٠) * وَسَحًّا^(١١) وَتَسْجَامًا^(١٢) إِلَى هَمَلَانِ^(١٣)

- (١) هجروا : ساروا فى وقت الهجرة . (٢) غال الشيء : ذهب به . (٣) التوباد (بالذال المهملة) وهو الموافق لما فى معجم ما أستعجم للبكرى إذ قال فى ضبطه : هو بفتح أوله وباء معجمة بواحدة وذال مهملة وأنشد عليه : * وأجهشت للتوباد حين رأيته * البيت .
وضبطه ياقوت بالذال المعجمة فقال فى معجمه : « توباد » بالفتح ثم السكون والباء موحدة وآخره ذال معجمة :
جبل بنجد . (٤) أجهشت : تهايت للبكاء . (٥) يقال : هنت السماء تهتن هتنا وتهتانا أى صبت .
(٦) يقال : سجمت السحابة مطرها تسجما وتسجاما إذا صبت . (٧) الهملان : قبض العين بالدموع .

وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صائحا يصيح : يا ليل في ليلة ظلماء أو توهم ذلك ، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوت ؟ فقال : ما سمعت شيئا ، قال : لي ، والله هاتف يهتف بليلى ، ثم أنشأ يقول :

أقول لأدنى صاحبي كُلمة * أسرت من الأقصى أجب ذا المناديا
إذا سرت في الأرض الفضاء رأيتني * أصانع رحي أن يميل حياليا
يمينا إذا كانت يمينا وإن تكن * شمالا يئازعني الهوى عن شماليا

خطب ليلي صاحبة المجنون جماعة من قومها فكبرتهم ، فخطبها رجل من ثقيف مؤسر فرضيته ، وكان جميلا فتزوجها وخرج بها ، فقال المجنون في ذلك :

ألا إن ليلى كالنبيحة أصبحت * تقطع إلا من ثقيف حياها
فقد حبسوها محبس البدن وأبتنى * بها الریح أقوام تساحت ماله^(٣)
خليلى هل من حيلة تعلمانها * يدنى لنا تكليم ليلى احتياها
فإن أتما لم تعلمانها فلستما * بأول باغ حاجة لا ينالها
كأت مع الركب الذين أغتدوا بها * غمامة صيف زعزعتها شمالها
نظرت بمفضى سيل جوشن إذ غدوا * تحب بأطراف المخارم^(٥) ألهما
بشافية الأحزان هيج شوقها * مجامعة الألف ثم زياها
إذا التفتت من خلفها وهى تعلى * بها العيس جلى عبرة العين حالها

(١) الرجل : ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به عن البعير .

(٢) النتيجة فى الأصل : الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلا يشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع اللبن ، ثم كثر استعمالها فى كل موهوب . (٣) يقال أصحت ماله : استأصله وأفسده ، ومال مسحوت ومسحت أى مذهب . وأصحت تجارته : خبثت وحرمت ، ولم نجد فى كتب اللغة « تساحت » على وزن تفاعل من هذه المادة

(٤) لم نجد فى بلاد العرب ما يسمى جوشن الا جبلا فى غربى حلب . (٥) المخارم (بالراء المهملة) :

جمع مخرم وهو الطريق فى الجبل أو الرمل .

وله :

وَأَحْيَيْسُ عَنْكَ النَّفْسَ وَالنَّفْسُ صَبَّةٌ * بِذِكْرِكَ وَالْمَشَى إِلَيْكَ قَرِيبُ
 خَافَةَ أَنْ تَسْعَى الْوُشَاةُ بِظَنَّةٍ * وَأَحْرُسُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيبَ مُرِيبُ
 فَقَدْ جَعَلْتَ نَفْسِي - وَأَنْتِ أَجْتَرِمْتِهِ * وَكَذَلِكَ أَغَرَّ النَّاسَ - عَنْكَ تَطْيِيبُ
 فَلَوْ شِئْتَ لَمْ أَغْضَبْ عَلَيْكَ وَلَمْ يَزَلْ * لَكَ الدَّهْرُ مَنَى مَا حَيْثُ نَصِيبُ
 أَمَّا وَالَّذِي يَبْلُو السَّرَائِرَ كُلَّهَا * وَيَعْلَمُ مَا تُبْدِي بِهِ وَتَغِيبُ
 لَقَدْ كُنْتُ مِنْ تَصْطَفِي النَّفْسُ خُلَّةً * لَهَا دُونَ خُلَانِ الصَّفَاءِ مُحُجُّوبُ

٢ - قيس بن ذريح^(١)

من شعر قيس :

يَقُولُونَ لُبِّي فِتْنَةٌ كُنْتُ قَبْلَهَا * بِخَيْرٍ فَلَا تَنْدَمَ عَلَيْهَا وَطَلَّقِي
 فِطَاوَعْتُ أَعْدَائِي وَعَاصَيْتُ نَاصِحِي * وَأَقْرَرْتُ عَيْنَ الشَّامِتِ الْمُتَخَلِّقِ
 وَدِدْتُ وَبَيْتَ اللَّهِ أَنِّي عَصَيْتُهُمْ * وَحُمِلْتُ فِي رِضْوَانِهَا كُلِّ مُوَبِقِ
 وَكُلَّفْتُ خَوْضَ الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ زَانِرٌ * أَيْدِي عَلَى أَثْبَاجِ مَوْجٍ مَغْرَقِ

(١) هو قيس بن ذريح الكنانى من ليث بن بكر كان منزله قومه بظواهر المدينة . مر بعض حاجته بخيام بنى كعب بن خزاعة فرأى لبى بنت الحباب الكعبية ، وكانت فتاة جميلة ، فعلقها ، فطلبها من أبيه فنفه إياها لمكانه من الثروة ، وكان يريد أن يزوجه من بنات عمومته حتى يحفظ تراثه في أهله ، فطار لب قيس وتقسمت نفسه وذهب ، فاستشفع بأخيه من الرضاع ، الحسين بن على ، فوجد ما أحب وتروجها ومكثا زمنا ولم يعقبا ، وشغل قيسا حب لبى عن مواساة أمه فاضطجعت على زوجها وسعت بها عند أبيه متخذة عدم الولد سلبا ترقى به إلى شرها ، فطلب إليه أبوه أن يطلقها فأبى ، فما زال به بالوعد والوعيد حتى أجابه إلى طلبته ، وكان في ذلك القضاء الأخير على ما لقيس من حفظ وعقل في هذه الحياة ولم ينتفع بزوجها غيرها ، وطارت نفسه شعاعا وذهب على وجهه يتنسم أخبار لبى ويمرغ خده في آثارها ، وبقى طول حياته يساقط من نفسه على شعره غير عابئ بشقاء بذنه وإهدار دمه حتى لفظ النفس الأخير . وأخبار قيس كثيرة في الأغاني (ج ٨ ص ١١٢) والشعر والشعراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح ، ومنه نسخة في مكتبة الاسكوريال وغيرها في برلين .

كأنى أرى الناس المحبين بعدها * عصارة ماء الحنظل المتفلق
فتنكر عيني بعدها كل منظر * ويكره سمعى بعدها كل منطوق

ونخرج قيس في فتية من قومه واعتل على أبيه بالصيد ، فأتى بلاد لبني ، فجعل يتوقع
أن يراها أو يرى من يرسل إليها ، فأشتغل الفتیان بالصيد ، فلما قَضَوْا وطَرَهُم منه رجعوا إليه
وهو واقف ، فقالوا له : قد عَرَفْنَا ما أردت بإخراجنا معك وأنت لم تُرد الصيد وإنما أردت
لقاء لبني وقد تعدد عليك ، فانصرف الآن ؛ فقال :

وما حائمتُ حُمنَ يوماً وليلة * على الماء يغشَيْن العِصَى حَوَانِي
عَوَاقِي لا يصْدُرْنَ عنه لوجهة * ولا هنّ من برد الحياض دَوَانِي
يرين حباب الماء والموتُ دونه * فهن لأصوات السقا رَوَانِي
بأجهد منى حر شوق ولوعة * عليك ولكن العدو عداني
خليلى إني ميتٌ أو مكلّم * لبيني بسرى فأمضيا وذَرَانِي
أنل حاجتي وحدى ويارب حاجة * قضيتُ على هولٍ وخوفِ جَنَانِي
فإني أحق الناس ألا تُحَاوِرَا * وتطرحا من لو يشاء شفاني
ومن قادنى للوت حتى إذا صفت * مشاربه السمّ الذعاف سقاني
فأقاموا معه حتى لقيها .

لما أُلحَ ذريح على ابنه قيس في طلاق لبني فأبى ذلك قيس ، طَرَحَ ذريح نفسه
في الرَّمضاء وقال : لا والله لا أريُّ هذا الموضع حتى أموت أو يُحْلِيَهَا ، فجاءه قومه من كل
ناحية فعظّموا عليه الأمر وذكّروه بالله وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأمك ! إن مات شيخك
على هذه الحال كنت مُعِينَا عليه وشريكاً في قتله ، ففارق لبني على رغم أنه وقلة صبره
وبكاء منه حتى بكى لهما من حضرمها ؛ وأنشأ يقول :

أقول خلّيتي في غير حُرْم * ألا لبني ، بنفسى أنت ، لبني
فوالله العظيم لَنَزَعُ نفسى * وقطعُ الرجل منى واليمين

أحبُّ إلىَّ يا بُنَيَّ فِرَاقًا * فَبَكَى لِلْفِرَاقِ وَأَسْعَدَنِي
ظَلْمَتِكَ بِالطَّلَاقِ بغيرِ جُرْمٍ * فَقَدْ أَذْهَبَتْ آخِرَتِي وَدِينِي

قال : فلما سمعت بذلك لبني بكت بكاء شديداً ، وأنشأت تقول :

رَحَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ بِلَدِي وَأَهْلِي * بَخَازَانِي جِزَاءَ الْخَائِنِينَ
فَمَنْ رَأَى فَلَا يَغْتَرَّ بَعْدِي * بِجُلُودِ الْقَوْلِ أَوْ يَبْلُغُوا الدَّفِينَا

فلما آنقضت عِدَّتَهَا وأرادت الشخوصَ إلى أهلها أُتِيَتْ بِرَاحِلَةٍ لَتُحْمَلَ عَلَيْهَا ، فلما رأى ذلك قيسٌ داخله أمرٌ عظيمٌ واشتدَّ لهفه ، وأنشأ يقول :

بِأَنْتِ لَبِنِي فَأَنْتِ الْيَوْمَ مَبْغُولٌ * وَإِنَّكَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْحَزْمِ مَخْبُولٌ
فَأَصْبَحْتُ عَنْكَ لَبِنِي الْيَوْمَ نَازِحَةً * وَدَلَّ لَبِنِي - لَهَا الْخِيَرَاتُ - مَعْسُولٌ
هَلْ تَرِجِعُنَّ نَوَى لَبِنِي بِعَاقِبَةٍ * كَمَا عَهَدْتُ لِيَلَى الْعَشْقِ مَقْبُولٌ
وَقَدْ أَرَانِي بِلَبْنِي حَقٌّ مُقْتَنِعٌ * وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ وَالْجُلُ مَوْصُولٌ
فَصَرْتُ مِنْ حَبِّ لَبْنِي حِينَ أَذْكَرُهَا * الْقَلْبُ مَرَّتَيْنِ وَالْعَقْلُ مَدْخُولٌ
أَصْبَحْتُ مِنْ حَبِّ لَبْنِي بَلْ تَذْكَرُهَا * فِي كُرْيَةٍ فَفَوَّادِي الْيَوْمِ مَشْغُولٌ
وَالْجَسْمُ مَنَى مِنْهُوْكَ لِفِرْقَتِهَا * يَبْرِيهِ طَوَّلُ سَقَامٍ فَهُوَ مَنْحُولٌ
كَأَنِّي يَوْمَ وَلَّيْتُ مَا تَكَلَّمَنِي * أَخُو هَيَّامٍ مُصَابُ الْقَلْبِ مَسْلُولٌ
أَسْتَدْعِ اللَّهَ لَبْنِي إِذَا تَفَارَقَنِي * عَنْ غَيْرِ طَوِيعٍ وَأَمْرٍ الشَّيْخِ مَفْعُولٌ

ثم آرتحلت لبني ، بفعل قيس يقبل موضع رجلها من الأرض وحول خيائها ، فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعدل واللوم ، فقال ذريح لما رأى حاله تلك : قد جئيتُ عليك يا بُنَيَّ ، فقال له قيس : قد كنتُ أخبرك أني مجنون بها فلم ترَضَ إلا بقتلي ، فالله حسبك وحسبُ أُمِّي . وأقبل قومه يعدُّلونه في تقبيل التراب ، فأنشأ يقول :

فَا حُبِّي لِطِيبِ تَرَابِ أَرْضٍ * وَلَكِنْ حَبِّ مِنْ وَطْئِ التُّرَابِ
فَهَذَا فَعَلَ شَيْخَيْنَا جَمِيعًا * أَرَادَا لِي الْبَلِيَّةَ وَالْعَذَابَا

وله قصيدة طويلة في تطليقه لبني يقول فيها :

(١) فَوَاكِدِي وَعَاوِدِي رُدَايَ * وَكَانَ رَأْفُ لُبْنَى كَالْجَدَاغِ (٢)
تَكْتَفِنِي الْوُشَاةُ فَأَزْجُونِي * فَيَا لَلَّهِ لِلْوَأَشَى الْمَطَاعِ
فَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ أَلُومُ نَفْسِي * عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسَ بِمُسْتَطَاعِ
كَمَنْبُورٍ يَعْضُ عَلَى يَدَيْهِ * تَتَيْنَ غَبْنَهُ بَعْدَ الْيَبَاعِ
بِدَارِ مَضِيعَةٍ تَرَكَّكَ لُبْنَى * كَذَلِكَ الْحَيْنُ يُهْدَى لِلضَّاعِ
وَقَدْ عَشَسْنَا نَلْدَ الْعَيْشِ حِينًا * لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ لِلْإِنْسَانِ وَاعِي
وَلَكِنَّ الْجَمِيعَ إِلَى آفَرَاقٍ * وَأَسْبَابِ الْخُتُوفِ لَهَا دَوَاعِي

واجتمع إليه نسوة فأطْلَنَ الجلوسَ عنده وحادثته وهو ساهٍ عنهنَّ، ثم نادى : يا لبني،
فقلن له : مالك ويحك ؟ فقال : خَدِرْتُ رَجُلِي « ويقال : إن دعاء الانسان باسم أحبَّ
الناس إليه يُذهب خَدَرَ الرجل ، فناديتها لذلك . وقال :

إِذَا خَدِرْتُ رَجُلِي تَذَكَّرْتُ مِنْهَا * فَنَادَيْتُ لُبْنَى بِأَسْمِهَا وَدَعَوْتُ
دَعَوْتُ الَّتِي لَوْ أَنَّ نَفْسِي تُطِيعُنِي * لِفَارِقَتِهَا مِنْ حَبِّهَا وَقَضَيْتُ
بَرَّتْ نَبْلَهَا لِلصَّيْدِ لُبْنَى وَرَيْثُ * وَرَيْثُ أُخْرَى مِثْلَهَا وَبَرِيْتُ
فَلَمَّا رَمَتْنِي أَقْصَدْتَنِي بِسَهْمِهَا * وَأَخْطَأْتُهَا بِالسَّهْمِ حِينَ رَمَيْتُ
وَفَارَقْتُ لُبْنَى ضَلَّةً فَكَأَنِّي * قَرُبْتُ إِلَى الْعَيُوقِ ثُمَّ هَوَيْتُ (٣)
فِيَالَيْتَ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ فِرَاقِهَا * وَهَلْ تَرْجِعُنْ فَوْتَ الْقَضِيَّةِ لَيْتُ
فَصَرْتُ وَشِخْيَ كَالَّذِي عَثَرْتُ بِهِ * غَدَاةَ الْوَعَى بَيْنَ الْعُدَاةِ كُئِيتُ
فَقَامْتُ وَلَمْ تَضُرْهُنَّ إِلَّا سَوِيَّةً * وَفَارَسُهَا تَحْتَ السَّنَابِكِ مَيْتُ
فَأَنْ يَكْ تَهْيَأُنِي بُلْبُنَى غَوَايَةً * فَقَدْ يَا ذَرِيحُ بَنَ الْحَبَابِ غَوَيْتُ

(١) الرِّدَاعُ : التَّكْسُ ، وهو رجوع المرض . (٢) الجَدَاغُ : الموت . (٣) هو نجم أحرمضي

في طرف الهجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها .

فلا أنت ما أملت في رأيته * ولا أنا لبني والحياة حويت
 فوطن لهلكي منك نفساً فإنني * كأنك بي قد يا ذريح قضيت
 ومرض قيس، فسأل أبوه فتيات الحى أن يعدنه ويحدثه أو يعلق بعضهن، ففعلن
 ذلك، ودخل اليه طبيب ليداويه والفتيات معه، فلما اجتمعن عنده جعل يحادثه وأطعن
 السؤال عن سبب علته، فقال :

تعلق رُوحى روحها قبل خلقنا * ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهد
 فزاد كما زدنا فأصبح نامياً * وليس اذا متنا بمنصرم العهد
 ولكنه باق على كل حادث * وزائرنا في ظلمة القبر والحد
 فقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوى والمعائب ،
 فان النفس تنبو حينئذ وتسلو ويخف ما بها .

فلما طال على قيس ما به أشار قومته على أبيه بأن يزوجه امرأة جميلة فلعله يسلوبها
 عن لبني ، فدعاه الى ذلك فأباه وقال :

لقد خفت ألا تقنع النفس بعدها * بشيء من الدنيا وإن كان مقنعاً
 وأزجر عنها النفس اذ حيل دونها * وتأبى اليها النفس إلا تطلعا
 ولما تزوجت لبني بأخرأتى موضع خباها فتزل عن راحته وجعل يتمك موضعها^(١)
 ويتمرغ خده على ترابها ويبكى آخر بكاء ثم قال :

الى الله أشكو فقد لبني كما شكا * الى الله فقد الوالدين يتيم
 يتيم جفاه الأقربون بجسمه * نحيل وعهد الوالدين قديم
 بكت دارهم من نايهم قتهلت * دموعى فأى الجازعين ألوم
 أمستعبريكي من الشوق والهوى * أم أحرى بكي شجوه ويهم
 تبيضني من حب لبني علائق * وأصناف حب هولهن عظيم

(١) يتمك : يتمرغ في التراب .

ومن يتعلّق حبّ بُنَى فؤادَه * يمتّ أو يعشّ ما عاش وهو كليمٌ
فإني وإن أجمعتُ عنك تجلداً * على العهد فيما بيننا لمقيمٌ
وإن زمانا شئتَ الشملَ بيننا * وبينكم فيه العدا لمشومٌ
أفي الحقّ هذا أنّ قلبك فارغٌ * صحيحٌ وقلبي في هوالِك سقيمٌ

وقال في رحيل بُنَى عن وطنها وانتقالها الى زوجها بالمدينة وهو مقيم في حياها :
بانت بُنَى فهاج القلب من بانا * وكان ما وعدتُ مطلاً وليّانا^(١)
وأخلفتك مني قد كنتُ تأملُها * فأصبح القلبُ بعد البين حيرانا
الله يدرى وما يدرى به أحدٌ * ماذا أجمِج من ذكراك أحياناً
يا أكل الناس من قرنٍ الى قدمٍ * وأحسن الناس ذا ثوب وعُرّيانا
نعم الضجيع بعيد النوم تجلبسه * اليك ممتكلاً نوماً ويقظاناً
لا بارك الله فيمن كان يحسبكم * إلا على العهد حتى كان ما كانا
حتى استفتقت أخيراً بعد ما نكحتُ * فبت للشوق أذرى الدمع تهناتنا
إن تصرى الحبل أو تمسى مفارقةً * فالدهر يُحدث للإنسان ألواناً
وما أرى مثلكم في الناس من بشيرٍ * فقد رأيتُ به حياً ونسواناً

وشكا أبو لبني لمعاوية تعرّض قيس لأبنته بعد طلاقها، فكتب معاوية الى الأمير
يهدر دمه إن ألم بها، وأن يشتد في ذلك؛ فكتب مروان في ذلك الى صاحب الماء الذي
ينزله أبو لبني كتاباً وكيداً، ووجهت لبني رسولا الى قيس تُعلمه ما جرى وتحدّره؛ وبلغ أباه
الخبر، فعاتبه وتجهّمه، وقال له : انتهى بك الأمر الى أن يهدر السلطان دمك؛ فقال :
فان يجبوها أو يحلّ دون وصلها * مقالةً وإش أو وعيدُ أميرٍ
فلن يمنعوا عيني من دائم البكا * ولن يذهبوا ما قد أجزت ضميري
الى الله أشكو ما ألاقى من الهوى * ومن حرق تعادني وزفير

(١) اللّيان : اللّي والمطل، قال أبو الهيثم : لم يحنّ من المصادر على فلان إلا لّيان .

ومن حرقٍ للحبِّ في باطن الحشى * وليس طویل الحزن غير قصير
 سابكى على نفسى بعين غزيرة * بكاء حزين في الوثاق أسير
 وكنا جميعاً قبل أن يظهر الهوى * بأنعم حالى غبطة وسرور
 فما يرح الواشون حتى بدت لهم * بطون الهوى مقلوبةً لظهور
 لقد كنت حسب النفس لودام وصلنا * ولكنا الدنيا متاع غرور
 وقال في إهدار معاوية دمه إن هو زارها :

إن تك لبني قد أتى دون قربها * حجاب منيع ما إليه سيل
 فإن نسيم الجو يجمع بيننا * ونبصر قرن الشمس حين تزول
 وأرواحنا بالليل في الحى تلتقى * ونعلم أياً بالنهار تقيـل
 وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا * سماء نرى فيها النجوم تجول
 الى أن يعود الدهر سائماً وتنقضى * تراث بغايا عندنا وذحول^(١)

ولما أنصرف الناس من الحج مرض قيس مرضاً شديداً فلم يأته رسولها عائداً، فقال :

ألبنى لقد حلت عليك مصيبتى * غداة غد إذ حل ما أتوقع
 ثمّني نيلاً وتلويني قلى * فنفسى شوقاً كل يوم تقطع
 وقلبك قط لا يلين لما يرى * فوا كيدى قد طال هذا التضرع
 ألومك في شأني وأنت ملزمة * لعمرى وأجنى للحب وأقطع
 أخبرت أنى فيك ميت حسرتى * فما فاض من عينيك للوجد مدمع
 ولكن لعمرى قد بكيتك جاهدا * وإن كان دائى كله منك أجمع
 صبيحة جاء العائدات يعدننى * فظلت على العائدات تفجع
 فقائلة جئنا إليه وقد قضى * وقائلة لا بل تركاه ينزع
 فما غشيت عينيك من ذاك عبرة * وعيني على ما بى بذكراك تدمع
 اذا أنت لم تبكى على جنازة * لديك فلا تبكى غدا حين أرفع

(١) ذحول : جمع ذحل وهو النار .

ومن شعره قوله :

أتبكي على بُني وأنت تركتها * وكنت عليها بالملأ أنت أقدرُ
فإن تكن الدنيا بُلْبُنِي تَقَلَّبْتُ * على فللدنيا بطونٌ وأظهرُ
لقد كان فيها للأمانة موضعُ * وللکف مرئادٌ وللعين منظرُ
وللحائم العطشانِ رِيٌّ بريقها * وللريح المختالِ نِجْمٌ ومُسْكُرُ
كأنِّي لها أرجوحةٌ بين أحيل * إذا ذُكِرَتْ منها على القلبِ تَحْطُرُ

وقوله :

لقد عَذَّبْتَنِي يا حَبَّ لَبْنِي * ففَعَّ إِمَّا بِمَوْتِ أَوْ حَيَاةٍ
فإنَّ المَوْتَ أَرْوَحُ من حَيَاةٍ * تدوم على التباعِدِ والسَّتَاتِ
وقال الأقربون تَعَزَّ عنها * فقلتُ لهم إذا حانت وفاتي

وقالت له لبني : أنشدني ما قلت في علتك ، فأنشدها قوله :

أعالج من نفسي بقايا حُشاشَةٍ * على رَمَقٍ والعائِذاتُ تَعُودُ
فإن ذِكْرْتُ لَبْنِي هَشَشْتُ لَذِكْرُهَا * كما هَشَّ لِلشَّدى الدَّرُورُ وليدُ
أُجِيبْ لَبْنِي من دعائي تجلِّداً * وبِي زَفَرَاتُ نَجْلِ وتعود
تُعِيدُ إلى رُوحِي الحَيَاةَ وإِنِّي * بنفسي لو عاينتني لأجود

وفيها يقول :

ألا ليت أياماً مَضِينِ تَعُودُ * فإن عُدْنَ يوماً إِنِّي لسعيدُ
سقى دارَ لَبْنِي حيث حَلَّتْ وَخِيَمَتْ * من الأرض مَهَلُ الغمامِ رعيدُ
على كل حالٍ إن دنتُ أو تباعدتُ * فإن تدنُ مني فالدنو مَزِيدُ
فلا اليأسُ يُسَلِّني ولا القربُ نافعِي * ولَبْنِي مَنُوعٌ ما تكاد تجودُ
كأنِّي من لَبْنِي سَلِيمٌ مَسْهُدٌ * يظلُّ على أَيْدِي الرجالِ يَمِيدُ
رمتني لَبْنِي في الفؤادِ بِسَهْمِهَا * وسهم لَبْنِي للفؤادِ صَيُودُ

سلا كل ذي شجوة علمت مكانه * وقلبي للبني ما حييت ودود
وقائلة قد مات أو هو ميت * وللنفس مني أن تفيض رصيد

وعاتبته على تزوجه، خلف أنه لم ينظر إليها ملء عينه، ثم قال :

ولقد أردت الصبر عنك فعاقني * علق بقلبي من هواك قديم
ينقى على حدّ الزمان ورّيته * وعلى جفائك إنه لكريم
فصرمته وصححت وهو بدائه * شتان بين مصحح وسقيم
وأرّيته زمناً فعاد بجلمه * إن المحبّ عن الحبيب حليم

فلم يزل معها يحدّثها ويشكو إليها حتى أمسى، فانصرفت ووعدته الرجوع إليه من غد

فلم ترجع، وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولا، فكتب هذين البيتين :

بنفسي من قلبي له الدهر ذاكر * ومن هو عني معرض القلب صابر
ومن حبه يزداد عندي جدّة * وحبي لديه مخلق العهد دائر

وقال ابن أبي عتيق لقيس يوما : أنشدني أحرا ما قلت في لبني، فأنشده :

ولائي لأهوى النوم في غير حينه * لعل لقاء في المنام يكون
تحدّثني الأحلام أنّي أراكم * فياليت أحلام المنام يقين
شهدت باني لم أحل عن مودة * وأني بكم لو تعلمين ضنين
وأن فؤادي لا يلين إلى هوى * سواك وإن قالوا بلى سيلين

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدت أبا السائب المخزومي قول قيس :

أحبك أصنافاً من الحب لم أجد * لها مثلاً في سائر الناس يوصف
فمنهن حب للحبيب ورحمة * بمعرفتي منه بما يتكلف
ومنهن ألا يعرض الدهر ذكرها * على القاب إلا كادت النفس تتلف
وحب بدا بالجسم واللون ظاهر * وحب لدى نفسي من الروح أطف

(١) وقصيدة قيس العينية من جيد شعره وهى :

عَفَا سَرَفٌ مِنْ أَهْلِهِ فَسْرَاوِعُ * جَنَّبَا أَرِيكَ فَالتَّلَاعُ الدَّوَافِعُ^(٢)
 فَنَقِيَّةٌ فَالْأَخْيَافُ أَخْيَافُ طَيِّبَةٍ * بِهَا مِنْ لَبْنِي مَخْرَفٌ وَمَرَابِعُ^(٣)
 لَعَلَّ لُبْنِي أَنْ يُجَمَّ لِقَاؤُهَا * بَبْعُ الْبِلَادِ إِنْ مَا حَمَّ وَقَعُ^(٤)
 يَجْزِعُ مِنَ الْوَادِي خَلَاءَ أَنْيُسِهِ * عَفَا وَتَحَطَّتْ الْعَيُونُ الْخَوَادِعُ^(٥)
 وَلَمَّا بَدَا مِنْهَا الْفِرَاقُ كَمَا بَدَا * بَطَّحَ الصِّفَا الصَّلْدَ الشَّقِيقُ الشَّوَائِعُ^(٦)
 تَمَنَيْتَ أَنْ تَلْقَى لَبْنِيكَ ، وَالْمُنَى * تُعَاصِيكَ أحيانًا وَحِينًا تُطَاوِعُ
 وَمَا مِنْ حَبِيبٍ وَامِقٍ لِحَبِيبِهِ * وَلَا ذِي هَوًى إِلَّا لَهُ الدَّهْرُ فَاجِعُ
 وَطَارَ غَرَابُ الْبَيْنِ وَأَنْشَقَّتِ الْعَصَا^(٧) * بَيِّنَ كَمَا شَقَّ الْأَدِيمَ الصَّوَانُ
 أَلَا يَا غَرَابَ الْبَيْنِ قَدْ طَرَتَ بِالذَى * أَحَازِرُ مِنْ لَبْنِي فَهَلْ أَنْتَ وَقَعُ
 وَإِنَّكَ لَوْ أَبْلَغْتَهَا قَيْلَكَ اسْلَمَى * طَوْتُ حَرَّتًا وَأَرْفَضَ مِنْهَا الْمَدَامُ^(٨)
 أَتَبْكِي عَلَى لَبْنِي وَأَنْتِ تَرْكُتَهَا * وَكُنْتَ كَاتٍ غَيْبِهِ وَهُوَ طَائِعُ
 فَلَا تَبْكِينَ فِي إِثْرِي نَدَامَةً * إِذَا نَزَعْتَهُ مِنْ يَدَيْكَ النَّوَاذِعُ
 فَلَيْسَ لِأَمْرِ حَاوِلِ اللَّهِ جَمْعَهُ * مُشِتٌ وَلَا مَا فَتَرَكَ اللَّهُ جَامِعُ^(٩)
 كَأَنَّكَ لَمْ تَغْنَهُ إِذَا لَمْ تُلَاقِهَا * وَإِنْ تَلَقَّهَا فَالْقَلْبُ رَاضٍ وَقَانِعُ

- (١) وردت هذه القصيدة برمتها في كتاب الأملاني لأبي على القالى (ج ٢ ص ٣١٤ - ٣١٨ طبعة دار الكتب المصرية) .
 (٢) سرف وسراوع وأريك : مواضع . والتلاع واحدها تلة وهى مسيل ما ارتفع من الأرض الى بطن الوادى . والدوافع : جمع دافعة وهى التى تدفع الماء .
 (٣) أخفاف : موضع . والمخرف : المنزل الذى يقام فيه فى الخريف . والمرابع : جمع مربع وهو الموضع الذى يقام فيه فى الربيع .
 (٤) حم : قدر . (٥) جزع الوادى : منعطفه . وعفا : درس . والخوادم واحدها خادعة وهى التى لا تنام ، يقال : خدعت عينه تخدع إذا لم تنم ، وأتيناهم بعد ما خدعت العين .
 (٦) الصفا : الصخر . والصلد : الصلب الذى إذا أصابه شئ صلد أى صوّت . والشوائع : جمع شائعة وهى الظاهرة .
 (٧) أى تفرقت الجماعة . (٨) ارفض : سال ولا يكون إلا سيالا مع تفرق .
 (٩) مشت : مفروق .

فيا قلبُ خبَرَنِي، اذا شَطَطَ النوى ^(١) * بُنِي وَصَدْتَ عَنْكَ، ما أنت صانع
 أتصبر للبين المشت مع الجوى * أم أنت أمرؤ ناسي الحياء بفازع
 فما أنا إن بانت لبني بهاجع * اذا ما استقلت بالتيام المضاجع
 وكيف ينام المرء مستشعر الجوى * ضجيج الأسى فيه نكاس روادع ^(٢)
 فلا خير في الدنيا اذا لم تواتنا * لبني ولم يجمع لنا الشمل جامع
 أليست لبني تحت سقيف يكتها * وإياي هذا إن نأت لي نافع
 ويلبسنا الليل البهيم اذا دجا ^(٣) * ونبصر ضوء الصبح والفجر ساطع
 تطأ تحت رجليها بساطا وبعضه ^(٤) * أطاه برجلي ليس يطويه مانع
 وأفرح إن تمسى بخير وإن يكن * بها الحدت العادي ترعى الروائع ^(٥)
 كأنك بدع لم تر الناس قبلها * ولم يطالعك الدهر فيمن يطالع
 فقد كنت أبكى والنوى مطمئنة * بنا وبكم من علم ما بين صانع
 وأهجر كم هجر البغيض وحبكم * على كبدى منه كلوم صوادع
 وأعجل للإشفاق حتى يسقني * مخافة شحط الدار والشمل جامع
 وأعيد للأرض التي من ورائكم * ليرجعني يوما عليك الروائع
 فيا قلب صبرا واعترافا لما ترى ^(٦) * وياحبها قع بالذي أنت واقع
 لعمري لمن أمسى وأنت ضجيعه * من الناس ما اختيرت عليه المضاجع
 ألا تلك لبني قد ترأخى مزارها * وللبين غم ما يزال ينازع
 اذا لم يكن إلا الجوى فكفى به * جوى حرق قد ضمنت الأضالع
 أبائنة لبني ولم تقطع المدى * بوصلي ولا صريم فيأس طامع

(١) شطت : بعدت . (٢) المستشعر : الذي لبس الشعار وهو الثوب الذي يلي الجسد . والجوى :
 الهوى الباطن . والأسى : الحزن . ونكاس : جمع نكس بالضم . وروادع : جمع رادعة وهي التي تردعه عن الحركة
 والتصرف . (٣) دجا : ألبس بظلمته كل شيء . (٤) البساط : ما بسط من الفرش .
 (٥) ترعى : تفزعني . (٦) اعترف : ذل وانقاد .

يَظْلُ نَهَارَ الْوَالِهَيْنِ نَهَارُهُ * وَتَهْدُهُ^(١) فِي النَّائِمِينَ الْمُضَاجِعُ
 سِوَايَ فَلِيلٍ مِنْ نَهَارِي وَإِنَّمَا * تَقْسَمُ بَيْنَ الْهَالِكِينَ الْمَصَارِعُ
 وَلَوْلَا رَجَاءُ الْقَلْبِ أَنْ تَعْطِفَ النَّوَى * لَمَا حَمَلْتَهُ بَيْنَهُنَّ الْأَصَابِعُ
 لَهُ وَجَبَاتٌ^(٢) إِثْرُ لُبِّي كَأَنَّهَا * شَقَائِقُ بَرَقَ فِي السَّحَابِ لَوَامِعُ
 نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا دَجَا * لِيَ اللَّيْلِ هَزَّتْنِي إِلَيْكَ الْمُضَاجِعُ
 أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمَنَى * وَيَجْعَلُنِي بِاللَّيْلِ وَالْهَمِّ جَامِعُ
 وَقَدْ نَشَأْتُ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَوْدَةً * كَمَا نَشَأْتُ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
 أَبِي اللَّهِ أَنْ يَلْقَى الرَّشَادَ مَتِّمٌ * أَلَّا كُلُّ أَمْرٍ حُمٌّ لَا بَدَّ وَاقِعُ
 هُمَا بَرَحَا بِي مُعْوَلَيْنِ كَلَامَهُمَا * فَوَادَّ وَعَيْنٌ مَاقَهَا الدَّهْرُ دَامِعُ^(٣)
 إِذَا نَحْنُ أَنْفَدْنَا الْبَكَاءَ عَشِيَّةً * فَمَوْعِدُنَا قَرْنٌ مِنَ الشَّمْسِ طَالِعُ^(٤)
 وَلِلْجِبِّ آيَاتٌ تَبَيَّنُ بِالْفَتَى * شُحُوبٌ وَتَعَرَّى مِنْ يَدَيْهِ الْأَشْجَاعُ
 وَمَا كُلُّ مَا مَتَّكَ نَفْسُكَ خَالِيًا * تَلَاقَى وَلَا كُلُّ الْهَوَى أَنْتَ تَابِعُ^(٥)
 تَدَاعَتْ لَهُ الْأَحْزَانُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ * فَخَنِّ كَمَا حَنَّ الظُّوَارُ السَّوَاجِعُ
 وَجَانِبَ قُرْبِ النَّاسِ يَخْلُو بِهِمْ * وَعَاوَدَهُ فِيهَا هَيْأَمٌ مُرَاجِعُ
 أَرَاكَ اجْتَنَبْتَ الْحَيَّ مِنْ غَيْرِ بَغْضَةٍ * وَلَوْ شِئْتَ لَمْ تَجْنَحْ إِلَيْكَ الْأَصَابِعُ
 كَأَنْتَ بِلَادَ اللَّهِ مَا لَمْ تَكُنْ بِهَا * وَإِنْ كَانَ فِيهَا الْخَلْقُ قَفَرٌ بِلَاقِعُ
 أَلَا إِنَّمَا أَبْكِي لِمَا هُوَ وَاقِعٌ * وَهَلْ جَزَعُ مِنْ وَشَكِّ بَيْنِكَ نَافِعُ
 أَحَالَ عَلَى الدَّهْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَدَامَتْ وَلَمْ تُقْلِعْ عَلَى الْفَوَاجِعِ
 فَمِنْ كَانَ مَحْزُونًا غَدًا لِفِرَاقِنَا * فَمِلَانِ فَلَئِنْ فَلَئِنْ فَلَئِنْ فَلَئِنْ
 فَمِنْ كَانَ مَحْزُونًا غَدًا لِفِرَاقِنَا * فَمِلَانِ فَلَئِنْ فَلَئِنْ فَلَئِنْ فَلَئِنْ

(١) تهدي : تسكنه . (٢) وجبات : خفقات . (٣) المأق من العين : الجانب الذي يلي الأنف . (٤) الأشجاع : عروق ظاهر الكف . (٥) الظوار : جمع طاء وهي التي عطفت على ولد غيرها . والسواجع : جمع ساجعة وهي التي تمد حنيتها على جهة واحدة .

الشعر السياسي

أوضحنا لك في المجلد الأول ما لاستعمال الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية وأستحثاث العزّات وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية، وبيّنا ميزة استعمال الشعر في الأغراض السياسية في عصر الدولة الأموية، وذكرنا عدّة أمثلة تبين ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووعدناك بذكر قصيدة النعمان بن بشير في هذا الباب . وها هي ذى :

النعمان بن بشير^(١)

قال أبو الفرج الأصفهاني :

لما كثر الهجاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاصي وتفاحشا، كتب معاوية إلى سعيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة، أن يجلد كل واحد منهما مائة سوط، وكان ابن حسان صديقاً لسعيد وما مدح أحداً غيره قط، فكره أن يضربه أو يضرب ابن عمه، فأمسك عنهما، ثم ولي مروان، فلما قدم أخذ ابن حسان فضربه مائة سوط ولم يضرب أخاه، فكتب ابن حسان إلى النعمان بن بشير وهو بالشام، وكان كبيراً أثيراً مكيّاً^(٢) عند معاوية، قال :

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، من الخزرج أهل يثرب، لكنه ساير معاوية، فكان معه في واقعة صفين، ولم يكن مع معاوية في تلك الواقعة من الأنصار سواه . وقد اجتذبه بسخائه ودهائه وكان يراعى جانبه، وكثيراً ما سمع توسطه للأنصار عنده . وعاش النعمان المذكور إلى خلافة مروان بن الحكم، وكان يتولى حصص، فلما أفضت الخلافة إلى مروان دعا إلى ابن الزبير وخالف على مروان بعد قتل الضحاك، فلم يجبه أهل حصص إلى ذلك، فهرب منهم فتبعوه وأدركوه وقتلوه . وكان على مسأيرته بنى أمية شديد التعصب للأنصار، ولذلك عند ما علم بقصيدة الأخطل في الطعن عليهم رد عليه . والنعمان بن بشير من العربيين في الشعر خلفاً عن سلف فإن جده وأباه وعمه وأولاده وأحفاده كلهم شعراء . وهو أول مولود ولد في الاسلام من الأنصار، وآخر من ولي الكوفة لمعاوية بن أبي سفيان . وله ديوان مطبوع في الهند . توفي سنة ٦٥ هـ . وترى أخبار النعمان بن بشير في الأغاني (ج ١٤ ص ١١٩) وأمالى القالي (ج ٣ ص ٨) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفي سيرة ابن هشام وابن خلكان وابن الأثير وغيرها . (٢) أثيراً : مكرماً .

لَيْتَ شِعْرِي أَغَائِبُ أَنْتَ بِالشَّاءِ * مَخَلِيلِي أُمُّ رَاقِدٍ نَعْمَانُ
 أَيْةٌ مَا يَكُنْ فَقَدْ يَرْجِعُ الْغَا * ثُبُّ يَوْمًا وَيُوقِظُ الْوَسَّانُ
 إِنِّ عَمْرًا وَعَامرًا أَبُوْنَا * وَحَرَامًا قِدَمًا عَلَى الْعَهْدِ كَانُوا
 أَفْهَمُ مَا نَعُوكَ أُمُّ قَلَّةٍ الْكُتَّابُ * أَنْتَ عَاتِبُ غَضِبَانِ
 أُمُّ جَفَاءٍ أُمُّ أَعْوَزَتْكَ الْقَرَّاطِي * أُمُّ أَمْرِي بِهِ عَلَيْكَ هَوَانُ
 يَوْمَ أُثْبِتَ أَنْ سَاقِي رُضَّتْ * وَأَتَتْكُمْ بِذَلِكَ الرُّبَّانُ
 ثُمَّ قَالُوا إِنِّ ابْنُ عَمِّكَ فِي بَلَدٍ * أَمُورٍ أَتَى بِهَا الْحَدَّانُ
 فَدَسِيتَ الْأَرْحَامَ وَالْوَدَّ وَالصُّحْرَابَ * فَمَا أَتَتْ بِهِ الْأَزْمَانُ
 إِنَّمَا الرِّيحُ فَاعْلَمِي قَنَاءً * أَوْ كِبْعُضُ الْعِيدَانِ لَوْلَا السَّنَانُ

قال أبو الفرج الأصبهاني :

دخل النعمان بن بشير على معاوية لما هجا الأخطل الأنصار ، فلما مثل بين يديه

أنشأ يقول :

مُعَاوِيَ إِلَّا تُعْطِنَا الْحَقَّ تَعْتَرِفُ * لَحَى الْأَزْدَ مَشْدُودًا عَلَيْهَا الْعَمَامُ
 أَتَشْتُمُّنَا عِبْدُ الْأَرَاقِمِ ضَلَّةً ^(١) * وَمَاذَا الَّذِي تُجْعِدِي عَلَيْكَ الْأَرَاقِمِ
 فَمَا لِي تَأْرُدُونُ قَطْعَ لِسَانِهِ * فَدُونَكَ مِنْ يُرْضِيهِ عَنْكَ الدَّرَاهِمُ
 وَرَاعٍ رَوِيدًا لَا تَسْمُنَا دَنِيَّةً * لَعَلَّكَ فِي غِبِّ الْحَوَادِثِ نَادِمُ
 مَتَى تَلْقَ مِنَّا عُصْبَةً خَزَرَجِيَّةً * أَوْ الْأَوْسَ يَوْمًا تَحْتَرِمُكَ الْمُخَارِمُ
 وَتَلْقَاكَ خَيْلٌ كَالْقَطَا مُسْتَطِيرَةً * شِمَاطِيطُ ^(٢) أَرْسَالٍ عَلَيْهَا الشَّكَاكِمُ ^(٣)
 يُسَوِّمُهَا الْعَمْرَانُ : عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ * وَعِمْرَانُ حَتَّى تُسْتَبَاحَ الْمُحَارِمِ
 وَيَبْدُو مِنَ الْخُودِ الْعَزِيزَةِ حِجْلُهَا * وَتَبْيِضُ مِنْ هَوْلِ السِّيُوفِ الْمَقَادِمِ
 فَتَطْلُبُ شَعْبَ الصَّدْعِ بَعْدَ التَّثَامَةِ * فَتَغْرِيهِ فَالَانُ وَالْأَمْرُ سَالِمُ

(٣) الشكاكيم : جمع

(٢) شماطيط : متفرقة .

(١) الأراقم : حتى من بني تغلب .

شكيمة وهي الحديدية المعترضة في فم الفرس .

وإلا فتوبى لأمة تبعية * توارى أبائى وأبيض صارم
 وأسمر خطى كأن كعوبه * نوى القسب فيها لهذى خثارم
 فإن كنت لم تشهد ببدٍ وقعة * أذلت قريشاً والأسوف رواقم
 فسائل بنا حيى لؤى بن غالب * وأنت بما يخفى من الأمر عالم
 ألم تبتدر يوم بدر سيوفنا * وليلك عما ناب قومك قائم
 ضربناكم حتى تفرق جمعكم * وطارت أكف منكم وجماعم
 وعادت على البيت الحرام عرائس * وأنت على خوفٍ عليك التمام
 وعضت قريش بالأنامل بغضة * ومن قبل ما عضت عليك الأدهم
 فكأ لها فى كل أمرٍ نكيدة * مكان الشجا والأمر فيه تفاقم
 فما إن رمى رايماً فأوهى صفاتها * ولا ضامناً يوماً من الدهر ضائم
 وإنى لأغضى عن أمورٍ كثيرة * سترقى بها يوماً إليك السلام
 أصانع فيها عبد شمس وإبنى * لتلك التى فى النفس منى أكاثم
 فما أنت والأمر الذى لست أهله * ولكن ولئى الحق والأمر هاشم
 إليهم يصير الأمر بعد شتاته * فن لك بالأمر الذى هو لازم
 بهم شرع الله الهدى فأهتدى بهم * ومنهم له هادٍ إمام وخاتم

فلما بلغت القصيدة معاوية أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه، فاستجار يزيد
 ابن معاوية، ففنع منه، وأرضى النعمان حتى كف عنه .

وقال عمرو بن أبى عمرو الشيبانى عن أبيه : لما ضرب مروان بن الحكم عبد الرحمن
 ابن حسان الحد ، ولم يضرب أخاه حين تهاجيا وتقاذفا ، كتب عبد الرحمن الى النعمان
 ابن بشير يشكو اليه ، فدخل الى معاوية ، وأنشأ يقول :

يابن أبى سُفْيَانَ ما مثُلنا * جَارَ عَلَيْهِ مَلِكٌ أَوْ أَمِيرٌ
 أَذْكَرُ بِنَا مُقَدِّمَ أَفْرَاسِنَا * بِالْحِنُو إِذْ أَنْتَ الْبِنَا فَقِيرٌ

واذ كر غداة الساعدي الذي * أثركم بالأمر فيها بشير
 فاحذر عليهم مثل بذر وقد * من بكم يوم بيدر عمير
 إن ابن حسان له نائر * فأعطه الحق تصح الصدور
 ومثل أيام لنا شئت * ملكا لكم أمرك فيها صغير
 أما ترى الأزد وأشياعها * تحول خزرا كظلمات تزيير
 يصول حولي منهم معشر * إن صلت صالوا وهم لي نصير
 يابى لنا الضيم فلا يعلى * عز منيع وعدي كثير
 وعنصر في عز جرثومة * عادية تنقل عنها الصخور

مُلْحَقُهُمْ

الكتاب الثاني

باب المنشور

شرحنا لك في المجلد الأول ما كانت عليه الكتابة في عصر العباسيين من جَوْدَةِ اللفظ ،
ومنانة الأسلوب ، وجلاء المعنى ، ووضوح القصد وبساطته . ووعدناك بذكر طُرْفٍ
من رسائل القوم في ذلك العصر الزاهي الزاهر ، وإليك ما وعدناك به :

١ - مُشَاوَرَةُ المهديّ لأهل بيته في حرب نُرَّاسان

قال ابنُ عبد ربّه في العقد الفريد :

هذا ما تراجع فيه المهديّ ووزرائه وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب نُرَّاسان أيامَ
تحمّلت عليهم العمالُ وأعنفَتْ ، فحملتهم الدّالة وما تقدّم لهم من المكانة على أن نكثوا ببيعَتهم ،
ونقضوا موثقتهم ، وطرّدوا العمال ، وآلّتووا بما عليهم من الخراج ؛ وحمل المهديّ ما يُحبّ من
مصلحتهم ويكره من عنتهم على أن أقال عثرتهم ، وأغفر زلتهم ، وأحتمل دالّتهم ، تطوّلاً بالفضل
وأتساعاً بالعفو ، وأخذاً بالمحبة ورقفاً بالسياسة ؛ ولذلك لم يزل مُدَحِّمَهُ الله أعباءَ الخلافة وقلده
أمورَ الرعيّة رقيقاً بمدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطاً للمعدّلة في رعيّته ، تسكن إلى كنفه
وتأنّس بعفوه وتثقّ بحلمه ؛ فإذا وقعت الأقضية اللازمة والحقوق الواجبة ، فليس عنده

هَوَادَة وَلَا إِغْضَاء وَلَا مُدَاهَنَة ، أَثَرَةً لِلْحَقِّ وَقِيَامًا بِالْعَدْلِ وَأَخْذًا بِالْحَزْمِ ؛ فَدَعَا أَهْلَ خِرَاسَانَ
الْأَغْتِرَارُ بِجَلْمِهِ وَالثَّقَّةُ بِعَفْوِهِ أَنْ كَسَرُوا الْخِرَاجَ وَطَرَدُوا الْعَمَالَ وَسَأَلُوا مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ،
ثُمَّ خَلَطُوا أَحْتِجَاجًا بِاعْتِذَارٍ ، وَخُصُومَةً بِإِقْرَارٍ ، وَتَنَصُّلاً بِاعْتِلَالٍ ؛ فَلَمَّا أَتَتْهُ ذَلِكَ إِلَى الْمَهْدِيِّ
خَرَجَ إِلَى مَجْلِسِ خَلَائِهِ وَبَعَثَ إِلَى نَقَرٍ مِنْ حُجَّتِهِ وَوُزَرَائِهِ ، فَأَعْلَمَهُمُ الْحَالَ وَاسْتَنْصَحَهُمُ
لِلرَّعِيَّةِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمَوَالِي بِالْإِبْتِدَاءِ ، وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ : أَيَّ عَمٍّ ! تَعَقَّبُ قَوْلَنَا وَكُنْ حَكَمًا
بَيْنَنَا ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى وَلَدَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ ، فَأَحْضَرَهُمَا الْأَمْرَ وَشَارَكَهُمَا فِي الرَّأْيِ ، وَأَمَرَ
مُحَمَّدَ بْنَ اللَّيْثِ بِحِفْظِ مَرَاجِعَتِهِمْ ، وَإِثْبَاتِ مَقَالَتِهِمْ فِي كِتَابٍ .

فَقَالَ سَلَامٌ صَاحِبُ الْمَظَالِمِ (٣) :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ غَايَةً ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ صِنَاعَةً ؛ اسْتَفْرَغْتُ رَأْيَهُمْ ، وَاسْتَفْرَقْتُ
أَشْغَالَهُمْ ، وَاسْتَنْفَدْتُ أَعْمَارَهُمْ ، وَذَهَبُوا بِهَا وَذَهَبَتْ بِهِمْ ، وَغُرِفُوا بِهَا وَغُرِفَتْ بِهِمْ ؛ وَلِهَذِهِ
الْأُمُورُ الَّتِي جَعَلْتَنَا فِيهَا غَايَةً ، وَطَلَبْتَ مَعُونَتَنَا عَلَيْهَا أَقْوَامٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْحَرْبِ وَسَاسَةِ الْأُمُورِ
وَقَادَةِ الْجُنُودِ وَفُرْسَانِ الْهَزَاهِزِ (٤) وَإِخْوَانِ التِّجَارِبِ ، وَأَبْطَالِ الْوَقَائِعِ ؛ الَّذِينَ رَشَّحْتَهُمْ سِجَالَهَا ،
وَقَيَّاتِهِمْ ظِلَالُهَا ، وَعَضَّتْهُمْ شِدَائِدُهَا ، وَقَرَّمَتْهُمْ نَوَاجِدُهَا ؛ فَلَوْ عَجَمْتَ مَا قَبْلَهُمْ ، وَكَشَفْتَ
مَا عِنْدَهُمْ ؛ لَوَجَدْتَ نَظَائِرَ تَوْيْدِ أَمْرِكَ ، وَتِجَارِبَ تَوَافِقِ نَظَرِكَ ، وَأَحَادِيثَ تَقْوَى قَلْبِكَ ؛
فَأَمَّا نَحْنُ مَعَاشِرُ عُمَّالِكَ ، وَأَصْحَابُ دَوَاوِينِكَ ، لِحَسْنِ بِنَا وَكَثِيرِ مَنَا أَنْ تَقُومَ بِثِقَلِ مَا حَمَلْتَنَا
مِنْ عَمَلِكَ ، وَاسْتَوْدَعْتَنَا مِنْ أَمَانَتِكَ ، وَشَغَلْتَنَا بِهِ مِنْ إِمْضَاءِ عَدْلِكَ ، وَإِنْفَازِ حُكْمِكَ ،
وَإِظْهَارِ حَقِّكَ .

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ فِي كُلِّ قَوْمٍ حِكْمَةً ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِيَاسَةً ، وَفِي كُلِّ حَالٍ تَدْبِيرًا
يَبْطُلُ الْآخِرُ الْأَوَّلَ ، وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِزِمَانِنَا وَتَدْبِيرِ سُلْطَانِنَا .

(١) كَسَرُوا الْخِرَاجَ أَيَّ كَفُّوا عَنْ أَدَائِهِ . (٢) هُوَ ابْنُ اللَّيْثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ سِيَّارٍ . وَكَانَ أَرْسَلَ
الْمَهْدِيَّ أَبَاهُ اللَّيْثَ لِلْحَارِبَةِ الْمُقْنَعِ فَلَمْ يَتِمَّكَ مِنْهُ . وَكَانَ أَبْنُو مُحَمَّدٍ هَذَا مِنْ كِتَابِ الْمَهْدِيِّ وَلَمْ تَعْرِفْ سَنَةَ وَفَاتِهِ .
(٣) هُوَ سَلَامُ بْنُ الْأَبْرَشِ ، اسْتَعْمَلَهُ الْمَنْصُورُ ثُمَّ تَوَلَّى الْعُقُوبَاتُ فِي أَيَّامِ الْمَهْدِيِّ . (٤) الْهَزَاهِزُ :
تَحْرِيكُ الْبَلَايَا وَالْحُرُوبِ فِي النَّاسِ .

قال : نعم أيها المهديّ، أنت مُتَّبِعُ الرَّأْيِ، وَثَبِتَ الْعُقْدَةَ، قَوِيَّ الْمُنَّةَ، بَلِغَ الْفِطْنَةَ، معصوم التَّيْسَةِ، مُحْضُورِ الرُّوْيَةِ، مُؤَيَّدَ الْبَدِيْهِةِ، مُوَفَّقَ الْعَزِيْمَةِ، مُعَانُ الْظَّفَرِ، مَهْدِيَّ إِلَى الْخَيْرِ، إِنْ هَمَمْتَ تَقَى عِزُّكَ مَوَاقِعَ الظَّنِّ، وَإِنْ أَجْتَمَعْتَ صَدَعَ فَعْلُكَ مُلْتَبِسَ الشَّكِّ، فَاعْزِمِ يَهْدِ اللَّهِ إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ، وَقُلْ يُنْطِقُ اللَّهُ بِالْحَقِّ لِسَانُكَ، فَإِنَّ جُنُودَكَ جَمَّةٌ، وَخِرَائِكَ عَامِرَةٌ، وَنَفْسُكَ سَخِيَّةٌ، وَأَمْرُكَ نَافِذٌ.

فأجابه المهديّ : إِنْ الْمُشَاوَرَةَ وَالْمُنَازَعَةَ بَابًا رَحْمَةً، وَمِفْتَاحًا بَرَكَةً، لَا يَهْلِكُ عَلَيْهِمَا رَأْيٌ، وَلَا يَتَغَيَّلُ مَعَهُمَا حَزْمٌ، فَأَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ، وَقُولُوا بِمَا يَحْضُرُكُمْ، فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَتَوْفِيقُ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ.

قال الربيع :

أيها المهديّ، إِنْ تَصَارِيفُ وَجُوهِ الرَّأْيِ كَثِيرَةٌ، وَإِنْ الْإِشَارَةُ بِبَعْضِ مَعَارِيضِ الْقَوْلِ يَسِيرَةٌ، وَلَكِنْ خَرَّاسَانُ أَرْضٍ بَعِيدَةِ الْمَسَافَةِ، مُتَرَاخِيَةِ الشُّقَّةِ، مُتَّفَاوِتَةِ السَّبِيلِ، فَإِذَا أَرْتَأَيْتَ مِنْ مُحْكَمِ التَّدْيِيرِ، وَمُبَرَّمِ التَّقْدِيرِ، وَلُبَابِ الصَّوَابِ، رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَهُ نَظْرُكَ، وَقَلْبُهُ تَدْيِيرُكَ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبٌ طَاعِنٌ، وَلَا دُونُهُ مَعْلَقٌ لَخُصُومَةٍ عَائِبٌ، ثُمَّ أَجَبْتَ الْبُرْدَ بِهِ، وَأَنْطَوَتْ الرُّسُلُ عَلَيْهِ، كَانَ بِالْحَرَى أَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِمْ مُحْكَمُهُ إِلَّا وَقَدْ حَدَثَ مِنْهُمْ مَا يَنْقُضُهُ، فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرُّسُلَ، وَتَرُدَّ عَلَيْكَ الْكُتُبُ بِحَقَائِقِ أَخْبَارِهِمْ، وَشَوَارِدِ آثَارِهِمْ، وَمَصَادِرِ أُمُورِهِمْ، فَتُحَدِّثَ رَأْيَا غَيْرَهُ وَتَبْتَدِعَ تَدْيِيرًا سِوَاهُ، وَقَدْ أَنْفَرَجَتْ الْحِلَاقُ، وَتَحَلَّلَتْ الْعُقْدَةُ، وَأَسْتَرْنَحَى الْحِقَابُ، ^(٤) وَآمَنَ الزَّمَانُ، ثُمَّ لَعَلَّمَا مَوْقِعَ الْآخِرَةِ كَمَصْدَرِ الْأُولَى، وَلَكِنَّ الرَّأْيَ لَكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّكَ اللَّهُ — أَنْ تَصْرِفَ إِجَالَةَ النَّظَرِ، وَتَقْلِبَ الْفِكْرَ، فِيمَا جَمَعْتَنَا لَهُ، وَأَسْتَشْرَبْتَنَا فِيهِ مِنَ التَّدْيِيرِ لِحَرْبِهِمْ، وَالْحِيلِ فِي أَمْرِهِمْ، إِلَى الطَّلَبِ لِرَجُلٍ ذِي دِينٍ

(١) المنّة : القوة . (٢) لا يتغيّل : لا يضعف . (٣) معاريض الكلام ما عرّض يد ولم يصرّح وهي التورية بالشئ عن الشئ . (٤) الحِقَاب : شئ يتخذ المرأة تعلق به معاليق الحلي تشده على وسطها .

فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متهماً في أثره عليك، ولا ظنيناً على دُخْلَةٍ مكروهة^(١)، ولا منسوباً الى بدعة محدورة؛ فَيَقْدَحَ في مُلْكِكَ، وَيُرَبِّضَ^(٢) الأمورَ لغيرك؛ ثم تُسَنِّدِ اليه أمورهم، وتفوض اليه حربهم، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم، وخلاف نهيك اذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور، وأشتداد الأحوال التي يُنْقَضُ أمر الغائب عنها، ويثبت رأي الشاهد لها؛ فإنه اذا فعل ذلك فَوَائِبُ أمرهم من قريب، وسقط عنه ما يأتى من بعيد، تمت الحيلة وقويت المكيدة، ونفذ العمل وأُحْدِ النظر، إن شاء الله .

قال الفضل بن العباس :

أيها المهديّ، إن وَلِيَّ الأمورِ وسائس الحروب ربما نَحَى جنوده، وفَرَّقَ أمواله في غير ماضيقٍ أمرٍ حربه، ولا ضَغْطَةٍ حال اضطرتته؛ فيَقْعُدُ عند الحاجة إليها، وبعد التفرقة لها عديماً منها فاقدًا لها، لا يثيق بقوة، ولا يصول بَعْدَةً، ولا يَفْرَعُ الى ثقة؛ فالرأى لك أيها المهديّ - وفقدك الله - أن تُعْفِيَ خزائنك من الإنفاق للاموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغريير القتال، ولا تُسْرِعَ للقوم في الإجابة الى ما يطلبون، والعطاء لما يسألون؛ فيفسد عليك أدبهم، وتُجْرَى من رعيّتك غيرهم؛ ولكن أغرهم بالحيلة، وقتلهم بالمكيدة، وصارعهم باللّين، وخاتلهم بالرفق، وأبرق لهم بالقول، وأرعد نحوهم بالفعل؛ وأبعث البعوث^(٤)، وجنّد الجنود، وكتب الكتاب، وأعقد الأولوية، وأنصب الرايات، وأظهر أنك موجه اليهم الجيوش مع أحنق قوادك عليهم، وأسوئهم أثراً فيهم؛ ثم آدُسُ الرُّسُلَ، وآبَثُ الكتب، وَصَّعْ بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف

(١) ظنيناً : متهماً . ودخلة مكروهة : أى نية سيئة . (٢) ربه أى أثبتته .

(٣) أبرق وأرعد بمعنى تهّد وتوعد . (٤) البعوث : الجيوش .

من وعيدك ؛ وأوقد بذلك وأشباهه نيرانَ التحاسد فيهم ، وأغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تملأ القلوب من الوحشة ، وتتطوى الصدور على البغضة ، ويدخل كلاً من كل الخدر والهية ، فإن مرام الظفر بالغيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناسبة بالكتب ، والمكايدة بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب ، القوى الموقع من النفوس ، المعقود بالجحجج ، الموصول بالحيل ، المبني على اللين الذي يستميل القلوب ؛ ويستترق العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة ، أنفد من القتال بطبات السيوف وأسنة الرماح ؛ كما أت الوالى الذى يستترل طاعة رعيته بالحيل ، ويفرق كلمة عدوه بالمكايدة ، أحكم عملاً وألطف منظراً وأحسن سياسة من الذى لا ينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال والتغريير والخطار^(١) .

وليعلم المهدي أنه إن وجه لقتالهم رجلاً لم يسر لقتالهم إلا بمنزود كشيعة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدم على أسفار ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقواد غششة ؛ إن أئمتهم استنفدوا ماله ، وإن استنصحتهم كانوا عليه لاله .

قال المهدي : هذا رأى قد أسفر نوره ، وأبرق ضوؤه ، وتمثل صوابه للعيون ، ومجد^(٢) حقه في القلوب ، ولكن فوق كل ذى علم عليم ؛ ثم نظر الى أبنه على فقال : ما تقول ؟

قال على :

أيها المهدي ، إن أهل خراسان لم يخلعوا عن طاعتك ، ولم ينصبوا من دونك أحداً ، يقدح في تغيير ملكك ، ويربض الأمور لفساد دولتك ؛ ولو فعلوا لكان الخطب أيسر ، والشأن أصغر والحال أدل ، لأن الله مع حقه الذى لا يتخذله ، وعند مواعده الذى لا يخلقه ، ولكنهم قوم من رعيته ، وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبت الى دعوتهم ونفست عنهم^(٢)

(١) الخطار : الاشراف على هلكة .

(٢) نفست عنهم : فرجت عنهم .

(١) قبل أن يتلاحم منهم حال، أو يحدث من عندهم فتق، أطعت أمر الرب، وأطفأت نائرة الحرب، ووقرت خزان المال، وطرحت تقرير القتال، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك، وسجية حلمك، وإسباح^(٢) خليقتك، ومعدلة نظرك، فأمنت أن تنسب إلى ضعف، وأن يكون ذلك فيما بقي دربة؛ وإن منعهم ما طلبوا ولم يُجِبهم إلى ما سألوا، اعتدلت بك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطاب؛ فما أرب المهدي أن يعمد إلى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مدعين لطاعته، لا يخرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يبرئونها من عبوديته، فيملكتهم أنفسهم ويخلع نفسه عنهم، ويقف على الحيل معهم، ثم يجازيهم السوء في حد المنازعة ومضمار المخاطرة؛ أريد المهدي - وفقه الله - الأموال؟ فلمعمرى لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإتفاق أكثر منها، مما يطلب منهم وأضعاف ما يدعى قبلهم، ولو نالها فحملت إليه، أو وضعت بخرائطها بين يديه، ثم تجافى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان مما إليه ينسب وبه يعرف من الجود الذي طبعه الله عليه، وجعل قرة عينه ونهمة نفسه فيه؛ فإن قال المهدي: هذا رأى مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا، وتحامل ولاتنا؛ فأما الجنود الذين تقضوا مواثيق العهود، وأنطقوا لسان الإرجاف وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم؛ فيعلم المهدي أنه لو أتي بهم مغلولين في الحديد، مقرين في الأصفاد؛ ثم اتسع لحقن دماهم عفو، وإقالة عثرهم صفحة؛ وأستبقاهم لما هم فيه من حربه، أو لمن يإزائهم من عدوه، لما كان يدعا من رأيه، ولا مستنكرا من نظره، لقد علمت العرب أنه أعظم الخلقاء والملوك عفواً، وأشدّها وقعا، وأصدقها صولة؛ وأنه لا يتعاطمه عفو،

(١) نائرة الحرب: ما اشتعل وانتقد منها.

(٢) الإسباح: مصدر أسبح الوالي. إذا أحسن العفو.

(٣) الخريطة: وعاء من آدم وغيره.

(٤) الإرجاف: مصدر أرجف القوم إذا خاضوا في أخبار الفتن على أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن

(١) ولا يَتَكَادَهُ صَفْحٌ ، وإن عظم الذنب وجل الخطب ، فالرأى للمهدى — وفقه الله تعالى — أن يَحُلَّ عُقْدَةُ الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم ، وأن يذكر أُولَى حالاتهم وَضِيعَةً عِيَالَتِهِمْ ، بِرَأْيِهِمْ وتوسُّعاً لَهُمْ ؛ فإنهم إِخْوَانُ دولته ، وأركان دعوته ، وأساس حقّه الذين بعزَّتْهم يَصُولُ ، وبجِجَّتْهم يَقُولُ ؛ وإنما مَثَلُهُمْ فيما دخلوا فيه من مَسَاخِطِهِ ، وتعرَّضوا له من معاصيه ، وأنظروا فيه عن إجابته ، ومثله في قلة ما غيّر ذلك من رأيه فيهم ، أو نُقِلَ من حاله لهم ، أو تغيّر من نعمته بهم ، كَثَلُ رَجُلَيْنِ أَخَوَيْنِ مُتَنَاصِرَيْنِ مَتَا زَرَيْنِ ، أَصَابَ أَحَدَهُمَا خَبَلٌ عَارِضٌ ، وَلَهُوَ حَادِثٌ ، فَهَضَّ إِلَى أَخِيهِ بِالْأَذَى ، وَتَحَامَلَ عَلَيْهِ بِالْمَكْرُوهِ ، فَلَمْ يَزِدْ أَخُوهُ إِلَّا رِقَّةً لَهُ وَلُطْفًا بِهِ ، وَاحْتِيَالًا لِمُدَاوَاةِ مَرَضِهِ وَمَرَاجَعَةِ حَالِهِ ؛ عَطْفًا عَلَيْهِ وَبِرًّا بِهِ وَمَرْحَمَةً لَهُ .

فقال المهدى : أما على فقد كوى سَمَتَ اللَّبَّانِ ، وَفَضَّ الْقُلُوبَ فِي أَهْلِ خِرَاسَانَ ، وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍّ ، ثُمَّ قَالَ : مَا تَرَى يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ يَعْنِي مُوسَى أَبْنَهُ .

فقال موسى :

أيها المهدى ، لَا تَسْكُنْ إِلَى حَلَاوَةِ مَا يَجْرَى مِنَ الْقَوْلِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَأَنْتَ تَرَى الدَّمَاءَ تَسِيلَ مِنْ خَلَلِ فَعْلِهِمْ ؛ الْحَالُ مِنَ الْقَوْمِ يَنَادِي بِمُضْمَرَةٍ شَرٍّ ، وَخَفِيَّةٍ حَقْدٍ ؛ قَدْ جَعَلُوا الْمَعَازِيرَ عَلَيْهَا سِتْرًا ، وَاتَّخَذُوا الْعِلَالَ مِنْ دُونِهَا حِجَابًا ؛ رَجَاءً أَنْ يُدَافِعُوا الْأَيَّامَ بِالتَّأخيرِ ، وَالْأُمُورَ بِالتَّطْوِيلِ ؛ فَيَكْسِرُوا حَيْسِلَ الْمَهْدَى فِيهِمْ ، وَيُقْنُوا جُنُودَهُ عَنْهُمْ حَتَّى يَتَلَاخَمَ أَمْرُهُمْ ، وَتَتَلَاخَقَ مَادَّتُهُمْ ، وَتُسْتَفْجَلَ حَرْبُهُمْ ، وَتُسْتَمَرَّ الْأُمُورُ بِهِمْ ؛ وَالْمَهْدَى مِنْ قَوْلِهِمْ فِي حَالِ غَيْرَةِ وَلِبَاسِ أَمْنَةٍ ، قَدْ فَتَرَهَا وَأَنَسَ بِهَا وَسَكَنَ إِلَيْهَا ؛ وَلَوْلَا مَا أَجْتَمَعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ، وَبَرَدَتْ عَلَيْهِ جُلُودُهُمْ مِنَ الْمُنَاصَبَةِ بِالْقِتَالِ ، وَالِإِضْمَارِ لِلْقِرَاعِ عَنْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، أَوْ شَيْطَانِ فُسَادٍ ، لَرَهَبُوا عَوَاقِبَ أَخْبَارِ الْوَلَاةِ ، وَغَبَّ سَكُونُ الْأُمُورِ ؛ فَلْيَشْدُدْ الْمَهْدَى — وفقه الله —

(١) لَا يَتَكَادَهُ : لَا يَشْقُ عَلَيْهِ .

أَزَرَهُ لَهُمْ وَيَكْتَبُ كِتَابَهُ نَحْوَهُمْ ، وَلِيَضَعَ الْأَمْرَ عَلَى أَشَدِّ مَا يَحْضُرُهُ فِيهِمْ ، وَلِيُوقِنَ أَنَّهُ لَا يُعْطِيهِمْ حُطَّةً يَرِيدُ بِهَا صَلَاحَهُمْ إِلَّا كَانَتْ دُرْبَةً إِلَى فُسَادِهِمْ ، وَقُوَّةً عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ ، وَدَاعِيَةً إِلَى عَوْدَتِهِمْ ؛ وَسَبَبًا لِفُسَادٍ مِنْ بَحْضَرَتِهِ مِنَ الْجُنُودِ ، وَمِنْ بِيَابِهِ مِنَ الْوُفُودِ ، الَّذِينَ إِنْ أَقْرَهُمْ تِلْكَ الْعَادَةُ ، وَأَجْرَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْأَرْبِ ، وَلَمْ يَبْرَحْ فِي فَتْحٍ حَدِيثٍ وَخِلَافٍ حَاضِرٍ ؛ لَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ دِينَ ، وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِ دُنْيَا ؛ وَإِنْ طَلَبَ تَغْيِيرَهُ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعَادَةِ ، وَاسْتِمْرَارِ الدَّرْبَةِ ، لَمْ يَصِلْ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْعُقُوبَةِ الْمَفْرُطَةِ ، وَالْمُؤُونَةِ الشَّدِيدَةِ ، وَالرَّأْيِ الْمَهْدِيِّ وَقَّعَهُ اللَّهُ — أَلَّا يُقْبَلَ عَثَرَتُهُمْ ، وَلَا يُقْبَلَ مَعْذِرَتُهُمْ ، حَتَّى تَطْلَأَهُمُ الْجِيُوشُ ، وَتَأْخُذَهُمُ السُّيُوفُ ، وَيَسْتَحْرِجَهُمُ الْقَتْلُ ، وَيُحْدِقُ بِهِمُ الْمَوْتُ ، وَيُحِيطُ بِهِمُ الْبَلَاءُ ، وَيُطَبِّقُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّ ؛ فَإِنْ فَعَلَ الْمَهْدِيُّ بِهِمْ ذَلِكَ ، كَانَ مَقْطَعَةً لِكُلِّ عَادَةٍ سُوءٍ فِيهِمْ ، وَهَزِيمَةً لِكُلِّ بَادِرَةٍ شَرٍّ مِنْهُمْ ، وَاحْتِمَالُ الْمَهْدِيِّ مُؤُونَةَ غَزَوَتِهِمْ هَذِهِ يَضَعُ عَنْهُ غَزَوَاتٍ كَثِيرَةً ، وَنَفَقَاتٍ عَظِيمَةً .

قال المهدي : قد قال القوم فأحكم يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد :

أيها المهدي :

أما الموالى فأخذوا بفُسُوعِ الرَّأْيِ ، وَسَلَكُوا جَنَابَاتِ الصَّوَابِ ، وَتَعَدَّوْا أُمُورًا قَصُرَ بِنَظَرِهِمْ عَنْهَا أَنَّهُ لَمْ تَأْتِ تِجَارُهُمْ عَلَيْهَا .

وَأما الفضل فأشار بالأموال ألا تُتَفَقَّ ، وَالْجُنُودُ أَلَّا تَفَرَّقَ ، وَبِأَلَا يُعْطَى الْقَوْمُ مَا طَلَبُوا ، وَلَا يَبْدُلَ لَهُمْ مَا سَأَلُوا ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ بَيْنَ ذَلِكَ اسْتِصْغَارًا لِأَمْرِهِمْ وَاسْتِهَانَةً بِحُرْمَتِهِمْ ؛ وَإِنَّمَا يَبْهَجُ جَسِيَّاتِ الْأُمُورِ صِغَارَهَا .

(١) يستحز : يشتد ويقوى .

وأما على فآشار باللين وإفراط الرفق، وإذا جرّد الوالى لمن غمط أمره وسفه حقه،^(١)
اللين بحثاً والخير محضاً، لم يخطئهما بشدة تعطف القلوب عن لينه، ولا يشرّيحهم إلى
خير، فقد ملكهم الخلع لعدّهم^(٢) وسّع لهم الفرجة لئنى أعناقهم؛ فإن أجابوا دعوته وقبلوا
لينه من غير خوف أضطّروهم ولا شدة، فتزوّ^(٣) في رءوسهم يستدعون بها البلاء الى أنفسهم،
ويستصرخون بها رأى المهدى فيهم؛ وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض
والخير الصراح، فذلك ما عليه الظنّ بهم والرأى فيهم، وما قد يُشبه أن يكون من مثلهم،
لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعم المقيم والمُلك الكبير ما لا يخطر على قلب
بشر ولا تدركه الفكر ولا تعلمه نفس؛ ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها، فلولا أنه خلق ناراً
جعلها لهم رحمة يسوقهم بها الى الجنة، لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فآشار بأن يعصبوا بشدة لالين فيها، وأن يرموا بشرّ لا خير معه، وإذا
أضمر الوالى لمن فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوف مفرداً، والشرّ مجزّداً، ليس معهما
طمع ولا لين يثنّهم، اشتدت الأمور بهم، وأتقطعت الحال منهم الى أحد أمرين : إما أن
تدخلهم الحمية من الشدة، والأنفة من الذلة، والامتناع من القهر؛ فيدعوهم ذلك الى
التحدى فى الخلاف، والاستبسال فى القتال، والاستسلام للوت؛ وإما أن يتقادوا بالكرك،
ويُدعِنوا بالقهر على بغضة لازمة، وعداوة باقية، تُورث النفاق وتُعقب الشقاق؛ فإذا
أمكنهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويّت لهم حال؛ عاد أمرهم الى أصعب وأغلظ
وأشدّ مما كان.

(١) غمط الأمر : ازدراه . وسفه حقه : امتهنه وبخسه .

(٢) العذر جمع عذار .

(٣) النزوة : الوثوب الى الشر .

(٤) عصب الشئ : لواه وشده .

وقال في قول الفضل :

أيها المهديّ، أكفّ دليل، وأوضح برهان، وأبين خبر بان؛ قد أجمع رأيهُ وحُرم نظره
على الإرشاد ببعثة الجيوش اليهم، وتوجيه البُعوث نحوهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحق،
وإجابتهم الى ما سألوه من العدل .
قال المهديّ : ذلك رأي .

قال هارون :

ما خلطتُ الشدةُ أيها المهديّ باللين، وانتظم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدة أمرَ
فِطامٍ لما تكره، وعاد اللين أهدى قائد الى ما يُحبّ؛ ولكن أرى غير ذلك .
قال المهديّ :

لقد قلتُ قولاً بديعاً ، خالفتَ فيه أهل بيتك جميعاً، والمرءُ مؤتمنٌ بما قال، وظنين^(١)
بما أدعى حتى يأتي بيينة عادلة، وحجة ظاهرة، فأخرج عما قلتُ .

قال هارون :

أيها المهديّ، إن الحرب خُدعة، والأعاجم قومٌ مكرّة؛ وربما اعتدلت الحبالُ بهم،
وأتفقت الأهواءُ منهم؛ فكان باطن ما يُسرون على ظاهر ما يُعلنون، وربما آفرت
الحالان، وخالف القلب اللسان، فأنطوى القلب على محجوبة تبطّن، وأسْتَسْرَ بِمَدْخُولَةٍ
لا تُعلن؛ والطبيبُ الرفيقُ بطبّه، البصيرُ بأمره، العالمُ بمقدّم يده وموضع ميسمه؛ لا يتعجل^(٢)
بالدواء، حتى يقع على معرفة الداء، فالرأيُ للمهديّ — وفقه الله — أن يَقْرَ باطنَ أمرهم
فَرَّ الْمُسِنَّةَ، وَيَخْضَ ظاهرَ حالهم مَخْضَ السَّقاءِ بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالاتة^(٤)

(١) الفطام هنا : القطع والاستئصال .

(٢) ظنين بما ادعى : منهم بدعواه .

(٣) الميسم : المكواة يوسم بها الحيوان .

(٤) فَرَّ الدابة : فتح فاها وكشف عن أسنانها ينظر ما سنها . والمسق من الدواب ما دخل في الثامنة .

العيون ، حتى تُهتَكَ حُجُبُ عيونهم ، وتُكشَفَ أَعْطِيَةُ أُمُورهم ؛ فإنْ أَنْفَرَجَتِ الحال ، وَأَفْضَتِ الأُمُور به الى تَغْيِيرِ حال أَوْدَاعِيَةِ ضَلال ، أَشْتَمَلَتِ الأَهْوَاءُ عليه ، وَأَنْقَادَ الرِّجال اليه ، وَأَمْتَدَّتِ الأَعْنَاقُ نحوه بدين يعتقدونه ، وإِثْمَ يَسْتَحِلُّونَه ، عَصَبَهُمْ بِشَدَّةٍ لائِنَ فيها ، ورمَاهم بعقوبة لا عفو معها ، وإنْ أَنْفَرَجَتِ العيون ، وَأَهْتَصَرَتِ السُّتُور ، وَرُفِعَتِ الحُجُب ، والحالُ فيهم مَرِيعة ، والأُمُورُ بهم مَعْتَدِلَةٌ في أرْزاقٍ يَطْلُبُونَهَا ، وأَعْمَالٍ يُنْكَرُونَهَا ، وظُلُماتٍ يَدْعُونَهَا ، وحقوقٍ يَسْأَلُونَهَا ، بِمَأْتَةٍ سَابِقَتِهِمْ ، وَدَالَّةٍ مُنَاصِحَتِهِمْ ؛ فالرأى للمهدى — وفقه الله — أن يَتَسَّعَ لهم بما طَلَبُوا ، وَيَتَجَانَفَى لهم عما كَرِهُوا ، وَيَشْعَبَ من أَمْرهم ما صَدَعُوا ، وَيَرْتَقَ من قَتَقِهِم ما قَطَعُوا ، وَيَوَلَّى عليهم من أَحْبَبُوا ؛ وَيَدَاوِي بِذلك مَرَضَ قُلُوبِهِمْ ، وَفَسَادَ أُمُورِهِمْ ؛ فَإِنَّمَا المهدى وَأَمْتَه ، وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، بِمَنْزِلَةِ الطَّبِيبِ الرَفِيقِ ، وَالْوَالِدِ الشَّفِيقِ ، وَالرَّاعِي المَحْزَبِ الَّذِي يَحْتَالُ لِمَرَابِضِ غَنَمِهِ ، وَضَوَّالَ رَعِيَّتِهِ ، حَتَّى يُبْرِئَ المَرِيضَةَ من داءِ عِلَّتِهَا وَيُرِدِّ الصَّحِيحَةَ الى أُنْسٍ جَمَاعَتِهَا ؛ ثُمَّ إِنَّ خِرَاسَانَ بِخَاصَّةِ الدِّينِ لَهُمْ دَالَّةٌ مَحْمُولَةٌ ، وَمَأْتَةٌ مَقْبُولَةٌ ، وَوَسِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَحَقُوقٌ وَاجِبَةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ أَيْدَى دَوْلَتِهِ ، وَسِیُوفُ دَعْوَتِهِ ، وَأَنْصَارُ حَقِّهِ ، وَأَعْوَانُ عَدْلِهِ ؛ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ المهدى الْأَضْطِغَانُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا المُواخَذَةُ لَهُمْ ، وَلَا التَّوْغِيرُ بِهِمْ ، وَلَا المِكَافَأَةُ بِإِسَاءَتِهِمْ ، لِأَنَّ مَبَادِرَةَ حَسَمِ الْأُمُورِ ضَعِيفَةٌ قَبْلَ أَنْ تَقْوَى ، وَمَحَاوَلَةُ قَطْعِ الْأَصُولِ ضَمِيلَةٌ قَبْلَ أَنْ تَغْلُظَ ، أَحْزَمُ فِي الرَّأْيِ ، وَأَصَحُّ فِي التَّيْدِيرِ مِنَ التَّأْخِيرِ لَهَا وَالتَّهَانُونَ بِهَا ، حَتَّى يَلْتَمَّ قَلِيلُهَا بِكَثِيرِهَا ، وَتَجْتَمَعَ أَطْرَافُهَا الى جُمُهورِهَا .

قال المهدى : ما زال هَارُونُ يَقَعُ وَقَعَ الحَيَا حَتَّى خَرَجَ خُرُوجَ القِدْحِ مِنَ المَاءِ ، وَأَنْسَلَ أَنْسَالَ السِّيفِ فِيمَا آدَعَى ، قَدَعُوا مَا سَبَقَ مُوسَى فِيهِ أَنَّهُ هُوَ الرَّأْيُ ، وَثَنَى بَعْدَهُ هَارُونُ ، وَلَكِنْ مِنْ لَأَعْنَةِ الخَيْلِ وَسِياسَةِ الحَرْبِ وَقَادَةِ النَّاسِ إِنْ أَمَعَنَ بِهِمُ الْجَبَاحُ ، وَأَفْرَطَتْ بِهِمُ الدَّالَّةُ ؟ .

(١) المائة : الحرمة والوسيلة .

(٢) التوغير بهم : التشديد عليهم .

قال صالح :

لسنا نبْلغُ أيها المهديّ بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِراسةٍ رأيك، وبعضَ لحظاتٍ نظرك ؛ وليس يَنْقُصُ عنك من بيوتات العرب ورجال العجم ذو دين فاضل ، ورأى كامل ، وتدير قوى ؛ تقلّده حربك ، وتستودعه جندك ، ممن يَحْتَمِلُ الأمانةَ العظيمةَ ، ويضطَلِعُ بالأعباء الثقيلة ؛ وأنت بحمد الله ميمونُ النّقية^(١) ، مبارك العزيمة ، مخبّر التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العزم ؛ فليس يقع اختيارك ، ولا يقف نظرك على أحدٍ تولّيه أمرك ، وتُسند إليه ثغرك ، إلّا أراك الله ما تحب ، وجمع لك منه ما تريد .

قال المهديّ : إني لأرجو ذلك لقديمِ عادةٍ الله فيه ، وحسنِ معونته عليه ؛ ولكن أحبّ الموافقة على الرأي ، والأعتبار للمشاورة في الأمر المهم .

قال محمد بن اللَّيث :

أهل خراسان أيها المهديّ ، قوم ذوو عِزّةٍ ومنّةٍ ، وشياطين خَدَعَةٍ ؛ زُرُوعُ الحِمِيّةِ فيهم نابتة ، وملايس الأنفة عليهم ظاهرة ؛ فالروية عنهم عازبة ، والعجلة فيهم حاضرة ؛ تسبق سيولهم مطرهم ، وسيوفهم عدلهم ، لأنهم بين سِفلةٍ لا يعدو مَبْلَغُ عقولهم مَنظَرِ عيونهم ، وبين رؤساء لا يُلْجَمُونَ إلا بشدّة ، ولا يَفْطَمُونَ إلا بالمرّة ؛ وإن ولّى المهديّ عليهم وضيعا لم تَنقُدْ له العِظاءُ ، وإن ولّى أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء ؛ وإن أخر المهديّ أمرهم ، ودافع حربهم ، حتى يُصيب لنفسه من حشمة ومواليه ، أو بنى عمه أو بنى أبيه ؛ ناصحا يتفق عليه أمرهم ، وثقةً تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تُلزِمهم ، ولا حمية تَدْخُلهم ، ولا مصيبة تنفرهم ؛ تنفست الأيامُ بهم ، وتراخت الحالُ بأمرهم ؛ فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم ، ما لا يتلافاه صاحبُ هذه الصّفة وإن جدّ ، ولا يستصاحبه وإن جهّد ،

(١) ميمون النقية : أى مبارك النفس ينجح فيما يحاول . ومخبّر التجارب : خبير بها .

(٢) العازب : الغائب .

(٣) العذل : اسم مصدر من العذل بمعنى اللوم ومنه المثل "سبق السيف العذل" يضرب لما قد فات .

إلا بعد دهر طويل وشركير؛ وليس المهديّ — وفقه الله — فاطماً عاداتهم، ولا فارعا صفاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما . ولا عدل في ذلك بهما :

أحدهما لسانٌ ناطقٌ موصولٌ بسمعك، ويدٌ ممثلةٌ لعينك، وصخرةٌ لا تُزعزعُ، وبُهمةٌ لا يُثنيُّ، وبازلٌ لا يُفزعُه صوتُ الجُلجل، نقيّ العرض، نزيه النفس، جليل الخطر، قد اتّضعت الدنيا عن قدره، وسما نحو الآخرة بهمته، فجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً، والغرض الأدنى لقدمه موطنًا؛ فليس يقبل عملاً، ولا يتعدى أملاً؛ وهو رأس مواليك، وأنصح بني أبيك؛ رجل قد غدّى بلطيف كرامتك، ونبت في ظل دولتك، ونشأ على قوائم أدبك؛ فإن قلّته أمرهم، وحملته ثقلهم، وأسندت إليه ثغرهم؛ كان قفلاً فتحه أمرُك، وباباً أغلقه نهيك؛ فجعل العدل عليه وعليهم أميراً، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً؛ وإذا حكم النصبة وسلك المعادلة، فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم ما عليهم، غرس في الذي لك بين صدورهم، وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم، طاعةً راسخةً العروق، باسقةً الفروع، متائلةً في حواشي عوامهم، متمكنة من قلوب خواصهم؛ فلا يبقى فيهم ريب إلا نقوه، ولا يلزمهم حق إلا أدّوه؛ وهذا أحدهما .

والآخر عودٌ من غيضةٍ؛ ونبتةٌ من أرومتك، قتي السن كهل الحلم راجع العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف؛ يجرد فيهم سيفه، ويسط على خيره بقدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجبون؛ وهو فلان أيها المهديّ، فسَلطه — أعزك الله — عليهم، ووجهه بالجوش اليهم، ولا تمنك ضراعة سنه، وحدائه مولده؛ فإن الحلم والثقة مع الحدائث، خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإنما أهدأكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه، وأختصكم به من مكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة النفس؛ كِفراخ عتاق الطير المحيكة لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة

(١) ضراعة سنه : شابه وحدائثه .

(٢) عتاق الطير : كرام الطير .

لوجوه النَّفْع بلا تأديب؛ فالحلم والعلم والعزم والحزم والجلود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم،
مزروع في قلوبكم، مستحکم لكم، متكامل عندكم، بطائع لازمة، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

إفناء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر . وأهل خراسان في حال عز على
ما وُصف، ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود، ولا بنبيه
الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأموار، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة
في الأعداء؛ دخل ذلك أمران عظيمان وخطران مهولان، أحدهما : أن الأعداء يفتيمزونها
منه ويحتفرونها فيه ، ويحترون بها عليه في النهوض به والمقارعة له ، والخلاف عليه، قبل
الاختبار لأمره، والتكشّف لحاله والعلم بطباعه . والأمر الآخر : أن الجنود التي يقود
والجيوش التي يسوس إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة، ولم يعرفوه بالصيت والهيبة ،
أنكسرت شجاعتهم، وماتت نجاتهم ، واستأخرت طاعتهم الى حين اختبارهم، ووقوع
معرفتهم؛ وربما وقع البوار قبل الاختبار؛ وبياب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب
نبه حينك صيت؛ له نسب زالك وصوت عال، قد قاد الجيوش وساس الحروب، وتألف
أهل خراسان، واجتمعوا عليه بالميقة، ووثقوا به كل الثقة؛ فلولاه المهدي أمرهم،
لكفاه الله شرهم .

قال المهدي : جانبت قصد الرمية، وأبنت إلا عصبية؛ إذ رأى الحدّث من أهل
بيتنا، كراى عشرة حلماء من غيرنا؛ ولكن أين تركتم ولي العهد .

قالوا :

لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جدّه، ونسيج وحده؛ ومن الدين وأهله، بحيث يقصر
القول عن أدنى فضله؛ ولكن وجدنا الله عز وجل حجب عن خلقه، وستر من دون عباده
علم ما تختلّف به الأيام، ومعرفة ما تجري عليه المقادير، من حوادث الأمور ورئب المنون

الْمُخْتَرِمَةَ لِحَوَالِي الْقُرُونِ وَمَوَاضِي الْمُلُوكِ ، فَكَرِهْنَا شُسُوعَهُ ^(١) عَنْ مَحَلَّةِ الْمَلِكِ وَدَارِ السُّلْطَانِ وَمَقَرِّ
الإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ وَمَوَاضِعِ الْمَدَائِنِ وَالْخِزَانِ ، وَمَسْتَقَرِّ الْجُنُودِ وَمَعْدِنِ الْجُودِ ؛ وَجَمَعَ الْأَمْوَالَ
الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ قُطْبًا لِدَارِ الْمَلِكِ وَمِصِيدَةً لِقُلُوبِ النَّاسِ وَمَتَابَةً لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ وَتُورِ الْفِتَنِ ،
وَدَوَاعِيَ الْبِدْعِ وَفِرْسَانَ الضَّلَالِ وَأَبْنَاءَ الْمَوْتِ . وَقُلْنَا : إِنْ وَجَّهَ الْمَهْدِيُّ وَلِيَّ عَهْدِهِ فَحَدَّثَ
فِي جِيوشِهِ وَجُنُودِهِ مَا قَدْ حَدَّثَ بِجُنُودِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَهْدِيُّ أَنْ يُعْقِبَهُمْ
بَغَيْرِهِ إِلَّا أَنْ يَنْهَدَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ؛ وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنْ تَنَفَّسَتْ الْأَيَّامُ بِمَقَامِهِ ،
وَأَسْتَدَارَتْ الْحَالَ بِإِمَامَتِهِ ، حَتَّى يَقَعَ عِوَضٌ لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ ، أَوْ يَحْدُثَ أَمْرٌ لَا يَدُّ مِنْهُ ،
صَارَ مَا بَعْدَهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ هَوْلًا وَأَجَلْ خَطَرًا لَهُ تَبَعًا وَبِهِ مُتَّصِلًا .

قال المهدي :

الْخَطْبُ أَيْسَرُ مِمَّا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى غَيْرِ مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ ؛ نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ
نَجْرِي مِنْ أَسْبَابِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقِ مِنَ الْعِلْمِ وَمَحْتَوِمٍ مِنَ الْأَمْرِ ؛ قَدْ
أَنْبَأَتْ بِهِ الْكُتُبُ ، وَنَبَأَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ ؛ وَقَدْ تَنَاهَى ذَلِكَ بِأَجْمَعِهِ الْبِنَاءُ ، وَتَكَامَلَ بِحِذَائِهِ
عِنْدُنَا ؛ فِيهِ نُدَبُّ وَعَلَى اللَّهِ تَتَوَكَّلْ . إِنَّهُ لَا يَدُّ لَوْلَى عَهْدِي وَوَلِيَّ عَهْدِي عَقِبِي بَعْدِي أَنْ يَقُودَ
إِلَى خِرَاسَانَ الْبُعُوثِ ، وَيَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ ، وَيُعْمِلُ فِيهِمْ حِيلَهُ ؛ ثُمَّ يَخْرُجُ نَشِيطًا إِلَيْهِمْ حَقِيقًا
عَلَيْهِمْ ، يَرِيدُ أَلَّا يَدَعَ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِ الْفِتَنِ وَدَوَاعِيَ الْبِدْعِ وَفِرْسَانَ الضَّلَالِ ، إِلَّا تَوَطَّاهُ
بِحَزْمِ الْقَتْلِ ، وَأَلْبَسَهُ قِنَاعَ الْقَهْرِ ، وَقَلَّدَهُ طَوْقَ الذَّلَّةِ ؛ وَلَا أَحَدًا مِنَ الَّذِينَ عَمِلُوا فِي قِصِّ
جَنَاحِ الْفِتْنَةِ ، وَإِنْ حَادَ نَارَ الْبِدْعَةِ ، وَنُصْرَةَ وِلَاةِ الْحَقِّ ، إِلَّا أَجْرَى عَلَيْهِمْ دِيمَ فَضْلِهِ ، وَجَدَاوَلَ
نَهْلَهُ ؛ فَإِذَا خَرَجَ مُزْمِعًا بِهِ مُجْمَعًا عَلَيْهِ ، لَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَأْتِيَهُ أَنْ قَدْ عَمِلَتْ حِيلُهُ ،
وَكَدَحَتْ كُتْبُهُ وَفَقَدَتْ مَكَائِدَهُ ؛ فَهَدَأَتْ نَافِرَةَ الْقُلُوبِ ، وَوَقَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ ، وَاجْتَمَعَ ^(٢)

(١) شُوعُهُ : ابتعاده .

(٢) سَمِعَتْ وَدَأَبَتْ حَتَّى أَثَرَتْ .

(٣) رَفَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ : نَحَدَ غَضَبُهَا وَرَسَكُنَ رَوْعُهَا .

عليه المختلقون بالرضا ؛ فيميل نظرا لهم ، ويرأ بهم ، وتعطفوا عليهم ، الى عدو قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهم ، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام ، وسلب تجارهم رزق الله الحلال .

وأما الآخر فانه يوجه اليهم ، ثم تعتقد له الحجة عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، وبذل ما يسألون ؛ فاذا سمحت الفرق بقراباتها له ، وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه ؛ فأصغت اليه الأفئدة ، واجتمعت له الكلمة ؛ وقدمت عليه الوفود قصد لأول ناحية نجعت بطاعتها وألفت بأزمته ؛ فالبسها جناح نعمته ، وأنزلها ظل كرامته ، وخصها بعظيم حباته ؛ ثم عم الجماعة بالمعدلة ، وتعطف عليهم بالرحمة ؛ فلا تبقى فيهم ناحية دانية ولا فرقة فاصية ، إلا دخلت عليها بركته ، ووصلت اليها منفعة ؛ فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع وضعيها ، وزاد رفيعها ما خلا ناحيتين ؛ ناحية يغلب عليها الشقاء ، وتسميهم الأهواء ، فتستخف بدعوته ، وتبطئ عن إجابته ، وتتناقل عن حقه ، فتكون آخر من يبعث وأبطأ من يوجه ؛ فيصطلي عليها موجدة ويتغنى لها علة ، لا يلبث أن يبد بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم ، فتستلجمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، وتستحز بهم القتل ، ويحيط بهم الأسر ، ويفنيهم التبع ؛ حتى يخرب البلاد ، ويؤتم الأولاد ؛ وناحية لا يسط لهم أمانا ، ولا يقبل لهم عهدا ولا يجعل لهم ذمة ؛ لأنهم أول من فتح باب الفرقة ، وتذرع جلباب الفتنة ، وربض في شق العصا ؛ ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ؛ ويطلب هراهم في لجج البحار ، وقلل الجبال ، ونحل الأودية ، وبطن الأرض ، تقتيلا وتغليلا وتنكيلا ؛ حتى يدع الديار خرابا ، والنساء أياى ؛ وهذا أمر لا نعرف له في كتبنا وقتا ، ولا نصحح منه غير ما قلنا تفسيرا .

وأما موسى ولحقه عهدى فهذا أوان توجهه الى خراسان ، وحلوله بخرجآن ؛ وما قضى الله له من الشخوص اليها ، والمقام فيها ، خير للمسلمين مغبة ، وله بإذن الله عاقبة من المقام ، بحيث يغمر في لجج بحورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ؛ فيتصاهر عظيم فضله ،

وَيَتَذَابُ^(١) مشرق نوره، ويتقلل كثير ما هو كائن منه؛ فمن يصحبه من الوزراء ويختار له من الناس .

قال محمد بن الليث :

أيها المهدي : إن ولي عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علما ، قد تثنت نحوه أعناقها ، ومدت ستمته أبصارها ؛ وقد كان لقرب داره منك ، ومحل جواره لك ، عطل الحال غفل الأمر وإسع العذر ؛ فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار الى تدبيره ، فإن من شأن العامة أن^(٢) تتفقد مخارج رأيه ، وتستنصت لمواقع آثاره ، وتسأل عن حوادث أحواله في بره ومرحمته وإفساطه ومعدله وتدبيره وسياسته ووزرائه وأصحابه ؛ ثم يكون ما سبق اليهم أغلب الأشياء عليهم وأملك الأمور بهم وألزمها لقلوبهم ، وأشدّها استمالة لرأيهم وعطفًا لأهوائهم ؛ فلا يفتأ المهدي — وفقه الله — ناظرا له فيما يقوى عمده مملكته ، ويسدد أركان ولايته ، ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزين لحاله وأظهر لجماله ، وأفضل مغبة لأمره ؛ وأجل موقعا في قلوب رعيته ، وأحمد حالا في نفوس أهل ملته ؛ ولا أدفع مع ذلك باستجاء الأهواء له ، وأبلغ في استعطاف القلوب عليه ، من مرحمة تظهر من فعله ، ومعدلة تنتشر عن أثره ومحبة للخير وأهله ، وأن يختار المهدي — وفقه الله — من خيار أهل كل بلدة ، وفقهاء أهل كل مصر ؛ أقواما تسكن اليهم العامة إذا ذكروا ، وتأنس الرعية بهم إذا وُصفوا ؛ ثم تسهل لهم عمارة سبل الإحسان وفتح باب المعروف ، كما قد كان فتح له وسهل عليه .

قال المهدي : صدقت ونصحت ، ثم بعث في ابنه موسى فقال :

أى بنى ، إنك قد أصبحت لسمت^(٤) وجوه العامة نصبا ، ولمثنى^(٥) أعطاف الرعية غاية ؛ فحسبك شاملة ، وإساءتك نائية ، وأمرك ظاهر ؛ فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل

(١) يتذاب : ينجذب . (٢) تتفقد مخارج رأيه : أى تفحص عن وجوه رأيه وتدبيره . (٣) أملك

الأمور : أضبطها . (٤) السم : المذهب والقصد . (٥) الأعطاف : جمع عطف وهو الجانب .

يُسَخِّطُ النَّاسَ فِيهِمَا ، وَلَا تَطْلُبُ رِضَاهُمَا بِخِلَافِهِمَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَافِيكَ مِنْ أَسْخِطِهِ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَاهُ ، وَلَيْسَ بِكَافِيكَ مِنْ يُسَخِّطُهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَا مَنْ سِوَاهُ . ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ فِتْرَةٌ مِنْ رُسُلِهِ ، وَبَقَايَا مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِهِ وَخَبَايَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يَجِدُّدُ حَبْلَ الْإِسْلَامِ بِدَعْوَاهُمْ ، وَيَشِيدُ أَرْكَانَ الدِّينِ بِنُصْرَتِهِمْ ؛ وَيَتَخَذُ لِأَوْلِيَاءِ دِينِهِ أَنْصَارًا ، وَعَلَى إِقَامَةِ عَدْلِهِ أَعْوَانًا ؛ يَسُدُّونَ الْخَلَلَ وَيَقِيمُونَ الْمِلَّةَ ، وَيَدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ الْفُسَادَ ؛ وَإِنَّ أَهْلَ خِرَاسَانَ أَصْبَحُوا أَيْدِي دَوْلَتِنَا ، وَسَيُوفُ دَعْوَتِنَا الَّذِينَ نَسْتَدْفِعُ الْمَكَارَهَ بِطَاعَتِهِمْ ، وَنَسْتَصْرِفُ نَزُولَ الْعِظَائِمِ بِمَنَاصِحَتِهِمْ ؛ وَنُدَافِعُ رَيْبَ الزَّمَانِ بِعِزَائِمِهِمْ ، وَنُزَاحِمُ رُكْنَ الدَّهْرِ بِبِصَائِرِهِمْ ؛ فَهَمَّ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أُرْجِفَتْ كُنْفُهَا^(١) ، وَخَوْفُ الْأَعْدَاءِ إِذَا بَرَزَتْ صَفْحَتُهَا ، وَحَصُونُ الرِّعْيَةِ إِذَا تَضَايَقَتْ الْحَالَ بِهَا ؛ قَدْ مَضَتْ لَهُمْ وَقَائِعُ صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ؛ أُنْعَمْتُ نِيرَانُ الْفَتَنِ ، وَقَسَمْتُ دَوَائِي الْبَسَدِ ، وَأَذَلَّتْ رِقَابَ الْجَبَّارِينَ وَلَمْ يَنْفَكُوا كَذَلِكَ مَا جَرُّوا مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ، وَأَقَامُوا فِي ظِلِّ دَعْوَتِنَا ، وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ طَاعَتِنَا ؛ الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا ذُلَّتَهُمْ وَرَفَعَ بِهَا ضَعْفَتَهُمْ ؛ وَجَعَلَهُمْ بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ بَعْدَ لِبَاسِ الذُّلِّ ، وَقِنَاعِ الْخَوْفِ ، وَإِطْبَاقِ الْبَلَاءِ وَمُخَالَفَةِ الْأَسَى ، وَجَهْدِ الْبَاسِ وَالضَّرِّ ؛ فَظَاهَرُ عَلَيْهِمْ لِبَاسُ كِرَامَتِكَ ، وَأَتَزَلَّهُمْ فِي حَدَائِقِ نِعْمَتِكَ ؛ ثُمَّ أَعْرِفْ لَهُمْ حَقَّ طَاعَتِهِمْ ، وَوَسِيلَةَ دَائِلَتِهِمْ ، وَمَائَتَةَ سَابِقَتِهِمْ ، وَحُرْمَةَ مَنَاصِحَتِهِمْ ؛ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِثَابَةِ لِحُسْنِهِمْ ، وَالْإِقَالَةَ لِمُسِيئَتِهِمْ .

أَيُّ بُنَى ، ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَامَّةُ فَاسْتَدْعِ رِضَاهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مُوَدَّتَهَا بِالْإِنْصَافِ لَهَا ؛ وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَثَّقْ بِهِ فِي عَيْنِ رِعْيَتِكَ ، وَاجْعَلْ عَمَالَ الْعُدْرِ وَوُلَاةَ الْحُجَجِ مُقَدِّمَةً بَيْنَ عَمَلِكَ ، وَنَصَفَةً مِنْكَ لِرِعْيَتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاضِيَ كُلِّ بَلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ رِجَالًا تَوَلَّيَهُ أَمْرَهُمْ ، وَتَجْعَلَ الْعَدْلَ حَاكِمًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ ؛ فَإِنْ أَحْسَنَ مُحَدَّثٌ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذِرَتْ . هَؤُلَاءِ عَمَالُ الْعُدْرِ وَوُلَاةُ الْحُجَجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ عَلَيْكَ

(١) الْكُنْفُ : جَمْعُ كُنْفٍ وَهُوَ الْجَانِبُ . وَأُرْجِفَتْ : زَلَزِلَتْ .

ما في ذلك اذا أنتشر في الآفاق ، وسبق الى الأسماع ، من أنعقاد السنة المرجفين ، وكبت
قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ؛ ولا ينفك في ظل
كرامتك نازلا ، وبِعراً حبلك متعلّقاً رجلاًن : ^(١) أخدهما كريمة من كرائم رجالات العرب ،
وأعلام بيوتات الشرف ؛ له أدب فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآحر له دين غير
مغموز ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي وأنحاء العرب ووضع
الكتب ، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب ؛ يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية ، من
محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك ؛ فتستشير في حرك ، وتدخله في أمرك ؛ فوجل
أصبتك كذلك فهو يأوى الى محلتى ، ويرعى في خضرة جناني ؛ ولا تدع أن تختار لك من
فقهاء البلدان ، وخيار الأمصار ، أقواما يكونون جيرانك وسمارك ، وأهل مشاورتك فيما
تورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر . فسر على بركة الله ، أحجبك الله من عونه وتوفيقه
دليلاً يهتدى الى الصواب قلبك ، وهادياً ينطق بالخير لسانك . وكتب في شهر ربيع الآخر
سنة سبعين ومائة ببغداد .

(١) الكريمة : صاحب الكرم . وكرائم الرجال : أخاير رجال العرب وأحسنهم . (٢) غير مغموز :

غير مطعون : وغير مدخول : لا يداخله فساد .

٢ - رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشد

الى قُسطنطين ملك الروم

من عبد الله هارون أمير المؤمنين الى قسطنطين عظيم الروم: سلام على من أتبع الهدى ،
 فإني أحمد الله الذي لا شريك معه ، ولا ولد له ، ولا إله غيره ، الذي تعالى عن شبه
 المخلوقين بمظمته ، واحتجب دون المخلوقين بعزته ، فليست الأبصار بمُدركة له ، ولا
 الأوهام بواقعة عليه ، انفراداً عن الأشياء أن يُشبهها ، وتعالى أن يشبهه شيء منها ، وهو
 الواحد القهار ، الذي ارتفع عن مبالغ صفات القائلين ، ومذاهب لغات العالمين ، وفكر
 الملائكة المقترين ، فليس كمثله شيء ، وله كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

أما بعد ، فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل
 من آيات الوحي اليه : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي
 هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . فرأى
 أمير المؤمنين من أحسن قوله وأفضل فعله ، أن يكون الى سبيل ربه داعياً ، وبرسوله
 صلى الله عليه وسلم متأسياً ، ولقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
 إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ موافقاً . وكنت من كتب الله المنزلة ، وآياته المفسرة ، وخلفه الكثير
 بحيث رجا أمير المؤمنين استماعك لموعظته ، وانتفاعك بمجادلته انتفاع بشير كثير وخلق
 عظيم قد بُؤت بأوزارهم مع وزيرك ، واحتملت من آتامهم الى إثمك ، فأحب أن يدعوك
 ومن رجا أن ينتفع بدعوته معك ، الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نُشرك به
 شيئاً ولا نأخذ بعضاً بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن توليتم عن ذلك رغبة عنه ،
 أو تركتموه زهادة فيه ، فأنهدوا بأنا مسلمون . واستمعوا ما أمير المؤمنين واصلف لكم ،
 ومحتاج به إن شاء الله عليكم ، بقلوب شاهدة وآذان واعية ، ثم اتبعوا أحسن ما تسمعون .
 ولا قوة إلا بالله .

فان الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه وأقتصص على عباده : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ . إن الله تبارك اسمه وتعالى جدّه، وصنّف فيما أنزل من آياته، وشرح من بيناته، الأُمم الماضية، والقُرُون الخالية، والملل المتفرقة، الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى لا بُرْهانَ لهم بها، ولا حجة لهم فيها، فقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

قالت العرب الذين يعبدون الملائكة وأهل الكتاب الذين يقولون ثالثُ ثلاثةٍ بآيتيَا آيةٍ يا محمد تزعم أن الله إله واحد ، فأنزل الله عز وجل في ذلك آيةً تشهد لها العقول ، وتؤمن بها القلوب ، وتعرفها الألباب ، فلا تستطيع لها ردًا ، ولا تطيق لها جحدا ، ذكر فيها اتصال خلقه واتفاق صنعه ، ليوقن الجاهلون من العرب ، والضالون من أهل الكتاب ، أن إله السماء والأرض ، وما بينهما من الهواء والخلق ، واحد لا شريك له ، خالق لا شيء معه ، فقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ . فتفكر في تفسير هذه الآية من كلام الرب عز وجل ، وما أوضح فيها من بيان الخلق ، فإنه ما من مفكرٍ ينظر فيما ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض ، إلا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض ، مثل ما رأى في تديره نفسه ، وعرف من اتصال خلقه ، فيما بين ذوائب شؤون رأسه الى أطراف أنامل قدميه . وفي ذلك أوضح آية وأبين دلالة ، على أن الذي خلقه وصنعه إله واحد لا إله معه ، ولا من شيءٍ أبدعه ، ولا على مثالٍ صنعه . قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم ، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرض ، وجعلها موصولةً بالخلق ، فليس يذخوها إلا لهم ، ولا يُدِيمها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلق متصلا

بِالنَّبْتِ ، لَا يَقُومُ إِلَّا بِهِ ، وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِ . وَجَعَلَ ذَلِكَ النَّبْتَ الَّذِي جَعَلَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَمَعَاشًا لِأَعْنَامِكُمْ ، مُتَصِلًا بِالمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ، لِمَعَاشٍ مَقْسُومٍ ؛ فَلَيْسَ يَنْجُمُ النَّبْتُ إِلَّا بِهِ وَلَا يَحْيَا إِلَّا عَنْهُ . وَجَعَلَ السَّحَابَ الَّذِي يَبْسُطُهُ كَيْفَ يَشَاءُ مُتَصِلًا بِالرِّيحِ الْمُسَجَّرَةِ فِي جَوْ السَّمَاءِ تُبْرِهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ ، وَتَسُوقُهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَدْمِيَّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ وَوَصَلَ الرِّيحُ الَّتِي يَصْرِفُهَا فِي جَوْ السَّمَاءِ بِمَا يُؤَثَّرُ فِي خَلْقِ الْهَوَاءِ مِنَ الْأَزْمَنَةِ الَّتِي لَا تُثَبَّتُ الْهَوَاجِرُ إِلَّا بِثَبَاتِهَا ، وَلَا يَزُولُ عَنْهُ بَرْدٌ إِلَّا بِزَوَالِهَا ؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَظَلَّ رَاكِدًا بِالْحَرِّ الْمَمِيتِ ، أَوْ مَائِلًا بِالْبَرْدِ الْقَاتِلِ . وَوَصَلَ الْأَزْمَنَةُ الَّتِي جَعَلَهَا مُتَصَرِّفَةً مُتَلَوَّنَةً بِمَسِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الدَّائِبَيْنِ لَكُمْ الْمُخْتَلِفِينَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَيْكُمْ . وَجَعَلَ مَسِيرَهُمَا الَّذِي لَا تَعْرِفُونَ عَدَدَ السِّنِّينَ إِلَّا بِهِ ، وَلَا مَوَاقِعَ الْحِسَابِ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِ ، مُتَصِلًا بِدَوْرَانِ الْفَلَكَ الَّذِي فِيهِ يَسْبَحَانِ ، وَبِهِ يَأْفُلَانِ ؛ وَوَصَلَ مَسِيرَ الْفَلَكَ بِالسَّمَاءِ لِلنَّاطِرِينَ سَوَاءً . فَهَذَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، مَا فِيهِ تَبَايُحٌ وَلَا تَرَايُلٌ وَلَا تَفَاوُتٌ ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ . وَلَوْ كَانَ لِلَّهِ شَرِيكٌ أَوْ مَعَهُ ظَهِيرٌ عَلَيْهِ ، يُمَسِّكُ مِنْهُ مَا يُرْسِلُ ، وَيُرْسِلُ مِنْهُ مَا يُمْسِكُ ، أَوْ يُؤَخِّرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَنْ وَقْتِ زَمَانِهِ ، أَوْ يَعَجِّلُهُ قَبْلَ مَجِيئِهِ ؛ أَبَانَهُ ، لِتَفَاوُتِ الْخَلْقِ ، وَلِتَبَايُنِ الصَّنْعِ ، وَلِفُسَادِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلِذَهَابِ كُلِّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمُ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ .

وَالْعَجَبُ : كَيْفَ يَصِفُ مَخْلُوقُ رَبِّهِ ، أَوْ يَجْعَلُ مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ ، وَهُوَ يَرَى فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ صُنْعَةً ظَاهِرَةً ، وَحِكْمَةً بَالِغَةً ، وَتَأْلِيفًا مُتَّفَقًا ، وَتَدْبِيرًا مُتَصِلًا ، مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَا يَقُومُ بَعْضُهُ إِلَّا بِبَعْضٍ ، مُتَجَلِّيًا بَيْنَ يَدَيْهِ ، مَائِلًا نُصَبَ عَيْنُهُ ، يَنَادِيهِ إِلَى صَانِعِهِ ، وَيَدُلُّهُ عَلَى خَالِقِهِ ، وَيَشْهَدُ لَهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَيَهْدِيهِ إِلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، ﴿ قَتَعَ عَلَى اللَّهِ

عَمَّا يُشْرِكُونَ أَشِيرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . حَقًّا مَا كَرَّرَهُؤَلَاءِ الْجَاهِلُونَ
 رَبَّهُم الضَّالُّونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، فى خلق الله النظر ، ولا رَجَعُوا كما قال الله عز وجل
 الْفِكْرَ . ولو أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ وَأَجْهَدُوا نَظْرَهُمْ ، فَمَا تَسْمَعُ آذَانُهُمْ وَتَرَى أَبْصَارُهُمْ ، مِنْ
 حَوَادِثِ حَالَاتِ الْخَلْقِ ، وَعَجَائِبِ طَبَقَاتِ الصَّنْعِ ، لَوَجَدُوا فى أَقْرَبِ مَا يَرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ :
 مِنَ التَّأْلِيفِ لَتَرْكِيبِ خَلْقِهِمْ ، وَالْأَثَرِ فى التَّدْبِيرِ بِصُنْعِهِمْ ، مَا يَدُلُّهُمْ عَلَى تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ ،
 وَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى انْفِرَادِهِ بِخَلْقِهِمْ . فَانْهَمَ يَرُونَ فى أَنْفُسِهِمْ بِأَعْيُنِهِمْ وَيَجِدُونَ بِقُلُوبِهِمْ ، أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ
 صَنْعَةً بَعْدَ صَنْعَةٍ ، وَمَحْوَلَةٌ طَبَقَةً عَنْ طَبَقَةٍ ، وَمَنْقُولَةٌ حَالًا إِلَى حَالٍ : سُلَالَةٌ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ
 نُطْفَةٌ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ عَلَقَةٌ ، ثُمَّ مُضْغَةٌ ، ثُمَّ عَظْمٌ ، كَسَاهُ اللهُ عِزَّ وَجَلَّ تَجَمُّاً ، وَنَفَخَ فِيهِ رُوحًا ،
 فَإِذَا هُوَ خَلَقَ آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، الَّذِى خَلَقَ فى قَرَارٍ مَكِينٍ ، مِنْ مَاءٍ قَلِيلٍ
 ضَعِيفٍ ذَلِيلٍ ، خَلَقًا صَوْرَهُ بِتَخْطِيطٍ ، وَقَدَّرَهُ بِتَرْكِيبٍ ، وَأَلْفَسَهُ بِأَجْزَاءٍ مُتَّفِقَةٍ ، وَأَعْضَاءٍ
 مُتَّصِلَةٍ ، مِنْ قَدَمٍ إِلَى سَاقٍ إِلَى نَحْذٍ إِلَى مَا فَوْقَ ذَلِكَ : مِنْ مَفَاصِلَ مَا يُعْلَنُ أَوْ عَجَائِبِ
 مَا يُبْطِنُ ، لِيَعْلَمَ الْجَاهِلُونَ وَيُوقِنَ الْجَاهِدُونَ ، أَنَّ الَّذِى صَنَعَ ذَلِكَ وَخَلَقَهُ وَدَبَّرَهُ وَقَدَّرَهُ
 وَهَيَّأَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ مَعَهُ . فَلَا يَذْهَبَنَّ ذِكْرُ هَذَا صَفْحًا عَنْكُمْ ، وَلَا تَسْقُطْ
 حِكْمَتُهُ جَهْلًا بِهِ عَلَيْكُمْ ، وَفَكِّرُوا فى آيَاتِ الرُّسُلِ وَبَيِّنَاتِ النُّذُرِ ، فَإِنَّ فى ذَلِكَ فِكْرًا لِلْبَصِيرِينَ ،
 وَبَصَرًا لِلْعَتِيرِينَ ، وَذِكْرًا لِلْعَابِدِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَاصِفٌ لَكُمْ ، وَمَقْتَصٌ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ عَلَيْكُمْ ، مَا فِيهِ شَهَادَاتٌ
 وَاضِحَاتٌ ، وَعَلَامَاتٌ بَيِّنَاتٌ ، وَمَبْتَدِئٌ بِذِكْرِ آيَاتِ نَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم فِيمَا أُنْزِلَ اللهُ
 مِنْهَا فى الْوَحْيِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مَا أَحَدٌ يَقْرَعُ بِآيَاتِ النُّبُوَّةِ قَلْبَهُ ، وَيَحْصُنُ بِبَيِّنَاتِ الْهُدَى عَقْلَهُ ، إِلَّا
 قَادَتْهُ حَتَّى يَأْمَنَ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، لَا يَجِدُ إِلَى إِنْكَارِهِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ سَبِيلًا .
 فَأَرَدْتُ أَنْ تَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَيَقِينٍ وَثَقَةٍ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَحَقِّهِ ،
 وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عِزَّ وَجَلَّ . فَأَحْضَرْتُ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهَمَكُ ، وَأَلْقَى إِلَى مَا هُوَ وَاصِفٌ
 إِنْ شَاءَ اللهُ سَمْعَكَ . إِنْ شَاءَ اللهُ عِزَّ وَجَلَّ أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ لِنَفْسِهِ ، وَأَخْتَارَ لَهُ رُسُلًا مِنْ خَلْقِهِ ،
 وَأَتَّبَعَتْ كُلُّ رُسُلٍ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ، لِيَمِينَ لَهُمْ مَا يَتَّبِعُونَ ، وَيَعْلَمُهُمْ مَا يَنْجِهُلُونَ : مِنْ تَوْحِيدِ

الرب وشرائع الحق ﴿لَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .
 فلم تزل رسل الله قائمة بأمره ، متوالية على حقه ، في مواضع الدهور ، وحوالي القرون ،
 وطبقات الزمان ، يصدق آخرهم بنبوّة أولهم ، ويصدق أولهم قول آخرهم ؛ ومفاتيح دعوتهم
 واحدة لا تختلف ، ومجامع ملتهم ملتزمة لا تفترق ، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بنى
 عيسى عليه السلام عليها وبشر بها ، الى النبي الأمي الذي انتخبه الله لوجيه ، وأختاره بعلمه ؛
 فلم يزل ينقله بالآباء الأخابر ، والأمهات الطواهر ، أمة فامة ، وقرنا فقرنا ، حتى استخرجه
 الله في خير أوان ، وأفضل زمان ، من أثبت محاتد أرومات البرية أصلا ، وأعلى ذوائب نبغات^(٣)
 العرب فرعا ، وأطيب منابت أعياص قريش مغرسا ، وأرفع ذرى مجد بنى هاشم سمسكا :
 محمد صلى الله عليه وسلم خيرها عند الله وخلقه نفسا ، على حين أوحشت الأرض من أهل
 الإسلام والإيمان ، وأمتلات الآفاق من عبدة الأصنام والأوثان ، وأشتعلت البدع في الدين ،
 وأطبقت الظلم على الناس أجمعين ؛ وصار الحق رسما عافيا ، خلقا باليا ، ميتا وسط أموات ،
 ما إن يحسون للهدى صوتا يسمعون ، ولا للدين أثرا يتبعونه . فلم يزل صلى الله عليه وسلم
 قائما بأمر الله الذي أنزل إليه ، يدعوهم الى توحيد الرب عز وجل ، ويحذّرهم عقوبات
 الشرك ، ويحادلهم بنور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإسلام ، صابرا على الأذى ،
 محتملا للكره ؛ قد ألهمه الله عز وجل أنه مظهر دينه ، ومُعزّ تمكينه ، وعاصمه ومستخلفه
 في الأرض ، فليس يثنيه ريب ، ولا يلوّيه هيب ، ولا يعنيه أذى ؛ حتى اذا قهرت البيئات
 ألبابهم ، وبهرت الآيات أبصارهم ، وخصم نور الحق حجّتهم^(٤) ، فلم تمتنع القلوب من المعرفة
 بدون صدقه ، ولم تجد العقول سبيلا الى دفع حقه . وهم على ذلك مكذبون بأفواههم ،
 وجاحدون بأقوالهم ؛ كما قال الله عز وجل العليم بما يُسرّون ، الخابر بما يُعلنون : ﴿فإنهم
 لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يخحدون﴾ بغيا وعداوة ، وحسدا ولحاجة ، افترض

(١) محاتد : جمع محتد ، وهو الأصل . (٢) أرومات : جمع أرومة ، وهي الأصل .

(٣) نبغات : أصول كريمة . (٤) أعياص قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر ، وهم : العاص

وأبى العاص والعيص وأبى العيص والفويص . (٥) في الأصل : "فلا" .

الله عليه قتلهم ، وأمره أن يجرد السيف لهم ، وهم فى عصابة يسيرة ، وعدة قليلة ، مستضعفين مستذللين ، يخافون أن يخطفهم العرب ، وتداعى عليهم الأمم ، وتستحلهم^(٢) الحروب ، فأواهم فى كنفه ، وأيدهم بنصره ، وأنذرهم بمقدمة من الرب ، ومشغلة من الحق ، وجنود من الملائكة ، حتى هزم كثيرا من المشركين بقتلهم ، وغلب قوة الجنود بضعفهم ، إنجازا لوعده ، وتصديقا لقوله : ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فأحسن النظر وقلب الفكر فى حالات النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي قائما لله ، لتجد لمذاهب فكره وتصاريه نظرك ، مضطربا واسعا ، ومعتمدا نافعا ، وشعوبا حجة ، كلها خير يدعوك الى نفسه ، وبيان ينكشف لك عن محضه . وأخير أمير المؤمنين ما كنت قائلا لو لم تكن البعثة للنبي - صلى الله عليه وسلم - بلغتك ، ولم تكن الأنبياء بأموره تقتررت قبلك ، ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نجم بين ظهرائى مثل هذه الضلالات المستأصلة ، والجماعات المستأسدة ، التى ذكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجماهير الأمم ، وصناديد الملوك ، ناجم قد نصب لها وغرى بها ، يجهل أحلامها ، ويكفر أسلافها ، ويفرق الأنفها ، ويلعن آباءها ، ويضلل أديانها ، وينادى بشهاب الحق بينها ، ويجهز بكلمة الإخلاص الى من ترانى عنها ، حتى حميت العرب ، وأنفت العجم ، وغضبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه ، وحيدا فريدا ، لا يحفل بهم غضبا ، ولا يرهب عتيا ، يقول الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أكنت تقول فيما تجرى الأقاويل به وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول ، وقد دعا الخنف الى نفسه ، وأذن الله لقومه فى قتله ، فليست الأيام بمادة ولا الحال بثابتة له إلا ريثما تستلحمه أسبابهم^(٤) ، وينهض به حامواؤهم ، غضبا لربهم ، وأنفة لدينهم ، وحمية لأصنامهم ، وحسدا من عند أنفسهم . وإما صادق

(١) أصله تداعى فحذفت إحدى تاءيه ، ومعناه يجتمعون عليهم ويتألبون بالعداوة .

(٢) تستحلهم : تلقى عليهم حملها وعباها . (٣) المستأسدة : القوية . (٤) تستلحمه :

تعلق به وتشب .

بصير بموضع قدمه ومرمى نبله ، قد تكفل الله عز وجل بحفظه ، وصحبه بعزه ، وجعله في حرزه ، وعصمه من الخلق ، فليست الوحشة بواصلة مع صحبة الله اليه ، ولا الهية بداخلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوف الأعداء بمأذون لها فيه . ثم ان آيتكم^(١) يا أهل الكتاب لو قيل لكم : إن الرجل الذي يدعى العِصمة وينتحل المنعة ، قد نجت الأمور به على ما قال ، وسلمت الحال له فيما آدعى ، حتى نصب لعمارات العرب ، وجماعات الأمم ، يقاتل بمن طأوعه من خالفه ، وبمن تابعه من عانده ، جاذبا مشمرا ، محتسبا واثقا بموعد الله ونصره ، لا تأخذه لومة لائم في ربه ، ولا يوجد لديه غمزة^(٢) في دينه ، ولا يلفته خذلان خاذل عن حقه ، حتى أعز الله دينه ، وأظهر تمكينه ، وأقادت الأهواء له ، واجتمعت الفرق عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقينا عندكم ، ودعوته شوتا فيكم ، حتى تقول الجماعة من سلمائكم وأهل الحنكة من ذوى آرائكم : ما كان الرجل ، اذ كان وحيدا فريدا قليلا ضعيفا ذليلا معروفا بالعقل منسوبا الى الفضل ، ليجتري أن يقول : إن الله عز وجل أوحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعا ويمتنعه من الأمم طوا ، حتى يبلغ رسالات ربه ، ويظهره على الدين كله ، ويدخل الناس أفواجا في دينه ، إلا وهو على ثقة من أمره ، ويقين من حاله .

فسبحان الله ! يا أهل الكتاب ما آيين حق النبي صلى الله عليه وسلم لمن طلبه ، وأسأله لمن قصد له . وآستعملوا في طلبه البابكم ، وأرفعوا ... أبصاركم ، تنظروا بعون الله اليه ، وتفقوا ان شاء الله عليه ؛ فإن علامات نبوته وآيات رسالته ، ظاهرة لا تخفى على من طلبها ، جملة لا يحصى عددها ، منها خواص تعرفها العرب ، وعوام لا تدفعها الأمم ؛ فأما الخواص المعروفة لدينا ، المعلومه عندنا ، التي أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقيلها الأتباع عن الأسلاف ، فأمر قد كثرت البيانات فيها ، وتداولت الشهادات عليها ، وثبتت الحجج بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأينا عيانا ، وقيلناه إيقانا ؛ فهي أظهر فينا من الشمس ،

(١) كذا في الأصل . (٢) عمارات العرب : أحيائها العظيمة . (٣) غمزة : مطعن .

(٤) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

وأين لدينا من النهار؛ ولكن غيبت الأزمان عنكم أمرها، ولم ينقل الآباء اليكم علمها، وما لا يدرك إلا بالسمع موضوع المحجة عن العقل، فليس أمير المؤمنين مُجَاجَّ لكم، ولا قاصد اليكم من قبلها. وأما الآيات العوام والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين، القاطعة لمُجَجِّ المبطلين، التي لا تنكر عقول الأئمة وجوب حقيقتها، ولا تدفع ألباب الأعداء صحة أمرها، فسوجبها أمير المؤمنين مسالك أسماكم، ويُعيد بها حجة الله في أعناقكم، من وجوه جمّة وأبواب كثيرة، إن شاء الله: منها أنه لم تزل الشياطين، فيما خلا من فترات الرسل وتداريات النذر، تصعد إلى سماء الدنيا، وتُنصت للآلئ الأعلى فتسترق السمع وتحفظ العلم، وتنزل به إلى كل أفاكٍ أثيم، يَنبُتُونَ أَكَاذِبَهُمْ عَلَى وَاضِحِ صَدْقِهِ، وَيُتَقَفُّونَ أَبَاطِلَهُمْ بِحَسَبِ حَقِّهِ، خَطَاً لِلْبَاطِلِ فِيهِ، وَسُوءاً لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ. فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل آيات القرآن إليه، حُرِسَتِ السَّمَاءُ بِالنُّجُومِ، وَرُمِيَتِ الشَّيَاطِينُ بِالشُّهُبِ، وَأَنْقَطَعَتِ الْإِبَاطِيلُ، وَأَضْمَحَلَّتِ الْكَاذِبُ، وَخَلَصَ الْوَحْيُ، فَبَطَلَتِ الْكُفَّانُ، وَضَلَّتِ السُّحَّارُ، وَكَذَّبَتِ الْأَحْلَامُ، وَتَحَيَّرَتِ الشَّيَاطِينُ، فَكَانَتْ آيَةً بَيِّنَةً، وَعَلَامَةً وَاضِحَةً، وَحُجَّةً بِالْعَلَّةِ، تَبَهَّرَ قَرَائِحَ الْعُقُولِ، وَتَخَرَّقَ حُجُبَ الْغُيُوبِ، فَلَا يَقُومُ مَعَ ضِيَائِهَا ظُلْمَةٌ، وَلَا يَثْبُتُ عِنْدَ مُحْكَمِهَا شُبْهَةٌ، وَلَا يُقِيمُ مَعَهَا فِي مَحْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَكٌّ، لَا مِنْ أَصْحَابِهِ خَاصَّةً وَلَا مِنْ جَاءِ بَعْدِهِ عَامَةً. وَإِنَّمَا جَعَلَهَا اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ آيَةً بَاقِيَةً فِي الْغَايِرِينَ، وَجِرَاسَةً نَابِتَةً مِنَ الشَّيَاطِينِ، لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا جَعَلَ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِرَ النَّبِيِّينَ؛ فَلَيْسَ بَاعْتِثًا بَعْدَهُ نَبِيًّا يَكْذِبُ أَقَاوِيلَ الْكَهَنَةِ، وَيَقْطَعُ أَخَايِرَ الْحَنَّةِ.

وستقول، فيما يذهب إليه الظن ويقع عليه الرأي، أنت ومن عقل من أمتك وأهل ملتك: هذه آية حاسمة وحجة قاطعة بينة قائمة، مستعيلة لأمرها، مستغنية بنفسها، لا تحتاج إلى ما قبلها، ولا يتكلم على ما بعدها، إن أقرت العقول بما تقول، أو قامت البينة على ما تدعى، بلى؛ ثم تقول: وأنتى لك بالبينة، ولسنا نُقَرُّ بِكَابِكَ، وَلَا نُؤْمِنُ بِرَسُولِكَ،

ولا نقبل قولك فيما قد سبقنا وإياك زمانه ، وحجبت الغيوب عنا وعنك علمه ، فأرجع اليكم إن قلتم ذلك ؛ فإن وجدنا القضية قبل طلب البيئات .

وليس يجعل أمير المؤمنين فيما يَنَازِعُك ويُحَاجُّك فيه حاكماً غير عقلك ، ولا قاضياً سوى نفسك ؛ ولكنه يذكرك الله الذي إليه معادك وعليه حسابك ، لما جعلت التفهم لمسألته من بالك ، وركبت حدودها في جوابك ، عادلاً بالقسط ، قاضياً بالحق ، قائلاً بالصدق ولو على نفسك ، ناظراً بالآثرة لدينك ؛ فلقد وفق الله لك آية ، وأهدى اليك بينة ، لا تستطيع دفعها لحجبها عن عقلك ، ولا حجاباً لنورها دون بصرك ، فلا تدفع الآية بقولك ، والبيضة بلسانك ، جحداً بقطع وصول الحجج اليك ، ويد تغلق أبواب الفهم عنك ؛ فإن اللسان لك مداوُلٌ حيث شئت ، ومتقادٌ تُصرِّفه فيما هويت ؛ ولكن أنصب نفسك للفهم وأنت شهيد ، وأرد الحق وقبوله فيما تريد . فاذا تصوَّرت البيئات مجسدة في قلبك ، وتبينت الحجج ممثلة لنظرك ، قد أضاء صوابها لك وقرع حَقُّها قلبك ، فاجعل القول بها شعاراً للسان به متصلاً . وأفهم المسئلة فهَمَك الله الحق ، وجبتك الجحد ، ما تقول أنت ومن قبلك في رجل كان يتياً ضعيفاً أجيراً ساهياً لاهياً عائلاً خاملاً ، لم يتل كتاباً ، ولم يتعلم خطاً ، ولم يك في محلة علم ، ولا إرث مُلك ، ولا معدن أدب ، ولا بيت نبوة ، فتراقبت الأيام به ، واتصلت الحال بأمره ، حتى خرج الى العرب عامة والقبائل كافة ، وحيدا طريداً شريداً ، مخذولاً مجهولاً ، مخفواً مرمياً بالعقوق لآلهم ، مقذوفاً بالكذب على أصنامهم ، منسوباً الى الهجر لأديانهم ، وهم يجمعون على دعوة العصبية ، وحمية الجاهلية ، متعادون متباغون ، مختلفه أهواؤهم ، متفرقة أملاؤهم ، يتسافكون الدماء ، ويتساوون النساء ، ويستحلون الحرم ، لا تمنعهم ألفة ، ولا تعصمهم دعوة ، [ولا] يحجزهم رت ، فألف قلوبها ، وجمع شتيتها ، حتى تناصرت القلوب ، وتواصلت النفوس ، وترافدت الأيدي ؛ ثم اجتمعت الكلمة ، واتفقت الافئدة ، حتى صار غاية الملقى رحا لهم ، ونهاية الملتجع

(١) لعله : ولا تغلق . (٢) في الأصل : لا .

أسفارهم ، وصاروا له حِزْبًا مُتَفَقِينَ ، وَجَنَدًا مُطِيعِينَ ، بلا دُنْيَا بَسَطَهَا لَهُمْ ، ولا أَمْوَالٍ أَفَاضَهَا بِهِمْ ، ولا سُلْطَانٍ لَهُ عَلَيْهِمْ ، ولا مُلْكٍ سَلَفَ لآبَائِهِمْ فِيهِمْ ، ولا نَبَاهَةٍ كَانَتْ لَهُ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ .
أَقُولُ إِنَّهُ [مَا] قَالَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَّا بَوْحِي عَظِيمٌ ، وَتَنْزِيلُ كَرِيمٍ ، وَحِكْمَةٌ بِاللُّغَةِ ! فَإِنْ قُلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ أَقْرَرْتَ أَنَّ مَحْمَدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولٌ ، وَتَرَكْتَ مَا كُنْتَ تَقُولُ إِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ وَلَمْ يَبْلُغْهُ إِلَّا بِعَقْلِ سَدِيدٍ ، وَنَظَرٍ بَعِيدٍ ، وَرَفَقٍ لَطِيفٍ ، وَرَأْيٍ وَثِيقٍ ، اسْتَبَى بِهِ عُقُولَ الرِّجَالِ ، وَاسْتَمَالَ عَلَيْهِ أَفْنَدَةَ الْعَوَامِ . فَإِنْ قُلْتَ ذَلِكَ فَأَنَا سَأَلْتُكُمْ بِالْحُكْمِ الَّذِي تَعْبُدُونَ ، وَدِينِكُمُ الَّذِي تَتَحَلُونَ ، لَمَّا صَدَقْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَجَنَّبْتُمُ الْمَهْوَى عَنْكُمْ : أَتُؤْمِنُ قُلُوبُكُمْ ، وَتُقَرِّرُ عُقُولُكُمْ ، وَيَحْتَمِلُ نَظَرُكُمْ ، أَنَّ مَحْمَدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي وَصَفْتُمُوهُ بِكَمَالِ الْعَقْلِ ، وَبَيَانِ الْفَضْلِ ، وَرَفَقِ التَّنْدِيرِ ، كَانَ يَقُولُ لِرِجَالِ الْعَرَبِ ، وَجَمَاعَاتِ الْأُمَمِ ، [و] دُهَاةَ قَرِيشٍ : إِنْ مِنْ آيَاتِ نَبَوْتِي ، وَدِلَالَاتِ رِسَالَتِي ، وَعَلَامَاتِ زَمَانِي ، أَنَّ الشَّيَاطِينَ تُرْمَى بِجُحُومِ السَّمَاءِ ، وَلَمْ تَكُ تُرْمَى بِهَا فِيمَا خَلَا ، ثُمَّ يَجْعَلُ ذَلِكَ كِتَابًا يُقْرَأُ ، وَقَرَأْنَا يُتْلَى ، وَهُوَ كَاذِبٌ فِيمَا تَلَا ، وَمُبْطَلٌ فِيمَا ادَّعَى ، إِبْطَالًا تَدْرِكُهُ عَيُونُ النَّاطِرِينَ ، وَكَذْبًا يَظْهَرُ لَجَمِيعِ الْعَالَمِينَ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ! أَرَأَيْتُمْ أَنْ لَوْ كَانَ فِيمَا قَالَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَعَلَى مَا ادَّعَى مِنَ الْآثِمِينَ ، ثُمَّ حَاوَلَ إِبْعَادَ الْقُلُوبِ ، وَإِنْفَالِ الصُّدُورِ ، وَإِنْفَارِ النُّفُوسِ ، وَتَفْرِيقِ الْجُمُوعِ ، أَكُنْ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ !

فِيَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يَجْلِسْكُمْ الْإِلْفُ لَدَيْنَكُمْ عَلَى اللَّعِبِ بِتَوْحِيدِ كَمْ ! فَلَعَمْرُ اللَّهِ لَئِنْ تَدَارَكْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَنَاصَحْتُمْ نَظَرَكُمْ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ مَحْمَدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ حَاوَلَ الْكَذْبَ أَوْ رَامَ الْإِفْكَ ، لَمَا كَانَ يَتْرَكُ جَمِيعَ الْأَرْضِ ، وَمَا يَغِيبُ عَنْ بَعْضِ الْخَلْقِ وَيَظْهَرُ لِبَعْضٍ ، وَيَقْصِدُ لِلسَّمَاءِ الْمُتَّصِلَةَ بِالْبَصَرِ ، الْبَارِزَةَ لِلنَّظَرِ ، الَّتِي لَا تَخْفَى عَلَى بَشَرٍ ، وَلَا تَغِيبُ عَنْ أَحَدٍ ، فَيَدَّعِي فِيهَا كَذْبًا ظَاهِرًا ، وَإِفْكًَا بَارِزًا مَكْشُوفًا ، لَا يَبْقَى صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ وَلَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى ، إِلَّا عَرَفَ أَنَّهُ إِفْكٌَ وَزُورٌ ، وَكَذْبٌ وَغُرُورٌ ، وَلَا سِيمًا إِذَا كَانَ يُتْلَى ذَلِكَ إِلَى أَقْوَامٍ أَكْثَرُهُمْ أَعْرَابٌ ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ حِجَابٌ ، إِنَّمَا يُرَاعُونَ الْكُوكِبَ وَيَتَفَقَّدُونَ الْغَيُومَ ، فَأَبْعَدُ عَهْدٍ آخِرِهِمْ بِهَا تَفَقُّدَهُ لَهَا وَنَظَرَهُ إِلَيْهَا ، سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ، أَوْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ .

لَعَمْرُ اللَّهِ لو عَثَرَتِ الْعَرَبُ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى كَذِبٍ لَكَانَ أَوَّلُ مَنْ يُؤَاثِبُهُ بِهِ وَيُجَادِلُهُ فِيهِ أَعْدَاؤُهُ مِنْ قَرِيشٍ عَامَةً ، وَحُسَّادُهُ مِنْ حِيرَتِهِ خَاصَّةً ، وَنَظَرَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ دِينِيَّةً الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعِيرُونَهُ لِكُلِّ طَرِيقٍ ^(١) ، وَيَقْعُدُونَ لَهُ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ ، وَيَتَسَاءَلُونَ مِنْ أَمْرِهِ عَنْ كُلِّ ذِي حَادِثٍ ، فَيَتَعَلَّقُونَ بِالْحُرُوفِ الْمُشْكِلَةِ ، وَالْآيَاتِ الْمُشْتَبِهَةِ ، جَدَلًا وَخُصُومَةً بِهَا ، وَطَعْنًا وَإِلْحَادًا وَمَنَازَعَةً فِيهَا ، حَتَّى لَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِفَعْلِهِمْ ، وَأَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (**بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**) وَمَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَقُولَ ذَلِكَ وَلَا لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَهُ عَلَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِمْ إِلَّا عَنْ خُصُومَةٍ شَدِيدَةٍ ، وَمَنَازَعَةٍ بَلِيغَةٍ ، وَمَجَادَلَةٍ مَعْرُوفَةٍ . فَأَحْسِنِ النَّظَرَ لِنَفْسِكَ ، وَلَا تَهْلِكَنَّ شَفَقَةً عَلَى مُلْكِكَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّ النُّجُومَ شَيْءٌ كَانَتِ الْعَرَبُ تَرَاهُ بَعْيُونَهَا وَتَعْرِفُهُ بِقُلُوبِهَا ، فَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ عَارِفٌ بِهَا غَيْرَ جَاهِلٍ لَهَا ، لِيَقُولَ فِيهَا إِلَّا حَقًّا ، وَيَنْتَحِلَ فِيهَا إِلَّا صَدَقًا ، لَقَدْ ثَبَتَتْ فُرُوعُ كَلَامِكَ فِيهَا عَلَى أَسَسِهِ ، وَوَصَلَتْ آخِرُ قَوْلِكَ لَهُ بِأَوَّلِهِ ، ثَبُوتًا عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَقِيدِهِ ، وَلَزُومًا لِمَا اقْرَأْتَ مِنْ نَظَرِهِ ، وَلَكِنَّكَ لَا تَجِدُ مَعَ الْإِقْرَارِ بِذَلِكَ بُدًّا مِنَ التَّصْدِيقِ بِرِسَالَتِهِ ، وَلَا مَذْهَبًا عَنِ الْإِيمَانِ بِنَبَوْتِهِ .

وَلَئِنْ زَعَمْتَ أَنَّهُ أَدْعَى أَمْرَ النُّجُومِ كَذِبًا وَآتَتْهَا بِاطِلَا ، عَارِفًا كَانَ بِهَا أَمْ جَاهِلًا ، لَقَدْ نَسَبْتَهُ مِنَ الْخَطَا الَّذِي لَا يَعْمَى عَنْ بَصَرِهِ إِلَى مَا يَخْطِئُ فِيهِ بَشَرٌ ، فَأَكْذَبْتَ نَفْسَكَ ، وَتَرَكْتَ قَوْلَكَ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنِ التَّأْلِيفُ لِقُلُوبِ الْعَرَبِ وَالْجَمْعُ لَشَيْتَاتِ الْقِبَائِلِ ، إِلَّا بِرَأْيٍ سَدِيدٍ ، وَعَقْلٍ أَصِيلٍ ، وَرَفْقٍ بِالْغَلْغَلَةِ ، إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ لَا تَجِدُ لِكَلَامِكَ وَجْهًا تَذْهَبُ إِلَيْهِ غَيْرَهُمَا ، وَلَا تَحْمِلُ تَضَعُهُ عَلَيْهِ سِوَاهُمَا : إِمَّا أَنْ تَقُولَ : إِنَّهُ أَلْفَ قُلُوبِ الْعَرَبِ ، وَفَرَقَ جُمُوعَ الْأُمَمِ بِتَنْزِيلِ الْوَحْيِ ، فَتُؤْمِنُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَإِمَّا أَنْ تَقُولَ : فَعَلَ ذَلِكَ بِجَهْلٍ ، وَهَذَا قَوْلٌ لَا يَقْبَلُ . كَيْفَ يَصِفُهُ أَحَدٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ بِهِ الْمَكْذِبِينَ لَهُ بِغَاوَةِ ، أَوْ يَرْمُونَهُ بِجَهَالَةٍ ، وَهُمْ يَحُوزُونَ بِهِ حُدُودَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيَرْفَعُونَهُ فَوْقَ أُمُورِ الْعُلَمَاءِ ، وَيَتَخَطَّوْنَ بِهِ مَرَاتِبَ الْحُكَمَاءِ ، وَمَنَازِلَ النَّاسِ

تكثرًا لعلمه ، وتسديدًا لعقله ، وتثنيًا لفضله ، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدى الألسن إليه ؛ حتى لقد نَحَلُّوه فعلَ الربِّ الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأنحاء جمّة : من ذلك أنه اذا قالت البقايا من أمتنا : كان مجد صلى الله عليه وسلم يُجَبِّرنا بالغيوب قبل ظهورها ، وَيَصِفُ الأمور قبل حُلُولها ، ويتجاوز [ما يكون] في زمانه من ذلك الى ما يكون في زماننا غيبًا أطلعه الله عز وجل عليه ، أضافوا ذلك علمًا إليه ، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع النجوم ، وأبصرهم بمنازل البروج ، وأنظرهم في دقائق الحساب . كيف ولم يكن المجاز دار نجوم ولا محل حساب ولا معدن أدب ! بل كيف والمنجم يقيس وينخطئ ، ويشك فيما يدعى ، وهو أخو صواب لا شك فيه ، وفارس صدق لا قياس معه .

ومن ذلك أنه اذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبينا صلى الله عليه وسلم [علميا] بباطن أخبار النبيين ، وخَفِيَ قِصَصُ القرون الأولين ، قالوا : كان أحياء الناس قلبًا ، وأوسعهم سرًّا ، وأسرعهم أخذًا ، يتتبع ذلك ويحبه ، وقد رواه وعلمه . سبحان الله ! أولا يعلمون أن المتعلم معروف المعلم ، متفاوت الحالات ، متنقل الطبقات ، وأنه ما أحد يؤدّب صغيرًا أو يطلب العلم كبيرًا ، إلا وله درجات في علمه ، وتارات في أخذه ، ومنازل في تعلمه ، تارة تلميذ ، وتارة مُقَارِبٌ ، وأخرى حاذق ؛ وبكل ذلك موصوف من أهله ، معروف عند قومه ، ظاهرٌ لخيرته ، مستفيض في عشيرته ، لا يجهل أمره ، ولا يخفى ذكره ، ولا يُنسى عند مواضع الحاجة إليه ، وتارات الاحتجاج به عليه . ولو كان ذلك معروفًا فيهم ، أو موجودا لديهم ، أو ظاهرًا عندهم ، لما أمره الله عز وجل أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم : لقد لَبِثْتُ فيكم عُمُرًا من قبله ، لا أتلو قرآنًا ، ولا أدعي وحيًا ، أفلا تعقلون !

وآيم الله ! لو كانوا يعقلون أو ينظرون ، لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون ، لأنه لهم من المخالفين ، وعليهم من الطاعنين ، يذكر فضائح قولهم ، ومعائب أمرهم ، ويحاذي أسلافهم ، وعوائل أديانهم ؛ وإنه لو كان معلمه نصرانيًا لدعاه الى النصرانية ، أو يهوديًا

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسياً لدعاه إلى المجوسية . ولو لم يكن له معلم لما وقع على الحقيقة هدايةً من تلقاء نفسه ومعرفةً بقوة عقله . ولو كان معلمه الشيطان لما دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح في الأرض ؛ كيف [و] كان الشيطان يُصدّ الناس عن سبيله ، ويُزهدهم في دينه ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويدخلهم في مساخطه ، ويجهلهم على معاصيه ! إنه إذا لرحيم بهم ، ناظر لهم ، شفيق عليهم ، كأنه هو المبعوث اليهم ؛ كلا ! ما كان لينقذهم من حباله ، ويخلصهم من مصايده ، ويخرجهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخدعه وقتته وحزبه ، إلى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناوخوا حرمهم ، ويؤذوا ذريتهم ، ولا يقول لهم : لم تعبدون نحيّت الحجارة التي جعلها الله لكم عارا ، وتذرون عبادة الرب الذي خلقكم أطوارا ! هيهات ! لقد ذهبت بالشيطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولاً تنكروا العقول ، وتدفعه القلوب ، وتستوحش منه النفوس . ألا تسمعون إلى قول الله عز وجل : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾ فإِ كان الشيطان ليرضى للعرب باللعنة والبهكم والعمى والصمم ؛ فأَتَى الله ولا تكن من الجاحدين .

ومنها أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أئانا محمد - صلى الله عليه وسلم - بكلام لم تسمع الأذان بمثله ، ولم تقع القلوب على لُغته ، له رَوْقٌ حَبَابُ الماء ، وزَرْجٌ يعلو ولا يعلو وعجائب لا تَبَلَى ولا تَفْنَى ، وَجِدَّةٌ لا تَتَغَيَّرُ ، [قالوا] : كان محمد - صلى الله عليه وسلم - أبلغهم قولا ، وأحسنهم وصفا . فيا سبحان الله ! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاما للعباد لما أَقْرَت الأعداءُ من ... (١) ... بفضله ، ولا تَحْجَزُ القبائل طُرّاً عن مثله ، وهو يناديهم في الكتاب ويتحدّاهم في الوحي ، بصوت رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : هَاتُوا سُورَةً مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخطب ، وأهل عداوة له وبغى

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

عليه ، قستحسر الأبصار ، وثقل الأسماع ، وثققت الألسن ، وتحرّس الخطباء ، وتعجز
البلغاء ، وتحرّس الشعراء ، وتستسلم الكُهان . ثم لقد قايسَت البُصراءُ بالكلام والعلماءُ بالمنطق ،
بين ما بأيدينا من كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به من كلام الوحي ، فإذا بينهما
بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس يشبه له ولا مدان ولا قريب . وكذلك ينبغي لكلام
الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه
وجميع ما فيه ؛ لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء من ذلك أنه إذا قال المسلمون : كان
محمد — صلى الله عليه وسلم — يرى ماضى أسلافنا وصلح آبائنا من العجائب العظام ،
والآيات البكار ، ما هو جديدٌ عندنا ، بين قِبلنا فلم يعف أثره ، ولم يدرس خبره ، ولم يتقدم
عهده : من شجرة ناداها فأقبلت ثم أمرها فرجعت ، ومن نحو بعير تظلم ، وذئب تكلم ،
وأشباه ذلك كثيرة ، ونظائر له عجيبة ، قالوا : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — كاهنا
حاذقًا ، وساحرًا ماهرًا ، يُشبه بالخيال ، يأخذ بالأبصار . كيف والجموع الكثيرة تصدر عن
الأطعمة البسيرة والمياه القليلة ، شباعًا رواء ، أيكون ذلك والسحر سواء ! والأخذ بالعيون
لا يجرى في البطون ! ولو كانوا ينظرون لدينهم ويُصِفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر
الساحر يدور على إفك وغرور ، وأن لمحمد — صلى الله عليه وسلم — آثارًا قائمة ، ومنافع
دائمة . ثم لو كانت الكِهانةُ والسحرُ يُلْغَن مثل هذا من الأمر ، لبطلت آيات الكتب ،
وعلامات الرسل ، ولعلَّت الشبهة ، وسقطت الحجّة ، وكذبت النبوة ، ولبطل ما كان ^(١) [يفعله]
عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمة والأبرص وإحيائه الموتي . فلا يكون التقليد للرجال
مبلغَ هلك ، ولا القبول لدعواهم بلا بينة .

ومن ذلك [أنه] إذا قالت البُصراءُ من أمتنا والعلماء بملتنا : كان النبي — صلى الله
عليه وسلم — أُميًا لا يُحسن الكتاب وحافظًا لا ينسى القرآن ، وقلمًا يجتمع العقل السديد
والحفظ السريع والنسيان البطيء ، قالوا : كان أخط الناس يدًا ، وأذكاهم حفظًا ، كان
يكتب بالنهار ، ويدرس بالليل .

(١) زيادة يقتضها السياق .

ولعمرك الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خفيت الصحف له ، ولا آكتبت الدراسة عليه ، ولما كان يطبق سترها عن أهله ، ولا حجابها دون قومه . وكيف تؤمن القلوب وتقرّ العقول أن رجلا كبيرا حمل علما كثيرا وحكما جمّا : من آيات متشابهة ، وسور متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية ، وأخو حرب دائمة ، لا يسطي لفظه ، ولا يسقط حفظه ! لولا أن الله عز وجل كفاه أن يحرك به لسانه ، وضمن له جمعه وقراءته ، فقال عز وجل : ﴿ سَتَقُرُّكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ فلم يكن يسقط واواً ولا ألفاً ، ولا ينسى كلمة ولا حرفاً . ما أئين هذا وأعجبه ! وأعجب منه المنكر له .

وأما قولهم في الخط وإكثارهم في الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أمياً ليثبت حجته ، ويصدق مقالته ، ولئلا يسكت المبطلون في أمره ، ويقولون : تعلمه من غيره ؛ فإنه قد قال ذلك بطائن من مناقفة العرب وطوائف من كفرة العجم ، فنطقت [به] الأعداء من جبرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا [ما بلغوا] من مجادلة حقه ، ومخاصمة ربه ، كفاة لمن قرب ، ووكلاء لمن بعد ، فيما لم تكن العرب واقعة عليه ، ولا الأئم مهتدية إليه ؛ لأنهم قد أحاطوا من علم خبره ، وخفي أثره ، بما كان عن غيرهم محتجبا ، ومن سواهم مكتما . وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفى عنا (٥) ولسقط علينا . وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلم من بشر كبيرا ، لعرف ذلك أترابه المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك من حوله من جبرته نصره ، ولا من معه من أهل بيته دنية ، الذين عليهم يورد ومن قبلهم يُصدر ، ولكان شائعا عند حشم معلمه وجيرة موضعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأدب بين ظهرانيهم . ولو كانوا بذلك عالمين ، أوفيه من أمره شاكين ، ثم بلغهم وتقرر قبلهم أنه يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه ، فيما أنزل من الكتاب عليه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ لخاصمه منهم من كفر ،

(١) في الأصل : « متراخية » . (٢) في الأصل : « ... ولا يسقط حقه ولولا أن ... الخ » .

(٣) زيادة يطلبها الكلام . (٤) في الأصل : « إلا أنهم ... » . (٥) في الأصل « ولا سقط » .

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدعى ذلك قرآنا ، وينتحله وحيا ؟ أما كان يرهَّب أن ينتشر في الأقربين ، ويخرج إلى الأبعدين ، فتبطل حجته ، وتنقض دعوته ، وتسقط نبوته ، وينفر أصحابه الذين لم يصيروا معه في المجاهدة أنفسهم ، ويبدلوا عند الشدائد مهجهم ، ويُنفقوا فيه على الحاجة أموالهم ، مُناصين لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مُستضعفون عائلون جائعون ، لا طلباً لدنيا ولا طمعاً في مال ، إلا لما تعقبوا من قوله ، وعرفوا من صدقه . ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقصر لهم ، فصَدَّقوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قويت البصائر ، وصُرِّمَت العزائم ، وقويت النيات ، فَنَشَطَت النفوس ، وَتَجَمَّعَت القلوب ، وحملت الأبدان ، لما وقع لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وهل إليه . فكن من ذلك على يقين لا يخلجه شك ، ومعرفة لا يخلطها ريب ، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه إذا قال المسلمون : ما من فعّال مجود ، ولا مقال معروف ، ولا خَلْق كريم ، ولا أدب فاضل ، إلا وقد أَدَبَ الله عز وجل به محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزله في الكتاب إليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحض على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التي ليس فيها مدخل لشبهة طاعين ، ولا معلق لحجة قائل ، ولا مغمز لبصيرة عائب ، ولا موضع لخصومة بشر ، في وعد أو عهد ، أو حل أو عقد ، أو مقال أو فعال ، أو غير ذلك من الأمور — قالوا : أمور حمل عليها نفسه ، ودعاه إليها عقله ، وصبر عليها ، لما أقبل ورجا فيها . سبحان الله ! وما أقبل بها وآرتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أكذبهم إدبارها عنها ، حيث أمكنته القدرة منها ، وآعثرته الحال عليها . وإن قالوا : حب الأثرة ، فقد جعل نفسه للسامين أسوة : في سهامهم وقضاصهم ، وحُدودهم وحقوقهم ، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : الملك ، فلقد كان أشد الناس لربه تواضعاً ، وأعظمهم في جنبه تصاغراً ، ما إن أكل متكاً قط إلا مرة ، ثم قعد كهيئة الفرع لها النادم عليها ، فقال :

(١) صبر نفسه : حبسها

(٢) وهل : فزع .

”اللهم إني عبدك ورسولك“. وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أيسر منه معاشاً ، وأخشن ريشاً ، وأغلظ ماكلًا ! وكيف يذوق العيش أو يجد لذيق النعيم ، من حرم السكر والخمر ، ونهى عن الديباج والقز ، وكان أكثر دهره صائمًا ، وأطول ليله قائمًا ! فإن قالوا : طلب الصوت ورغب في الدين ، فذلك ما لم يطلبه أحدٌ في حب الصوت والتمساس الحمد لما صبر مغاضب قومه ، وملاوم أهله ، وشتائم العرب وتوعد العجم ، وأستهزاء قريش ؛ يرمونه بالعقوق ، ويقذفونه بالحنون ، ويهتونه بالسحر ، وليس يدرى ما يهجم به الأمر .

أم يقولون طلب تائيل الملك لقومه ، وأراد توطئة الولاية لأقاربه فكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه لنفسه ! أم كيف يطلب لهم عز الملك وقد أوطاهم الذل ثم القتل . لعمر الله أن لو أراد الملك لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لذوى رحمه ، لوكد لهم عقداً لا يخل ، ولا يرم لهم أمرًا لا ينقض ، ولا تثل لهم في عنفوان أمره مُلْكًا لا يخرج من أيديهم ، ولا يرح أبدًا فيهم ، امتثالاً لصنيعكم وأخذاء على منالكم ؛ مع أقاويل جمّة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم غلب العرب وقهر العجم ؛ أو قال في أمر السلطان والنجوم بكذب .

فإن قلتم إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان في قوة عقله وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم وصدقنا به نحن وأنتم ، ولكن هفت العلماء وزلت الحكاء وأخطأت القلوب ؛ فقد يعلم أمير المؤمنين — وأنتم بذلك من العالمين — أن خطأ قلوب العلماء تخطأ دائرة الرّحا ، ليست العلماء بخطئة إلا المزة والثنتين ، كما لا تخطئ الرّحا إلا الحبة والحبتين . ومثل الذي نسبتم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم ، كثير لا يحصىه أحد ، ولا يبلغه عدد . وأمير المؤمنين واصف بعضه لكم ، ومورد ما حضر كتابه إن شاء الله لكم . وآيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هبوا محمداً صلى الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر الحسن كالصيت . (٢) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي مضطربة .

(٣) في الأصل : ”ولا ينوح ...“ .

في أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأت العرب وهفت الأمم في ترك مجادلته ورفض منازعته، وكيف لم تقل العلماء من إفانه والحكمة من حكمائهم، توبيخاً منهم له، وتعييراً لمن آمن معه : هذا أمر من أوضح الأكاذيب وأبطل الأباطيل؛ فلا يثبت مع قولهم إيماناً، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلت : فلعل ذلك قد كان، ولكنه درج على طول الأزمان، فكيف إذا صدقت العرب بنبوته، ولم تكفر القبائل برسالته، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدق كان قبله، وباطلاً لا يقصم معه حق حدث بعده . وإن قلت : أدخلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف، فما بال القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثير من المشركين، ما بالهم آمنوا وصدقوا، وصبروا وصابروا، وجدوا وجاهدوا، كيف لم تنكسر عزائمهم، وتهن بصائرهم، ويرجعوا إلى دينهم، ويهربوا عن توحيدهم ! كلا ! لو كان الأمر على ما تقول، لأرفض القوم عن الرسول، ولكان صلى الله عليه وسلم أول مقتول أو مخذول . فأحسن النظر فيما تذهب الأهواء برأيك إليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم . وإن جمحت الدعوى بكم، فقاتل : فدالت به الأهواء في الباطل، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء ذكرت النجوم في صحتها بينت الحكماء منها ذكراً في كتبها، بفعلت المنقضى من الكواكب بين الأعوام، دليلاً على أمر يحدث تلك الأيام، ولا ما هذا الاختلاق يلط به الجاهل للفساق . ما ان وضعت الحكماء ذلك في الكتب، إلا ليالي ملئت السماء من الشهب . وبالله لو آدعيت غير ذلك فكان حقاً، وكانت القالة منكم صدقا، لما كانت الدعوى بناقضة لآية النجوم حجة، ولا مدخلة على أحد فيها شبهة؛ لأن رميا يقع قرط السنين من الكواكب، لا يبطل رجباً قد ملأ السماء من كل جانب . ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة، وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة باهرة، وأمارة ظاهرة، وشهادة قاطعة، وبينة عادلة، وداعية قائمة، تبطل أظانين المشركين، وتردع أقاويل المناققين، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليُعظم أمرها، ولا ليكرر في آي القرآن ذكرها، رهبة

(١) كذا في الأصل . (٢) في هذا الموضع اضطراب . (٣) في الأصل "دافعة ..."

لما هضمة أحياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كتب به اليك أمير المؤمنين من أمر النجوم وأحتج [به] عليك من ذكر الرجوم ، موقفاً لظن أو معلماً بطعن أو مغمراً لقول ، لناصبوه اذا بالمجادلة ، وكاشفوه المنازعة ، وجاهره بالقول الذي لا يستطيع له ردّاً ، ولا يطيق له مجداً ، ولكنها آيةٌ ملأت الأقطار كثرةً ، وحسرت الأبصار قوة ، قد وجلت العقول ، وولّهمت القلوب ، وملأت النفوس جزعاً ووجعاً ، وفرعاً شغلهم عن الأولاد ، وأذهلهم عن البلاد ، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرر عند فقهاء المسلمين أن الله عز وجل ، لما ملأ السماء حرساً ، وأحدث لها رصداً ، وخلق فيها شهباً ، ذكرت العقلاء من العرب ، وقعات الله عز وجل في الكتب ، بقوم نوح وعادٍ وثمود ، وأشبايهم من مؤلّفى تلك الجنود ، الذين كانوا أشدّ بطشاً ، وأكثر جمعاً ، فانفجرت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسهم متائن عقيدهم . وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا فيه الخروج الى قراهم ، قام فيهم رجلٌ منهم ذوسين وعقل فقال :

يامعشر العرب ، لا تهلكوا أنفسكم قبل أن تهلكوا ، ولا تخرجوا من أموالكم قبل أن تخرجوا ، تفقدوا مواقع نجوم السماء ، وكواكب بدور الدجى ، فإن كانت النجوم التي حدث الرمي بها والنجوم التي أخلتكم الأموال لها ، هي لبروج الشمس والقمر ومسالي الحيوان والشجر ، فهي جوائح الاستئصال ، المتلفة الأنفس والأموال ؛ وإن كانت النجوم التي حدث القذف بها ، إنما هي نجوم خلقت اليوم ، فليست المعرفة بواقعة على مبتدأها ، ولا الأبصار بلا حقة منهاها ، فأمسكوا العقد عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدث في إحدى هذه الليال .

فإن قلت : وكيف وقعت الأمور في هذا الرجل كالعيان ، وصارت المقالة منه كوعى الأذان ، أنباك أمير المؤمنين أن أوعية الفقه من المسلمين ، الذين حملوا إلينا سنن الدين ، هم

(١) كذا في الأصل . (٢) العقد : جمع عقدة وهي الضيقة أو العقار الذي اقتناه صاحبه .

أَدَّوْا ذَلِكَ الْبِنَاءَ، وَأَبْقَوْهُ نَحْرًا... عَلَيْنَا، فَمَا إِنْ يَنْفَكُ مِنْهُمْ مَفْتَحَرٍ يَقُولُ : أَبُونَا الَّذِي حَبَسَ عَلَى الْعَرَبِ الْأَمْوَالَ وَالْعَقْدَ، فَمَا إِنْ يَدْفَعُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَحَدٍ . هِيَهَاتَ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ لُتْقَرَّ عِنْدَ الْفَخَارِ ، إِلَّا بَطُولٌ هُوَ أَتَيْنُ فِيهَا مِنْ ضَوْءِ النَّهَارِ . فَافْهَمُ مَا كَتَبَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا إِلَيْكَ ، وَلَا يَكُنِ التَّعَلُّلُ فِيهَا بِالشُّبُهَاتِ أَوْثَقَ مَا لَدَيْكَ ؛ فَإِنَّهُ قَلَّ حُجَّةٌ إِلَّا وَإِلَى جَنْبِهَا شَبَهَةٌ تَحْيِلُ لِلْعُقُولِ ، وَتَعَرِّضُ لِلْقُلُوبِ ، وَتَجَلَّجُلُ فِي الصُّدُورِ ؛ فَلَا يَثْبُتُ مَعَ تَحْيِلِهَا ، وَلَا يُقِيمُ لَتَعَرُّضِهَا بَشَرٌ إِلَّا مِنْ وَزَنِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِمِيزَانٍ عَادِلٍ ، لَا يَمِيلُ إِلَى تَفْرِيطٍ ، وَلَا يَنْحَطُّ فِي تَقْصِيرٍ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعُقُولَ مُوَازِينَ لِلْأُمُورِ ، فَرَنُوا مَا سَمِعْتُمْ مِنْ حُجَجِ كَلَامِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا تَتَفَوَّنُ بِهِ الشَّبَهَةُ عَنِ الْحَقِّ ، وَلَا تُثْمِلُوا اللِّسَانَ ، فَتُخَسَّرُوا الْمِيزَانَ . وَسَيَعْلَلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِمَا جَاءَ عَنْ ذِكْرِ مَا كَتَبَ بِهِ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِ النُّجُومِ وَالرُّجُومِ وَالشُّهْبِ فِي الْقُرْآنِ وَالرَّوَايَةِ وَالْكِتَابِ ؛ فَالْطَّفُؤُا النَّظَرَ فِي صِحَّةِ مَعَانِيهِ ، وَنَحْوِ الْهُوَى عَنْ شَبَهَةٍ مَا وَقَعَتْ فِيهِ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ (٢) وَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ . وَإِنْ شَطَبَ عَنِ الْحَقِّ شَاطِبٌ ، أَوْ ذَهَبَ إِلَى الْبَاطِلِ ذَاهِبٌ ، لَا يَعْرِفُ مَذَاهِبَ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَلَا وَجْهَ مَعَانِي الْكِتَابِ ، وَلَا تَفْسِيرَ آيِ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ : إِنَّمَا جُعِلَتِ الْكَوَاكِبُ وَالْمَصَابِيحُ حِفْظًا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْدينِ .

فَإِنْ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ مَا فِيهِ بَيَانٌ مِمَّا يُبْطِلُ دَعْوَاهُ الَّتِي لَا بَيِّنَةَ عَلَيْهَا ، وَيَكْذِبُ مَقَالَتَهُ الَّتِي لَا شُهُودَ لَهَا ؛ فَقَالَتِ الْجَنُّ — بِجَعَلِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْلَهَا وَحْيًا — وَبِهِ مِنْهَا صِدْقًا : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَمَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ . أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهَا كَانَتْ الْجَنُّ لَمَسَتْ السَّمَاءَ فَلَمْ تَجِدْهَا مُلْتَأَمَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ، وَقَعَدَتْ الشَّيَاطِينُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ

(١) بَيَاضٌ بِالْأَصْلِ بِمَقْدَارِ كَلِمَةٍ . (٢) فِي الْأَصْلِ « عَنْ شَبَهَةٍ أَمَّا الْحَقُّ » .

فلم تجد شهباً ولا رصداً، ^(١) أو لا يسمعون الى ما يحقق ذلك ويسدده ويصدقه ويشهد له من قول الله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ مع قول الجن أيام حُرست السماء ورُميت الشياطين : ﴿ وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشْرَ أُريدَ مِنِّي فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ . فإذا أعلمتم في ذلك فكركم ، وقلبتُم فيه نظركم ، فكنتُم على برهانٍ يقين ، ونورٍ مستبين ، من أستطاعة الجنِّ للاستماع ، وقدرية الشياطين على الاستراق ، وإمكان السماء للقيود في تلك الحال الأولى ، ففكروا في الحال الأخرى حيث حُرست الآيات أن تعارض باطلاً بحق ، ومنعت الشياطين أن تنزل بصدق ، وأمتنعت السماء أن يصعد إليها شيطان ؛ فقال الله عز وجل : ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لِعَزُولِهِمْ ﴾ . قَالَتِ الْجِنَّ : ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا ﴾ إن في قولهم الآن لأعظم نور وبيان . وأبين من ذلك لكم وأصح لمن عقل إن شاء الله منكم ، إخبارُ الله عز وجل حين جعلت الكواكب حفظاً من كل شيطان مارد ، أنهم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون ويتلون على مُلكِ سليمان ، فكن لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكرين .

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بجموعها ، وتداعت القادة من صناديد الكفر باتباعها حذراً على غير لها أقبلت من الشام بصنوف رغائب أموالٍ عظام ، فكانت العيرُ والنفير طائفتين : طائفة ذات عدة كثيرة وشوكة شديدة ، وطائفة ذات أموال رغبة ورجال قليلة وفرصة ممكنة ، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ووعده ومن معه من المسلمين إحداهما ، فكره المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابر الكافرين ، ويشيد بذلك أركان الدين ، فلما تراءت الفئتان ، وتناوشت الفرسان ، وتلاقى الناس ، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل :

(١) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي غير واضحة .

(سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الدُّبْرَ) قبض النبي صلى الله عليه وسلم قبضةً [من تراب] حثاها في وجوههم ، فلم يتناه دون مناخرهم وعيونهم ، فانصرفوا منهزمين بلا كثير قتال من المسلمين . يا أهل الكتاب ، فأيُّ آية أعظم حجة وأوضح بينة وأقهر غلبةً من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها ، لانقضت الجموع من المسلمين كفارا بها . إشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقترين ، وهزيمة نفيير المشركين ، التي نجت الأمور عليها ، وتناهت الحال بهم إليها . أم قبضةً من تراب يسير ، ما ملأ المناخر من عدد كثير .

فلئن قلتم : إن هذه آيات بينات ، وعلامات واضحات ، ولكنا [لا] نقر لكم بها ولا تؤمن بقولكم فيها .

أفتؤمنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع ما نسبتموه من الفضل إليه ، كان يخلقها كذبا من تلقاء نفسه ، ثم يدعيها وحيا من عنده ، وهو لا يدري لعل الأمور [تقع] بخلاف ما يقول ، فيظهر كذبه ، ويرفض تبعه . وإن تزعم أن أصحابه كانوا كثيرا أقوياء ، نشاطا جلداء ، فكان على معرفة بقوتهم وبقين من غلبتهم ؛ فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . ولم يكن الرسول ولا غيره ليُخبر أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدعي ذلك تنزيلا من ربهم . هذا لا تقبله الآراء ، ولا تقر به الحكاء ، ولا يحده النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم بشارته لهم وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله عدوهم ، أن يشجع جبينهم ويقوى ضعفهم ، فكيف إذا لم يبق لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وضعف المسلمين وقلتهم ، بظهور الأنبياء على خلاف قوله ، وأن محال الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوته ، ويقطع حجتة ، ويكون له ما بعده ! وكيف إذا لم ينسب الأمر إلى نفسه ويُنحى الخبر عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر ، إن جرت الأقدار بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أثبت في كتاب

(١) في الأصل « ويزعم أن أصحابه ... » والكلام عليه غير واضح . (٢) هكذا في الأصل .

مسطور، ورق منشور . فعَلَّ لعمر الله يدلُّ على النبوة التي كان بها واثقا، ويهدي الى الوحي الذي كان اليه ساكنا .

وإن عَرَضَ لنظرك، أو وقع في خلدك، أن الله عز وجل عَوَّدَ محمدا صلى الله عليه وسلم الغلبة وأجراه على المنعة، فكان يجري على عادةٍ قد عَرَفَها، ويسلك جادةً قد خَبَرَهَا؛ فلقد كانت الهزيمة في أوَّلِ وَقْعَةٍ أوقعها الله، ثم لقد دالت الحربُ فيما بعدُ سَجَالاً فيما بينه وبينهم: تارةً عليه لهم، وأخرى له عليهم . فَنَاصَحُوا اللهَ عز وجل في نَظَرِكُمْ، وَقَلَّبُوا فيما يقول أمير المؤمنين فكرم . فلعمرُ الله ما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقول للملوك المشركين : إن الله هَزَمَكُمْ بِرَمِيَةٍ من تراب وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين . فأحضر كتابي هذا فهمك، وأصبر له وإن خَصَمَكَ؛ فإن هذه آية عظيمة، وحجة بليغة، وبينة عجيبية، في غلبة العرب . وأعجب من هذه والطف، وأكثر منها وأعظم، الآية في غلبة العجم . وأستعج : أَمَرَ الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — أن يقول للمؤمنين — وكانوا كما قال الله عز وجل قليلا مستضعفين — : إن قبائل العرب ستتحزب عليكم، وإن الله سيزيئهم لكم، وحيّا أنزله في الكتاب، فقال : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ ؛ فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدهور طويلة وسنين كثيرة، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر الخوف وخندق القهر وذل الحصر، سوادهم الأعم وجلهم الأعظم خُفَاءُ عُرَاةَ عَالَةٍ، إخوان دير، وأصحاب وبر، لا قُوَّةَ بهم، ولا منعة لهم، ولا أسلحة عندهم، ولا عُدَّةَ معهم، قد أهدقت العربُ بعسكرهم وأحاطت القبائلُ بخندقهم، وسالت الأحزابُ تصديقا لحتم الله عليهم، تريد أن تزلزل أقدامهم وتُهْرِيقَ دماءهم؛ فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سوء الحال، وضيق المال، وشدة الكَظَاظِ؛ فإن الله قد وصف لهم حالهم، وأذكرهم فعلهم؛ ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهلون، ولا ليزكرهم من أمره ما لا يعرفون؛ حَذَارًا أن تنكسر

(١) في الأصل : "فها بعد ...". (٢) الكظاظ : التعب والشدة .

عزائمهم وتغير بصائرهم ، فتنزيم أفئدتهم وتموت نجاتهم ، وتختلف كلماتهم ؛ فقال الله عز وجل : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَا لِكَ آتِلِي الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ . فبيناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم في الجبال ، وتقسيمهم بالقداح ، وأخذهم بالأيدي ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما ينبئهم به من علم الغيوب ، ويشرهم به من أمر الفتوح : ” إن الله سينصركم على جمع الروم ويغلب لكم جنود فارس فيهمزكم لكم جنودهم ويورثكم قصورهم ويستخلفكم في الأرض من بعدهم ويبدلكم من بعد خوفكم أمنا “ . وعدا صدقه الكتاب ، وإشارة نطق بها الوحي ، فقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . فقال أقوام وأناس آرتابوا حين تضايقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشرف الموت : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا أَيْعَدُنَا هَزِيمَةً جُمُوعِ الْأَحْزَابِ ، وَفَتَحَ قُصُورِ الشَّامِ ، وَغَلَبَةَ جُنُودِ كَسْرَى ، وَقَدْ سَالَتِ الْقَبَائِلُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَحْدَقَ الْمَوْتُ بَنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَبَقِينَا فِي مَسْغَبَةٍ مِنَ الْجُوعِ ، وَمُجْهَدَةٍ مِنَ الْخَوْفِ ، وَضَنْكٍ مِنَ الْحَالِ ، مَقْهُورِينَ مَقْمُوعِينَ ^(١) . وقالت الخاصة من المؤمنين حين عاينوا الجموع من المشركين ، وذكروا ما خبرهم الله من تحزيبهم عليهم ومسيرهم اليهم : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ . فبينما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مضايق تلك الحال ، وشدة ذلك الخصال ، وعموم تلك البلايا الباهظة ، والأمور الفادحة ، التي قد أخذَ بأنفاسهم عَمَّهَا ، وبلغ

(١) مقموعين : مقهورين مذللين . (٢) الخصال : النضال .

مجهودهم كرهبا، رافعين الى الله عز وجل أيديهم، يقبلون في السماء أعينهم، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة، ريحا من الأرض وجنودا من السماء، فقطعت الأبنية، وطيرت الأمتعة، وسفت التراب في العيون، وقذفت الرعب في القلوب، قولوا مذيرين، وخرجوا منهزمين، لا يلوى والد على ولد، ولا مولود على أحد. أمر صدق الله فيه قوله، وأنجز به وعده، وهزم الأحزاب وحده، وذكر المؤمنين نعمته فيهم، وعرفهم منته بهم، فقال: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾. وقال عز وجل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ما كان الله عز وجل ليقصص على المسلمين في أنفسهم، إلا ما قد رأوه بأعينهم.

لولا أن هذا ما لا ينكره عقلك ولا يدفعه نظرك، لما جادلتك بالكتاب، ولا نازعتك بالتزويل. وإني لأترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي، ما هو أعظم من هذا وأبين وأجل وأوضح. ولكن ليس لي أن أحاجك من آيات القرآن، إلا بما عليه شاهد من برهان، وغبر من بيان؛ لا يستطيع عقلك رداله ولا قلبك بحمدا له. وكيف ينسب لسائلك أو يحترق قلبك أن يقول: إن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون، فاقصص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون! لا! ما يسوغ لك ولا يتجمل بك، ولا يقبل منك أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه؛ كيف! أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه، وتنقل أحواله، وتنقض أموره! لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرف بفضل ولا ينسب إلى عقل، لما كان سائعا لك ولا جائزا منك، فكيف تصف به من يرفع عن الناس قدره، ويفضل عليهم عقله! وتقرأ أنك لم ترفي الدنيا أحدا صنع [ما صنع] وبلغ ما بلغ! فأيتما آية فيما اقتص عليك أمير المؤمنين أعظم أو بينة أعجب: أما كان يتلى على المؤمنين في الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بمجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين

كثيرة ، أم ما كان يُنادى به القرآن^(١) من الهزيمة لهم وينطق به الوحي من الفتح عليهم ، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ” إن الله عز وجل يؤمن خوفكم ويعز نصركم على الأمم “ وهو على تلك الحال ثم نجت الأمور على ما قال ، أم عسكران مطابقان وجيشان متقابلان ، باتت الريح تحوس أحدهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها في عافية وغفلة حتى أصبحوا ؟ فأحسن النظر في أمرك ، والتثبت في دينك إن شاء الله .

وَأَعْلَمُ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ وَأَيِّنِ الدَّلَالَاتِ ، عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقِّهِ ، وَأَنْ لَيْسَ يَقُولُ شَيْئًا مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ ، أَنَّهُ قَالَ فِي عُتُقَانِ أَمْرِهِ : ” إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُظْهِرُ دِينِي عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ “ وجاء مع ذلك بأثرية عن ربه ، في كتاب مخطوط وتنزيل محفوظ . فَأَيُّ أَمْرِيهِ لَكَ أَدَلُّ ، أَوْ أَيُّهُمَا عِنْدَكَ أَعْجَبُ ، إِذْ كُنْتَ بِنُبُوَّتِهِ مُصَدِّقًا ، وَلِرِسَالَتِهِ مُحَقِّقًا : الْخَبْرُ الَّذِي أَخْبَرَهُ ، أَمْ الْفِعْلُ الَّذِي صَدَّقَهُ ؟ لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ وَقُلْتَ فِي نَفْسِكَ : كَيْفَ تَرَقَّتْ إِلَى هَذَا نَيْتُهُ وَارْتَفَعَتْ نَحْوَهُ هِمَّتُهُ ، أَمْ كَيْفَ أَمْتَدَّتْ إِلَيْهِ طَبَّتُهُ وَقَوِيَّتْ عَلَيْهِ رَوِيَّتُهُ ؟ بَلْ كَيْفَ دَعَتْهُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَشَجَّعَهُ عَلَيْهِ قَلْبُهُ ، وَدَخَلَ فِيهِ طَمَعُهُ ، وَطَاوَعَهُ فِيهِ لِسَانُهُ ، وَهُوَ يَذْكُرُ جُنُودَ كَسْرَى ، وَجَمُوعَ الرُّومِ ، وَمُلُوكَ التَّرْكِ ، وَمُلُوكَ الشَّرْكِ ، وَقِيُولَ الْيَمَنِ ، وَصَنَادِيدَ الْأُمَمِ ؟ إِنْ هَذَا لَعَجَبٌ ، وَلَا سِمَا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي إِرْثِ مُلْكٍ قَاهِرٍ ، وَلَا كَنْفٍ عِزٍّ غَالِبٍ ، وَلَا مَعِينٍ عِلْمٍ سَالِفٍ .

ولئن أعدت النظر وكررت ، فقلت : كيف وافق خبره أثره ، وكيف صدق فعله قوله ، حتى غلب الشرق والغرب ! إن هذا لعجب ! وأعجب من هذا أمرُ يَدْلِكُ أمير المؤمنين عليه ، ويهديك إن شاء الله إليه : لو قلت لأهل مملكتك ومن قبلك من أمتك : هل بلغكم أو تقتز قبلكم ، أنه كان في الدهر الأول ، والعصر الخالي ، أحد مثل محمد - صلى الله عليه وسلم - بدأت الأمور به مثل حاله من الوحدة والضعف والدلة والقلّة ، وصدرت الحال به كفعاله في الغلبة والمنعة ، والقهر والظهور ، وغير ذلك ؟ لقالوا لا .

(١) في الأصل : « أما كان ... » . (٢) تحوس أحدهما : تغشاه وتهيه . وفي الأصل « تحوس ... » بالشين المعجمة وهو تحريف . (٣) في الأصل : « فأى أمر بذلك ... » .

ثم أنت لا تؤمن بمقالاته، ولا تهتر برسالته، إلفاً لدينك، وضناً بملكك، وطمعاً في قليل من الدنيا قد نَعَاه الله اليك، ورغبةً في صُبابَةِ عيشٍ غيرِ باقيةٍ في يدك، فهذا عَجَبٌ .
وأعجب من هذا أمرٌ يَقُفُكَ أميرُ المؤمنين على نورِ حقِّه، ويوضح لك إن شاء الله ببيان أمره : أصبحت العربُ طُراً والأُممُ جميعاً في مجدِ صلى الله عليه وسلم ثلاثةً لا رابعَ لهم ولا تخرَجُ للحق من بينهم : رجلٌ مصدِّقٌ به من المؤمنين، ورجلٌ مكذِّبٌ به من الكافرين، ورجلٌ شاكٌّ فيه من المنافقين .

فأما الشاكُّ فلما قيل له : أنجرتَ نفسك من الحق، وأبرأتها من الصواب، وأقررتَ عليها بالخطأ، لقولك : لا بد أن يكون الحق في التصديق أو التكذيب، ولست على واحدٍ منهما، اعتزل عنها .

وأما المكذِّب فلما قيل له : أنت مُنكر والمُنكر ليس بمدَّع، ومن لم يدَّع لم يلزمه بینه ولا يسأل عن حجة، اتبع صاحبه . وأيم الله على ذلك، لو سُئِلَ هذا المدَّعي عن بيِّناته وكشِفَ حُجَّتُه، فقليل له : من أين عَرَفَ قلبك، وأيقنتَ نفسك إيقاناً لا يخالجه شكٌّ، ومعرفةٌ لا يشوبها ريبٌ ولا ينازعها شبهة، أن مجداً صلى الله عليه وسلم ليس برسول، لما درى ما يقول؛ لأنه لا يستطيع أن يتقول على الرسل، ولا أن يتكذَّب على الكتب، فيقول : قد أخبر الله فيها أنه لا يبعث نبياً، ولا يُنزل وحياً في كتابٍ مسطور، بعد التوراة والإنجيل والزبور . بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسلهم وأخاير كُتُبهم، أن الله تبارك وتعالى يُنزل كتاباً جديداً أو كلاماً حديثاً، بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان، ولم يُنزل بعد ذلك كتاباً إلا القرآن .

وأما الرجل المصدِّق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقليل له : أما أنت فقد أدَّعيت، والمدَّعي يُسأل عن الحجة ويُقبل منه البيِّنَةُ، فما بيِّنَتُك ومن يشهد لك؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحق لا يخرج من بيننا، ولا بد أن يكون مع بعضنا؟ قالوا بلى ! قال : فآية بيِّنَةٍ أحق وأعدل، وأى شهودٍ أذكى وأفضل من شهادتكم بسقوط صاحبي وثبوت

الحق من بعدهما في يَدَيَّ؟ قالوا : إن الأمرَ لكَا تقول، ولكنَّ البينةَ أشقَى للصدور؛ فأقام بينةً من الكتاب، وشهوداً من الوحي، وآياتٍ سوى ذلك عظاماً، وبيناتٍ عواماً، من كلامٍ لا يَقْدِرُ عليه الخلق، وصِدْقٍ لا يكون إلا من قِبَلِ الرب، شبيهاً بما أورده أمير المؤمنين عليكم، وكتبَ به في صدر كتابه هذا اليكم، مما قد تشهدُ له قلوبُ الأئمة، ويزَكِّيه فعالُ العرب .

فلما أقام بينته، وثبت حجتَه، ووجب حَقُّه، وقضى به له، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك، وضاعت المقالة لك، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيا بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحيا ينزل غير القرآن، فأبطلت الكتب المحدثه، وأكذبت الوثيقة، ولم تترك وحيا غير القرآن، ولم يحز للنصارى أن تقول : لا نبي بعد عيسى عليه السلام، ولا كتاب خلف الإنجيل؛ وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا كل متنبئ بعد نبينا كذاب، فشاعت وجازت الحجة، ووضع العذر . وأما النصارى فيجدون في أواخر كتبهم، وأقاويل رسلهم، أن الله عز وجل، يبعث نبيا حديثا، وينزل كتابا جديدا، فليس لهم أن يكذبوا نبينا — صلى الله عليه وسلم — ولا أن يردّوا كتابنا .

فهؤلاء الثلاثة . أما الشاك فسقط، وأما المنكر فبطل، وأما المصدق فنثبت ثبوتا ليس فيه مدخل شبهة، ولا موضع لجة، ولا معالق لمنازعة . وذلك أن المنكر لوجوب حقه، والشاك في ثبوت صدقه، لا يجد بدا من أن يُنْحَى الصديق عن الخلق، ويخل الدنيا من الحق، وهذا قول المكذبين بربههم، الشاكين في بعثهم، فأحسن النظر في معانيه ينكشف لك عما فيه، إن شاء الله .

ومن أبين آياته وأدلّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر إليه : أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمداً — صلى الله عليه وسلم — في التوراة والانجيل موصوفاً مكتوباً، تجعّت العلماء منهم، وتدارست الكتب فيما بينهم؛ فلما نظروا

(١) في هذه الجملة غموض لم نوفق الى كشف سببه وان كان المراد منها واضحا .

إلى أسمه وطائفه بنعته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويستفتحون بذكره على من سواهم ، [كفرت] طائفة حسدا من عند أنفسهم ، وجمدا من بعد ما تبين لها ، وأمنت طائفة ، تصديقا بكتابها ، وخوفا من ربها .

فلعمركم لو [لا] أن الذين آمنوا بحقه وصدقوا بأمره ، رأوا صفته عيانا ، وقبلوا نفعه إيقانا ، لما فارقوا أديانهم ، ولا جادلوا إخوانهم ، حتى وقفهم على أسمه ونسبه ، وصفته وعلامته ، وهم علماء بني إسرائيل ، وحملة الإنجيل : من أهل الكتاب الذين احتج الله عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . ولعمركم إنها لآية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله في كتابه ، وجعلها على العرب من بيناته ، فقال لهم : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ . يقولون : وعدنا أن يرسل رسولا ، فقد أرسله ، وحقق قوله ، وصدق وعده . واحتج النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وذكره . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليُجادل ويحتج في أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه في التوراة والإنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ، ونور مستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب ، ويتقول عليهم الباطل ، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعي به إمكان أحياء العرب . أما كان يعلم أنه إذا قال لهم : إنه موجود في مثالي كتبهم ، وسُئى على أفواه رُسُلهم ، فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وصفه مستبينا ، أنهم سيذنبون عنه إديارا ، تزداد به العرب نفارا ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواء من خبره ، فكيف لم يخطأ إذا في كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ، سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم ، فاتم إن تنكر ما يقولون لكم ، مما ليس لدى لب أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن ينبد إليه

(١) سمعه ، يقولون : إن أنبياء الله ورسله ، المبعوثين بالرحمة الى خلقه ، لطفت النبوة منهم ، ووقعت الأخبار المنزلة عليهم ، على صفائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فسار الناس عليها وأشاروا لهم الى طلبها ، فهي مكررة فى مثنائ كتبهم ، وبطون صحفهم ، وأقاويل رسلهم ، وتركوا من كلام الله النبأ العظيم ، والأمر الكبير ، والذكر الحكيم ، الذى ملك آفاق الأرضين ، واستفاض على جميع العالمين ، لم يذكروه بخير يأترون به ، ولا بشرية تهنون عنه ؛ كلا ! ما ترك الله على هذا خلقه ، ولا بهذا وصّف تبارك وتعالى نفسه ؛ إنه لأرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعت الى قلبك ، لتقولن فى نفسك : لعمر الله لو كان هذا الأمر الذى طلع طلوع الشمس ، وأمتد أمتداد النهار فبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وسهول الآفاق وخزائنها ، حقاً وصدقاً وعدلاً ، لبشرت الكتب به ، وتنبأت الرسل عليه ، ودعت النذر اليه ، تريننا له وترغيباً فيه ، وأمرأ به . ولو كان ضلالةً وجهالةً وعمايةً ، لتقدموا فى التحذير منه ، والترهيد فيه ، والتضييق عنه ؛ فيدعو ذلك الى أن تنظروا الى كتب الانبياء وأقاويل الرسل . فأيّ الله لئن طلبت لتجدن ، ولئن اجتهدت لتوفقن . وما الصواب بممنوع ، ولا الخير بمحذور . ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراء بالتأويل تجده ، ولكنها كانت تكتمه بتحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرف تأويل الحكم الى أشباهه ، حسداً من عند أنفسهم وبغياً بعد ما تبين لهم . ثم لقد أقنيتهم بهم وجرّيت معهم وأخذتم عنهم ، بلا حجة لكم ، ولا قوة معكم إلا الاقتداء بالآباء والاتباع للآثار . فأتق الله فى نفسك ، وآتهم الرجال على دينك ، ولا تجعل النظر الى غيرك من ذوى الشك فى القلوب ، والفسخ فى ... والثّم فى التعطيل ، الذين لعلهم يعرض لأرائهم ويقع فى أوهامهم أن يقولوا : فلعلّ (٢) ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرّع لكم من حجج الوحي شىء زيد

(١) هكذا فى الأصل . (٢) فى الأصل « أن ينظروا ... » بياء النية . (٣) هكذا فى الأصل .

وظاهر أن كلمة بعد « فى » سقطت من النسخ سهواً .

في المصاحف بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوى ،
وذاك الشاك في شهادات الرجال ، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة ، وشعوب وقبائل متفرقة ،
ليس يدعوهم الى ما شهدوا ديناً ، ولا يحلهم على ما اتفقوا عليه دنياً ، لا يستقيم له أن يؤمن^(١)
بما لم تدركه جوارحه وتُحيط به خواصه ؛ لإسقاطه حجة الإجماع وإبطاله شهادة العوام .
وأتفاق المختلفين دلالة واضحة . فهو سائلكم عن الحجّة في الإنجيل والبيّنة على التوراة ، شكاً
في الرب وتكذيباً بالرسول ، فما كنت قائله له أو مجيبه به في كتابكم ، فأجبه بمثله في كتابنا وإن
كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤتلفة ولا مرتفقة ولا واحدة ، تعتدل حالاهما ،
ويتفق أمرهما ، من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافه المسيح به
أصحابه باللسان ، إنما كان فعلاً أثبت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعاً بعده . وليس^(٢)
يكتب أمير المؤمنين بهذا اليكم شكاً فيه ، ولا يورده عليكم مرية به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كتب الله عز وجل محفوظة ، وأن حُججه مخزونة ، لا يُزاد
فيها على تقدّم عهد ، ولا يُنقص منها على تقارب دهر ، وأن ذلك ثبت في الإنجيل من
بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن اجتمع اليه من الحواريين : ” بالوحى أكلّمكم ،
والأمثال أضرب لكم “ . فأمثاله المضروبة كلام ، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما بال الشك
يُنْفَى عن كتابكم ، بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وصّف أمير المؤمنين لكم ،
وسيان في تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه ، إما ما قربا من عهده ومعانيه وحيه^(٣)
 واجتماع على حفظه ، هذا حكم مختلف .

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التي^(٣)
تعرفون ووهما بطبقات الرجال الذين يهتمون .

فإن قالوا : أما طبقات الرجال التابعين ، وحالات زمان أمير المؤمنين ، فذلك
ما لا يسوغ الأقاويل فيه ، ولا تدخلُ الشبهة عليه ، لأنّ انتشار القرآن وامتداد الزمان ،
(١) في الأصل : « لا يستقيم له أن يؤمن له بما ... » . بزيادة ” له “ . وهى قلقة في موضعها فاعلمها
زيدت من الناسخ . (٢) في هذا الموضع اضطراب في الكلمات ، والمراد واضح . (٣) كذا في الأصل .

وكثرة الحملة لآياته فيهم، والحفظة للسانهم، ولكن الدين الذي نزل به القرآن، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم. وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة، على أقوام [لبث] النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حجة فيهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم، حتى حملوه في صدورهم، وحفظوه في قلوبهم، وكرروا في آذانهم مسموعا، وأمرنا على أبصارهم مكتوبا، وجرى على ألسنتهم متلوا، وجمعه كثير منهم محفوظا، ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم، حتى أدوه إلينا، وأوفوا به عندنا، من مواضع متفاوتة، وأصناف وأجناس متباينة، على كلمة واحدة ! .

فإن قالوا : اتفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنتم الحال من الحمل عليه، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا في الزيادة متهمين، وأن المنافقين الملحدون ليسوا على ذلك بقادرين . وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين، بعد ما حفظته قلوبهم، ووعته أسماعهم، ثم تكتتم القدرة لهم وتستر الزيادة منهم ! هذا ما لا يقدر عليه منافق، ولا يطيقه مشرك ولا فاسق . وأيم الله أن لو قدرت اليهود على الزيادة في الإنجيل، لأفسدوا كتابكم وغيروا دينكم، ولو جعل الله المنافقين على الزيادة في كتابه قادرين، لبدلوا ديننا وغيروا حالنا . ولو كانوا لذلك مقرين وعلى ذلك مقتدرين، لكان الذي كتب به أمير المؤمنين اليكم، وأورده من جميع الله عليكم، أولى ما تلقون، ورأس ما تقتفون . فلا تلقين إلى ما قاله [المضل] سمعك، ولا تُنصت الدهر إليه ذهنا، فإنه اتخذ الشك في كتابنا ذريعة إلى الإخلال بكتابك، وسُلما إلى الشك في دينك وعلة في الطعن على ملتك، ولكن قل يا ولي الشيطان : أتى وقع لك إيمان بأنك من ولد فلان ؟ أتقول : شهدت الجيرة، واجتمعت العشرة، واتفق المختلفون، فذهب الشك، وزال الريب، ووقع الإيقان، من غير العيان ؟ صدقت . فما بال الشك فيما اجتمعت العامة على القول به، واتفقت الجماعة في الشهادة عليه من آيات الكتب وبيّنات الرسل ! وإن ذهب بهذا عن أمره، وباعده

(١) في الأصل "في دينه ... " . (٢) كذا بالأصل .

عن شبهه ، فتؤمن أنه من نطفة خُلِقَ ، ومن رَحِمٍ نَحَرَ ، فإن جحدوا بى ألا يؤمن بما لا يرى ، فقل : أرايت لو كنت سميعاً أعمى ، أكنت تؤمن بشيء مما فى الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سبع ، أو أرض أو جبل ، أو شبه ذلك مما لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن الناس ؟ فإن قال نعم ، فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب ، وما لدائه دواء غير الصلب . فأتق الله إذ كنت إماماً وقائداً لأهل ملكك ، لا تقدمهم الى النار فتجمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من آيين آيات الوحي ، وأدلل علامات النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يتدع فى الدين أمراً من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم فى الأمور بين يدى ربه . والله أظهر فيما أنزل من الكتاب أموراً كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال تأديباً له ، وإخباراً لمن آمن من بعده : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقال : ﴿ عَسَى وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ شَبَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذَا لَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ . وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس الى البلد الحرام حين سكنت القلوب اليها ، وأنست النفوس بها : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . وكانت القبله التى صرفه الله اليها وأمره بها عظيمة على المنافقين واقعة بخلاف الكافرين ، كبيرة ^(١) إلا على الذين هدى الله من المؤمنين ، فإنهم قالوا : اذا اختلفت القبلتان واقتربت الجهتان ، كانت الطاعة فيهما واحدة لا اختلاف فيها ولا افتراق عليهما . وكيف تختلف الطاعة من رجل بنى بأمر الله عز وجل ثم هدم بوحى الله .

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى الأصل : "لن آمن من بعده إذ يقول ..." وظاهر أن كلمة

"إذ يقول" غر مفيدة هنا . فلعلها زيدت سهواً من الناسخ . (٣) فى الأصل : "كثيرة ..." .

فإن قلت : إن الله حَوَّلَهُ عن أفضل القبليتين وأقوم الجهتين ، فلا سواء في الفضل
البيّن والخير السرّ : قبلة سَأَلَ الله عليها الكافرين ولم يَمْنَعْها من الظالمين ، وقبلة مَنَعَهَا مجنود
من عنده ، وعَصَمَهَا بغير ما حَوَّلَ من خَلْقِهِ ولا حُرْمَةٍ يَدْعِيهَا أَحَدٌ مِنْ فِيهَا ؛ فَأَرْسَلَ طَيْراً
أَبَانِيلَ تَرْجِي الأعداءَ بِجاريةٍ مِنْ سَجِيلٍ ، فجعلهم كَعَصْفٍ مَا كُول . فإن تقل : هذا خبر
نُكِرَهُ ، وقول لا نعرفه ؛ فبأى حديث بعد هذا تؤمن ، وتشهد لله عز وجل أنه من قبَلِهِ ،
وأتمّ تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمداً صلى الله عليه وسلم خَبَّرَهُمْ بما عاينوه وأدركوا خلافة ، نقل :
إنه أراد أن يفرّقهم عنه ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب ، ويقذفوه بالحق ،
ويضمّوه بالحنون ، ويظنون به الظنون ، كلا ! ما كان نبي ولا غير نبي ليُجاهد أقواماً بخلاف
ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم ، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا ، وتكذب ما عاينوا . فلا
تكون في هذا من المتزين ، ولا بأمر الفيل من المكذّبين .

فلعمرو الله لو كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما تُلْحَدُ أنت وقومك إليه
لما قام معه رجلاً ولا آخلف فيه سيفان . وإن فيا صنع الله عز وجل بالفيل
وأتباعه ، دلالة على قبلة الله وأنبيائه . فأتق الله ! فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي
صلى الله عليه وسلم وكشّف الأغطية لك عن النور بآيات الوحي . فإن مالت الأهواءُ
بك ، وغلبت الأساقفةُ عليك ، وحضرك الرؤساء الذين يجعلون مع الله آلهةً أخرى بلا حجة
عندهم ، ولا سلطانٍ أتاهاهم فقل : أنبؤني عما آجتمعت عليه النصرانية وذهبت إليه بهم
المعاني من تشقيق الكلام وتصريف الكتب : أحروفتُ تتعسفونها ، أم باغة تعرفونها ؟
فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلمون ، فهم إذا قوم يلعبون . وإن قالوا : إنهم يتكلمون
بالغة معروفة ومعاني معلومة ، فقل : أخبروني عن قولكم : أب وأبن ، أهما ما تعترف
العقول من المنطق ويقع في القلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذي

تذهب أوهام العباد اليه ، ولا بالذى تقع الحقائق فى الآباء والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراة لإسرائيل : ”بكرى“ لا يعنى ولادة الرحم ؛ وكقول المسيح عليه السلام للحواريين : ”أتم إخوانى“ لا يعنى أخوة النسب . فذلك قول لا يجدون معه بداً من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبداً . وإن قالوا : بل هو ما تجرى به ألسن العباد ، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأبوة المعلومه ، فليخبرونا متى كان الأب والدا ، والابن مولودا : أقبل الولادة أم بعدها ؟ فإن قالوا : قبلها ، رجعوا عن القول الأول بتثبيت الأبوة . إلا أن ذلك ليس بالشئ الذى تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأنام .

ولا بد إذا سقطت الولادة المعروفة وبطلت الأبوة الموجودة ، أن يقولوا : إن الأب والابن آسمان علّق على غير معنى ، ونسبان أضيفنا الى غير حق ؛ فيقرّون أن عيسى عليه السلام خلق مثلهم ، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم .

وإن قالوا : إنما كان الابن مولودا والأب والدا بعد الولادة ، فقد أقرّوا بأن الابن حدث مخلوق وعبد مربوب ، لقولهم إنه لم يكن حتى ولد ، ولم يولد حتى خلق . وقل لمن يقول الزور العظيم ، ويقذف بالإفك المبين : أليس الأب أباً على حياله ولم يزل ، والابن أبنا يُجِل ، وروح القدس كذلك ؟ فإن قالوا : نعم ، فقد أقرّوا بأنهم ثلاثة متباينة ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة ، وتركوا قولهم : إنهم ثلاثة أصلهم واحد .

وإن قالوا : الأب والابن وروح القدس واحد ، ولكنّ بعضه أب وبعضه ابن وبعضه روح القدس ؛ فقد دخلوا فى التحديد الذى هو عيب عندهم ، وقالوا فى التبعض بما هو كفر قبلهم . وإن قالوا : ليس مُبعضاً ، ولا مجزأً ، ولا محدوداً ، ولا ثلاثة متباينين ، فإذا هم قوم يلعبون : الأب ابن ، والابن أب ، والوالد مولود ، والمولود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير ، والكثير قليل . وهذا من أبين المحال وأخلف المقال . وليس من المنطق مالا يوجد فى لغة عرب ولا عجم ، ولا لسان أمة من الأمم . وإنما

أرسل الله عز وجل كل نبي بلسان قومه ليبيّن لهم ، فُضِّلَ الله الظالمين . ولولا ذلك لَمَا
فَهِمَّتْ الأُمَمُ مذاهبَ أقاويل الرسل ولا معاني أحاديث الكتب . فلا تُطْع الذين يلعبون
بأنفسهم ، ويتكلمون بغير لغتهم ، ويقولون : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ؛ وهذا محالٌ
في مجازي المَقَال ، ومعاني الفِعال .

لعمركم الله لئن آتَته عقولُ الأساقفة على دينك ، وأهتَمَّتْ بالنظر في توحيدك ،
لَتَعْلَمَنَّ أن الواحدَ لا يكون ثلاثة وأن الثلاثة لا تكون واحداً ، إلا على وجه ماله ثابِتٌ يقول
به ، ولا منه مَخْرُجٌ تستريحُ إليه . فألقِ نحوه سَمْعَكَ ، وَأَنْصِتْ إليه فهمَكَ ؛ فإن أمير المؤمنين
واصفه لك ، وليس واقعاً إلا على المخلوقين ، ولا لازماً غير المحدودين ، ولا داخلاً على رب
العالمين : وهو أن يكون الشيءُ أصله واحد وأجزأه كثيرة ، من نحو الانسان ، وهو أصل
يجمعه اسم ، وله أجزاء تلزمها أسماء ؛ فليس الجزء بالأصل ، ولا الأصلُ بالجزء ، ولكن الجزء
بعض الأصل . فإذا أردتَ الجزء ، قلت يد الانسان وسمِع الانسان ، ولولا أنه محدود مخلوق
مجزأ مَبْعُض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه ؛ وكذلك الشمس : الأصلُ
واحد ، وهي شمس ، والأجزاء كثيرة وهو عينُ الشمس وضوءُ الشمس وشُعاعُ الشمس ودقيقها
وغليظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فلئن قلت : سَمَّيْتُ كُلَّ جزءٍ من الأجزاء على حياله إنساناً ، وكلَّ جزءٍ من الشمس دون
أصله شمساً ، ونَسَبْتُ فعلَ الأصلِ الى بعض أجزائه ، وتركتُ أن تنسبَ الأصلَ فاعلاً ببعض
الأجزاء ، كما تقول : بَسَطَ الانسانُ يده ، ومَشَى برجله ، ونَظَرَ بعينه ، ثم ضربتَ ذلك الله
عز وجل مثلاً وجعلتَ الله له قياساً ، فقلت : الأصلُ واحد ، وهو الله عز وجل ، والأجزاء
كثيرة وهي أب وأبن وروح القدس ، وكل جزء منها إلهٌ على حياله وربٌّ دون غيره ، لم يَجِدْ
بُدّاً أن تُلْحَقَ اليدُ والعَيْنُ والنفسُ بالأب والأبن وروح القدس ، فتكثَرَ أَلِهَتُكَ ، وتحدَّدَ
رَبُّكَ ، وتتركَ قولك : إن الله ليس محدوداً ولا مجزأ ولا مَبْعُضاً ؛ إلا أن يكون إنما تريد مذاهب
الأسماء فتقول : المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماء أب وأبن وروح القدس .

فإن كنت تقول هذا وكنت إنما تعبد أسماء، فما تجد بدءاً من أن تعبد الأسماء كلها وتقول : إنما آلهة على حيالها ، حتى تقول باسمي أرحمني ، وبثاني اغفر لي . فاتقوا الله يا أهل الكتاب ؛ فإن الله عز وجل ليس بأب ولا آبن ولا أسم ، ولكن له الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساقفة إلى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك وقالوا ليس إنساناً ، فقل لا ، ولكنه للإنسان ، وقل هو إنسانٌ بكالهِ . وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس فقالوا : ليس هذا الشمس طالعا ، فقل لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماء التي تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم إليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواءً وسماءً لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يبلغه الإحصاء . ولو قصدت بالإجابة لمسالك هذه الأودية ، لبطلت الحجة الداحضة وأتقطعت الأقاويل المتناقضة . وسل من قبلك من أساقف أمّتك وسمامة أهل ملتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ، ويرفعونه أن يكون عبداً : على أي شيء وقع اسم المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كليهما ؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح إله دون غيره ، فقد أقروا بأن إلههم يأكل ويشرب ، ويمشي ويركب ، لأنهم يحدون ذلك من فعل عيسى مبيناً قبلهم ، موصوفاً عندهم . فإن قالوا : وقع اسم المسيح على الجسد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح إذاً دون غيره ، والمسيح إذاً مخلوق عندهم ، والإله إنساناً إذاً مثلهم ، فلم يعبدون المخلوق ويدعون من خلقه وبرآه . وإن قالوا : وقع الاسم على الروح والجسد جميعاً ، فلن يحدوا محرّجا ولا بدءاً ولا محيصاً ، إذا أوقعوا الاسم عليهما ، من أن يضيفوا الأعمال إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خلقهم ، وإن الروح الخالقة قد ماتت قبلهم ، وذلك لما يحدون من ذكر موت عيسى عليه السلام في الكتب عندهم وفي الإنجيل الذي قبلهم . وسل من قبلك عن الأب والآبن ، فقل أيهما أعظم وأيهما أصغر ؛ فإن قالوا : الأب أعظم والآبن أصغر ، فقد جعلوهما متباينين . وإن قالوا : هما واحد وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الآبن ،

ولا الابن بأصغر من الأب، فقد نُقِضَ حينئذ جوابهم، وأكذب المسيح عليه السلام كلامهم، حيث يقول: «لو كنتم تحبوني لفرحتم حيث أذهب الى إلهي فإن إلهي أعظم مني» فلم يقل أعظم مني، إلا وهو مقر بأنه أصغر منه. وسلهم عن قول المسيح: «أنا أذهب الى إلهي وإلهكم»، فقل: من هذا الإله الذي ذهب عيسى الى صلي الله عليه وسلم: إله في السماء متباين منه منقطع عنه؟ فهما اذا اثنان متباينان، أم إله كان به متصلاً وكانا جميعاً واحداً؟ فكيف اذا يجوز له أن يقول اذا أذهب اليه! إلا أن يقولوا: إن بعضه ذهب الى بعض! وهذا مما لا يجوز عندهم في صفة الرب عز وجل.

وسل من قبلك: أخرج المسيح من بطن أمه مريم بكاله حتى كان البطن منه فارغاً وكان هو منه بكاله خارجاً؟ فإن قالوا: نعم، فقد أنكسر قولهم: إن الله بكل مكان. وإن قالوا: لم يخرج المسيح ولم يخل البطن، فقد كذبوا اذاً في قولهم: إنه قد خرج، وأقروا أنه قد ولد. فتعالى الله عما يصفون، وتزه عما يشركون. وسلهم لم يهبط عيسى الى بطن مريم، وتجسد باللحم والدم، فإن قالوا: ليحقق الخطايا من الأرض ويربط الشيطان عن الخلق، فقل: كيف اذا لم يربطه عن نفسه! وكيف جلاباه من اليهود بصلبه! ولم سلط على أهل دينه يتبعون في كل شعب ويُقتلون بكل واد!

وقل للذين يقولون: إن الخالق في كل مكان من السماء والأرض وغير ذلك: أيها أعظم: المحيط المشتمل، أم المحيط المشتمل عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون. فإن قالوا: إنما ألثم بعضه دون بعض، فقد حدوا وبعضوا ونقصوا وأنتقصوا، وإما قالوا فلن يجدوا بداً من أن يقولوا: إن بعض المسيح الذي جعلوه ربهم، وهو إله عندهم، ميت بعضه حية، وإن بعضه حي طيب؛ لأنهم زعموا أنه ألثم بجسد حي فيه

(١) الوارد في إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٨ ج ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٨٨٢ م): «فلو كنتم تحبوني لكنتم تفرحون بأنى ماض الى الأب لأن الأب هو أعظم مني».

(٢) الوارد في إنجيل يوحنا (فصل ٢٠ آية ١٧ ج ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس): «إني صاعد الى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم». (٣) كذا بالأصل.

روح، فلا بدّ إذاً أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفرح والعطش وأشباه ذلك، وهو عندهم كفر عظيم وإفكٌ مبين . فاتّق عقوبة الله ربك، ولا تمش مُكبّاً على وجهك، ولكن اطلب وأتمس وأبحث؛ فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل :
 «^(١) مَنْ سَأَلَ أُعْطِيَ وَمَنْ طَلَبَ وَجَدَ وَمَنْ اسْتَفْتَحَ فَتُحِلَّ لَهُ » .

اجمع العلماء والبصراء [الذين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قبلك، فقل : لأى شيء نُسبتم المسيح إلهاً وجعلتموه رباً؟ ونجد الله سمّاً في الكتاب ابناً، وقد تجدونه قال :
 «إني أذهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم أيضاً» . وهذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولى به، وقولٌ لا يحتمل إلا وجهاً وهو الربوبية . أم كيف تنظرون إلى كلامه : «أذهب إلى أبي وأبيكم» . فتفردونها في نفسه وقد قالها فيه وفي غيره !

فاتّق الله وكن من القائمين بالحق، الموحدين للرب . إن أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالاً جمةً، وصرف إليك مسائل كثيرة، وبين لك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي قليلاً من كثير، واضحا من تفسير، لا تمتنع العقول من التصديق به، ولا القلوب من الإقرار به .

وسيدك لك أمير المؤمنين من علامات النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل، ما يُكْتَفَى به، إن شاء الله، وبالسيرة منه؛ لأن كتب الله عز وجل محفوظة، وحججه محروسة، لا يزداد فيها ولا ينقص منها . وإذا وجدت فيها كلمة تدلّك على حق وتهديك إلى رشد، فليست واجداً أخرى تصدّك عنه وتشكّكك فيه، إذا تلى ذلك بالحق ووضع على الصدق . ولكن ضلّت اليهود والنصارى بتحريف تأويل الكلام، وتصريف تفسير الكتب . وأمير المؤمنين يسأل الله العِصمة والتوفيق .

(١) الوارد في إنجيل متى (فصل ٥ آية ٢٤ ج ٣ من الكتاب المقدس) : «من سأل فأعطه . ومن أراد أن يقرض منك فلا تمتنع» . والوارد في إنجيل لوقا (فصل ١١ آية ١٠ ج ٣ من الكتاب المقدس) . «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له» .

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عندكم وبينه في الإنجيل لكم ، إذ قال للحواريين ^(١) : ”أنا أذهبُ وسيأتيكم البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يُقال له ، وهو يشهد علىّ وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شيء أعد الله لكم يخبركم به “ . وترجمة البارقليط : أحمد . هذا ما لا شك ولا مرية فيه ، وهو الذي يُخبر بما وعد الله المؤمنين وصالحى الحواريين في القرآن ؛ ولستم تجدون ذلك في التوراة ولا في الإنجيل .

ومن ذلك قول أشعيا النبي عليه السلام ^(٢) : ”قيل لى : اقم بطارا ما ترى بنجرى؟ قال : أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها المنحوتة “ ^(٣) . ولسنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا . ومن ذلك قول داود عليه السلام ^(٤) : ”اللهم ابعث جاعل السنة كي يعلم الناس أنهم بشر“ يقول : كي يتبين الناس أن عيسى عليه السلام إنسان . ولسنا نعلم نبيا وضع سنة تُنسب إليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نصب سنة موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حبقوق النبي ^(٥) في زمان دانيال : ”جاء الله من السماء والقديس من جبال فاران ، وأمتلأت السماء من تجميد أحمد وتقديسه ، ومسح الأرض يمينه ، ومَلِك رقاب الأمم “ ^(٦) . وقال أيضا ^(٧) : ”تضىء لنوره الأرض ، وتحمّل خيله في البحر “ . فالى من

(١) راجع إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٦ وفصل ١٥ آية ٢٦ وفصل ١٦ آية ١٣ ج ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدس) .

(٢) راجع نبوة أشعيا (فصل ٢١ آية ٩ ج ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدس) . (٣) كذا بالأصل ، ولم نوفق إلى تصحيحه . (٤) في الأصل : « المنحرة » وقد استأنسنا في إثبات ما أثبتناه بالكتاب المقدس .

(٥) راجع سفر الزمير (فصل ٩ آية ٢١ ج ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدس) . (٦) راجع نبوة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) . (٧) في الأصل : ”من السماء ... “ .

(٨) راجع نبوة حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ج ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) .

ينحو هذا القول، وإلى أين يذهب بهذا المعنى؟ لئن ذهب به إلى غير الذي [تجمل] ^(١) خيله في البحر، وبدأ من جبال فاران أمره، وغلب على الأرض ومسحها، وملك رقاب الأمم كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون.

ومن ذلك قول داود عليه السلام في الزبور ^(٢): ”صَدَّقُوا رَبَّ تَسْبِيحًا حَدِيثًا سَبَّحُوا الَّذِي هَلَّلَهُ الصَّالِحُونَ“. ليفرح إسرائيل بخالفه ويتوب صهيون من أجل أن الله اصطفى له أمته، وأعطاه النصر وسدد الصالحين بالكرامة، يسبحونه على مضافهم، ويكبرون الله بأصوات عالية، بأيديهم سيوف ذات شفرتين، لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه، ثم يقيد ملوكهم بالقيود وأشراقهم بالأغلال. فأيما أمة يكبرون الله بأصوات وأذان الصلوات الدائمة وعلى كل شرف وعند كل حرب، وأيما أمة كانت سيوفها ذات شفرتين إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم!

ومن ذلك قول أشعيا ^(٣): ”سَبَّحُوا رَبَّ تَسْبِيحًا حَدِيثًا، وَيَسْبِّحُهُ مِنْ آفَاقِ الْأَرْضِ“ ^(٤) فرح يكون في بني فيار. وبنو فيار قريش أهل فاران الذي نزل فيه القرآن. وأيما أمة تسبح من آفاق الأرض إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم. عدى أحدى.

ومن ذلك قول أشعيا ^(٥): ”عَبْدِي الَّذِي وَجِبَ بِهِ حَبِّي الَّذِي بَشَّرْتُ بِهِ نَفْسِي أُفِيضَ عَلَيْهِ رُوحِي، يُوصِي الْأَيْمَ بِالْوَصَايَا، لَا يَضْحَكُ وَلَا يُسْمَعُ صَوْتُهُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَيَفْتَحُ الْعُيُونُ الْعُورَ، وَيُسْمِعُ الْأَذَانَ الثَّمَمَ، وَيُخَيِّقُ الْقُلُوبَ الْغُلْفَ، وَمَا أُعْطِيَهُ لَا أُعْطِيَ غَيْرَهُ، أَحَدٌ“ ^(٦) يحمده الله حمداً حديثاً، تهليله يأتي من أقصى الأرض، يجوز الماء بشدة أمواجه، ويصرح وكورها، سكانها يحمدهون الله على كل شرف، ويكبرونه على كل رابية.

(١) زيادة يدل عليها ما قبلها. (٢) في الأصل: ”ومنحها...“ (٣) راجع سفر المزامير (فصل ١٤٩ آية ١ — ج ٩ ص ١٥٧ من الكتاب المقدس). (٤) في الأصل ”هلكه الصالحون...“ (٥) راجع نبوة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس). (٦) كذا في الأصل، ولعله محرف عن «فوج». والفوج: الجماعة من الناس. (٧) كذا بالأصل، ولم ندر لها تين الكلمتين ولا لذكرهما معنى. (٨) راجع نبوة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١ — ج ١٠ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس). (٩) كذا بالأصل.

(١) ومن ذلك قول داود عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين، يقول الله عز وجل
لحمد في الزبور : ”انصبت رحتي على شفيعك من أجل ذلك باركتك الدهر“ ، تقلد^(٢)
السيف على الأعم ، أيها الجبار على الأعم بالقتل والأسر والسبأ بهاك وحمدك أحمد بعل
الرميك كلمة الحق وذلت لك الأشياء سيفك محسمه يمينك ونبالك مسمومة وتسقط
عند الأعم“ . فأى نبي كان على الأعم جبارا ولهم بإذن الله قتالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم .

(٤) ومن ذلك في آخر التوراة : ”جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير
واستبان واستعلن من جبال فاران ، وجاء عن يمينه ربوات القديسين“ . وتفسير هذا
أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء ، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه
السلام في جبل ساعير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبال
فاران وهي بلاد مكة . وأتم تجدون ذلك في كتبكم مكررا وتعرفونه جميعا بلغتمكم .

(٥) ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام «سأقيم لهم من إخوانهم مثلك أجعل
كلامي على فهمه ولا يتكلم إلا بما أمره به» . فمن إخوة بني إسرائيل إلا بنو إسماعيل !
أما تعلم أن لو كان الله عز وجل يعنى أحدا منهم لقال لهم : أقيم لكم نبيا منكم ! .

فإن قلتم إنما قال من إخوانكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهب أمير المؤمنين قبل هذا
الخلف منكم ووسع في هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل في التوراة :
”مثل موسى في بني إسرائيل لا يقوم“ فهل تجدون من هذا مخرجا ، ومن الإيمان أن المعنى
وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدا .

- (١) راجع سفر المزامير (فصل ٤٤ « وفي بعض النسخ ٤٥ » آية ٣ — ٨ ج ٢ ص ٧٩ من الكتاب
المقدس) . (٢) في الأصل : « في خمسة وأربعين زمورا » . (٣) في الأصل : « من
أجل ذلك باركك الدهر . واستعنا في تصحيحها بالكتاب المقدس الذي وردت فيه الجملة هكذا : « وقد انسكبت
النعمة على شفيعك فلذلك باركك الله إلى الأبد » . أما الباقي فلم نوفق إلى تصحيحه فأثبتناه كما وردت بالأصل .
(٤) راجع سفر تثية الاشتراع (فصل ٣٣ آية ٢ ج ١ ص ٤٤٣ من الكتاب المقدس) .
(٥) راجع سفر تثية الاشتراع (فصل ١٨ آية ١٥ ج ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس) .

ألا تسمع قول الله عز وجل : " أَجْعَلُ كَلَامِي عَلَى فَمِهِ كَمَا يُعْنِي بِهِ ، أَمْيُّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ " .

(١) أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوَارِيَّه أَنْ يَقُولُوا فِي صَلَوَاتِهِمْ : « يَا أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقْدُسَ اسْمُكَ » . كيف صار عيسى دونهم أبنا ، وصار له دونهم أباء ، وهم يقولون : يَا أَبَانَا ! أم كيف لم يُجْعَلْ سَلِيَانُ بْنُ دَاوُدَ إلهًا وقد قال الله عز وجل لداود : " يُؤَلِّدُ لَكَ غُلَامٌ يُسَمَّى لِي وَأُسَمِّي لَهُ " ! ولم لا يجعلون إسرائِيلَ إلهًا وقد قال الله عز وجل له : " أَنْتَ بَكْرِي " ! بل لم لا يُسَمُّونَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً وَالْحَوَارِيَّينَ خَاصَّةً [آلهة] ، وقد قال المسيح للحواريين : أَنْتُمْ إِخْوَتِي ، وقد قال في الإنجيل : " أَعْطِ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِي سُلْطَانًا يُدْعَى لَهُ " . وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة ! وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول في مواضع جمة وأما كن كثيرة إنه ابن الانسان ! فكيف يكون ابنُ الانسان ابنَ الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابنَ الانسان ، لقد جعلوا مع الله إنسانًا قديمًا وجعلوا الله إنسانًا حديثًا ، وجعلوا المسيح ابنَ الله لم يزل ، وابنَ الإنسان فيما حَدَثَ . وهذه أمورٌ متناقضة ، وحججٌ داحضة ، وأقاويلٌ فاحشة .

فإن قالوا : إنما نعبد المسيح لأنه رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ ، فليعبدوا الملائكة فإنهم في السماء قبله ، وإدريس فقد رفعه الله وغيره . وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يُخْلَقْ مِنْ ذَكَرٍ ، فَأَدُمُ وَحَوَّاءُ لَمْ يُخْلَقَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْ غَمِّ الرَّحِمِ وَضَيْقِ الْبَطْنِ وَحَالِ الصَّبَا فِيمَا [وَقَعَ] فِيهِ الْمَسِيحُ .

(٤) وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى ، فما أحيا حزقيل أكثر ، وما كان من اليَسْعِ تَلْمِيزُ إِيْلَاسَ أَعْجَبَ ، لأنه أحيا الموتى بعد مئتين من السنين . وإن طلبتم ذلك فِي سِيرِ الْمُلُوكِ عِنْدَ قِصَّةِ الْيَسْعِ أَصْبَحْتُمُوهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٦ آية ٩ ج ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس) . (٢) في الأصل : « وصار دونه أبًا ... » . (٣) لم نجد هذا في الإنجيل . (٤) حزقيل نبي بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل ، وهو الذي أحيا الله القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدهوته . وهو ما يشير إليه قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ) الآية .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التي أبرأ والعجائب التي أَرَى ،
فعجائب موسى أعجب وآياته أعظم . أين ما ذكرت لك من [عجائب] عيسى من عجائب
موسى : من انقلاب البحر له ، وسلوك الجيش معه ! أم أين ذلك من حجر يضربه فينفجر
بعيون المساء ، ويحمله معه حيث شاء ! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس
يُوشَعَ الشمس^(١) ثلاث ساعات ! وكل ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره
وقضائه . فاتق الله وكن من القائلين بالحق ، الموحدون للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم
يقُلْ ؛ فإنكم لا تجدونه قال لكم في شيء من كتبكم : اعبدوني فإنى ربكم . تعالى الله عما يقول
الظالمون ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحب أن ينصح لك ، في أوّل داريك بك وأهم شأنك لك ،
فدعاك إلى الإسلام وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتتجو من النار . فإن قبلت
حفظك أصبت ، ونفستك أحرزت ، ولك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم . وإن رددت
نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الخطأ في آخرتك ، فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح
في عاجلتك : من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويحترم بها سبائكم ، ويجعلها قواماً
لمعاشكم ، وصلاًحاً لبلادكم ، وتوفيراً لأموالكم ، وأمنّاً لجنابكم ، وسعةً لِسُرْبِكُمْ^(٢) ، وبركةً على
نقراكم ، وغنى لأهل الحاجة والفاقة والمُسْكَنَة منكم .

وان يذكر أمير المؤمنين في الجزية لكم من حلول الأمن فيكم ، وعموم العافية إياكم ،
وأستقامة البركة عليكم ، وكف أيدي المسلمين عنكم ، وبسّطها على الأعداء منكم ، شيئاً إلا
وفي قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التي كان الله أجرى نعمتها لكم على يده ،
وفتح بركتها عليكم من قبله ، ما يدلّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهد له على
حقه فيما يقول ان شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم ،

(١) إشارة إلى قصة يوشع بن نون قتي موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس ؛ فقد روى أن يوشع قاتل
الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ،
فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم . (٢) السرب : الطريق .

وصُنف من أصنافكم، بتلك الفدية، أموراً عظيمة البركة، واسعة المنفعة، في أمورٍ غير واحدة :

منها : أن قادة جنودكم وماسة حركم، كانوا بعد وقوع أمرها وأستحكام عقدها، فراغاً لمحاربة أعدائكم ومناصبه من ناوأكم، بين أن يستعجموهم في بلادهم ويتزلوا عليهم في ديارهم، ولا يرهبون تعقب بشر إن ساروا في أرضهم، ولا يتخفون طراداً إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا في خفيض ودعة، وأمن وسعة، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال، وهم اليوم يترقبون الجيوش من كل شعب ويتخفون الخوف في كل وقت، لا يهدأ لهم جأش، ولا يسكن لهم فزع، ولا ينام لهم ليل، ولا يامن فيهم حال، قد قطعت^(٢) الهموم دابرهم، وأضمرت المخاوف جنوبهم، وأستأصلت الجنود أموالهم .

ومنها : أن أهل الحراثة وإخوان العمارة، في بلادك وأطراف أرضك، كانوا سراعاً الى عمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم، فيما لا قوام لهم ولا لمعاشهم إلا به، ولا بقاء لديهم إلا معه؛ قد آمنوا الجيوش وممرتها، والجنود وبادرتها، وانتشروا للعمارة، وأبتكروا في الزراعة، فارقوا رؤس الجبال وإقام الغياض، وراحوا في أوساط أوطانهم وظلال محالهم، يشققون الأنهار، ويغرسون الأشجار، ويؤججرون العيون، حتى نمت الأموال، وأخضرت الحال، وأخصب الجنباب، وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين، وللحراثة تاركين، وبغيرها مشغولين في إصلاح آلات الحرب، وإحراز العيال في الحصون، ورم القلاع للبلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد أنتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض، ومجارى المياه، الى أوшал الجبال، وأشجار الغياض، وبطون الأودية؛ فليس يلبغون من عمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يلبغون، ولا ينالون من خفض العيش وطيب الأمن ولذة الدعة، قريباً مما كانوا ينالون .

(١) كذا في الأصل . (٢) في الأصل : «لا سكن لهم الخ» .

ومنها : أن إخوان التجارات ، وأصحاب الأموال وأهل الظُّلف والحافر ، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا ، فينققون تجارتهم ويغسلون بضائعهم ، فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان . وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين ، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم ، فعمت البركة وسهلت المنفعة ، حتى نالت الرعاء في جبالها وأهلها ، والنساء في غزولهن وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومن قبلك من ذوى العبادة والزهادة والتأله والنسك والنيات ، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب ، وسلامة من أوزار الحضر على قتال الخوف ، قد نجوتم من معصية المسيح في الدنيا التي نهاكم عنها ، والأمور التي أمركم بها ، من نحو قوله : ” من لطم خذك الأيمن فامكنه من الأيسر ، ومن آتزع قبضك فأعطه كساءك ، ومن لطمك فأغفر له ، ومن شتمك فأعيرض عنه “ .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحي حوزتك ، قد ذاقوا تلك الأيام من لذة الخفض ، ودعة الحال ، وحلاوة الأمن ، ورَفَافَةِ العيش ، وسَعَةِ العافية من سياء أزواجهم ، وهَيْض أولادهم ، وحطم معاشهم ، وأسر رجالهم ، وغنمة بقرهم وغنمهم ، وإفساد شجرهم وثمارهم ، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم ، ما لم يكن لهم رأى يعرفه ، ولا ظن يبلغه ، ولا طمع يُقاربه ، ولا أمل يذهب إليه . وما قد عرفت الخاصة من بطارقتكم ، والعامّة من أهل ملتكم به : من رافتمكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشفقتكم عليهم ، وأثرتكم إياهم ، وبركة ولايتكم ملككم ، ومنفعة سياستكم أمرهم ، ما قد ازدادوا لكم به محبة ، وفي بقائكم رغبة ، ولأمركم طاعة ، وعلى ملككم شفقة ، وفيما نابكم نصيحة ، مع ما قد آزددتم بذلك من الهيبة في صدور الأعداء ، والشرف في قلوب النظراء ، والعظم في عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفضل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصدق النية ، ولطف الحيلة التي

(١) في الأصل : ” من بلادهم ... “ . (٢) كذا في الأصل . (٣) راجع إنجيل متى

(فصل ٥ آية ٣٩ ج ٣ ص ٩ من الكتاب المقدس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، ومحل رأيكم فيها ؛ على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قُوتوا ، ولفقرائكم حتى استغنوا ، ولقرانكم حتى سوا وحيو وهووا المسلمين من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، وأشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر بحر القتل ، وذلل الأسر وغلبة القهر ، والإذعان والاستسلام . وإما كيفتموهم بالصلاح ، وأستوثقت منهم بالرهن .

فاذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في القدية ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم في الجزية ، فلا يكونن لك رأى غيرها ولا أمر سواها ؛ فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم ، وأطال تقليب الفكرة في بعضكم ، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه الى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع الجلاء والسبأ والقتل ، والأسر والحصر ، شيئا آخذتكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيدا آستدركم به لما علم من قلوبكم .

ألا إن أعجب عذركم وأفظعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتكم على الله عز وجل في نقض عهده ، وأستخفافكم بحقه في خفر ذمته ، وتهاونكم بما كان منكم ، وأتمتعتم تعلمون أن مواثيق العهود ونذور الأيمان الذي وضعه الله عز وجل حرما بين ظهراني خلقه ، وأمانا أفاضه في عبادته ، لتسكن اليه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم ، ويقيموا به من دنياهم ودينهم ؛ فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم ، تبيح حمى الله عز وجل ، تهاونا به وجرأة عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذابا من السماء . وقد رجا أمير المؤمنين أن يجري الله نعمته منكم بأيدي المسلمين ، بعد إذ كان أعتقد عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلظة ، والعهود المؤكدة ، التي قد اعتقدها في رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم الله بها على أنفسكم ، وتسامع بها من حولكم ، وحكم بها بطارقتكم وأسافقتكم . فلا الله أنقيتم ، ولا من الناس آستحيتم ، نكثا للعهد ، وبغضا للمسلمين ،

وَحَتَرًا بِالْأَمَانَةِ، وَإِبَاحَةً لِلْحُمَى . فتوقعوا العقوبة، وانتظروا الغيب؛ فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حال إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم، ما قد أزعج أمير المؤمنين وعزم عليه، وقذف الله في قلبه : من الإرادة والنية والرغبة في إبطاء الجيوش بلادكم، واستياء المقاتلة أرضكم، والتفرغ لكم من كل شغل، والإيثار للجهادكم على كل عمل، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون، وتؤدّوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون . فكونوا على عدة من الجزية، ويقين من الاتجاع الذى لا طاقة لكم إن شاء الله به، ولا صبر لكم بإذن الله عليه؛ فان جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة، وخزائنه عامرة وافرة، ونفسه سخية بالإتفاق، ويده مطلقة بالبذل، والمسامون نَسَاط اليكم، منقلبون عليكم، قد عودهم الله في لقاءكم عادة يرجون آتظار مثلها، وأبلاهم في قتالكم بلاء من أمثلها، إن شاء الله .

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدي جنوده، ومقدمه إن شاء الله من جيوشه، إلا أن تؤدّوا الجزية عن التى دعاك أمير المؤمنين إليها، وحداك ومن قبلك عليها، رحمة للضعفاء الذين لا ترحمهم، وتوجعاً للمساكين مما لا توجع منه لهم من الجلاء والسبأ والقتل والأسر والقهر، وقساوة من قلوبكم، وأثرة لأنفسكم، واعتصاما بخواصكم، وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمنعونهم بقوة، ولا تدفعون عنهم بحيلة، ولا تراقبون في الرحمة لهم والتعطف عليهم، أدب المسيح إياكم، وقوله في الكتاب لكم : ” طوبى للذين يرحمون الناس؛ فإن أولئك أصفياء الله ونور بنى آدم“ .

وأيّ الله لو يعلم من قبلك من المساكين والزراعيين والفقراء والضعفاء والعملة بأيديهم، ما لهم عند أمير المؤمنين لتحذروا عليه وأقبلوا إليه، من إيوائهم، وإنزالهم الأرض الواسعة، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة، والعدل عليهم بما لا تباغى أنت ولا تقاربه، رفقاً بهم ونظراً لهم وإحساناً إليهم، مع تخلّيته إياهم واديانهم، لا يكرههم على خلافها ولا يجبرهم على

(١) راجع الإنجيل متى (نفسه ٥ آية ٧ ج ٣ ص ٧ من الكتاب المقدس) .

غيرها ، لاختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأنقذوا أنفسهم^(١) وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة . فأتق الله وأقبل ما عُرض عليك من الجزية ، ولا يمنعك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكك . ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الورثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم في الإذعان [لهم] وأداء الجزية اليهم حمية ولا نقيصة ولا عار ، والذين يقون لكم بما يعقدون ، ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإقسط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظراً لدينه وخوفاً من ربه ، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، واتفاق الأئمة ، والنصائح في السر والعلانية ، وما عوده الله ممن نصب له بمحاذبة ورماء بمكايدة ، وعراه بحيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المبين . فأبدل من الجزية ما شئت ، وسم منها ما هويت . وأعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سبباً لما يريد أن يجري فيما بينه وبينكم . وإنه إنما كان قبول المهدي — رحمه الله — الفدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه ؛ ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطى في المجلس الواحد مراراً أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فأما اليوم إذ استبان له غدركم وتقضكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم : إلا الاسلام أو الحرب المجلية ، إن شاء الله . ولا حول بأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ؛ عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين . والسلام على من أتبع الهدى .

(١) في الأصل : "ولأبتدلوا ... " . (٢) كذا في الأصل وهو غير واضح ولعل أصل الجملة "ولا يمنعك الشيطان مما فيه ... الخ" فسقط هذا أو نحوه سهواً من النسخ . (٣) كذا في الأصل .

٣ - رسالة يحيى بن زياد في تقرير الرشيد

أما بعدُ، فإنني أسأل الله لأمر المؤمنين في غير أمورهِ ، أحسنَ ما عودهُ في سالفها من السلامة التي حرسه بها من المكاره، والعز الذي قهر له به الأعداء، والنصر الذي مكن له في البلاد، والهدى الذي وهب له به المحبة، والرفق الذي أدركه به الحلب ، والاستصلاح الذي آتت له به الرعية، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مُستقبل به منه، أبعدُ خلفائه في الخير ذكراً ، وأبقاهم في العدل أثراً، وأطولهم في العمر مدّةً ، وأحسنهم في المعاد منقلباً .

ثم نحمد الله الذي جعل نعمته على أمير المؤمنين شواهد منه على منزله منه ومكانه عنده ، لا يحتاج معها إلى شهادات المثنيين ، ولا صفات المقرّطين ، ثم جعل ذكر نعمته على أمير المؤمنين ومناصحتها والمجاهدة لمن كادها فريضة أوجبها على العباد ، ومحبة أمتحنهم بها ، وفوقاً يميز به بينهم ، فمن أصبح من رعيته أكثر شغله أن يستعمل لسانه في صفته ، وذكر محاسنه وفضائله ، ووجوب حقه وطاعته ، فقد أصبح أثراً أولى الأمور وأحسنها مغبةً في دنياه ودينه ، ومن بدل ذلك عن قدرة عليه ، ودفعه بعد معرفة ، فلم يدعه إلا عن خذلان حاق به ، أو بدعة استمالته ، كانت حجة الله لأمر المؤمنين عليه هي الكافية لمؤنتبه . وقد كان علماء الناس وجهالهم يسوّون في عام المعرفة بفضل أمير المؤمنين ، فأما الخاص فلاهل الفضل فيه فضلهم ، غير أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على منازل ثلاث : حاسدٌ حجب الحسد بصره عن مواقع الصواب أن يراه ، والنعمة أن يشكرها ، والحق أن يؤدّيه ، وكانت معرفته عليه وبألا ، وحسده إلى الضربه قائداً . أو ذو هوى قاده الهوى إلى البدعة وأخرجته الضلالة من الجماعة ، فهو عُرْضة لسوء الأدب أو سيف النكال ، لم يوحش الله أحداً بفقده ، ولم يعزّر أحداً بموالاته . وموفقٌ معصومٌ استنقذه [الله]

(١) في الأصل : « الغير » . (٢) في الأصل : موفق معصوم ثم استنقذه بمولاة الخ .

بمؤالة أمير المؤمنين من غل الحسد ويدع الآراء وجبله على صحة الهوى ، فهو إن نظر فبعينه ينظر، وإن قال فبلسانه يقول ، لا يأمن حتى يعلم أن أمير المؤمنين قد استوطأ مهاد الخفض ، ولا يزال له طليعة رأي توفى على خطة حزم وغامض فطنة ، تغفل الى لطيف منفعة و [تكون] سهم مكيدة نحو عروة ، قد علم أن يوم أمير المؤمنين يومه ، وأن غده غده ، فهو وإن تعرض لأداء الحق في نصيحته ينظر لنفسه نظر من لا يأمل السلامة إلا بسلامته ، ولا البقاء إلا ببقائه . وقد رجوت بالقرابة التي جعلها الله لي به ، والواجب الذي عرفته من حقه ، والعظيم الذي حملته من معرفته ، ألا يكون أحد ينظر اليه بعين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهله مني ، فإن أبلغ الذي أردت فتوفيق الله ، وإن أقصر فعن مثل ما حاولت قصر المجتهد .

فأول ما أنا ذا كره من فضله : أن الله قدم له الصنع في سابق علمه ، بفعل محبته خير المحائد عنصراً ، ثم أختار له أباً فأباً لا ينقله من أب الى أب إلا نقل معه وإليه فضيلة العنصر الذي هو منه حتى صيره بعد فضائل آبائه الى أفضل بدنه ، فكان خير خليف من خير سلف ، وأفضل ولد من أفضل أبوة ، وأرضى إمام من أزكى أئمة ، ثم أختار له مكارم الأخلاق ، وألبسه جمال الصورة ، فلا نعلم نحن ولا آباؤنا خليفة أبعد في حلمه من ذل ، ولا في هيئته من تجبر ، ولا في شدته من عنف ، ولا في لينه من وهن ، ولا في أناته من غفلة ، ولا في اقتصاده من بخل ، ولا في بذله من إضاعة ، ولا أرق وجهاً عند لقاء ، ولا أحسن بشراً عند تحية ، ولا أغزر دمعاً عند موعظة ، ولا ألين قياداً عند تذكير بالله منه .

(٢) ثم أفضت اليه الخلافة وفي المال ما فيه من القلة ، وفي الناس ما فيهم من الإخراج ، فما دفع عن مال يعطيه عن قلة ، ولا قطع عادة توسعة على رعيته ، ثم استدر الخلب برقه ، فكلما دزله منه شخب فوقه طائفة من جنده حتى سقاهم بعد التفويق رياء ، وبعد النهل

(١) في الأصل : "عورة" . (٢) الإخراج : الضيق وفي الأصل : "الاستخراج" .
(٣) الشخب (بالضم) : ما خرج من تحت يد الحالب عند كل غمرة وعصرة للضرع . (٤) فوقه الشيء : أعطاه إياه قليلاً قليلاً .

عَلَّا؛ ثم ساس رعيته بألين السياسة فعفا عن مذبها ولو شاء لعاقب، وآمن خائفها ولو طلب لأدرك، ودفع بالحسنة السيئة ولو كافأ لقدّر، فما برح صنع الله له يفضّ مجموع الضلالة بلا قتال، ويُعزّله النَّصْر بلا مُكَاثَرَة، حتى فرغ بشُغله من كان لا يفرُّغ من الوزراء، ونام بسهره من كان لا ينام من العامة، وأطمأنت بنا آتته^(١) للأسفار دار من كان لا ينال الخفض من الجنود حتى استوطئوا مركب الأمن فكلّهم ضنين بمفارقتهم. أما ذو النية فركب إلى التقص. وأما من لا يبدله ففعل ما كان يؤخذ به من الاستكراه. وأما الحشر من الجند والرعاع فغلبت عليهم عادة الهويناء، حتى لو رأيناه يجذبُه الأمرُ فما يجِدُ له الأمرُ غناءً عنده ولا نشاطاً ولا حداً إن وكلّه إلى قوّته، وقوّاه بماله.

فلما رأى ما رأى من تحاذل العامة، وتواكل الجنود، وتزور القىء، وجُودِ الحلب، واستكلاب العال على الخيانة، وجرأة الرعية على منع الحق، ومال الفراغ بكثير من الناس عن القصد، فتحزكت الأهواء، واستعرت نيران العصبية، وجاشت صدور الحسدة وأشياءهم بالأمانى، وظنوا أن لا شدة معه، وأن عفوه لا نكير بعده، وأمير المؤمنين يرمقهم بعين بصيرة، وأذن مُصِيخة، وقلب يقظان؛ وقد وقر الحلم أن يخف لأول بوادر السفهاء، فهو ينتظر بالمُدبر أن يقبل، وبالمسائد أن يعتدل، وبالمغلوب على رأيه أن يتذكّر فيصبر، ثم في إثرهم تسمير من قَدَم الروية قبل العجلة، والعفو قبل العقوبة، والتثبت قبل الإقدام، فاتخذ روابط أتعجها على الجلد والنشاط، ليست لهم سوايق تدعوهم إلى الإدلال، وتسمو بهم إلى كثير لم ينالوه؛ إنما همهم أن يتفاضلوا في النجدة، ويستوجبوا بالغناء، ثم فزقهم على خواص خدمه، فإذا أراد أن يتناول بهم فرصة ممكنة، أو عدواً غاط، أوراتق فتق قبل الساعة، يغمس يديه إلى أيّهم أراد، فينقذ لأمره ولم يشركه فيه مُشير، ولم يخرج به توقيع، ولم يخص فيه عاقبة، ولم يطّلع منه على مكيدة، فلم نعلم أننا رأينا جُنُداً

(١) في الأصل : « بمفا آتة » . (٢) في الأصل : « إن وكله إلى قوّته ولا نشاطاً ولا حداً وقوّاه

بماله » . (٣) غاط : دخل .

أسرع نهضةً إذا مروا ، وأحسن إجابةً إذا دُعوا ، وأفضل غناءً إذا استكفوا من جُنده .
ثم قصّد بنفسه حتى مثل بين النواحي الى أهمّها له فسأداً في البيضة ، وانتقاصاً من
الأطراف ، فاتى ناحية الشام فوطّئها وطّاة جمع الله بها لهم شتات الفرقة ، وأحمد بها بينهم
نار الفتنة .

وأما الجزيرة فإنه ألفاها وهي كالجرح النغل ، فاستأصل الله به منها شأفة الداء ، وأطفأ به
عنها بؤادر السفهاء ، وخير أمير المؤمنين من منزله الذي هو به منزلاً جمع من بسطته
في الموضع ، ورأه في المعاش ، أنه حامل للجند ، جامع للرافق ، فبأشر أمره أمراً ،
حتى إذا استدير له منها مبرم ، استقبل بعده جسماً مستقيصاً ، وإذا أشحن من ثغوره ثغراً
لم يرّض حتى يفتح من حصون أعدائه حصناً ، وإذا قضى الله عنه حجة ، وصل خطوه
منها عزّاً ، ثم رأينا ما عزم الله به عليه من ترك الصوائف مراًقياً^(١) للذي كان من غموط
أهل الشام لما كانوا فيه من النعمة ، فلم تتشكك في أنه توفيق من الله له وافق سُخطاً
عليهم حتى استباحوا الحرم ، وتسافكوا الدماء ، ونقضوا ما بينهم من مبرم حبلى الإسلام .

ومن ذلك أن أرمينية كانت فيها جنودٌ تُخرج عليهم أطاع تحمل اليها ، بعد اعترافهم
بإخراجهم الأموال من كور الشام ، فلما رأى ذلك فعل كذا وكذا ، فلم يتوكل على الله في أمر
فوكله الى نفسه ، ولم يكتف به في حفظ طرف أو قاصية غير إلا كفاه مؤونته ، وعلم أن
ما يدخل ممن أضعاف العافية من عوارض العلل ، إنما هو بتقدير من الله لا يمتنع بعذر ،
ولا يستطيع دفعه بحيلة ، يصيب فيه أقواماً بالبلايا والتحجيص ، ويقسم فيه لأقوام الأجر
والجهاد والسعادة ، فرأى أن في عاجل ما يرفع عن أهل أرمينية من ضرر مؤونتهم
وغمطهم نفعاً للرعية ، وإجمالاً للنفي ، ورفقاً بالعامة مع اقتصاده في الأبواب على أكثاف
سجيتها ، وفي سائر أرمينية على المقاتلة من أهلها ، ولم يزل منذ أراه الله ذلك ، يكفيه مؤونه
ذلك الثغر ، ويكف عنه بوائقه ، حتى كأنه في هدوء الأحداث عنه ، وسكون الأفئدة من

(١) الصوائف : جمع صافقة وهي الغزوة في الصيف .

رَوَعَاتِهِ مِصْرٌ مِنَ الْأَمْصَارِ ، وَاسِطُ الْمَحَلَّةِ مَأْمُونُ النَّائِرَةِ . فَلَمَّا آغْتَمَ خَاقَانُ مَا آغْتَمَ ، وَاتَّهَزَ
الْفُرْصَةَ مُبَادِرًا ، لِمَا قَدْ اِيقَنَ مِنْ مَعَالِجَةِ الْمُؤْمِنِينَ إِيَّاهُ ، فَكَأَنَّهُ حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ إِعْظَامِهِ
إِيَّاهُ بِسَبَبِهِ لَهُ ، وَمَا أَنْصَبَ فِيهِ مِنْ بَدَنِهِ ، وَأَسْهَرَ فِيهِ مِنْ لَيْلِهِ ، وَأَنْصَبَ فِيهِ مِنْ نَهَارِهِ ، لَمْ يَعْلَمْ
الَّذِى يَكُونُ مِنْ أَشْتَبَاهِهِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَهُ ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ لِحْدُ عَالَمٍ ؛ غَيْرَ أَنَّ حِمِيَّتَهُ
لِلْإِسْلَامِ وَشَفَقَتَهُ عَلَيْهِ وَامْتِعَاضَهُ مِنْ أَنْ يُتَنَاوَلَ شَيْءٌ مِنْ أَطْرَافِهِ ، قَدْ زَادَ ذَلِكَ عِنْدَهُ قَدْرًا
فِي الْعِظَمِ ، وَتَفَاقُفًا فِي الْخَطْبِ ، حَتَّى أَكَلَ الْبَعْثُ بِأَكْثَرِ الْعِدَدِ ، وَأَكَلَ الْعُدَّةَ ، وَأَسْتَقْبَلَ
أَهْلَ الْكُورِ وَالْأَمْصَارِ ، وَنَدَبَ لَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مَنْ لَمْ يَتْرِكْ بَعْدَهُ نَهَايَةً فِي التَّخِيرِ ؛ وَكَانَ
قَدْ صَرَفَ بِاللَّهِ إِلَى هَذَيْنِ الثَّغْرَيْنِ مِنَ الْخَزَرِ وَالرُّومِ ، وَإِلَى هَذَيْنِ الْعَدُوِّينِ الْمُحَارِبِينَ لَهُ مِنْ
الْمَارِقَةِ الْمُتَعَصِّبَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ اللَّهُ فِي إِحْكَامِ أَمْرِهِمَا مَا بَلَغَ ، لَمْ يَسْتَعْنِ عَنْ إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي أَمْرِ غَيْرِهِمَا مِنْ
نَوَاحِيهِ لَيْسْتَبْرَى بِهِ ، وَإِرَادَتِهِ فِي أَقْوَامٍ يُدَافِعُ ظُنُونَهُمْ بِهِ فِي أُخْرَى ، وَعَلِمَ غَيْرُهُمَا أَنَّ مَا شَمِلَ
مَنْ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ مِنَ الْأَمْنِ وَالْقَرَاغِ نَتِيجَةُ مَكْرُوهُهُ ، فَشَخَّصَ عَنْهَا لِتَحْقِيقِ ذَلِكَ مُؤِيرًا
لِأَبْغَضِ وَطَنِيهِ عَلَى أَحَبِّهِمَا وَأَخْشَنَ عَيْشِيهِ عَلَى أَلْيَنِهِمَا ؛ فَلَمَّا ظَهَرَتْ لَهُ الْعَوْرَةُ أَقْدَمَ إِقْدَامًا
ذِى الْحِجَّةِ ، فَلَمْ يَرْمِثْهَا نَارًا خَبَتْ ، وَسَحَابَةً أَقْشَعَتْ ، لَمْ يَسْفِكْ بِهَا دَمَ أَمْرِيٍّ مُسْلِمٍ صَبْرًا ،
وَلَمْ يَتَهَكَّ فِيهَا حُرْمَةً مُحَرَّمِ إِبَاحَةٍ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ بَسَطَ يَدَهُ بَسْطًا مِنْ يُرِيدُ الْأَسْتِصْلَاحَ لَا مِنْ يُرِيدُ الْإِنْتِقَامَ ، فَلَمْ يَلْبَثِ الظَّالِمُ
أَنْ رَجَعَ عَنْ ظُلْمِهِ ، وَالنَّاطِقُ أَنْ صَمَتَ عَنْ بِدْعَتِهِ ، وَالنَّاكِثُ أَنْ رَجَعَ إِلَى قَصْدِهِ ، وَازْدَادَ
الْبَرَى عَلَى الْبَرَاءَةِ فَرَحًا ، وَالسَّالِمُ بِالسَّلَامَةِ أَغْتَابًا ، وَلَمْ تَرْمِثْهُ فِيهَا أَفْضَى اللَّهِ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ
خِلَافَتِهِ ، وَحَمَلَهُ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ ؛ أَمَّا لَيْلُهُ بِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ فِيهَا وَاسْتِعَانَتِهِ إِيَّاهُ عَلَيْهَا فَسَاهَرُ ؛
وَأَمَّا نَهَارُهُ فِي حَلَبٍ فِيئِهَا وَإِحْكَامِ أُمُورِهَا فَتَعَبٌ ؛ وَأَمَّا صَدَقَاتُهُ عَلَى فَقَرَائِهَا وَأَهْلِ الْحَاجَةِ
بِخَارِيَّةٍ ؛ وَأَمَّا مَجْلِسُهُ مِنْ فُقَهَائِهَا وَصُلَحَائِهَا فَعَاقُصٌ ؛ وَأَمَّا غِلْظَتُهُ عَلَى ظَالِمِهَا فَعَتِيدَةٌ ؛ وَأَمَّا
أَفْضَالُهُ لِمُظْلَمِهَا فَبَسُوطَةٌ ؛ وَلَئِنْ كَانَ الْحَقُّ أَلْزَمَ أَقْوَامًا اسْتَوْجَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ،

إِنَّا لنعلم أَنَّ ما تَرَكَ أَكْثَرُ، وَأَنَّهُ لولا ما خَفَّفَ من الوَطْأَةِ على أَقْوامٍ لَحُلَّ الواحد منهم مثل الذى حَمَلَهُ للجميع ، وَلَكِنَّهُ رَضِيَ بالعفو، وَسَخَّ نَفْسًا عن الاستقصاء، فَأَوْجَبَ أَنْ يَسْتَطِيعَ يَدًا بِغِلْظَةٍ وَيَتَّبِعَهَا أُخْرَى بِلِينٍ؛ فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ نَظَرُهُ فِي هَذِهِ الْبَقَايَا الَّتِي هِيَ فِي الْمُسْلِمِينَ وَمَالُ اللَّهِ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ قِيَمَةً فِيهِ، وَفِي أَخْذِهِ وَصَرْفِهِ فِي وُجُوهٍ؛ فَلَمَّا رَأَى ضَرَاوَةَ الْعَمَالِ بِهَا وَمُصَابَنَتَهُمْ دُونَهَا، وَأَنَّ قَدْ صَارَتْ كَالسَّنَةِ الْإِلَازِمَةِ لَا يَدْعُهَا غَفِيفُهُمْ تَوَرُّعًا، وَلَا شَرِيفُهُمْ تَنَزُّهًا، أَحَبَّ مَعَ تَوْفِيرِهِ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ، أَنْ يُحَدِّثَ لَهُمْ أَدْبَابًا يَفْطِمُ بِهِ عَنْهُمْ أَهْلَ الضَّرَاوَةِ، وَيَعْرِفَ بِهِ ذُووِ الاسْتِخْفَافِ بِالْأَمَانَةِ، وَالْأَمْرَ لِلتَّبَعَةِ؛ أَنْ عَلَيْهِمْ مِنْ تَفَقُّدِهِ وَأَدْبِهِ عَيْنًا تَرْمُقُ، وَيَدًا تَقْبِضُ، وَلَوْ أَنَّهُ حِينَ هَمَّ بِأَخْذِ تِلْكَ الْبَقَايَا حَمَلَ عَلَى الْمُوَسِّرِ بِقَدْرِ يَسَارِهِ، وَأَخَذَ الْمُعْسِرَ بِطَاعَتِهِ، كَانَ قَدْ أَنْصَفَ، كَلَّا! وَلَكِنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَسْتَبْقَى قُوَّةً، وَلَا يُلْغُ مِنْ الْمُكْثَرِ جَهْدًا، وَأَقْتَصَرَ بِهِمْ عَلَى الْعُسْرِ مِنْ ذَلِكَ، كَرَمًا فِي الْقُدْرَةِ حِينَ رَأَى مَوْضِعَ الرِّفْقِ، وَتَجَافَى عَنِ الْعِلَّةِ حِينَ عَرَفَ مَكَانَ الْغَدْرِ؛ فَأَيَّ نِعْمَةٍ أَعْظَمَ، وَأَيَّ بَلَاءٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ الْبَقَايَا! كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ جُمَامًا، فَلَمَّا أَطْلَعَ طِلْعَهَا، وَأَخَذَ مَا أَخَذَ، وَتَرَكَ مَا تَرَكَ، مُحَلَّلًا مَعَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِنْ [كَلِمَاتٍ] ^(٣) الْمَقْصَّرِ مِنَ الْعَمَالِ الْمُؤْذِيَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَعْسُدُو أَفْوَاهَهُمْ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَكَانَ مِنْهُ لَهُ وَاعِظٌ أَلَّا يَكْسِرَ شَيْئًا مِنْ الْخَرَجِ تَضْيِيعًا، أَوْ يَأْخُذَهُ غُلُولًا ^(٤) أَوْ يُنْفِقَهُ إِسْرَافًا، أَوْ يَتْرَكَهُ إِرْهَابًا.

فَلَمَّا تَفَرَّغَ مِنْ عِلَاجِ الدَّاءِ الْخَوْفِ وَأَسْتَأْصَلَهُ، وَمِنَ الْفَيْءِ الْمُنْفَرِّقِ بِجَمْعِهِ، وَمِنَ الْأُمُورِ الْمُعْطَلَةِ فَأَحْكَمَهَا، اسْتَخْلَفَ عَلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ مَنْ يَحْوِيهِ عَقْلُهُ عَنْ حَذَرٍ، وَلَا إِضَاعَةَ عَنِ حِفْظٍ، وَلَا لَيْنَ عَنِ تَشَدُّدٍ، وَلَا يَسْتَحِلُّ الْأَكْفَافَ عَنْ نَقْضِ مَا أَبْرَمَ، وَلَا مُزَاوَلَةَ مَا أَحْكَمَ، وَلَا فَتْحَ مَا أَغْلَقَ، وَلَا إِغْلَاقَ مَا فَتَحَ، فَلَانْ خَيْرُهُ أَبْوِيهِ، وَخُحُّ بَيْضَتِهِ، وَجَوْهَرُ أُرُومَتِهِ، الْفَائِتُ سَبْقًا، الْبَيِّنُ عَدُوًّا، الرَّاسِخُ عِرْقًا، الْمُنْفَجِرُ بِحَرًّا، الْحَمُودُ أَمْرًا، الْقَائِلُ فَصْلًا،

(١) الضراوة : اللهج بالثاء والإغراء به . (٢) في الأصل : « لهم » والسياق يقتضى ما أثبتناه .

(٣) وضعت هذه الكلمة لأنها تتفق والسياق، ومكانها في الأصل بياض . (٤) الغلول : الطعام أو الشراب

الذى يدخل في الجوف .

الحاكم عدلاً، ثم أنصرف بما أفاده الله من الأجر إلى جناحه الذي كان مده على من خلف من الأهل والأموال والرايا والجنود، فلان سليفة صلبه، وثمرة قلبه، المحتك مع ققاء سنه عقلاً، والمأمون مع شدة شكيمة حملاً، والمحصد مع لينه وتعطفه أمراً، الشبيه بأمر المؤمنين إن نطق نطقاً، وإن نظر نظراً، وإن سئل جوداً، وإن اهتصر عوداً، وإن ساس رفقاً، وإن غضب حليماً، وإن وصف علباً، وإن كلم فهماً، وإن قدر عفواً، وإن لقي بشراً، وإن نازع فلجاً، وإن قارع ظفراً، فكان عند ظنه به، رعاية للحرمة، وحرماً في المكيدة، وحلباً للفيء، وحيطة للغائب، ومباشرة للشاهد، هذا قليل من كثير. مما جعلك الله أهله، وإنما اقتصرت عليه لآني رأيت المتكلمين من الخطباء تركوه، وأن ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأجبت أن يعلم أمير المؤمنين أن له في كل أمر عمل به في رعيته حجة واضحة، وعذراً معروفاً، إن قام به متكلم في خاصة حسن موقعه، وإن قرئ به كتاب في عامة، قويت به حجته.

والحمد لله الذي جعله وذريته أولياء هذه النعم، والمخصوصين بهذه الفضائل، ونسأله أن يبيحهم لإياهم للدين الذي سد بهم عورته، والحق الذي أقربهم جادته، والعدل الذي أوضح بهم أعلامه، حتى يكونوا ورثة هذه الأمة وخلفاءها في غابر الدهر، وباقيات الأيام، مستقلين بالعدل، موقفين للسداد، معصومين من الشبهات، مستوجبين مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المعاد. والسلام.

(١) هذه الرسالة ورسالة أبي الربيع محمد بن الليث السابقة من كتاب اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور.

كتب الرشيد

١ - كتاب عهد البيعة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحبة من عقله ، وجواز من أمره ، طائفاً غير مكره ، إن أمير المؤمنين ولاني العهد من بعده ، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعا ، وولي عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين بعدى ، برضا منى وتسليم ، طائفاً غير مكره . وولاه خراسان وثغورها ، وكورها وحرابها ، وجندتها ونجراتها ، وطرازها وبريدتها ، وبيوت أموالها وصدقاتها ، وعشرها وعشورها ، وجميع أعمالها في حياته وبعده ، وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، برضا منى وطيب نفس ، أن لأنى عبد الله بن هارون على الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين : من العهد والولاية والخلافة ، وأمور المسلمين جميعا بعدى ، وتسليم ذلك له وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها ، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعة ، أو جعل له من عقدة أو ضيعة من ضياعه ، أو ابتاع من الضياع والعقد ، وما أعطاه في حياته وصحته من مال ، أو حلي أو جوهر ، أو متاع أو كسوة ، أو منز أو دواب ، أو قليل أو كثير ؛ فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، موقراً عليه مسأماً له . وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً ، فإن حدث بأمر المؤمنين حدث الموت ، وأفضت الخلافة الى محمد ابن أمير المؤمنين ، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين ، في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ، ومن ضم اليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرماسين^(٢) ، وأن يمتحن عبد الله ابن أمير المؤمنين الى خراسان والرئى ، والكور

(١) هذا العهد ورد في تاريخ العقوبى (ج ٢ ص ٥٠٢ طبعة ليدن) وفيه عبارات تخالف ما أثبتناه هنا

عن الطبرى . (٢) قرماسين : موضع بين الزبيدية ومكة .

التي سمّاها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره، من سلطان أمير المؤمنين، وجميع من ضمّ إليه أمير المؤمنين حيث أحبّ من لدن الرّى إلى أقصى عمل خراسان، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائدًا ولا مقودًا ولا رجلاً واحداً ممن ضمّ إليه من أصحابه الذين ضمّهم إليه أمير المؤمنين؛ ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولّاها هارون أمير المؤمنين : من ثغور خراسان وأعمالها كلّها، ما بين عمل الرّى مما يلي همدان إلى أقصى خراسان، وثغورها وبلادها، وما هو منسوب إليها ولا شخّصه إليه؛ ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه، ولا يؤلّى عليه أحداً، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عمّاله وولاة أموره ^(١) بُنداراً ولا محاسباً ولا عاملاً، ولا يُدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كلّ برأيه وتدييره، ولا يعرض لأحد ممن ضمّ إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحّابته، وقضّاته وعمّاله، وكتّابه وقواده، وخدمه ومواليه وجنده، بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم، ولا قراباتهم ولا مواليتهم، ولا أحد يتنسل منهم؛ ولا في دمائهم ولا في أموالهم، ولا في ضياعهم ودورهم، ورباعهم وأمتعتهم، ورقيقهم ودوابهم، شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً؛ ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيص له في ذلك، وإدهان منه فيه لأحد من ولد آدم، ولا يحكم في أمرهم، ولا أحد من قضّاته ومن عمّاله، ومن كان بسبب منه، بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قضّاته؛ وإن نزاع إليه أحد ممن ضمّ أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، من أهل بيت أمير المؤمنين وصحّابته، وقواده وعمّاله وكتّابه وخدمه، ومواليه وجنده، ورفض أسمه ومكتبته ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين، عاصياً له، أو مخالفاً عليه، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رده إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، بصغره وقمّاء ^(٢) حتى ينفذ فيه رأيه وأمره، فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلّع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده، أو عزّل عبد الله ابن أمير المؤمنين

(١) البندار : الحافظ . (٢) القماء : الدل والخضوع .

عن ولاية خراسان ، وثغورها وأعمالها ، والذي من حَدَّ عملها مما يلي همدان ، والكُور التي سَمَّاها أمير المؤمنين في كتابه هذا ، أو صَرَفَ أحدٍ من قواده الذين ضمَّهم أمير المؤمنين إليه ، ممن قَدِمَ قَرَمَاسِينَ ، أو أن يَنْقُصَهُ قليلاً أو كثيراً ، مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بحيلةٍ من الحِيل ، صَغُرَتْ أو كَبُرَتْ ، فاعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافةُ بعد أمير المؤمنين ، وهو المُقَدَّم على محمد بن أمير المؤمنين ، وهو وليُّ الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطَّاعةُ من جميع قواد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل العطاء ؛ وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيامُ معه ، والمُجاهدةُ لمن خالفه ، والنَّصرُ له والدَّبُّ عنه ، ما كانت الحياةُ في أبدانهم ، وليس لأحدٍ منهم جميعاً من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يعصيه ، ولا يخرج من طاعته ؛ ولا يطيع محمد بن أمير المؤمنين في خَلَع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصَرَفَ العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو تنقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، في حياته وصَحَّتْهُ ؛ واشترط في كتابه الذي كَتَبَهُ عليه في البيت الحرام ، وفي هذا الكتاب ؛ وعبدُ الله بن أمير المؤمنين المصدِّق في قوله ، وأتم في حِلٍّ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، إن نَقَصَ شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله بن أمير المؤمنين هارون ، ويُسَلِّمَ له الخلافةُ ؛ وليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، ولا لعبد الله بن أمير المؤمنين ، أن يَحْلَعَا القاسمَ بن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدِّما عليه أحداً من أولادهما وقَرَابَاتِهِما ، ولا غيرهم من جميع البرية ؛ فإذا أفضت الخلافةُ إلى عبد الله بن أمير المؤمنين ، فالأمرُ إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صَرَفَ ذلك عنه إلى مَنْ رَأَى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله ، وتَضْيِيرَ القاسم بن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله ، يحكم في ذلك بما أحبَّ ورَأَى ؛ فعليكم معشر المسلمين إنقادُ ما كَتَبَ به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وشرط عليهم وأمر به ؛ وعليكم السمعُ والطاعةُ لأمر المؤمنين فيما ألزَمكم وأوجِبَ عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين ؛

وعهدُ الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمم المسلمين ، والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المُقَرَّين والنبيين والمرسلين ، ووَكَّدها في أعناق المؤمنين والمسلمين ، لَتَفَنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سَمَّى ، ولحمد وعبد الله والقاسم بنَي أمير المؤمنين بما سَمَّى ، وكتب في كتابه هذا واشترط عليكم ، وأقرتم به على أنفسكم ؛ فإن أتمم بَدَلتم من ذلك شيئاً ، أو غيرتم أو نكثتم ، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين ، واشترط عليكم في كتابه هذا ، فَبَرَّئْتُمُكَمُ ذمة الله ، وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمم المؤمنين والمسلمين ، وكلُّ مالٍ هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يَسْتَفِيدُهُ إلى خمسين سنة فهو صَدَقَةٌ على المساكين ، وعلى كلِّ رجل منكم المَشْتَرَى إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجة ، نذراً واجباً ، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك ؛ وكلُّ مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يُسْتَقْبَل إلى خمسين سنة حرٌّ ، وكلُّ امرأة له فهي طالق ثلاثاً البتة ، طلاق الحرج لا مثنوية فيها ، والله عليكم بذلك كفيلٌ وراجٍ ، وكفى بالله حسيباً .

٢ - نسخة الشرط الذي كتب عبد الله بن أمير المؤمنين

بخط يده في الكعبة

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، في صحبة من عقله ، وجوازٍ من أمره ، وصِدْق نية فيما كتب في كتابه هذا ؛ ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين .

إن أمير المؤمنين هارون ولّاني العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين في سلطانه ، بعد أخى محمد بن هارون ؛ وولّاني في حياته تُغُور خراسان وكورها وجميع أعمالها ، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عَقَد لي من الخلافة ، وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أَقْطَعَنِي أمير المؤمنين ، وأتباع لي من الضياع والعقد والرّباع ، وآبَتعتُ منه من ذلك ، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال ، والجوهر والكساء ، والمتاع والدواب ، والرقيق وغير ذلك ؛ ولا يعرض لي ولا لأحدٍ من

عمالي وكتابي بسبب محاسبة، ولا يتبع لي في ذلك، ولا لأحد منهم أبداً، ولا يدخل عليّ ولا عليهم، ولا على من كان معي؛ ومن آستعنت به من جميع الناس مكروهاً في نفس ولا ديم ولا شعير ولا بشير ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير، فأجابه الى ذلك وأقر به، وكتب له كتاباً أكد فيه على نفسه، ورَضِيَ به أمير المؤمنين هارون، وقيله وعرف صدق نيته فيه؛ فشرطتُ لأمر المؤمنين، وجعلتُ له على نفسي أن أسمع لمحمد، وأطيع ولا أعصيه؛ وأنصح ولا أغشه، وأوفى ببيعته وولايته، ولا أغدر ولا أنكث، وأنفذ كُتبه وأمره، وأُحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي؛ ما وقي لي بما شرطتُ لأمر المؤمنين في أمري، وسَمّي في الكتاب الذي كتبه لأمر المؤمنين، ورضي به أمير المؤمنين، ولم يتبني بشيء من ذلك، ولم يتنقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه؛ فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جُند، وكتب إليّ يأمرني بإشتناصه إليه، أو إلى ناحية من النواحي، أو إلى عدو من أعدائه خالفه، أو أراد نقض شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا، وولانا إياه، فعلى أن أنفذ أمره، ولا أخالفه ولا أقصر في شيء كتب به إليّ؛ وإن أراد محمد أن يوّلّي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدى، فذلك له ما وقي لي بما جعله أمير المؤمنين إليّ، واشترطه لي عليه، وشرط على نفسه في أمري؛ وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له به لا أنقص من ذلك ولا أغيره ولا أبدله ولا أقدم قبلًا أحدًا من ولدي ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين؛ إلا أن يوّلّي أمير المؤمنين هارون أحدًا من ولده العهد من بعدى، فيلزمني ومحمداً الوفاء له، وجعلتُ لأمر المؤمنين ومحمد عليّ الوفاء بما شرطتُ وسميت في كتابي هذا، ما وقي لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسماة في هذا الكتاب الذي كتبه لي؛ وعلى عهد الله وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين وذمتي، وذم آبائي وذم المؤمنين؛ وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواريقه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله بالوفاء بها، ونهى عن نقضها وتبديلها؛ فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت

وسميت في كتابي هذا، أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عز وجل؛ ومن ولايته ودينه، ومجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً؛ وكل امرأة هي لي اليوم، أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة، طلاق الحرج؛ وكل مملوك هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله؛ وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، نذراً واجبا على في عني، حافياً راجلاً لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك؛ وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لأمر المؤمنين، وشرطت في كتابي هذا لازماً لي، لا أضمر غيره، ولا أنوى غيره. وشهد سليمان بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان. وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة.

٣ - نسخة كتاب الرشيد إلى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله ولي أمير المؤمنين وولي ما ولاه، والحافظ لما استرعاه، وأكرمه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدم وأخر من أموره، والمنعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكال والحافظ والكافي من جميع خلقه، وهو الحمود على جميع آلائه، المسؤول تمام حسن ما أمضى من قضائه لأمر المؤمنين وعادته الجميلة عنده، وإلهام ما يرضى به ويوجب له عليه أحسن المزيدي من فضله؛ وقد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله أبي أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أملت الأمة ومدت إليه أعناقها، وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون اليهما والثقة بهما لإعاد دينهم وقوام أمورهم وجمع ألفتهم وصلاح دهمائهم ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا اليهما أزمتهن، وأعطوهما بيعتهن، وصفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلظة عليهم؛ أراد الله فلم يكن له مرد، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صرف له عن محبته ومشيتته، وما سبق في علمه منه؛ وأمر المؤمنين يرجو تمام النعمة

عليه وعليهما في ذلك، وعلى الأمة كافة لآعاقب لأمر الله ولا راداً لقضائه ولا معقب لحكمه؛ ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين يُعْمَلُ فكره ورأيه ونظره ورويته، فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعية؛ والجمع للكلمة، واللّم للشعث، والدفع للشئات والفرقة، والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والتفاق، والغفل والشقاق، والقطع لآمالهم من كلّ فرصة يرجون إدراكها وأتهازها منهما بآنتقاص حقهما، ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما، ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه وأتتلاف أهوائهما، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النعم، وردّ حسدّهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما، فعزم الله لأمر المؤمنين على الشُّخُوص بهما إلى بيت الله وأخذ البيعة منهما لأمر المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره، وأكّتاب الشرط على كلّ واحد منهما لأمر المؤمنين ولهما بأشدّ المواثيق والعهود، وأغلظ الأيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما ألتبس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتها ومودّتها وتواصلهما ومؤازرتها ومكاتفتهما على حسن النظر لأنفسهما، ولرعيّة أمير المؤمنين التي استرعاهما، والجماعة لدين الله عزّ وجلّ وكتابهِ وسُننِ نبيّه صلى الله عليه وسلم، والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كلّ عدوٍّ مظهر للعداوة ومسرّها، وكلّ منافق ومارق، وأهل الأهواء الضلالة المضلة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما، وبدّحس يدحس به لهما، وما يلتبس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض، والدعاء إلى البدع والضلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته، وأمة نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، ومناصحة لله ولجميع المسلمين، ودبّا عن سلطان الله الذي قدره وتوحد فيه للذي حمّله إياه؛ والاجتهاد في كلّ ما فيه قربة إلى الله، وما يتّال به رضوانه والوسيلة عنده .

فلما قَدِمَ مَكَّةَ أَظْهَرَ لِمُحَمَّدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ رَأْيَهُ فِي ذَلِكَ وَمَا نَظَرَ فِيهِ لَهَا، فَقَبِلَا كُلَّ مَا دَعَاهُمَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوَكُّدِ عَلَى أَنْتَفُسِهِمَا بِقَبُولِهِ، وَكَتَبَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَطْنِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بِمَخْطُوطِ أَيْدِيهِمَا بِمَحْضَرٍ مِمَّنْ شَهِدَ الْمَوْسِمَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوَادِهِ، وَصَحَابَتِهِ وَقُضَاتِهِ، وَحُجَّجَةِ الْكَعْبَةِ وَشَهَادَاتِهِمْ عَلَيْهِمَا، كَتَابَيْنِ اسْتَوْدَعَهُمَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْحُجَّةَ، وَأَمَرَ بِتَعْلِيْقِهِمَا فِي دَاخِلِ الْكَعْبَةِ؛ فَلَمَّا فَرَّغَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي دَاخِلِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَبَطْنِ الْكَعْبَةِ؛ أَمَرَ قُضَاتَهُ الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمَا وَحَضَرُوا كِتَابَهُمَا أَنْ يُعْلِمُوا جَمِيعَ مَنْ حَضَرَ الْمَوْسِمَ مِنَ الْحَاجِّ وَالْعُمَرَاءِ وَوُفُودِ الْأَمْصَارِ، مَا شَهِدُوا عَلَيْهِ مِنْ شَرْطِهِمَا وَكِتَابِهِمَا وَقِرَاءَةِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، لِيُفْهَمُوا وَيَعُوذُوا وَيَعْرِفُوا وَيَحْفَظُوهُ وَيُؤَدُّوهُ إِلَى إِخْوَانِهِمْ وَأَهْلِ بِلَدَانِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَقُرِئَ عَلَيْهِمُ الشَّرْطَانِ جَمِيعًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ فَانْصَرَفُوا وَقَدْ أَشْتَهَرَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، وَأَثْبَتُوا الشَّهَادَةَ عَلَيْهِ، وَعَرَفُوا نَظَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِنَايَتَهُ بِصَلَاحِهِمْ، وَحَقَّنَ دِمَائِهِمْ وَلَمْ شَعَثْهُمْ، وَإِطْفَاءَ بَحْمَرَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُمْ، وَأَظْهَرُوا الدُّعَاءَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالشُّكْرَ لِمَا كَانَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ نَسَخَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذَيْنَكَ الشَّرْطَيْنِ اللَّذَيْنِ كَتَبَهُمَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبْنَاهُ مُحَمَّدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فِي بَطْنِ الْكَعْبَةِ فِي أَسْفَلِ كِتَابِهِ هَذَا؛ فَاحْمَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا صَنَعَ لِمُحَمَّدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ وَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكِرُهُ بِبِلَائِهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِنْدَ وَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ وَعِنْدَكَ وَعِنْدَ جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا؛ وَأَقْرَأَ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَفْهِمَهُمْ إِيَّاهُ، وَقُمْتُ بِهِ بَيْنَهُمْ وَأَثْبَتُهُ فِي الدِّيْوَانِ قَبْلَكَ، وَقَبَلَ قَوَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَعِيَّتَهُ قَبْلَكَ، وَأَكْتُبُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَبِهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ وَالطَّوْلُ . كَتَبَهُ اسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَبْعِ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنَ الْحَزْمِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ .

باب المنظوم

صوّرنا لك بالمجلد الأول حالة الشعر في صدر الدولة العباسية وذكرنا لك بحملة صالحة من شعراء ذلك العصر ووعدناك بذكر مختارات من شعرهم، وإليك ما وعدناك به .

١ - بَسَّارُ بْنُ بُرْدِ الْعُقَيْلِيِّ^(١)

سأله المهديُّ لما دخل عليه فقال له : فيمن تُعْتَدُّ بِبَسَّارٍ؟ فقال : أَمَا اللِّسَانُ وَالزُّبَى
فَعَرَّيَانِ ، وَأَمَّا الْأَصْلُ فَعَجَمِيٌّ ، كَمَا قُلْتُ فِي شِعْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ :
وَبَنَيْتُ قَوْمًا بِهِمْ جَنَّةٌ * يَقُولُونَ مَنْ ذَا وَكُنْتُ الْعَلَمَ
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِيُّ جَاهِدًا * لِيَعْرِفَنِي أَنَا أَنْفُ الْكَرَمِ

(١) هو أبو معاذ بشار المرعي بن برد ، أشعر مخضرمي الدولتين ، ورأس الشعراء المحدثين ، وممهد طريق الاختراع ، والبدیع للتفنن ، وأحد البلقاء المكفوفين . وأصله من فرس طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة ، ووقع ملك أبويه لبني عقيل بن كعب ، فنشأ بشار فيهم وترى في منازلهم ، واختلط إلى الأعراب الصاريين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر . وكان أكمه مجدور الوجه ، قبيح المنظر ، مفرط الطول ، ضخم الخنة ، متوقد الذكاء ، صادق الحس ، لطيف الدراية ، شديد المحبوت والاستخفاف بالناس ، كثير الاستهتار بالدين ، قليل المبالاة للوقوع فيه ، متهمًا بالزندقة شعوبيا ، متعصبا على العرب ، شديد التبرم بالناس ، نهاشا لأعراضهم ، لا يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة ، وكان من سعادة الرجل . من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا بشار يعرفه ، فانه إن لم يصبه في عرضه أصابه في ماله . وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشرين ، وما بلغ الحلم إلا وهو مخشئ معزة لسانه . وقد أجمع رواة الشعر وتقده على أن بشارا هو رأس المحدثين وأسبقهم إلى معاطاة البديع ، وطرق أبواب المحبون والخلاعة والغزل الرقيق الحضري والهجاء المقذع .

وأنه أول من جمع في شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، وفقى عن المعاني الدقيقة ، والأخيلة اللطيفة ، حتى عد شعره برزخا بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة . وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التي عرفت قبله وأراني عليها ، وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والخروج به عن الحد المألوف عند أهل زمانه ، حتى أنكزه عليه العلماء والمتورعون لما رأوا من سوء أثره في شبان البصرة . وقد نهاه المهدي عن التشبيب ، فكان إذا مالت له نفسه يذكر منه ما يشاء ويقول : إن الخليفة منعه من كذا وكذا وأنه له مطيع .

وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ، فلم يزد على أن حرمه الجائزة ، وشجعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود ، وكان متورطا ، فهجأهما ، فكان ذلك إلى زندقته سبب قتله . توفي سنة ١٦٧ هـ وقد تيف على التسعين . وتجد ترجمته في الأغاني (ج ٣ ص ١٩ وج ٦ ص ٧) وابن خلكان (ج ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والفهرست (ص ١٥٩) .

نَمَتْ فِي الْكَرَامِ بَنَى عَامِرٍ * فَرُوعِي وَأَصْلِي قُرَيْشُ الْعَجَمِ
فَإِنِّي لِأَغْنَى مَقَامِ الْفَتَى * وَأُصْبِي الْفَتَاةَ فَمَا تَعْتَصِمُ

وكان أبو ذؤلامه حاضراً ، فقال : كَلَّا ! لَوَجْهَكَ أَقْبَحَ مِنْ ذَلِكَ ، وَجْهِي مَعَ وَجْهِكَ ،
فقال بشار : كَلَّا ! والله ما رأيت رجلاً أصدق على نفسه وأكذب على جليسه منك ، والله
إني لطويلُ القامة ، عظيمُ الهامة ، تَامُّ الألواح ، أَتَجَحُّ الخدين ، ولربُّ مُسْتَرْتَحِي المَزورين
للعين فيه مُرَاد . ثم قال له المهدي : من أيِّ العجم أصلك ؟ فقال : من أَكْثَرِهَا
فِي الْفُرْسَانِ وَأَشَدَّهَا عَلَى الْأَقْرَانِ ، أَهْلُ طَخَارِسْتَانَ ؛ فقال بعضُ القوم : أولئك الصُّغْدُ ،
فقال : لا ! الصُّغْدُ تِجَارٌ ؛ فلم يَرُدُّ ذَلِكَ المهدي .

وكان بشار كثير التلون في ولّائه ، شديد التشييع والتعصب للعجم ، مرّة يقول يفتخر
بولائه في قيس :

أَمِنْتُ مَضَرَّةَ الْفُحَشَاءِ إِنِّي * أَرَى قَيْسًا تُشَبُّ^(١) وَلَا تُضَارُ
كَأَنَّ النَّاسَ حِينَ تَغِيْبُ عَنْهُمْ * نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَاهُ الْقِطَارُ
وَقَدْ كَانَتْ يَتَدَمَّرُ خَيْلُ قَيْسٍ * فَكَانَ لَتَدْمُرُ فِيهَا دِمَارُ
بِحَيٍّ مِنْ بَنِي عَيْلَانَ شُوِسَ * يَسِيرُ الْمَوْتُ حَيْثُ يُقَالُ سَارُوا
وَمَا نَلْقَاهُمْ إِلَّا صَدَرْنَا * يَرَى مِنْهُمْ وَهُمْ حِرَارُ

ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول :

أَصْبَحْتُ مَوْلَى ذِي الْجَلَالِ وَبَعْضُهُمْ * مَوْلَى الْعَرِيبِ بِخُدِّ بَفْضِكَ فَاخْزِرِ
مَوْلَاكَ أَوْ كَرُمُ مَنْ تَمِيمُ كُلُّهَا * أَهْلُ الْفِعَالِ وَمَنْ قُرَيْشُ الْمَشْعَرِ
فَارْجِعْ إِلَى مَوْلَاكَ غَيْرَ مُدَافِعٍ * سَبْحَانَ مَوْلَاكَ الْأَجَلِّ الْأَكْبَرِ

وقال يفتخر بولاء بني عقيل :

إِنِّي مِنْ بَنِي عَقِيلِ بْنِ كَعْبٍ * مَوْضِعُ السِّيفِ مِنْ طَلَى الْأَعْيَاقِ

(١) تشب : تزداد وترتفع .

وَوُلِدَ بَشَارُ أَعْمَى ، فَمَا نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا قَطُّ ، وَكَانَ يُشَبِّهُ الْأَشْيَاءَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ فِي شَعْرِهِ ،
فَيَأْتِي بِمَا لَا يَقْدِرُ الْبَصَرُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ؛ فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا وَقَدْ أُنْشِدَ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا * وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

مَا قَالَ أَحَدٌ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا التَّشْبِيهِ ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا وَلَمْ تَرَ الدُّنْيَا قَطُّ وَلَا شَيْئًا فِيهَا ؟
فَقَالَ : إِنْ عَدِمَ النَّظَرُ يَقْوَى ذِكَاؤُ الْقَلْبِ وَيَقْطَعُ عَنْهُ الشَّغْلُ بِمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ ،
فَيَتَوَقَّرُ حُسُّهُ وَتَذَكُّوْرُ يَحْتُهُ ؛ ثُمَّ أُنْشِدَهُمْ قَوْلَهُ :

عَمِيْتُ جَنِينًا وَالذِّكَاؤُ مِنَ الْعَمَى * بَحِثْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْثِلًا
وَعَاظُ ضِيَاءُ الْعَيْنِ لِلْعِلْمِ رَافِدًا * بِقَلْبٍ إِذَا مَا ضَيَّعَ النَّاسُ حَصْلًا
وَشَعْرٍ كَنُورِ الرُّوضِ لَاءَمْتُ بَيْنَهُ * بِقَوْلٍ إِذَا مَا أَخْرَنَ الشَّعْرُ أَسْهَلًا

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ تَبَرُّمًا بِالنَّاسِ . وَكَانَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِبَصَرِي .
فَقِيلَ لَهُ : وَلَمْ يَأْبَا مُعَاذًا ؟ قَالَ : لَيْتَ لَا أَرَى مَا أَبْغِضُ .

قَالَ الْأَعْمَى : بَشَارُ خَاتِمَةِ الشُّعْرَاءِ ، وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ أَيَّامَهُ تَأَخَّرَتْ لِفَضْلَتِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ .
وَقِيلَ لِأَبِي عُيَيْدَةَ : أَمْرَوَانُ أَشْعَرُ أَمْ بَشَارُ ؟ فَقَالَ : حَكَمَ بَشَارٌ لِنَفْسِهِ بِالْأَسْتِظْهَارِ ،
إِنَّهُ قَالَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ جَيِّدٍ ، وَلَا يَكُونُ عَدَدُ الْجَيِّدِ مِنْ شَعْرِ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ
وَالْإِسْلَامِ هَذَا الْعَدَدُ ، وَمَا أَحْسَبُهُمْ بَرَّزُوا فِي مِثْلِهَا ، وَمَرْوَانُ أَمْدَحُ لِلْمُلُوكِ .

وَسُئِلَ الْأَعْمَى عَنْ بَشَارٍ وَمَرْوَانَ أَيُّهُمَا أَشْعَرُ ؟ فَقَالَ : بَشَارُ ؛ فَسُئِلَ عَنِ السَّبَبِ لِذَلِكَ ؛
فَقَالَ : لِأَنَّ مَرْوَانَ سَلَكَ طَرِيقًا كَثُرَ مِنْ يُسَلِّكُهُ ، فَلَمْ يَلْحَقْ بِمَنْ تَقَدَّمَ وَشَرَكَهُ فِيهِ مِنْ كَانَ
فِي عَصْرِهِ ، وَبَشَارُ سَلَكَ طَرِيقًا لَمْ يُسَلِّكْ وَأَحْسَنَ فِيهِ وَتَفَرَّدَ بِهِ ، وَهُوَ أَكْثَرُ تَصَرُّفًا وَفَنُونَ
شَعْرٍ ، وَأَغْزَرُ وَأَوْسَعَ بَدِيعًا ، وَمَرْوَانُ لَمْ يَتَجَاوَزْ مَذْهَبَ الْأَوَائِلِ .

وَقِيلَ لِبَشَارٍ : لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ شُعْرَاءِ الْعَرَبِ شَعْرًا إِلَّا وَقَدْ قَالَ فِيهِ شَيْئًا أَسْتَنْكَرْتَهُ الْعَرَبُ
مِنْ أَلْفَاظِهِمْ وَشُكَّ فِيهِ ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي شَعْرِكَ مَا يُشَكُّ فِيهِ ؛ قَالَ : وَمِنْ أَيْنَ يَأْتِنِي الْخَطَأُ ؟
وَوُلِدْتُ هَاهُنَا ، وَنَشَأْتُ فِي حُجُورِ ثَمَانِينَ شَيْخًا مِنْ قُصَّصَاءِ بَنِي عُقَيْلٍ مَا فِيهِمْ أَحَدٌ يَعْرِفُ كَلِمَةً

من الخطأ، وإن دخلت إلى نسائهم فنسأؤهم أفصح منهم، وأُفَعْتُ فَأَبْدَيْتُ^(١) إلى أن أدركت،
فمن أين يأتيني الخطأ ؟ .

كان جرير بن المنذر السدوسي يفاخر بشارا، فقال فيه بشار :

أمثل بنى مضر وإئيل * فقدتُك من فاجر ما أجنَّ
أفى النوم هذا أبا منذر * خيرا رأيت وخيرا يُكَنَّ
رأيتُك والفخر فى مثلها * كماجنة غير ما تطحن

كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة، فراسلها يسألها زيارته، فوعده بذلك ثم
أخلفته، وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح، فلما لم تأته أرسل إليها ليعاتبها فأعذرت بمرض
أصاها، فكتب إليها بهذه الأبيات :

يا ليلتى تزدادُ نُكرا * من حُبِّ من أحببتُ يكرأ
حوراء ان نظرتُ اليه * لك سَقَنك بالعينين نَعرا
وكان رَجَعَ حَدِيثها * قَطَعَ الرِياض كُسَيْنَ زَهرا
وكان تحت لسانها * هاروت ينفث فيه سَحرا
وتخال ما جُمِعَتْ عليه * ه ثيابها ذَهبا وعِطرا
وكانها بَرْدُ الشِّرا * ب صفا وصادف منك فِطرا
جَنِيَّةٌ إِنْسِيَّةٌ * أويين ذاك أجلُّ أمرا
وكفالك أئى لم أحط * بَسْكَاة من أحببتُ خبرا
إلا مقالة زائِر * ثَرَتْ لى الأحران نَرا
متخشعا تحت الهوى * عَشرا وتحت الموت عَشرا

وكان إسحاق الموصلى لا يعتد بشار ويقول : هو كثير التخليط فى نثره، وأشعاره مختلفة

لا يشبه بعضها بعضا، أليس هو القائل :

(١) أبدت أى أخرجت الى البادية .

إِنَّمَا عَظُمْتُ سُلَيْمَى حُبِّي * قَصَبُ السَّكْرِ لَا عَظَمَ الْجَمَلِ

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا * غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصْلِ

لو قال : كل شيء جيد ثم أضيف إليه هذا لزيّفه . وكان يُقدّم عليه مروانَ ويقول : هو أشدُّ استواءً شعر منه ، وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها ، وكان لا يعدُّ أبانؤاس البتّة ولا يرى فيه خيرا .

قال الجاحظ : كان بشار خطيبا صاحب منشور ومزدوج وبتّيج ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع ، المتفتّنين في الشعر ، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه . وقال الشعر في حياة جرير وتعرض له ، وحكى أنه قال : هجوتُ جريرا فأعرض عني ، ولو هاجاني لكنتُ أشعر الناس ، وكان يدين بالرجعة ، ويكفر جميع الأئمة ، ويصوّب رأى إبليس في تقديم النار على الطين ، وذكر مثل ذلك في شعره فقال :

الْأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ * وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مَدَّ كَانَتِ النَّارُ

وقال بعض الرواة لأبي عمرو : من أبدع الناس بيتا؟ قال الذي يقول :

لَمْ يَطْلُ لَيْسَى وَلَكِنْ لَمْ أَنْمَ * وَتَقَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ أَلَمٍ

وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودِي لَنَا * خَرَجْتُ بِالصَّمْتِ عَنْ لَا وَنَعَمَ

رَوْحِي يَا عَبْدَ عَنِّي وَأَعْلَمِي * أَنْنِي يَا عَبْدَ مَنْ لَحْمٍ وَدَمَ

إِنِّ فِي بُرْدِي جَسْمًا نَاحِلًا * لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَمَ

وهذه الأبيات لبشار .

قال : فن أمدح الناس؟ قال الذي يقول :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتغِي الْغَنَى * وَلَمْ أَذِرْ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدَى

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُووُ الْغِنَى * أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَفْتُ مَا عِنْدِي

وهذه الأبيات لبشار .

ودخل بشارٌ على إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، فأنشده قصيدةً يهجو فيها المنصور
ويُشير عليه برأى يستعمله في أمره ، فلما قُتل إبراهيم خاف بشار ، فقلَّب الكُنية وأظهر أنه
كان قاهلاً في أبي مسلم ، وحذف منها أبياتاً ، وأولها :

أبا جعفرٍ ما طولُ عيشِ بدائم * ولا سالمٌ عمّا قليلٍ بسالم
قلب هذا البيت فقال : أبا مسلم :

على الملك الجبار يَتَّحِمُ الردى * ويَصْرَعُه في المَازِقِ المُتَلَاخِمِ
كأنك لم تسمعَ بقتل مُتَوَج * عظيمٍ ولم تسمعَ بقتك الأعاجِمِ
تَقَسَّمُ كسرى رهطه بسيوفهم * وأمسى أبو العباس أحلامَ نائم

يعنى الوليد بن يزيد

وقد كان لا يخشى أنقلبَ مكيدة * عليه ولا جرى النحوس الأشائم
مُقيماً على اللذات حتى بت له * وجوه المنايا حاسرات العائِمِ
وقد تردُّ الأيامُ غُراً وربما * وردنَ كُلوفاً باديات الشكائم
ومرواً قد دارت على رأسه الرِّحا * وكان لما أجمتَ نَزراً الجرائم
فأصبحتَ تجري سادراً في طريقهم * ولا تَسْقَى أشباه تلك النِّقائم
تجرَّدت للإسلام تعفو سبيله * وتُعْرِى مَطَاهِ^(١) لليوث الضراغم
فما زلتَ حتى استنصر الدينُ أهله * عليك فعادُوا بالسيوف الصوامِ
فرمَ وزراً يُنجيك يابن سلامة * فلستَ بناجٍ من مَضِيمِ وضائم

جعل موضع "يابن سلامة" "يابن وشيكة" وهي أم أبي مسلم

لحَا الله قوما رَأْسُوكَ عليهم * وما زلتَ مرءوساً خيثَ المطاعِمِ
أقول لِسَامٍ عليه جلاله * غدا أُرِيحِيَّ عاشقاً للكارِمِ
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى * جهارا ومن يَهْدِيكَ مثلُ ابنِ فاطِمِ

(١) مطاه : ظهره .

هذا البيتُ حذفه بشار من الأبيات :

سراجٌ لعَيْنِ المُسْتَضَى وتارةً * يكون ظلاماً للعَدُوِّ المُرَّاحِمِ
إذا بلغَ الرَّأْيُ المشورةَ فَاسْتَعِنَ * برأى نصيحٍ أو نصيحةٍ حازمِ
ولا تجعلِ الشُّورى عليك غَضَاضَةً ^(١) * فإنَّ الخَوَافِ قُوَّةٌ للقوادمِ ^(٢)
وما خيرُ كَفِّ أَمْسِكِ الغُلَّ أختها ^(٣) * وما خيرُ سَيْفٍ لم يُؤَيِّدَ بقائمِ
وخلَّ الهَوَيْنَا للضعيفِ ولا تكنِ * تؤوماً فإنَّ الحَزْمَ ليس ببناءمِ
وحاربِ إذا لم تُعْطَ إلا ظُلامَةً ^(٤) * شَبَابُ الحربِ خيرٌ من قَبُولِ المظالمِ
وأذنِ على القُرْبَى المقربِ نفسه * ولا تُشهِدِ الشُّورى أمراً غيرَ كاتمِ
فإنك لا تَسْتَطِردُ الهَمَّ بالْمُنَى * ولا تبْلُغُ العَلِيَّ بغيرِ المكارمِ
إذا كنتَ فَرْدًا هَرَكِ القومَ مُقْبِلًا * وإن كنتَ أدنى لم تُفْزَ بالعزائمِ
وما قَرَعَ الأفْواءَ مِثْلُ مُشِيعٍ ^(٥) * أريبٍ ولا جَلَى العَمَى مِثْلُ عالمِ

قال أبو عبيدة : ميميةٌ بشار هذه أحبَّ إلى من ميميةِ جرير والفرزدق . وقال الأصمعي لبشار : يا أبا معاذ ، إن الناس يُعجبون من أبياتك في المشورة ، فقال له : يا أبا سعيد ، إن المشاورين صواب يفوز بثمرته ، أو خطأ يُشارك في مكروهه ، فقال له : أنت في قولك هذا أشعر منك في شعرك .

توفي ابنُ لبشار فجزع عليه ، ف قيل له : أجزأ قدمته ، وفَرَطَ اقترطته ، وذُنُحْ أحرزته ، فقال : ولَدَ دَفْتَهُ ، وَكُلَّ تَعَجَّلْتَهُ ، وَغَيْبٌ وَعِدَّتُهُ فَأَنْتَظَرْتَهُ ، والله لئن لم أجزع لَلنَّقْصِ لا أفرح للزيادة . وقال يرثيه :

(١) الغضاضة : المقصة . (٢) الخوافي : الريشات الصغيرة التي في جناح الطائر إذا ضمها خفيت ، واحدها خافية ضد القوادم . (٣) الغل بالضم : الحديدية التي تجمع بين يد الأسير وعنقه وتسمى الجامعة . (٤) الشبا بالفتح جمع شباة وهي من كل شيء حده . (٥) المشيع : الشجاع .

أَجَارَتَنَا لَا تَجْزَعِي وَأَنْبِي * أَنَانِي مِنَ الْمَوْتِ الْمَطْلُ نَصِي
 بَخِي عَلَى رَغْمِي وَتُخْطِ رُزْئُهُ * وَبُدِّلْ أَهْجَارًا وَجَالَ قَلْبُ^(١)
 وَكَانَ كَرِيحَانِ الْعُرُوسِ تَخَالُهُ * ذَوِي بَعْدَ إِشْرَاقِ يَسْرٍ وَطِيبِ
 أَصْبَتْ بِهِ فِي حِينَ أَوْرَقَ غَصْنُهُ * وَأَلْقَى عَلَى الْهَمِّ كُلِّ قَرِيبِ
 عَجِبْتُ لِإِسْرَاعِ الْمَنِيَّةِ نَحْوَهُ * وَمَا كَانَ لَوْ مُلِئَتْهُ بِعَجِيبِ

قيل لبشار : إنك لتجىء بالشيء الهجين المتفاوت ، قال : وما ذاك ؟ قيل : بينما تقول شعرا يثير النقع وتُخْلَعُ به القلوب مثل قولك :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضَبَةً مُضْهِرَةً * هَتَكُنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمِطِرَ الدَّمَ
 إِذَا مَا أَعْرَضْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ * ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا
 تقول :

رَبَابَةُ رَبَّةِ الْبَيْتِ * تَصُبُّ الْخَلَّ فِي الزَيْتِ
 لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ * وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال : لكل وجه ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته في ربابة جاريتي ، وأنا لا أاكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع لى البيض ، فهذا عندها أحسن من « قِفَانَبِك » عندك . وسألته جاريةً مغنية لبعض ولد سليمان بن علي ، وكانت محسنة بارعة الظرف ، أن يذكروها في قصيدة ولا يذكروا فيها اسمها ولا اسم سيدها ويكتب بها اليها ، فأنصرف وكتب اليها :

وَذَاتِ دَلٍّ كَأَنَّ الْبَدْرَ صُورُهَا * بَاتَتْ تَغْنِي عَمِيدَ الْقَلْبِ سَكْرَانَا
 « إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ * قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا »
 فَقُلْتُ أَحْسَنْتِ يَا سُوْلَى وَيَا أَمْلَى * فَاسْمِعِينِي جَزَاكَ اللَّهُ إِحْسَانَا
 « يَا حَبْدًا جَبَلُ الرِّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ * وَحَبْدًا سَاكِنُ الرِّيَّانِ مَنْ كَانَ »
 قَالَتْ فَهَلَّا فَدَتْكَ النَّفْسُ أَحْسَنُ مِنْ * هَذَا لِمَنْ كَانَ صَبَّ الْقَلْبِ حَيْرَانَا

(١) الجبال : حافة القبر ونواحيه .

« يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة * والأذن تعشق قبل العين أحيانا »
 فقلت أحسنت أنت الشمس طالعة * أضربت في القلب والأحشاء نيرانا
 فأسمعني صوتا مطربا هزجا * يزيد صبا محبا فيك أشجانا
 يا ليتني كنت ثقاحا مفلجة * أو كنت من قصب الريحان ريحانا
 حتى إذا وجدت ريحي فأعجبها * ونحن في خلوة مثلت لإنسانا
 فزكت عودها ثم آثنت طربا * تشدو به ثم لا تحفيه كتمانا
 « أصبحت أطوع خلق الله كلهم * لأكثر الخلق لى في الحب عصفانا »
 فقلت أطرقتنا يازين مجلسنا * فهات إنك بالإحسان أولانا
 لو كنت أعلم أن الحب يقتلنى * أعددت لى قبل أن ألك أكفانا
 فغنت الشرب صوتا موقعا رملا * يذكى السرور ويبيى العين ألوانا
 « لا يقتل الله من دامت مودته * والله يقتل أهل الغدر أحيانا »

كان الزوار يُسمون فى قديم الدهر الى أيام خالد بن برمك السؤال ، فقال خالد : هذا والله أسم أستقبله لطلاب الخير ، وأرفع قدر الكرم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين ، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء النعم ، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا ، ولكننا نسميهم الزوار ، فقال بشار يمدحه بذلك :

حذا خالد فى فعله حذو برمك * فمجد له مستطرف وأصيل
 وكان ذوو الآمال يدعون قبله * بلفظ على الإعدام فيه دليل
 يسمون بالسؤال فى كل موطن * وإن كان فيهم نابه وجليل
 فسماهم الزوار ستر عليهم * فاستاره فى المهدين سدول

وقال بشار هذا الشعر فى مجلس خالد فى الساعة التى تكلم خالد بهذا فى أمر الزوار ، فأعطاه لكل بيت ألف درهم .

دخل بشار على عُقْبَةَ بنِ سَلَمٍ فأنشده بعض مدائحه فيه ، وعنده عُقْبَةُ بنِ رُوْبَةَ ينشده
 رَجَزًا يمدحه به ، فسمعه بشار وجعل يستحسن ما قاله الى أن فرغ ، ثم أقبل على بشار
 فقال : هذا طراز لا تُحْسِنُه أنت يا أبا مُعَاذٍ ، فقال بشار : أَلَيْ يَقَالُ هذا ! أنا والله أَرْجُؤُكَ مِنْكَ
 ومن أهلك وجدك ؛ فقال له : عُقْبَةُ أنا وأبى فَتَحْنَا للناس بابَ الغريب وبابَ الرَّجَزِ ، وإني
 لخليقٌ أن أسدّه عليهم ؛ فقال بشار : أَرْحَمُهُم رَحِمَكَ اللهُ ، ولما كان من غَدٍ غدا على عُقْبَةَ
 ابنِ سَلَمٍ وعنده عُقْبَةُ بنِ رُوْبَةَ ، فأنشده أَرْجُؤُزَتَهُ التي مدحه فيها :

يا طَلَلُ الحَيِّ بذات الضمِّدِ * بالله خبر كيف كنت بعدى
 أَوْحِشْتُ من دَعْدٍ وَتَرْبٍ دَعْدِ * سَقِيًّا لَأَسْمَاءِ ابْنَةِ الْأَشَدِّ
 قَامَتْ تَرَأَى إِذْ رَأَيْتُنِي وَحْدِي * كَالشَّمْسِ تَحْتَ الزُّبُرِجِ الْمُنْقَدِّ^(١)
 صَدَّتْ بِحَدِّ وَجَلَّتْ عَنْ حَدِّ * ثُمَّ انْتَثَرَتْ كَالنَّفْسِ الْمُرْتَدِّ
 عَهْدِي بِهَا سَقِيًّا لَهُ مِنْ عَهْدِ * تُخْلِفُ وَعْدًا وَتَنْفِي بِوَعْدِ
 فَتَحْنُ مِنْ جَهْدِ الْهَوَى فِي جَهْدِ * وَزَاهِرٍ مِنْ سَيْطٍ وَجَعْدِ
 أَهْدَى لَهُ الدَّهْرُ وَلَمْ يَسْتَهْدِ * أَفَوَافِ نَوْرِ الْحَبْرِ الْمُجَدِّ
 يَلْقَى الضَّحَى رِيحَانَهُ بِسَجْدِ * بَدَلْتُ مِنْ ذَاكَ بُكْيَ لَا يُجْدِي
 وَافِقٍ حَظًّا مِنْ سَعَى بَحْدِ * مَا ضَرَّ أَهْلَ النُّوْكَ ضَعْفُ الْجَدِّ
 الْحُرُّ يُلْحَقِي وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ * وَلَيْسَ لِللُّحْفِ مِثْلُ الرَّدِّ
 وَالنَّصْفُ يَكْفِيكَ مِنَ التَّعْدِي * وَصَاحِبِ كَالِدُمِّلِ الْمُجْدِ
 حَمَلْتُهُ فِي رَقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي * أَرْقُبُ مِنْهُ مِثْلَ يَوْمِ الْوَرْدِ
 حَتَّى مَضَى غَيْرَ فَقِيدِ الْفَقْدِ * وَمَا دَرَى مَا رَغْبَتِي مِنْ زُهْدِ
 إِسْلَمَ وَحَيْثُ أَبَا الْمَلَدِ * مِفْتَاحُ بَابِ الْحَدَثِ الْمُنْسَدِ
 مُشْتَرَكِ النَّيْلِ وَرِيَّ الزَّنْدِ * أَغْرَى لِبَاسَ ثِيَابِ الْحَمْدِ

(١) الزبرج : الزينة من دنى أوجوهه ،

ما كان مني لك غير الوَدِّ * ثم ثناءً مثلُ ريحِ الوَرْدِ
 نَسِجَتْهُ فِي مُحْكَمَاتِ النَّدِّ * فالْبَسَ طِرَازِي غير مُسْتَرَدِّ
 لله أَيَامُكَ فِي مَعَدِّ * وفي بَنِي حَقَّانٍ غير عَدِّ
 يوماً بذى طِخْفَةٍ عِنْدَ الْحَدِّ * ومثله أودَعَتِ أَرْضَ الْهِنْدِ
 بِالْمُرْهَقَاتِ وَالْحَدِيدِ السَّرْدِ * وَالْمُقَرَّبَاتِ الْمُبْعِدَاتِ الْجُرْدِ^(٢)
 إِذَا الْحَيَا أَكْدَى بِهَا لَا تُكْدَى * تَلَحُّمِ أَمْرًا وَأُمُورًا تُسْدَى
 وَأَبْنِ حَكِيمٍ إِنْ أَتَاكَ يَرْدَى * أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ صَوْتَ الرَّعْدِ
 حَيَّتِهِ بِتَخْفَةِ الْمِعْدِ * فَانْهَدَ مِثْلُ الْجَبَلِ الْمُنْهَدِ
 كُلَّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِمَا يُؤْدَى * وَرَبِّ ذِي تَاجٍ كَرِيمِ الْجَدِّ
 كَالِ كَسْرَى وَكَالِ بُرْدِ * أَنْكَبَ جَافٍ عَنِ سَبِيلِ الْقَصْدِ
 * فَصَلَّتْهُ عَنْ مَالِهِ وَالْوُلْدِ *

فَطَرِبَ عَقْبَةُ بْنُ سَلَمٍ وَأَجْرَلَ صَلَاتَهُ، وَقَامَ عَقْبَةُ بْنُ رُؤْبَةَ نَفْرَجٍ عَنِ الْمَجْلِسِ يَخْزِي وَهَرَبَ مِنْ تَحْتِ لَيْلَتِهِ فَلَمْ يَعُدْ إِلَيْهِ .

قَالَ الْجَاهِظُ : فَأَنْظُرْ إِلَى سُوءِ أَدَبِ عَقْبَةَ بْنِ رُؤْبَةَ وَقَدْ أَجْمَلَ بَشَارًا مُحَضَّرَهُ وَعَشْرَتَهُ ، فَقَابَلَهُ بِهَذِهِ الْمَقَابِلَةِ الْقَبِيحَةِ ، وَكَانَ أَبُوهُ أَعْلَمَ خَلَقَ اللَّهُ بِهِ ، لِأَنَّهُ قَالَ لَهُ وَقَدْ فَاتَحَهُ بِشَعْرِهِ : أَنْتَ يَا بَنِيَّ ذَهَبَانِ الشَّعْرُ ، إِذَا مِتَّ مَاتَ شَعْرُكَ مَعَكَ ، فَلَمْ يُوجَدْ مِنْ يَرْوِيهِ بَعْدَكَ ، فَكَانَ كَمَا قَالَ لَهُ ، مَا يُعْرِفُ لَهُ بَيْتٌ وَاحِدٌ وَلَا خَبْرٌ غَيْرُ هَذَا الْخَبَرِ الْقَبِيحِ الْإِخْبَارِ عَنْهُ ، الدَّالُّ عَلَى سُخْفِهِ وَسَقَوطِهِ وَسُوءِ أَدَبِهِ .

وَقَالَ بَشَارٌ فِي هَوًى لَهُ كَانَتْ بِالْبَصْرَةِ ، ثُمَّ خَرَجَتْ مَعَ زَوْجِهَا إِلَى عُثْمَانَ :
 هَوًى صَاحِبِي رِيحَ الشَّمَالِ إِذَا جَرَتْ * وَأَشْفَنِي لِقَابِي أَنْ تَهَبَّ جَنُوبُ
 وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ حِينَ تَنْتَهَى * تَنَاقَى فِيهَا مِنْ عُبَيْدَةِ طِيبِ

(١) طخفة : موضع بعد النجاف وبعد إمرة في طريق البصرة إلى مكة ، ومنه يوم طخفة ليلي يربوع على قايوس ابن المذحجر من ماء السماء . (٢) المقربات : الخيل التي يقرب صاحبها ويملكها ليكرامتها .

عَذِرِي مِنَ الْعُدَالِ إِذْ يَعْذُلُونِي * سَفَاهًا وَمَا فِي الْعَاذِلِينَ لَيْبِ
 يَقُولُونَ لَوْ عَزَيْتَ قَلْبَكَ لَأَرْعَوِي * فَقُلْتُ وَهَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ
 إِذَا نَطَقَ الْقَوْمُ الْجُلُوسُ فَإِنِّي * مُكِبٌّ كَأَنِّي فِي الْجَمِيعِ غَرِيبُ
 جَاءَ أَبُو الشَّمَقْمَقِ إِلَى بَشَارٍ يَشْكُو إِلَيْهِ الضِّيقَ وَيَحْلِفُ لَهُ أَنَّهُ مَا عِنْدَهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ لَهُ
 بَشَارُ : وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا يَغْنِيكَ ، وَلَكِنْ قُمْ مَعِيَ إِلَى عُقْبَةَ بْنِ سَلَمٍ ، فَقَامَ مَعَهُ ، فَذَكَرَ لَهُ
 أَبَا الشَّمَقْمَقِ وَقَالَ : هُوَ شَاعِرٌ وَلَهُ شُكْرٌ وَثَاءٌ ، فَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ لَهُ بَشَارُ :
 يَا وَاحِدَ الْعَرَبِ الَّذِي * أَمْسَى وَلَيْسَ لَهُ نَظِيرُ
 لَوْ كَانَ مِثْلُكَ آخِرًا * مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا فَقِيرُ

فَأَمَرَ لِبَشَارٍ بِأَلْفِي دِرْهَمٍ ، فَقَالَ أَبُو الشَّمَقْمَقِ : نَفَعْتَنَا وَنَعْنَاكَ يَا أَبَا مَعَاذٍ ، بِجَعَلِ
 بَشَارٍ يَضْحَكُ .

دَخَلَ يَزِيدُ بْنُ مَنْصُورِ الْحِمَيْرِيِّ عَلَى الْمَهْدِيِّ وَبَشَارِ بْنِ يَدِيهِ يُنْشِدُهُ قَصِيدَةً أَمْتَدَحَهُ
 بِهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ يَزِيدُ ، وَكَانَتْ فِيهِ غَفْلَةٌ ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، مَا صَنَاعَتُكَ ؟ فَقَالَ :
 أَتُنْقِبُ اللَّوْلُو ، فَضَحِكَ الْمَهْدِيُّ ، ثُمَّ قَالَ لِبَشَارٍ : أَغْرُبُ وَبَيْتُكَ ! أَتُنْتَادِرُ عَلَى خَالِي ؟
 فَقَالَ لَهُ : وَمَا أَصْنَعُ بِهِ ؟ يَرَى شَيْخًا أَعْمَى يُنْشِدُ الْخَلِيفَةَ شِعْرًا وَيَسْأَلُهُ عَنْ صِنَاعَتِهِ .

وَقَفَّ عَلَى بَشَارٍ بَعْضُ الْمُجَانِّ ، وَهُوَ يُنْشِدُ شِعْرًا ، فَقَالَ لَهُ : أَسْتُشْعِرُكَ هَذَا كَمَا تَسْتَرِ
 عَوْرَتَكَ ، فَصَفَّقَ بَشَارٌ بِيَدَيْهِ وَغَضِبَ ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ وَبَيْتُكَ ! قَالَ : أَنَا — أَعَزَّكَ اللَّهُ —
 رَجُلٌ مِنْ بَاهِلَةَ ، وَأَخْوَالِي سَلُولُ ، وَأَصْهَارِي عُكْلُ ، وَأَسْمَى كَلْبُ ، وَمَوْلَدِي بِأَصَاخِ^(١) ،
 وَمَنْزَلِي بِظَفَرِ بِلَالٍ ، فَضَحِكَ بَشَارٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَذْهَبُ وَبَيْتُكَ ! فَأَنْتَ عَتِيقٌ لَوْمِكَ ، قَدْ عَلِمَ اللَّهُ
 أَنَّكَ أَسْتَرْتَ مَنْى بِمَحْصُونٍ مِنْ حَدِيدٍ .

مَرَّ بَشَارٌ بِرَجُلٍ قَدْ رَحَّمَتْهُ بَغْلَةٌ وَهُوَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا ، فَقَالَ لَهُ : بَشَارُ أَسْتَرِدُّهُ يَزِيدُكَ .
 وَمَرَّ بِهِ قَوْمٌ يَحْمِلُونَ جَنَازَةً وَهُمْ يُسْرِعُونَ الْمَشْيَ بِهَا ، فَقَالَ : مَا لَهُمْ مُسْرِعِينَ ؟ أَتَرَاهُمْ سَرَقُوهُ
 فَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يُلْحَقُوا فَيُؤْخَذَ مِنْهُمْ ،

(١) مِنْ لَهْجَةِ الْبَاهِلَةِ لَهْجَةُ نَهْرٍ .

رفع غلامٌ بشارٌ إليه في حساب نَفَقَتِهِ جِلاءَ مِرْآةٍ عَشْرَةَ دِرْهَمًا، فصاح به بشار وقال :
والله ما في الدنيا أعجب من جِلاءِ مِرْآةٍ أعمى بعشرة دراهم ، والله لو صَدِثَتْ عَيْنُ الشَّمْسِ
حتى يَبْقَى الْعَالَمُ فِي ظُلْمَةٍ ما بلغتْ أَجْرُهُ من يجلوها عشرة دراهم .

قال قُدَامَةُ بْنُ نُوحٍ : كَانَ بَشَارٌ يَحْشُو شَعْرَهُ إِذَا أُعْزِزَتْهُ الْفَاقِيَةُ وَالْمَعْنَى بِالأشياء التي
لا حَقِيقَةَ لَهَا ؛ فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَتَشَدُّ يَوْمًا شَعْرًا لَهُ فَقَالَ فِيهِ : « غَنَى لِلْغَرِيضِ يَا بَنَ قَبَانِ »
فَقِيلَ لَهُ : مِنْ أَبْنِ قَبَانِ هَذَا ؟ لَسْنَا نَعْرِفُهُ مِنْ مُغْنَى الْبَصْرَةِ ، قَالَ : وَمَا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ؟ أَلَكُمُ قَبْلَهُ
دَيْنٌ فَتَطْلُبُوهُ بِهِ ، أَوْ ثَأْرٌ تُرِيدُونَ أَنْ تُدْرِكُوهُ ، أَوْ كَفَلْتُ لَكُمْ بِهِ ، فَإِذَا غَابَ طَالِبُ التَّمَوْنِ
بِإِحْضَارِهِ ؛ قَالُوا : لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا ، وَإِنَّمَا أَرَدْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ ، فَقَالَ : هُوَ رَجُلٌ
يَعْنِي لِي وَلَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِي ، فَقَالُوا لَهُ : إِلَى مَتَى ؟ فَقَالَ : مَذِ يَوْمٍ وَلَدٍ إِلَى أَنْ يَمُوتَ . وَذَكَرَ
أَيْضًا فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ « الْبَرْدَانِ » فَقِيلَ لَهُ : يَا أَبَا مَعَاذٍ ، أَيْنَ الْبَرْدَانِ هَذَا ؟ لَسْنَا نَعْرِفُهُ
بِالْبَصْرَةِ ، فَقَالَ : هُوَ بَيْتٌ فِي بَيْتِي سَمَّيْتُهُ بِالْبَرْدَانِ ، أَفَعَلَيْكُمْ مِنْ تَسْمِيَّتِي دَارِي وَبَيْوتَهَا شَيْءٌ
فَتَسْأَلُونِي عَنْهُ ؟ .

قَالَتْ أَمْرَأَةٌ لِبَشَّارٍ : أَيُّ رَجُلٍ أَنْتَ لَوْ كُنْتَ أَسْوَدَ اللَّحْيَةِ وَالرَّأْسِ ، قَالَ : أَمَا عَلِمْتِ
أَنْ يَبِضَ الْبُرْءَةُ أَشْهَرُ مِنْ سَوْدِ الْغُرْبَانِ ؟ فَقَالَتْ لَهُ : أَمَا قَوْلُكَ خَسَنٌ فِي السَّمْعِ ، وَمِنْ لَكَ
بَأَنْ يَحْسُنَ شَيْئُكَ فِي الْعَيْنِ كَمَا حَسَنَ قَوْلُكَ فِي السَّمْعِ ؟ فَكَانَ بَشَّارٌ يَقُولُ : مَا أَخْفَمَنِي قَطُّ غَيْرُ
هَذِهِ الْمَرْأَةِ .

دَعَا رَجُلٌ إِلَى مَنَزَلِهِ فَأَكَلَ وَشَرِبَ ، وَلَمَّا أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ قَامَتْ جَارِيَةٌ لِلرَّجُلِ وَأَخَذَتْ
بِيَدِهِ ، فَلَمَّا صَارَ بِالصَّحْنِ أَوْ مَا إِلَيْهَا لُقِبَلَهَا ، فَأَرْسَلَتْ يَدَهَا مِنْ يَدِهِ ، بِفَعْلٍ يَجُولُ فِي الْعَرِصَةِ
وَخَرَجَ مَوْلَى الْجَارِيَةِ فَقَالَ : مَا لَكَ يَا أَبَا مَعَاذٍ ؟ فَقَالَ : أَذْنَبْتُ ذَنْبًا وَلَا أُبْرَحُ أَوْ أَقُولُ شَعْرًا ،
فَقَالَ :

أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنَ السَّيِّئَاتِ * وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ فَعَلَتِي
مَتَاوَلْتُ مَا لَمْ أُلِدْ نَيْلَهُ * عَلَى جَهْلٍ أَمْرِي وَفِي سَكْرَتِي

ووالله والله ما جئته * لِعَمْدٍ ولا كان من همتي
 وإلا فَمِتُّ إِذَا ضائعا * وَعَذَّبَنِي اللهُ فِي مَيَّتِي
 فمن نال خَيْرًا على قُبْلَةٍ * فلا بَارِك اللهُ فِي قُبْلَتِي

لما كثر استهتار نساء البصرة وشبابها بشعر بشار، وقال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار: ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى، وما زالا يعظانه وكان واصل بن عطاء يقول: إن من أخدع حباثل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملاحد، فلما كثر ذلك وأتته خبره إلى المهدي تنهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب، وكان المهدي من أشد الناس غيرة، فقال في ذلك:

يا مَنْظَرًا حَسَنًا رَأَيْتُهُ * فِي وَجْهِ جَارِيَةٍ فَدَيْتُهُ
 بَعَثْتُ إِلَى تَسْوُمِي * ثَوْبَ الشَّبَابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
 وَاللَّهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ * مَا إِنْ غَدَرْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ
 أُمَسَكْتُ عَنْكَ وَرَبِّمَا * عَرَضَ الْبَلَاءُ وَمَا أَبْتَغَيْتُهُ
 إِنْ الْخَلِيفَةُ قَدْ أَبَى * وَإِذَا أَبِي شَيْئًا أَبَيْتُهُ
 وَمُحَضَّبٍ رَخِصَ الْبَنَى * نَبِيَّ بَكَى عَلَيَّ وَمَا بَكَيتُهُ
 وَيَشُوقِي بِنْتُ الْحَبِيدِ * بِي إِذَا آذَكَرْتُ وَأَيْنَ بَيْتُهُ
 قَامَ الْخَلِيفَةُ دُونَهُ * فَصَبَرْتُ عَنْهُ وَمَا قَلَيْتُهُ
 وَنَهَانِي الْمَلِكُ الْهَمَا * مُمْ عَنْ النِّسَاءِ وَمَا عَصَيْتُهُ
 لَا بَلْ وَفَيْتُ فَلَمْ أُضِعْ * عَهْدًا وَلَا رَأْيَا رَأَيْتُهُ
 وَأَنَا الْمُطَّلَّ عَلَى الْعِدَا * وَإِذَا غَلَا الْحَمْدُ أَشْتَرَيْتُهُ
 أَصْفَى الْخَلِيلَ إِذَا دَنَا * وَإِذَا نَأَى عَنِّي نَأَيْتُهُ
 وَأُمِيلُ فِي أَنْسِ التَّدِيدِ * سَمٍ مِنَ الْحَيَاءِ وَمَا أَشْتَهَيْتُهُ
 وكان الخليل بن أحمد ينشد هذه الأبيات ويستحسنها ويعجب بها.

وكان لبشار خمسة نُدَماء، فمات منهم أربعة وبقى واحد يقال له : البراء، فركب في زورق يُريد عبور دجلة العوراء ففرق، فكان بشار يقول : ما خير في الدنيا بعد الأصدقاء، ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يَا بْنَ مُوسَى مَاذَا يَقُولُ الْإِمَامُ * فِي فِتَاةٍ بِالْقَلْبِ مِنْهَا أَوَامُ
بَثُّ مَنْ حَبَّهَا أَوْ قَرُّ بِالْكَأ * سَ وَيَهْفُو عَلَى فُؤَادِي الْهِيَامُ
لَمْ يَكُنْ بَيْنَهَا وَبَيْنِي إِلَّا * كُتُبُ الْعَاشِقِينَ وَالْأَحْلَامُ
يَا بْنَ مُوسَى أَسْقِنِي وَدَعْ عَنْكَ سَلَمِي * إِنَّ سَلَمِي حَمِيٌّ وَفِيَّ احْتِشَامُ
رَبِّ كَأْسٍ كَالسَّلْسِيلِ تَعَلَّدَ * ثَبَّهَا وَالْعِيُونُ عَنِّي نِيَامُ
حُبِسْتُ لِلشُّرَاةِ فِي بَيْتِ رَأْسٍ * عَتَقْتُ عَائِسًا عَلَيْهَا الْخِتَامُ
نَفَحْتُ نَفْحَةً فَهَزَّتْ نَدِيمِي * بِنَسِيمٍ وَأَنْشَقَّ عَنْهَا الزُّكَامُ
وَكَأَنَّ الْمَعْلُولَ مِنْهَا إِذَا رَا * حَ شَجٍّ فِي لِسَانِهِ بَرَسَامُ
صَدَمَتْهُ الشُّمُولُ حَتَّى بَعِيدَ * هَ أَنْكَسَارٌ وَفِي الْمَفَاصِلِ خَامُ
وَهُوَ بَاقٍ الْأَطْرَافَ حَيْثُ بِهِ الْكَأُ * سُ وَمَاتَتْ أَوْصَالُهُ وَالْكَلَامُ
وَفَتَى يَشْرَبُ الْمُدَامَةَ بِالْمَا * لَ وَيَمْشِي يَرُومُ مَا لَا يُرَامُ
أَنْفَدْتُ كَأْسَهُ الدَّنَانِيرَ حَتَّى * ذَهَبَ الْعَيْنُ وَأَسْتَمَرَ السَّوَامُ
تَرَكَتُهُ الصَّبَاءُ يَرْنُو بَعِينَ * نَامَ إِنْسَانُهَا وَلَيْسَتْ تَنَامُ
جُنَّ مِنْ شَرِبَةٍ تُعَلِّ بِأُخْرَى * وَبَكَى حِينَ سَارَ فِيهِ الْمُدَامُ
كَانَ لِي صَاحِبًا فَأَوْدَى بِهِ الدَّهْدُ * سُرُّ وَفَارَقْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
بَقِيَ النَّاسُ بَعْدَ هُلُكَ نَدَامَا * يَ وَقُوعَا لَمْ يَشْعُرُوا مَا الْكَلَامُ
بَحْزُورِ الْأَيْسَارِ لَا كَيْدٌ فِيهِ * مَا لِي بَاغٍ وَلَا عَلَيْهَا سَنَامُ

(١) بيت رأس : قرية بالشام من قرى حلب ينصب إليها الخمر .
(٢) البرسام : علة يهذى فيها وهو
دوم حار يعرض للهباب الذي بين الكبد والأمعاء ثم يتصل إلى الدماغ .
(٣) صحت بالإدغام لغة في صي
كرض .
(٤) الأيسار : جمع يسر وهو الاصبع بالفتح .

يا بن موسى قَدَّ الحبيب على العيد * بن قَدَاة وفي الفؤاد سَقَام
 كيف يصفو لي النعيم وحيداً * والأخلاء في المقابر هَام
 نَفْسَتَهُمْ عَلَى أُمِّ الْمَنَايَا * فَأَنَامَتُهُمْ بَعُفٍ فَنَامُوا
 لَا يَغِيضُ أَنْسَجَامُ عَيْنِي عَلَيْهِمْ * إِنَّمَا غَايَةُ الْحَزِينِ السَّجَامُ
 وقال في نهى الخليفة إياه عن ذكر النساء :

والله لولا رضا الخليفة ما * أعطيتُ ضِيماً على في شَجَن
 وربما خَيْرَ لَابْنِ آدَمَ فِي الْإِلَ * كَرَهُ وَشَقَّ الْهَوَى عَلَى الْبَدَن
 فَاشْرَبُ عَلَى أُنْبَةِ الزَّمَانِ فَا * تَلْقَى زَمَاناً صَافَا مِنَ الْأَبْنِ
 اللَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ فَوَاضِلِهِ * وَالْمَرْءُ يُغْضِي عَيْنًا عَلَى الْكُنْ
 قَدْ عَشْتُ بَيْنَ الرِّيحَانِ وَالزَّوْجِ * هَرَى فِي ظِلِّ مَجْلِسِ حَسَنِ
 وَقَدْ مَلَأْتُ الْبِلَادَ مَا بَيْنَ يَغْبِ * وَرَى إِلَى الْقَيْرَوَانِ فَالْمِينِ
 شِعْراً تُصَلِّي لَهُ الْعَوَاتِقُ وَالشُّ * يَبُ صِلَاةَ الْغَوَاةِ لِلْوَثَنِ
 ثُمَّ نَهَانِي الْمَهْدَى فَأَنْصَرَفْتُ * نَفْسِي صَنِيعَ الْمَوْفِقِ اللَّقْنِ
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ * لَيْسَ بَبَاقٍ شَيْءٌ عَلَى الزَّمَنِ

وأنشد المهدي قصيدته التي أولها :

تَجَالَلْتُ عَنْ فَهْرٍ وَعَنْ جَارَتِي فَهْر * وَودَعْتُ نِعْمًا بِالسَّلَامِ وَبِالْبِشْرِ
 وَقَالَتْ سُلَيْمَى فَيْكَ عَنَّا جَلَادَةٌ * مَحَلَّكَ دَانٍ وَالزِّيَارَةُ عَنْ عَفْرِ
 أَخَى فِي الْهَوَى مَالِي أُرَاكَ جَفَوْتَنَا * وَقَدْ كُنْتَ تَقْفُونَا عَلَى الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
 تَنَاقَلْتَ إِلَّا عَنْ يَدٍ أَسْتَفِيدُهَا * وَزَوْرَةَ أَمْلَاكِ أَشَدَّ بِهَا أَزْرَى
 وَأَخْرَجَنِي مِنْ وَزْرِ خَمْسِينَ حِجَّةً * فَتَى هَاشِمِيٍّ يَقْشَعِرُّ مِنَ الْوِزْرِ

(١) نفسهم : محصلتهم . (٢) الكمن واحد كمنه وهي جوب وحرة تبقى في العين من رند يساء علاجه .

(٣) العفر : لغة الزيادة ، يقال : ما تأثرت إلا من عفر أي بعد لغة الزيادة وطول عهد .

دَفَنْتُ الهوى حَيًّا فَلَسْتُ بِزَائِرٍ * سَلِمِي وَلَا صَفْرَاءَ مَا قَرَّ قَرَّ الْقَمَرِي
وَمُضَفَّرَةً بِالزَّعْفَرَانِ جَلُودَهَا * إِذَا أَجْتُ لَيْتَ مِثْلَ الْمَفْرُطَةِ الصَّفَرِ
فَرَبِّ نَقَالِ الرَّدْفِ هَبَّتْ تَلَوْنِي * وَلَوْ شَهِدْتُ قَبْرِي لَصَلَّتُ عَلَى قَبْرِي
تَرَكْتُ لِمَهْدَى الْأَنَامِ وَصَالَهَا * وَرَاعَيْتُ عَهْدًا بَيْنَنَا لَيْسَ بِالْخَشَرِ
وَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * لَقَبَلْتُ فَاها أَوْ لَكَانَ بِهَا فِطْرِي
لَعَمْرِي لَقَدْ أَوْقَرْتُ نَفْسِي خَطِيئَةً * فَمَا أَنَا بِالْمُزْدَادِ وَقَرًا عَلَى وَقَرِ
تَسْلَى عَنِ الْأَحْبَابِ صَرَامُ خُلَّةٍ * وَوَصَالُ أُخْرَى مَا يُقِيمُ عَلَى أَمْرِ
وَرَكَّاضِ أَفْرَاسِ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى * بَحْرَتِ حِجَابًا ثُمَّ أَسْتَقَرْتُ فَلَا تَجْرِي
فَأَصْبَحْنِ مَا يُرَكِّبُنِ إِلَّا إِلَى الْوَعَى * وَأَصْبَحْتُ لَا يُزْرَى عَلَى وَلَا أُزْرَى
فَهَذَا وَإِنِّي قَدْ شَرَعْتُ مَعَ التَّقَى * وَمَاتَ هُمُومِي الطَّارِقَاتِ فَمَا تَسْرَى

ثم قال يصف السفينة :

وَعِذْرَاءٌ لَا تَجْزَى بِلَحْمٍ وَلَا دَمٍ * قَلِيلَةٌ شَكْوَى الْآيْنِ مُلْجَمَةُ الدُّبْرِ
إِذَا ظَلَعَتْ فِيهَا الْفُلُوكُ تَشَخَّصَتْ * بِفُرْسَانِهَا لَا فِي وُعُوثٍ وَلَا وَغْرِ
وَإِنْ قَصَصَدَتْ زَلَّتْ عَلَى مَتْنَصِبٍ * ذَلِيلُ الْقَوَى لَا شَيْءَ يَقْرَى كَمَا تَقْرَى
تُلَاعِبُ تَيَّارَ الْبُحُورِ وَرَبْمَا * رَأَيْتَ نَفُوسَ الْقَوْمِ مِنْ جَرِيهَا تَجْرَى
إِلَى مَلِكٍ مِنْ هَاشِمٍ فِي نُبُوءَةٍ * وَمِنْ حِمِيرٍ فِي الْمُلْكِ وَالْعَدَدِ الدُّثْرِ^(٢)
مِنَ الْمُشْتَرِينَ الْحَمْدَ تَنْدَى مِنَ النَّدَى * يَدَاهُ وَيَنْدَى عَارِضَاهُ مِنَ الْعِطْرِ
فَالزَّمْتُ حَبْلِي حَبْلَ مَنْ لَا تُغْبِيهِ * عُقَاةُ النَّدَى مِنْ حَيْثُ يَدْرِي وَلَا يَدْرِي
بَنَى لَكَ عَبْدُ اللَّهِ بَيْتَ خِلَافَةٍ * نَزَلَتْ بِهَا بَيْنَ الْفَرَاقِدِ وَالنَّسْرِ
وَعِنْدَكَ عَهْدٌ مِنْ وَصَاةِ مُحَمَّدٍ * فَرَعَتْ بِهِ الْأَمْلاكَ مِنْ وَلَدِ النَّضْرِ

(١) كان قد قال : نينان البحور، فعابه بذلك سيبويه ، فجعله تيار البحور .

(٢) الدثر : الكثرة .

ولما أنشد الوليد بن يزيد قول بشار :

أيها السَّاقِيَانِ صَبَا شَرَابِي * وَأَسْقِيَانِي مِنْ رِيْقٍ بِيضَاءِ رُودِ^(١)
 إِنْ دَائِي الظَّمَا وَإِنْ دَوَائِي * شَرِبُهُ مِنْ رُضَابٍ تُغَيِّرُ بُرُودِ
 وَلَهَا مَضْحَكٌ كَفَتْ الْأَفَاحِي * وَحَدِيثٌ كَالْوَشْيِ وَشْيِ الْبُرُودِ
 نَزَلَتْ فِي السَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ الْقَدِ * سَبِ وَنَالَتْ زِيَادَةَ الْمُسْتَرِيدِ
 ثُمَّ قَالَتْ نَلْقَاكَ بَعْدَ لَيْلٍ * وَاللَّيَالَى يُبْلِيَتْ كُلَّ جَدِيدِ
 عِنْدَهَا الصَّبْرُ عَنْ لِقَائِي وَعِنْدِي * زَفَرَاتٌ يَأْكُلْنَ قَلْبَ الْحَدِيدِ

طرب الوليد وقال : من لي بمنزج كأسه هذه من ريق سلمي ، فيروى ظمئي ، وتطفأ غلتي ،
 ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه ، وقال : إن فاتنا ذلك فهذا .

مدح بشار خالد بن برمك فقال فيه :

لعمري لقد أجدي على ابن برمك * وما كل من كان الغنى عنده يُجدي
 حَلَبْتُ بِشَعْرِي رَاحِيَتَهُ فَدَرَّتَا * سَمَاحًا كَمَا دَرَّ السَّحَابُ مَعَ الرَّعْدِ
 إِذَا جَتَّهَ لِلْحَمْدِ أَشْرَقَ وَجْهُهُ * إِلَيْكَ وَأَعْطَاكَ الْكَرَامَةَ بِالْحَمْدِ
 لَهُ نِعَمٌ فِي الْقَوْمِ لَا يَسْتَنْبِيهَا * بَرَاءً وَكَيْلَ التَّاجِرِ الْمُدَّةَ بِالْمُدَّةِ
 مُفِيدٌ وَمِثْلَافٌ سَبِيلُ ثَرَاتِهِ * إِذَا مَا غَدَا أَوْ رَاحَ كَالْجَزْرِ وَالْمُدَّةِ
 أَخَالِدُ إِنْ الْحَمْدَ يَبْقَى لِأَهْلِهِ * جَمَالًا وَلَا تَبْقَى الْكَنُوزُ عَلَى الْكَدِّ
 فَاطْعِمُ وَكُلْ مِنْ عَارَةِ مُسْتَرَدَّةٍ * وَلَا تُبْقِهَا إِنْ الْعَوَارِي لِلرَّدِّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه في كل وفادة خمسة آلاف درهم ،
 وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه ، وقال ابنه يحيى
 ابن خالد : آخر ما أوصاني به أبي العمل بهذين البيتين .

(١) الرود : الشابة الحسنة الناعمة .

وكان إسحاق الموصلي يطعن على شعر بشار ويضع منه، ويدكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضاً، فقليل له : أتقول هذا لمن يقول :

إذا كنت في كل الأمور مُعَاتِباً * صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فِعْشَ واحدًا أَوْصِلْ أَخاك فإنه * مُقَارِفٌ ^(١) ذنب مرّة ومُجَانِبُهُ
إذا أنت لم تشرب مراراً على القَدَى ^(٢) * ظَمِئْتَ وأى الناس تصفو مشاربهُ

وهي من غرر قصائده، مدح بها عمر بن هبيرة، ومنها قوله :

يخاف المنيا إن ترحلت صاحبي * كأن المنيا في المقام تُنَاسِبُهُ
فقلت له إن العراق مُقَنَّمُهُ * وخيم إذا هبت عليك جنائبهُ
لألقى بني عيلان إن فعالمهم * تزيد على كل الفغال مراتبهُ
أولاك الألى شقوا العمى بسيوفهم * عن العين حتى أبصر الحق طالبه
وجيش كنجح الليل يزحف بالحصا * وبالشوك والخطى حمراً تغالبهُ
غدونا له والشمس في خدر أمها * تطالعا والطل لم يخر ذائبهُ
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه * وتذكر من نجى الفراع مثالبهُ
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا * وأسياقنا ليل تهاوى كواكبهُ
بعثنا لهم موت الفجاءة إتنا * بنو الموت حقائق علينا سبائبهُ ^(٣)
فراحوا فريق في الإِسَارِ ومثله * قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربهُ

ومنها :

إذا الملك الجبار صعر خده * مشينا إليه بالسيوف نعاتبهُ
رويداً تصاهل بالعراق جنادنا * كأنك بالضحك قد قام نادبهُ
وسام لمروان ومن دونه الشجا * وهول كلج البحر جاشت غواربهُ

(١) مقارِف ذنب : مخالطه ومركبه من قارف الخطيئة إذا خالطها . (٢) القدى : ما يسقط

في الشراب من ذباب أو غيره . (٣) السبائب : جمع سبيبة ، وهي شقة من الكنان رفيقة يريد بها الألوية .

أحلت به أم المنايا بناتها * بأسيا فإنا إنا ردَى من نحارب
وكنا إذا دب العدو لسخطنا * ورأقنا في ظاهري لا نراقبه
ركبنا له جهرا بكل مثقف * وأبيض تستسق الدماء مضاربه
ومنها :

فلما تولى الخى وأعتصر الثرى * لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
وطارت عصافير الشقائق وأكنسى * من الآل أمثال المجرة ناضبه
غدت عانة تشكو بأبصارها الصدى * الى الجأب إلا أنها لا تخاطبه
ومن حسن شعره :

لو كنت تلقين ما تلقى قسمت لنا * يوما نعيش به منكم وتنبه
لا خير في العيش إن كنا كذا أبدا * ما فى التلاقى ولا فى قبلة حرج
من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
أشكو إلى الله هما ما يفارقي * وشرعاً فى فؤادى الدهر تعالج
وقال يهجو عبيد الله بن قزعة :

خيلى من كعب أعينا أخا كما * على دهره إن الكريم معين
كان عبيد الله لم يلق ماجدا * مخافة أن يرجو نداء حزين
ولا يتجلا بخل ابن قزعة إنه * ولم يدر أن المكرمات تكون
فقل لأبي يحيى متى تدرك العلا * وفى كل معروف عليك يمين
إذا جئتته فى حاجة سد بابيه * فلم تلقه إلا وأنت كمين

وفد على خالد بن برمك فأنشده :

أخالد لم أخيط اليك بذمة ^(٢) * سوى أنى عاف وأنت جواد
أخالد بين الأجر والحمد حاجتى * فأيهما تأتى فانت عماد

(١) العانة : القطعة من الجمير . والجأب : ذكرها ، ومعنى شكواها الصدى بأبصارها أن العطش قد تبين فى أحداقها
فغارت ، وهذا من أحسن ما وصف به الحمار والأتن . (٢) أى لم اطلب مغروفاك متوسلا اليك بعهدة أو قرابة .

فإن تُعْطَى أُفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي * وإن تَأْب لم يُضْرَبْ عَلَى سِدَادٍ
رَكَابِي عَلَى حَرْفٍ وَقَلْبِي مَشِيعٌ * ومَالِي بَارِضِ الْبَاخِلِينَ بِلَادٍ
إذا أَنْكَرْتَنِي بِلَدَّةً أَوْ نَكِرْتُمَا * نَحَرَجْتَ مَعَ الْبَازِي عَلَى سَوَادٍ

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار في أربعة أكياس، فوضع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله،
وآخرين يديه، وآخر خلفه، وقال: يا أبا معاذ، هل أَسْتَقِلَّ الْعِمَاد؟ فلمَسَ الْأَكْيَاسَ ثم قال:
استقلَّ والله أيها الأمير.

قال أَبَانُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ: نَزَلَ فِي ظَاهِرِ الْبَحْرَةِ قَوْمٌ مِنْ أَعْرَابِ قَيْسِ بْنِ عِيلَانَ،
وَكَانَ فِيهِمْ بَيَانٌ وَفَصَاحَةٌ، فَكَانَ بَشَّارٌ يَأْتِيهِمْ وَيَنْشُدُهُمْ أَشْعَارَهُ الَّتِي يَمْدَحُ بِهَا قَيْسًا، فَيَجْلُوْنَهُ
لِذَلِكَ وَيَعْظُمُونَهُ، وَكَانَ نِسَاؤُهُمْ يَجْلِسْنَ مَعَهُ وَيَتَحَدَّثْنَ إِلَيْهِ وَيَنْشُدُهُنَّ أَشْعَارَهُ فِي الْغَزْلِ،
وَكُنْتُ كَثِيرًا مَا أَتَى فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ فَاسْمَعُ مِنْهُ وَمِنْهُمْ، فَأَتَيْتُهُمْ يَوْمًا فَاذَاهُمْ أَرْتَحِلُوا، فَخُشْتُ
إِلَى بَشَّارٍ فَقُلْتُ: يَا أبا معاذ: أَعْلِمْتَ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ أَرْتَحِلُوا؟ قَالَ: لَا، فَقُلْتُ: فَاعْلَمْ، قَالَ:
قَدْ عَلِمْتَ لَا عَلِمْتَ، وَمَضَيْتُ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَيَّامٍ سَمِعْتُ النَّاسَ يَنْشُدُونَ:

دعا بفراقٍ مِنْ تَهَوَّى أَبَانُ * ففاض الدَّمْعُ وَأَحْتَرَقَ الْجَنَانُ
كَأَنَّ شَرَارَةً وَقَعَتْ بِقَلْبِي * لها في مَقَلَّتِي وَدَمِي أَسْتِنَانُ
إذا أَنْشَدْتُ أَوْ نَسَمْتُ عَلَيْهَا * رِيَّاحُ الصَّيْفِ هَاجَ لَهَا دُخَانُ

فعلمت أنها لبشار، فأثبته فقالت: يا أبا معاذ، ما ذنبي إليك؟ قال: ذنبُ غرابِ البَيْنِ،
فقلت: هل ذكرتني بغير هذا؟ قال: لَا، فقلت: أَتُشَدِّدُكَ اللَّهُ أَلَّا تَزِيدَ، فقال: أَمْضُ
لِشَأْنِكَ فَقَدْ تَرَكْتُكَ.

مدح بَشَّارُ الْمَهْدِيِّ فَلَمْ يُعْطِهِ شَيْئًا، فَقِيلَ لَهُ: لَمْ يَسْتَجِدْ شَعْرَكَ، فقال: والله لقد
قلتُ فِيهِ شَعْرًا لَوْ قِيلَ فِي الدَّهْرِ لَمْ يُخْشَ صَرْفُهُ عَلَى أَحَدٍ، وَلَكِنَّا نَكْذِبُ فِي الْقَوْلِ فَيَكْذِبُ
فِي الْأَمَلِ.

مدح بشار سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان مقياً بحران وخرج اليه ، فأنشده قوله

فيه :

نَأْتِكَ عَلَى طُولِ التَّجَاوُرِ زَيْنَبُ * وما شعرت أن النوى سوف تَشَعْبُ
يرى الناس ما تلقى بزَيْنَبٍ إِذْ نَأَتْ * عَجِيباً وما تُخْفِي بزَيْنَبٍ أَعْجَبُ
وقائلةٍ لِي حِينَ جَدَّ رَحِيلُنَا * وَأَجْفَانُ عَيْنِهَا تَجْوُدُ وَتَسْكُبُ
أَعَادَ إِلَى حَرَّانٍ فِي غَيْرِ شِيعَةٍ * وَذَلِكَ شَاوُءٌ عَنْ هَوَاهَا مُغْرِبُ
فَقُلْتُ لَهَا كَلَفْتَنِي طَلَبَ الْغِنَى * وَلَيْسَ وَرَاءَ ابْنِ الْخَلِيفَةِ مَذْهَبُ
سَيَكْفِي قَتَى مِنْ سَعِيهِ حَدُّ سَيْفِهِ * وَكَوْرُ عَلَافٍ^(١) وَوَجْنَاءُ ذَعْلَبِ^(٢)
إِذَا اسْتَوْغَرْتُ دَاراً عَلَيْهِ رَمَى بِهَا * بَنَاتُ الصَّوَى مِنْهَا رُكُوبٌ وَمُضْعَبُ
فَعَدَى إِلَى يَوْمٍ آرْتَحَلْتُ وَسَائِلِي * بَزُورِكَ وَالرَّحَالُ مِنْ جَاءٍ يَضْرِبُ
لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَيْقِنِي أَنْ زَوْرَتِي * سُلَيْمَانَ مِنْ سِيرِ الْهَوَاجِرِ تَعْقِبُ
أَغْرَتْ هِشَامِي الْقَنَاءَ إِذَا آتَيْتِي * نَمَتْهُ بَدُورٌ لَيْسَ فِيهِنَّ كَوْكَبُ
وَمَا قَصَدْتُ يَوْمًا خَلِيلِينَ خِيْلُهُ * فَتَضَرَّفَ إِلَّا عَنْ دِمَاءٍ تَصَبَّبُ

فوصله سليمان بخمسة آلاف درهم ، وكان يَخْلُ ، فلم يَرْضَهَا وَأَنْصَرَفَ عَنْهُ مُغْضَبًا ،

فقال :

إِنْ أَمَسَ مِنْقَبُضُ الْيَدَيْنِ عَنِ النَّدَى * وَعَنِ الْعَدُوِّ نَحْيَسُ الشَّيْطَانِ
فَلَقَدْ أُرُوحَ عَلَى اللَّثَامِ مَسْلَاطًا * تَلْجُ الْمَقِيلُ مِنْعَمُ النَّدْمَانِ
فِي ظِلِّ عَيْشٍ عَشِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ * تَنْدَى يَدِي وَيُخَافُ فَرْطُ لِسَانِي
أَزْمَانُ خَيْبَتِي الشَّبَابُ مَطَاوِعُ * وَإِذَا الْأَمِيرُ عَلَى مَنْ حَرَّانُ
رِيمٌ بِأُخُوِيَّةِ الْعِرَاقِ إِذَا بَدَا * بَرَقَتْ عَلَيْهِ أَكِلَةُ الْمَرْجَانِ
فَاتَّحَلَّ بِعَبْدَةِ مَقْلَتِكَ مِنَ الْقَدَى * وَيَوْشَكَ رُؤَيْتَهَا مِنَ الْهَمَلَانِ
فَلَقَرْتُ مِنْ تَهْوَى وَأَنْتَ مَتِيمٌ * أَشْفَى لِدَائِكَ مِنْ بَنِي مَرْوَانَ

(١) العلاف : الرجل العظيم . (٢) وجناء ذعب أى ناقة شديدة سريعة .

قديم بشار على المهديّ بالرصافة فدخل عليه في البستان، فأنشده مديحا فيه تشييب
حسن، فنهاه عن التشييب لغيره شديدة كانت فيه، فأنشده مديحا يقول فيه :

كأنما جثته أبشره * ولم أجيء راغبا ومُحتابا
يزين المنبر الأشم بعطفيه * وأقواله إذا خطبا
تشم نعلاه في الندي كما * يشم ماء الرياح منتها

قال : وقد طلب منه أن ينشده شيئا من غزله :

وقائل هات شوقنا فقلت له * أنا ثم أنت يا عمرو بن سمن
أما سمعت بما قد شاع في مضر * وفي الحليفين من بكرٍ وخيطان
قال الخليفة لا تنسب بجارية * إياك إياك أن تشقى بعضيان

وقال له المهديّ : قل في الحب شعرا ولا تطل، وأجعل الحب قاضيا بين المحبين

لا تُسم أحدا، فقال :

أجعل الحب بين حبي وبيني * قاضيا إنني به اليوم راض
فاجتمعنا فقلت يا حب نفسي * إن عيني قيلة الإغماض
أنت عذبتني وأنحلت جسمي * فأرحم اليوم دائم الأمراض
قال لي لا يحلّ حكى عليها * أنت أولى بالسقم والإعراض
قلت لما أجبني بهواها * شمل الجور في الهوى كل قاض

فبعث إليه المهديّ : حكمت علينا ووافقنا ذلك، فأمر له بألف دينار .

وقال بشار في عشق السمع :

يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة * والأذن تمسق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم * الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
هل من دواء لمشغوفٍ بجارية * يلقى بلقيائها روحا وريحانا

وقال في مثل ذلك :

قالت عُقَيْلُ بن كعب إذ تعلقها * قلبي فأضحى به من حبها أثرُ
أنى ولم ترها تهذى فقلتُ لهم * إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصرُ
أصبحتُ كالحائم الحيران مجتنباً * لم يقض وردا ولا يرجى له صدرُ

وقال :

يزهّدنى في حبّ عبدة معشر * قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلتُ دعوا قلبي وما أختار وأرتضى * فبالقلب لا بالعين يُبصر ذو الحبّ
فما تبصر العينان في موضع الهوى * ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كلّ حسن دعا الصبا * وألف بين العشق والعاشق الصبّ

وقال :

يا قلب مالى أراك لا تقر * إياك أعنى وعندك الخبرُ
أذعت بعد الألى مضوا حرقاً * ما ضاع ما استودعوك إذ بكروا

وقال :

إن سُلَيْمى والله يكلؤها * كالسكر يزداد على السكر
بلغتُ عنها شكلا فأعجبني * والسمعُ يكفيك غيبة البصر

وقال وقد مدح المهديّ فخرمه :

خليلى إن العسر سوف يُفِيق * وإن يسارا في غد خَلِيق
وما كنتُ إلا كالزمان إذا صحا * صحوْتُ وإن ماق الزمان أموق^(١)
أدماء لا أسطيع في قلة الثرا * خُزوزاً ووَشياً والقليل محيق
خذى من يدى ما قل إن زماننا * شُمُوسٌ ومعروفُ الرجال رقيق
لقد كنتُ لأرضى بأدنى معيشة * ولا يَشْتكى بخلاً على رقيق

(١) ماق : حق في غباوة .

خَلِيلِيَّ إِنِّ الْمَالُ لَيْسَ بِنَافِعٍ * إِذَا لَمْ يَنْلِ مِنْهُ أَخٌ وَصَدِيقٌ
 وَكَنتُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيَّ مَحَلَّةٌ^(١) * تَقِمُّتُ أُخْرَى مَا عَلَيَّ تَضِيقٌ
 وَمَا خَابَ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ عَامِلٌ * لَهُ فِي التَّقَى أَوْفَى الْمَحَامِدِ سُوقٌ
 وَلَا ضَاقَ فَضْلُ اللَّهِ عَنْ مُتَعَفِّفٍ * وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ

هجا بشار يعقوب بن داود وزير المهديّ فقال :

بَنِي أُمَيَّةَ هُبُوا طَالَ نَوْمُكُمْ * إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ^(٢)
 ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ يَا قَوْمَ فَاتَّقُوا * خَلِيفَةُ اللَّهِ بَيْنَ النَّاسِ وَالْعُودُ
 فَاتَمَّهَ عِنْدَ الْمَهْدِيِّ بِالزَّنْدَةِ وَقَالَ : إِنَّهُ قَدْ هَجَا الْمَهْدِيَّ ، فَأَمَرَ ، فَضُرِبَ بِالسَّيَاطِ حَتَّى مَاتَ .

(١) المحلة : منزل القوم . (٢) أصله من الموالي ، وقد استوزره الخليفة المهديّ وسلّمه الأمور كلها
 واشتغل هو باللهو .

٢ - حمادُ عَجَرْدُ^(١)

«ولو أتى أحببت أن أختص حمادا بوصفته قبل كل شيء بحدة الطبع، وسوء الخلق، وحب الانتقام، والإسراع إليه، ثم بالصراحة في القول، والملاءمة بينه وبين العمل، وبكره النفاق والأنصاف عنه، لا يعنيه أَرْضَى الناس عنه أم خَطَوا عليه، ثم بحدة اللسان ومُضِيَّه وإفداعه وكَلَفِه بفاحش القول وبجته عن أسوئه وأقبحه، ثم بالسُّخْرِيَّة من الناس وأزدرائهم، لا على أنه يَتَّخِذُ ذلك فلسفةً وأصلاً من أصول الحياة كالوليد ومطيع وأبى نُوَّاس، بل على أنه يَتَّخِذُ ذلك وسيلةً من وسائل الشعراء يَخْلُصُ بها كلما ضاقت عليه المذاهب وأخَذَتْ عليه، أو دَعَتْهُ إلى ذلك حاجةٌ. لم يكن حمادُ يَحْفَلُ بما يَحْفَلُ به الناس من الوفاء والأنصاف عن التناقض، وإنما كان صديقاً مُخْلِصاً حتى تبدوله حاجة أو تَسَنَّحَ له فرصة أو تضطره ضرورة؛ فإذا صدَّقته قد استحالت إلى عَدَاءٍ، وإذا هو ليس أَقَلَّ صِدْقاً وإخلاصاً في العَدَاءِ منه في المودة والحُب: فقد مدح يحيى بن زياد وأتخذ صديقاً ونال جَوَائِزَهُ، ثم كان الخِلافَ فَهَجَاهُ. وصادقَ بَشَّاراً وصافاه، ثم آخِطَما فلم يَعْرِفا في الخصومة رحمة ولا رِفْقاً. وصافى مُطِيعاً وأحبّه ومدَّحه وأكثر في الثناء عليه، ثم آخِطَما في امرأةٍ مرَّةً وفي غلامٍ مرَّةً أخرى، فَهَجَاهُ وأقْدَعَ في هجائه. وكان على هذا كله يؤثر شعره وضروراته على البرِّ بالناس في معاملتهم: هجا ذات يوم رجلاً يقال له حُشَيْشٌ وجعل اسمه قافيةً لهذا الشعر وأراد أن يبالغ في دَمِّه فشَبَّهه بِحُشَيْشٍ، وكان بِحُشَيْشٍ هذا رجلاً من أهل البصرة

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولى عامر بن صعصعة. نشأ في الكوفة ثم واسط. وعاصر الدولتين، لكنه نبغ في الدولة العباسية بعد أن نادى الوليد بن يزيد الأموي. وجاء بفساد أيام المهدي ومعه مطيع بن إياس ويحيى بن زياد، وكلهم من المتهمين في دينهم. وحماد من الشعراء المحيذين، وكان ماجناً ظريفاً خليعاً متبهاً في دينه مرمياً بالزندقة. وأدركه بشار بن برد وله معه أهاج فاحشة، ولم يكن يهاب كبيراً ولا صغيراً، عالماً كان أو خليفة. توفي سنة ١٦١ هـ. ونجد ترجمته في الأغاني (ج ١٣ ص ٧٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والفهرست (ص ٩١). (٢) من بحوث صديقي الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وَادِعًا لَا يَعْرِفُ حَمَادًا وَلَا يَعْرِفُهُ حَمَادٌ، فَلَمَّا قَرَأَ الرَّجُلُ هَذَا الشَّعْرَ جَزِعَ لَهُ وَسَافَرَ مِنَ الْبَصْرَةِ حَتَّى بَلَغَ الْكُوفَةَ فَعَاتَبَ حَمَادًا، فَقَالَ لَهُ حَمَادٌ ضَاحِكًا مُعْتَذِرًا: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ فَإِنْ هَذَا مِنْ آثَامِ الْقَافِيَةِ وَلَنْ أَعُودَ إِلَيْهِ .

وَكَانَ السَّبَبُ فِي مُهَاجَاةِ حَمَادٍ وَبَشَارِ أَنْ حَمَادًا كَانَ نَدِيمًا لِلنَّافِعِ بْنِ عُقْبَةَ، فَسَأَلَهُ بَشَارٌ تَحْيِيزَ حَاجَةٍ لَهُ مِنْ نَافِعٍ فَأَبْطَأَ عَنْهَا، فَقَالَ بَشَارٌ فِيهِ :

مَوَاعِيدُ حَمَادٍ سَمَاءٌ حَيَلَةٌ * تَكْشِفُ عَنْ رَعْدٍ وَلَكِنْ سَتَرُهُ
إِذَا جِئْتَهُ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى غَدٍ * كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ مَا لَيْسَ يَصْدُقُ
وَفِي نَافِعٍ عَنِّي جَفَاءٌ وَإِنِّي * لِأُطْرِقُ أَحْيَانًا وَذُو اللَّبِّ يُطْرِقُ
وَلِلنُّقَرَى قَوْمٌ فَلَوْ كُنْتُ مِنْهُمْ ^(١) * دُعِيتُ وَلَكِنْ دُونِي الْبَابُ مُغْلَقُ
وَمَا زِلْتُ أَسْتَأْنِيكَ حَتَّى حَسَرْتَنِي * بِوَعْدِ بَكَارَى الْآلِ يَخْفَى وَيَخْفُقُ

فَغَضِبَ حَمَادٌ وَأَتَسَدَ نَافِعًا الشَّعْرَ فَمَنَعَ بَشَارًا، فَقَالَ بَشَارٌ :

أَبَا عُمَرَ مَا فِي طَلَابِيكَ حَاجَةٌ * وَلَا فِي الَّذِي مَنَيْتَنَا ثُمَّ أَصْغَرَا
وَعَدْتَ فَلَمْ تَصْدُقْ وَقُلْتَ غَدًا غَدًا * كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ شَرِبًا مَوْخَرَا

فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ التَّهَاجِي بَيْنَ بَشَارٍ وَحَمَادٍ . وَكَانَ بَشَارٌ يَرْمِي حَمَادًا بِالزُّنْدَقَةِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ :

إِبْنُ نَهْيٍ رَأْسٌ عَلَى ثَقِيلٍ * وَأَحْتِمَالُ الرُّعُوسِ خَطْبٌ جَلِيلُ
أَدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْأَنْثَى * مِنْ فُلَانِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ
يَا بَنَ نَهْيٍ بَرِئْتُ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ جِهَارًا وَذَاكَ مِنِّي قَلِيلُ

فَأَشَاعَ حَمَادٌ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ لِبَشَارٍ، وَجَعَلَ فِيهَا مَكَانَ : « فُلَانِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ » « فُلَانِي عَنْ وَاحِدٍ مَشْغُولُ » لِيَصِحَّ عَلَيْهِ الزُّنْدَقَةُ وَالْكَفَرُ بِاللَّهِ تَعَالَى . فَمَا زَالَتِ الْأَبْيَاتُ تَدُورُ فِي النَّاسِ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى بَشَارٍ، فَأَضْطَرَبَ مِنْهَا وَجَزِعَ وَقَالَ : أَشَاطُ ابْنُ الْفَاعِلَةِ بِدِي، وَاللَّهِ مَا قُلْتُ إِلَّا « فُلَانِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ » فَغَيَّرَهَا حَتَّى شَهَرْتُ فِي النَّاسِ .

كأن رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حماد وبشار على اتفاقٍ منهما ورِضًا بأن ينقل
إلى كل واحد منهما وعنه الشعر؛ فدخل يوماً الى بشار فقال له : إيه يا فلانُ ، ما قال ابن
الفاعلة؟ فأنشده :

إن تاه بشارٌ عليكم فقد * أمكنتُ بشاراً من التيه
فقال بشار : بأى شئٍ ويحك؟ فقال :

وذاك إذ سميتُه باسمه * ولم يكن حراً نُسِمَ به
قال : سَخِنتُ عينه ، فبأى شئٍ كنتُ أعرف! إيه ، فقال :

فصار إنساناً بذكري له * ما يبتغى من بعد ذكريه!
فقال : ما صنعَ شيئاً ، إيه ويحك! فقال :

لم أهُجُ بشاراً ولكننى * هجوتُ نفسى بهجائيه
فقال : على هذا المعنى دار وحوله حام . وتأم الأبيات :

لم آت شيئاً قط فيما مضى * ولستُ فيما عشتُ آتية
أسوأ لى فى الناس أُحدوثُهُ * من خطأ أخطأته فيه
فأصبح اليوم لِسبى له * أعظمَ شأنًا من مَوَالِيهِ

وقال بشارٌ لراوية حماد : ما هجاني به اليوم حماد؟ فأنشده :

ألا من مُبْلِغٍ عَنى ال * بذى والدِه بُردُ

فقال : صدق ابنُ الفاعلة فما يكون؟ فقال :

إذا ما نُسِبَ الناسُ * فلا قَبْلُ ولا بَعْدُ

فقال : كذب ، أين هذه العَرَصاتُ من عُقَيْلٍ! فما يكون؟ فقال :

وأعمى قَلْطَبَانٌ^(١) ما * على قاذِفِه حَدُّ

(١) القلطبَان : الذى لا يَنَارُ .

فقال : كذب ، بل عليه ثمانون جَلْدَةً ، هيه ، فقال :

وَأَعْمَى يُشَبِّهُ الْقِرْدَ * إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين شَبَّهْتَنِي بِقِرْدٍ ، حَسْبُكَ حَسْبُكَ ! ثم صَفَّقَ بِيَدَيْهِ وَقَالَ :
ما حِيلَتِي ! يَرَانِي فَيُشَبِّهَنِي وَلَا أَرَاهُ فَأُشَبِّهُهُ . وَتَمَامُ الْأَبْيَاتِ :

دَنَيْتُ لَمْ يَرْجُ يَوْمًا * إِلَى مَجْدٍ وَلَمْ يَفْدُ

وَلَمْ يَحْضُرْ مَعَ الْحُضَا * رِي فِي خَيْرٍ وَلَمْ يَسُدْ

وَلَمْ يُخَشَّ لَهُ دَمٌ * وَلَمْ يُرْجَ لَهُ حَمْدُ

جَرَى بِالنَّحْسِ مُدَّكَانٌ * وَلَمْ يُجْرِلْهُ سَعْدُ

هُوَ الْكَلْبُ إِذَا مَاتَ * فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ فَقْدُ

وقال علي بن مهدي : أجمع علماء البصرة أنه ليس في هجاء حماد تجرد لبشار إلا أربعون بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد . وكل واحد منهما هو الذي هتك صاحبه بالزندقة وأظهرها عليه ، وكانا يجتمعان عليها ، فسقط حماد وهتك بفضل بلاغة بشار وجودة معانيه ، وبقي بشار على حاله لم يسقط ، حتى عرف مذهبه في الزندقة فقتل به .

ومن أغلظ ما هجا به حماد بشاراً :

نَهَارُهُ أَخْبَثُ مِنْ لَيْلِهِ * وَيَوْمُهُ أَخْبَثُ مِنْ أَمْسِهِ

وَلَيْسَ بِالْمُقْلِعِ عَنْ غِيَّةٍ * حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ

كان حماد صديقاً ليحيى بن زياد ، فأظهر يحيى تورعاً وقرأةً وزُروعاً عما كان فيه وهجر حماداً وأشباهه ، فكان إذا ذكر عنده ثلثه وذكر تهتكه ومجونه ، فبلغ ذلك حماداً فكتب إليه :

هَلْ تَدْرُكُنَّ بِلَاحِي إِلَيَّ * بِكَ عَلَى الْمُضْمَرَةِ الْفِلَاصِ

أَيَّامٌ تُعْطِينِي وَتَأْ * خُذْ مِنْ أَبَارِيقِ الرِّصَاصِ

إِنْ كَانَ نُسُكُكَ لَا يَتَّ * سَمٌ بغير شَمْتِي وَأَنْتَقَاصِي

أَوْ كُنْتَ لَسْتَ بِغَيْرِذَا * لَكَ تَسَالُ مَنْزِلَةُ الْخِلَاصِ

فعليك فاشتمُ آمِنًا * كَلَّ الأمان من القِصاص
 وأقعد وقم بي ما بدا * لك في الأداني والأقاصي
 فطالما زكَّيتني * وأنا المقيمُ على المعاصي
 أيامَ أنت اذا دُكر * تُمناضلُ عني مُناصي^(١)
 وأنا وأنت على آرتكا * بالمؤيقات من الحِراس
 وبنا مواطن ما بنا * في البرِّ أهلة العِراس

فاتصل هذا الشعرُ بجي بن زياد ، فنسب حمادا الى الزندقة وربما بالخروج عن الإسلام ؛
 فقال حماد فيه :

لا مؤمنٌ يعرفُ إيمانه * وليس يحيى بالفتى الكافر
 منافقٌ ظاهره ناسك * مخالفُ الباطن للظاهر

كان حمادُ صديقاً لحريث بن أبي الصلت الثقفى ، وكان يعيبه بالبخل ، وفيه يقول :
 حريثُ أبو الفضل ذو خيرة * بما يصلحُ المعدَّ الفاسده
 تخوفُ ثمة أضيافه * فعودهم أكلةً واحده

ومن قوله :

ألا قل لعبد الله إنك واحد * ومثلك في هذا الزمان كثير
 قطعت إخواني ظالمًا وهجرتني * وليس أنى من في الإخاء يحور
 أديم لأهل الودِّ ودَى وإني * لمن رام هجرى ظالمًا لهجور
 ولو أن بعضي رآبني لقطعته * وإني بقطع الراشدين جدير
 فلا تحسبن منجى لك الودَّ خالصا * لعز ولا أنى إليك فقير
 ودونك حظى منك لست أريده * طوال الليالى ما أقام تير^(٢)

(١) مناص : مدافع ، من قولهم ناصاه مناصاة : أخذ كل بناصية صاحبه . (٢) تير : اسم جبل .

كان حماد صديقاً لحفص بن أبي بردة ، وكان حفص أعمش أفتس أعصب مقبح الوجه ، فاجتمعوا يوماً على شراب وجعلوا يتناشدون ويتحدثون ، فأخذ حفص يطعن على مرقش ويعيب شعره ويلحنه ، فقال له حماد :

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل * وأنف كحيل العود عما تتبع
تتبع لحناً في كلام مرقش * ووجهك مبني على اللحن أجمع
فأذناك إقواء وأنفك مكفاً * وعيناك إيطاء فأنت المرقع

ومن قوله :

إني أحبك فاعلمي * إن لم تكوني تعلمينا
حبا أقل قليله * بجميع حب العالمينا

وأنشد بشار قول حماد مجرد :

أحى كف عن لومي فإنك لا تدري * بما فعل الحب المبرح في صدري
أحى أنت تلحاني وقلبك فارغ * وقلبي مشغول الجوانح بالفكر
دوائى ودائى عند من لو رأيت * يقلب عينه لأقصرت عن زجري
فأقسم لو أصبحت في لوعة الهوى * لأقصرت عن لومي وأطنبت في عذري
ولكن بلائى منك أنك ناصح * وأنت لا تدري بأنك لا تدري

فطرب بشار ثم قال : ويلكم أحسن والله ! من هذا ؟ قالوا : حماد مجرد ، قال : أوه وكنتموني والله بقية يومى لهم طويل ، والله لا أطعم بقية يومى طعاماً ، ولأصومن غماً بما يقول النبطى مثل هذا .

قال محمد بن الفضل السلولي : لقيت حماد مجرد بواسط وهو يمشى وأنا راكب ، فقلت له : أنطلق بنا الى المنزل ، فإني الساعة فارغ لتحدث ، وحسبت عليه الدابة ، فقطع شغل عرَض لي لم أقدر على تركه ، فمضيت وأنسيته ، فلما بلغت المنزل خفت شره فكتبت اليه :

(١) الثيل : وعاء قضيب البعير ، والعود : البعير .

أَبَا عُمَرَ آغْفِرْهَا هُدَيْتَ فَإِنِّي * قَدْ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا مَخْطَأًا غَيْرَ عَامِدٍ
فَلَا تَحْدِنْ فِيهِ عَلَيَّ فَإِنِّي * أَقْرُ بِإِجْرَامِي وَلَسْتُ بِعَائِدٍ
وَهَبْهُ لَنَا تَفْدِيكَ نَفْسِي فَإِنِّي * أَرَى نِعْمَةً أَنْ كُنْتَ لَسْتُ بِوَاجِدٍ
وَعُدْ مِنْكَ بِالْفَضْلِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * فَإِنَّكَ ذُو فَضْلٍ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ

فَأَجَابَنِي عَنْ الْآيَاتِ :

مُحَمَّدُ يَا أَلْفَضْلُ يَا ذَا الْحَمَامِدِ * وَيَا بَهْجَةَ النَّادَى وَزَيْنَ الْمَشَاهِدِ
وَحَقِّكَ مَا أَذْنَبْتَ مِنْذَ عَرَفْتَنِي * عَلَى خَطَا يَوْمًا وَلَا عَمْدٍ عَامِدٍ
وَلَوْ كَانَتْ مَا أَلْقَيْتَنِي مُتَسَرِّعًا * إِلَيْكَ بِهِ يَوْمًا تَسْرَعُ وَاجِدٌ^(١)
وَلَوْ كَانَ ذُو فَضْلٍ يُسَمَّى لَفَضْلُهُ * بغيرِ اسْمِهِ سُمِّيَتْ أُمُّ الْقَلَائِدِ

فَبَيْنَا رَفَعْتُهُ فِي يَدِي وَأَنَا أَقْرُوهَا إِذَا جَاءَنِي رَسُولُهُ بِرُقْعَةٍ فِيهَا :

قَدْ غَفَرْنَا الذَّنْبَ يَا بَنَ الْ * فَضْلِ وَالذَّنْبُ عَظِيمٌ
وَمُسَى أَنْتَ يَا بَنَ الْ * فَضْلِ فِي ذَاكَ مُلِيمٌ
حِينَ تَخْشَانِي عَلَى الذَّنْبِ * بِكَمَا يُخْشَى اللَّثِيمُ
لَيْسَ لِي إِنْ كَانَ مَا خَفَ * تَ مِنْ الْأَمْرِ حَرِيمٌ
أَنَا وَاللَّهِ وَلَا أَفُ * حَرُّ اللَّغِظِ كَطُومِ
وَبِأَصْحَابِي وَلَا رِي * بَةِ بَرٍّ وَزَحِيمِ
وَبِمَا يُرْضِيهِمْ عِنْدَ * ي وَيُضِينِي عَلِيمِ

كَانَ عُمَانُ بْنُ شَيْبَةَ مُبْخَلًا وَكَانَ حَمَادٌ يَهْجُوهُ ، بَخَاءَ رَجُلٍ كَانَ يَقُولُ الشَّعْرَ إِلَى حَمَادٍ

فَقَالَ لَهُ :

أَعِنِّي مِنْ غِنَاكَ بَيْتَ شَعْرٍ * عَلَى فَقْرِي لِعُمَانِ بْنِ شَيْبَةَ

فَقَالَ :

فَإِنَّكَ إِنْ رَضِيتَ بِهِ خَلِيلًا * مَلَأَتْ يَدُكَ مِنْ فَقْرٍ وَخِيَةِ

(١) أَيْ لَوْ كَانَ لَكَ ذَنْبٌ مَا صَادَفْتَنِي مُسْرِعًا إِلَيْكَ بِالْمَكَافَاةِ .

فقال له الرجل : جَزَاكَ اللهُ خيراً فقد عرَفْتَنِي من أخلاقه ما قطعَنِي عن مدحه وصنت وجهي عنه .

لما مات محمد بن أبي العباس طلب محمد بن سليمان حمادَ عجرد لما كان يقولُه في أخته زينب من الشعر ، فلم أنه لا مُقَامَ له معه بالبصرة ، فاستجار بقبر أبيه سليمان بن علي وقال فيه :

مِنْ مُقَرٍّ بِالذَّنْبِ لَمْ يُوجِبِ الدَّ * لَهُ عَلَيْهِ سَيِّئٌ إِفْرَارَا
لَيْسَ إِلَّا بِفَضْلِ حَلْمِكَ يَعُ * تَدَّ بِلَاءٌ وَمَا يَعُدُّ اغْتَرَارَا
يَا ابْنَ بَنَاتِ النَّبِيِّ أَحْمَدَ لَا أَجِدُ * عَلَّ إِلَّا إِلَيْكَ مِنْكَ الْفِرَارَا
غَيْرَ أَنِّي جَعَلْتُ قَبْرَ أَبِي أَيُّو * بَ لِي مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ جَارَا
وَحَرِيٌّ مِنْ اسْتِجَارِ بِذَلِكَ الـ * قَبْرِ أَنْ يَأْمَنَ الرَّدَى وَالْعِتَارَا
لَمْ أَجِدْ لِي مِنَ الْعِبَادِ مُجِيرَا * فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْجَارَا
لَسْتُ أَعْتَاضُ مِنْكَ فِي بُغْيَةِ الْمَرْزَةِ خَطَّانَ كُلِّهَا أَوْ نِزَارَا
فَأَنَا الْيَوْمَ جَارٌ مِنْ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ * ضِ مُجِيرٌ أَعَزُّ مِنْهُ جَوَارَا
يَا ابْنَ بَنَاتِ النَّبِيِّ يَا خَيْرَ مَنْ حَطَّ * تَ إِلَيْهِ الْغَوَارِبُ الْأَكْشَارَا
إِنْ أَكُنْ مَذْنِبًا فَانْتَ أَبْنُ مِنْ كَا * نَ لِمَنْ كَانَ مَذْنِبًا غَفَّارَا
فَأَعْفُ عَنِّي فَقَدْ قَدَّرْتَ وَخَيْرُ الـ * عَفْوِ مَا قُلْتَ : كُنْ ، فَكَانَ اقْتِدَارَا
لَوْ يُطِيلُ الْأَعْمَارَ جَارٌ لَعَزَّ * كَانَ جَارِي يُطَوِّلُ الْأَعْمَارَا

فقال : والله لا بُلَّتْ قَبْرَ أَبِي مِنْ دَمِهِ ، فهرب حماد إلى بغداد ، فعَاذَ بِجَعْفَرِ بْنِ الْمَنْصُورِ فأجاره ، وقال : لَا أَرْضَى أَوْ تَهْجُوَ مُحَمَّدَ بْنَ سُلَيْمَانَ ، فقال يهْجُوهُ :

قُلْ لَوَجْهَ الْحَصِيِّ ذِي الْعَارِإِنِي * سَوْفَ أَهْدِي لَزَيْنَبَ الْأَشْعَارَا
قَدْ لَعَمْرِي فَرَزْتُ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْ * فِ وَأَنْكَرْتُ صَاحِبِي نَهَارَا
وظَنَنْتُ الْقُبُورَ تَمْنَعُ جَارًا * فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْجَارَا

كنتُ عند استجارتى بأبي آية * وبأبني ضلالة وخسارا
لم يُعِرْنِي ولم أجد فيه حظا * أضرم الله ذلك القبر نارا
فبلغ هجاءه محمد بن سليمان فقال : والله لا يُقِلُّنِي أبدا، وإنما يزداد حَتفاً بلسانه ! ولا والله
لا أعفو عنه ولا أتغافل أبدا .

ومن قوله :

إن الكريم ليخفي عنك عُسْرَتَه * حتى تراه غنياً وهو مجتهد
وللبخيل على أمواله علل * زرق العيون عليها أوجه سود
إذا تكرمت أن تُعطى القليل ولم * تقدر على سعة لم يظهر الجود
أبرق بخير تُرجى للنوال فما * تُرجى الثمار إذا لم يُورق العود
بثّ النوال ولا تمنعك قلته * فكُل ما سدّ فقراً فهو محمود

وقال أيضا :

كَمْ من أخ لك لست تُنكره * ما دمت من دنياك في يسر
متصنّع لك في مودته * يلقاك بالترحيب والبشر
يطسرى الوفاء وذا الوفاء ويد * حتى القدر مجتهدا وذا القدر
فإذا عدا، والذهر ذو غير، * دهرٌ عليك عدا مع الدهر
فارقص بإجمال مودة من * يقلي المُقِلّ ويعشق المثرى
وعليك من حاله واحدة * في العسر إقاما كنت واليسر
لا تخلطنهم بغيرهم * من يخلط العقيان بالصفر!

وهو القائل في محمد بن طلحة :

زرتُ أمراً في بيته مرة * له حياءٌ وله خير
يكوه أن يُنجم إخوانه * إن أذى التُّخمة محذور
ويستهي أن يُجروا عنده * بالصوم والصائم مأجور
يا ابن أبي شهدة أنت أمرؤ * بصحة الأبدان مسرور

وهو القائل في محمد بن أبي العباس السفاح :

أرجوك بعد أبي العباس إذ بآنا * يا أكرم الناس أعرافا وأغصانا
لوجَّ عودٌ على قوم عَصَارَتَه * لمَجَّ عودك فينا المسك والبانا

قيل : إن حمادا مضى الى الأهواز ، فأقام هناك مُسْتَتِراً ، وبلغ محمدا خبره فأرسل مولى له الى الأهواز ، فلم يزل يطلبه حتى ظفر به فقتله غيلة . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة ، فمر بشيراز في طريقه ، فمريض بها ، فأضطروا الى المقام بسبب علته ، فأشئت مرضه فمات هناك ودُفِنَ على تلعة . وكان بشارٌ بلغه أن حماداً عليلٌ ، ثم نُعيَ اليه قبل موته ، فقال بشار :

لو عاش حماد لهونا به * لكنه صار الى النار

فبلغ هذا البيت حماداً قبل أن يموت وهو في السياق ، فقال يرّد عليه :

نُبئتُ بشاراً نَعَانِي ولد * سموت برآني الخالقُ الباري
يا ليتني مت ولم أَهْجُه * نعم ولو صرْتُ الى النار
وأى تَخِي هو أخزى من آن * يُقال لي يَأْسِبُ^(٢) بشار

فلما قتل المهديّ بشاراً بالطبيعة اتفق أن حُمل الى منزله ميتاً ، فدُفِنَ مع حماد على تلك التلعة ، فتربها أبو هشام الباهليّ الشاعر البصري الذي كان يُهاجى بشاراً ، فوقف على قبريهما فقال :

قد تَبَعَ الأعمى قفا عَجْرِدٍ * فأصبحا جارين في دار
قالت يقاع الأرض لا مَرَحَباً * بقُرْبِ حمادٍ وبشّار
تَجَاوَرَا بَعْدَ تَنَائِيهما * ما أبغضَ الجارَ الى الجار
صارا جميعا في يَدَي مَالِكٍ * في النارِ والكافرِ في النار

(١) السياق : الاحتضار . (٢) السب : الكثر السباب .

٣ - مروان بن أبي حفصة^(١)

« لم يكن مروان متصرفاً في فنون الشعر، ولعله لم يعد منها فناً أو فتيماً؛ فلست نعرف له غزلاً إلا هذا الغزل الذي تعود الشعراء أن يبدؤوا به مدائحهم؛ ولست نعرف له هجاء إلا هذا النحو من الهجاء الذي يضطر إليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم. على أن موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً، فهو لم يكن ينصر بني العباس على بني أمية فيبلغ منهم ما يريد، ويهجوهم في حرية؛ وإنما كان السيف هو الذي انتصر للعباسيين من بني أمية، وكان العباسيون في حاجة إلى من ينصرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً! كان الدين يأباه في ذلك الوقت، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً، فالعلويون من بني هاشم وهجاؤهم هجاء للعباسيين؛ ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيون الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقذف، فكان دفاعهم أبلغ، وكانت مناظراتهم أحسن وقعا من هجاء أولئك الشتامين المفسرين في الشتم؛ ثم لا نعرف

(١) هو من الشعراء الموالي أصل جده من سبي اصطخر، وكان غلاماً اشتراه عثمان بن عفان ووهبه لمروان بن الحكم، وأقام بعدئذ بالجمامة، وقد اختلفوا في حقيقة نسبه. شب مروان على كره الشيعة لأنه من موالي بني أمية وقد حارب معهم، وكان شجاعاً مجرباً، فلما نبغ في الشعر قدم بغداد ومدح المهدي ثم الرشيد، وكان يتقرب إليه بهجاء العلويين، وهو من الفحول المقدمين، أول من شهره ونوه به معن بن زائدة الجواد المشهور بقصيدة نونية مدحه بها، مطلعها:

معن بن زائدة الذي زيدت به * شرفاً على شرف بنو شيبان

ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها معن مطلعها:

بنو مطروم اللقاء كأنهم * أسود لهم في بطن خفان أشبل

فأجازه عليها بحال كثير، فكان كلما زاده معن عطاء زاده مروان مدحا. توفي سنة ١٨١ هـ. وتجد أخباره في الأغاني (ج ٩ ص ٣٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) وخزانة الأدب (ج ١ ص ٤٤٧) والفهرست لأبن النديم (ص ١٦٠).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

لمروان مجونا ولا عبتا، فلم يكن كما قلنا ماجنا ولا عابتا وإنما كان بخيلا، والبخل والعبث شيان لا يتفقان، ومن ضنَّ على نفسه باللحم وطيبات الطعام لم يستبح لنفسه نحرا ولا ما تستبعه النحر . ثم لا نعرف لمروان نحرا وما نحسب أنه فاحر أو مال الى الفخر، فقد كان رجلا عمليا يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضنَّ بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد . لم يعرض إذن إلا لفنَّين اثنين : المدح والرثاء، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء وهذا طبعي، فهو راغب حين يمدح، يطلب المال ويحرص على أن يظفر به، فمعقول أن يُجيد وأن يبلغ من الإجادة حظا عظيما؛ أما في الرثاء فهو لا يرغب ولا يطلب مالا وإنما يقى بعهد ويشكر صديعة . ومعقول أن موقفه هذا لا يدفعه الى الإجادة إلا أن يكون حساسا دقيق الشعور راقى النفس، ولم يكن مروان من هذا كله في شيء، وإنما كان كما قلت لك رجلا عمليا يريد المال . على أن رثاءه لمعني ليس بالردىء وكذلك رثاؤه للمهدى، وهل نستطيع أن نعد رثاءه للمهدى رثاء! هو مدح لأنه عزاء للخليفة الجديد، ففيه ذكر للخليفة الراحل، والثناء على وارثه، وفيه المثوبة والعطاء . فهو الى المدح أقرب منه الى الرثاء .

أما مدح مروان فمن آيات المدح العربي، ونحن لا نحفظ منه إلا متفرقات قليلة ولكنها تكفي لنحكم أن مروان كان قد أتقن المدح وبرع فيه، بل نحسب أنه برز في هذا الفن على غيره من المعاصرين، ولكن مدح مروان ينقسم الى قسمين متميزين : أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف، وهو موجه لمعن بن زائدة، فهو يفتن في وصف معن بالجوهر والكرم والشجاعة والحب، ثم يفتن في مدح بني شيان الذين ينتمى اليهم معن، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سنة الشعراء من قبله، ولكنه جيد المعاني متقاهما، حسن الألفاظ صافيا .

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان يُنشد الخلفاء من بني العباس، وهو مدح إن شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا النضال السياسي

الذى كان يحتاج الى مهارة وفطنة ودقة وخفة ، والذى كان يضطر صاحبه الى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهـم ، والى أن ينصّر العباسيين دون أن يزدري خصومهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويين لا لأنه آذاهم أو هجاهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصما قويا عنيدا ماهرا في الخصام .

ثم هناك شيثان لا بد من الإشارة اليهما ليُكَلَّ رأينا في مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معلا إن صحّ هذا التعبير :

الأول : أت مروان لم يكن عراقيا ولم يرض الإقامة في العراق ولم يُطل عشرة العراقيين من أهل المجنّ والعبث ، وإنما كان من أهل اليمامة أقام فيها لا يرحها إلا وافدا على أمير أو وزير أو خليفة ، فاذا أنشد قصيدته وظفر بجائزته عاد الى اليمامة وأقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره في شعر مروان ، فهو أقرب الى شعر الجاهليين والإسلاميين منه الى شعر المُحدثين من شعراء الحضارة العباسية ، تقرأه فتجد عليه هذه المسحة التي تخلو أو تكاد تخلو من الدعابة والحُفّة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، يُثَلّ البادية تمثيلا صحيحا ؛ ولهذا أثره من وجهة أخرى ، فقد رضى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنّا في أنهم كانوا يودّون لو استطاعوا إيثاره على بشار وأبي نّواس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدويّ القديم ، ولكن أنّي لهم ذلك ! وقد سلّط الله عليهم لسان بشار وأبي نّواس فاضطروا الى أن يحابوا هذين الشاعرين ويتملقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يُجمعون على تقديم بشار وإيثاره على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا آتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التي كان يُعنى بها علماء اللغة وهى وجهة المتانة والرصانة فى اللفظ والأسلوب ، لا يُقاس الى مروان فى هذا أحد من شعراء العراق ، أما اذا آتخذنا وجهة أخرى للنقد ، اذا آتخذنا اختلاف الفنون التي طرّقها الشاعر ، وقرب المأخذ ، والدنو من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس الى بشار ولا الى أبي نّواس بنوع خاص ؛ على أنّ من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعا شريفا فى فنّه لا يخاف

ولا يهاب فصدق نفسه وصدق الناس، وأثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالم اللغوي هو ابن الأعرابي الذي ختم الشعر بمروان وأبى أن يدون لأحد من المحدثين بعده، والذي كان يُنشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الجيدة من شعر مروان، وهي:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ * أَسْوَدُ لَهَا فِي بَطْنٍ خَفَّانُ أَشْبِلُ
هُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا * لِجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَائِ كَيْنٍ مَنَزِلُ
لَهَا مِيمٌ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ * كَأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا * أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجَزُوا
وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فَعَالَهُمْ * وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّاتِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

وكان ابن الأعرابي يقول: لو أن معنا أعطى مروان كل ما يملك بهذه الأبيات لما بلغ حقه.

الثاني: أن مروان لم يكن سريعا في الشعر ولا متعجلا ولا مسترسلا مع الطبع وإنما كان بطيئا متمهلا. كان يجيد الشعر لأنه كان يُجود. كان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها في هذه القصائد التي يُسمونها الحواريات، كان يُنفق أشهراً في إنشاء القصيدة وأشهرها في إصلاحها وأشهرها في عرضها حتى إذا استقام له هذا كله أنشد قصيدته بمدوحه خليفة كان أو وزيراً أو أميراً، فليس عجيباً مع هذه الأناة أن يخلو شعره مما يُستنكر وأن يبرأ من الضعف والوحشية معا. ولقد يُحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن يُنشد الخلفاء. ولست أُشير إلا إلى سيرته مع بشار فلها معناها. كان مروان يعرض القصيدة على بشار ويسأله رأيه فيها فلا يجيبه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة، بل يُقدر له قيمة القصيدة مالياً، فيقول: سيعطونك عليها كذا وكذا... وقد صدق بشار مرتين فأظهر له مروان العجب من ذلك، فقال بشار: ألم أقل لك إنى أعلم الغيب! ولم يكن يعلم الغيب،

(١) هاتم واحداً لهجوم، وهو العظيم الكثير الخير.

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التي كان من شأنها أن تُجَزَلَ حظّ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضا ولكنه تناقض مفهوم، كان شديد الحرص على الإجابة، فكان يشك في شعره، ويستشير فيه الشعراء والنحاة، ولكنه كان مع ذلك مُعْجَبًا بنفسه لا يقدم عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجرير . وأسمع رأيهم وفي نفسه، فقد عَقَدَهُ شعرا لِيُثَبَّتَ كما يقول :

ذَهَبَ الْفَرَزْدَقُ بِالْفَخَّارِ وَإِنَّمَا * حُلُو الْقَرِيضِ وَمُرَّةُ الْحَرِيرِ
ولقد هَجَا فَاْمَضَّ أَخْطَلُ تَغْلِبَ * وَحَوَى اللَّهُى بَيَانَهُ الْمَشْهُورِ
كُلُّ الثَّلَاثَةِ قَدْ أَجَادَ فِدْحَهُ * وَهَجَاؤُهُ قَدْ سَارَ كُلَّ مَسِيرِ
ولقد جَرَيْتُ فُقْتُ غَيْرَ مَهْلَلٍ * بِجِرَاءٍ لَا قَرِيفَ وَلَا مَبْهُورِ
إِنِّى لَأَنْفَ أَنْ أُحْبَرَ مِدْحَةً * أَبَدًا لَغَيْرِ خَلِيفَةِ وَوَزِيرِ
مَا ضَرَّنِى حَسَدُ اللَّشَامِ وَلَمْ يَزَلْ * ذُو الْفَضْلِ يَحْسُدُهُ ذُوو الْبَقْصِيرِ

أما رأى مروان في النقد فبديع، كان يُنْشِدُ الشعر لأمرئ القيس ويقول : هو أشعرُ الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو أشعر الناس، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فرأهم جميعا أشعر الناس، قال ضاحكا : الناس أشعر الناس ! ولست أعرف رأيا كهذا الرأى يُمَثِّلُ الشك في نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد .

وننتقل من ذلك الوصف الرائع الى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبى حَفْصَةَ على المهديّ بعد وفاة معن، فأَنشَدَهُ مديحا فيه، فقال له المهديّ : أَلَسْتَ الْقَائِلَ :

أَقْنَا بِالْإِمَامَةِ بَعْدَ مَعْنٍ * مُقَامَا لَا تُرِيدُ بِهِ زَوَالَا
وَقَلْنَا أَيْنَ نَزَحُلُ بَعْدَ مَعْنٍ * وَقَدْ ذَهَبَ النُّوَالُ فَلَا نُوَالَا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب نوالنا؟ لاشيء لك عندنا . فلما كان من العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة، فمثل بين يديه، وأنشد — بعد رابع أو خامس من الشعراء — :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فِي خَيَالِهَا * بِيضَاءُ تَخْلِطُ بِالْجَمَالِ دَلَالِهَا
قَادَتْ فَوَادِكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلُهَا * قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَأَمَالِهَا
فَكَأَنَّمَا طَرَقَتْ بِنَفْحَةِ رَوْضَةٍ * سَحَّتْ بِهَا دِيمَ الرَّيِّعِ طِلَالِهَا
بَاتَتْ تَسْأَلُ فِي الْمَنَامِ مُعَرَّسًا * بِالْبَيْدِ أَشْعَتْ لَا يَمَلُّ سَوَالِهَا
فِي فِتْنَةٍ هَجَمُوا غِرَارًا بَعْدَ مَا * سَمِعُوا مُرَاعِشَةَ السُّرَى وَمِطَالِهَا
فَكَأَن حَشَوْنِيَابِهِمْ هِنْدِيَّةً * نَحَلْتُ وَأَغْفَلْتُ الْقِيُونَ صِفَالِهَا
وَضَعُوا الْخُدُودَ لَدَى سَوَاهِمِ جُنْحٍ * تَشْكُو كُלُومَ صِفَاحِهَا وَكَلَالِهَا
طَلَبْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاصِلَتْ * بَعْدَ السُّرَى يَغْدُوهَا أَصَابِلُهَا
نَزَعْتُ إِلَيْكَ صَوَادِيًا فَتَقَاذَفْتُ * تَطْوِي الْفَلَاحَةَ حُرُونَهَا وَرِمَالِهَا
يَتَبَعْنَ نَاجِيَةً يَهْزُ مِرَاحُهَا * بَعْدَ النُّحُولِ تَلِيلُهَا وَقَدَالِهَا
هُوَ جَاءَ تَدْرِعَ الرُّبَا وَتَشْقُهَا * شَقَّ الشَّمْسُ إِذَا تُرَاعَ جَلَالِهَا
تَنْجُو إِذَا دَفَعَ الْقَطِيعُ كَمَا نَجَتْ * خَرَجَاءُ^(٣) بَادَرْتُ الظَّلَامَ رِثَالِهَا^(٤)
كَالْقَوْسِ سَاهِمَةٌ أَنْتَكَ وَقَدُ تَرَى * كَالْبُرْجِ تَمَلُّ رَحْلَهَا وَجِبَالِهَا

ومنها .

أَحْيَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * سُنَنَ النَّبِيِّ حَرَامُهَا وَحَلَالُهَا
مَلِكٌ تَفَرَّعَ نَبْعَةً مِنْ هَاشِمٍ * مَدَّ الْإِلَهَ عَلَى الْأَنَامِ ظِلَالُهَا
جَبَلٌ لِأَمْتِهِ تَلُوذُ بَرَكْنِهِ * رَادَى جِبَالِ عَدُوِّهَا فَأَزَالُهَا

(١) التليل : العتق . (٢) تنجو : تسرع . (٣) الخرجاء : النعامة . (٤) الرثال : فراخ

النعامة واحدها رأل .

لم يَغْشَهَا مِمَّا يَخَافُ عَظِيمَةً * إِلَّا أَجَالَ لَهَا الْأُمُورَ مُجَالَهَا
 حَتَّى يُفَرِّجَهَا أَغْرُ مَهْدَب * أَلْفَى أَبَاهُ مُفَرِّجًا أُمَثَالَهَا
 ثَبَّتْ عَلَى زَلَلِ الْحَوَادِثِ رَاكِبٌ * مِنْ صَرَفِهِنَّ لِكُلِّ حَالٍ حَالَهَا
 كَلْنَا يَدَيْكَ جَعَلْتَ فَضْلَ نَوَاهَا * لِلْمُسْلِمِينَ وَلِلْعَدُوِّ وَبَالَهَا
 وَقَعْتَ مَوَاقِعَهَا بِعَفْوِكَ أَنْفُسُ * أَذْهَبَتْ بَعْدَ مَخَافَةٍ أَوْجَالَهَا
 وَنَصَبْتَ نَفْسَكَ خَيْرَ نَفْسٍ دُونَهَا * وَجَعَلْتَ مَالَكَ وَاقِيًا أُمُومَهَا
 هَلْ تَعْلَمُونَ خَلِيفَةً مِنْ قَبْلِهِ * أَجْرَى لِفَايَتِهِ الَّتِي أَجْرَى لَهَا
 طَلَعَ الدَّرُوبَ مُشْمَرًا عَنْ سَاقِهِ * بِالْخَيْلِ مُنْصَلِّيًا يُجِدُّ نَعَالَهَا
 قُوْدٌ تَرِيحُ إِلَى أَغْرِ لَوَجْهِهِ * نَوْرٌ يُضِيءُ أَمَامَهَا وَخِلَالَهَا
 قَصُرَتْ حَمَائِلُهُ عَلَيْهِ فَقَلَّصَتْ * وَلَقَدْ تَحَفَّظَ قَيْنُهَا فَاطْمَأَنَّهَا
 حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ أَوَائِلُ خَيْلِهِ * جَيْحَانٌ بَتَّ عَلَى الْعَدُوِّ رَعَالَهَا^(١)
 أَحْمَى بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ * وَأَبَاحَ سَهْلَ بِلَادِهِمْ وَجِبَالَهَا
 أَدْمَتْ دَوَابَرَ خَيْلِهِ وَشَكِيمَهَا * غَارَاتُهَا^(٢) وَأَلْحَقَتْ أَطَالَهَا
 لَمْ يُبْقِ بَعْدَ مُغَارِهَا وَطِرَادَهَا * إِلَّا نَحَائِزَهَا^(٣) وَإِلَّا آهَهَا
 رَفَعَ الْخَلِيفَةُ نَاطِرِيَّ وَرَاشَنِي * بِيَدِ مِبَارَكَةٍ شَكَرْتُ نَوَاهَا
 وَحُسِدْتُ حَتَّى قِيلَ أَصْبَحَ بَاغِيَا * فِي الْمَشْيِ مُتَوَفٍّ شِمِيَّةً مُخْتَالَهَا
 وَلَقَدْ حَذَوْتَ لِمَنْ أَطَاعَ وَمِنْ عَصَى * نَعْلًا وَرِثْتَ عَنِ النَّبِيِّ مِثَالَهَا

فزحف المهدي من صدر مُصَلَّاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع ، ثم قال :
 كم هي ؟ قال : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف درهم أُعطيها
 شاعر في أيام بني العباس ، وهكذا فعل معه الرشيد لما أنشده قصيدته التي يقول فيها :

لَعَمْرُكَ مَا أُنْسَى غَدَاةَ الْمُخَضَّبِ * إِشَارَةَ سَلَمَى بِالْبَنَانِ الْمُخَضَّبِ
 وَقَدْ صَدَرَ الْجُجَّاجُ إِلَّا أَقْلَهُمْ * مَصَادِرَ شَتَّى مَوْجِبًا بَعْدَ مَوْكِبِ

(١) الرعال : القطع من الخيل واحدا رعدة . (٢) النحائر : الانساع .

قال مروان : دخلتُ على المهدي في قصر السلام، فلما سَأَمْتُ عليه وذلك يَعْقِبُ
سُخْطَهُ على يعقوب بن داود، فقلت : يا أمير المؤمنين، إن يعقوب رجل رَافِضِيٌّ، وإنه
سَمَعْنِي أقول في الوراثة :

أَنْيَ يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ * لَيْنِي الْبَنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ
فذلك الذي حمّله على عداوتي، ثم أَنشِدْتُهُ :

كَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا * لَرَأَيْتُهُ بِالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ
فقال له المهدي : والله ما أُعْطِيكَ إِلَّا مِنْ صُلْبِ مَالِي، فاعِذْنِي، وأمر لي بثلاثين ألف درهم
وكساني جُبَّةً وَمُطَرَفًا، وفرض لي على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفاً أخرى .

لما قَدِمَ مَعْنٍ مِنْ الْيَمَنِ دَخَلَ عَلَيْهِ مَرْوَانَ وَالْمَجْلِسَ غَاصُّ بِأَهْلِهِ، فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابَ
وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَرَى الْقَلْبَ أَمْسَى بِالْأَوَانِسِ مَوْلَعًا * وَإِنْ كَانَ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا قَدْ تَمَتَّعَا
ويقول فيها :

وَلَمَّا سَرَى الْهَمَّ الْغَرِيبَ قَرِيبُهُ * قَرَى مِنْ أَزَالِ الشَّكِّ عَنْهُ وَأَزْمَعَا
عَزَمْتُ فَعَجَلْتُ الرَّحِيلَ وَلَمْ أَكُنْ * كَذِي لُوثَةٍ لَا يَطْلُعُ الْهَمُّ مَطْلَعَا
فَأَمْتُ رَكَابِي أَرْضَ مَعْنٍ وَلَمْ تَزَلْ * إِلَى أَرْضِ مَعْنٍ حَيْثَا كَانَ تُزْعَا
نَجَائِبُ لَوْلَا أَنَّهَا سُخِّرَتْ لَنَا * أَبَتْ عِزَّةً مِنْ جَهْلَهَا أَنْ تَوْرَعَا
كَسَوْنَا رِحَالَ الْمَيْسِ مِنْهَا غَوَارِبًا * تَدَارَكَ فِيهَا الْتِيَّ^(١) صَيْفًا وَمَرْبَعَا
فَمَا بَلَغَتْ صَنْعَاءَ حَتَّى تَوَاضَعْتُ * ذُرَاهَا وَزَالَ الْجَهْلُ عَنْهَا وَأَقْلَعَا
إلى أن قال :

وَمَا الْغَيْثُ إِذْ عَمَّ الْبِلَادَ بِصَوْبِهِ * عَلَى النَّاسِ مِنْ مَعْرُوفٍ مَعْنٍ بِأَوْسَعَا
تَدَارَكَ مَعْنٍ قَبَةَ الدِّينِ بَعْدَ مَا * خَشِينَا عَلَى أَوْتَادِهَا أَنْ تُتْرَعَا

(١) الميس : شجر عظيم تتخذ منه الرحال . (٢) التي : الشحم .

أقام على النَّفَرِ الخوفَ وهاشمٌ * تُسَاقِ سِماماً بالأَسِنَّةِ مُتَنَقِّعاً
 مُقَامَ امرئٍ يَأْبَى سِوَى الخُطَّةِ الَّتِي * تَكُونُ لَدَى غِيبِ الأحاديثِ أَتَقَعَا
 وَمَا أَجْجَمَ الأَعْدَاءُ عَنْكَ بَقِيَّةً * عَلَيْكَ وَلَكِنْ لَمْ يَرَوْا فِيكَ مَطْعَمَا
 رَأَوْا مُخْذِرًا قَدْ جَرَّبُوهُ وَعَايَنُوا * لَدَى غِيْلِهِ مِنْهُمْ مَجْرًا وَمَضَرَعَا
 وَلَيْسَ بَثَانِيهِ إِذَا شَدَّ أَنْ يَرَى * لَدَى نَحْرِهِ زُرْقَ الأَسِنَّةِ سُتْرَعَا
 لَهُ رَاحَتَانِ الْغَيْثُ وَالْحَنْفُ فِيهِمَا * أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ تَضُرَّا وَتَنْفَعَا
 لَقَدْ دَوَّخَ الأَعْدَاءُ مَعْنً فَأَصْبَحُوا * وَأَمْنُهُمْ لَا يَدْفَعُ الذَّلَّ مَدْفَعَا
 نَجِيبٌ مَنَاجِيْبٌ وَسَيِّدٌ سَادَةٍ * ذُرَى المَجْدِ مِنْ فَرْعَى زُرَّارٍ تَفْرَعَا
 لَبَانَتْ خِصَالُ الخَيْرِ فِيهِ وَأَكَلَتْ * وَمَا كَلَّتْ نَحْمَسُ سِنُوهُ وَأَرْبَعَا
 لَقَدْ أَصْبَحَتْ فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ * بِسَيْفِكَ أَعْنَاقُ المُرِّيِّينَ خُضْعَا
 وَطِئَتْ خُدُودُ الحَضْرَمِيِّينَ وَطَاةً * لَهَا هُذُ رُكْنٌ مِنْهُمْ فَتَضَعُضَعَا
 فَأَقْعَوْا عَلَى الأَذْنَابِ إِقْعَاءَ مَعْشِرٍ * يَرُونَ لَزُومَ السَّلْمِ أَبْقَى وَأَوْدَعَا
 فَلَوْ مُدَّتِ الأَيْدَى إِلَى الحَرْبِ كُلِّهَا * لَكَفُّوا وَمَا مَدَّوْا إِلَى الحَرْبِ أَصْبَعَا
 فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ : احْتَكَمْ، قَالَ : عَشْرَةُ آلَافٍ دَرَاهِمَ، فَقَالَ مَعْنٌ : رَاحِبْنَا عَلَيْكَ تَسْعِينَ أَلْفًا،
 قَالَ : أَقْلَنِي، قَالَ : لَا أَقَالَ اللَّهُ مِنْ يُقِيلُكَ .

لَمَّا مَاتَ المَهْدِيُّ وَقَدَّتِ العَرَبُ عَلَى مُوسَى الهَادِي يُهْتَنُونَ بِالْخِلَافَةِ وَيُعَزُّونَهُ عَنْ
 المَهْدِيِّ، فَدَخَلَ مَرْوَانَ فَأَخَذَ بِغَضَادَتِي الْبَابِ وَقَالَ :

لَقَدْ أَصْبَحَتْ تَحْتَالُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * بِقَبْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقَابِرُ
 وَلَوْ لَمْ تُسَكَّنْ بَابُهُ فِي مَكَانِهِ * لَمَّا بَرَحَتْ تَبْكِي عَلَيْهِ الْمَنَابِرُ
 مَرَضَ عَمْرُو بْنُ مَسْعُودَةَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ مَرْوَانَ وَقَدْ أَبْلَى مِنْ مَرَضِهِ، فَأَنشَأَ يَقُولُ :
 صَحَّ الْجِسْمُ يَا عَمْرُو * لَكَ التَّمْحِيصُ وَالْأَجْرُ
 وَلِلَّهِ عَلَيْنَا الْحَمْدُ * دُؤْلُ الْمِثْنَةِ وَالشُّكْرُ
 فَقَدْ كَانَ شَكَا شَوْقًا * إِلَيْكَ التَّهْنِى وَالْأَمْرُ

قال موسى بن يحيى : أوصلنا الى مروان بن أبي حفصة في وقت من الأوقات سبعين ألف درهم، وجمع اليها مالا حتى تمت مائة ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مزيّد، فبينما نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مزيّد، وكانت فيه دُعاة، فقال : يا أبا عليّ، أودعني مروان خمسين ومائة ألف درهم، وهو يشتري الخبز من البقال؛ فغضب يحيى ثم قال : عليّ بمروان، فأُتي به، فقال له : قد أخبرني أبو خالد بما أودعته من المال وما تبتاعه من البقال، والله لمّا يرى من أثر البخل عليك أضرتّ من الفقر لو كان بك . ويروى أنه قال له : والله للبخل أسوأ عليك أثرا من الفقر لو صرّت اليه فلا تبخل . وقال عمر بن شبّة قال مروان : ما فرحت بشيء قطّ فرحى بمائة ألف وهبها لي أمير المؤمنين المهديّ، فوزتها فزادت درهما، فاشتريت به لحما . وقال جهّم بن خلف : أتينا اليمامة فنزلنا على مروان بن أبي حفصة فأطعمنا تمرا وأرسل غلامه بفلس وسُكّجة ليشتري زيتا، فلما جاء بالزيت قال لغلامه : خُتنتي، قال : من فلس ! كيف أخونك؟ قال : أخذت الفلس لنفسك وأستوهبت الزيت . وقال التّوزيّ : مرّ مروان بن أبي حفصة في بعض سفراته وهو يريد مغنى امرأة من العرب، فأضافه ؛ فقال : لله عليّ إن وهب لي الأمير مائة ألف أن أهب لك درهما ؛ فأعطاه ستين ألف درهم، فأعطاه أربعة دنانق . وقال أبو دعامة : آشتري مروان لحما بنصف درهم فلما وضعه في القدر وكاد ينضج دعاه صديق له ، فردّه على القصاب بنقصان دانق، فشكاه القصاب وجعل ينادى هذا لحم مروان، وظنّ أنه يأنف لذلك ؛ فبلغ الرشيد ذلك فقال : ويلك ! ما هذا؟ فقال : أكره الإسراف .

دخل مروان على موسى الهادي فأنشده قوله فيه :

تَشَابَهَ يَوْمًا بِأَسِهِ وَنَوَالِهِ * فَمَا أَحَدٌ يَدْرِي لِأَيِّهِمَا الْفَضْلُ

فقال له الهادي : أيّما أحبّ اليك؟ أثلثون ألفا معجّلة، أم مائة ألف تدوّن في الدواوين؟ فقال له : يا أمير المؤمنين، أنت تُحسّن ما هو خير من هذا، ولكك أنسيته، أفأذن لي أن أذكرك؟ قال : نعم؛ قال : تُعجّل لي الثلاثين ألفا وتدوّن المائة ألف في الدواوين، فضحك وقال : بل يُعجّلان جميعا، فحُمِل اليه المال أجمع .

قال محمد التوفلي : آجتاز مروان برجل من بأهله من أهل اليمامة ، وهو يُشيد قوما كان جالسا اليهم شعرا مدح به مروان بن محمد ، وأنه قُتل قبل أن يلقاه ويُشده إياه ، أوله :

مروانُ يابن محمد أنت الذي * زيدت به شرفا بنو مروان

فأعجبته القصيدة ، فأهل الباهلي حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه في منزله فقال له : إني سمعت قصيدتك وأعجبتني ، ومروان قد مضى ومضى أهله ، وفاتك ما قدرت عنده . أفتبيني القصيدة حتى أتجملها ، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقير ؟ قال : نعم ؛ قال : بكم ؟ قال : بثلاثمائة درهم ، قال : قد آتبعتها ، فأعطاه الدراهم وحلقه بالطلاق ثلاثا وبالأيمان المحرجة ألا يتجملها أبدا ، ولا ينسبها الى نفسه ولا يُشدها ، وأنصرف بها الى منزله فقير منها أبياتا وزاد فيها وجعلها في معن ، وقال في ذلك البيت :

معنُ بن زائدة الذي زيدت به * شرفا على شرف بنو شيبان

ووفد بها الى معن حتى أثرى وآتسعت حاله ، فكان معن أول من رفع ذكره ونوه به . وله فيه مدائح بعد ذلك شريفة ومراث حسنة . قال مروان : كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلبا شديدا وجعل فيه مالا ، فحدثني معن باليمن أنه أضطر لشدة الطلب الى أن قام في الشمس حتى لوحت وجهه ، وخفف عارضيه ولحيته ، وليس جبّة صوف غليظة ، وركب جملا من الجمال الثقالة يمضي الى البادية فيقيم بها ، وكان قد أبلى في حرب يزيد ابن عمر بن هبيرة بلاء حسنا غاظ المنصور وجده في طلبه ، قال معن : فلما خرجت من باب حرب تبغني أسود متقلدا سيفا حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خطام جملي فأناخه وقبض عليّ ، فقلت له : مالك ؟ قال : أنت طليبة أمير المؤمنين ، قلت : ومن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين ؟ قال : معن ابن زائدة ، قلت : يا هذا ، أتق الله ، وأين أنا من معن ؟ قال : دع هذا عنك ، فانا والله أعرف بك منك ، فقلت له : فإن كانت القصة كما تقول ، فهذا جوهر حملته معي يفي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي ، فخذوه ولا تسفك دمي ، قال : هاته ، فأخرجته اليه ، فنظر اليه ساعة وقال : صدقت في قيمته ، ولست قابله حتى أسألك

عن شيء ، فإن صدقتني أطلقتك ، فقلت : قل ، قال : إن الناس قد وصفوك بالجلود فأخبرني ، هل وهبت قط مالك كله ؟ قلت : لا ، قال : فنصفه ؟ قلت : لا ، قال : فثلثه ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فاستحييت ، فقلت : أظن أني قد فعلت هذا ، فقال : ما أراك فعلته ، أنا والله راجل ورزقي من أبي جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبته لك ، ووهبتك لنفسك ولجلودك المأثور عنك بين الناس ، ولتعلم أن في الدنيا أجود منك فلا تعجبك نفسك ، ولتحقر بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمه ؛ ثم رمى بالعقد في حجرى وخلي خطام البعير وأنصرف ؛ فقلت : يا هذا ، قد والله فضحتني ولسفك دمي أهون علي مما فعلت ، نخذ ما دفعته اليك فإنني غني عنه ، فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مقامى هذا ، والله لا أخذه ولا آخذ بمعروف ثمننا أبدا ومضى ؛ فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن جاءني به ما شاء ، فلما عرفت له خبرا وكأن الأرض ابتلعتة . وكان سبب رضا المنصور عن معن أنه لم يزل مسترا حتى كان يوم اذاشمية^(١) ، فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه ، وثب معن وهو مثلث فانتضى سيفه واتل فأبلى بلاء حسنا وذبح القوم عنه حتى نجا وهم يحاربونه بعد ؛ ثم جاء والمنصور راكب على بغلة ولحماها بيد الربيع فقال له : تنح فإنى أحق بالتمام منك في هذا الوقت وأعظم فيه غناء ؛ فقال له المنصور : صدق فادفعه اليه ، فأخذه ولم يزل يقاتل حتى أنكشفت تلك الحال ، فقال له المنصور : من أنت ؟ لله أبوك ! قال : أنا طليبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ؛ قال : قد أمنتك الله على نفسك ومالك ومثلك بضطع ، ثم أخذه معه وخلع عليه وجباه وزينه ، ثم دعا به يوما فقال له : إني قد أملتك لأمر فكيف تكون فيه ؟ قال : كما يحب أمير المؤمنين ؛ قال : قد وليتك اليمن فابسط السيف فيهم حتى ينقض حلف ربيعة واليمن ، وأبلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين ؛ فولاه اليمن وتوجه إليها فبسط السيف فيهم حتى

(١) مدينة بناها السفاح بالكوفة وذلك أنه لما ولي الخلافة نزل بقصر ابن هيرة واستم بناءه وجعله مدينة وسماها الهاشمية ، فكان الناس ينسبونها إلى ابن هيرة على العادة ، فقال : ما أرى ذكر ابن هيرة يسقط عنها ، فرفضها وبني حياها مدينة سماها الهاشمية ونزلها .

أسرف . قال مروان : وقَدِمَ معن بعقب ذلك فدخل على المنصور ، فقال له بعد كلام طويل :
قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ورأيه فيك لَغَضِبَ عليك ؛ قال :
وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معنُ بنُ زائدة الذي زِيدَتْ به * شرفاً على شرف بنو شيبانِ
إن عُدَّ أيامَ الفِعالِ فإنما * يوماه يومُ ندى ويومُ طعانِ

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُ ما بَلَغَكَ لهذا الشعر ، وإنما أعطيته لقوله :

ما زِلْتَ يومَ الهاشمية مُعلِنًا * بالسيفِ دونَ خليفةِ الرحمنِ
فمَنَعْتَ حَوَازِيَهُ وَكُنْتَ وَقَاءَهُ * مِنْ وَقَعِ كُلِّ مَهَيِّدٍ وَسِنَانِ

فأستحيا المنصور وقال : إنما أعطيتُ ما أعطيتَه لهذا القول ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛
والله لولا مخافة الشُّعْنة لأمكنتُه من مفاتيح بيوت الأموال وأبجنتُه إياها ؛ فقال له المنصور :
لله دَرَكٌ من أعرابي ! ما أهونُ عليك ما يَعرِزُ على الرجال وأهل الحزم !

وأختم هذه الترجمة بموت مروان يَقُصُّه قائله . روى صاحب الأغاني عن رجل
يقال له صالح بن عطية الأَصْجَمُ أنه قال :

لما قال مروان :

أني يكونُ وليس ذاكُ بكائنٍ * لبنيِ البناتِ وراثَةُ الأعمامِ

لَزِمَتْهُ وعاهدت الله أن اغتاله فأقتله أيّ وقتٍ أمكنتُ ، وما زلتُ الألفه وأبره ، وأكتب
أشعاره حتى خُصِصَتْ به فائِسُ بنُ جَدَا ، وعرفتُ ذلك بنو حفصة جميعاً فأنسوا بي ،
ولم أزل أطلب غِرَّةً حتى مَرِضَ من حمى أصابته ، فلم أزل أُظْهِرُ له الجزع عليه والألزمه
والألفه حتى خلا لي البيت يوماً ، فوثبتُ عليه فأخذتُ بحلقه فما فارقه حتى مات ، فخرجتُ
وتركتُه فخرج إليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتاً وأرتفعت الصَّبيحة ، فحضرتُ وتباكيتُ
وأظهرتُ الجزع عليه حتى دُفِنَ وما قِطِنَ لما فعلتُ أحد ولا آتهمني به .

٤ - أبو دَلَامَة ^(١)

كان أوَّل ما حُفِظَ من شعره وأُسْنِيت الجوائِزُ له به ، قصيدةٌ مَدَح بها أبا جعفر المنصور
وذَكَرَ قَتْلَهُ أبا مُسْلِمٍ يَقُولُ فِيهَا :

أبا مُسْلِمٍ خَوْفَنِي الْقَتْلَ فَأَتَتْحَى * عَلَيْكَ بِمَا خَوْفَنِي الْأَسَدَ الْوَرْدَ ^(٢)

أبا مُسْلِمٍ مَا غَيَّرَ اللَّهُ نَعْمَةً * عَلَى عَبْدِهِ حَتَّى يُغَيِّرَهَا الْعَبْدَ

أَنشدها المنصورُ في مُحْفَلٍ من النَّاسِ فَقَالَ لَهُ : أَحْكَمْ ، فَطَلَبَ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ،

فَأَمَرَ لَهُ بِهَا ، فَلَمَّا خَلَا قَالَ لَهُ : يَا هَ ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ تَعَدَّيْتَهَا لَقَتَلْتُكَ .

أَمَرَ أَبُو جَعْفَرٍ أَصْحَابَهُ بَلْبُسَ السَّوَادِ وَقَلَانِسَ طَوَالَ تَدْعَمَ بَعِيدَانِ مِنْ دَاخِلِهَا ، وَأَنْ يُعَلِّقُوا
السِّيُوفَ فِي الْمَنَاطِقِ وَيَكْتُبُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فَقَالَ
أَبُو دَلَامَةَ :

وَكَمَا تُرَجِّى مِنْ إِمَامٍ زِيَادَةً * بِخَادٍ بِطُولٍ زَادَهُ فِي الْقَلَانِسِ ^(٣)

تَرَاهَا عَلَى هَامِ الرِّجَالِ كَأَنَّهَا * دِنَانٌ يَهُودٍ جُلَّتْ بِالْبَرَانِسِ

وَدَخَلَ إِلَى الْمَنْصُورِ مَرَّةً فَأَنشده :

إِنْ الْخَلِيطُ أَجَدَ الْبَيْنَ فَانْتَجِعُوا * وَزَوَّدُوكَ خَبَالًا ، نُسَمًا صَنَعُوا

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ كَادَتْ لِيَبْنِيهِمْ * يَوْمَ الْفِرَاقِ حَصَاةُ الْقَلْبِ تَنْصَدِعُ

عَجِبْتُ مِنْ صَبِيَّتِي يَوْمًا وَأُمِّهِمْ * أُمُّ الدَّلَامَةِ لَمَّا هَاجَهَا الْجَزَعُ

(١) هُوَ زَيْدُ بْنُ الْجَوْنِ ، وَسَمِيَ أَبُو دَلَامَةَ نِسْبَةً إِلَى ابْنِهِ دَلَامَةَ ، وَهُوَ كُوفِي الْمَنْشَأُ أَسْوَدُ اللَّوْنِ مَوْلَى لُبْنَى أَسَدَ ، وَكَانَ أَبُوهُ عَبْدًا لِرَجُلٍ مِنْهُمْ فَأَعْتَقَهُ . أَدْرَكَ أَبُو دَلَامَةَ أَوَاخِرَ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ نَبَغَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَانْقَطَعَ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَّاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمُهَدِّيِّ ، وَكَانُوا يَقْسِدُونَهُ وَيَصْلُونَهُ وَيَسْتَطْبِقُونَ مَحَاسِنَهُ وَنَوَادِرَهُ ، وَفِيهِ دَعَابَةٌ وَظَرْفٌ ، لَا يَخْلُو حَدِيثُهُ مِنْ نَكْتَةٍ أَوْ مَلْحَةٍ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مَعْدُودًا فِي جُمْلَةِ الْمُتَمَيِّزِينَ بِالزُّنْدَقَةِ وَفَسَادِ الدِّينِ ، وَكَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ وَلَا يَحْضُرُ صَلَاةَ وَلَا فَرُوضًا . تَوَفَّى سَنَةَ ١٦١ هـ . وَأَخْبَارُهُ فِي الْأَغَانِي (ج ٩ ص ١٢٠) وَابْنُ خُلِّكَانٍ طَبَعَ بِبَلَّاقٍ (ج ١ ص ٢٦٧) وَالشَّعْرَ وَالشَّعْرَاءَ (ص ٤٨٧) وَالدِّمِيرِيَّ (ج ١ ص ١٣٢) وَالْمُسْتَظَرَفَ (ج ٢ ص ٤٣) . (٢) فِي الشَّعْرِ وَالشَّعْرَاءَ : ”أَبَا مَجْرَمَ“ . (٣) فِي الطَّيْرِ ج ٢ ص ٣٧١ طَبَعَ أَوْ رُبَا ”فَزَادَ الْإِمَامُ الْمُصْطَفَى“ .

لا بارك الله فيها من مُنْبة * هَبَّتْ تَلُومَ عِيَالِي بَعْدَ مَا هَجَعُوا
 وَنَحْنُ مُشْتَبِهُوا الْأَلْوَانِ أَوْجُهَنَا * سُودٌ قِيَاحٌ وَفِي أَسْمَانَا شَنَعٌ
 إِذَا تَشَكَّتْ إِلَى الْجُوعِ قَلْتُ لَهَا * مَا هَاجَ جُوعَكَ إِلَّا الرِّىُّ وَالشَّبَعُ
 لَا وَالَّذِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَضَى * لَكَ الْخِلَافَةَ فِي أَسْبَابِهَا الرِّفْعُ
 مَا زِلْتُ أُخْلِصُهَا كَسْبِي فَتَأْكُلُهُ * دُونِي وَدُونَ عِيَالِي ثُمَّ تَضْطِجِعُ
 شَوْهَاءُ مَشْنَأَةٌ فِي بَطْنِهَا يَجْرُ^(١) * وَفِي الْمَفَاصِلِ مِنْ أَوْصَالِهَا فَدَعُ
 ذَكَرْتُهَا بِكُتَابِ اللَّهِ حُرْمَتَنَا * وَلَمْ تَكُنْ بِكُتَابِ اللَّهِ تَنْفِيعُ
 فَأَخْرَجْتُهَا ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ مُغْضَبَةٌ * أَنْتَ تَتْلُو كُتَابَ اللَّهِ يَا لُكْعُ
 أَنْخُرْجْ لَتَبِغَ لَنَا مَالًا وَمَزْرَعَةً * كَمَا لِلْجِيرَانِ مَالٌ وَمُزْدَرَعُ
 وَأَخَذَ خَلِيفَتُنَا عَنَّا بِمَسْأَلَةٍ * إِنَّ الْخَلِيفَةَ لِلسُّؤَالِ يَخْجِدُ
 فَضَحِكَ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَتَبَ لَهُ بِضِيعَةً .

كان واقفا بين يدي السَّفَاحِ فقال له : سَلْنِي حَاجَتَكَ ، قال : كَلْبٌ أَتَصِيدُ بِهِ ، قال :
 أَعْطُوهُ إِيَّاهُ ، قال : وَدَابَّةٌ أَتَصِيدُ عَلَيْهَا ، قال : أَعْطُوهُ دَابَّةً ، قال : وَغَلَامٌ يَصِيدُ بِالْكَلْبِ
 وَيَقُودُهُ ، قال : أَعْطُوهُ غَلَامًا ، قال : وَجَارِيَةٌ تُصْلِحُ لَنَا الصَّيْدَ وَتُطْعِمُنَا مِنْهُ ، قال :
 أَعْطُوهُ جَارِيَةً ، قال : هَؤُلَاءِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عبيدُكَ ، فلا بدَّ لَهُمْ مِنْ دَارٍ يَسْكُنُونَهَا ، قال :
 أَعْطُوهُمْ دَارًا تَجْمَعُهُمْ ، قال : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ ضِيعَةٌ فَمِنْ أَيْنَ يَعْشُونَ ؟ قال : قَدْ أَعْطَيْتُكَ مِائَةَ
 جَرِيبٍ عَامِرَةٍ ، وَمِائَةَ جَرِيبٍ غَامِرَةٍ ، قال : وَمَا الْغَامِرَةُ ؟ قال : مَا لَا نَبَاتَ فِيهَا ، فَقَالَ : قَدْ
 أَقْطَعْتُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَمْسِمِائَةَ أَلْفِ جَرِيبٍ غَامِرَةٍ مِنْ فَيَافِي بَنِي أَسَدَ ، فَضَحِكَ وَقَالَ :
 اجْعَلُوهَا عَامِرَةً ، قال : فَأَذِنَ لِي أَنْ أَقْبَلَ يَدَكَ ، قال : أَمَا هَذِهِ فَدَعَهَا ، قال : وَاللَّهِ مَا مَنَعَتْ
 عِيَالِي شَيْئًا أَقَلَّ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، قالَ الْجَاحِظُ : فَانْظُرْ إِلَى حِدْقِهِ بِالْمَسْأَلَةِ وَلُطْفِهِ فِيهَا ، ابْتَدَأَ

(١) البجر : خروج السرة وتنوؤها وغلظ أصلها . والفدع : أعوجاج في الرسغ من اليد أو الرجل حتى يتقلب

(٢) أى غضبت .

الكف والقدم إلى إنسيها .

بكلب فسَهِّلَ القصةَ به وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بديهة
لما وصل اليه .

قال علي بن سَلَام : كنت أسقى أبا دلامة والسَّندِيَّ إذ خرجت بنتٌ لأبي دلامة،
فقال فيها أبو دلامة :

فما وَلَدَتْكَ مريمُ أمَّ عيسى * ولا رَبَّكَ لَقمانَ الحكيم
أجز يا أبا عطاء، فقال :

ولكن قد تَضُمُّكَ أمُّ سوءٍ * الى لَبَّاتِها وأبٍ لئيم
فضحك لذلك، ثم غدا أبو دلامة الى المنصور فالتفاه في الرَّحبة يَصْلِحُ فيها شيئاً يريدُه، فأخبره
بقصة ابنته وأنشدَه البيتين، ثم آندفع فأنشده بعدهما :

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشمس من كَرَمٍ * قومٌ لَقيلَ آقعدوا يا آلَ عباس
ثم آرتقوا في شُعاعِ الشمس كلُّكمُ * الى السماء فأتَمَّ أَطهرُ الناس
وقدَّموا القائمَ المنصورَ رأسكمُ * فالعين والأُنْف والأذنان في الراس
فاستحسنها وقال : بأى شئ تحبُّ أن أُعِينَكَ على قُبْحِ آبتك هذه ؟ فأخرجَ خريطةَ كان
قد خاطها من الليل، فقال : تملأُ لي هذه دراهمَ، فمُكِّتُ فوسَّعتُ أربعةَ آلاف درهم .
لما توفَّى أبو العباس السَّفاح دخل أبو دلامة على المنصور والناس عنده يعزَّونه، فأنشأ
أبو دلامة يقول :

أمسيتَ بالأنبارِ يا ابنَ محمدٍ * لم تَسْتَطِيعَ عن عُقرها تحويلا
وويلي عليك وويلَ أهلي كلَّهم * وَيلاً وَعَوَلاً في الحياة طويلا
فلتبكِينَ لك النساءُ بعبرةٍ * وليه كينَ لك الرجال عويلا
مات النَّدى إذ مُتَّ يا ابنَ محمدٍ * فجعلته لك في التراب عديلا
إني سألتُ الناسَ بعدك كلَّهم * فوجدتُ أسمعَ من سألتُ بنجيلا
أليسَّقَوِي أُخِرْتُ بعدك للتي * تدعُ العزیزَ من الرجال ذليلا
فلأحلفنَّ يمينَ حقِّ بَرَّةٍ * بالله ما أعطيتُ بعدك سُؤلا

فأبكى الناس قوله ، فغضب المنصور غضبا شديدا وقال : لئن سمعتك تُنشد هذه القصيدة لأقطعن لسانك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لي مكرما ، وهو الذى جاء بى من البدو كما جاء الله بإخوة يوسف اليه فقل كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فُسِّرَى عن المنصور وقال : قد أقتلك يا أبا دلامة ، فسل حاجتك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ، ولم أقبضها . فقال المنصور : ومن يعرف هذا ؟ فقال : هؤلاء ، وأشار الى جماعة ممن حضّر ، فوثب سليمان بن خالد وأبو الجهم فقالا : صدق أبو دلامة نحن نعلم ذلك ، فقال المنصور لأبى أيوب الخازن وهو مغيظ : يا سليمان ، ادفعها اليه وسيّره الى هذا الطاغية « يعنى عبد الله بن على » وقد كان خرج بناحية الشام وأظهر الخلاف ، فوثب أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين إني أعيدك بالله أن أخرج معهم ، فوالله انى لمشئوم ، فقال المنصور : انض ، فإن يميني يغلب شؤمك فأتخرج ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أحب لك أن تجزّب ذلك منى على مثل هذا العسكر ، فإني لا أدري أيهما يغلب ، أيمتك أم شؤمى ، إلا أنى بنفسى أوثق وأعرف وأطول تجربة ، قال : دعنى من هذا فألك من الخروج بد ، فقال : إني أصدقك الآن ، شهدت والله تسعة عشر عسكرا كلّها هزمت وكنّت سببها ، فإن شئت الآن على بصيرة أن يكون عسكرك العشرين فافعل ، فاستغرب أبو جعفر ضحكا وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

قال أبو دلامة : أتى بى المنصور أو المهدي وأنا سكران ، فحلف ليُخرجني في بعث حرب ، فأخرجني مع رّوح بن حاتم المهلبى لقتال الشّرة ، فلما التقي الجمعان قلت لِرّوح : أما والله لو أن تحتى فرسك ومعى سلاحك لأثّرت في عدوك اليوم أثرا ترتضيه ، فضحك وقال : والله العظيم لأدفعن ذلك إليك ولا أخذتك بالوفاء بشرطك ، ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما الى ودعا بغيرهما فاستبدل بهما ، فلما حصل ذلك فى يدي وزالت عنى حلاوة الطّمع قلت له : أيها الأمير هذا مقام العائذ بك ، وقد قلت أبياتا فاسمعهما ، قال : هات ، فأنشدته :

إني أستجرتك أن أقدم في الوغى * لَتَطَّاعِنِ وَتَنَازِلِ وَحِرَابِ^(١)
 فَهَبِ السُّيُوفَ رَأَيْتُهَا مَشْهُورَةً * فَتَرَكْتُهَا وَمَضَيْتُ فِي الْهُرَابِ
 ماذا تقول لما ينجى وما يرى * من واردات الموت في النُّشَابِ

فقال : دَعُ عَنْكَ هَذَا وَسَتَعَلَّمَ ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة : فقال : انخرج
 اليه يا أبا دلامة ، فقلت : أَشُدُّكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ فِي دِمِّي ، قال : والله لَتَخْرُجَنَّ ، فقلت :
 أَيُّهَا الْأَمِيرُ فَإِنَّهُ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ وَآخِرُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَنَا وَاللَّهِ جَائِعٌ مَا شَبِعَتْ
 مِنِّي جَارِحَةٌ مِنَ الْجُوعِ ، فَمُرُّ لِي بِشَيْءٍ أَكُلُهُ ثُمَّ أَخْرُجْ ، فأمر لي برغيفين ودجاجة ، فأخذتُ
 ذلك وبرزتُ عن الصفِّ ، فلما رَأَى الشَّارِي أَقْبَلَ نَحْوِي وَعَلَيْهِ قُرُودٌ أَصَابَهُ الْمَطَرُ فَأَبْتَلَّ
 وَأَصَابَتْهُ الشَّمْسُ فَأَنْفَعَلَ وَعَيْنَاهُ تَقْدَانُ^(٢) ، فَأَسْرَعَ إِلَيَّ ، فقلت له : عَلَى رِسْلِكَ يَا هَذَا ، كَمَا أَنْتَ ،
 فوقف ، فقلت : أَتَقْتُلُ مَنْ لَا يَقَاتِلُكَ ؟ قال : لَا ، قلت : أَتَقْتُلُ رَجُلًا عَلَى دِينِكَ ؟ قال :
 لَا ، قلت : أَفَتَسْتَحِلُّ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَدْعُو مَنْ تَقَاتِلُهُ إِلَى دِينِكَ ؟ قال : لَا ، فَاهْذَبْ عَنِّي
 إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ ، قلت : لَا أَفْعَلُ أَوْ تَسْمَعُ مِنِّي ، قال : قُلْ ، قلت : هَلْ كَانَتْ بَيْنَنَا قِطْعٌ عِدَاوَةٍ
 أَوْ تَرَةً أَوْ تَعْرِفَنِي بِحَالٍ تُحْفِظُكَ عَلَيَّ أَوْ تَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ أَهْلِكَ وَتَرًا ، قال : لَا وَاللَّهِ ، قلت :
 وَلَا أَنَا وَاللَّهُ أَضْيِرُّ لَكَ إِلَّا بِحِيلِ الرَّأْيِ ، وَإِنِّي لِأَهْوَاكَ وَأَتَعَلَّ مَذْهَبِكَ ، وَأَدِينُ دِينَكَ ، وَأُرِيدُ
 السُّوءَ لِمَنْ أَرَادَهُ لَكَ ، قال : يَا هَذَا جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَانْصَرِفْ ، قلت : إِنْ مَعِيَ زَادًا أَحَبُّ
 أَنْ أَكُلَهُ مَعَكَ وَأَحَبُّ مَوَاكِلَتِكَ لَنَا كَدَ الْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا وَيَرَى أَهْلُ الْعَسْكَرِ هَوَانَهُمْ عَلَيْنَا ، قال :
 فَافْعَلْ ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ حَتَّى اخْتَلَفْتُ أَعْنَاقُ دَوَابِّنَا ، وَجَعْنَا أَرْجُلَنَا عَلَى مَعَارِفِهَا وَالنَّاسُ قَدْ غُلِبُوا
 ضَحِيكًا ، فَلَمَّا اسْتَوْفِينَا وَدَعْنِي ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : إِنْ هَذَا الْجَاهِلُ إِنْ أَقَمْتُ عَلَى طَلَبِ الْمُبَارَاةِ
 نَدَبَنِي إِلَيْكَ فَتُسَبِّحُنِي وَتَتَعَبُ نَفْسُكَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَلَّا تَبْرُزَ الْيَوْمَ فَافْعَلْ ، قال : قَدْ فَعَلْتُ ،
 ثُمَّ أَنْصَرَفْتُ وَأَنْصَرَفْتُ فَقُلْتُ لِرُوحٍ : أَمَا أَنَا فَقَدْ كَفَيْتُكَ قِرْنِي ، فَقُلْ لغيري أَنْ يَكْفِيكَ قِرْنُهُ
 كَمَا كَفَيْتُكَ ، فَأَمْسَكَ ، وَنَجَرَ آخِرَ يَدْعُو إِلَى الْبِرَازِ ، فَقَالَ لِي : انْخَرِجْ إِلَيْهِ ، فقلت :

(١) الحراب بمعنى المحاربة وفي الأغاني « ضراب » . (٢) هكذا بالأصل ولعلها : أفعل ، من
 قولهم أفعلت يده : تقيضت .

إِنِّى أَعُوذُ بِرَوْحِ أَنْ يَقْدَمَنِ * إِلَى الْبِرَازِ فَتَحْزَى بِي بَنُو أَسَدٍ
 إِنِّى الْبِرَازُ إِلَى الْأَقْرَانِ أَعْلَمُهُ * مِمَّا يَفْتَرِقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
 قَدْ حَالَفْتُكَ الْمَنَايَا إِنْ صَدَّدْتَ لَهَا * وَأَصْبَحْتُ لَجْمِيعِ الْخَلْقِ بِالرَّصَدِ
 إِنْ الْمُهْلَبُ حَبَّ الْمَوْتِ أَوْرَثَكُمْ * وَمَا وَرِثْتُ أَخْتِيَارَ الْمَوْتِ عَنْ أَحَدٍ
 لَوْ أَنَّ لِي مُنْهَجَةً أُخْرَى جَلَدْتُ بِهَا * لَكُنَّهَا خَلَقْتُ فَرْدًا فَلَمْ أَجِدْ
 فضحك وأعفانى .

قال أبو أيوب المورياني لأبى جعفر وكان يشنأ أبا دلامة : إن أبا دلامة مُعْتَكِفٌ عَلَى
 الْخَمْرِ، فَمَا يَحْضُرُ صَلَاةً وَلَا مَسْجِدًا وَقَدْ أَفْسَدَ فِتْيَانُ الْعَسْكَرِ، فَلَوْ أَمَرْتَهُ بِالصَّلَاةِ مَعَكَ لَأَجَرْتَهُ
 فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ فِتْيَانِ عَسْكَرِكَ بَقَطْعِهِ عَنْهُمْ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو دِلَامَةَ قَالَ لَهُ : مَا هَذَا الْمُجُونُ
 الَّذِى يَبْلُغُنِى عَنْكَ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنَا وَالْمُجُونُ وَقَدْ شَارَفْتُ بَابَ قَبْرِى !، قَالَ :
 دَعْنِى مِنْ أَسْتِكَاتِكَ وَتَضَرَّعِكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْوَتَكَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ فِي مَسْجِدِى، فَلَنْ فَاتِكَ
 لِأَحْسَنِّ أَدَبِكَ وَلَا تُطِيلَنَّ حَبْسَكَ، فَوَقَعَ فِي شَرِّ وَلَزِمَ الْمَسْجِدَ أَيَّامًا، ثُمَّ كَتَبَ قِصَّةً وَدَفَعَهَا
 إِلَى الْمَهْدِيِّ فَأَوْصَلَهَا إِلَى أَبِيهِ وَكَانَ فِيهَا :

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَزَنِي ^(١) * بِمَسْجِدِهِ وَالْقَصْرِ، مَالِي وَلِلْقَصْرِ
 أَصَلَّى بِهِ الْأَوَّلَى جَمِيعًا وَعَصَرَهَا * فَوَيْلٌ مِنَ الْأَوَّلَى وَوَيْلٌ مِنَ الْعَصْرِ
 أَصْلِيهِمَا بِالْكُرْهِ فِي غَيْرِ مَسْجِدِى * فَمَالِي فِي الْأَوَّلَى وَلَا الْعَصْرِ مِنْ أَجْرِ
 لَقَدْ كَانَ فِي قَوْمِي مَسَاجِدُ جَمَّةٌ * وَلَمْ يَنْشَرْحْ يَوْمًا لِفِشْيَانِهَا صَدْرِي
 يَكْفِنُنِي مِنْ بَعْدِ مَا شَبَتْ خُطَّةٌ * يُحِطُّ بِهَا عَنِّي الثَّقِيلُ مِنَ الْوِزْرِ
 وَمَا ضَرَّهُ وَاللَّهُ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ * لَوْ أَنَّ ذُنُوبَ الْعَالَمِينَ عَلَى ظَهْرِي
 فَقَالَ : صَدَقَ، مَا يَضُرُّنِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ لَا يَصِلُ هَذَا أَبَدًا، فَدَعُوهُ يَعْمَلُ مَا يَشَاءُ .

(١) لَزَنَهُ بِالنَّسَبِ : أَلَزَمَهُ إِيَّاهُ .

وقال الهيثم في خبره : قد أعفيناك من هذا الحال ، ولكن على ألا تدع القيام معنا في ليالى شهر رمضان فقد أظلل ، فقال : أفعل ، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمت ذلك والله لئن فعلت لأحدثك ، فقال أبو دلالة : البلية في شهر أخف منها في طول الدهر ، سمعاً وطاعة ، فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد ، وكان المهدي يبعث إليه في كل ليلة حرسياً يحى به ، فشق ذلك عليه وفزع الى الخيزران والى أبي عبيد الله وكل من يلوذ بالمهدي ليشفعوا له في الإعفاء من القيام ، فلم يجبه ، فقال له أبو عبيد الله : الدال على الخير كفاعله ، فكيف شكره ؟ قال : أتم شكر ، قال : عليك بربطة فإنه لا يخالفها ، قال : صدقت ، ثم رفع اليها رقعة يقول فيها :

أبلغنا ربطة أنى * كنت عبداً لأبيها
فمضى يرحمه الله * له وأوصى بي إليها
وأراها نسيتهنى * مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشى * مشية ما أشتيها
قائداً الى ليلة القدر * ركاىى أبتغيها
تنطح القبلة شهرا * جهتي لا تأتليها
ولقد عشت زمانا * في قياتي وجيها
في ليل من شتاء * كنت شيخاً أصطليها
قاعداً أوقد نارا * لضباب أشتويها
وصبوح وغبوق * في علاب أحتسيها
ما أبالى ليلة القدر * رولا تسمعنيها
فاطلبي لي فرجاً من * مها وأجرى لك فيها

فلما قرأت الرقعة صحت وأرسلت اليه : أصطبر حتى تمضي ليلة القدر ، فكتب اليها : إنى لم أسألك أن تكلميه في إعفائي عما قابلا ، وإذا مضت ليلة القدر فقد فني الشهر ، وكتب تحتها أبياتا :

خافي إلهك في نفس قد احتضرت * قامت قيامتها بين المصلينا
 ما ليلة القدر من همى فأطلبها * إني أخاف المنيا قبل عشرينا
 ياليلة القدر قد كسرت أرجلنا * ياليلة القدر حقا ما نمتينا
 لا بارك الله في خير أوقله * في ليلة بعد ما قننا ثلاثينا

فلما قرأت الرقعة ضحكك ودخلت الى المهدي فشفت له اليه وأنشدته الأبيات ،
 فضحك حتى استلقى ودعا به وريلة معه في الجملة ، فدخل ، فأخرج رأسه اليه وقال : قد
 شفعنا ريلة فيك وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم ، فقال : أما شفاعة سيدتي في حتى أعفيتني
 فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أعجبنى ما فعلته إما أن نتمها بثلاثة آلاف
 فتصير عشرة أو تنقصني منها ألفين فتصير خمسة آلاف ، فإني لا أحسن حساب السبعة ،
 فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال : أعيدك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنت أنت ، فعبث
 به المهدي ساعة ، ثم تكلمت فيه ريلة ، فآتمها له عشرة آلاف درهم .

شرب أبو دلالة في بعض الحانات فسكر وأنصرف وهو يميل ، فلقية العسس ، فأخذه
 وقالوا له : من أنت ، وما دينك ؟ فقال :

ديني على دين بني العباس * ما ختم الطين على القرطاس
 إني أصطحبت أربعا بالكاس * فقد أدار شربها براسي
 * فهل بما قلت لكم من باس *

فأخذه ومضوا وخرقوا ثيابه وسأجه ، وأتى به أبو جعفر ، وكان يؤتى بكل من أخذه
 العسس ، فحبسه مع الدجاج في بيت ، فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرة وجاريته مرة ،
 فلم يجبه أحد ، وبينما هو في ذلك إذ سمع صوت الدجاج وزقاء الديوك ، فلما أكثر قال له
 السجان : ما شأنك ؟ قال : ويلك من أنت ؟ وأين أنا ؟ قال : في الحبس وأنا فلان

(١) الساج : الطيلسان الأخضر ، وقيل الأسود .

السَّجَّانَ ، قال : من حَبَسَنِي ؟ قال : أميرُ المؤمنين ، قال : ومن تَحَرَّقَ طَيْلَسَانِي ؟ قال :
 الحَرَسُ ، فطلب منه أن يَأْتِيَهُ بدَوَاةٍ وقرطاس ، ففعل ، فكتب الى أبي جعفر :
 أمير المؤمنين فدتك نفسى * علامَ حَبَسْتَنِي وَحَرَقْتَ ساجي
 أمن صفراءَ صافيةِ المزاج * كأن شُعاءها لَهَبُ السَّراج
 وقد طُيِخَتْ بنار الله حتى * لقدصارت من النُّطْفِ النَّضاج
 تَهَشُّ لها القلوبُ وتشتهيها * اذا برزت تَرَفَرُقُ في الزَّجاج
 أقاد الى السجون بغير جُرم * كأني بعضُ عمالِ الخراج
 ولو معهم حُبست لكان سهلاً * ولكني حُبست مع الدَّجاج

فدعا به وقال : أين حُبست يا أبا دلامة؟ قال : مع الدَّجاج ، قال : فما كنت تصنع؟
 قال : أَقُوقُ معهن حتى أَصْبِحْتُ ، فضحك وخلَّى سبيله وأمر له بِجائِزةٍ ، فلما خرج قال له
 الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ، أما سمعت قوله : وقد طُيِخَتْ بنار الله ، يعنى
 الشمس؟ فأمر برده ، ثم قال : يا خبيث ، شربت الخمر؟ قال : لا ، قال : أفلم تقل : طُيِخَتْ
 بنار الله تعنى الشمس ؟ قال : لا والله ما عَنَيْتُ إِلَّا نار الله الموقدة التي تَطْلُعُ على فؤاد
 الربيع ، فضحك وقال : خذها يا ربيع ولا تُعاود .

صام الناس في سنة شديدة الحر على عهد المهدي ، وكان أبو دلامة يَتَجَزَّزُ جائِزةً أمر
 له المهديُّ بها ، فكتب اليه أبو دلامة رقعة يشكو فيها أذى الحر والصَّوم ، وهى :

أَدْعُوكَ بِالرَّحِمِ التي قد جَمَعْتُ * فى القرب بين قَرِينَا والأبْعَدِ
 إِلا سَمِعْتَ وَأَنْتَ أَكْرَمُ من مَشَى * من مُلْشِدٍ يَرْجُو جَزَاءَ المُنْشَدِ
 جاء الصَّيَّامُ فَصُمَّتْهُ متعبداً * أرجو رَجَاءَ الصَّائِمِ المتعبِّدِ
 وَلَقِيتُ من أمر الصَّيَّامِ وَحَرَّ * أمرين قَيْسًا بالعذابِ المؤَصِّدِ
 وسجَّدْتُ حتى جَبْهَتِي مشجُوجَةً * مما يُنَاطِحُنِي الحِصَا فى المسجدِ
 فأمْنٌ بتسريحى بِمَظْلُكِ بالذى * أسْلَفْتَنِيهِ من البلاءِ المُرْصِدِ

فلما قرأ المهدي رُفَعَتْه غضب وقال : أى قرابة بيني وبينك ؟ قال : رحم آدم وحواء ،
أَنَسِيْتَهُمَا يا أمير المؤمنين ! فضحك وقال : لا والله ما نَسِيْتُهُمَا ، وأمر بتعجيل ما أجاز به
وزاد فيه ، وأنشده أيضا في ذم الصوم :

هَلْ فِي البِلَادِ لِرِزْقِ اللَّهِ مُقْتَرَشٌ * أَمْ لَا فَنِي جِلْدِهِ مِنْ خُسْنَةِ بَرَشٍ^(١)
أَصْحَى الصِّيَامِ مُنِيحًا وَسُطَّ عَرَصَتَنَا * لَيْتَ الصِّيَامَ بِأَرْضِ دُونِهَا جُرَشٌ
إِنْ صَمْتُ أَوْجَعْنِي بَطْنِي وَأَقْلَقْنِي * بَيْنَ الْجَوَانِحِ مَسَّ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ
وَأِنْ خَرَجْتُ بَلِيلَ نَحْوِ مَسْجِدِهِمْ * أَضَرَّنِي بَصَرَ قَدْ خَانَهُ الْعَمَشُ

دخل أبو دلامة على سعيد بن دعلج مولى بنى تميم فقال :

إِذَا جِئْتَ الْأَمِيرَ فَقُلْ سَلَامٌ * عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ الرَّحِيمِ
وَأَمَّا بَعْدُ ذَاكَ فَلِي غَرِيمٌ * مِنَ الْأَعْرَابِ قُبْحٌ مِنْ غَرِيمِ
غَرِيمٍ لَا زُمْ بِفَنَاءِ بَنِي * لَزُومِ الْكَلْبِ أَصْحَابِ الرَّقِيمِ
لَهُ مَائَةٌ عَلَى وَنِصْفُ أُخْرَى * وَنِصْفُ النَّصْفِ فِي صَكِّ قَدِيمِ
دِرَاهِمٌ مَا انْتَفَعْتُ بِهَا وَلَكِنْ * وَصَلْتُ بِهَا شَيْوَحَ بَنِي تَمِيمِ
أَتَوْنِي بِالْعَشِيرَةِ يَسْأَلُونِي * وَلَمْ أَكُ فِي الْعَشِيرَةِ بِاللَّئِيمِ

فأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهما وقال : ما أساء من أنصف ، وقد كافأوك عن
قومك وزدتك مائة .

دخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدته في بغلته المشهورة :

أَتَانِي ، بَغْلَةً يَسْتَامُ مِنِّي ، * عَرِيقٌ فِي الْخَسَارَةِ وَالضَّلَالِ
فَقَالَ تَبِعْهَا قَلْتَ آرْتَبِطُهَا * بِجُحُوكَ إِنْ بَيْعِي غَيْرُ غَالِ
فَأَقْبَلَ ضَاحِكًا نَحْوِي سُرُورًا * وَقَالَ أَرَاكَ سَمَحًا ذَا جَمَالِ
هَلَمْ إِلَى يَحْلُو بِي خِدَاعًا * وَمَا يَدْرِي الشَّقَى لِمَنْ يُجَالِي

(١) البرش : قط بيض في الجلد .

فقلتُ بأربعين، فقال أحسنُ * إلى فإن مثلك ذو سجال

فأتركُ خمسة منها لعلمي * بما فيه يصيرُ من الخبال

فقال المهدي : لقد آقلتُ من بلاء عظيم ، قال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرا أتوقع صاحبها أن يردّها، ثم أنشدّه :

فأبدلني بها يا ربَّ طرِّقا * يكون جمالُ مركِّبه جمالي

فقال لصاحب دوابّه : خيِّره من الإصطبل بين مركّبين ، قال : يا أمير المؤمنين إن كان الاختيارُ لي وقعتُ في شرٍّ من البغلة ، ولكن مُره أن يختار لي ، فاختر له .

خاصم رجل أبا دلامة في داره فارتفعا الى عافية القاضي ، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصمتني دُهاةُ الرجال * وخاصمتها سَنَّةٌ وافيّه

فأدحضَ الله لي حجّةً * ولا خيبَ الله لي قافيّه

ومن خفت من جورهِ في القضاء * فلست أخافك يا عافيّه

فقال له عافية : والله لأشكوّنك الى أمير المؤمنين ، ولأعلمنّه أنّك هجوتني ، قال : إذا يعزّلك ، قال : ولمّه ؟ قال : لأنك لا تعرف المديح من الهجاء ، فبلغ ذلك المنصور فضحك وأمر لأبي دلامة بجائزة .

دخل أبو دلامة على المهديّ وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس ابن محمد ومحمد بن محمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم فقال له : أنا اعطى الله عهدا لئن لم تهجّ واحدا من في البيت لأقطعنّ لسانك ، فنظر اليه القوم ، فكلما نظر الى واحد منهم غمزّه بأن عليه رضاه ، قال أبو دلامة : فعلمت أنّي قد وقعت وأنها عزيمة من عزّماته لا بد منها ، فلم أر أحدا أحقّ بالهجاء مني ، ولا أدعى الى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلغُ لديك أبا دلامسه * فليس من الكرام ولا كرامه

إذا لبس العمامة كان قردا * ويخزيرا إذا نزع العمامه

جَمَعَت دَمَامَةً وَجَمَعَت لُؤْمًا * كَذَلِكَ اللُّؤْمُ تَتَّبِعُهُ الدَّمَامَةُ
فَإِنْ تَكْ قَدْ أَصَبْتَ نَعِيمَ دُنْيَا * فَلَا تَفْرَحْ فَقَدْ دَنَتْ الْقِيَامَةُ
فَضَحَكَ الْقَوْمُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَجَازُهُ .

خرج المهديّ وعليّ بن سليمان إلى الصيد، فسَنَحَ لَهَا قِطْعَ مِنَ الطَّيِّبِ، فَأَرْسَلَتْ
الكلاب وأجريت الخيل، فرمى المهديّ ظيياً بسهم فصرعه، ورمى عليّ بن سليمان، فأصاب
بعض الكلاب فقتله، فقال أبو دلّامة :

قَدْ رَمَى الْمَهْدِيُّ ظِيًّا * شَكَّ بِالسَّهْمِ فَوَادَهُ
وَعَلَى بَنٍ سَلِيًّا * نَ رَمَى كَلْبًا فَصَادَهُ
فَهَنِيئًا لَهَا كَلَّ * لَمْ أَمْرِي يَأْكُلْ زَادَهُ

فضحك المهديّ حتى كاد يسقط عن سرجه وقال : صدق والله أبو دلّامة؛ وأمر له بجائزة
سَنِيَّةٍ، فلقّب عليّ بن سليمان صائد الكلب، وعلق به .

أنشد أبو دلّامة المنصور يوماً :

هَاتِيكَ وَالِدَتِي عَجُوزٌ هِمَّةٌ ^(١) * مِثْلُ الْبَلِيَّةِ دِرْعُهَا فِي الْمَشْجَبِ ^(٢)
مَهْزُولَةُ الْخَيْلَيْنِ مِنْ يَرَاهَا يَقُلْ * أَبْصَرْتُ غُولًا أَوْ خِيَالَ الْقَطْرِ ^(٣)
مَا إِنْ تَرَكْتَ لَهَا وَلَا لَأَبْنٍ لَهَا * مَا لَا يُؤْمَلُ غَيْرَ بَكْرٍ أَجْرَبِ
وَدَجَائِحًا نَحْسًا يَرْحَنُ الْيَهْمُ * لَمَّا يَبْضُنْ وَغَيْرَ عَنَزٍ مَغْرَبِ ^(٤)
كَتَبُوا إِلَى صَحِيفَةٍ مَطْبُوعَةٍ * جَعَلُوا عَلَيْهَا طِينَةً كَالْعَقَرِبِ
فَعَلِمْتُ أَنَّ الشَّرَّ عِنْدَ فِكَا كَهَا * فَفَكَكْتُهَا عَنْ مِثْلِ رِيحِ الْجَوَرِبِ
وَإِذَا شَبِيهِ بِالْأَفَاعِي رُقِّشَتْ * يُودِدُنِي بِتَلْمِظٍ وَتَشَوِّبِ
يَشْكُونَ أَنَّ الْجُوعَ أَهْلَكَ بَعْضَهُمْ * لَزَبَا فَوَهَلَ لَكَ فِي عِيَالٍ لُزْبِ

(١) همة : همة . (٢) المشجب : خشبات موفقة منصوبة توضع عليها الثياب وتنشر .

(٣) القطرب : ذكر الفيلان . (٤) المغرب : الأبيض من كل شيء .

لا يسألونك غيرَ طَلِّ سَحَابَةٍ * تَغْشَاهُمْ مِنْ سَيْلِكَ الْمُتَحَلِّبِ
يا باذِلَ الْخَيْرَاتِ يَا بَنَ بَذُولِهَا * وَأَبْنَ الْكِرَامِ وَكُلَّ قَرِيمٍ مُنْجِبِ
أَنْتُمْ بَنُو الْعَبَّاسِ يُعْلَمُ أَنْكُمْ * قَدَمًا فَوَارِسُ كُلِّ يَوْمٍ أَشْهَبِ
أَحْلَاسِ خَيْلِ اللَّهِ وَهِيَ مُغِيرَةٌ * يَخْرُجَنَّ مِنْ خَلَلِ الْعُبَارِ لَا كُھَبِ

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم ، وكانت الدار قريبة من قصره ، فأمر أن تزداد في قصره بعد ذلك حاجة دعوته إليها ، فدخل عليه أبو دلامة فأنشده قوله :

يَا بَنَ عَمِّ النَّبِيِّ دَعْوَةَ شَيْخٍ * قَدْ دَنَا هَذَا دَارِهِ وَدَمَارُهُ
فَهُوَ كَالْمَاخِضِ الَّتِي آعْتَادَهَا الطَّلُ * بَقِيَ فَقَرْتُ وَمَا يَقَرُّ قَرَارُهُ
إِنْ تُخْزِ عُسْرَةً بِكَفِّكَ يَوْمًا * فَبِكَفِّكَ عُسْرُهُ وَيَسَارُهُ
أَوْ تَدْعُهُ فَلِلْبَوَارِ وَأَنْتَى * وَلِمَاذَا وَأَنْتَ حَتَّى بَوَارُهُ
هَلْ يَخَافُ لِلْمَلَائِكِ شَاعِرُ قَوْمٍ * قُدِّمْتُ فِي مَدِيحِهِمْ أَشْعَارُهُ
لَكُمْ الْأَرْضُ كُلُّهَا فَأَعِيرُوا * شَيْخَكُمْ مَا أَحْتَوَى عَلَيْهِ جِدَارُهُ
فَكَيْفَ أَنْ قَدْ مَضَى وَخَلَّفَ فِيكُمْ * مَا أَعْرَظَ وَأَقْفَرْتُ مِنْهُ دَارُهُ
فَاسْتَعْبِرِ الْمَنْصُورَ وَأَمْرٍ بِتَعْوِيضِهِ دَارًا خَيْرًا مِنْهَا وَوَصْلِهِ .

دخل على المهدي يوما وعنده مُحْرَزٌ ومُقَاتِلٌ ابْنَا دُوَالٍ يعاتبانه على تقريبه أبا دلامة ويعيانه عنده فقال :

أَلَا أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ هَلْ أَنْتَ مُحْرِزِي * وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَهَلْ أَنْتَ سَائِلِي
أَلَمْ تَرْحَمْ الْعَلِيِّينَ مِنْ لِحْيَتَيْهِمَا * وَكُلْتَاهُمَا فِي طَوْلِهَا غَيْرَ طَائِلِ
وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَهَلْ أَنْتَ مُكْرِئِي * بِحُلُقُمَا مِنْ مُحْرِزٍ وَمُقَاتِلِ
فَإِنْ يَأْذَنُ الْمَهْدِيُّ لِي فِيهِمَا أَقُلُّ * مَقَالًا كَوَقْعِ السَّيْفِ بَيْنَ الْمُقَاتِلِ
وإِلَّا تَدْعُنِي وَالْهَمُومُ تَتَوَبُّنِي * وَقُلِي مِنَ الْعَلِيِّينَ جَمْعُ الْبَلَابِلِ

(١) يقال : فلان من أحلاس الخيل ، أى من راضتها وساستها والملازمين ظهورها .

فقال : أوأخذ لك منهما عشرة آلاف درهم يُقديان بهما أعراضهما منك ، قال :
ذلك الى أمير المؤمنين ، فأخذها له منهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع اليها رقعة قد كتبها الى الخيزران فيها :

أبلغني سيدي بالآل * يا أم عبيده

أنها أرشدها الله * لو إن كانت رشيدة

وعدتني قبل أن تخ * ربح للمح وليده

فتأيت وأرسل * بت بعشرين قصيده

كلما أخلقن أخلف * بت لها أخرى جديده

ليس في بيتي لتهيه * مد فراشي من قعيده

غير عجماء عجوز * ساقها مثل القديده

وجبهة أقبح من حو * ت طرى في عصيده

ما حياة مع أني * مثل عرسى بسعيده

فلما قرئت عليها الأبيات ضحكت واستعادت منه لقوله : « حوت طرى في عصيدة »

وجعلت تضحك ووهبت له جارية .

دخل يوما على المهدي لحادثه ساعة وهو يضحك وقال له : هل بقي أحد من أهلي لم

يصلك ؟ قال : إن أمنتني أخبرتك وإن أعفيتني فهو أحب إلي ، قال : بل تخبرني وأنت

آمن ، قال : كلهم قد وصلني إلا حاتم بنى العباس ، قال : ومن هو ؟ قال : عمك العباس

ابن محمد ، فالتفت الى خادم على رأسه وقال : جأ عنقه ، فلما دنا منه صاح به أبو دلامة :

تتج يا عبد السوء لا تحنث مولاك وتكثنه عهدَه وأمانه ، فضحك المهدي وأمر الخادم

ففتح عنه ، ثم قال لأبي دلامة : ويلك ! والله عمي أبجل الناس ، فقال أبو دلامة : بل

هو أسخى الناس ، فقال له المهدي : والله لو ميت ما أعطاك شيئا ، قال : فإن أنا أتيت

فأجازني؟ قال: لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم، فانصرف أبو دلامة فخر للعباس
قصيدة، ثم غدا بها عليه وأنشده:

قف بالديار وأى الدهر لم تقف * على المنازل بين الظهور والنجف
وما وقوفك في أطلال منزلة * لولا الذى استدرجت من قلبك الكلف
ان كنت أصبحت مشغوبا بساكنها * فلا وربك لا تشفيك من شغف
دع ذا وقول فى الذى قد فاز من مضر * بالمكرمات وعز غير مقترف
هذى رسالة شيخ من بنى أسد * يهذى السلام الى العباس فى الصحف
تخطها من جوارى المصر كاتبة * قد طالما ضربت فى اللام والألف
وطالما اختلفت صيفا وشاتية * الى معلمها باللوح والكتف^(١)
حتى اذا نهى الثديان وأمتلا * منها وخيفت على الإسراف والقرف
صينت ثلاث سنين ما ترى أحدا * كما يصون تجار درة الصدف
فبينما الشيخ يهوى نحو مجلسه * مبادرا لصلاة الصبح بالسدف^(٢)
حانت له لحظة منها فأبصرها * مطلة بين سيجفها من الغرف
نقر والله ما يدرى غدا تبيد * آخر منكشفا أم غير منكشف
وجاءه الناس أفواجا بمائهم * ليغسلوا الرجل المغشى بالنطف
ووسوسوا بقران فى مسامعه * نخافه الجن والإنسان لم يخف
شيئا ولكنه من حب جارية * أمسى وأصبح موقوفا على التلف
قالوا لك الويل ما أبصرت قلت لهم * تطلعت من أعلى القصر دى الشرف
فقلت أيكم والله يأجره * يعين قوته فيها على ضعف
فقام شيخ بوى من رجالهم * قد طالما خدع الأقوام بالخلف
فابتاعها لى بالنقى درهم فأتى * بها الى فلقاها على كفى

(١) الكتف: عظام عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القرايطيس.

(٢) السدف: الضوء واقبال الصبح.

فَبَيْنَ ذَاكَ كَذَا إِذَا جَاءَ صَاحِبُهَا * يَبْغِي الدَّرَاهِمَ بِالْمِيزَانِ ذَى الْكِفِّ
وَذِكْرُ حَقٍّ عَلَى زَنْدٍ وَصَاحِبِهِ * وَالْحَقُّ فِي طَرْفٍ وَالطَّيْنُ فِي طَرْفٍ
وَبَيْنَ ذَاكَ شُهُودٌ لَا يَضُرُّهُمْ * أَكُنْتُ مُعْتَرِفًا أَمْ غَيْرَ مُعْتَرِفٍ
فَإِنْ يَكُنْ مِنْكَ شَيْءٌ فَهُوَ حَقُّهُمْ * أَوْ لَا فَإِنِّي مُدْفُوعٌ إِلَى التَّلَفِّ

فضحك العباس وقال : ويحك ! أصادق أنت ؟ قال : نعم والله ، قال : يا غلام أدفع
إليه ألفى درهم ثمنها ، فأخذها ثم دخل على المهدي فأخبره القصة وما آحتمل له ، فأمر له
المهدي بستة آلاف درهم ، وقال له المهدي : كيف لا يضرهم ذلك ؟ قال : لأنى مُعْدِمٍ
لا شَيْءَ عِنْدِي .

دخل على إسحاق الأزرق يعوده ، وكان إسحاق قد مَرَضَ مَرَضًا شَدِيدًا ثُمَّ تَعَاثَى مِنْهُ
وَأُفَاقٌ ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ ضَعِيفًا وَعِنْدَ إِسْحَاقَ طَبِيبٌ يَصِفُ لَهُ أَدْوِيَةَ تُقَوِّى بَدَنَهُ ، فَقَالَ
أَبُو دَلَامَةَ لِلطَّبِيبِ : أَتَصِفُ هَذِهِ الْأَدْوِيَةَ لِرَجُلٍ أَضْعَفُهُ الْمَرَضُ ؟ مَا أَرَدْتَ وَاللَّهِ إِلا قَتْلَهُ ،
ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى إِسْحَاقَ فَقَالَ : اسْمَعْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَنِي ، قَالَ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ يَا أَبَا دَلَامَةَ ،
فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

نَحْنُ عَنْكَ الطَّبِيبُ وَأَسْمَعُ لِنَعْتَى * إِنِّى نَاصِحٌ مِنَ النَّصَاحِ
ذُو تَجَارِيِبٍ قَدْ تَقَلَّبْتُ فِي الصَّحَرِ * مَتَّةَ دَهْرٍ وَفِي السَّقَامِ الْمُتَاحِ
غَادٍ هَذَا الْكِبَابُ كُلِّ صَبَاحٍ * مِنْ مُتُونِ الْفَتْيَةِ السَّاحِاحِ
فَإِذَا مَا عَطِشْتَ فَاشْرَبْ ثَلَاثًا * مِنْ عَتِيقٍ فِي الشَّمِّ كَالْتَفَاحِ
ثُمَّ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَأَعْكُفْ عَلَى ذَا * وَعَلَى ذَا أَبْغَظِ الْأَقْدَاحِ
فُتَقَوِّى ذَا الضَّعْفِ مِنْكَ وَتَأْنِى * عَنْ لَيَالٍ أَصَحَّ هَذَى الصَّاحِاحِ

فضحك إسحاق وعواده وأمر لأبى دلامَةَ بِخَمْسِمِائَةِ دَرَاهِمٍ ، وَكَانَ الطَّبِيبُ نَصْرَانِيًّا
فَقَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ يَا رُكْلُ « يَرِيدُ يَا رَجُلُ » وَقَالَ الطَّبِيبُ : أَقْبِلْ مِنِّي أَصْلَاحُكَ اللَّهُ

ولا تسألني عن شيء قدامه، فقال أبو دلامة : أما وقد أخذت أجرة صَفَقتي وقضيت الحق في نُصْح صديق فأنعت له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهديّ وبين يديه سَلَمَة الوصيف واقفا، فقال : إني أهديت اليك يا أمير المؤمنين مُهرًا ليس لأحد مثله ، فان رأيت أن تُشرفني بقبوله ، فأمر بإدخاله اليه ، فخرج وأدخل اليه دابته التي كانت تحته ، فاذا بِرَدُونٍ مُحَطَّمٍ أعجفَ هَرِمٍ ، فقال له المهديّ : أى شيء هذا؟ ألم تزعم أنه مُهر؟ قال له : أو ليس هذا سَلَمَة الوصيف بين يديك قائمًا ، تسميه الوصيف وله ثمانون سنة ، وهو عندك وصيف ؟ فاذا كان سَلَمَة وصيفًا فهذا مُهر ، فجعل سَلَمَة يَشْتُمُه والمهديّ يضحك ، ثم قال المهديّ لسَلَمَة : ويلك ! إن لهذه منه أخوات ، وإن أتى بها في مُحْفِلٍ فَضَحَكَ ، فقال أبو دلامة : والله لأفضحنه يا أمير المؤمنين ، فليس من مَوَالِيكَ أحد إلا وقد وصلني غيره ، فاني ما شربت له الماء قط ، قال : فقد حكمت عليه أن يشتري نفسه منك بألف درهم حتى يتخلص من يدك ، قال : قد فعلت على ألا يعاود ، فقال له : ما ترى ؟ قال : أفعل ، فلولا أنّي ما أخذت منه شيئًا قط ما فعلت معه مثل هذه ، فمضى سَلَمَة فحملها اليه .

هـ — أبان بن عبد الحميد اللاحق^(١)

ذكرنا في المجلد الأول أن أبان كان صديقاً للبرامكة متصلاً بهم أشد اتصال ، يستشيرونه ويعتمدون عليه في تدبير أمورهم ، جدّها وهزلها ، صعبها وهينها . وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمي ، وبالغوا في ذلك حتى جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات . فغضب الشعراء لذلك ، وكان أشدهم غضبا أبو نواس الذي كان يكره البرامكة كرها شديداً ، وكانت بينه وبين أبان مهاجاةٌ ذكرها صاحب الأغاني .

وكان أبان صديقاً للمعدّل بن غيلان ، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالهجاء ، فيهجوه المعدّل بالكفر وينسبه إلى الشؤم . ويهجوه أبان وينسبه إلى الفسّاء الذي تُهَجَّى به عبد القيس وبالقصّر ، وكان المعدّل قصيراً . فسعى في الإصلاح بينهما أبو عيّنة المهلبيّ ، فقال له أخوه عبد الله وهو أسنّ منه : يا أخى إن في هذين شرّاً كثيراً ولا بد من أن يُخرجاه ، فدعهما ليكون شرهما بينهما وإلا فزقاه على الناس .

ومن قوله يهجو أبا النضير :

إذا قامت بوايك * وقد هتكن أستارك
أُثْنين على قبر * لك أم يلغن أحجارك
وما تترك في الدنيا * إذا زرت غداً نارك
ترى في سقر المثوى * وإبليس غداً جارك
بلى تترك بايك * ودنياك وأوتارك
ونحساً من بنات اللد * ل قد أليس أطارك
تعالى الله ما أقب * ح إذ وليت أدبارك

(١) تجد ترجمته في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢٩ وقد ذكرناه هنا لمناسبة ذكر ما عثرنا عليه من منظومته لكتاب كلبلة ودمية . وقد أضفنا هنا ما لم نذكره في ترجمته هناك .

خرج أبان من البصرة طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائبا فقصده ، فأقام ببابه مدة مديدة لا يصل اليه ، فتوسل الى من وصل له شعرا اليه ، وقال له :

يا عزيز الندى ويا جوهراً الجو * هير من آل هاشم بالبطاح
إن ظننى ، وليس يُخلف ظننى * بك فى حاجتى سبيل النجاج
إن من دونها لمصمت باب * أنت من دون قفله مفتاحى
ناقت النفس يا خليل الساج * نحو بحر الندى مجارى الرياح
ثم فكرت كيف لى وأستخرت الله * عند الإساء والإصباح
وآمتدحت الأمير أصلحه الله * بشعر مشهر الأوضاح

فقال : هات مديحك ، فأعطاه شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرجل معجب بنفسه ، مدلل بعلمه وأدبه ، تياه لا حد لتيهه وغروره :

أنا من بغية الأمير وكثر * من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب * ناصح زائد على النصح
شاعر مقلق أخف من الريد * شمة مما يكون عند الجناح

وهى طويلة ذكرناها فى المجلد الأول .

وكان أبان شديد الحرص على المال يُضحى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العقيدة والرأى . وكان يحسد مروان بن أبى حفصة لمكانه من الرشيد ولظفره بالصلات الضخمة والجوائز السنية ، فقد انتهى الأمر بيني العباس مع مروان بن أبى حفصة الى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألف درهم ، ففاظ ذلك أبان وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان ، فعاتب أبان البرامكة على تركهم إيصاله للرشيد وإيصال مديحه اليه ، فقالوا له : ما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا : إن لذلك مذهبا فى هجاء آل أبى طالب وذمهم ، به ينحظى وعليه يُعطى ، فاسلكه حتى تفعل ؛ قال : لا أستحل ذلك ، قالوا : فما تصنع ، لا يبيح طلب الدنيا إلا بما لا يحل ! فقال أبان :

تَسَدَّتْ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا * أُمُّ بَمَا قَدْ قُلْتُ الْعَجَمَ وَالْعَرَبَ
 أُمُّ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً * لَدَيْهِ أُمُّ ابْنِ الْعَمِّ فِي رُتْبَةِ النَّسَبِ
 وَأَيُّهُمَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ * وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ التَّرَاثِ بِمَا وَجَبَ
 فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقُّ بِتِلْكَكُمْ * وَكَانَ عَلَى بَعْدِ ذَاكَ عَلَى سَبَبِ
 فَأَبْنَاءُ عَبَّاسٍ هُمْ يَرْتُونَهُ * كَمَا الْعَمُّ لِابْنِ الْعَمِّ فِي الْإِرْثِ قَدْ حَجَبَ
 وَهِيَ طَوِيلَةٌ .

فقال الفضل : ما يَرُدُّ على أمير المؤمنين اليوم شيء أعجب من أبياتك . فركب فأنشدها
 الرشيد ، فأمر لأبان بعشرين ألف درهم . ثم اتصل مدحه للرشيد بعد ذلك وخص به .
 وكان أبان هجاء قبيح اللسان ، وكان مع هذا شريفا قاسيا يؤثر الشر ويحذ فيه لذة .
 وقد روى له أبو الفرج قصة تمثل نصيبه من القسوة وحب الشر ، كما أنها تعطينا صورة
 من شعره ومن الحياة في عصره . قالوا : كان يُقيم بالقرب من أبان رجل ثَقَفِيٌّ يقال له : محمد
 ابن خالد ، وكان عدواً لأبان ، فتروج محمد هذا ثَقَفِيَّةً معروفةً هي عمارة بنت عبد الوهاب ،
 وكانت عمارة غنيّة موفورة الثروة ، فاغتاظ أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة التي
 بلغت عمارة فأفسدت زواجها :

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَزَّ وَالشَّارَةَ * وَالْفَرْشَ قَدْ ضَافَتْ بِهِ الْحَارَةَ
 وَاللُّوزَ وَالشُّكَّرَ يَرْمِي بِهِ * مِنْ فَوْقِ ذِي الدَّارِ وَذِي الدَّارَةِ
 وَأَحْضَرُوا الْمَلْهَيْنِ لَمْ يَتْرَكُوا * طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ زَمَارَةٍ
 قُلْتُ : لِمَاذَا قِيلَ : أُعْجُوبُهُ * مُحَمَّدٌ زَوْجَ عَمَّارَةٍ
 مَاذَا رَأَيْتُ فِيهِ وَمَاذَا رَجَحْتُ * وَهِيَ مِنَ النِّسْوَانِ مُخْتَارَةُ
 أَسْوَدُ كَالسَّقُودِ يَنْبِي لَدَى النَّوْرِ * بِلَ مَحْرَاكِ قِيَارَةِ^(١)
 يُجْرَى عَلَى أَوْلَادِهِ خَمْسَةٌ * أَرْغَفَةٌ كَالرِّيشِ طَيَّارَةُ

وأهله في الأرض من خوفه * إن أفرطوا في الأكل سيّارة
ويحك قري وأعصي ذاب به * فهذه أختك فرّارة
إذا غفا بالليل فاستيقظي * ثم أطفري إنك طقّارة^(١)
فصعدت نائلة سلّما * تخاف أن تصعده القارة
”سرور“ غرّتها فلا أفلحت * فإنها الخناء غرّارة
لونت ما أبعدت من ريقها * إن لها نفثة سحّارة

فلما بلغت هذه القصيدة عمّارة هربت، فحرّم من جهتها مالا عظيما. والثلاثة الأبيات
الآخيرة التي أولها * فصعدت نائلة سلّما * زادها في القصيدة بعد أن هربت .

جلس أبان ليلة في قوم فثلب أباً عبيدة فقال : يقدح في الأنساب ولا نسب له . فبلغ
ذلك أبا عبيدة فقال في مجلسه : لقد أغفل السلطان كل شيء حين أغفل أخذ الجزية
من أبان اللاحق ، وهو وأهله يهود ، وهذه منازلهم فيها أسفار التوراة وليس فيها
مصحف ، وأوضح الدلالة على يهوديتهم أن أكثرهم يدعى حفظ التوراة ولا يحفظ
من القرآن ما يصلّي به . فبلغ ذلك أبان فقال :

لا تميم عن صديق حديثا * وأسعد من تسرّر التمام
وأخفّض الصوت إن نطقت بليل * وآلفت بالنهار قبل الكلام
قال عيسى بن اسماعيل : كفا في مجلس أبي زيد الأنصاري قد كروا أبان بن عبد الحميد ،
فقالوا : كان كافرا ، فغضب أبو زيد وقال : كان جاري فما فقدت قراءته في ليلة قط .

*
* *

وكان أبان يفوق الشعراء في شيء نحسب أنه هو الذي سبق إليه ، فقد ابتكر في الأدب
العربي فنا لم يتعاطه أحد من قبله ، وهو فن الشعر التعليمي ، طرق فيه فنونا مختلفة من العلم
والحكمة والدين . وقد تحدّث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب « كليله ودمنة » ليسهل عليهم

حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو الفرج أبياتا أربعة من هذا النظم ، وقد عثرنا على قطعة من كتاب مخطوط يوجد فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصولى . وفى هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة ، فرأينا أن نثبتها هنا ، لأن المنظومة ضاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التى رواها أبو الفرج . وها هى ذى :

هَذَا كِتَابُ كَذِبٍ وَمِحْنَةٍ * وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَهُ دِمْنَةٍ
فِيهِ دَلَالَاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ * وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعَتْهُ الْهِنْدُ
فَوَصَّفُوا آدَابَ كُلِّ عَالَمٍ * حِكَايَةً عَنِ أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ
فَالْحِكْمَاءُ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ * وَالسَّخَفَاءُ يَسْتَهْوُونَ هَزْلَهُ
وَهُوَ عَلَى ذَاكَ سَيْرُ الْحِفْظِ * لَدَّى عَلَى اللِّسَانِ عِنْدَ اللَّفْظِ
يَا نَفْسُ لَا تَشَارِكِي الْجَهْلَالَ * فِي حَبِّ مَذْمُومٍ كَأَنْ قَدْ زَالَ
يَا نَفْسُ لَا تَسْقَى وَلَا تَعْنَى * فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَلَا تَمْنَى
مَا لَمْ يَنْلَهُ أَحَدٌ إِلَّا نَدَمٌ * إِذَا تَوَلَّى ذَاكَ عَنْهُ وَسَدِمٌ^(١)
دُنْيَاكَ بِالْأَحْبَابِ وَالْإِخْوَانِ * كَثِيرَةُ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ
وَهِيَ وَإِنْ نِيلَ بِهَا السَّرُورُ * آفَاتُهَا وَغَمُّهَا كَثِيرُ
يَا نَفْسُ لَا يَحْمِلُكَ حُبُّ أَهْلٍ * وَلَا أَذَانِيكَ عَلَى أَنْ تَهْلِكَ
فِي جَمْعٍ مَا يَرْضَاهُمْ فَإِنَّهُ * يَضْرِبُ مِنْ أَمْثَالِ ذَاكَ الدُّخْنُ^(٢)
يُنَالُ قَوْمَ عَرَفَها وَتَحْتَرَقُ * رَأَى بِهِ يَرْضَى أَخُو الرَأْيِ الْحَقِّ
وَجَدْتُ ذَا النَّسِكِ الَّذِي قَدْ فَكَّرَا * فَزَادَهُ تَفَكُّرُهُ تَوَقُّرَا
وَقُلْ لِمَا رَضِيَ أَهْتَامُهُ * وَتَمَّ مِنْ سُرُورِهِ تَمَامُهُ

(١) ندم وحن . (٢) الدخنة : نحو يدخن به الثياب أو البيت وفى الأصل : «الدجنة» بالجم وهو تحريف .

وترك الدنيا لمن يشقى بها * ومن يقاسى الكد من أنصأها
 فعندها نجا من الشرور * ونال أقصى غاية السرور
 ثم سخط عن كل فإن نفسه * فلقى السعد وغاب تحسه
 وأبصر الثواب في القيامة * فأمن الحسرة والندامة
 ومثل الدنيا كبرق الخلب * من يغتر منه بسقي يكذب
 وهو قياسا مثل نوم النائم * تُفرحه أضغاث حلم الحالم
 حتى إذا استيقظ صار همًا * ما كان في النوم به ألماً
 فكيف بالصبر على أيام * عما قليل هن لأتصرام
 وكيف والدنيا بلاء كلها * لا يأمن الآفات فيها أهلها
 أشهد أن الله فرد واحد * أقر أو أنكر ذاك جاحد
 ليس له كفوا ولا ندًا أحد * لم يلد الله ولا له ولد
 وإنني بما عملت مرتين * ما كان منه من قبيح وحسن

من باب الأسد والثور

وإن من كان دني النفس * يرضى من الأرفع بالأخس
 كبثل الكلب الشقي البائس * يفرح بالعظم العتيق اليأس
 وإن أهل الفضل لا يرضيهم * شيء إذا ما كان لا يعنيه^(١)
 كالأسد الذي يصيد الأرنب * ثم إلى العير المجدهربا
 فيرسل الأرنب من أظفاره * ويتبع العير على أدباره
 والكلب من ريقه ترضيه * بلقمة تقذفها في فيه
 فمن يعيش ما عاش غير خامل * له سرور دائم ونائل
 فهو وإن كان قصير العمر * أطول عمرا من حليف فقير
 ومن يعيش في وحشة وضيق * وقلة المعروف في الصديق

(١) في الأصل "ثم للعير" والعير: الحمار.

فهو وإن عَمَّرَ طَوْلَ دهرِهِ * ليس بمغبوطٍ بطولِ عمرِهِ
وقيل أيضا إنه قد ينبغى * للرجل الفاضل فيما يتبغى
أَلَّا يُرَى إِلَّا معَ الأَمَلِكِ * أو يعُبُد اللهَ معَ النَّسَاكِ^(١)
كالفيل لا يصاحُ إلا مَرَكَبًا * لِمَكٍ أو راعيًا مَسِييًا
قال له السبعُ لقد سمعتُ * وكَلَّ ما تقول قد فهمتُ
لكننى لستُ أَظُنُّ ما تَظُنُّ * بالثور من غشٍّ بلى ظَنِّي حَسَنُ^(٢)
قال له دمنَةُ منَ ثمَّ أَتى * وهذه منَ حالِهِ هى التى
رفعتَه حتى تعدى طوره * وكان هذا لك منه شكره
وتلك أخلاق اللئيم الفاجر * الكافرِ المغرورِ غيرِ الشاكر
ما إن يزال ناصحا نفاعا * حتى يرى من حاله آرتفاعا
فعندها يسمو الى ما فوقها * الى التى لا تستطيع أوقها^(٣)
وربما كان هلاكُ الشجيرِ * فى حُسْنِ الغُصْنِ وطيبِ الثمرِ
وذنب الطاووس فهو زينه * كذاك أحيانا وفيه حينُهُ
وباذل النصيح لمن لم يشكره * كطارح فى سَبَخ ما يبدُرُهُ
لا خير للعاقل فى ذى المنظره * إن هو لم يحمدُه عند المخبره
وليس فى الصديق ذى الصفاء * خيرٌ اذا لم يك ذا وفاء
الرجلُ العاقلُ من لا تُسَكِرُهُ * كأسُ سموٍ وأقنطار يُبَطِرُهُ^(٤)
فالجبلُ الثابتُ فى أصولِهِ * لا تقدرُ الرِّيحُ على تحويلِهِ
والناقصُ العقلِ الذى لا رأى لَهُ * يطغى إذا ما نال أدنى منزَلَهُ
مثلُ الحشيش أيمًا ريح جرت * مالت به فأقبلت وأدبرت
الأهل والإخوان والأعوانُ * عند ذوى الأموال حيث كانوا

(١) الأملك : الملوك . (٢) كذا فى الأصل ولعله : « بل الظن الحسن » .

(٣) أوقها : ثقلها . (٤) فى الأصل هكذا "نظره" .

والمال هادى الرأى والمرؤه * وهو على كل الأمور قوه
 والمال فيه العز والجمال * والذل حيث لا يكون المال
 وربما دعا الفقير فقره * الى التي يُحْبَطُ فيها أجره
 فيخسر الدين كما كان خسر * دنياه والخسران ما لا يجبر
 وليس من شئ يكون مدحا * لذى الغنى إلا يكون برحا
 على الفقير ويكون ذمّا * كذاك يُدعى وبه يُسمى
 فإن يكن نجداً يقولوا أهوج^(١) * كذاك عند الحرب لا يعرج
 وهو إذا كان جواداً سيّدا * سُمي للفقير مُضيعاً مُفسداً
 أويك ذا حِلْمٍ يُقَلُّ ضعيف * أويك بسّاماً يُقَلُّ سخيّف
 الرجل العاقل فيما يُسدى * مقتبَطٌ بكسبه للحميد
 لأنه باع قليلاً فانياً * وأعتاض من ذاك كثيراً باقيا
 فأغبط الناس الكثير نائله * ومدرك النجح لديه سائله
 فلا تُعدن ذا غنى غنياً * حتى يكون ماجداً سرياً
 وأعلم بأن الملك المشاورا * ذا العقل فيما نابه المؤازرا
 فإنه يُعَضد بالتأييد * يغنى به عن كثرة الجنود
 والحازم التابع أمر الحزمه * النصحاء غير أهل التهمه
 يزداد حزمًا بهم ورُشداً * زيادة البحر إذا ما مُدّا
 بما يُصب فيه من أنهاره * حتى يهيج الموج من تياره
 والموت من مات كريماً صابراً * خير من العيش ذليلاً صاغراً

ولم ينقل لنا الصولى في كتابه إلا هذه القطعة . ويعدّ أبان في هذا ناظماً لكتاب
 معروف، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة ، فنظم قصيدة
 طويلة في الصوم والزكاة، روى منها الصولى طرفاً .

(١) الهوج : الحق . وفى الأصل : «هوج» باللام وهو تحريف .

فقل لأبان بعد أن نظم كلبلة ودمنة : ألا تعمل شعرا فى الزهد ؟ فعمل قصيدة
مزدوجة فى الصيام والزكاة . وترجمتها :

”قصيدة الصيام والزكاة * نقل أبان من فم الرواة“

وها هى ذى القصيدة :

هذا كتاب الصوم وهو جامع * لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المنزل فى القرآن * فضلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبي * من عهده المتبع المرضى
صلى الإله وعليه سألما * كما هدى الله به وعلمنا
وبعضه على اختلاف الناس * من أثر ما مضى ومن قياس
والجامع الذى إليه صاروا * رأى أبى يوسف مما اختاروا
قال أبو يوسف أما المفترض * فرمضان صومه إذا عرّض
والصوم فى لقارة الأيمان * من حيث ما يجرى على اللسان
ومعه الحج وفى الظهار^(١) * الصوم لا يدفع بالإنكار
وخطأ القتل وحاق المحرم * لرأسه فيه الصيام فأنهم
فرمضان شهره معروف * وصومه مفترض موصوف^(٢)
والصوم فى الظهار إن لم يقدر * مظاهره يوما على محرر
والقتل إن لم يك عمدا قتله * فإن ذاك فى الصيام مثله
شهران فى العدة كاملان * متصلان لا مفترقان
والحنث فى رواية مقبولة * ثلاثة أيامها موصولة
ومثلها فى عدة الأيام * للحريم الحاق فى الإحرام
ثلاثة يصومها إن حلّقا * لا بأس إن تابعها أو فرقا

(١) الظهار مصدر ظاهر الرجل من امرأته إذا قال لها : أنت على كظهر أمى ، فكنى بالظهر عن البطن تأديبا .

(٢) فى الأصل : ”موطوف“ .

والصومُ في المُتعة ان لم يحِدِ * هَدْيًا وكان بالصيام يفتدي
صِيَامُ أَيَّامٍ مُؤَقَّتَاتٍ * ثَلَاثَةٌ فِي الْحَجِّ مَفْرُوضَاتٍ
وبعد ما يرجع صَوْمُ سَبْعَةٍ * عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ فِي الْمُتَعَةِ
أَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي فِي الْحَجِّ * فَكَانَ مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْ مُحْتَجٍّ
أَوْ غَيْرِهِ مَنْ يَرَى أَنْ يَرُوِيَهُ * يَقُولُ يَوْمًا قَبْلَ يَوْمِ التَّرْوِيَةِ
ويومها وصوم يوم عِرفَةَ * مُؤْتَلَفَاتِ الصَّوْمِ لَا مُخْتَلَفَةَ
قَالُوا وَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يُفَرِّقَا * فَذَاكَ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ ضَيْقًا
إِنْ كَانَ ذَاكَ الصَّوْمُ مِنْهُ بَعْدَمَا * يَكُونُ فِي عُمْرَتِهِ قَدْ أَحْرَمَا
ولو أراد الصَّوْمَ فِي شَوَّالٍ * مِنْ بَعْدِ أَنْ يُوجِبَ بِالْهَلَالِ
عُمُرَتَهُ لَكَانَ ذَاكَ مُجْزِيَا * بِذَاكَ يُقْتَى مِنْ أُنَى مُسْتَفْتِيَا

وهي طويلة جدًا

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمله على اختراع هذا الفن؛ فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهيلًا . وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها من البرامكة حينما نظم كليلته ودمنة قد أطمعته، فنظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان ومختار من شعره

قال أبو بكر الصولي: حدثني محمد بن زياد قال: كانت في عبد الصمد بن المعدل عريضة إذا سكر، فعربد يوما في مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان، وكان أيدا^(١)، فقال لهم: كلوه إلى وحدي، وأخذه وكتفه وجعله في بيت وأغلق بابه، وقال: إذا أصبحتم فأطلقوه، وأنصرف؛ فبلغه أن عبد الصمد حلف ليهجونه سنة، فقال حمدان يهجوهم:

(١) أيدا: قويا .

قل لعبد الصمد الأح * حق لا تغضب عليه
وعلى أهلك فاغضب * وأكوها في الهن كية
أمك المفلاء جاءت * نى بسلمى ورقية
وهى سافت ليلة فا * طمة أخرى اليه
فقضينا فيهم الحق * وقلنا السوية

وقد ذكر الصولى فى كتابه الأوراق ما اختاره من قصيدة حمدان بن أبان بن عبد الحميد

ابن أبان فى وصف الحب وأهله وهى طويلة، قال :

ما بال أهل الأدب * منا وأهل الكتب
قد وضعوا الآدابا * وأتعبوا الكتّابا
لكل فنٍ دفترٌ * منقطٌ محبرٌ
ففرقت أجناسا * وعلموها الناسا
بالحيل الرقيقه * والفطن الدقيقه
فأرشدوا الضلّالا * وعلموا الجهّالا
سوى المحبين فلم^(١) * يرعوا لهم حقّ الدّم
فى علم ما قد جهلوا * وما به قد أبطلوا
قد غلقت رُهوئهم * وأستعبرت عيونهم
وحالفوا الشهادا * وخالفوا الرقادا
فليلهم طويلٌ * ونومهم قليلٌ
أبدانهم نحيلة * متعبّة عليه
نفوسهم حزينة * مشغوفة رزينة
ظاهرة غمومهم * باطنة كلومهم

(١) فى الأصل : "فكم".

باكية عيونهم * قريحة جفونهم
 إن ظلموا لم يظلموا * وإن شكوا لم يرحموا
 أحبابهم في لعب * وفي دوام الطرب
 صافية ألوانهم * ضاحكة أسنانهم
 قد سكنوا القصورا * وقارنوا السُرورا
 تفرغوا للهجر * وللنوى والغدر
 بعاشق يهواهم * بالله ما أقسامهم
 وعدهم وعيد * إقرارهم بمجود
 بؤسى لأهل العشق * أهل الضنا والرق
 ليس لهم وسيلة * ولا وجوه حيلة
 رأيت لما خذلوا * وفي هواهم وحلوا
 أن أرشد المغفلا * الجاهل المضللا
 الى الطريق الواضح * عند البلاء الفادح
 وأبتدى كتابا * للوصف بابا بابا
 يا أيها الناس فعوا * وصيتي واستمعوا
 ففى صفاتي عجب * وفي كتابي أدب
 قصيدتي مقومة * ألفاظها منظمه
 فيها هوى العشاق * ومنية المشتاق
 وصفت أهل العشق * ولم أمل عن حق
 فاستمع مقالا صادقا * يا من بيت عاشقا
 للحب خلتان * هما اللتان
 الصبر والرفق معا * يوما اذا ما اجتمعا

في عاشقٍ مهجورٍ * مباعِدٍ مغرورٍ
 قَضَى قريبا وطَرا * وبلغاهُ الوطرا
 ما الحسنُ والإحسانُ * والممْلُكُ والسلطانُ
 يعدِلُ وصلَ الإلفِ * وكسرهُ للطَّرِفِ
 ما حَسَنٌ في العَيْنِ * أحسنُ منِ الْفَيْنِ
 يوما إذا ما آتَقيا * في مجلسٍ فاشتقيا
 مداوِينِ للنظرِ * قد أَمِنَا كُلَّ حَدَرِ
 يادارانِ الحَلَاوَةِ * ويُظْهَرانِ الصَّبَوَةِ
 مساعِدَيْنِ آتَفَقَا * باتا ولم يفتَرَقَا
 هواهما مخزُونُ * سرُّهما مدفُونُ
 مداريَيْنِ أصبَحَا * للناسِ لم يفتَضِحَا
 منْ جَرَبِ الحبِّ عَرَفَ * ما بينَ ملكٍ وأسَفِ
 لن يبلغَ الصَّبُّ المُنَى * إلا بصبرٍ وعَنَا
 إن الهوى ضُروبُ * وأمره عَجِيبُ
 وأهله أَطْوَارُ * فيه لهم أوطارُ
 للعاقِلِ الشَّريفِ * والأحمقِ السَّخيفِ
 فنهمُ مرزوقُ * محبُّ معشوقُ
 على اضطرابِ الخَلْقِ * منه وسوءُ الخَلْقِ
 تُقَضَى له الأوطارُ * وتُعملُ الأشعارُ
 مقربٌ ما يُقَصَى * مطاوعٌ ما يُعَصَى
 ومنهمُ محرومُ * مُحارِفٌ مَشْهُومُ

على جمال هيئته * وحسنه وبهجته
 ومنهم من يتدا * ينال عيشاً رغداً
 من غير سعى وطلب * وغير كد ونصب
 قد ذاك الأسعد * والبخت منه أجود
 إذ فاز باللدات * ودرك الحاجات
 ومنهم من يتعب * في حبه ويدأب
 أسقمه طول الهوى * وشقه وجد الحوى
 فذاك صب قد شقى * يؤسى له ما ذا لقي
 ومنهم البصير * العاقل النحرير
 يحتمل الهجرانا * ويحمل الأحزانا
 فلا يزال مبتلى * حتى ينال أملاً
 ومنهم العميد * الجاهل البليد
 يحب بالتضجر * والجهل والتكبر
 يلقي الحبيب باهتا * فلا يزال ساكتا
 ومنهم من يهوى * بالغيب ياتى عفوا
 فيزرع الغموما * مستجلباً هموما
 فذاك حب الغيب * ليس به من عيب
 من دونه حجاب * ودونه أبواب
 فما لذاك لبث * وليس منه مكث
 حتى يرى مقهورا * في حبه محسورا
 ومنهم جبار * في حبه أزورار
 يزهى إذا ما عشقا * ورهنة قد غلقا

يَلْتَزِمُ الْإِلْهَامَ * فَلَيْسَ يُبْدِي الْحَاجَةَ
فَذَاكَ حُبُّ الْقَوْتِ * وَفِيهِ كَرْبُ الْمَوْتِ
وَمِنْهُمْ مَنْ لِلنَّظَرِ * يَهْوَى وَلَمْ يَعُدَّ الْبَصَرَ
إِذَا رَأَى خَلِيلَهُ * دَاوَى بِهِ غُلِيلَهُ
يَكْتُمُ مَا يَقَاسِي * مِنْ أَعْيُنِ الْجُلَاسِ
وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْتَصَرَ * عَلَى الْحَدِيثِ وَالنَّظَرِ
غَايَتُهُ السَّلَامُ * وَاللَّحْظُ وَالْكَلَامُ
مَدَافِعُ عَنْ حُبِّهِ * يَكْتُمُ وَجَدَ قَلْبِهِ
يَنْفِي الْهَوَى وَيَنْكَرُهُ * وَبِالتَّبَرُّيْ يَسْتُرُهُ
فَذَاكَ حُبُّ الْعَاقِلِ * حُبُّ أَدِيبٍ كَامِلٍ
وَبَعْضُهُمْ لَا يَقْنَعُهُ * إِلَّا عَمُودٌ يُوَدِّعُهُ
قَدْ طَلَبَ الْحَرَامَا * وَآلَتَمَسَ الْأَنَامَا
فَذَاكَ حُبُّ النَّهَمِ * الْمَاجِنِ الْمُقْتَلِمِ
حَقٌّ لَهُ الْحَرَامَانُ * وَالْمَنْعُ وَالْخِذْلَانُ
وَبَعْضُهُمْ مَذَاقُ * مَعَانَتْ مَتَاقُ
مُسْتَعْمِلٌ لِلْكَذِبِ * مُحَرِّفٌ فِي الْكُتُبِ
فَذَاكَ حُبُّ الزُّورِ * يَلْسَعُ كَالزُّنْبُورِ
وَبَعْضُهُمْ عَمِيدُ * غَايَةُ مَا يَرِيدُ
خَلْوَةٌ مِنْ يَهْوَاهُ * فِي مَشْهَدٍ يَلْقَاهُ
لِحَظَّتِهِ مُسَارِقَهُ * مَيِّتُهُ مُعَانِقَهُ
مُكَاتِمٌ لِحُبِّهِ * فِي بُعْدِهِ وَقُرْبِهِ
فَذَاكَ حُبُّ يُكِيدُ * نِيرَانُهُ لَا تَنجُدُ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْتَفُ * بِالْحَبِّ حِينَ يُشْفَوُ
 إِذَا الْحَبِيبُ صَدًّا * وَلَمْ يُنَلِّهِ وَدًّا
 تَاهَ عَلَيْهِ وَخَزَقُ^(١) * وَصَدَّ عَنْهُ وَحِمَقُ

وقال في آخرها :

قَد تَّمَّ مَنِيَّ وَصَفُ * وَلَمْ يُخَفِّنِي الرِّصْفُ
 وَأَنْقَضَتِ الْقَصِيدَةُ * مَحَبُّوبَةً حَمِيدَةً
 وَالْحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ * ذِي الْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ
 وَالذَّمُّ لِلشَّيْطَانِ * ذِي الْعَرَمِ^(٢) وَالطُّغْيَانِ

(١) خزق : ضن عليه ويخزل .

(٢) العرم : الشدة والشراسة . وفي الأصل : « العزم » .

٦ - منصور المكري^(١)

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرك أن الرشيد يسره أن يمدح بنفى الإمامة عن علي والطعن عليه ، لما كان يراه من تقديم مروان بن أبي حفصة بسبب ذلك ، فسلك مذهبه ونحا نحوه - والشعراء يومئذ انما يطلبون الكسب - لكنه لم يصرح بالهجاء والسب كما فعل مروان ؛ ومن قوله فيه قصيدة مطلعها :

أمير المؤمنين اليك خضنا * غمار الهول من بلد شطير
بخصوص كالأهلة خافقات * تلين على السرى وعلى الهجير
حملن اليك أحمالا ثقالا * ومثل الصخرة الدر الثير
فقد وقف المديح بمتناه * وغايته وصار الى المصير
الى من لا تُشير الى رسول * اذا ذكر الندى كف المشير

وذكر في القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن فقال :

يذل من رقاب بني علي * ومن ليس بالمتن الصغير
منتت على ابن عبد الله يحيى * وكان من الخوف على شفير

(١) هو منصور بن الزبرقان بن سلمة النمرى الربعي ، من النمر بن قاسط ، ثم من ربيعة بن زرار. شاعر من شعراء الدولة العباسية . من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العنابي وراو يشه ، عنه أخذ ، ومن بحره استقى ، وبمذهبه تشبه . وصفه العنابي للفضل بن يحيى بن خالد وقرظاه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصعبه ، ثم وصله بالرشيد وجرت بعد ذلك بينه وبين العنابي وحشة حتى تهابرا وتناقضا وسعى كل واحد منهما في هلاك صاحبه ؛ وكان النمرى قد مدح الفضل بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة ، فأوصلها العنابي اليه واسترفده له وسأله استصعباه ، فأذن له في القدوم ، فخطب عنده ، وعرف مذهب الرشيد في الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفى الإمامة عن ولد علي بن أبي طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم مغزاه في ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبي حفصة وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز ، فسلك مذهب مروان في ذلك ونحا نحوه ، ولم يصرح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأوما ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد العداوة لآل أبي طالب وكان ينقاد عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبق ولا يذر . وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٢ ص ١٦ وج ١٧ ص ٣٢ و ١٤١) .

ولقد تخلص الى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنعمت فيهم * وإلا فالندامة للكفور
وإن قالوا بنو بنت فحق * وردوا ما يناسب للذكور
وما لبني بنات من تراث * مع الأعمام في ورق الزبور

ومنها :

بنى حسن ورهط بنى حسين * عليكم بالسداد من الأمور
فقد دُقم قراع بنى أبيكم * غداة الرّوع بالبيض الذكور
أحين شفوكم من كل وتر * وصمّوكم الى كنف وثير
وجادوكم على ظمأ شديد * سقيتم من نوالهم الغزير
فما كان العقوق لهم جزاء * بفعلهم وأدى للشور
وإنك حين تبلغهم أذاة * وإن ظلموا محزون الضمير

فقال له : صدقت وإلا فعلى وعلى ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأشد الرشد يوما قصيدته التي أولها :

ما تنقضى حسرة منى ولا جزع * إذا ذكرت شبابا ليس يرجع
بان الشباب وفانتى بلذته * صروف دهر وأيام لها خدع
ما كنت أوفي شبابي كنه غرته * حتى أنقضى فاذا الدنيا له تبع

فقال الرشيد : أحسن ! والله لا يتهنى أحد بعيش حتى يخطر في رداء الشباب .

ومن قوله فيها يمدح الرشيد :

أى أمرى بات من هارون في سخط * فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن المكارم والمعروف أوديه * أحلك الله منها حيث تجتمع^(١)

(١) رواية الأغاني : "تسع" .

إذا رفعت أمرًا فالله يرفعه * ومن وضعت من الأقوام متضع
نفسى فداؤك والأبطال معلمة * يوم الوغى والمنايا صابها فزع

ومن قوله يمدح الرشيد :

يامترل الحى ذا المغانى * إنعم صباحا على بلاكا
هارون ياخير من يرجى * لم يطع الله من عصاكا
فى خير دين وخير دنيا * من آتقى الله وآتقاكا

وناهيك بقصيدته التى رفعت السيف عن ربيعة بنصيبين بعد أن جرده فيها الرشيد

وهى التى يقول فيها :

وقد علم العدوان والجور والخنأ * بأنك عياف لمن مزايل
ولو عملوا فينا بأمرك لم يكن * ينال برىا بالأذى متناول
لنا منك أرحام ونعتد طاعة * وبأسا إذا أصطك القنا والقنابل^(١)
وما يحفظ الإحسان مثلك حافظ * ولا يصل الأرحام مثلك واصل
جعلناك فامنعنا معاذا ومفرعا * لنا حين عضتنا الخطوب الحلائل
لأنت إذا عاذت بوجهك عود * تطامن خوف وأستقرت بلابل

اجتمع جماعة من الشعراء ببغداد وفيهم منصور النمرى، وكانوا على نبيذ، فأبى منصور
أن يشرب معهم، فقالوا له : إنما تعاف الشراب لأنك رافضى، وتسمع وتضعى الى
الغناء، وليس تركك النبيذ من ورع، فقال :

خلا بين ندمائى موضع مجلسى * ولم يبق عندى لاوصال نصيب
وردت على الساقى تفيض وربما * رددت عليه الكأس وهو سليب
وأى أمرى لا يستهش إذا جرت * عليه بنان كفهن خضيب

(١) مفردة قبل بفتح فسكون ثم فتح : الطائفة من الناس .

قال النمرى : كنت واقفا على جسر بغداد أنا وعبيد الله بن هشام ، وقد وخطبى الشيب يومئذ ، وعبد الله شاب حديث السن ، فاذا أنا بقصرية ظريفة قد وقفت ، فجعلت أنظر إليها وهى تنظر الى عبيد الله ثم انصرفت ، وقلت فيها :

لما رأيت سوام الشيب منتشرا * فى لمتى وعبيد الله لم يشب
سألت سهمين من عينيك فانتضلا * على سبيّة ذى الأذيال والطرب
كذا الغوانى نرى منهن قاصدة * الى الفروع مِعْرَاة عن الحشب
لا أنت أصبحت تعقد بيننا أربا^(١) * ولا وعيشك ما أصبحت من أربى
إحدى وخمسين قد أنضيت جدتها * تحول بينى وبين اللهو واللعب
لا تحسبنى وإن أغضيت عن بصري * غفلت عنك ولا عن شأنك العجب
غضب الرشيد على منصور النمرى لما أنشد قصيدته فى مدح العلويين وأولها :
شاء من الناس راتع هامل * يعللون النفوس بالباطل

وفىها يقول :

ألا مساعير يفضبون لها^(٢) * بسلة البيض والقنا الذابل
فغضب من ذلك غضبا شديدا وقال للفضل بن الربيع : أحضره الساعة ، فبعث الفضل فى ذلك ، فوجده قد توفى ، فأمر بنهبه ليحرقه ، فلم يزل الفضل يلطف له حتى كف عنه .
واليك قصيدته فى مدح العلويين نقلا عن الشعر والشعراء لابن قتيبة ، لأن صاحب الأغاني أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين :

شاء من الناس راتع هامل * يعللون النفوس بالباطل
تقتل ذرية النبي وير * جون جنان الخلود للقاتل
ويلك يا قاتل الحسين لقد * نوت بحمل ينوء بالامل

(١) كذا فى الأصل ولعله : * لا أنت أصبحت يعقد بيننا أرب * بتسكين الفعل يعقد للضرورة وتسكين
الفعل فى الضرورة واردة قول امرئ القيس :
فاليوم أشرب غير مستحب * اثما من الله ولا واهل

(٢) فى الشعر والشعراء "مصاليح" .

أَيَّ حَبَاءٍ حَبَوْتَ أَحَدًا فِي * حُفْرَتِهِ مِنْ حَرَارَةِ النَّاسِكِ
 بَأَى وَجْهَ تَلَقَّى النَّبَى وَقَدْ * دَخَلْتَ فِي قَتْلِهِ مَعَ الدَّاهِلِ
 هَلُمَّ فَاطْلُبْ غَدًا شَفَاعَتَهُ * أَوْ لَا فَرِدْ حَوْضَهُ مَعَ النَّاهِلِ
 مَا الشَّكُّ عِنْدِي فِي حَالِ قَاتِلِهِ * لَكِنِّي أَشْكُ فِي أَخْلَاذِلِ
 نَفْسِي فِدَاءَ الْحُسَيْنِ حِينَ غَدَا * إِلَى الْمَنَابِيا غُدُوًّا لَا قَافِلِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ أَنَحَى بِشَفْرَتِهِ * عَلَى سَنَامِ الْإِسْلَامِ وَالْكَاهِلِ
 حَتَّى مَتَى أَنْتِ تَعَجِّينَ أَلَا * تَتَرَلَّى بِالْقَوْمِ نِقْمَةُ الْعَاجِلِ
 لَا يَجْعَلُ اللَّهُ إِنْ لَجَلْتِ وَمَا * رَبُّكَ عَمَّا يَرِيدُ بِالْغَافِلِ
 وَعَاذِلِي أَنِّي أَحَبُّ بَنِي * أَحْمَدَ فَاتْرَبِي فِي فِيمَ الْعَاذِلِ
 قَدْ ذُقْتُ مَا دِينُكُمْ عَلَيْهِ فَمَا * وَصَلْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَائِلِ
 دِينِكُمْ جَفْوَةَ النَّبِيِّ وَمَا أَلَا * جَافِي لَأَلِ النَّبِيِّ كَالْوَاظِلِ
 مَظْلُومَةٌ وَالنَّبِيُّ وَالِدَهَا * نَذِيرُ أَرْجَاءِ مُقْلَةٍ حَافِلِ
 أَلَا مَصَالِيْتُ يَغْضَبُونَ لَهَا * بَسَلَةَ الْبَيْضِ وَالْقَنَاءِ الذَّائِلِ

وقال أيضا :

آل النَّبِيِّ وَمَنْ يُحِبُّهُمْ * يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ
 أَمِنُوا النَّصَارَى وَالْيَهُودَ وَهُمْ * مِنْ أُمَّةِ التَّوْحِيدِ فِي أَرْبِ^(١)
 وَأُنْشِدَ الرَّشِيدُ هَذَا بَعْدَ مَوْتِهِ فَقَالَ : لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُنَبِّشَهُ ثُمَّ أَحْرَقَهُ .

ومن جيد شعره قوله في الرشيد :

يَا زَائِرِنَا مِنْ آلِ حَيَّامٍ * حَيَّا كَمَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ
 يُحْزِنُنِي أَنْ أَطْفِئُنِي * وَلَمْ تَنَالَا سِوَى الْكَلَامِ

(١) الأزل : الضيق والشدة .

لَمْ تَطْبُقَانِي وَبِي حَرَاكُ * إِلَى حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ
 هَيَّاتِ لِلَّهِوِ والتَّصْبِيَانِي * وَللغَوَانِي وَلِلدَّامِ
 أَقْصِرْ جَهَنِّي وَثَابِ عَلَيَّ * وَنَهْنَه الشَّيْبُ مِنْ عُرَامِي^(١)
 عَمَّيْرُ أَيُّهَا الْقَدْ تَوَلَّتْ * سَالِمَةَ الْخَدِّ مِنْ عِذَامِي^(٢)
 اللَّهُ حَتَّى وَتَرَبُّ حَتَّى * لَيْلَةَ أَعْيَاهِيَا مَرَامِي
 أَذِنْتَانِي يَطْبُقُولَ هَجِيرِ * وَغَيْرَتَانِي مَعَ السَّوَامِ
 وَأَبْطَلُونَا إِلَى عَلَى مَبْلَامِ * وَالشَّيْبُ سَرُّ مِنَ الْمَلَامِ
 يَوْمَكَ هَارُوبٌ مِنْ إِمَامِ * بِطَاعَةِ اللَّهِ ذِي أَعْتَصَامِ
 إِلَهِي إِلَى ذِي الْحَلَالِ قُرْبِي * لَيْسَتْ لَعْنَدُ وَلَا إِمَامِ
 نَهْنَعِي عَلَى أُمَّةٍ تَمْنَى * أَنْ لَوْ تَقِيهِ مِنَ الْجَمَامِ
 لَوْ اسْتَطَاعَتْ لِقَاسَمَتِهِ * أَعْمَارَهَا قِسْمَةَ السَّهَامِ
 يَا خَيْرَ مَاضٍ وَخَيْرَ بَاقٍ * بَعْدَ النَّبِيِّينَ فِي الْإِنَامِ
 إِيَّاكَ اسْتَوْدِعَ الدِّينُ مِنْ إِمَامِ * حَامِي عَلَيْهِ كَمَا تُحَامِي
 يُؤْنَسُ مِنْ رَأْيِهِ بَرَأَى * أَصْدَقَ مِنْ سَلَةِ الْحُسَامِ

وقال :

أَعْمِيرُ كَيْفَ لِحَاجَةٍ * طَلَبْتُ إِلَى صَمِّ الصُّخُورِ
 اللَّهُ دَرُّ عِدَائِكُمْ * كَيْفَ انْتَسَبَ إِلَى الْغُرُورِ
 أَنْ الْبَالَى ضَمْنِي * وَوَسَمْنِي سِمَةَ الْكَبِيرِ
 أَطْفَانُ نُورَ شَيْبَتِي * وَفَرَشَتِي كَنْفَ الْغُيُورِ
 يَوْلَقُ تَيْبُكُ أَنَا مِيلِي * يَحْنِينُ رَمَانَ الْبُحُورِ

(١) العرام : الحدة . (٢) العذم الشفة كالعض بالأسنان .

٧ - السيد الحميري^(١)

« لم يكن السيد الحميري من أنصار الحسن والحسين، أو بعبارة أصح لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين؛ وإنما كان من الكيسانية الذين كانوا ينصرون الأبن الثالث من أبناء علي: محمد بن خولة الحنفية؛ والذين كانوا يدينون بأنه لم يمت وإنما تغيب عن الناس واحتجب عنهم حيناً وسيعود فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، فلم يكن على السيد الحميري بأس أن يمدح بني العباس ويتقرب منهم مادام صاحبه محمد بن الحنفية لم يعد من عينه بعد. ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بخصلة لم نرها في شاعر من الذين تحدثنا عنهم، وهي أنه كان سخيفاً ضعيف العقل شديد الإيمان بالخرافات والأوهام، ويظهر أن هذه الخصلة جاءت من مذهبه نفسه في الرجعة، فقد أسرف في هذا المذهب كما أسرف في مدح العلويين والإيمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يقبل وما لا يقبل؛ فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين، رضي العقل أم لم يرضه، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين، رضي العقل أم لم يرضه، وكان يكفي أن يسمع رجلاً من أهل القصص ورواة الأساطير يروي كرامة من الكرامات يضيفها إلى أحد العلويين حتى ينظم فيها قصيدة طويلة جيدة، ويتخذ هذه القصيدة وسيلة إلى ذم السلف والنبى عليه.

(١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري والسيد لقبه ويكنى أبا هاشم، كان شاعراً متقدماً مطبوعاً، يقال إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والاسلام ثلاثة: بشار وأبو العتاهية والسيد، فانه لا يعلم أن أحداً قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه في شعره ويستعمله في قذفهم والظن عليهم فتحوى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجروا الناس تحوفاً وتقرباً، وله طراز من الشعر ومذهب قلباً يلحق فيه أو يقارب، ولا يعرف له من الشعر كثير، وليس يخلو من مدح بني هاشم أو ذم غيرهم ممن هو عنده ضد لهم. توفي سنة ١٧٣ هـ. وتجدر ترجمته وأخباره في الأغاني (ج ٧ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ١ ص ١٩).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعل الصلة بينه وبينهم ضعيفة واهية في الوقت نفسه .

وهي أنه كان يستبيح ضرباً من اللهو والمنكر، ويسرف في شرب الخمر وغير ذلك من ألوان العَبَث، لا لأنه كان يُمجِّد الدين أو يزدرية بل لأنه كان يدلّ على صاحب الدين؛ كان يحبّ النبي صلى الله عليه وسلم وآله ويمتحنهم مودّته ونصره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون له في ذنوبه وآثامه لما قدّم بين يديه من مَدَح العلويين ونصرهم على خصومهم؛ وكان بنو هاشم وبنو عليّ خاصّة يُطعمونه في ذلك ويعترفون له به، فإذا ذُكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا : وأيّ ذَنْبٍ يعظّم على الله أن يفره لرجل من أنصار أهل البيت ! بل قال أحدهم : إنّ مَنْ أَحَبَّ آلَ عليٍّ لم تزلْ له قَدَمٌ إلا ثبتت له أخرى؛ وعلى هذا كان السيّد الحميريّ يلهو آمناً في دينه ودُنياه، يعتمد في دينه على العلويّين، ويعتمد في دنياه على العباسيين، يقدر أنّ العلويين سيشفعون له عند الله، ويعلم أنّ العباسيين يتقوّن شرّه ويؤثرون مدحه على هِجائِهِ؛ وكان من مُعاصِرِيهِ مَنْ يكره ذلك ويمقتّه كلّ المقت، ويضمر للسيّد عداًء وحقداً لا يعدلها عداًء ولا حقداً؛ ومن هؤلاء سَوار بن عبد الله العنبريّ قاضي البصرة للمنصور، فقد كان العداًء بينه وبين السيّد شديداً، وكان قد أجمع ألاّ يقبل للسيّد شهادة، وكان قد سعى بالسيّد عند المنصور غير مرّة؛ وكان السيّد قد هجاه فأسرف في هجائه، فشكا ذلك إلى المنصور فنهاه المنصور عنه وأمره أن يذهب إلى القاضي فيعتذر إليه، وأبى القاضي أن يقبل معذرتَه، فاستأنف السيّد الهجاء وألح فيه . ويقال إنّ سَواراً أعدّ شهوداً يشهدون على السيّد بالسرقة ليقطع يده، فلم السيّد ذلك بفزع وفزع إلى المنصور، فعزل المنصور سَواراً من القضاء للسيّد أو عليه، ولم يلبث سَوار أن مات فتبعه السيّد بعدائه وبُغضه وهِجائِهِ .

قال أبو جعفر الأعرج : كان السيّد أسمر تامّ القامة، أشنبَ ذا وَفَرَة، حسنَ الألفاظ جميلَ الخطاب، إذا تحدّث في مجلس قوم أعطى كلّ رجل في المجلس نصيبه من حديثه؛

وقال الفرزدق : إنا ههنا لرجلين لو أخذنا في معنى الناس لما كنا معهما في شيء : السيد الحميري
وعمران بن حطان السدوسي ، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول
في مذهبه ؛ وقال الأصمعي لما أنشد شيئا من شعره : ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ،
ولولا ما في شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته ؛ وكان أبو عبيدة يقول : أشعر المحدثين
السيد الحميري وبشار .

وكان السيد يذهب مذهب الكيسانية ويقول بإمامة محمد بن الحنفية ، وله في ذلك
شعر كثير .

وقف السيد على بشار وهو ينشد الشعر ، فأقبل عليه وقال :

أيها المادح العباد ليُعطى * إني لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم * وأرجُ تفح المئزر العواد
لا تنقل في الجواد ما ليس فيه * وتسمى البخيل باسم الجواد

قال بشار : من هذا ؟ فعرفه ، فقال : لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بني هاشم
لشغلنا ، ولو شاركتنا في مذهبنا لتعبنا .

ومن قول السيد :

أتعرف رثما بالثويين قد دثر * عفته أهاضيب السحاب والمطر
وجرت به الأذيال ريحان خلفه * صبا ودبور بالعشيات والبكر
منازل قد كانت تكون بجوها * هضيم الحشى ربا الشوى سحرها النظر
قطوف الخط نخصانه بجثريه * كأن حياها سنا دارة القمر
رمتي بعيد بعد قريب بها النوى * فبانت ولما أقض من عبدة الوطر
ولما رأتني خشية البين موجعا * أكفكف مني أدما يضها دُرر
أشارت بأطراف إلى ودمعها * كنظم جمان خانه السلك فانتثر
وقد كنت مما أحدث البين حاذرا * فلم يغن عني منه خوفا والحذر

لما استقام الأمر لبني العباس قام السيد إلى أبي العباس السفاح حين نزل عن المنبر فقال:
 دُونْكُوهَا يَا بَنِي هَاشِمٍ * لِحُدُودِهَا الدَّارِ سَا
 دُونْكُوهَا لَا عَلَا كَعْبُ مَنْ * كَاتَ عَلَيْكُمْ مَلِكُهَا نَافِسا
 دُونْكُوهَا فَالْبَسُوا تَاجَهَا * لَا تَعْدَمُوا مِنْكُمْ لَهُ لَابِسا
 لَوْ خَيْرَ الْمَنْبَرِ فُرْسَانُهُ * مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارِسا
 قَدْ سَنَامَهَا قَبْلَكُمْ سَاسَةٌ * لَمْ يَتْرَكُوا رَطْبًا وَلَا يَابِسا
 وَلَسْتُ مِنْ أَنْ تَمْلِكُوهَا إِلَى * مَهَبَطِ عِيسَى فِيكُمْ آيَسا

وبعث بهذه الأبيات إلى المهدي يسأله ألا يعطى آل بكر وعمر من مال الدولة :

قُلْ لِّابْنِ عَبَّاسٍ بَنِي مُحَمَّدٍ * لَا تُعْطِينَ بَنِي عَدِيٍّ ذَرْهَمَا
 إِحْرَمَ بَنِي تَيْمٍ بِنُ مَرَّةٍ لِهَنَمٍ * شَرَّ الْبَرِيَّةِ آخِرًا وَمُقَدِّمًا
 إِنْ تُعْطِيَهُمْ لَنْ يَشْكُرُوا لَكَ نِعْمَةً * وَيَكْفُؤُوكَ بَأْنَ تُدَمُّ وَتُسْتَمَّا
 وَإِنْ أَتَمَّتْهُمْ أَوْ اسْتَعْمَلَتْهُمْ * خَانُوكَ وَاتَّخَذُوا خَرَجَكَ مَغْنَمًا
 وَلَنْ مَنَعْتَهُمْ لَقَدْ بَدَّوْكُمْ * بِالْمَنْعِ إِذْ مَلَكُوا وَكَانُوا أَظْلَمًا
 مَنَعُوا تُرَاثَ مُحَمَّدٍ أَعْمَامَهُ * وَبَنِيهِ وَأَبْنَتَهُ عَدِيلَةَ مَرْيَمَا
 وَتَأْمُرُوا مَنْ غَيْرَ أَنْ يُسْتَخْلَفُوا * وَكَفَى بِمَا فَعَلُوا ذُنُوبًا مَائِمًا
 لَمْ يَشْكُرُوا لِحَمْدِ إِنْْعَامِهِ * أَفِيْشْكُرُونَ لَغَيْرِهِ إِنْ أَنْعَا
 وَاللَّهِ مَنْ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ * وَهَدَاهُمْ وَكَسَا الْخَنُوبَ وَأَطْعَمَا
 ثُمَّ أَنْبَرُوا الْوَصِيَّةَ وَوَلِيَّهُ * بِالْمُنْكَرَاتِ فَجَرَّعُوهُ الْعَلَقَمَا

أنشد السيد جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أَمْرٌ عَلَى جَدِّهِ الْحُسَيْنِ * مِنْ قَبْلِ لِأَعْظَمِهِ الزَّكِيَّةِ
 أَأَعْظَمًا لَا زَلَّتْ مِنْ * وَطَقَاءَ سَاكِيَةِ رَوِيَّةِ
 وَإِذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِهِ * فَاطْلُ بِهِ وَقَفَ الْمَطِيَّةِ

وَأَبِكَ الْمُطَهَّرَ لُطْ * هَرَّ الْمُطَهَّرَةَ النَّقِيَّةَ
كِبْكَاءَ مُعْوَلَةٍ أَتَتْ * يَوْمًا لَوَاحِدَهَا الْمَيْتَةَ

فانحدرت دموع جعفر على خديه وأرتفع الصراخ والبكاء من داره حتى أمره بالإمساك فأمسك .

ومن قول السيد في إمامة ابن الحنفية :

أَلَا يَا أَيُّهَا الْجَدِيدُ الْمَعْنَى * لَنَا مَا نَحْنُ وَنَحْكَ وَالْعَنَاءُ
أَتُبَصِّرُ مَا تَقُولُ وَأَنْتَ كَهْلٌ * تَرَكَ عَلَيْكَ مِنْ وَرَيْعٍ رَدَاءُ
أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ * وَلَاةُ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
عَلَى وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ ^(١) * هُمْ أَسْبَاطُهُ وَالْأَوْصِيَاءُ
فَأَنَّى فِي وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ * يَكُونُ الشُّكُّ مِنَّا وَالْمِرَاءُ
بِهِمْ أَوْصَاهُمْ وَدَعَا إِلَيْهِ * جَمِيعَ الْخَلْقِ لَوْ سَمِعَ الدَّعَاءُ
فَسَبْطُ سَبْطِ إِيْمَانٍ وَحِلْمٍ * وَسَبْطُ غَيْبَتِهِ كَرْبَلَاءُ
سَقَى جَدًّا تَضَمَّنَتْهُ مُلْكٌ * هَتَوْفُ الرِّعْدِ مَرْتَجِزُ رَوَاءُ
تَظَلَّ مُظَلَّةً مِنْهَا عَزَالٍ * عَلَيْهِ وَتَعْتَدِي أُخْرَى مِلَاءُ
وَسَبْطُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى * يَقُودَ الْخَيْلُ يَقْدُمُهَا الْوَاءُ
مِنَ الْبَيْتِ الْمَحْجَبِ فِي سُرَاةٍ * شِرَاةٍ لَفٍ بَيْنَهُمُ الْإِخَاءُ
عَصَائِبُ لَيْسَ دُونَ أَغْرَ أَجَلِي * بِمَكَّةَ قَائِمٌ لَمْ يَنْتَهَاءُ

وأنشد العتيبي قصيدته اللامية التي أولها :

هَلْ عِنْدَ مَنْ أَحْبَبْتَ تَوِيلُ * أَمْ لَا فَإِنَّ الْيَوْمَ تَضَلِيلُ
أَمْ فِي الْحَشَى مِنْكَ جَوَى بَاطِلُ * لَيْسَ تُدَاوِيهِ إِلَّا بَاطِلُ

(١) هم الحسن والحسين ومحمد . (٢) الغزلاء : مصيب الماء من الراوية ونحوها ، ويقال : أنزلت

السما غزالها إشارة إلى شدة وقوع المطر على التشبيه بنزوله من أفواه المرادات .

عَلِمْتَ يَا مَغْرُورُ خَدَاعَةً * بِالْوَعْدِ مِنْهَا لَكَ تَحْيِيلُ
رِيًّا رَدَّاحَ النَّوْمِ مُخْصَانَةً * كَأَنَّهَا أَذْمَاءُ عُطْبُولُ
يَسْفِيكَ مِنْهَا حِينَ تَحْلُو بِهَا * ضَمُّهُ إِلَى النَّحْرِ وَتَقْيِيلُ
وَذَوْقُ رِيْقٍ طَيِّبٍ طَعْمُهُ * كَأَنَّهُ بِالْمَسْكِ مَعْلُولُ
فِي نِسْوَةٍ مِثْلِ الْمَهَا تُخْرِدُ * تَضْيِيقُ عَنْقِ الْخَلَائِلِ

يقول فيها :

أُقْسِمُ بِاللَّهِ وَالْآلَاءِ * وَالْمَرْءِ عَمَّا قَالَ مَسْئُولُ
إِنْ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ * عَلَى التَّقَى وَالْبَرِّ مَجْبُولُ

فقال : أحسن والله ما شاء، هذا والله الشعر الذي يهجم على القلب بلا حجاب .
قيل للسيد : مالك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تُسال عنه كما يفعل الشعراء؟
قال : لأن أقول شعرا قريبا من القلوب يلذه من سمعه، خير من أن أقول شيئا معقدا
تضل فيه الأوهام .

تقدم السيد إلى سوار القاضي ليشهد عنده، فلم يرض به، فقام مغضبا من مجلسه،
وكتب رقعة يقول فيها :

يَا أَمِينَ اللَّهِ يَا مَنْ * صُورُ يَا خَيْرَ الْوَلَاةِ
إِنْ سَوَّارَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ * مِنْ شَرِّ الْقُضَاةِ
نَعْنَلِي جَمَلِي * لَكُمْ غَيْرُ مُوَاتٍ
جَدُّهُ سَارِقُ عَتْرِ * بِحُجْرَةٍ مِنْ بَحْرَاتٍ
لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْقَا * ذِفُّهُ بِالْمُنْكَرَاتِ
وَأَبْنُ مَنْ كَانَ يُنَادِي * مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَاتِ
يَاهِنَاةُ أَخْرَجَ الْبِنَا * إِنَّا أَهْلُ هَنَاتٍ
مَدَحْنَا الْمَدْحَ وَمَنْ نَرَى * مِ يَصَبُّ بِالزَّفَرَاتِ
فَاكْفَيْهِ لَا كَفَاهُ اللَّهُ * شَرُّ الطَّارِقَاتِ

قيل : فلما قرأها سوار وثب من مجلسه وقصد أبا جعفر المنصور، وهو يومئذ نازل بالجسر، فسبقه السيد إليه فأنشده :

قل للإمام الذى يُنجى بطاعته * يوم القيامة من مجبوحة النار
لا تستعين وجزاك الله صالحاً * ياخير من دب في حكم سوار
لا تستعين بخبيث الرأى ذى صائف * جم العيوب عظيم الكبر جبار
يضحى الخوصوم لديه من تجبره * لا يرفعون اليه لحظ أبصار
تيها وكبرا ولولا ما رفعت له * من ضبعه كان عين الجائع العارى

ودخل سوار، فلما رآه المنصور تبسم وقال : أما بلغك خبر إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستراد فى الشهود ؟ فما أحوجك للتعرض للسيد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصالحته .

دخل السيد على المهدي لما بايع لأبيه موسى وهارون، فأنشأ يقول :

ما بال مجرى دمك الساجم * أم قدى بات بها لازم
أم من هوى أنت له ساهر * صابئة من قلبك الهائم
آليت لا أمدح ذا نائل * من معشير غير بنى هاشم
أوليتهم عندى يد المصطفى * ذى الفضل والمن أبى القاسم
فإنها بيضاء محمودة * جزاؤها الشكر على العالم
جزاؤها حفظ أبى جعفر * خليفة الرحمن والقائم
وطاعة المهدي ثم أبنه * موسى على ذى الإزبة الحازم
وللرشيد الرابع المرتضى * مقترض من حقه اللازم
ملكهم خمسون معدودة * برغم أنف الحاسد الراغم
ليس علينا ما بقوا غيرهم * فى هذه الأئمة من حاكم
حتى يردوها الى هابط * عليه عيسى منهم ناجم

ومن شعر السيد :

ما جرت خَطَرَةٌ على القلب مَنَى * فبك لآلا استترت عن أصحابي
من دموع تجرى فإن كنت وحدى * خاليا أسعدت دموعى انتحاي
إن حبى إياك قد سلَّ جسمى * ورماني بالشيب قبل الشباب
لو منحت اللقا شفى بك صبأ * هائم القلب قد ثوى فى التراب

ومما قاله فى الحبس :

قُبْ بالديار وحيتها يا مَرْبُع * وأسأل وكيف يُجيب مَنْ لا يسمع
إن الديار خلت وليس بجوها * إلا الضوايح والجمام الوقع
ولقد تكون بها أوانس كالدمى * جمل وعزّة والرباب وبروع
حور نواغم لا ترى فى مثلها * أمثالهن من الصيانة أربع
فعرين بعد تألف وتجمع * والدهر صاح مُشَتَّت ما يجمع
فاسلم فإنك قد نزلت بمنزى * عند الأمير تُضَرِّ فيه وتنفع
تؤتى هواك اذا نطقت بحاجة * فيه وتشفع عنده فتشفع
قل للأمير اذا ظفرت بحلوة * منه ولم يك عنده من يسمع
هب لى الذى أحبته فى أحمد * وبنيه إنك حاصد ما تزرع
يختص آل محمد بحبة * فى الصدر قد طويت عليها الأضلع

وقال يهجو امرأة وارث مؤسر من خلّانه ، وكانت تعذل زوجها على إسرافه :

أقول ياليت لى فى يدى حنق * من العداوة من أعدى أعاديها
يعلوها فوق رعين ثم يُحْدِرها ^(١) * فى هوة فتدهدى يومها فيها
أوليتما فى غمار البحر قد عصفت * فيه الرياح فهاجت من أواذيا ^(٢)

(١) الرعين : أف يتقدم الجبل لجمعه رعين ورعان . والجبل : الطويل ودهدى الحجر فتدهدى ، أى درجه

فتدحرج . (٢) الأواذى : أمواج البحر مفردها آذى .

أُولَيْتَهَا قَدَدَنْتَ يَوْمًا إِلَى فَرَسِي * قَدْ شُدَّ مِنْهُ إِلَى هَادِيهِ هَادِيهَا
 حَتَّى يُرَى لِحْمُهَا مِنْ حُضْرِهِ زَيْمًا^(١) * وَقَدْ أَتَى الْقَوْمَ بَعْدَ الْمَوْتِ نَاعِيهَا
 فَمَنْ بَكَاهَا فَلَا جَفَّتْ مَدَامُهَا * لَا أَسْخَنَ اللَّهُ إِلَّا عَيْنَ بَاكِهَا

وقيل : إن آخر قصيدة له هي قوله :

أَشَاقَتِكَ الْمَنَازِلُ بَعْدَ هِنْدٍ * وَتَرْبِيهَا وَذَاتِ الدَّلِّ دَعْدٍ
 مَنَازِلُ أَقْفَرَتْ مِنْهُمْ مَحْتٌ * مَعَالِمُهُنَّ مِنْ سَيْلٍ وَرَعْدٍ
 وَرِيحٌ خَرَجَفٍ تَسْتَنُّ فِيهَا * بِسَافَى التُّرْبِ تُلْجِمُ مَا تُسَدِّى
 أَلَمْ يَلُغْكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْمِي * مَقَالُ مُحَمَّدٍ فِيمَا يُؤَدِّى
 إِلَى ذِي عَلَيْهِ الْمَهَادَى عَلَى * وَخَوْلَةُ خَادِمٍ فِي الْبَيْتِ تَرْدِي
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ خَوْلَةَ سَوْفَ تَأْتِي * بَوَارِي الزُّنْدِ صَافِي الْإِلْهِمِ نَجْدِي
 يَفُوزُ بِكُنْيَتِي وَأَسْمَى لَأْتِي * نَحْلُهُمَا هُوَ الْمَهْدَى بَعْدِي
 يَغِيبُ عَنْهُمْ حَتَّى يَقُولُوا * تَضَمَّنَهُ بِطْنُ لَحْدٍ
 سَنِينَ وَأَشْهَرًا وَيُرَى بَرَضَوَى * بِشُعْبٍ بَيْنَ أُنْمَارٍ وَأُسْدٍ
 مُقِيمٌ بَيْنَ آرَامٍ وَعَيْنٍ * وَحَفَّافٍ^(٢) تَرُوحُ خِلَالِ رُبْدٍ
 تُرَاعِيهَا السَّبَاعُ وَلَيْسَ مِنْهَا * مُلَاقِيهِمْ مُقْتَرِسًا بِحَدِّ
 أَمِنْ بِهِ الرَّدَى فَرَتَعْنَ طَوْرًا * بَلَا خَوْفٍ لَدَى مَرْغَى وَوَرْدٍ
 حَلَفْتُ رَبِّ مَكَّةَ وَالْمُصَلَّى * وَبَيْتِ طَاهِرِ الْأَرْكَانِ فَرْدٍ
 يَطُوفُ بِهِ الْحَجَّاجُ وَكُلُّ عَامٍ * يَحِلُّ لَدَيْهِ وَقْدٌ بَعْدَ وَقْدٍ
 لَقَدْ كَانَ ابْنُ خَوْلَةَ غَيْرَ شَكٍّ * صَفَاءَ وَلَا تَيْ وَخُلُوصَ وَدَى
 فَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ فِيمَا * أُسْرُومًا أَبُوحَ بِهِ وَأُبْدِي
 سَوَى ذِي الْوَسْخِ أَحْمَدَ أَوْ عَلِيَّ * وَلَا أَزْكَى وَأَطْيَبَ مِنْهُ عِنْدِي

(١) الزيم : المتفرق من اللحم . (٢) الحفان : صفار النعام .

وَمَنْ ذَا يَأْنِ خَوْلَةٍ إِذْ رَمَتْنِي * بِأَسْهَمِهَا الْمَنِيَّةُ حِينَ وَعَدِي
 يُدَبِّبُ عَنْكُمْ وَيُسُدُّ مَا * تَسْلَمُ مِنْ حِصُونِكُمْ كَسَدِي
 وَمَالِي أَنْ أُمِرَّ بِهِ وَلَكِنْ * أَوْمِلُ أَنْ يُؤَخَّرَ يَوْمُ فَقْدِي
 فَأُدْرِكَ دَوْلَةٌ لَكَ لَسْتُ فِيهَا * بِجَبَّارٍ فَتُوصَفَ بِالْتَعْدِي
 عَلَى قَوْمٍ بَغَوْا فِيكُمْ عَلَيْنَا * لَتُعْدَى مِنْكُمْ يَا خَيْرَ مُعَدٍ
 لَتَعْلُبُنَا عَلَيْهِمْ حَيْثُ كَانُوا * بَغَوْرٍ مِنْ تَهَامَةٍ أَوْ بَنَجْدٍ
 إِذَا مَا سِرْتَ مِنْ بَلَدٍ حَرَامٍ * إِلَى مَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ مَعَدٍ
 وَمَاذَا عَزَّهْمُ وَالْخَيْرُ مِنْهُمْ * بِأَشْوَسَ أَعْصَلَ الْأَنْيَابَ وَرَدٍ
 وَأَنْتَ لِمَنْ بَغَى وَعَدَا وَأَذْكَى * عَلَيْكَ الْحَرْبَ وَأَسْتَرْدَاكَ مُرْدٍ

٨ - سلم بن عمرو الخنيسر^(١)

كان منقطعاً الى البرامكة والى الفضل بن يحيى خصوصاً من بينهم ، وفيه يقول أبو العتاهية :

إنما الفضل لسلم وحده * ليس فيه لسوى سلم درك

وكان هذا أحد الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبي العتاهية . ولسلم يقول أبو العتاهية وقد حجَّ مع عتبة :

والله والله ما أبالي متى * ما متُّ يا سلم بعد ذا السفر
أليس قد طُفَّتْ حيث طافت وقب * لمت الذي قبلت من الحجر

وله يقول أبو العتاهية وقد حبس إبراهيم الموصلي :

سلم يا سلم ليس دونك سر * حبس الموصلي فالعيش مر
ما استطاب اللذات ، مذسكن المط * ببق رأس اللذات والله ، حر
ترك الموصلي من خلق الله * له جميعاً وعيشهم مفسر

(١) هو سلم (ويقال سالم) بن عمرو أحد موالى أبي بكر الصديق ، نشأ في البصرة ، وكان شاعراً مطبوعاً متصرفاً في فنون الشعر ، وكان متظاهراً بالخلاعة والفسوق والحجون ، وزاد شاعرية وتمرساً بالشعر على يد بشار ، لأنه كان راوياً له وتلميذه ، أخذ عنه واعترف من بحره ونسج على منواله ، وكثيراً ما كان يأخذ أقواله فيسليخها ويمسخها كما مسخ هذا البيت :

من راقب الناس لم يظفر بجاحته * وفاز بالطيبات القاتك الهمج

فعله :

من راقب الناس مات غماً * وفاز باللذة الجسور

فبلغ بيته بشاراً فغضب وأقسم ألا يدخل عليه ولا يفيدته مادام حياً ، فاستشفع اليه بكل صديق حتى رضى ووبخه وقنعه بمحضرة كانت يسده . وكان صديقاً لإبراهيم الموصلي المعنى المشهور ولأبي العتاهية . وكان يمدح البرامكة وخصوصاً الفضل بن يحيى . توفي سنة ١٨٦ هـ . وتجد ترجمته في الأغاني ج ٢١ ص ١١٠ . وابن خلكان

لما قال بشار قصيدته الميمية في عمر بن العلاء وهي التي يقول فيها :

إذا نَهَنَكَ صَعَابُ الْأُمُورِ * فَبَنَّهُ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمَّ

فَتَى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ * وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا بَدَمَ ^(١)

بعث بها مع سلم الى عمر بن العلاء، فوافاه، فأنشده إياها، فأمر لبشار بمائة ألف درهم،

فقال له سلم : إن خادمك — يعني نفسه — قد قال في طريقه فيك قصيدة، قال : فإنك

لهناك ! قال : تسمع ثم تحكم؛ قال : هات، فأنشده :

قَدْ عَزَّنِي الدَّاءُ فَمَا لِي دَوَاءُ * مِمَّا آلَى مِنْ حَسَنِ النِّسَاءِ

قَلْبٌ صَحِيحٌ كُنْتُ أَسْطُوبُهُ * أَصْبَحَ مِنْ سَلَمَى بَدَاءِ عِيَاءِ

أَنْفَاسُهَا مِسْكٌ وَفِي طَرْفِهَا * سِحْرٌ وَمَا لِي غَيْرُهَا مِنْ دَوَاءِ

وَعَدْتِي وَعَدًّا فَأَوْفِي بِهِ * هَلْ تَصْلُحُ الْحُمْرَةُ إِلَّا بِمَاءِ

ويقول فيها :

كَمْ كُرْبَةٍ قَدْ مَسَّنِي ضَرْهَا * نَادَيْتُ فِيهَا عُمَرَ بْنَ الْعَلَاءِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم، فكانت أول عطية سَنِيَّةٍ وصلت إليه .

ومن قوله يَرَى بِأَقْوَنَةَ بَنَتِ الْمَهْدَى :

أَوْدَى بِبَاقْوَنَةَ رَيْبُ الزَّمَانِ * مَوْلَسَةِ الْمَهْدَى وَالْخِزْرَانِ

لَمْ تَنْطَوِ الْأَرْضُ عَلَى مِثْلِهَا * مَوْلُودَةٍ حَنَّ لَهَا الْوَالِدَانِ

بَاقُونُ يَا بَنَتِ إِمَامِ الْمَدَى * أَصْبَحْتَ مِنْ زِينَةِ أَهْلِ الْجَنَانِ

بَكَتْ لَكَ الْأَرْضُ وَسَكَانُهَا * فِي كُلِّ أَفْقٍ بَيْنَ إِنْسِلٍ وَجَانِ

دخل سلم على الفضل بن يحيى في يوم تَبْرُوزِ والهدايا بين يديه، فأنشده :

أَمِنْ رُبِّهِ تَسَائُلُهُ * وَقَدْ أَقَوْتُ مَنَازِلَهُ

بَقْلِي مِنْ هَوَى الْأَطْلَالِ * لِي حُبٌّ مَا يَزِيلُهُ

رُؤَيْدُكُمْ عَنِ الْمَشْعُو * فِإِنْ الْحَبَّ قَاتِلُهُ
 بَلَّائِلُ صَدْرِهِ تَسْرِي * وَقَدْ نَامَتْ عَوَازِلُهُ
 أَحَقُّ النَّاسِ بِالْتَفْضِي * لَنْ مِنْ تُرْجَى فَوَاضِلُهُ
 رَأَيْتُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ * قَ مَا صَمَّتْ حَمَائِلُهُ
 فَلَسْتُ أَرَى قَتَى فِي النَّاسِ * مِثْلَ إِلَّا الْفَضْلُ فَاضِلُهُ
 يَقُولُ لِسَانُهُ خَيْرًا * فَتَفْعَلُهُ أَنَامِلُهُ
 وَمَهْمَا يُرْجَى مِنْ خَيْرٍ * فَإِنَّ الْفَضْلَ فَاعِلُهُ

وكان إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق حاضرين، فقال لإبراهيم: كيف ترى وتسمع؟ قال: أحسن مرئي ومسموع، وفضل الأمير أكثر منه؛ فقال: خذوا جميع ما أهدى إلى اليوم فاقسموه بينكم أثلاثاً إلا ذلك التمثال، فإني أريد أن أهديه اليوم إلى دنائير؛ ثم قال: لا والله ما هكذا تفعل الأحرار، يقوم ويدفع اليهم ثمته ثم يهديه، فيقوم بالنقود ديناراً، يحملها إلى القوم من بيت ماله واقسموا جميع الهدايا بينهم.

كان المهدي يعطي مروان وسلمة الخاسر عطية واحدة، فكان سلم يأتي باب المهدي على البرذون الفاره، قيمته عشرة آلاف درهم بئرج ولحام مفضضين، ولباسه الخبز والوشى وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه، ويحيى مروان بن أبي حفصة عليه فروكل وقيص كرايس وعمامة كرايس وجقائل وكساء غليظ، وهو مئتن الرائحة، وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم إليه بخلاً، فإذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله، فقال له قائل: أراك لا تأكل إلا الرأس، قال: نعم أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولا اشتري لهما فيطبخه فيأكل منه، والرأس أكل منه ألوانا: أكل من عينيه لوناً ومن غلصمته لوناً ومن دماغه لوناً.

(١) قصير . (٢) الكرايس : جمع كرابس وهو الفطن . (٣) أي خفا فرو كثير الصوف

غليظة . (٤) الغلصمة : أصل اللسان . (٥) أي خفا فرو كثير الصوف

كان سلم قد بُليَ بالكيمياء، فكان يذهب بكل شيء له باطلاً، فلما أراد الله عز وجل أن يصنع له عرف أن بباب الشام صاحب كيمياء عجيباً، وأنه لا يصل إليه أحد إلا ليلاً، فسأل عنه، فدُلَّوه عليه . قال : فدخلت إليه الى موضع معور^(١)، فدققت الباب فخرج إلى، فقال : من أنت عافاك الله؟ فقلت : رجل معجب بهذا العلم؛ قال : فلا تشهرني فإني رجل مستور إنما أعمل القوت، قلت : إني لا أشهرك إنما أقبس منك، قال : فاكتم ذلك، وبين يديه كوز شبه صغير^(٢)، فقال لي : اقلع عُروته، فهلعتُها، فقال : اسبكها في البوتقة^(٣)، فسبكُها، فأخرج شيئاً من تحت مصلاه فقال : ذره عليه، ففعلت، فقال : أفرغه، فأفرغته، فقال : دعه معك، فاذا أصبحت فأخرج فيعه وعُدْ إلى؛ فأنخرجته الى باب الشام فبعث المتقال بأحد وعشرين درهماً ورجعتُ إليه فأخبرته، فقال : اطلب الآن ما شئت؛ قلت : تُفيدني؟ قال : بخسمائة درهم على ألا تُعلمه أحداً، فأعطيته وكتب لي صفة فامتحنتها فاذا هي باطلة، فعدتُ إليه، فقيل لي : قد تحوّل وإذا عُروة الكوز الشبه من ذهب مركبة عليه، والكوز شبه، ولذلك كان يدخلُ إليه من يطلبه ليلاً ليخفي عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد بي خيراً وأن هذا كله باطل .

قال أبو المستهل : دخلت يوماً على سلم واذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثي ببعضها أم جعفر، وبعضها جارية غير مسماة، وبعضها أقواماً لم يموتوا، وأم جعفر يومئذ باقية؛ فقلت له : ويحك ما هذا؟ فقال : تحدث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد، فنعد لهم هذا قبل كونه، فتي حدث حادث أظهرنا ما قلناه فيه قديماً على أنه قيل في الوقت .

دخل سلم على الرشيد فأنشده : * حَيِّ الأُحِبَّةَ بِالسَّلام * فقال الرشيد : حياهم الله بِالسَّلام؛ فقال سلم : * أَعْلَى وَدَاجِ أُمِّ مُقَام * فقال الرشيد : حياهم الله على أَى ذلك كان، فأنشده :

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ وَمِنْهُمْ * غَيْرُ الْجُلُودِ عَلَى الْعِظَامِ

(١) معور : مخوف . (٢) الشبه : النحاس الأصفر . (٣) البوتقة : الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ .

فقال له الرشيد : بَلْ مِنْكَ ، وأمر بإخراجه ، وتطير منه ومن قوله ، فلم يسمع منه باقى الشعر ولا أتابه بشيء .

استوهب اسحاق الموصلي من الرشيد تركة سلم ، وكان قد مات عن غير وارث ، فوهبها له قبل أن يتسلمها صاحب الموارث ، فحصل منها على خمسين ألف دينار ، وروى أنه رفع الى الرشيد أنب سلما قد توفى وخلف مما أخذه منه خاصة ومن زُبيدة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم سوى ما خلفه من عقار وضيعة مما اعتقده قديما ، فقبضه الرشيد وتظلم اليه مواليه من آل أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ، فقال : هذا خادمى وندبى ، والذي خلفه من مالى فأنا أحق به ، فلم يعطهم إلا شيئا يسيرا من قديم أملاكه .

(١) املكه .

٩ - رِبِيعَةُ الرَّقِيِّ^(١)

كان مُنْقَطِعًا عن الحضارة ، بعيدًا عن مُجَالَسَةِ الخلفاء ، فَأُنْجِلَ ذِكْرُهُ بسبب ذلك ؛ لكنهم كانوا يستقدمونه اليهم . وأوّل من فعل ذلك المَهْدِيُّ ، فَدَحَهُ ونال جَوَائِزَهُ ؛ وكان ابنُ المُعْتَرِي ربيعة أشعرَ غَزَلًا من أبي نُؤَاس ، لأن في غَزَلِ أبي نُؤَاس بردًا كثيرًا ، وَغَزَلَ هذا سُلَيْمٌ عَذْبٌ سَهْلٌ ، ولذلك فَإِنَّ شهرته بَلَّغَتْ إلى بِلَاطِ الخليفة . وكان يمدحُ غيرَ الخلفاء وَيَنَالُ جَوَائِزَهُمْ وَيُعَوِدُ إلى بلده ، وإن قَصُرَ أَحَدٌ في إعطائه هِجَاءً ، وله في ذلك حديثٌ مع العباس بن محمد بن علي من أمراء بني العباس .

ومن قوله يمدح يزيد بن حاتم المَهْلِيُّ ويهجو يزيد بن أُسَيْدِ السُّلَمِيِّ :

حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ * يَمِينِ أَمْرِي آلِي بِهَا غَيْرَ آئِمٍ
لَشَتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى * يَزِيدُ سُلَيْمٌ وَالْأَغَرُّ ابْنُ حَاتِمٍ
يَزِيدُ سُلَيْمٌ سَالِمُ الْمَالِ ، وَالْفَقِي * أَخُو الْأَزْدِ لِلْأَمْوَالِ غَيْرُ مُسَالِمٍ
فَهَمْ الْفَقِي الْأَزْدِيُّ إِتْلَافُ مَالِهِ * وَهُمْ الْفَقِيُّ الْقَيْسِيُّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبُ التَّمَتُّمُ أَنَّ هَجْوَهُ * وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

قال رجلٌ لربيعه : يَا أَبَا أُسَامَةَ ، مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ هَجَوْتَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِكَ وَفَضَّلْتَ عَلَيْهِ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ ؟ فَقَالَ : أَخْبِرْكَ ، أَمَلَقْتُ فَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا دَارِي ، فَرَهْنُتُهَا عَلَى خَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَرَحَلْتُ إِلَيْهِ إِلَى أَرْمِينِيَّةٍ ، فَأَعْلَمْتُهُ بِمَكَانِي وَمَدَحْتُهُ ، وَأَقَمْتُ عِنْدَهُ حَوْلًا ، فَوَهَبَ لِي

(١) هو أبو أسامة ربيعة بن ثابت من موالى سليم ، ويكنى أبا شباية ، وكان ينزل الرقة ، وبها مولده ومنشؤه ، فأشخصه المهدي إليه ، فدحه بعدة قصائد وأتابه عليها ثوابا كبيرا ، وهو من المكثرين المجيدين ، وكان ضريرا وانما أنجل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء ومع ذلك فاعدم مفضلا مقدمًا له . وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٥ ص ٣٨) ونزاة الأدب للبغدادى (ج ٣ ص ٥٥) .

(٢) أى لا استثناء فيها .

(٣) هو يزيد بن أسيد (بضم الهمزة) من بهمة بن سليم ، وأخو الأزد هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب .

نعمسائة درهم، فتحملت وصرت بها الى منزلى، فلم يبق معى كبير شىء، فترلت فى دار يكرء، فقلت : لو أتيت يزيد بن حاتم، ثم قلت : هذا ابن عمى فعل بى هذا الفعل فكيف بغيره ! ثم حملت نفسى على أن آتيه، فأعلم بمكانى، فتركنى أشهرا حتى صخرت، فأكرت نفسى من الجمالين . وكتبت بيتاً فى رقعة فالقيته فى دهليزه، والبيت :

أرأيتى ولا كفوران لله راجعاً * بحفى حنين من يزيد بن حاتم

فوقعت الرقعة فى يد حاجبه، فأوصلها اليه من غير علمى ولا أمرى، فبعث خلفى، فلما دخلت عليه قال : هيه أنشدنى ما قلت، فتمنعت، فقال : والله لتُنشدنى، فأنشدته، فقال : والله لا ترجع كذلك، ثم قال : أنزعوا خفيه، فنزعوا خشاهاً دانير وأمرى بغيره وجوار وكسى، ألا ترى لى أن أمدح هذا وأهجو ذاك ؟ قلت : بلى والله، وسار شعرى حتى بلغ المهدي، فكان سبب دخولى اليه .

قيل لأبى زيد النحوى : إن الأصمى قال : لا يقال شتان ما بينهما، وإنما يقال : شتان ما هما، وأنشد قول الأعشى : * شتان ما يومى على كورها * فقال : كذب الأصمى، يقال : شتان ما هما وشتان ما بينهما، وأنشد لربيعة الرقى : « لشتان ما بين اليزيدين » وفى آستشهاد مثل أبى زيد على دفع قول مثل الأصمى بشعر ربيعة كفاية له فى تفضيله .
أمتدح ربيعة العباس بن محمد بن على بقصيدة لم يسبق إليها حسناً، وهى طويلة، يقول فيها :

لو قيل للعباس يابن محمد * قل « لا » وأنت مخلد ما قالها

ما إن أعد من المكارم خصلة * إلا وجدتك عمها أو خالها

وإذا الملوك تسايروا فى بلدة * كانوا كواكبها وكنت هلالها

إن المكارم لم تزل معقولة * حتى حلت براحتك عقالها

فبعث اليه بدينارين، وكان يُقدَّر فيه ألفين، فلما نظر الى الدينارين كاد يُبْحَ غيظاً وقال للرسول : خذ هذين الدينارين فهما لك على أن ترد الرقعة الى من حيث لا يدرى العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخذها ربيعة وأمر من كتب فى ظهرها :

مَدَحْتُكَ مَدْحَةَ السَّيْفِ الْمَحَلِّ * لِتَجْرِيَ فِي الْكَرَامِ كَمَا جَرَتْ
فَهَبْهَا مَدْحَةً ذَهَبَتْ ضِيَاهَا * كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيهَا وَأَفْتَرَيْتُ
فَأَنْتَ الْمَرْءُ لَيْسَ لَهُ وَفَاءٌ * كَأَنِّي إِنْ مَدَحْتُكَ قَدْ زَلَّيْتُ

ثم دفعها الى الرسول وقال : ضَعُفَا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَخَذْتَاهُ مِنْهُ ، فَرَدَّهَا الرَّسُولُ ؛ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَخَذَهَا الْعَبَّاسُ فَنَظَرَ فِيهَا ، فَلَمَّا قَرَأَ الْآيَاتِ غَضِبَ وَقَامَ مِنْ وَقْتِهِ فَرَكِبَ إِلَى الرَّشِيدِ ، وَكَانَ أَثِيرًا عِنْدَهُ يُبْجِلُهُ وَيَقْدِمُهُ ، وَكَانَ قَدْ هَمَّ أَنْ يَخْطُبَ إِلَيْهِ ابْنَتَهُ ، فَرَأَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَقَالَ : هَجَانِي رُبَيْعَةُ الرَّقَى ، فَأَحْضَرْتُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : تَهْجُو عَمِّي وَأَثَرَ الْخَلْقِ عِنْدِي ؟ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَكَ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ مَدَحْتُهُ بِقَصِيدَةٍ مَا قَالَ مِثْلَهَا أَحَدٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي أَحَدٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ ، وَلَقَدْ بَالِغْتُ فِي الثَّنَاءِ وَأَكْثَرْتُ فِي الْوَصْفِ ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْمُرَهُ بِإِحْضَارِهَا ! فَلَمَّا سَمِعَ الرَّشِيدُ ذَلِكَ مِنْهُ سَكَنَ غَضَبُهُ وَأَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْقَصِيدَةِ ، فَأَمَرَ الْعَبَّاسَ بِإِحْضَارِ الرَّقْعَةِ ، فَتَلَّكَأَ عَلَيْهِ الْعَبَّاسُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : سَأَلْتُكَ بِحَقِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا أَمَرْتَ بِإِحْضَارِهَا ، فَعَلِمَ الْعَبَّاسُ أَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ وَغَلِطَ ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهَا ، فَأَحْضَرْتُ ، فَأَخَذَهَا الرَّشِيدُ وَإِذَا فِيهَا الْقَصِيدَةُ بِعَيْنِهَا ، فَاسْتَحْسَنَهَا وَاسْتَجَادَهَا وَأَعْجَبَ بِهَا وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا قَالَ أَحَدٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي أَحَدٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ مِثْلَهَا ، لَقَدْ صَدَّقَ رُبَيْعَةُ وَبَرٌّ ، ثُمَّ قَالَ لِلْعَبَّاسِ : يَمَّ أَثْبَتَهُ عَلَيْهَا ؟ فَسَكَتَ الْعَبَّاسُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَجَرَّضَ بَرِّيقَهُ ^(٢) ، فَقَالَ رُبَيْعَةُ : أَنَا بَنِي عَلَيْهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِدِينَارَيْنِ ، فَتَوَهَّمُ الرَّشِيدُ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ مِنَ الْمَوْجِدَةِ عَلَى الْعَبَّاسِ ، فَقَالَ : بِحَيَاتِي يَا رَقَى بِكُمْ أَنَا بَكٌ ؟ قَالَ : وَحَيَاتِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنَا بَنِي عَلَيْهَا إِلَّا بِدِينَارَيْنِ ، فَغَضِبَ الرَّشِيدُ غَضَبًا شَدِيدًا وَنَظَرَ فِي وَجْهِ الْعَبَّاسِ وَقَالَ : سَوْءَةٌ لَكَ ! أَى حَالٍ قَعَدْتُ بِكَ عَنْ إِثَابَتِهِ ؟ الْأَمْوَالُ ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ مَوَّلْتُكَ جُهْدِي ، أَمْ أَتَقْطَعُ الْمُسَادَّةَ عَنْكَ ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَتَقَطَعْتُ ، أَمْ أَصْلُكَ ؟ فَهُوَ الْأَصْلُ لَا يُدَانِيهِ شَيْءٌ ، أَمْ تَقُصُّكَ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ حَتَّى فَضَحْتَ أَبَاءَكَ وَأَجْدَادَكَ وَفَضَحْتَنِي

(١) أثيرا : مكرما . (٢) جرض بريقه : ابتلعه بالجهد على هم وحرن .

وَنَفْسَكَ ؟ فَتَنَسَّ عَبَّاسُ رَأْسَهُ وَلَمْ يَنْطِقْ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ : يَا غَلَامُ ، أَعْطِ رُبْعَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ وَخِلْعَةً وَأَحْمِلْهُ عَلَى بَغْلَةٍ ، فَلَمَّا حُمِلَ الْمَسْأَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْبَيْسُ الْخَالِعَةُ قَالَ : بِحَيَاتِي يَارِاقُ لَا تَذْكُرْهُ فِي شِعْرِكَ لَا تَعْرِضًا وَلَا تَصْرِيحًا ، وَقَتَرِ الرَّشِيدُ عَمَّا كَانَ هَمُّهُ بِهِ أَنْ يَتَرَوَّجَ إِلَيْهِ ، وَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَفَاءٌ كَثِيرٌ وَأَطْرَاحٌ لَهُ .

قال أبو بشر : كنتُ حاضراً ربِيعَةَ الرِّقَى يوماً وَجَاءَتْهُ أَمْرَأَةٌ فَتَالَتْ : تقول لك فلانة إن بنتَ مولاي محبوبةٌ فإن كنتَ تَعْرِفُ لَهَا عَوْدَةً ^(١) فَأَفْعَلْ ، فَقَالَ آكَتُبْ لَهَا أَبَا بَشَرٍ هَذِهِ الْعَوْدَةُ :

ثِقُوا ثِقُوا بِأَسْمِ الْهَلِيِّ الَّذِي * لَا يَعْرِضُ السُّقْمُ لِمَنْ قَدْ شَفَى
أَعْيِدْ مَوْلَاتِي وَمَوْلَاتَهَا * وَأَبْتَهَا بِعَوْدَةِ الْمُصْطَفَى
مَنْ شَرٌّ مَا يَعْرِضُ مِنْ عِلَّةٍ * فِي الصَّبْحِ وَاللَّيْلِ إِذَا أَسْدَفَا

فقلتُ له : يا أبا ثابت ، لستُ أَحْسِنُ أَنْ أَكْتُبَ ثِقُوا ثِقُوا ، فكيف أكتبها ؟ قال أَنْضَحَ الْمِدَادَ مِنْ رَأْسِ الْقَلَمِ فِي مَوْضِعَيْنِ حَتَّى يَكُونَ كَالنَّفْثِ ^(٢) ، وَأَدْفَعَ الْعَوْدَةَ إِلَيْهَا فَإِنِهَا نَافِعَةٌ ، ففعلتُ ودفعْتُهَا إِلَيْهَا ، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ جَاءَتْ الْجَارِيَةُ وَهِيَ لَا تَتِمَّاكَ صَحْكَاً ، فَقَالَتْ لَهُ : ياجنون ما فعلتَ بنا ! كِدْنَا نَفْتَضِحُ بِمَا صَنَعْتَ ! قال : فما أصنع ! أشاعرُ أنا أم صاحبُ تَعَاوِيذٍ ! .

وَأَتَّفَقَ لِلرَّقَى أَيْضاً مِثْلُ ذَلِكَ مَعَ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ ، وَقَدْ لَقِيَهُ فِي بَعْضِ قَدَمَاتِهِ إِلَى الْعِرَاقِ ، فَمَدَحَهُ ، فَلَمْ يَهْشَ لَهُ ، فَهَجَاهُ بِقَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا :

مَعْنُ يَا مَعْنُ يَا بَنَ زَائِدَةَ الْكَلْبِ الَّذِي فِي الذَّرَاعِ لَا فِي الْبَنَانِ
لَا تُفْأَنِرْ إِذَا نَفَخْتَ بَابَا * إِنَّكَ وَأَنْفَرُ بَعْمَكَ الْحَوْفَرَانِ ^(٣)

(١) العودَةُ : الرِّقِيَّةُ يَرِيقُ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ فَرْعٍ أَوْ جَنُونٍ أَوْ مَرَضٍ . (٢) النفث البصاق اليسير ينفضه

الراق في العقدة عند الرقية .

(٣) الحوفران هو الحارث بن شريك الشيباني ، سمي بذلك لأن قيس بن عاصم التميمي حفره بالرمح حين خاف

أن يفوته ، وقد نخر بذلك سوار بن حبان المنقري فقال :

ونحن حفرنا الحوفران بطعنة * سقته نجيعا من دم الجوف أشكالاً

ومن غَزَلِه أبياتٌ يُغْنِي بها، وهي :
 وَتَزَعُمُ أَنِّي قَدْ تَبَدَّلْتُ خُلَّةً^(١) * سِوَاهَا وَهَذَا الْبَاطِلُ الْمُتَقَوِّلُ
 لِمَا اللَّهُ مِنْ بَاعِ الصَّدِيقِ بغيره * فَقَالَتْ نَعَمْ حَاشَاكَ إِنْ تَكُ تَفْعَلُ
 سَتَصْرِمُ إِنْسَانًا إِذَا مَا صَرَمْتَنِي * بِحَبِّكَ فَأَنْظِرْ بَعْدَهُ مَنْ تَبَدَّلُ

(١) الخلة : الخلية .

١٠ - الرقاشي^(١)

كان سهل الشعر مطبوعاً ، وكان مُنْقَطِعاً إلى آل برمك ، مُسْتَغْنياً بهم عن سواهم ،
وكانوا يَصُولون به على الشعراء ، ويُرَوِّون أولادهم أشعاره ، ويدُونونها القليل والكثير منها ،
تَعْصَباً له ، وحِفْظاً لخدمته ، وتَتَوِيهاً باسمه ، وتَحْرِيكاً لنشاطه ، فَحَفِظَ ذلك لهم . فلما نكبوا
صار إليهم في حبسهم ، فأقام معهم مدة أيامهم يُنْشِدُهم ويُسَامِرهم حتى ماتوا ، ثم رثاهم
فأكثر من رثائهم ؛ فمن ذلك قوله في جعفر :

كَمْ هَاتِفٍ بِكَ مِنْ بَاكِ وَبَاكِئَةٍ * يَا طِيبَ الضَّيْفِ إِذْ تُدْعَى وَلِلْجَارِ
إِنْ يُعْذَمَ الْقَطْرُ كُنْتَ الْمُزْنَ بَارِقَهُ * لَمَعَ الدَّنَائِرُ لَا مَا حَيْلَ السَّارِي

وقوله :

لَعَمْرُكَ مَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَى الْفَتَى * إِذَا لَمْ تُصِبهْ فِي الْحَيَاةِ الْمَعَارُ^(٢)
وَمَا أَحَدٌ حَيٌّ وَإِنْ كَانَ سَالِمًا * بِأَسْلَمَ مِمَّا غَيَّبَتْهُ الْمَقَابِرُ
وَمَنْ كَانَ مِمَّا يُحَدِّثُ الدَّهْرُ جَارِعًا * فَلَا بَدَّ يَوْمًا أَنْ يَرَى وَهُوَ صَابِرُ
وَلَيْسَ لَذَى عَيْشٍ عَنِ الْمَوْتِ مُقَصِّرٌ * وَلَيْسَ عَلَى الْأَيَّامِ وَالْدَّهْرِ غَايِرُ
وَكُلُّ شَبَابٍ أَوْ جَدِيدٍ إِلَى الْبَلَى * وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا إِلَى اللَّهِ صَائِرُ
فَلَا يُبْعِدُنكَ اللَّهُ عَنِّي جَعْفَرَا * يَرْوِحِي وَلَوْ دَارَتْ عَلَى الدَّوَائِرِ
فَأَلَيْتُ لَا أَنْفُكَ أَبْيَكُ مَا دَعَتْ * عَلَى فَنَيْنَ وَرَقَاءَ أَوْ طَارَ طَائِرُ

ومن ذلك قوله لما صُلب الفضل بن يحيى وأجتاز به الرقاش ، وهو مصلوبٌ على

الحِذْع ، فوقف يبكي ثم قال :

(١) هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش ، وهو من أهل البصرة . توفي سنة ٢٠٠ هـ . وتجدر ترجمته

في الأغاني (ج ١ ص ٣٥) ووفيات الوفيات (ج ٢ ص ١٢٥) والشعر والشعراء (ص ٥١٥) .

(٢) المعابر : المعايير .

أما والله لولا خَوْفُ وإِش * وَعَيْنٌ لِلخَلِيفَةِ لَا تَتَّامُ
لَطَفْنَا حَوْلَ جِذْعِكَ وَأَسْتَلَمْنَا * كَمَا لِلنَّاسِ بِالْمَجَرِّ أَسْتَلَمُ
فَمَا أَبْصَرْتُ قَبْلَكَ يَا بَنَ يَحْيَى * حُسَامًا حَتْفَهُ السِّيفُ الْحُسَامُ
عَلَى اللَّذَائِ ، والدنيا جميعا * ودولة آل برمكٍ السَّلام

فكتب أهل الأخبار بذلك إلى الرشيد، فأحضره فقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقال :
يا أمير المؤمنين كان إلى مُحْسِنًا ، فلما رأيته على الحال التي هو عليها حرّكني إحسانه فما ملكْتُ
نفسى حتى قلت الذى قلته ؛ قال : وكم كان يُجرى عليك ؟ قال : ألف دينارٍ فى كلِّ سنةٍ ،
قال : إنا قد أضعفناها لك .

ومن قوله يَصِفُ جَارِيَةً :

صِفَاتٌ وَحُسْنٌ أَوْزَنَا الْقَلْبَ لَوَعَةً * تَضَرَّمُ فِي أَحْشَاءِ قَلْبٍ مُتِمِّ
تُمَثِّلُهَا نَفْسِي أَمِينِي فَأَنْتَنِى * عَلَيْهَا بَطْرَفُ النَّاطِرِ الْمُتَيْسِّمِ
يُجَمِّلُنِي حُبِّي لَهَا فَوْقَ طَاقَتِي * مِنْ الشَّوْقِ دَأْبَ الْحَاثِرِ الْمُتَقَسِّمِ

١١ - أبو العتاهية^(١)

قال أحمد بن زهير : سمعت مُصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ،
فقلت له : بأى شيء أستحق ذلك عندك ؟ فقال بقوله :

تعلّقتُ بآمالٍ * طَوَالِ أَىِّ آمَالٍ
وأقبلتُ على الدنيا * مُلِحًا أَىِّ إقبالٍ
أيا هذا تَجَهَّزْ ! * فِرَاقِ الأهلِ والمالِ
فلا بد من الموت * على حال من الحال

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل حق لا حشو فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقتربه
الجاهل . وكان الأصمعي يستحسن قوله :

(١) هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد ، أطبع أهل زمانه شعرا وأكثرهم قولاً وأسهلهم لفظاً ،
وأسرعهم بديهة وأرتجالاً ، وأول من فتح للشعراء باب الوعظ والتهديد في الدنيا والنهي عن الاعترا بها ، وأكثر
من الحكمة .

ولد بعين التمر سنة ١٣٠ هـ ونشأ بالكوفة في عمل أهله . وكانوا باعة جزار ، إلا أنه وبأينفسه عن عمله وقال
الشعر في صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه «لوشئت أن أجعل كلابى كله شعرا لفعلت»
فذاق صيته وسلك طريق خلفاء الكوفة . ثم قدم بغداد وندح المهدي وتعرف ببعض خدم قصر الخلافة
وجواربه فعتش منهن فتاة تدعى عتبة ، ولما ينس منها لها عنها بعض الشيء . ودرس كثيرا من مذاهب المتكلمين
والشيعية والجبرية والزهاد فكان يسلك كل مذهب منها مدة ثم ينتقل عنه إلى الآخر حتى اختار له من كل ذلك
عقيدة مختلطة أفضت به إلى العبادة والزهد في الدنيا قولاً ومعيشة على إفراط منه في حب المال والجمع له
والبخل به على الأهل والولد والخدم .

ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن القزل وقصر قوله على الزهد في الدنيا والتذكير بالموت وأهواله ، وهو في خلال
ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة ويأخذ جوائزهم ، ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر البتة حتى حبسه الرشيد
لعدم تلبية ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أجاب طلبه ، وعاد إلى قول الشعر على عادته فيه وترك القزل
والهجاء ، وبقي على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون . توفي سنة ٢١١ هـ .

وله ديوان مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧ وتجدد أخباره في الأغاني ج ٣ ص ١٢٦ وج ٦ ص ١٨٦
وج ٨ ص ٢٤ وابن خلكان ج ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٤٩٧ والفهرست ص ١٦٠ .

أَنْتَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ صَا * حَيْكَ الدَّهْرَ أَخُوهُ
فَإِذَا أَحْتَجْتَ إِلَيْهِ * سَاعَةً بَجَّكَ فُوهُ

وَأَنْشُدْ لَهُ سَلَّمَ الْخَاسِرَ :

سَكَنَ يَبْقَى لَهُ سَكَنُ * مَا يَهَذَا يُؤْذِنُ الزَّمَنُ
نَحْنُ فِي دَارٍ يَخْبِرُنَا * بِبَلَاهَا نَاطِقُ لَيْسَ
دَارُ سُوءٍ لَمْ يَدُمِ فَرَحُ * لِأَمْرٍ فِيهَا وَلَا حَزَنُ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْفُسُنَا * كُلُّنَا بِالْمَوْتِ مُرْتَهَنُ
كُلُّ نَفْسٍ عِنْدَ مَبِيتِهَا * حَظُّهَا مِنْ مَالِهَا الْكَفَنُ
إِنْ مَالُ الْمَرْءِ لَيْسَ لَهُ * مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُهُ الْحَسَنُ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْعُمَرِيُّ : أَشْعَرُ النَّاسِ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ حَيْثُ يَقُولُ :

مَا ضَرَّ مَنْ جَعَلَ التُّرَابَ مِهَادَهُ * أَلَّا يَنَامَ عَلَى الْحَرِيرِ إِذَا قَنِعَ

وَقِيلَ لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ : كَيْفَ تَقُولُ الشَّعْرَ ؟ قَالَ : مَا أُرِدْتُهُ قَطُّ إِلَّا مِثْلَ لِي ، فَأَقُولُ
مَا أُرِيدُ وَأَتْرَكُ مَا لَا أُرِيدُ . وَكَانَ يَقُولُ : لَوْ شِئْتُ أَنْ أَجْعَلَ كَلَامِي شَعْرًا كُلَّهُ لَفَعَلْتُ .

حُمُّ الرِّشِيدِ فَصَارَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ بَرْقَعَةً فِيهَا :

لَوْ عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ أَنْتَ لَهُمْ * مَا تَوَا إِذَا مَا أُتِيَ أَجْمَعُهُمْ
خَلِيفَةَ اللَّهِ أَنْتَ تَرَجُّحُ بَالِنَا * سِيسَ إِذَا مَا وُزِنَتْ أَنْتَ وَهُمْ
قَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ وَجْهَكَ يُغْ * نِي إِذَا مَا رَأَاهُ مُعَدِّمُهُمْ

فَأَنْشَدَهَا الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ الرِّشِيدَ ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ ، فَمَا زَالَ يُسَامِرُهُ وَيُحَدِّثُهُ
إِلَى أَنْ بَرِيَ ، وَوَصَلَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ السَّبَبِ مَالٌ جَلِيلٌ . وَقَدْ حَدَّثَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ هَذَا
الْحَدِيثَ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ بِالْمَجْلِسِ : مَا هَذَا الشَّعْرُ بِمُسْتَحَقٍّ لِمَا قُلْتَ ؟ قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ :
لَأَنَّهُ ضَعِيفٌ ، فَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ ، وَكَانَ أَحَدَ النَّاسِ ، الضَّعِيفُ وَاللَّهُ عَقْلُكَ لَا شِعْرَ

أبي العتاهية، الأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فوالله ما رأيت شاعرا قط أطبع
ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر؛ ثم أنشد له :

فَطَعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الْأَمَالِ * وَحَطَطْتُ عَنْ ظَهْرِ الْمَطَى رِحَالِي
وَيَلَسْتُ أَنْ أَتَقَى لَشَيْءٍ نَلْتُ مَمَّ * مَا فَيْكَ يَا دُنْيَا وَأَنْ يَبْقَى لِي
فَوَجَدْتُ بَرْدَ الْيَاسِ بَيْنَ جَوَانِحِي * وَأَرْحُتُ مِنْ حَلٍّ وَمِنْ تَرَحَالِ
يَا أَيُّهَا الْبَطَرُ الَّذِي هُوَ مِنْ غَدٍ * فِي قَبْرِهِ مَتَمَزَّقُ الْأَوْصَالِ
حَذَفَ الْمُنَى عَنْهُ الْمُشَمَّرُ فِي الْمَدَى * وَأَرَى مُنَاكَ طَوِيلَةَ الْأَذْيَالِ
حَيْلُ ابْنِ آدَمَ فِي الْأُمُورِ كَثِيرَةٌ * وَالْمَوْتُ يَقْطَعُ حِيلَةَ الْمُحْتَالِ
مَا لِي أَرَاكَ لَحْرَ وَجْهِكَ مُخْلَقًا * أَخْلَقْتَ يَا دُنْيَا وَجُوهَ رِجَالِ
فَسْتُ السُّؤَالِ فَكَانَ أَعْظَمَ قِيمَةً * مِنْ كُلِّ عَارِفَةٍ جَرَتْ بِسُؤَالِ
فَإِذَا أَبْثُلَيْتَ يَبْدُلَ وَجْهِكَ سَائِلًا * فَاثْبُلْهُ لِلتُّكْرَمِ الْمِفْضَالِ
وَإِذَا خَشِيتَ تَعَثُّرًا فِي بَلَدَةٍ * فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِعَاجِلِ التَّرَحَالِ
وَأَصْبِرْ عَلَى غَيْرِ الزَّمَانِ فَإِنَّمَا * فَرَجُ الشَّدَائِدِ مِثْلُ حَلِّ عَقَالِ

ثم قال للرجل : هل تعرف أحدا يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل :
يا أبا عبد الله، جعلني الله فداك، إني لم أَرُدُّ عليك ما قلت، ولكن الزهد مذهب
أبي العتاهية، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد؛ فقال : أفليس الذي يقول في المديح :

وَهَارُونَ مَاءُ الْمَزْنِ يَشْفِي مِنَ الصَّدَى * إِذَا مَا الصَّيْدِي بِالرِّيقِ غَصَّتْ حَنَاجِرُهُ
وَأَوْسَطُ بَيْتٍ فِي قَرِيشٍ لَبِيتُهُ * وَأَوَّلُ عَزٍّ فِي قَرِيشٍ وَآخِرُهُ
وَزَحْفٌ لَهُ تَحْكِي الْبُرُوقَ سَيُوفُهُ * وَتَحْكِي الرُّعُودَ الْقَاصِفَاتِ حَوَافِرُهُ
إِذَا حَمِيَتْ شَمْسُ النَّهَارِ تَضَا حَكَّتْ * إِلَى الشَّمْسِ فِيهِ يَنْضُهُ وَمَغَافِرُهُ
إِذَا نَكَبَ الْإِسْلَامُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ * فَهَارُونَ مِنْ بَيْنِ الْبَرِيَّةِ نَائِرُهُ
وَمَنْ ذَا يَفُوتُ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ مُدْرِكُ * كَذَا لَمْ يَقُتْ هَارُونَ ضِدَّ يُنَافِرُهُ

فتخلص الرجل من شرّ ابن الأعرابي بأن قال له : القول كما قلت ، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

قال ثُمَامَةُ بْنُ أَشْرَسٍ أَنشدني أبو العتاهية :

إذا المرء لم يُعْتِقْ من المال نفسه * تملكه المَالُ الذي هو مالُك

ألا إنما مَالِي الذي أنا مُنْفِقٌ * وليس لي المَالُ الذي أنا تاركه

إذا كنت ذا مال فبادِرْ به الذي * يَحِقُّ وإلا آسَتهلكته مَهالك

فقلت له : من أين قضيت بهذا؟ فقال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إنما لك من مالك ما أكلت فأفנית أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت “ . فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق؟ قال : نعم؛ قلت : فلم تحبس عندك سبعا وعشرين بَدْرَةً في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تتركي ولا تقدمها ذنبا ليوم فقرك وفاقتك؟ فقال : يا أبا معن ، والله إن ما قلت هو الحق ، ولكنني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس؛ فقلت : وِمَ تريد حال من أفتقر على حالك وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشتري القم إلا من عيد إلى عيد؟ فترك جواب كلامي كله ، ثم قال لي : والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحما وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم ، فلما قال هذا القول أضحكني حتى أذهلني عن جوابه ومُعَاتَبَتِهِ ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شَرَحَ اللهُ صدره للإسلام .

زار مرة عمرو بن مسعدة فحجب عنه ، فلزم منزله ، فاستبطأه عمرو ، فكتب إليه :

كسَلَنِي اليأسُ عنكَ فما أُر * فع طرُفِي اليك من كَسَلٍ

إني إذا لم يكن أنعى بَقَّةً * قَطَعْتُ منه حَبَائِلَ الأمل

وكتب إليه مرة أخرى :

مالك قد حُلَّتْ عن إيمانك وآس * تَبَدَّلَتْ يا عمرو شِيمَةُ كَدَرِهِ

إني إذا البسائب تاهَ حاجِبُهُ * لم يك عندى في هَجْرِهِ نَظَرُهُ^(١)

لستم تُرجون الحساب ولا * يوم تكون السماء منهطرة
 لكن لدنيا كالظل بهجتها * سرية الإقضاء مُشمرة
 قد كان وجهي لديك معرفة * فاليوم أضى حرقاً من النكرة

جلس المهدي للشعراء يوماً فأذن لهم، وفيهم بشار وأشجع، وكان أشجع يأخذ عن بشار ويعظمه، وكان في القوم غير هذين أبو العتاهية، قال أشجع: فلما سمع بشار كلام أبي العتاهية قال: يا أخا سليم، أهذا ذلك الكوفي الملقب؟ قلت: نعم، قال: لا جزي الله خيراً من جمعنا معه، ثم قال له المهدي: أنشد، فقال: ويحك! أو يستنشد أيضاً قبلنا؟ فقلت: قد ترى، فأنشد:

ألا ما لسيدتي ما لها * أدلاً فاحِشاً إذلها
 وإلا ففيم تجنت وما * جننت سقى الله أطلالها
 ألا إن جارية للإما * م قد أسكن الحسن سربالها
 مشت بين حور قصار الخطا * تُجاذب في المشي أكفالها
 وقد أتعب الله نفسه بها * وأتعب بالأمم عدالها

فقال بشار لأشجع: ويحك يا أخا سليم! ما أدري من أي أمرية أعجب، أمن ضعف، شعره أم من تشبيهه بجارية الخليفة وهو يسمع ذلك بأذنه؟ حتى أتى على قوله:

أنته الخليفة مُقادة * إليه تُجرر أذيالها
 فلم تك تصلح إلا له * ولم يك يصلح إلا لها
 ولورامها أحد غيره * لرزلت الأرض زلزالها
 ولولم تطعمه نبات القلوب * لما قيل الله أعمالها
 وإن الخليفة من بغض "لأ" * إليه ليغض من قالها

فقال بشار لأشجع وقد آهتر طرباً: ويحك يا أخا سليم، أترى الخليفة لم يطر عن فراشه طرباً لما يأتي به هذا الكوفي!

ولما آتته منصور بن عمار بالزندقة، لأنه لا يذكر في شعره الجنة والنار وإنما يذكر الموت، قال فيه :

يا وأعظ الناس قد أصبحت متهما * إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
كالمليس الثوب من عرى وعورته * للناس بادية ما إن يوارىها
فأعظم الإثم بعد الشرك نعلمه * في كل نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرها * منهم ولا تبصر العيب الذي فيها

وقيل له : زعم الناس أنك زنديق، فقال : والله ما ديني إلا التوحيد ، فقليل له قل شيئا يتحدث به عنك، فقال :

ألا إنا كلنا بائد * وأى بنى آدم خالده
وبدؤهم كان من ربهم * وكل إلى ربه عائد
فيا عجباً كيف يعصى الإله * أم كيف يحجده الجاحد
وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

وسمع الجاحظ مرة من ينشد أرجوزة أبي العتاهية التي سماها "ذوات الأمثال" حتى أتى على قوله :

بالشباب المرح التصابي * روائح الجنة في الشباب

فقال للنشد : قف، ثم قال : أنظروا إلى قوله : «روائح الجنة في الشباب» فإن له معنى كعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب، وتمعز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه . وهذه الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مثل، منها قوله :

حسبك مما تبغيه القوت * ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا * من أتقى الله رجا وخافا
هي المقادير فلمني أو قدر * إن كنت أخطأت فما أخطا القدر

لِكُلِّ مَا يُؤْذِي وَإِنْ قَلَّ أَلَمْ * مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْمُ
مَا أَتَنَّفَعَ الْمَرْءُ بِمَثَلِ عَقْلِهِ * وَخَيْرُ دُخْرِ الْمَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ
إِنْ فَسَادِ ضِدِّهِ الصَّلَاحُ * وَرُبَّ جِدِّ جَرَّهُ الْمُزَاحُ
مَنْ جَعَلَ التَّمَامَ عَيْنًا هَلَكًا * مُبْلِغُكَ الشَّرَّ بَكَائِهِ لَكَ
إِنْ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْحَدَّ * مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيْ مَفْسَدُهُ
يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ تَرْكُهُ * يَرْتَهِنُ الرَّأْيُ الْأَصِيلَ شَكُّهُ
مَا عَيْشُ مَنْ آفَتْهُ بَقَاؤُهُ * نَقَصَ عَيْشًا كُلَّهُ فَنَاؤُهُ
يَارُبُّ مَنْ اسْتَخْطَنَا بِجَهْدِهِ * قَدْ سَرَّنَا اللَّهُ بِغَيْرِ حَمْدِهِ
مَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغِيْبُ * إِلَّا لِأَمْرِ شَأْنُهُ عَجِيبُ
لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْدِنٌ وَجَوْهَرُ * وَأَوْسَطُ وَأَصْفَرُ وَأَكْبَرُ
مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَكُلُّ مُتَمَرِّجٍ * وَسَاوِسُ فِي الصَّدْرِ مِنْهُ تَعْتَلِجُ
وَكُلُّ شَيْءٍ لَاحِقٌ بِجَوْهَرِهِ * أَصْغَرُهُ مُتَّصِلٌ بِأَكْبَرِهِ
مَا زَالَتِ الدُّنْيَا لَنَا دَارَ أَدَى * مَمْزُوجَةُ الصَّفْوِ بِالْوَانِ الْقَدَى
الْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِهَا أَزْوَاجُ * لَذَا نِتَاجٌ وَلَذَا نِتَاجُ
مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مَحْضُ * يَحْبُثُ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضُ
لِكُلِّ إِنْسَانٍ طَبِيعَتَانِ * خَيْرٌ وَشَرٌّ وَهُمَا ضِدَّانِ
إِنَّكَ لَوْ تَسْتَنَشِقُ الشَّحِيحَا * وَجَدْتَهُ أَتَنَشَأُ شَيْءٌ رِيحَا
وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ إِذَا مَا عَدَا * بَيْنَهُمَا بَوْنٌ بَعِيدٌ جَدَا
عَجِبْتُ حَتَّى غَمَمَنِي السُّكُوتُ * صِرْتُ كَأَنِّي حَائِرٌ مَبْهُوتُ
كَذَا قَضَى اللَّهُ فَكَيْفَ أَصْنَعُ * الصَّمْتُ إِنْ ضَاقَ الْكَلَامُ أَوْ سَعُ

ومن قول أبي العتاهية في الوحدة والتبرم بالناس :

بَرِمْتُ بالناس وأخلاقهم * فَصِرْتُ أَسْتَأْنِسُ بِالوَحْدَةِ

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لِعَمْرِي وَمَا * أَقْلَهُمْ فِي حَاصِلِ الْعِدَةِ

قال الأصمعي : شِعْرُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ كِسَاحَةُ الْمُلُوكِ ، يَقَعُ فِيهَا الْجَوْهَرُ وَالذَّهَبُ وَالتَّرَابُ

وَالْخَزَفُ وَالنَّوَى .

كان أبو العتاهية لا يفارق الرشيد في سَفَرٍ وَلَا حَضَرَ إِلَّا فِي طَرِيقِ الْحَجِّ ، وَكَانَ يُجْرَى

عَلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ سِوَى الْجَوَائِزِ وَالْمَعَاوِنِ ، فَلَمَّا قَدِمَ الرَّشِيدُ الرَّقَّةَ لَيْسَ

أَبُو الْعَتَاهِيَةِ الصُّوْفَ وَتَزَهَّدَ ، وَتَرَكَ حَضْرَةَ الْمُنَادِمَةِ وَالْقَوْلَ فِي الْغَزَلِ ، وَأَمَرَ الرَّشِيدُ بِجَبْسِهِ

حُبْسٍ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ مِنْ وَقْتِهِ :

أَنَا الْيَوْمَ لِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَشْهُرُ * يَرُوحُ عَلَى أَلْهِمٍ مِنْكُمْ وَيَبْكُرُ

تَذَكَّرَ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّ وَحُفَّتِي * وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّينِي كَذَلِكَ يُذَكَّرُ

لِيَالِي تُدْنِي مِنْكَ بِالْقُرْبِ مَجْلِسِي * وَوَجْهُكَ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَةِ يَقْطُرُ

فَنَ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً * إِلَيَّ بِهَا فِي سَائِلِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ

فلما قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لا بأس عليك ؛ فكتب إليه :

أَرِقْتُ وَطَارَ عَنْ عَيْنِي النَّعَاسُ * وَنَامَ السَّامِرُونَ وَلَمْ يُؤَاسُوا

أَمِينَ اللَّهِ أَمْنُكَ خَيْرُ أَمِينٍ * عَلَيْكَ مِنَ التَّقَى فِيهِ لِبَاسُ

نُفَاسٍ مِنَ السَّمَاءِ بِكُلِّ يَرٍ * وَأَنْتَ بِهِ تَسُوسُ كَمَا تُنَاسُ

كَأَنَّ الْخَلْقَ رَكَّبَ فِيهِ رُوحُ * لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَاسُ

أَمِينَ اللَّهِ إِنْ الْحَبْسَ بَاسُ * وَقَدْ أُرْسَلْتَ : لَيْسَ عَلَيْكَ بَاسُ

وكتب إليه أيضا في الحبس :

وَكَلَّفَتْنِي مَا حُلَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ * وَقُلْتُ سَأَبْغِي مَا تُرِيدُ وَمَا تَهْوَى

فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ كَلَّفْتُ وَاحِدًا * هَوَاكَ وَكَلَّفْتُ الْخَلِيلَ لِمَا يَهْوَى

فأمر باطلاقه .

كان الهادي واجدا على أبي العتاهية ملازمته أخاه هارون في خلافة المهدي، فلما ولي موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه :

يَضْطَرِبُ الخَوْفُ والِرْجَاءُ إِذَا * حَرَّكَ موسى القَضِيبَ أَوْفَكَرَّ
مَا أُبَيِّنُ الْفَضْلَ فِي مَغِيبٍ وَمَا * أَوْرَدَ مِنْ رَأْيِهِ وَمَا أَصْدَرَ
فَكَمْ تَرَى عَزَّ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ * مَعْشَرِ قَوْمٍ وَذَلَّ مِنْ مَعْشَرٍ
يُنْمِرُ مِنْ مَسَّةِ الْقَضِيبِ وَلَوْ * يَمْسُهُ غَيْرُهُ لَمَّا أَثْمَرَ
مَنْ مِثْلَ موسى وَمِثْلَ والدِهِ الـ * مَهْدَى أَوْ جَدَّهُ أَبِي جَعْفَرٍ

فرضى عنه . فلما دخل عليه أنشده :

لَهْفِي عَلَى الزَّمَنِ الْقَصِيرِ * بَيْنَ الْخَوَرْنِقِ وَالسَّيْدِ
إِذْ نَحْنُ فِي غُرَفِ الْحَنَّا * نَنْعُومُ فِي بَحْرِ السُّرُورِ
فِي فِتْيَةٍ مَلَكُوا عَيْنَا * نَ الدَّهْرِ أَمْثَالُ الصُّقُورِ
مَا مِنْهُمْ إِلَّا الْجَسُورُ * رُ عَلَى الْهَوَى غَيْرَ الْحُصُورِ
يَتَعَاوَرُونَ مُدَامَةً * صَهْبَاءُ مِنْ حَلَبِ الْعَصِيرِ
عِذْرَاءُ رَبَّاهَا شُعَا * عِ الشَّمْسِ فِي حَرِّ الْمَجِيرِ
لَمْ تَذَنْ مِنْ نَارٍ وَلَمْ * يَغْلِقْ بِهَا وَضْرُ الْقُدُورِ
وَمُقَرَّبَتِي يَمْشِي أَمَا * مِ الْقُومِ كَالرَّشَاءِ الْغَرِيرِ
بِزَجَاجَةٍ تَسْتَخْرِجُ الـ * سِرَّ الدِّفِينِ مِنَ الضَّمِيرِ
زَهْرَاءُ مِثْلَ الْكُوكَبِ الـ * دُرِّيَّ فِي كَفِّ الْمُدِيرِ
تَدْعُ الْكَرِيمَ وَلَيْسَ يَدُ * رَى مَا قَيْلٌ مِنْ دَيْرِ
وَمُحَصَّرَاتٍ زُرْتِنَا * بَعْدَ الْهَدُوءِ مِنَ الْخُدُورِ
رِيًّا رَوَادِفَهُنَّ يَدُ * بَسْنِ الْخَوَاتِمِ فِي الْخُصُورِ
غُرَّ الْوُجُوهِ مُحَجَّبَا * تَقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ حُورِ

مُتَنَعَّمَاتٍ فِي النَّعْمِ * يَمِمْ مُضْمَخَاتٍ بِالْبَعِيرِ
 يَرْفُلْنَ فِي حُلَلِ الْحَا * سَنَ وَالْمَجَاسِدِ وَالْحَرِيرِ
 مَا إِنْ يَرَيْنَ الشَّمْسُ إِلَّا الْقُرْطَ مِنْ خَلَلِ السُّتُورِ
 وَإِلَى أَمِينِ اللَّهِ مَهْ * رَبُّنَا مِنَ الدَّهْرِ الْعَثُورِ
 وَإِلَيْهِ أَتَعَبْنَا الْمَطَا * يَا بِالرَّوَّاحِ وَبِالْبُكُورِ
 صُغَرَ الْخُدُودِ كَأَنَّمَا * جُنَحْنَ أَجْنَحَةَ النُّسُورِ
 مُتَسَرِّبَاتٍ بِالظُّلَا * مَ عَلَى السُّهُولَةِ وَالْوُغُورِ
 حَتَّى وَصَلْنَ بِنَا إِلَى * رَبِّ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ
 مَا زَالَ قَبْلَ فِطَامِهِ * فِي سِنِّ مُكْتَهَلٍ كَبِيرِ

استنشد المأمونُ أحسن ما قال في الموت فأنشده :

أُنْسَاكَ مَحْيَاكَ الْمَمَاتَا * فَطَلَبْتَ فِي الدُّنْيَا الْبَنَاتَا
 أَوْفَقْتَ بِالْدُّنْيَا وَأَنْ * سَتَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَاتَا
 وَعَزَمْتَ مِنْكَ عَلَى الْحَيَا * ةَ وَطَوَّلَهَا عَزْمًا بَنَاتَا
 يَا مَنْ رَأَى أَبَوَيْهِ فِيهِ * مَنْ قَدْ رَأَى كَانَا فَمَاتَا
 هَلْ فِيهِمَا لَكَ عِبْرَةٌ * أَمْ خَلَّتْ أَنْ لَكَ أَنْفِلَاتَا
 وَمَنْ الَّذِي طَلَبَ التَّفَلُّ * سَتَ مِنْ مَنِيَّتِهِ فَفَاتَا
 كُلُّ تَصَبُّحِهِ الْمَذِيَّةُ * أَوْ تَبَيَّتِهِ بَيَاتَا

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَهَا * إِذَا أَطَاعَ اللَّهُ مَنْ نَالَهَا
 مَنْ لَمْ يُوَاسِ النَّاسَ مِنْ فَضْلِهَا * عَرَّضَ لِلْإِدْبَارِ إِقْبَالَهَا

فقال له المأمون : ما أجودَ البيتَ الأولُ، فأما الثاني فما صنعتَ فيه شيئاً، الدنيا تُدِيرُ عَمَّنْ وَاسَى مِنْهَا أَوْضَنَ بِهَا، وَإِنَّمَا تُوجِبُ السَّمَاحَةَ بِهَا الْأَجْرَ وَالضَّنَّ بِهَا الْوِزْرَ، فقال : صدقتَ

يا أمير المؤمنين، أهل الفضل أولى بالفضل وأهل النقص أولى بالنقص، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كم غافلٍ أودى به الموتُ * لم يأخذ الأهبةَ للقتِ
من لم تزل نعمته قبله * زال عن النعمة بالموت

فقال له : أحسنت، طيبت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يحج كل سنة، فاذا قدم أهدى إلى المأمون برداً ومطرًا ونعلاً سوداء ومسأويك أراك، فيبعث إليه بعشرين ألف درهم، فأهدى مرة له كما كان يهدى كل سنة إذا قدم، فلم يثبه ولا بعث إليه بالوظيفة، فكتب إليه أبو العتاهية :

خبروني أن من ضرب السنة * جُددًا بيضا وصُفرا حسنة
أحدث لكني لم أرها * مثل ما كنت أرى كل سنة

فأمر المأمون بحمل العشرين الألف وقال : أغفلناه حتى ذكّرنا .

أنشد المأمون بيت أبي العتاهية يخاطب سلماً الخامس :

تعالى الله يا سلم بن عمرو * أدل الحرص أعناق الرجال

فقال المأمون : إن الحرص لمنفسد للدين والمروءة ، والله ما عرفت من رجلٍ قط حرصاً ولا شرها فوجدت فيه مضطجعاً، فبلغ ذلك سلماً فقال : ويلي على الحرار الزنديق جمع الأموال وكرّتها وعبأ البدور في بيته ثم ترهد مراءاة ونفاقاً، فأخذ يهتف بي اذا تصدّيت للطلب .

كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين في الزلازل اذا ركبها، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء ثم يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه، فقيل : ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس، فوجه إليه الرشيد : قل شعرا حتى أسمعه منهم ، ولم يأمر بإطلاقه، فغاضه ذلك وقال : والله لأقولن شعرا يحزنه ولا يسربه، فعمل شعرا ودفعه الى من حفظه من الملاحين، فلما ركب الحراقة سمعه وهو :

خَانَكَ الطَّرْفُ الطُّمُوحُ * أَيُّهَا الْقَلْبُ الْجَمُوحُ
 لدواعي الخير والشَّرِّ * دُنُوءُ وَنُزُوحُ
 هل لمطلوبٍ بذنبٍ * توبَةٌ مِنْهُ نَصُوحُ
 كيف إصلاحُ قلوبٍ * إِنَّمَا هُنَّ قُفُوحُ
 أحسن الله بنا * إِنَّا الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ
 فإذا المستورُ مِنَّا * بين تَوْبَتِهِ فَضُوحُ
 كم رأينا من عزيزٍ * طُوِيَتْ عَنْهُ الْكُشُوحُ
 صَاحٍ مِنْهُ بِرَحِيلٍ * صَاحُ الدَّهْرِ الصَّدُوحُ
 موتُ بعض الناس في الأَرِّ * ض على قوم قُفُوحُ
 سيصير المرء يوما * جَسَدا مَا فِيهِ رُوحُ
 بين عَيْنَي كُلِّ حَيٍّ * عَلمُ الْمَوْتِ يَلُوحُ
 كُلُّنَا فِي غَفْلَةٍ وَالْ * مَوْتُ يَغْدُو وَيُروحُ
 لِبَنِي الدُّنْيَا مِنَ الدَّنِّ * يَا غَبُوقٌ وَصَبُوحُ
 رُحْنٌ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحَ * مِنْ عَلَيْهِنَّ الْمُسُوحُ
 كُلُّ نَظَّاجٍ مِنَ الدَّهْرِ * مَرَلَهُ يَوْمًا نَظُّوحُ
 نَحَّ على نفسك يَا مَسَّ * كَيْنَ إِنْ كُنْتَ تَتُوحُ
 تَمُوتَنَّ وَإِنْ عَمَّ * مَرَّتْ مَا عَمَّرُ نُوحُ

فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعا
 في وقت الموعظة ، وأشدَّهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة ؛ فلما رأى الفضل بن الربيع
 كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا .

لما عقد الرشيد العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عَنْ الرَّبْعِ الْمُحِيلِ قَعُودِي * إِلَى ذِي زُحُوفٍ جَمَّةٍ وَجُنُودِ
 وَرَاعٍ يُرَاعِي اللَّيْلَ فِي حَفْظِ أَمَّةٍ * يَدَافِعُ عَنْهَا الشَّرَّ غَيْرَ رُقُودِ

بِالْوَيْةِ جَبْرِيلُ يَقْدُمُ أَهْلَهَا * وِرَايَاتِ نَصْرِ حَوْلِهِ وَبُنُودِ
 تَجَافَى عَنِ الدُّنْيَا وَأَيُّقِنُ أَنَّهَا * مُفَارِقَةُ لَيْسَتْ بِدَارِ خُلُودِ
 وَشَدَّ عُرَى الْإِسْلَامِ مِنْهُ بَفْتِيَةٍ * ثَلَاثَةُ أَمْلَاقٍ وَلَاةُ عُهْدِ
 هُمْ خَيْرُ أَوْلَادِهِمْ خَيْرُ وَالِدِ * لَهُ خَيْرُ آبَاءٍ مَضَتْ وَجُدُودِ
 بَنُو الْمُصْطَفَى هَارُونَ حَوْلَ سَرِيرِهِ * نَخِيرُ قِيَامِ حَوْلَهُ وَقَعُودِ
 تَقَلَّبَ الْحَاضِرُ الْمَهَابَةِ بَيْنَهُمْ * عِيُونَ ظَبَاءٍ فِي قُلُوبِ أُسُودِ
 جُدُودِهِمْ شَمْسٌ أَتَتْ فِي أَهْلَةٍ * تَبَدَّتْ لِرَاءَ فِي نَجْمِ سَعُودِ
 فَوَصَلَهُ الرَّشِيدُ بِصَلَةِ مَا وَصَلَ مِثْلَهَا شَاعِرًا قَطَّ .

١٢ - مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ^(١)

أحد الشعراء المقلقين والبلغاء المبدعين

قال الشَّعْرُ في صباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكتفياً بما يناله من قليل العطاء، ويُنفقه على ملاذّه مع إخوانه من خُلَفاء الشعراء، ثم أنقطع الى يزيد بن مَزيد الشَّيباني قائد الرشيد، ثم اتصل بالخليفة هارون الرشيد وعُدّ من شعرائه، ومدّحه ومدّح البرامكة وحسّن رأيهم فيه . ولما أصبح الحُلّ والعقد بيد ذى الرِّبَاسِتين الفضل بن سهل وزير المأمون في أوّل خلافته قرّبه وأدناه : لأنه كان من خاصّته قبل وزارته، وولاه أعمالاً يُجرِّجَان اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزم منزله الى أن أنفقها في اللذات ، وعاد إلى الفضل فقلّده الضياع بأصبهان فاكتسب منها ألف ألف أيضاً . ولما قُتِل الفضل لزم منزله ونسك ولم يمدح أحداً الى أن مات يجرجان .

ومسلمٌ أوّل من تكلف البديع في شعره وأستكثر منه في قوله ، وسبقه بشار الى ذلك إلا أنه لم يبلغ شأو مسلم فيه . وقد عدّ العلماء هذا التصنع والتكلف إفساداً للشعر، إذ قد تبعه في ذلك الشعراء مثل البحتريّ وأبي تمام وابن المعتز وغيرهم .

(١) هو مسلم بن الوليد مولى الأنصار يلقب صريع الفواني ، شاعر متقدّم من شعراء الدولة العباسية ، منشؤه ومولده الكوفة . وهو فيما زعموا أوّل من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائي ، فانه جعل شعره كله مذهبا واحدا فيه ، ومسلم كان متفنا متصرفا في شعره . قال محمد بن يزيد : كان مسلم شاعرا حسن النظم ، جيسد القول في الشراب ، وكثير من الرواة يقرنه بأبي نواس في هذا المعنى ، وهو أوّل من عقد هذه المعاني الطريقة واستخرجها . وقال القاسم بن مهرويه : أوّل من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، جاء بهذا الفن الذي سماه الناس البديع ثم جاء الطائي بعده ففتن فيه . توفي بجرجان سنة ٢٠٨ هـ وله ديوان مطبوع في ليدن سنة ١٨٧٥ م . وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٣ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والعقد الفريد (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمنه المعاني اللطيفة ، وكساه الألفاظ الظرفية ، فله جزالة البدويين ، ورقة الحضريين .

لقى مسلم أبو نواس فقال له : ما أعرف لك بيتا إلا فيه سقط ، قال له : فما تحفظ من ذلك ؟ قال : قل أنت ماشئت حتى أريك سقطك فيه ، فأنشد :

ذَكَرَ الصُّبُوحَ بِسُحُورَةِ فَارَتَا حَا * وَأَمَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحِ صِيَا حَا

فقال له مسلم : فلم أمله وهو الذى أذكره وبه أرتاح ؟ فقال أبو نواس : فأنشدنى شيئا من شعرك ليس فيه خلل ، فأنشده مسلم :

عَاصَى الشَّابِّ فَرَا حَ غَيْرُ مُقَنَّد * وَأَقَامَ بَيْنَ عَزِيمَةٍ وَتَجَلَّد

فقال له أبو نواس : قد جعلته رائحا مقما فى حالة واحدة وبيت واحد ، فتشأبا وتسابا ساعة . وكلا البيتين صحيح المعنى .

اجتمع أصحاب المأمون عنده يوما ، فأفاضوا فى ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رنى رجلا :

أَرَادُوا لِيُخْفُوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّهِ * فَطِيبُ تَرَابِ الْقَبْرِ دَلَّ عَلَى الْقَبْرِ

وحيث مدح رجلا بالشجاعة فقال :

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا * وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

وهما رجلا بفتح الوجه والأخلاق فقال :

قُبِحَتْ مَنَاطِرُهُ لِحَيْنِ خَبَرَتِهِ * حَسُنَتْ مَنَاطِرُهُ لِقُبْحِ الْمَخْبَرِ

وتغازل فقال :

هَوَى يَجِدَ وَحَيْبٌ يَلْعَبُ * أَنْتَ لَقِىَ بَيْنَهُمَا مَعْدَبُ

فقال المأمون : هذا أشعر من خضتم اليوم فى ذكره .

قال يزيد بن مزيد : أرسل الى الرشيد يوما في وقت لا يرسل فيه الى مثل ، فأتيته
لابساً سلاحى مستعداً لأمر إن أرادته منى ، فلما رآنى ضحك الى ثم قال : يا يزيد ، خبرنى
من الذى يقول فيك :

تراه فى الأمن فى دِرْع مُضَاعَفَةٍ * لا يأمن الدهر أن يدعى على عَجَل
ضافى العنان طموح العين همته * فك العناة وأسر الفاتك الخطل
فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ؛ فقال : سَوْءَةٌ لك من سيد قوم يُمدح بمثل هذا
الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله ، وهو مسلم بن الوليد !
فانصرفت فدعوت به ووصلته ووليته .

وروى أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد ، من الذى يقول فيك :
لا يعبق الطيب خديته ومفرقه * ولا يمسخ عينه من الكحل
إذا آتضى سيفه كانت مسالكه * مسالك الموت فى الأبدان والقلل
وإن خلت بحديث النفس فكرته * حتى الرجاء ومات الخوف من وجل
كاليث إن همته فالموت راحتته * لا يستريح الى الأيام والدول
فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين ، فقال له هارون : أيقال فيك مثل هذا الشعر
ولا تعرف قائله ! فخرج من عنده تجملاً ، فلما صار الى منزله دعا حاجبه فقال له : من
بالباب من الشعراء ؟ قال : مسلم بن الوليد ؛ قال : وكيف حجبته عني ، فلم تعلمنى بمكانه !
فقال : أخبرته أنك مضيق ، وأنه ليس فى يدك شئ تعطيه إياه ، وسألته الإمساك والمقام
أياماً الى أن تتسع ؛ فأنكر ذلك وقال : أدخله ، فأدخله اليه ، فأنشده قوله فيه :

أَجْرَتْ^(١) حبل خلع فى الصبا غزير * وَثَمَرَتْ هِمُّ الْعُدَالِ فى عَدَلِي
هَاجَ الْبَكَاءُ عَلَى الْعَيْنِ الطَّمُوحِ هَوًى * مُفَرَّقٌ^(٢) بَيْنَ تَوَدِيعٍ وَمُحْتَمَلٍ
كَيْفَ السَّلْوُ لِقَلْبٍ رَاحَ مُحْتَبَلًا * يَهْدِي بِصَاحِبِ قَلْبٍ غَيْرِ مُحْتَبَلٍ

(١) أجرت فلانا رسته : تركته وشأنه ، والخلع : الذى خلع عذاره فى الصبا . (٢) الطموح :

المرتفعة فى النظر الى الأجرة . ومفرق : مقسم .

عَاصَى الْعِزَاءَ غَدَاةَ الْبَيْنِ مُنْهِلٌ * من الدُمُوعِ جَرَى فِي إِثْرِ مُنْهِلٍ
 لَوْلَا مُدَارَاةُ دَمْعِ الْعَيْنِ لَا نَكْشَفْتُ * مَتَى سَرَائِرُ لَمْ تَظْهَرِ وَلَمْ تُخْلَعْ^(١)
 أَمَا كَفَى الْبَيْنَ أَنْ أُرْمَى بِأَسْهُمِهِ * حَتَّى رَمَانِي بِلِحْظِ الْأَعْيُنِ النَّجْجَلِ
 مِمَّا جَنَى لِي وَإِنْ كَانَتْ مَنَى صَدَقَتْ * صَبَابَةٌ خُلْسُ التَّسْلِيمِ بِالْمُقْلِ
 مَاذَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْلَا لَنْتَ عَرِيكَتُهُ * وَرَدَّ فِي الرَّأْسِ مَنَى سَكْرَةِ الْفَزْلِ
 جُرْمُ الْحَوَادِثِ عِنْدِي أَنَّهُ اخْتَلَسَتْ * مَتَى بَنَاتِ غِذَاءِ الْكَرْمِ وَالْكَلِّ^(٢)
 وَرُبَّ يَوْمٍ مِنَ اللَّذَاتِ مُحْتَضِرٌ * قَصْرُتُهُ بِلِقَاءِ الرَّاحِ وَالْخُلْسِ^(٣)
 وَلَيْلَةٌ خُلِسَتْ لِلْعَيْنِ مِنْ سِنَةٍ * هَتَكَتْ فِيهَا الصَّبَا عَنْ بَيْضَةِ الْحَجَلِ
 قَدْ كَانَ دَهْرِي وَمَا بِي الْيَوْمَ مِنْ كِبَرٍ * شُرْبَ الْمَدَامِ وَعَزَفَ الْقَيْنَةِ الْعُطْلِ
 إِذَا شَكُوتُ إِلَيْهَا الْحَبَّ خَفَرَهَا * شَكَاوَى فَاحَمَرَتْ خَدَاهَا مِنْ انْتِجَالِ^(٤)
 كَمْ قَدْ قَطَعْتُ وَعَيْنُ الدَّهْرِ رَاقِدَةٌ * أَيَّامَهُ بِالصَّبَا وَاللَّهُوِ وَالْجَذَلِ
 وَطَيْبُ الْفَرْعِ أَصْفَانِي مَوَدَّتِهِ * كَافَأْتُهُ بِمَدِيحٍ فِيهِ مُشْخَلٌ^(٥)
 وَبَلَدَةٌ لِمَطَايَا الرِّكَبِ مُنْضِيَةٌ * أَنْضِيْتُهَا بِوَجِيفِ الْأَيْنَتِ الدُّلْلِ^(٦)
 فِيمَ الْمَقَامِ وَهَذَا النِّجْمُ مُعْتَرِضًا * دَنَا النَّجَاءُ وَحَانَ السَّيْرُ فَارْتَحِلْ^(٧)
 يَا مَائِلَ الرَّأْسِ إِنْ اللَّيْثُ مُفْتَرَسٌ * مِيلَ الْجَاهِجِ وَالْأَعْنَاقِ فَاعْتَدِلْ
 حَبَذَارٍ مِنْ أَسَدٍ ضِرْغَامَةٍ بَطِيلٍ * لَا يُوَلِّغُ السَّيْفَ إِلَّا مَهْجَةُ الْبَطْلِ
 لَوْلَا يَزِيدُ لِأُضْحَى الْمُلُوكِ مُطَرَّدًا * أَوْ مَائِلَ السَّمَكِ أَوْ مُسْتَرْخِي الطَّوْلِ^(٨)
 سَلَّ الْخَلِيفَةُ سَيْفًا مِنْ بَنَى مَطَرٍ * أَقَامَ قَائِمُهُ مِنْ كَانَ ذَا مَيْلِ
 كَمْ صَائِلٍ فِي ذَرَا تَمْهِيدِ مَمْلَكَةٍ * لَوْلَا يَزِيدُ بَنَى شَيْبَانٍ لَمْ يَصُلْ

(١) أى لم تظن بى . (٢) يزيد النمر والجوارى . (٣) محتضر، أى حضرته اللذات . والخلل : جمع خلة وهى الصديقة . (٤) خفرها ، أى ولد عليها الخفر وهو شدة الحياء . (٥) أى مختار . (٦) منضية : متعبة . والوجيف : ضرب من السير . والدلل : الضامرات . (٧) يريد بالنجم : الثريا . ومعترضا : متصبا . (٨) مطردا ، أى مخذولا . وضرب السمك والطول مثلا .

ناب الإمام الذى يَفترُّ عنه اذا * ما أَفترَّتِ الحربُ عن أنيابها العُصْل
 من كان يَحْتَلِ قِرْنا عند موقفه * فإن قِرْنَ يزيد غير مُحْتَل
 سَدَ الثغور يزيدُ بعد ما أَفترجت * بقاء السيف لا بالحتل والحيْل
 كم قد أذاق حِمام الموت من بطل * حامي الحقيقة لا يُؤتى من الوهل
 أغرَّ أبيضُ يغشى البيضُ أبيض لا * يرضى لمولاه يوم الرُّوع بالفشل
 يغشى الوغى وشهابُ الموت فى يده * يرمى الفوارس والأبطال بالشعل
 يَفترُّ عند أَفترار الحرب مبتسماً * اذا تغيَّر وجه الفارس البطل
 مؤفٍ على مَهج واليوم ذو رَهج * كأنه أَجلٌ يسعى الى أمل
 ينال بالرفق ما يعيا الرجال به * كالموت مستعجلاً يأتى على مهل
 لا يُلْقِحُ الحربَ إلا ريثَ يَنْتَهِجها * من هالك وأسير غير مُحْتَل
 إن شيمَ بارقه حالت خلائقه * بين العطية والإمساك والعلل
 يغشى المنايا المنايا ثم يَفْرِجها * عن النفوس مُطَلَّات على الهبل^(١)
 لا يرحل الناسُ إلا نحو حَجْرته * كالبيت يضحى إليه مُلتقى السبل^(٢)
 يَقْرِى المنيَّة أرواحَ الكُماة كما * يَقْرِى الضيوفُ سُحُومَ الكُوم والبزل^(٣)
 يكسو السيوفَ دماء الناكثين به * ويعمل الهامَ تيجانَ القنا الذُّبُل
 يفسدو فتغدو المنايا فى أسنَّته * شوارعا تَحْدَى الناسَ بالأجل
 اذا طَغَتْ فُتَّةٌ عن عِبِّ طاعتها * عبي لها الموت بين البيض والأسل
 قد عَوَّدَ الطيرَ عاداتٍ وثقنَ بها * فهنَّ يَتَّبَعْنَ فى كلِّ مُرْتَحَل
 تراه فى الأمن فى درع مُضاعفة * لا يَأْمَنُ الدهرُ أن يُدعى على عَجَل
 ضافى العنان طموح العين هَمَّتْه * فَكَّ العِناةَ وأسرَ الفاتك الخِطَل^(٤)
 لا يَعبَقُ الطَّيْبُ خِديهِ ومفْرِقَه * ولا يَمسَحُ عينيه من الكُحُل

(١) الهبل : فقدان . (٢) يعنى البيت الحرام . (٣) الكوم : العظام الأسنة واحدا كوما .
 والبزل : جمع بازل وهو ماله تسعة أعوام . (٤) جمع عان وهو الأسير . والخطل : ذو الخطل وهو الخطأ .

إذا أنتهى سيفه كانت مسالكه * مسالك الموت فى الأبدان والقُلل
 وإن خلت بحديث النفس فكرته * حى الرجاء ومات الخوف من وجل
 كالليث إن هجته فالموت راحتُه * لا يستريح الى الأيام والدُّول
 إن الحوادث لما رُمى هُضبتُه ^(١) * أزعمن عن جار شيان بمُثقل
 فالذهم يغبط أولاه أوآخره * اذ لم يكن كان فى أعصاره الأول
 اذا الشريكى لم يفخر على أحد * تكلم الفخر عنه غير مُتَحِل ^(٢)
 لا تُكذبن فإن الحلم معدنه * ورائته فى بنى شيان لم تزل
 سلوا السيوف فأغشوا من يحاربهم * خطبا بها غير ما نُكلى ولا وُكل
 الزائديون قوم فى رماحهم * خوف الخيف وأمن الخائف الوجل
 كبيرهم لا تقوم الراسيات له * حلما وطفلهم فى هدى مُكتهل
 اسلم يزيد فما فى الدين من أود * اذا سلمت وما فى الملك من خال
 أثبت سوق بنى الإسلام فطادت ^(٣) * يوم الخليج وقد قامت على زل
 لولا دفاطك بأس الروم اذ بكرت * عن عترة الدين لم تأمن من الشكل
 ويوسف البرم قد صبحت عسكره * بعسكر يلفظ الأقدار ذى زجل
 غافسته يوم عبر النهر مهلتُه ^(٤) * وكان محتجزا فى الحرب بالمهل
 والمارق ابن طريف قد دلفت له ^(٥) * بعسكر للنايا مُسيل هطل
 لما رآك مجذا فى منيته * وأن دفعك لا يُسطاع بالحل
 شام التزال فأبرقت اللقاء له * مقدم الخطو فيها غير مُتكل
 ماتوا وأنت غليل فى صدورهم * وكان سيفك يستشنى من الغلل

(١) هذا مثل ، يريد لما رامت الحوادث من استجار به . (٢) نسبة الى شريك ، وهو أحد أجداد يزيد .
 (٣) هكذا فى الأصل . وعندنا أن الكلمة محرفة عن (انطلت) أى ثبتت . وهى وزان افعل من وطد .
 وكانت اوطلد ثم قلبت فاء الانفعال تاء وأدغم المثل فى المثل . (٤) عترة الدين : جماعة الاسلام .
 (٥) أحد الخوارج على الرشيد . (٦) غافسه : فاجاه على غرة . (٧) هو الوليد بن طريف الشارى .

لو أن غير شريكٍ أطاف به * فاز الوليدُ بقِدحِ الناضلِ الخِصَلِ^(١)
وقتَ الدينِ يومَ الرِّسِّ^(٢) فأعتدلت * منه قوائِمُ قد أوفت على مِيل
ما كانَ جفَعُهُمُ لما لَقِيَتَهُمُ * إلا كمثل نَعَامٍ رِيعٍ مُنَجَفَلِ
تابوا ولو لم يتوبوا من ذنوبِهِمُ * لأَبَ جيشُك بالأَسرى وبالنَّفلِ
كم آمِنَ لك نائى الدارِ مُتَمَتِّع * أخرجته من حصونِ المُلِكِ والخَوَلِ
يأبى لك الدَمُّ فى يوميك إن دُكرَا * عَضْبٌ حُسَامٌ وعِرَضٌ غير مُبْتَدَلِ
وما رِقِينِ غُرَاةٍ من بيوتِهِمُ * لا يَنْكُلُونَ ولا يَوْتُونَ من نَكَلِ
خَلَفَتْ أجسادَهُم والطيرُ عاكِفَةً * فيها وأقفلتَهُم هاما مع القَفَلِ
فانخرِفَا لك فى شِيبانٍ من مَثَلِ * كذاك ما لِبَنى شِيبانٍ من مَثَلِ
كم مَشْهَدٍ لك لا تُحصى مآثرُهُ * قَسَمْتَ فيه كَرزُقَ الإنسِ والخِصَلِ
لله مِن هاشمٍ فى أرضِهِ جَبَل * وأنت وأبْنُكَ رُكْنَا ذلك الجَبَلِ
قد أعْظَموكَ ما تُدعى لِهَيْبَةِ * إلا لِمُعْضَلَةٍ تَسْتَنُّ^(٣) بالعَضَلِ
يا ربَّ مَكْرَمَةٍ أصبحت واحدا * أَعَيْتَ صَنادِيدَ رَأْمُها فلم تُثَلِ
تَسَاغَلِ النَّاسُ بالدنيا وزُخْرُفِها * وأنت من بَذَلِكِ المَعْرُوفِ فى شُغْلِ
أَقْسَمْتُ ما دُبَّ عن جَدِّوأك طالِبُها * ولا دَفَعْتَ أَعْتَرَامَ الحَدِّ بالهَزَلِ
يأبى لسانُكَ مَنَعَ الجودِ سائلُهُ * فما يُجَلِّجُ بين الجودِ والبَخَلِ
صَدَقْتَ ظَنِّي وصَدَقْتَ الظنُّونَ به * وحَطَّ جودُكَ عَقْدَ الرِّحْلِ عن جَمَلِي

فقال له يزيد : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقبضها وأعذر ، فخرج الحاجب فقال
لمسلم : قد أمرنى أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : خمسون ألفا منها لك
وخمسون ألفا لنفسه ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد
بمائتى ألف درهم وقال : اقض الخمسين ألفا التى أخذها الشاعر وزده مثلها ، وخذ

(١) الناضل : المصيب . والخصل مثله . (٢) الرس : وادى أذربيجان . (٣) تستن بالعضل :

تتابع بالعسر . والمعضلة : الداهية .

مائة ألف لنفقتك ، فأفقتك ضيعته وأعطى مسلمانا خمسين ألفا أخرى . ولما أنشدته :
« لا يعبق الطيب » البيت . قال لجاريتته : حرم علينا مسلم الطيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبى يجلس للشعراء فى السنة مجلسا واحدا ، فيقصدهونه لذلك اليوم وينشدونه ، فوجه اليه مسلم راويته بقصيدته التى أولها : « لا تدع بى الشوق » فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقه بعقب خروجهم عنه ، فتقدم الى الحاجب وحسّر لثامه عن وجهه ، ثم قال له : أستاذن لى على الأمير ، قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر ، قال : قد آنصرم وقتك وأنصرف الشعراء وهو على القيام ، فقال له : ويحك ! إني قد وفدت على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله ، وكان مع الحاجب أدب يفهم به ما يسمع ، فقال : هات حتى أسمع ، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك اليه ، فأنشده بعض القصيدة ، فسمع شيئا يقصر عنه الوصف ، فدخل على داود فقال له : قدم على الأمير شاعر بشعر ما قيل فيك مثله ، فقال : أدخل قائله ، فلما مثل بين يديه سلم وقال : قدمت على الأمير — أعزّه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدّمى على غيرى ممن آمتدحه ، فقال : هات ، فلما أفتتح القصيدة وقال : « لا تدع بى الشوق » استوى جالسا وأطرق حتى أتى الرجل على آخر الشعر ، ثم رفع رأسه اليه فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير ، قال : فى كم قلته يا فتى ؟ قال : فى أربعة أشهر أبقاك الله ، قال : لو قلته فى ثمانية أشهر لكنت محسنا ، وقد أتممتك ، لجودة شعرك وحول ذكرك ، فان كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة أشهر فى مثله ، وأمرت بالإجراء عليك ، فان جئتنا بمثل هذا الشعر وهبت لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك ، فقال : أو الإقالة أعزّ الله الأمير ، قال : قد أفلتت ، قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره ، فقال : أنا ابن حاتم ، إنك لما أفتحت شعره فقلت : « لا تدع بى الشوق إني غير معمود » سمعت كلام مسلم ينادىنى ، فأجبت ندائه وأستويت جالسا ، ثم قال : يا غلام ، أعطه عشرة آلاف درهم ، وأحمل الساعة الى مسلم مائة ألف درهم . وهذه هى القصيدة :

لا تَدْعُ بِي الشَّوْقَ إِلَى غير مَعْمُود * نَهَى النَّهْيَ عَنْ هَوَى الهَيْفِ الرَّاعِدِ (١)
 لَوْ شِئْتُ لَأَشِئْتُ رَاجِعَتُ الصَّبَا وَمَشَتْ * فِي الْعَيُونِ وَفَالْتَنِي بِجَحْلُودِ (٢)
 سَلْ لَيْلَةَ الْخَيْفِ هَلْ أَمْضَيْتُ آخِرَهَا * بِالزَّاحِ تَحْتَ نَسِيمِ الْخُرْدِ الْغَيْدِ
 شَجَّجْتُهَا بِلُعَابِ الْمُزْنِ فَاغْتَرَلْتُ (٣) * نَسَجِينَ مِنْ بَيْنِ مُحْلُولٍ وَمَعْقُودِ
 كَلَّا الْجَدِيدِينَ قَدْ أُطِيعْتُ حَبْرَتَهُ (٤) * لَوْ آلَ حَى إِلَى عُمَيْرٍ وَتَحْلِيدِ
 أَهْلًا بِوَافِدَةٍ لِلشَّيْبِ وَاحِدَةٍ * وَإِنْ تَرَأَتْ بِشَخْصٍ غَيْرِ مَوْدُودِ
 لَا أَجْعَلُ الْحَلْمَ وَالصَّبَاءَ قَدْ سَكَنْتُ * نَفْسِي إِلَى الْمَاءِ عَنْ مَاءِ الْعَنَاقِيدِ
 لَمْ يَنْهَى فَنَدُّ عَنْهَا وَلَا كِبَرُ (٥) * لَكِنْ صَحُوتُ وَغَضَنِي غَيْرُ مَحْضُودِ
 أَوْفَى بِي الْحَلْمُ وَأَقْتَادُ النَّهْيِ طَلَقَا * شَاوَى وَعِفْتُ الصَّبَا مِنْ غَيْرِ تَفْنِيدِ
 إِذَا تَجَافَتْ بِي إِلَهَاتُ عَنْ بِلَدِ * نَازَعَتْ أَرْضًا وَلَمْ أَحْفِلْ بِتَهْمِيدِ
 لَا تَطْيِينِي الْمُنَى عَنْ جَهْدِ مُطَلَبِ (٦) * وَلَا أَحُولُ لَشَيْءٍ غَيْرِ مَوْجُودِ
 وَجَهَلِي كَأَطْرَادِ السَّيْفِ مُحْتَجِزِي * عَنْ الْأَدْلَاءِ مَسْجُورِ الصَّبَاخِيدِ
 تَمْشِي الرِّيَاحُ بِهِ حَسْرَى مُوَلَّهَةً * حَيْرَى تَلُودُ بِأَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ
 مُوقِفِ الْمَتْنِ لَا تَمْضِي السَّبِيلُ بِهِ * إِلَّا التَّخَلُّلَ رَيْثًا بَعْدَ تَجَهُّدِ
 قَرِيئَتِهِ الْوَحْدَ مِنْ خَطَّارَةِ سَرِجِ (٧) * تَفَرَّى الْفَلَاةَ بِإِرْقَالٍ وَتَوْخِيدِ
 إِلَيْكَ بَادَرْتُ إِسْفَارَ الصَّبَاحِ بِهَا * مِنْ جُنْحِ لَيْلٍ رَحِيْبِ الْبَاعِ مَمْدُودِ
 وَبِلَدَةٍ ذَاتِ غَوْلٍ لَا سَبِيلَ بِهَا * إِلَّا الظَّنُونُ وَالْأَمْسَرَحُ السَّيِّدِ
 كَأَنَّ أَعْلَامَهَا وَالْأَلَّ يَرْكَبُهَا * بُدُنٌ تَوَافَى بِهَا تَذَرُّ إِلَى عَيْدِ

(١) لا تدع بي الشوق، أى لا تدعنى مشتاقا . وسأله دعبل عن معنى ذلك فقال : لا تدعنى صريع الغواني فلست كذلك ، وكان لهذا اللقب كارهها . ومعمود : عاشق . والهيف : الضامرات المحصور . (٢) أى ذهبت بجملدى . (٣) اغترلت : اختلطت ، ويريد بالتسجين : ما ولى الماء من الخمر أسرع فيه الماء لخله ، وما ولى منها القاع بقى على حاله لم يخله الماء بعد . (٤) الحبرة : النعيم . (٥) الفند : اللوم . والمحضود : الواهن . (٦) أى لا تدعونى الى نفسها . (٧) الخطارة : الناقة تحرك ذنبها . والسرج : الخفيفة .

كَلَّفَتْ أَهْوَالَهَا عَيْنًا مَوْرَقَةً * إِلَيْكَ لَوْلَاكَ لَمْ تُكْحَلْ بِتَسْمِيدِ
 حَتَّى أَتَيْتَ بِي الْآمَالَ مُطْلَعًا * لِلْإِسْرِ عِنْدَكَ فِي سِرْبَالِ مَحْسُودِ
 مِنْ بَعْدِ مَا أَلْقَيْتَ الْأَيَّامَ لِي عَرَضًا * مُلِقَى رَهِينٍ لِحَدِّ السَّيْفِ مَصْفُودِ^(١)
 وَسَاوَرْتَنِي بِنَاتُ الدَّهْرِ فَأَمْتَحَنْتَ * رَبْعِي بِمُحَلَّةٍ شَهْبَاءَ جَارُودِ^(٢)
 إِلَى بَنِي حَاتِمٍ أَدَى رِكَائِبِنَا * خَوْضُ الدَّجَى وَسُرَى الْمَهْرِيةِ الْقُودِ
 تَطْوِي النَّهَارَ فَإِنْ لَيْلٌ تَمْحَطُهَا^(٣) * بَاتَتْ تَحْمُطُهَا مَاتِ الْقَرَادِيدِ
 مِثْلَ السَّمَاءِ بَعِيدَاتِ الْمَقِيلِ إِذَا * أَلْقَى الْهَجِيرُ يَدًا فِي كُلِّ صَيْخُودِ
 حَلَّتْ بِدَاوُدَ فَاْمَتَا حَتَّى وَأَعْجَلَهَا * حَذُو النَّعَالِ عَلَى أَيْنٍ وَتَحْرِيدِ^(٤)
 أَعْطَى فَاْفَتَى الْمُنَى أَدْنَى عَطِيَّتِهِ * وَأَرْهَقَ الْوَعْدَ مُجْحًا غَيْرَ مَنْكُودِ
 وَاللَّهُ أَطْفَأَ نَارَ الْحَرْبِ إِذْ سُبِعَتْ * شَرْقًا بِمُوقِدِهَا فِي الْغَرْبِ دَاوِدِ
 لَمْ يَأْتِ أَمْرًا وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَى حَدَثٍ * إِلَّا أُعِينَ بِتَوْفِيقٍ وَتَسْدِيدِ
 مُوَحِّدُ الرَّأْيِ تَنْشَقُّ الظُّنُونُ لَهُ * عَنْ كُلِّ مُلْتَبِسٍ مِنْهَا وَمَعْقُودِ
 ثَمَنِي الْأُمُورُ لَهُ مِنْ نَحْوِ أَوْجُهِهَا * وَإِنْ سَلَكَ سَبِيلًا غَيْرَ مَوْرُودِ
 إِذَا أَبَا حَتَّى قَوْمٍ عَقُوبَتُهُ * غَادَى لَهُ الْعَفْوُ قَوْمًا بِالْمَرَاوِدِ
 كَاللَّيْلِ بِلِ مِثْلِهِ اللَّيْتُ الْمَصُورُ إِذَا * غَنَى الْحَدِيدُ غِنَاءً غَيْرَ تَغْرِيدِ
 يَلْقَى الْمَنِيَّةَ فِي أُمُثَالِ عُدَّتِهَا * كَالسَّيْلِ يَقْذِفُ جُلُودًا بِجُلُودِ
 إِنْ قَصَرَ الرِّيحُ لَمْ يَمَسَّ الْخُطَا عِدْدًا * أَوْ عَرَّدَ السَّيْفُ لَمْ يَهْمَمْ بِتَغْرِيدِ
 إِذَا رَعَى بَلَدًا دَانَى مَنَاهِلَهُ * وَإِنْ بَيْنَ عَلَى شَحْطٍ وَتَبْعِيدِ
 جَرَى فَادْرَكَ لَمْ يُعْنَفْ بِمِهْلَتِهِ * وَأَسْتَوْدَعُ الْبَهْرَ أَنْفَاسَ الْمَجَاوِدِ^(٥)

(١) الرهين : الأسير . والمصفود : الموثق بالحديد . (٢) المحلّة : السنة الجديّة . والجارود :

المنجردة من النبات . (٣) تمحطها : سال بها . والقراديد : جمع قرد ، وهو المرتفع من الجبال .

(٤) السّماء : طائر يشبه القطا . والصيخود : شدّة الحر . (٥) التحريد من الحرد ، وهو داء يصيب الإبل

في قوائمها . والأين : التعب . (٦) البهر : هو ما يعترى الإنسان عند البدو من اللّهمث وشتاب النفس .

آلُ الْمُهَلَّبِ قَوْمٌ لَا يَزَالُ لَهُمْ * رِقِّ الصَّرِيحِ وَأَسْلَابُ الْمَدَاوِدِ ^(١)
 مُظْفَرُونَ يُصِيبُ الْحَرْبُ أَنْفُسَهُمْ * إِذَا الْفِرَارُ تَمَطَّى بِالْمَحَايِدِ ^(٢)
 نَجَلٌ مَنَاجِبَ لَمْ يَعْدَمِ تِلَادُهُمْ * فَتَى يُرَجَّى لِنَقِضِ أَوْ لَتَوْكِيدِ
 قَوْمٌ إِذَا هَدَاةٌ شَامَتْ سَيُوفُهُمْ ^(٣) * فَإِنَّا عُقُلُ الْكُومِ الْمَقَاحِدِ
 نَفْسِي فِدَاؤُكَ يَا دَاوُدَ إِذْ عَلِقْتَ * أَيْدِي الرَّدَى بِنَوَاصِي الضَّمَرِ الْقُودِ
 دَاوَيْتَ مِنْ دَائِهَا كَرْمَانَ وَأَنْتَصَفْتَ * بِكَ الْمُنُوبِ لِأَقْوَامٍ مَجَاهِدِ
 مَلَأَتْهَا فَرْعًا أَخْلَى مَعَاظِلَهَا * مِنْ كُلِّ أَبْلَغَ سَامَى الطَّرْفِ صَنِيدِ ^(٤)
 لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى أَدْنَى بِلَادِهِمْ * أَلْقَى إِلَيْكَ الْأَفَاصِي بِالْمَقَالِيدِ
 لَمَسْتَهُمْ بِيَدٍ لِلْعَفْوِ مُتَّصِلِ * بِهَا الرَّدَى بَيْنَ تَلَيْنٍ وَتَشْدِيدِ
 أَتَيْتَهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْأَمْنِ مُطَّلِعًا * بِالْخَيْلِ تَرْدِي بِأَبْطَالٍ مَنَاجِدِ
 وَطَارَ فِي إِثْرِ مَنْ طَارَ الْفِرَارُ بِهِ * خَوْفٌ يِعَارِضُهُ فِي كُلِّ أُخْدُودِ
 فَاتُوا الرَّدَى وَظُبَاتُ الْمَوْتِ تَنْشُدُهُمْ * وَأَنْتَ نَصَبَ الْمَنَازِيَا غَيْرُ مَنْشُودِ
 وَلَوْ تَلَبَّثَ دِيَانٌ لَهَا رَوَيْثٌ ^(٥) * مِنْهُ وَلَكِنْ شَآهَا عَدُوٌّ مَرْءُودِ
 أَحْرَزَهُ أَجَلٌ مَا كَادَ يُحْرِزُهُ * فَتَرَّ يَطْوِي عَلَى أَحْشَاءِ مَفْئُودِ ^(٦)
 وَرَأْسُ مِهْرَانٍ قَدْ رَكَّبَتْ قُلْتَهُ * لَدُنَّا كَفَاهُ مَكَانَ اللَّيْلِ وَالْجِيدِ
 قَدْ كَانَ فِي مَعَزِلٍ حَتَّى بَعَثَتْ لَهُ * أُمُّ الْمَنِيَّةِ فِي أَبْنَائِهَا الصَّيْدِ
 أَجْنٌ أُمُّ أَسْلَمَتَهُ الْفَاضِحَاتِ إِلَى * حَدٍّ مِنَ السَّيْفِ مِنْ يَعْلَقُ بِهِ يُودِ
 الْحَقَّتَهُ صَاحِيهِه فَاسْتَمَرَّ بِهِمْ * ضَرْبٌ يَفَرِّقُ ضَبَّاتِ الْقَمَاحِدِ ^(٧)

(١) رِقِّ الصَّرِيحِ، أى استعباد الحر . والمداويد : الانجناد واحده مذود . (٢) المحاييد : الجبناء .

جمع محياد . (٣) الهداة : الفترة . (٤) الأبلغ : المتكبر .

(٥) شآها : سبقها . ومَرْءُود : مرعوب . (٦) المَفْئُود : الذى أصيب فواده . (٧) الضبَّات :

أوصال الرأس . والقماحيد : جمع قحودة وهى العظم الناقى فى مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس .

أَعَذَّرَ مَنْ قَرَمَنْ حَرْبٍ صَبَرَتْ لَهَا * يَوْمَ الْحَصِينِ شِعَارٌ غَيْرَ مَجْحُودِ
 يَوْمَ اسْتَضَبَّتْ سِجِسْتَانُ طَوَائِفِهَا ^(٢) * عَلَيْكَ مِنْ طَالِبٍ وَثَرًا وَمَحْقُودِ
 نَاهَضَتَهُمْ ذَائِدُ الْإِسْلَامِ تَقَرَّعُهُمْ * عَنْهُ ثَلَاثَ وَمِثْنَى بِالْمَوَاحِدِ
 تَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ أَنْتَ الضَّيْنِ بِهَا * وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ
 تِلْكَ الْأَزَارِقُ إِذْ ضَلَّ الدَّلِيلُ بِهَا * لَمْ يُخْطِهَا الْقَصْدُ مِنْ أَسْيَافِ دَاوُدَ
 كَانَ الْحَصِينُ يُرَجَّى أَنْ يَفُوزَ بِهَا * حَتَّى أَخَذَتْ عَلَيْهِ بِالْأَخَادِيدِ
 مَا زَالَ يَعْزِفُ بِالنُّعْمَى وَيَغْمِطُهَا * حَتَّى آسَقَلَ بِهِ عَوْدٌ عَلَى عَوْدِ
 وَضَعَتْهُ حَيْثُ تَرْتَابُ الرِّيحُ بِهِ ^(٣) * وَتَحْسُدُ الطَّيْرُ فِيهِ أَضْبَعُ الْيَدِ
 تَغْدُو الضَّوَارِي فَتَرْمِيهِ بِأَعْيُنِهَا * تَسْتَشِيقُ الْجَوَّ أَنْفَاسًا بِتَصْعِيدِ
 يَتَّبِعْنَ أَفْيَافَهُ طَوْرًا وَمَوْقِعَهُ ^(٤) * يَلْفَنَ فِي عَلَقِي مِنْهُ وَتَجْسِيدِ
 فَكَانَ فَارِطَ قَوْمٍ حَانَ مَكْرُهُمْ * بِأَرْضِ زَادَانَ شَقَى فِي الْمَوَارِيدِ
 يَوْمَ جُرَاشَةِ إِذْ شَيَّانُ مُوجِفَةٍ ^(٥) * يَنْجُونَ مِنْكَ بِشَاوْمِنِهِ مَقْدُودِ
 زَاخَفْتَهُ بَابَنِ سُفْيَانٍ فَكَانَ لَهُ * ثَاءُ يَوْمٍ بَظَهَرِ الْغَيْبِ مَشْهُودِ
 نَجَا قَلِيلًا وَوَأَقَى زَجْرُ عَائِفِهِ * بِيَوْمِهِ طَيْرٌ مَنَحُوسٍ وَمَسْعُودِ
 وَلَّى وَقَدْ جَرَعَتْ مِنْهُ الْقَنَا جُرْعًا * حَتَّى الْخَافَةِ مَيْثًا غَيْرَ مَبْدُودِ
 زَالَتْ حُشَاشَتُهُ عَنْ ضِدْرِ مُعْتَدِلِ * دَانِي الْكُعُوبِ بَعِيدِ الصَّدْرِ أُمْلُودِ ^(٦)
 إِذَا السُّيُوفُ أَصَابَتْهُ تَقَطَّعَ فِي * سُرَادِقِ بِحَوَامِي الْخَيْلِ مَمْدُودِ
 يَقْدِي بِمَا نَحَلَتْهُ مِنْ خِلَافَتِهِ * حُشَاشَةِ الزَّكُضِ مِنْ جَرْدَاءِ قَيْنُودِ ^(٧)
 حَلَّ اللَّسَوَاءِ وَخَالَ الْحِدْرَ عَائِذَهُ * فَعَاذَ بِالْخِدْرِ تَرْبُ الْكَاعِبِ الرَّوْدِ

(١) أعذر: جاء بما يعذر عليه . (٢) أي أغرت طوائفها . (٣) ترتاب: أي تستنكر .

(٤) الأفياء: جمع في وهو الظل آخر النهار . والجسد: الدم . (٥) موجفة: سريعة .

(٦) أملود: أملس . (٧) الجرداء: قصيرة الشعر . والقيدود: الناقة الطويلة الظهر .

(١) وإن يكن شَبَّهاً حرباً وقد نَحَدت * فَنَائِيًا حَيْثُ لَا هَيْدَ وَلَا هَيْدَ
 كُلُّ مَثَلَتْ بِهِ فِي مِثْلِ خُطَّتِهِ * قَتَلَا وَأُخِجَتَهُ فِي غَيْرِ مَلْحُودِ
 عَافُوا رِضَاكَ فَعَاقَتَهُمُ بَعْقُوتُهُمْ * ^(٢) عَنِ الْحَيَاةِ مَنَآيَاهُمْ لِمَوْعُودِ
 وَأَنْتَ بِالسَّيْنِ إِذَا هَاجَ الصَّرِيحُ بِهَا * وَأَسْتَفَدْتُ حَرْبَهَا كَيْدَ الْمَكَايِيدِ
 وَأَسْتَغْزِرُ الْقَوْمَ كَأَسَا مِنْ دِمَائِهِمْ * وَأُحْدَقُ الْمَوْتَ بِالْكَرَّارِ وَالْحَيْدِ
 رَدَدْتَ أَهْمَالَهَا الْقَصُورَى مَخِيضَةً * ^(٣) وَشِمْتُ بِالْبَيْضِ عَوْرَاتِ الْمَرَاصِيدِ
 كُنْتُ الْمُهْلَبَ حَتَّى شَكَّ عَالِمُهُمْ * ثُمَّ أَنْفَرَدْتُ وَلَمْ تُسَبِّقْ بِتَسْوِيدِ
 لَمْ يَقْبَلِ السَّلْمُ إِلَّا بَعْدَ مَقْدَرَةٍ * وَلَا تَأَلَّفْتُ إِلَّا بَعْدَ تَبْدِيدِ
 حَتَّى أَجَابُوكَ مِنْ مَسْتَأْمِنٍ حَذِرٍ * رَاجٍ وَمُتَظَرٍّ حَتْفًا وَمُتَمُودِ
 أَهْدَى إِلَيْكَ عَلَى الشَّحْنَاءِ أُلُقَتَهُمْ * مَوْتُ تَفَرَّقَ فِي شَتَى عِبَادِيدِ
 وَفِي يَدَيْكَ بَقَايَا مِنْ سَرَاتِهِمْ * هُمْ لَدَيْكَ عَلَى وَعْدٍ وَتَوَعِيدِ
 إِنْ تَعَفَّ عَنْهُمْ فَأَهْلُ الْعَفْوِ أَنْتَ وَإِنْ * تُخَضُّ الْعِقَابَ فَأَمْرٌ غَيْرُ مَرْدُودِ
 اسْمِعْ فَإِنَّكَ قَدْ هَيَّجْتَ مَلْحَمَةً * وَفَدَتْ مِنْهَا بَارَوَاحَ الصَّنَادِيدِ
 أَفْذِفْ أَبَا مَالِكٍ فِيهَا يَكُنْكَ بِهَا * وَيَسْعَ فِيهَا يَحْدُ مِنْكَ مَجْدُودِ
 يَمْضَى بِعِزِّكَ أَوْ يَجْرَى بِشَاوِكَ أَوْ * يَقْرَى بِحَدِّكَ كُلُّ غَيْرِ مَحْدُودِ
 لَا يَعْدَمَنَّكَ حِمَى الْإِسْلَامِ مِنْ مَلِكٍ * أَقَمْتَ قُلْتَهُ مِنْ بَعْدِ تَأْوِيدِ
 كَفَيْتَ فِي الْمُلْكِ حَتَّى لَمْ يَقِفْ أَحَدٌ * عَلَى ضِيَاعٍ وَلَمْ يَحْزَنْ لِمَفْقُودِ
 أَعْطَيْتَهُمْ مِنْكَ نُصْحًا لَا كِفَاءَ لَهُ * وَأَيَّدُوكَ بِرُكْنٍ غَيْرِ مَهْدُودِ
 لَمْ يَبْعَثِ الدَّهْرُ يَوْمًا بَعْدَ لَيْلَتِهِ * إِلَّا أَنْبَعَثَ لَهُ بِالْبَاسِ وَالْجُودِ
 أَجْرَى لَكَ اللَّهُ أَيَّامَ الْحَيَاةِ عَلَى * فَعَلٍ حَمِيدٍ وَجَدَّ غَيْرِ مَنْكُودِ

(١) كَتَبَانِ يَزْجُرُهُمَا الْإِبِلُ . (٢) بَعْقُوتُهُمْ، أَيْ بَقَائُهُمْ . (٣) الْأَهْمَالُ : جَمْعُ هَمَلٍ ، وَهُوَ

الشَّيْءُ الْمُسَيِّبُ ، وَيرَادُ بِهِ الصَّعْبُ . وَخِيْصَةُ : مَذَلَّةٌ .

لا يفقد الدين خيلا أنت قائدها * يعهدن في كل ثغر غير معهود
مجلات اذا آبت غنائها * ومقدمات على نصر وتأيد
هناك أنك مغدى كل ملتبس * جودا وأنك مأوى كل مطرود
تستأنف الحمد في دهر أوائله * موسومة بفعال منك محمود
اذا عزمت على أمر بطشت به * وإن أنلت فينلا غير تصريد
عودت نفسك عادات خلقت لها * صدق الحديث وإنجاز المواعيد

دخل الوليد على الفضل بن سهل لينشده شعرا، فقال له : أيها الكهل ، إني أجلك
عن الشعر فسل حاجتك ؛ قال : بل تستم اليد عندى بأن تسمع ، فأنشده :

دموعها من حذار البين تنسكب * وقلها مغرم من حرها يجب
جد الرحيل به عنها ففارقها * لينه اللهو واللذات والطرب
يهوى المسير الى مرو ويحزنه * فراقها فهو ذو نفسين يرتقب

فقال له الفضل : إني لأجلك عن الشعر ؛ قال : فأعني بما أحببت من عملك ، فولاه
البريد بجرجان^(١) .

هجا مسلم قریشا ونفر بالأنصار بشعر يمثل لك ناحية من نواحي العصبية بين القبائل
وهو يعتبر، الى حد ما ، من الشعر السياسي ، فقال :

قل لمن تاه إذ بنا عز جهلا * ليس بالتيه يفخر الأحرار
فتناهوا وأقصرُوا فلقد جا * رت عن القصد منكم الأبصار
أيكم حاط ذا جوار بعز * قبل أن تحتويه منا الدار
أورجا أن يفوت قوما بوتر * لم تزل تمتطيهم الأوتار
لم يكن ذاك فيكم فدعوا الفخ * ربما لا يسوغ فيه افتخار
ونزارا ففاحروا تفضلهم * ودعوا من له عيسد نزار

(١) بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين الى الجنوب الشرق منه .

فبنا عزّ منكم الذلّ والده * سرّ عليكم برّيه كزار
 حاذروا دولة الزمان عليكم * إنه بين أهله أطوار
 فترّدوا ونحن للحالة الأو * لى وللأوحد الأذلّ الصغار
 فاخرتنا لما بسطنا لها الفخ * رقرش ونفرها مستعار
 ذكرت عزّها وما كان فيها * قبل أن تستجيرنا مستجار
 إنما كان عزّها في جبال * ترتقيها كما ترقى الوبار
 أيها الفاحرون بالعز والعد * زلقوم سواهم والفخار
 أخبرونا من الأعزّ أألمد * صور حتى أعتلى أم الأنصار
 فلنا العز قبل عزّ قريش * وقريش تلك الدهور تجار

فانبرى له ابن قنبر يحميه فقال :

ألا أمثل أمير المؤمنين بمسلم * وأقلق به الأحشاء من كل مجرم
 ولا ترجع عن قتله باستتابة * فما هو عن شتم النبي بمجرم
 ولا عن مساواة له ولقومه * قريشا بأصداء لِعَادٍ وجُرم
 ويفخر بالأنصار جهلا على الذي * بنصرته فازوا بحظّ ومغنم
 وسمّوا به الأنصار لا عزّ قائل * أراد قريشا بالمقام المذم
 ومنهم رسول الله أزي من أنتمى * الى نسب زكٍ ومجد مقدّم
 وما كانت الأنصار قبل اعتصامها * بنصر قريش في المحلّ المعظم
 ولا بالألى يعلون أقدار قومهم * صداء وخولانٍ ونحم وسلهم
 ولكم بالله عاذوا ونصرهم * قريشا ومن يستعصم الله يعصم
 فعزّوا وقد كانوا وطيون فيهم * من الذل في باب من العزّ مبهم
 يسومهم الفطيون مالا يسامه * كريم ومن لا ينكر الظلم يظلم
 وإن قريشا بالماثر فضّلت * على الخلق طرا من فصيح وأعجم

فما بال هذا العليج ضلّ ضلاله * يمد اليهم كف أجذم أعجم
يُسامى قريشا مسلم وهمهم * بمولى يمانى وببيت مهتدم
إذا قام فيه غيرهم لم يكن لهم * مقام به من لؤم مبنى ومدغم
جَعاسيس^(١) أشباه القروذ لو أنهم * يباعون ما أبتيعوا جميعا بدرهم
وما مسلم من هؤلاء ولا ألى * ولكنه من نسل عليج ملّكم
تولى زمانا غيرهم ثم ادعى * اليهم فلم يكرم ولما يكرم
فإن يك منهم فالتضير ولفهم * مواليه لا من يدعى بالترغم
وإن تدع الأنصار مولى أسمهم * بقافية تستكره الجلد بالدم
عقابا لهم في إفكهم وادعائهم * لأقلف منقوش الذراع موشم
فلا تدعوه وانتفوا منه تسلموا * بنقيكوه من مقال وماثم
وإلا فغضوا الطرف وانتظروا الردى * إذا اختلفت فيكم صوارد أسهمى
ولم تحدوا عنها يحنا يحنكم * إذا أطلعت من كل فج ومعلم
وأنتم بنو أذئاب من أتم له * ولستم بأبناء السنام المقدم
ولا يبنى الرأس الرفيع محله * فيسمو بكم مولى مسام ويتسمى
فكيف رضيت أن يُسامى نبيكم * ببيتكم الرث القصير المهتدم
ساحط من سامى النبي تطاولا * عليه وأكوى منتهاء بميسمى
أبعدل بيت يثربى بكعبة * ثوتها قريش فى المكان المحترم
قريش خيار الله والله خصهم * بذلك فأتعس أيها العليج وأرغم
ومن تدعى منه الولاء مؤثر * إذا قيل للجارى الى المجد أقدم

وكان مسلم قال قصيدته فى قريش وكتماها، فوقعت إلى ابن قنبر وأجابه عنها، فاستعمل عليه وهتكه وأغرى به السلطان، فلم يكن عند مسلم فى هذا جواب أكثر من الانتفاء منها

(١) الجعاسيس : اللثام فى الخلق والخلق .

ونسبها الى ابن قنبر والآذناء عليه أنه ألصقها به ونسبها اليه ليعرضه للسلطان وخافه ، فقال
يتنقى من هذه القصيدة :

دعوت أمير المؤمنين ولم تكن * هناك ولكن من يحفّ يحشّم
ولئك اذ دعوا الخليفة ناصرا * لكلمترقى في السماء بسلم
كذلك الصدى تدعوه من حيث لا ترى * وإن تتوهمه تمت في التوهم
هجوت قريشا عامدا وتخلتني * رؤيدك يظهر ما تقول فيعلم
إذا كان مثلى في قبيل فإنه * على ابن لوى قصرة غيرتهم
سيكشفك التعديل عما قدفتني * به فتأخر عارفا أو تقدم
فإن قريشا لا يفادر ودّها * ولا يستمال عهدا بالترحم
مضى سلف منهم وصلى بعقبهم * لنا سلف في الأول المتقدم
جروا جفرينا سابقين بسبقهم * كما آتبت كف نواشر معضم
وإن الذى يسعى ليقطع بيننا * كتمس اليربوع في حجر أرقم
أضلك قرع الآبدات طريقها * فأصبحت من عميائها في تيم
وخانتك عند الجرى لما آتبعها * تميم فحاولت العلاء بالتقحم
فأصبحت ترميني بسهمى وتسبق * يدى بيدى أصليت نارك فاضرم

ثم هجاه ابن قنبر بقصيدة أولها :

قل لعبد النضير مسلم الوغ * يد الدني اللئيم سنخ النصاب
أخس يا كلب اذ نجت فإنى * لست من يجب نبج الكلاب
أفأرضى ومنصبى منصب العز * وبيتى في ذروة الأحساب
إن أحط الرفيع من ستمك بتي * بمهاجاة أوشب الاوشاب
من اذا سئل من أبوه بدا منه * به حياه يحميه رنجع الحساب

وإذا قيل حين يُقِيل من أد * ست ومن تَعْتَرِيهِ في الأَنساب
 قلت هَاجَى أبْنِ قَنبر قَتَسَر بَد * ست بذكري نَخراً لدى النَّساب
 وهي قصيدة طويلة فلم يحبه عنها مسلم بشيء فقال فيه أبْن قَنبر أيضاً :
 لستُ أنْفِيكَ إن سَوَاى تَفَاكَ * عن أبيك الذى له مُتَمَّا كَا
 ولماذا أنْفِيكَ يا بَن الوليد * من أبٍ إن ذَكَرْتُهُ أَخْزَا كَا
 ولو آتَى طَلَبْتُ الأَمَ منه * لم أَجِدْه إن لم تَكُن أَنت ذَا كَا
 لو سِوَاه أَبوك كان جَعَلْنَا * ه إذا النَّاسُ طَاوَعُونَا أَبَا كَا
 حاك دَهراً بغيرِ حَذَقٍ لِبَرْدٍ * وَتَحُوكُ الأشْعَارُ أَنت كَذَا كَا

ثم هجاء بشعر أقَدَعَ فيه ، فبشئ إليه قوم من مشايخ الأنصار وأستعانوا بِمَشِيخَةٍ من قُرَاء
 تميم وذوى الفضل والعلم ، فمشوا معهم إليه ، فقالوا : ألا تستحي من أن تهجو من لا يحبيك !
 أنت بدأت الرجل فأجابك ، ثم عدت فكف ، وتجاوزت ذلك الى ذكر أعراض الأنصار التى
 كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها ويذب عنها ويصونها لغير حال أحلت ذلك منهم ،
 فما زالوا به يعظونه ويقولون له كل قول حتى أمسك عن المناقضة لمسلم فانقطعت .

ولمسلم بن الوليد :

وإني وإسماعيل يوم وداعه * لكالغمد يوم الرّوع فارقه التّصل
 أما والحبالات الممرات بيننا * وسائل أدتها المودة والوصل
 لما خنت عهداً من إخاء ولا نأى * بذكرك نأى عن ضميرى ولا شغل
 وإنى فى مالى وأهلى كائننى * لنأيك لا مالٌ لدى ولا أهل
 يُدْكِرْنِيكَ الدينُ والفضل والحجا * وقيل الخنا والحلم والعلم والجهل
 فألفاك عن مذمومها متزّها * وألفاك فى محمودها ولك الفضل
 وأحمد من أخلاقك البخل إنه * يعرضك لا بالمسال حاشاك البخل
 امتجعوا قمرؤا بانفصال همة * دغ الثقل وأحمل حاجة ما لها ثقل

ثناء كَعْرِفَ الطَّيِّبُ يُهْدَى لِأَهْلِهِ * وليس له إلا بَنَى خَالِدَ أَهْلٍ
فَإِنْ أَغْشَى قَوْمًا بَعْدَهُمْ أَوْ أَزْوَرَهُمْ * فَكَالْوَحْشِ يَسْتَدْنِيهِ لِلْقَنْصِ الْحَلِّ

وله يَزِيدُ بْنُ مَرْزُوقٍ :

أَحَقُّ لِمَنْ أَوْدَى يَزِيدُ * تَأْمَلُ أَيُّهَا النَّاعِي الْمُسَيِّدُ
أَتَدْرِي مَنْ نَعَيْتَ فَكَيْفَ فَاهَتْ * بِهِ شَفَاكَ كَانَ بِهِ الصَّعِيدُ
أَحَامِي الْمَجْدِ وَالْإِسْلَامِ أَوْدَى * فَمَا لِلْأَرْضِ وَيْحَكَ لَا تَمِيدُ
تَأْمَلْ هَلْ تَرَى الْإِسْلَامَ مَالَتْ * دَعَائِمُهُ وَهَلْ شَابَ الْوَلِيدُ
وَهَلْ شِمِيتَ سَيُوفُ بَنَى زَارَ * وَهَلْ وُضِعَتْ عَنْ الْخَيْلِ اللَّبُودُ
وَهَلْ تَسْقَى الْبِلَادَ عِشَارُ مَزْنِ * بِدِرَّتِهَا وَهَلْ يَخْضَرُّ عُودُ
أَمَّا هُذَّتْ لِمَصْرَعِهِ زَارَ * بَلَى وَتَقَوَّضَ الْمَجْدُ الْمُسَيِّدُ
وَحَلَّ ضَرِيحُهُ إِذْ حَلَّ فِيهِ * طَرِيفُ الْمَجْدِ وَالْحَسْبُ التَّلِيدُ
أَمَّا وَاللَّهِ مَا تَنَفَّكَ عَيْنِي * عَلَيْكَ بِدَمْعِهَا أَبَدًا تَجُودُ
فَإِنْ تَجَدَّدَ دَمُوعٌ لَيْثِمُ قَوْمِ * فَلَيْسَ لِدَمْعِ ذِي حَسْبٍ جَمُودُ
أَبْعَدُ يَزِيدُ تَخْتَرِنِ الْبُؤَاكِي * دَمُوعًا أَوْ تُصَانُ لَهَا خُدُودُ
لَتَبْكُ قُبَّةُ الْإِسْلَامِ لَمَّا * وَهَتْ أَطْنَابُهَا وَوَهَى الْعُمُودُ
وَيَبْكُ شَاعِرٌ لَمْ يُبْقِ دَهْرٌ * لَهُ نَسْبًا وَقَدْ كَسَدَ الْقَصِيدُ
فَمَنْ يَدْعُو الْإِمَامَ لِكُلِّ خَطْبٍ * يَنْوِبُ وَكُلِّ مُعْضَلَةٍ تُؤَدُّ
وَمَنْ يَتَجَمَّى الْخَمِيسَ إِذَا تَعَايَا * بِحِيلَةٍ نَفْسُهُ الْبَطْلُ النَّجِيدُ
فَإِنْ تَهَلَّكَ يَزِيدُ فَكَلِّ حَيٍّ * فَرِيْسٌ لِلنِّبَةِ أَوْ طَرِيدُ
أَلَمْ تَعْجَبْ لَهُ أَنْ الْمُنَايَا * فَتَكُنْ بِهِ وَهَنْ لَهْ جُنُودُ
لَقَدْ عَزَى رَبِيعَةً أَنْ يَوْمًا * عَلَيْهَا مِثْلُ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ

١٣ - العباس بن الأحنف^(١)

قال إبراهيم بن العباس يصفه : كان والله ممن اذا تكلم لم يجب سامعه أن يسكت ، وكان فضيحا جميلا ظريف اللسان ، لو شئت أن تقول كلامه كله شعر لقلت .

وقال صالح بن عبد الوهاب : كان العباس من عرب نحرأسان ومنشؤه ببغداد ، ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من المحدثين ، ولا تزال قد ترى له الشيء البارع جدا حتى تلحقه بالمحسنين .

وقال الجاحظ : لولا أن العباس بن الأحنف أحنق الناس وأشعرهم ، وأوسعهم كلاما وخاطرا ، ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوزه ، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ، وما نعلم شاعرا المزم فنا واحدا لزومه فأحسن فيه وأكثر .

أنشد الحرمازي للعباس بن الأحنف :

لا جزى الله دمع عيني خيرا * وجزى الله كل خير لسانى

نم دمعى فليس يكم شيئا * ورأيت اللسان ذا كتمان

كنت مثل الكتاب أخفاه طي * فاستدلوا عليه بالعنوان

ثم قال : هذا والله طراز يطلب الشعراء مثله فلا يقدرون عليه .

(١) كان العباس شاعرا غزلا مطبوعا من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، ولدياجة شعره رونق ، ولعمانيه عذوبة ولطف ، ولم يكن يتجاوز الغزل الى مدح ولا هجاء ، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني . وقدمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضة على نظرائه وأطنب في وصفه ، وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدّمونه ، قال : وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلفاء ، وكان غزلا ولم يكن فاسقا ، وكان ظاهر النعمة ملوكي المذهب شديد النظرف ، وذلك بين في شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلوا مقبولا غزلا غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف في الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحا ، وله ديوان طبع مع ديوان ابن مطروح بالأستانة سنة ١٢٩٨ هـ ويجد أخباره وأشعاره في الأغاني (ج ٨ ص ١٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٢٤٦) والشعر والشعراء (ص ٥٢٥) .

وكان أبو الهذيل العلاف يُغضبه ويلعنه لقوله :

إذا أردتُ سلواً كان ناصركم * قلبي وما أنا من قلبي بمتصر
فاكثروا أو أقلوا من إساءتكم * فكل ذلك محمول على القدر

فكان أبو الهذيل يلعنه ويقول : يعقد الكفر والفجور في شعره، فقال العباس — وقال

محمد بن يحيى : وأظن أنه يهجو به أبا الهذيل وما سمعت للعباس هجاء غيره — :

يا من يكذب أخبار الرسول لقد * أخطأت في كل ما تأتي وما تذر
كذبت بالقدر الجارى عليك فقد * أذاك مني بما لا تشتهي القدر

قيل للأصمعي : ما أحسن ما تحفظ للحديثين؟ قال : قول العباس بن الأحنف :

لو كنت عاتبة لسكن روعي * أملى رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لي حيلة * صد الملول خلاف صد العاتب

ومما أنشده له إبراهيم بن العباس :

قالت ظلوم سمية الظلم * مالى رأيتك ناحل الجسم
يا من رمى قلبي فأقصده * أنت العلم بموضع السهم

ولشعره الغزلي وقع في النفس، فانهم كانوا يغنون كثيرا منه كقوله :

لو كنت عاتبة لسكن روعي * أملى رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لي حيلة * صد الملول خلاف صد العاتب

وأنشده الأصمعي :

أناذنون لصب في زيارتك * فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضر السوء إن طال الجلوس به * عف الضمير ولكن فاسق النظر

فقال : ما زال هذا الفتى يدخل يده في جرابه فلا يخرج شيئا حتى أدخلها فأخرج هذا،

ومن أدمن طلب شيء ظفر ببعضه .

وقال سعيد بن جندب : ما أعرف أحسن من شعر العباس في إخفاء أمره حيث يقول :

أُرِيدُكَ بِالسَّلامِ فَأَتَقِيهِمْ * فَأَعْمِدُ بِالسَّلامِ إِلَى سِوَاكَ
وَأَكْثَرُ فِيهِمْ ضَحْكِي لِيَحْفَى * فَيَسْنَى ضَاغَكَ وَالْقَلْبُ بَاكَ

ومما تمثّل به الواصل في شرّكان بينه وبين بعض جواريه :

عَدَلُ مِنَ اللَّهِ أَبْكَانِي وَأَضْحَكُنِي * فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدَلُ كُلِّ مَا صَنَعَا
الْيَوْمَ أَبْكِي عَلَى قَلْبِي وَأَنْدُبُهُ * قَلْبُ أَلَحَّ عَلَيْهِ الْحُبُّ فَانْصَدَعَا

ومما تمثّل به أيضا في مثل ذلك :

أَمَّا تَحْسِينِي أَرَى الْعَاشِقِينَ * بَلَى ثُمَّ لَسْتُ أَرَى لِي نَظِيرًا
لَعَلَّ الَّذِي بِيَدَيْهِ الْأُمُورُ * سَيَجْعَلُ فِي الْكُرْهِ خَيْرًا كَثِيرًا

وقال الزبير : ابن الأحنف أشعرُ الناس في قوله :

تَعْتَلُّ بِالشَّغْلِ عَنَّا مَا تَكَلَّمْنَا * الشَّغْلُ لِلْقَلْبِ لَيْسَ الشَّغْلُ لِلْبَدَنِ

ويقول : لا أعلم شيئا من أمور الدنيا خيرها وشرّها إلا وهو يصلح أن يتمثّل فيه بهذا النصف الأخير .

وقال إسحاق : لقد ظُرف ابن الأحنف في قوله — يصف طول عهده بالنوم — :

قِفَا خِبْرَانِي أَيُّهَا الرِّجَالُ * عَنِ النَّوْمِ إِنْ الْمَجَرَ عَنْهُ نَهَانِي

وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْمُ أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ * صِفَا النَّوْمَ لِي إِنْ كُنْتُمْ تَصِفَانِ

على قلة إعجابه بمثل هذه الأشعار .

قال أحمد بن إبراهيم : رأيت سلمة بن عاصم ومعه شعر العباس بن الأحنف ، وقلت

مثلك أعزك الله يحمل هذا ! فقال : ألا أحمل شعر من يقول :

أَسَأْتُ إِذْ أَحْمَسْتُ ظَنِّي بِكُمْ * وَالْحَزْمُ سَسْوَ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

يُقْلِقُنِي الشَّعْوُ فَاتِيَسْكُمُ * وَالْقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْبَاسِ

وقال أحمد بن إبراهيم: أتاني أعرابي فصيحٌ ظريفٌ، فجعلتُ أكتب عنه أشياءً حسناً،
ثم قال: أنشدني لأصحابكم الحَضِرِيِّينَ، فأنشدته للعباس بن الأحنف:
ذَكَرْتُكَ بِالتَّفَاحِ لِمَا شَمِمْتُهُ * وَبِالرَّاحِ لِمَا قَابَلْتُ أَوَّجَهُ الشَّرِيبِ
تَذَكَّرْتُ بِالتَّفَاحِ مِنْكَ سَوَالِفًا * وَبِالرَّاحِ طَعْمًا مِنْ مَقْبَلِكِ الْعَذِيبِ
فقال: هذا عندك وأنت تكتب عني! لا أنشدك حرفاً بعد هذا.

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل: ما أعرف في العراق أحسن من قول ابن الأحنف:
سَبَحَانَ رَبِّ الْعَلَا مَا كَانَ أَغْفَلَنِي * عَمَّا رَمَنِي بِهِ الْأَيَّامُ وَالزَّمَنُ
مَنْ لَمْ يَذُقْ فَرْقَةَ الْأَحْبَابِ ثُمَّ يَرَى * آثَارَهُمْ بَعْدَهُمْ لَمْ يَذُرْ مَا الْحَزَنُ
قال حُسَيْن بن الضحَّاك: لوجاء العباس بقولٍ ماقاله في بيتين في أبياتٍ لَعْدِرٍ، وهو قوله:
لَعَمْرُكَ مَا يَسْتَرِيحُ الْمَحَبُّ حَتَّى يَبُوحَ بِأَسْرَارِهِ
فَقَدْ يَكْتُمُ الْمَرْءُ أَسْرَارَهُ * فَتَنْظَهُرُ فِي بَعْضِ أَشْعَارِهِ
ثم قال: أما قوله في هذا المعنى الذي لم يتقدّمه فيه أحد فهو:

الْحُبُّ أَمْلَكُ لِلْفَوَادِ بِقَهْرِهِ * مَنْ أَنْ يُرَى لِلسَّتْرِ فِيهِ نَضِيبُ
وَإِذَا بَدَأَ سِرُّ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ * لَمْ يَسُدْ إِلَّا وَالتَّقَى مَغْلُوبُ

وقال أبو العتاهية: ما حسدتُ أحداً إلا العباس بن الأحنف في قوله:
إِذَا امْتَنَعَ الْقَرِيبُ فَلَمْ تَنْلَهُ * عَلَى قَرَبٍ فَذَلِكَ هُوَ الْبَعِيدُ

وقال الكِنْدِيُّ: العباس بن الأحنف مَلِيحٌ ظَرِيفٌ حَكِيمٌ جَزَلٌ فِي شَعْرِهِ، وَكَانَ قَلِيلًا
مَا يُرْضِيهِ الشَّعْرُ، فَكَانَ يُنْشِدُهُ كَثِيرًا:

أَلَا تَعْجَبُونَ كَمَا أَعْجَبُ * حَبِيبٌ يُسْنَى وَلَا يُعْتَبُ
وَأَبْنَى رِضَاءٍ عَلَى سُخْطِهِ * فَيَأْبَى عَلَى وَيَسْتَصْعَبُ
فَيَأْلِفُ حَفْظِي إِذَا مَا أَسَا * تَأْنِكَ تَرْضَى وَلَا تَغْضَبُ

وكان ابراهيم الموصلي مشغولاً بشعر العباس فيغني في كثير من شعره، فما غني فيه :
 وقد مُلئت ماء الشباب كأنها * قضيبٌ من الرِّيحان رِيَّان أخضرُ
 هم كتموني سيرهم حين أزمعوا * وقالوا اتعدنا للرواح وبكروا
 ومنه :

تمنى رجالٌ ما أحبوا وإنما * تمنيتُ أن أشكو اليك وتسمعا
 أرى كلَّ معشوقين غيري وغيرها * قد آستعذبا طولَ الهوى وتمتعا
 ومنه :

يكت عيني لأنواع * من الحزن وأوجاع
 وإني كلَّ يومٍ عنكم يحظى بي الساعي
 أعيش الدهر إن عشتُ * بقلب منك مُرتاع
 وإن حلَّ بي البعد * سينعاني لك الناعي

وقال الواثق خلصائه : أريد أن أصنع لحناً في شعر معناه أن الإنسان كائنًا من كان
 لا يقدر على الاحتراس من عدوه، فهل تعرفون في هذا شيئاً؟ فأشددوه ضرورياً من الأشعار،
 فقال : ما جئتم بشيء مثل قول العباس بن الأحنف :

قلبي الى ما ضرني داعي * يكثرُ أسقامي وأوجاعي
 كيف احتراسي من عدوي اذا * كان عدوي بين أضلاعي
 أسلمني للحب أشياعي * لما سعى بي عندها الساعي
 لقلما أبقي على كلِّ ذا * يوشكُ أن ينعاني النَّاعي
 ومما غني فيه من شعره :

أبي الذين أذاقوني موتهم * حتى اذا أيقظوني للهوى رقدوا
 وقال ابراهيم بن العباس : ما رأيت كلاماً محدثاً أجزل في رقة ، ولا أصعب في سهولة ،
 ولا أبلغ في إيجاز ، من قول العباس بن الأحنف :
 تعالى نجدد دارس العهد بيننا * كلالنا على طول الحقاء ملوم

وأشدد إبراهيم بن العباس للأحنف :

إن قال لم يفعل وإن سئل لم * يتسأل وإن عوتب لم يعتب
صب بعضياني ولو قال لي * لا تشرب البارد لم أشرب
إليك أشكو رب ما حل بي * من صد هذا المذنب المغضب

ثم قال : هذا والله الكلام الحسن المعنى ، السهل المورد ، القريب المتناول ، المليح اللفظ ، العذب المستمع .

ومما غنى فيه من شعره :

نام من أهدى لي الأرقا * مستريحا سامني قلعا
لو يبيت الناس كلهم * بسهادي بيض الحدقا
كان لي قلب أعيش به * فاصطلي بالحب فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم * إنما للعبد ما رزقا

وقال ابن المعتز : لو قيل : ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعر العباس بن الأحنف :

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا * وفرق الناس فينا قوهم فرقا
فكاذب قد رمى بالحب غيركم * وصادق ليس يدرى أنه صدقا

ومما تمثل به الفضل بن الربيع في أمر كان بينه وبين إحدى جواريه :

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه * وإن كنت مظلوما فقل أنا ظالم
فإنك إلا تغفر الذنب في الهوى * يفارقك من تهوى وأنفك راغم

أشدد محمد الموصلي قصيدته التي يقول فيها :

كل شيء أقوى عليه ولكن * ليس لي بالفراق منك يدان

بفعل يستحسنه ويردده ، فقال له عبد الله بن ربيعة الرقي : أنت الفداء لمن ابتدأ هذا

المعنى فأحسن فيه حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سلبتني من السرور ثياباً * وكسنتني من الهموم ثياباً
كلما أغلقت من الوصل باباً * فتحت لي الى المنية باباً
عذبتني بكل شيء سوى الصدق * فذقت كالصدود عذاباً

قال الرياشي - وقد ذكر عنده العباس بن الأحنف - : والله لو لم يقل من الشعر
إلا هذين البيتين لكفياً :

أحرم منكم بما أقول وقد * نال به العاشقون من عشقوا
صرت كأتى ذبالة نصبت * تضيء للناس وهي تحترق

ألف الرشيد العباس بن الأحنف ، فلما خرج الى خراسان طال مقامه بها ، ثم خرج الى
أرمينية والعباس معه ، فاشتاق الى بغداد ، فعارضه في طريقه ، فأشده :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا * ثم القول فقد جئنا خراساناً
ما أقدر الله أن يدني على شحط * سكان دجلة من سكان جحاناً
مضى الذي كنت أرجوه وأملته * أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت * وعذبت بصنوف الهجر ألوانا

فقال له الرشيد : قد اشتقت يا عباس ، وأذنت لك خاصة ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وقال مصعب الزبيري : العباس بن الأحنف وعمر بن أبي ربيعة ما ابتذلا شعرهما
في رغبة ولا رهبة ، ولكن فيما أحباهما ، فلزما فناً واحداً لو لزمه غيرهما من
لضعف فيه .

١٤ - ابن مَنَازِر^(١)

كَانَ يَنْحُو نَحْوَ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ فِي شِعْرِهِ ، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ وَيَقْدِمُهُ ، وَقَدْ مَدَحَ آلَ بَرْمَكٍ وَغَيْرِهِمْ . وَلَمَّا نَكَبَتْ الْبَرَامِكَةُ وَأَلَتْ الْوِزَارَةَ إِلَى عَدُوِّهِمُ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ أَصْبَحَ شِعْرَاءُ الْبَرَامِكَةِ فِي خَطَرٍ ، فَأَرَادَ ابْنُ مَنَازِرٍ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى الرَّشِيدِ طَلَبًا لِلرِّزْقِ ، فَأَعْتَمَ ذَهَابَهُ إِلَى الْحَجِّ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ بِقَصِيدَةٍ ، فَلَاحَ الْبِشْرُ فِي وَجْهِ الرَّشِيدِ ؛ فَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ لِلرَّشِيدِ : هَذَا شَاعِرُ الْبَرَامِكَةِ ! فَعَبَسَ الرَّشِيدُ ؛ فَقَالَ الْفَضْلُ : مُرْهُ أَنْ يُنْشِدَكَ قَوْلَهُ فِيهِمْ : أَنَا بَنُو الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ ، فَأَعْتَذَرَ ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِ ، فَانْشَدَهُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ الَّتِي يُطَرِّقُ بِهَا الْبَرَامِكَةَ :

أَنَا بَنُو الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ * فَيَا طَيْبَ أَجْبَارٍ وَيَا حُسْنَ مَنَظَرٍ
إِذَا وَرَدُوا بِطَحَاءِ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ * بِحَيٍّ وَبِالْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَجَعْفَرٍ
فَتُظْلِمُ بَغْدَادٌ وَيَحْمِلُونَا الدَّجَى * بِمَكَّةَ مَا حَجَّجُوا ثَلَاثَةَ أَفْئَرٍ
فَمَا صَلَحَتْ إِلَّا لِحُودٍ أَكْفَهُمْ * وَأَرْجُلُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادٍ مَنَبَرٍ
إِذَا رَاضَ يَحْيَى الْأَمْرَ ذَلَّتْ صِعَابُهُ * وَحَسْبُكَ مِنْ رَاجٍ لَهُ وَمُدَبِّرٍ
تَرَى النَّاسَ إِجْلَالًا لَهُ وَكَانَهُمْ * غَرَانِيْقُ مَاءٍ تَحْتَ بَازٍ مُصْرِصِرٍ^(٢)^(٣)

وَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَتْبَعَ ذَلِكَ قَوْلَهُ : « كَانُوا أَوْلِيَائَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا مَدَحْتُهُمْ » فَأَمَرَ الرَّشِيدُ أَنْ يُلْطَمَ ، فَلَطَمُوهُ ، وَأَمَرَ أَنْ يُسْحَبَ ، فَسَحَبُوهُ وَخَرَجَ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ ؛ فَلَقِيَهُ

(١) هو محمد بن منازر ، مولى لبني يربوع ، ويكنى أبا جعفر ، شاعر فصيح ، مقدّم في العلم باللغة وإمام فيها ، حتى أخذ عنه أكابر أهلها . وكان في أول أمره يتعبد ثم عدل عن ذلك ، فهجا الناس وتهنك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة حتى نفى عنها إلى الحجاز ، فأت هناك سنة ١٩٨ هـ . وتجد أخباره في الأغاني (ج ١٧ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٥٣) .
(٢) الغرائيق : جمع غرنوق ، وهو طائر مائي أسود وقيل أبيض يشبه الكركي .
(٣) مصرصر : صائح بشدة .

أبو نواس فدفع اليه صُرَّةً فيها ثلثمائة دينار ، وقال له : استعن بهذه وأعذرني . ولم يعد
أبن مناذر يرى خيراً بعد البرامكة .

قال الحسن بن علي كما عند باب سُفيان بن عُيينة وقد هَرَبَ منا وعنده الحسن بن علي
التَّخْتَاخَ ورجلٌ من أصحاب الرشيد ، نَحَلَا بهم وليس يَأْذَنُ لنا ، فجاء أبن مناذر فقرب من
الباب ثم رفع صوته فقال :

بعمرو وبالزُّهري والسَّلف الألى * بهم ثَبَّتَ رِجْلَاكَ عِنْدَ الْمُقَادِمِ
جَعَلْتَ طَوَالَ الدَّهْرِ يَوْمًا لَصَالِح * وَيَوْمًا لَصَبَاحٍ وَيَوْمًا لِحَاتِمِ
وَلِلْحَسَنِ التَّخْتَاخَ يَوْمًا وَدُونَهُمْ * خَصَصْتَ حَسِينًا دُونَ أَهْلِ الْمَوَاسِمِ
نَظَرْتُ وَطَالَ الْفِكْرُ فَيْكَ فَلَمْ أَجِدْ * رَحَاكَ جَرَتْ إِلَّا لِأَخِيهِ الدَّرَاهِمِ

فخرج سُفيان وفي يده عصا وصاح : خذوا الفاسق ، فهرب أبن مناذر منه وأذن لنا فدخلنا .

كان الرشيد قد وصل أبن مناذر مَرَاتٍ صَلَاتٍ سَنِيَّةً ، فلما مات الرشيد رثاه بقوله :

مَنْ كَانَ يَبْكِي لِلْعَلَا * مَلِكًا وَلِلْهِمَمِ الشَّرِيفِ
فَلْيَكِ هَارُوتُ الْخَلِيفِ * فَعَةَ لِلْخَلِيفَةِ لِلْخَلِيفِ

قال علي بن محمد النَّوْفَلِيُّ : رَأَيْتُ أبن مناذر في الْحَجِّ سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ وَهُوَ قَدْ كُفِّ
بَصْرُهُ تَقْوَدُهُ جُوزِيرِيَّةٌ حُرَّةٌ وَهُوَ واقف يشتري ماءَ قِرْبَةٍ ، فرأيتُهُ وَرِخَ الثَّوبِ وَالْبَدَنِ ، فلما
صَرْنَا إِلَى الْبَصْرَةِ أَتَيْنَا وَفَاتَهُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ .

كان يحيى بن زياد يُرْمَى بِالزُّنْدَقَةِ ، وكان من أَظْرَفِ النَّاسِ وَأَنْظَفِهِمْ ، فكان يقال :
أَظْرَفُ مِنَ الزُّنْدِيقِ ، وكان الحارثي ، واسمه محمد بن زياد ، يُظْهِرُ الزُّنْدَقَةَ تَظَارُفًا ، فقال فيه
أبن مناذر :

يَا أبن زِيَادٍ يَا أَبَا جَعْفَرٍ * أَظْهَرْتَ دِينًا غَيْرَ مَا تُخْفِي
مُزْنَدَقُ الظَّاهِرِ بِاللَّفْظِ فِي * بَاطِنِ إِسْلَامٍ فَتَى عَفٍّ
لَسْتَ زُنْدِيقِي وَلَكِنَّا * أَرَدْتَ أَنْ تُوسَمَ بِالظَّرْفِ

ومن قوله يرى سفيان بن عيينة :

يُنحني من الحكمة نُوارها * ما تشهى الأنفس ألوانا
يا واحد الأئمة في علمه * لقيت من ذى العرش غفرانا
راحوا بسفيان على نعشه * والعلم مكسوين أكفانا
إن الذى غودر بالمنحني * هد من الإسلام أركانا
لا يُعبدنك الله من ميت * ورثنا علما وأحرانا

خطب أبو أمية امرأة من ثقيف فرد عنها، وتصدى للقاضى أن يضمّنه مالا من أموال
اليتامى فلم يجبه الى ذلك ولم يثق به، فقال فيه ابن مناذر :

أبا أمية لا تغضب على فـ * جزاء ما كان فيما بيننا الغضب
إن كان ردك قوم عن فتاتهم * ففي كثير من الخطاب قد رغبوا
قالوا عليك ديون ما تقوم بها * فى كل عام بها تستحدث الكتب
وقد تقحم من خمسين غايتها * مع أنه ذو عيال بعد ما أنشعوا
وفى التى فعل القاضى فلا تجدن * فليس فى تلك لى ذنب ولا ذنب
أردت أموال أيتام تضمّنها * وما يضمّن إلا من له نسب

قال له جعفر بن يحيى قل فى وفى الرشيد شعرا تصف فيه الألفة بيننا، فقال :
قد تُقطع الرحم القريب وتكفر الله * نعى ولا كتقارب القلبين
يُدنى الهوى هذا ويدنى ذا الهوى * فاذا هما نفس ترى نفسين

١٥ - صالح بن عبد القدوس^(١)

كان متهما بالزندقة، فبلغ إلى المهديّ خبر زندقته، فبعث إليه يستقدمه من دمشق، وكان قد رحل إليها وهو شيخ طاعن في السن، فلما جاء بغداد ومثّل بين يدي المهديّ قال له المهديّ: ألسنت القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يوارى في ثرى رمسه

قال: بلى يا أمير المؤمنين! قال: وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت؛ فأمر به، فقتل وصُلب على جسر بغداد سنة ١٦٧ هـ. وأكثر شعره في الحكم الفلسفية.

ومن أحسن أقواله القصيدة التي منها ذلك البيت، وهو يقول فيها:

لا يبلغ الأعداء من جاهل * ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا أرعوى عاد إلى جهله * كذى الضنا عاد إلى نكسه
وإن من أدبته في الصبا * كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا * بعد الذي أبصرت من يئسه

وقوله:

لا يعجبك من يصون ثيابه * حذر الغبار وعرضه مبدول
ولربما أفقر الفتي فرأيتَه * دنس الثياب وعرضه مغسول

(١) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس، من حكاة الشعراء، متهم بالزندقة، قوى الحجة، له منزلة سامية عند أهل مذهبه. نشأ في البصرة، وكان يقص على الناس ويعظمهم. توفي سنة ١٦٧ هـ. وتجدد أكثر أخباره في فوات الوفيات (ج ١ ص ١٩١) والدميري (ج ١ ص ٢٦).

وكان فيه ميل الى العزلة والانتقطاع عن الناس شأن الفلاسفة؛ ومن ذلك قوله :

أَنْسْتُ بِوَحْدَتِي وَلَزِمْتُ بِلْتِي * فَتَمَّ الْعَزْلَى وَتَمَّ السَّرُورُ
وَأَدْبَنِي الزَّمَانُ فَلَيْتَ أَنِّي * هُجِرْتُ فَلَا أَزَارُ وَلَا أَزُورُ
وَلَسْتُ بِقَائِلٍ مَا دُمْتُ حَيًّا * أَقَامَ الْجُنْدُ أَمْ نَزَلَ الْأَمِيرُ

وهو القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

وله قصيدة حكيمة أخلاقية بديعة، وهى التى يقول فيها :

الْمَرْءُ يَجْمَعُ وَالزَّمَانُ يُفَرِّقُ * وَيُظِلُّ يَرْقِعُ وَالْخَطُوبُ تُمَزِّقُ
وَلَأَنْ يُعَادِيَ عَاقِلًا خَيْرٌ لَهُ * مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحمَقُ
فَارْبَأُ بِنَفْسِكَ أَنْ تَصَادِقَ أَحمَقًا * إِنْ الصَّدِيقُ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقُ
وَزِنِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا * يُبْدِي عَقُولَ ذَوَى الْعُقُولِ الْمُنْطِقُ
وَمَنْ الرِّجَالُ إِذَا أَسْتَوَتْ أَخْلَاقُهُمْ * مَنْ يُسْتَشَارُ إِذَا اسْتَشِيرَ فَيُطْرَقُ
حَتَّى يُحْلَلَ بِكُلِّ وَادٍ قَلْبُهُ * فَيَرَى وَيَعْرِفُ مَا يَقُولُ فَيَنْطِقُ
لَا أَلْفِينِكَ ثَاوِيَا فِي غَرْبَةٍ * إِنْ الْغَرِيبُ بِكُلِّ سَهْمٍ يُرْشَقُ

وله منها :

مَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلَاتُ فَعَامِلٌ * قَدَمَاتٍ مِنْ عَطِيشٍ وَآخِرَ يَفَرَقُ
وَالنَّاسُ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ وَإِنَّمَا * بِالْجَدِّ يُرْزَقُ مِنْهُمْ مَنْ يُرْزَقُ
لَوْ يُرْزَقُونَ النَّاسُ حَسَبَ عَقُولِهِمْ * أَلْفَيْتَ أَكْثَرَ مَنْ تَرَى يَتَصَدَّقُ
لَكِنَّهُ فَضْلُ الْمَلِكِ عَلَيْهِمْ * هَذَا عَلَيْهِ مُوسَعٌ وَمُضَيِّقُ
وَإِذَا الْجَنَازَةُ وَالْعَرُوسُ تَلَاقِيَا * وَرَأَيْتَ دَمْعَ نَوَائِحٍ يَتَرَقَّرُ
سَكَتَ الَّذِي تَبِعَ الْعَرُوسَ مُبَهَّتًا * وَرَأَيْتَ مَنْ تَبِعَ الْجَنَازَةَ يَنْطِقُ
بَقِيَ الَّذِينَ إِذَا يَقُولُوا يَكْذِبُوا * وَمَضَى الَّذِينَ إِذَا يَقُولُوا يَصْدُقُوا

وله من قصيدته المعروفة بالزينية :

وَأَبْدَأْ عَدُوَّكَ بِالنَّحِيَةِ وَلْتَكُنْ * مِنْهُ زَمَانُكَ خَائِفًا تَتَرَقَّبُ
وَأَحْذَرُهُ إِنْ لَاقَيْتَهُ مُتَبَسِّمًا * فَالْإِثْمُ يَبْدُو نَابَهُ إِذَا يَغْضَبُ
إِنْ الْعَدُوَّ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ * فَالْحَقْدُ بَاقٍ فِي الصَّدُورِ مُغَيَّبُ
وَإِذَا الصَّدِيقُ لَقَيْتَهُ مُتَمَلِّقًا * فَهُوَ الْعَدُوُّ وَحَقُّهُ يُتَجَبَّبُ
لَا خَيْرَ فِي وُدِّ أَمْرٍ مُتَمَلِّقٍ * حُلُوِّ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
يَلْقَاكَ يَخْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَائِقُ * وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ الْعَقْرَبُ
يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةَ * وَيُرْوِغُ مِنْكَ كَمَا يُرْوِغُ التَّمْلَبُ
وَصِلِ الْكِرَامَ وَإِنْ رَمَوْكَ بِجَفْوَةٍ * فَالْصَّفْحُ عَنْهُمْ وَالتَّجَاوُزُ أَصَوَّبُ
وَأَخْتَرِ قَرِينَكَ وَاصْطَفِيهِ تَفَانُحًا * إِنَّ الْقَرِينَ إِلَى الْمُقَارِنِ يُنْسَبُ
إِنَّ الْغَنَى مِنَ الرِّجَالِ مُكْرَمٌ * وَتَرَاهُ يُرْجَى مَا لَدَيْهِ وَيُرْهَبُ
وَيُبَشِّرُ بِالتَّرْحِيبِ عِنْدَ قُدُومِهِ * وَيُقَامُ عِنْدَ سَلَامِهِ وَيُقَرَّبُ
وَالْفَقْرُ شَيْنٌ لِلرِّجَالِ فَإِنَّهُ * حَقًّا يَهُونُ بِهِ الشَّرِيفُ الْإِنْسَبُ
وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْأَقَارِبِ كُلِّهِمْ * بِتَذَلُّلٍ وَأَسْمَحْ لَهُمْ إِنْ أَذْنَبُوا
وَدَعْ الْكَذُوبَ فَلَا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا * إِنْ الْكَذُوبُ يَشِينُ حُرًّا يَصْحَبُ
وَزِنِ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ * ثَرَاوَةً فِي كُلِّ نَادٍ تَخْطُبُ
وَأَحْفَظْ لِسَانَكَ وَأَحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ * فَالْمَرْءُ يَسْلَمُ بِاللِّسَانِ وَيُعْطَبُ
وَالسَّرُّ فَارْكُتْمُهُ وَلَا تَنْطِقْ بِهِ * إِنَّ الزُّجَاجَةَ كَسَرُهَا لَا يُسْعَبُ
وَكَذَلِكَ سِرُّ الْمَرْءِ إِنْ لَمْ يَطْوِهِ * نَشْرَتِهِ أَلْسِنَةُ تَرِيدُ وَتَكْذِبُ
لَا تَحْرِصَنَّ فَالْحِرْصُ لَيْسَ بِزَائِدٍ * فِي الرِّزْقِ بَلْ يُشْقِي الْحَرِيصَ وَيُتَعِبُ

وَأَزَعِ الْأَمَانَةَ وَالْحَيَانَةَ فَاجْتَنِبْ * وَأَعِدِلْ وَلَا تَظْلِمَ يَطِبْ لَكَ مَكْسَبٌ
وَإِذَا أَصَابَكَ نَكْبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا * مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسْلِمًا لَا يُنْكَبُ
وَإِذَا رُمِيَ مِنَ الزَّمَانِ بِرِييَةٍ * أَوْ نَالَكَ الْأَمْرُ الْأَشَقُّ الْأَضْعَبُ
فَاضْرَعْ لِرَبِّكَ إِنَّهُ أَدْنَى لِمَنْ * يَدْعُوهُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَأَقْرَبُ
وَأَحْذَرُ مَصَاحِبَةِ اللَّئِيمِ فَإِنَّهُ * يُعِدِّي كَمَا يُعِدِّي الصَّحِيحُ الْأَجْرَبُ
وَأَحْذَرُ مِنَ الْمَظْلُومِ سَهْمًا صَائِبًا * وَأَعْلَمُ بَأَنِّ دُعَاةَ لَا يُجَجَّبُ
وَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَلَيْتَ نَصِيحَتِي * وَالنُّصْحُ أَغْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

١٦ - سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ ^(١)

كان شاعراً مطبوعاً ومات في أيام المأمون، وأكثر شعره في الغزل والتشبيب بالمذكر، وكان مشغولاً بالغلمان والشراب، ثم تنسك وتاب ورجع راجلاً على قدميه ومات على توبة وإقلاع ومذهب جميل، ومات وأبو العتاهية حي وكان صديقه فرثاه .

أخبر علي بن سليمان الأخفش عن محمد بن مزيد قال : حدثت عن بعض أصحاب أبي العتاهية قال : جاء رجل إلى أبي العتاهية ونحن عنده، فسأره في شيء، فبكى أبو العتاهية، فقلنا له : ما قال لك هذا الرجل يا أبا إسحاق فأبكاك ؟ فقال - وهو يتحدثنا لا يريد أن يقول شعرا - :

قال لي مات سعيد بن وهب * رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيت عيني * يا أبا عثمان أوجعت قلبي

قال : فعجبنا من طبعه، وإنه يحدث فكان حديثه شعرا موزونا .

وكان سعيد بن وهب الشاعر البصري مولى بني سامة قد تاب وترهد وترك قول الشعر، وكان له عشرة من البنين وعشر من البنات، فكان إذا وجد شيئا من شعره نحره وأحرقه، وكان أمراً صدق، كثير الصلاة، يزكي في كل سنة عن جميع ما عنده، حتى إنه ليزكي عن فضة كانت على امرأته .

وكان سعيد بن وهب يتعشق غلاما يتشطر يقال له سعيد، فبلغه أنه توقعه أن يحرقه،

فقال فيه :

(١) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بني سامة بن لؤي بن نصر، مولده ومنشؤه بالبصرة ثم صار إلى بغداد

فأقام بها . وكانت الكتابة صناعته، فتصرف مع البرامكة فاصطنعوه وتقدم عندهم . وتجد أخباره في الأغاني (ج ٢١

ص ١٠٤) .

مَنْ عَذِيرِي مِنْ سَيِّ * مَنْ عَذِيرِي مِنْ سَعِيدِ
أَنَا بِاللَّحْمِ أَجَاهُ * وَيَحَانِي بِالْحَدِيدِ

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كُتَّاب السلطان في أحوال جميلة، فأنشأ يقول :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ * فَتَحْنُ مِنْ نَظَارَةِ الدُّنْيَا
نَزْمُهَا مِنْ كَثَبِ حَسْرَةٍ * كَأَنَّا لَقَطُّ بِلَا مَعْنَى
يَعْلُو بِهَا النَّاسُ وَأَيَامُنَا * تَذْهَبُ فِي الْأَرْدَلِ وَالْأَدْنَى

وحدث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيد بن وهب لى صديقا، وكان له ابن يكنى أبا الخطاب من أكيس الصبيان، وأحسنهم وجها وأدبا، فكان لا يكاد يفارقه في كل حال، لشدة شغفه به ورقته عليه، فمات وله عشر سنين، فجزع عليه جزعا شديدا وأنقطع عن لذاته، فدخلت إليه يوما لأعاتبه على ذلك وأستعطفه، فحين رأى ذلك في وجهي فاضت دموعه، ثم أنتحب حتى رحمته، وأنشدني :

عَيْنُ جُودِي عَلَى أَبِي الْخَطَّابِ * إِذْ تَوَلَّى غَضًّا بِمَاءِ الشَّبَابِ
لَمْ يُقَارِبْ ذَنْبًا وَلَمْ يَبْلُغِ الْحَدَّ * سَتَ مُزَجِّي مُطَهَّرِ الْأَثْوَابِ
فَقَدَّتْهُ عَيْنِي إِذَا مَا سَعَى أَتَدَّ * رَابِعُهُ مِنْ جَمَاعَةِ الْأَتْرَابِ
إِنْ غَدَا مُوحِشًا لِدَارِي فَقَدْ أَصَدَّ * بَحَّ أُنْسِ الثَّرَى وَزَيْنِ التَّرَابِ
أَحْمَدُ اللَّهِ يَا حَبِيبِي فَإِنِّي * بَكَ رَاحٍ مِنْهُ عَظِيمِ الثَّوَابِ

ثم ناشدني ألا إذا كره بشيء مما جئتُ إليه، فقممتُ ولم أخاطبه بحرف .

دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى في يوم قد جلس فيه للشعراء، فجعلوا ينشدونه ويأمرهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت إلى سعيد بن وهب كالمستنطق؛ فقال له : أيها الوزير، إني ما كنت أستعديت لهذه الحال، ولا تقدمت لها عندي مقدمة فأعزفها،

(١) وجاء يوجاه ويجاه : ضربه باليد أو بالسكين . وخففت الهزمة ها هنا للشعر .

ولكن قد حضرني بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة؛ فقال : هاتيهما ، فربّ قليل أبلغ من الكثير؛ فقال سعيد :

مَدَحَ الْفَضْلُ نَفْسَهُ بِالْعَمَالِي * فَعَلَا عَنْ مَدِيحِنَا بِالْمَقَالِ
أَمْرُونِي بِمَدْحِهِ قُلْتُ كَلَّا * كَبَّرَ الْفَضْلُ عَنْ مَدِيحِ الرِّجَالِ

قال : فطرب الفضل وقال له : أحسنت والله وأجدت ، ولئن قلّ القول ونَزَرَ ، لقد اتسع المعنى وكثر ، ثم أمر له بمثل ما أعطاه كلٌّ من أنشدته مديحا يومئذ ، وقال : لا خير فيما يجيء بعد بيتك ، وقام من المجلس ، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لا يتناشدون سواهما .

وحدث الحرّميّ قال : كان الفضل بن يحيى ينافس أخاه جعفرا وينافسه جعفر ، وكان أنس بن أبي شيخ خاصا بجعفر ، ينادمه ويأنس به في خلّواته ، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفضل ، فدخلت يوما إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب فحدثه وأنشده وتنادر له ، وحكى عن المتناדרين وأتى بكلّ ما يسرّ ويُطرب ويُضحك ، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك ، فلما خرج سعيد من عنده تجاهلت عليه وقالت له : من هذا الرجل الكثير الهديان ؟ قال : أو ما تعرفه ؟ قلت : لا ؛ قال : هذا سعيد بن وهب صديق أنحى أبي العباس وخلّصانه وعشيقه ؛ قلت : وأى شيء رأى فيه ؟ قال : لا شيء والله إلا القدر والبرّد والغشاة ، ثم دخلت بعد ذلك إلى الفضل ، ودخل أنس بن أبي شيخ فحدث وندر وحكى عن المضحكين وأتى بكل طريفة ، فكانت قصة الفضل معه قصة جعفر مع سعيد ، فقلت له بعد أن خرج من حضرته : من هذا المبرّم ؟ قال : أو لا تعرفه ؟ قلت : لا ؛ قال : هذا أنس بن أبي شيخ صديق أنحى الفضل وعشيقه وخاصته ، قلت : وأى شيء أعجبه فيه ؟ قال : لا أدري والله إلا القدر والبرّد وسوء الاختبار ؛ قال : وأنا والله أعرف بسعيد وأنس من الناس جميعا ، ولكنني تجاهلت عليهما وساعدتهما على هواهما .

وحدث عمرو بن بانه قال : كان في جوارى رجل من البرامكة ، وكانت له جارية شاعرة ظريفة يقال لها حسناء ، يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعاني ، فتأتى بكل

مُسْتَحْسِنٍ مِنَ الْجَوَابِ ؛ فَدَخَلَ إِلَيْهَا سَعِيدُ بْنُ وَهْبٍ يَوْمًا وَجَلَسَ إِلَيْهَا فَخَادَتْهَا طَوِيلًا
ثُمَّ قَالَ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ :

حَاجَتُكَ يَا حَسَنًا * ءُ فِي حِنْسٍ مِنَ الشَّعْرِ
وَفِيهَا طُولُهُ شَبْرٌ * وَقَدْ يُوفَى عَلَى الشَّيْرِ
لَهُ فِي رَأْسِهِ شَقٌّ * نَطُوفٌ بِالنَّدَى يَجْرِي
إِذَا مَا جَفَّ لَمْ يَجْرِ * لَدَى بَرٍّ وَلَا بَحْرِ
وَلَا نَبْلٌ أَتَى بِالْعَ * جَبَّ الْعَاجِبِ وَالسَّحْرِ
أَجِينِي لَمْ أُرِدْ مُخْشَا * وَرَبَّ الشَّفْعِ وَالْوَثْرِ
وَلَكِنْ صُنْتُ أَيْبَاتًا * لَهَا حَظٌّ مِنَ الزَّجْرِ

قال : فغضب مولاها وتغير لونه وقال : أُنْفَحِشْ عَلَى جَارِيَتِي تَخَاطَبُهَا بِالْخَنَى ؟ فقالت
له : خَفِّضْ عَلَيْكَ ، فَمَا ذَهَبَ إِلَى مَا ظَنَنْتَ وَإِنَّمَا يَعْنِي الْقَلَمُ ؛ فَسَرَى عَنْهُ ، وَضَحَكَ سَعِيدُ
وَقَالَ : هِيَ أَعْلَمُ مِنْكَ بِمَا سَمِعْتُ .

١٧ - الحسن بن وهب

حدث ميون بن هارون : قال : كنا عند الحسن بن وهب فقال لبنان : غنّني :
 أتأذنونَ لصبّ في زيارتكم * فعندكم شهواتُ السمع والبصر
 لا يُضِمُّرُ السوءَ إن طال الجلوسُ به * عَفَّ الضميرَ ولكن فاسقُ النظر
 قال فضحكت ، ثم قالت : فأىّ خير فيه إن كان كذا أو أىّ معنى ؟ نخجل الحسن من
 بادرتها عليه ، وعجبنا من حدة جوابها وفطنتها .

وحدث محمد بن عيسى قال : جاء عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع إلى الحسن
 ابن وهب ، وعنده بنان جارية لمحمد بن حماد ، وهى نائمة سكرى وهو يبكي عندها ، فقال له :
 مالك ؟ قال : قد كنتُ نائماً بفاءتني فأنهتني وقالت : اجلس حتى تشرب بخلستُ ،
 فوالله ما غنّت عشرة أصوات حتى نامت ، وما شربت إلا قليلاً ، فتذكرت قول أشعر
 الناس وأظرفهم العباس بن الأحنف :

أبكي الذين أذاقوني مودّتهم * حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
 فانا أبكى وأنشد هذا البيت .

وحدث محمد بن موسى بن حماد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال
 له : اركب وأجيئك عشياً فلا تنتظرنى بالغداة ، فأبطأ عليه ، وأسرع الحسن فى شربه فسكر
 ونام ، وجاء إبراهيم فرآه على تلك الحال ، فدعا بدواة وكتب :

رُحنا إليك وقد راحت بك الراح * وأسرع فيك أوتار وأفراح

وحدث أيضاً محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو
 مخمور فقال له :

عيناك قد حَكَمَا مَيِّد * تَك كيف كنت وكيف كانا

ولربّ عينٍ قد أرت * لك مَيِّتَ صاحبها عيانا

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتا وطالبه بمثلها ، فكتب إليه أربعة أبيات وطالبه بأربعين بيتا . وأبيات إبراهيم :

أبا عليَّ خيرُ قولك ما * حصلت أنجمه ومختصره
ما عندنا في البيع من غبن * للمستقلِّ بواحد عشره
أنا أهلُ ذلك غيرُ محتشم * أرضي القديم وأقننى أثره
ها نحن وفيناك أربعة * والأربعون لديك منتظرة

وقال عبيد الله بن سليمان : لعمري ما في الكتاب أشعر من أبي إسحاق وأبي عليَّ (يعني عمه الحسن بن وهب) .

حدث عليَّ بن يحيى قال : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي ، وقد جرى ذكرُ أحمد بن يحيى المكي ، : يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكي مملوكا كم كان يساوي ؟ فقال : أخبرك عن ذلك ، انصرفت ليلةً من دار الوائق ، فاجترتُ بدار الحسن بن وهب فدخلتُ إليه ، فإذا أحمد عنده ، فلما قام لصلاة العشاء الآخرة قال لي الحسن بن وهب : وم يساوي أحمد لو كان مملوكا ؟ قلت : يساوي عشرين ألف دينار . قال : ثم رجعتُ فغنيَّ صوتا ، فقال لي الحسن بن وهب : يا أبا محمد ، أضعفها . قال : ثم تغني صوتا آخر ، فقلت للحسن : يا أبا عليَّ أضعفها ، ثم أردتُ الانصراف فقلت لأحمد غنيَّ :

لولا الحياءُ وأن السير من خلقي * إذا قعدتُ اليك الدهر لم أقم
أليس عندك سُكَّرٌ للتي جعلت * ما أبيض من قادمات الرأس كالحمم

فغناه أحمد بن يحيى المكي فأحسن فيه كلَّ الإحسان ، فلما قمتُ للانصراف قلت للحسن : يا أبا عليَّ ، أضعف الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذي أسمعُكم تقولانه ولست أدري ما معناه ؟ قال نحن نبيعُك ونشتريك منذ الليلة وأنت لا تدري .

وحدث محمد بن موسى قال : كان أبو تمام يتعشق غلاما تحريرا للحسن بن وهب ، وكان الحسن يتعشق غلاما روميا لأبي تمام ، فراه أبو تمام يوما يعبتُ بغلامه ، فقال له :

(١) والله لئن أعنقت إلى الروم لتركضن إلى الخزر؛ فقال له الحسن: لو شئت حكمتنا واحتكمت؛ فقال له أبو تمام: أنا أشبهك بداود عليه السلام وأشبه نفسي بخصمه؛ فقال الحسن: لو كان هذا منظوما خفناه، فأما وهو منشور فلا، لأنه عارض لا حقيقة له؛ فقال أبو تمام:

(٢)
أبا على بصرف الدهر والغير * وبالحوادث والأيام فاعتير
أذكرتني أمر داود وكنت فتى * مصرف القلب في الأهواء والفكر
أعندك الشمس لم يحظ المغيب بها * وأنت مضطرب الأحشاء للقمر
إن أنت لم تترك السير الحديث إلى * جاذر الروم أعنقتنا إلى الخزر
إن القطوب له مني محل هوى * يحل مني محل السمع والبصر
ورب أمتع منه جانباً وحي * أمسى وتكته مني على خطر
جرت فيه جنود العزم فأنكشفت * عنه غيابه عن بقره هدير
سبحان من سبخته كل جارية * ما فيك من طمحان العين بالنظر
أنت المقيم فما تغدر راحله * وفعله أبداً منه على سفر

وحدث وهب بن سعيد قال: جاء دُعيل إلى الحسن بن وهب في حاجة بعد موت أبي تمام، فقال له رجل في المجلس: يا أبا على، أنت الذي تطعن على من يقول: شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى * ومحت كما تحت وشائع من برد وأنجدتم من بعد إتهام داركم * فيادمع أنجدني على ساكني نجد فصاح دُعيل: أحسن والله! وجعل يردد:

* فيادمع أنجدني على ساكني نجد *

ثم قال: رحمه الله، لو كان ترك لي شيئاً من شعره لقلت: إنه أشعر الناس.

(١) أعنقت: أسرعت. (٢) وردت هذه الأبيات في الأغاني وفيها بعض ألفاظ تخل بالآداب، فأثبتناها هنا كما وردت في ديوان أبي تمام.

وحدث أحمد بن عبيد الله بن ناصح قال : قلت لدعبل وقد عرض علي قصيدة له
يمدح بها الحسن بن وهب أوطا :

* أعاذلتي ليس الهوى من هوانيا *

فقلت له : ويحك أتقول فيه هذا بعد قولك :

أين محل الحى يا حادى * خبر سفاك الرائح الغادى

وبعد قولك :

قالت سلامة أين المأل قلت لها * المأل ويحك لاقى الحمد فاصطحبا

وبعد قولك :

فعلى أيماننا يجرى الندى * وعلى أسيافنا تجرى المهج

والله إنى أراك لو أنشدته إياها لأمر لك بصفع ، فقال : صدقت والله ، ولقد نبهتني
وحذرتني ، ثم مرقها .

وحدث محمد بن موسى قال : أنشدنى الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا

يرثي بها سكرانة أتم أبنه عمر ، وجعل الحسن يتعجب من جودتها ويقول :

يقول لى الخلال لو زرت قبرها * فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر

على حين لم أحدث فأجهل قدرها * ولم أبلغ السن التى معها الصبر

وحدث محمد بن يزيد قال : دامت الأمطار بـ «سر من رأى» ، فتأنر الحسن بن وهب

عن محمد بن عبد الملك الزيات ، وهو يومئذ وزير والحسن يكتب له ، فاستبطأه محمد ،

فكتب اليه الحسن يقول :

أوجب العذر فى تراخى اللقاء * ما توالى من هذه الأنواء

لست أدري ماذا أقول وأشكو * من سماء تعوقني عن سماء

غير أنى أدعو على تلك بالثك * لى وأدعو لهذه بالبقاء

فسلام الإله أهديه غصا * لك منى ياسيد الوزراء

وحدث محمد بن موسى قال : اغتَل الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياما كثيرة، فلم يأتَه رسوله، ولا تعرّف خبره، فكتب إليه الحسن قوله :

أَيْـذَا الْوَزِيرُ أَيْدَكَ اللَّهُ * هـ وَأَبْقَاكَ لِي بَقَاءً طَوِيلًا
أَجْمِيلًا تَرَاهُ يَا أَكْرَمَ النَّاسِ * سِ لَكِيَّا أَرَاهُ أَيْضًا جَمِيلًا
إِنِّي قَدْ أَقْبْتُ عَشْرًا عَلِيًّا * مَا تُرَى مُرْسِلًا إِلَى رَسُولَا
إِنْ يَكُنْ مُوجِبُ التَّعَمُّدِ فِي الصِّدْقِ * حَقَّةً مِّنَّا عَلَى مَنْكَ طَوِيلًا
فَهُوَ أَوْلَى بِأَسِيدِ النَّاسِ بِرًّا * وَافْتِقَادًا لِمَنْ يَكُونُ عَلِيًّا
فَلِمَاذَا تَرَكْتَنِي عَرْضَةَ الظُّنِّ * مِّنَ الْخَاسِدِينَ جِيلًا بِجِيلًا
الذَّنْبُ؟ فَمَا عَلِمْتُ سِوَى الشُّكِّ * بِرِ قَرِينًا لِنَبِيِّ وَدُخِيلًا
أَمْ مَلَالٍ؟ فَمَا عَلِمْتُكَ لِلصَّاحِبِ * حُبَّ مِثْلِي عَلَى الزَّمَانِ مَلُولًا
قَدْ أَتَى اللَّهَ بِالشِّفَاءِ مَا أَعُدُّ * بِرِفٍّ مِّمَّا أَنْكَرْتَ إِلَّا قَلِيلًا
وَأَكَلْتُ الدَّرَّاجَ وَهُوَ غِدَاءٌ * أَفَلْتَ عَلَيَّ عَلَيْهِ أَفُولًا
بَعْدَ مَا كُنْتُ قَدْ حَمَلْتُ مِنَ الْعَدَا * لِمَةٍ عِبْتُ عَلَى الطَّبَّاعِ ثَقِيلًا
وَلَعَلِّي قَدِمْتُ قَبْلَكَ آتِيَةً * لَكَ غَدَا إِنْ وَجَدْتُ فِيهِ سَبِيلًا

فأجابه محمد بن عبد الملك :

دَفَعَ اللَّهُ عَنْكَ نَائِبَةَ الدَّهْرِ * بِرِ وَحَاشَاكَ أَنْ تَكُونَ عَلِيًّا
أَشْهَدُ اللَّهَ مَا عَلِمْتُ وَمَا ذَا * لَكَ مِنَ الْعُذْرِ جَائِزًا مَقْبُولًا
وَلَعَمْرِي أَنْ لَوْ عَلِمْتُ فَلَا زَمَ * تَكَ حَوْلًا لَكَانَ عِنْدِي قَلِيلًا
إِنِّي أُرْتَجِي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَا * كَانَ مِمَّا تَقَمَّتْ إِلَّا جَلِيلًا
أَنْ أَكُونَ الَّذِي إِذَا أَضْمَرَ الْإِخْ * لَاصَ لَمْ يَلْتَمِسْ عَلَيْهِ كَفِيلًا
ثُمَّ لَا يَبْذُلُ الْمَوَدَّةَ حَتَّى * يَجْعَلَ الْجَهْدَ دُونَهَا مَبْذُولًا
فَإِذَا قَالَ كَانَ مَا قَالَ إِذَا كَا * نَ بَعِيدًا مِنْ طَبْعِهِ أَنْ يَقُولَا

فاجعلنى لى الى التعلق بالعد * رسيلا إن لم أجد لى سبيلا
فقد يما ما جاد بالصفح والعف * يوما ماع الخليل الخليل

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه :

قالوا جفاك فلا عهد ولا خبر * ما ذا تراه دهاه قلت أيلول
شهر تجد جبال الوصل فيه فسا * عقد من الوصل إلا وهو محلول
وكان محمد قد ندبه لأن يخرج في أمر مهم فأجابه الحسن فقال :

إنى بحول أمرى أعليت رتبته * حفظه منك تعظيم وتيجل
وأنت عده في نيل همته * وأنت فى كل ما يهواه مأمول
ما غالى عنك أيلول بلدته * وطيبه ولنعم الشهر أيلول
الليل لا قصر فيه ولا طول * والجو صاف وظهر الكأس مروحول
والعود مستنطق عن كل معجبة * يضحى بها كل قلب وهو متبول
لكن توقع وشك البين عن بلد * تحله فوكاء العين محلول
مالى إذا شمرت بى عنك مبتكرا * دهم البغال أو الهوج المراسيل
إلا رعاياتك اللاتي يعود بها * حله الحوادث عني وهو مفلول

وكان الحسن بن وهب يسير محمدا على مستاة^(١)، فعدل عن المستاة لئلا يضيق محمد

الطريق، فظن محمد أنه أشفق على نفسه من المستاة، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه،

وظن بنفسه أن يصيبها ما يصيبه، فقال له محمد :

قد رأيناك إذ تركت المستاة * وحاذيتنى يسار الطريق
ولعمري ما ذاك منك وقد جد بك الجد من فعال الشفيق

فقال له الحسن :

إن يكن خوفي الخوف أرانى * أن ترائى مشبها بالعقوق
فلقد جارت الظنون على المش * فبق والظن مولع بالشفيق

(١) المستاة : ما يبنى في وجه السيل .

عَدَّرَ السَّيِّدَ الْأَجَلَ وَقَدْ سَا * رَ عَلَى الْخَوْفِ مِنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ
فَأَخَذَتْ الشَّهَالَ بُقْيَاً عَلَى السَّيِّدِ * إِذْ هَالَتْ سُلُوكَ الْمَضِيقِ
إِنْ عِنْدِي مَوَدَّةٌ لَكَ حَازَتْ * مَا حَوَى عَاشِقٌ مِنَ الْمَعْشُوقِ
طَوْدٌ عِزٌّ خُصِّصَتْ مِنْهُ بَيْرٌ * صَارَ قَدْرِي بِهِ مَعَ الْعَيْشِوقِ
وَبِنَفْسِي وَإِخْوَتِي وَأَبِي الْبِرِّ * وَعُمِّي وَأُسْرَتِي وَصَدِيقِي
مَنْ إِذَا مَا رُوِّعْتُ أَمِنْ رَوْعِي * وَإِذَا مَا شَرِقْتُ سَوَّغَ رَيْقِي
وَحَدَّثَ الْمُبَرَّدُ قَالَ : اسْتَسْقَى الْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ نَيْدًا بَيْلِدَ الرُّومِ
وَهُوَ مَعَ الْمُعْتَصِمِ ، فَسَقَاهُ وَكَتَبَ إِلَيْهِ :

لَمْ تَلْقُ مِثْلِي صَاحِبًا * أُنْدَى يَدًا وَأَعْمَ جُودًا
يَسْقَى النَّدِيمَ بِقَفْرَةٍ * لَمْ يَسْقِ فِيهَا الْمَاءُ عُودًا
صَفَرَاءَ صَافِيَةً كَأَنَّ * بَكَاسَهَا دُرًّا نَضِيدًا
وَأَجُودٌ حِينَ أَجُودُ لَا * تَحْصِرًا بِذَلِكَ وَلَا بَلِيدًا
وَإِذَا اسْتَقَلَّ بِشُكْرَهَا * أَوْجِبْتُ بِالشُّكْرِ الْمَزِيدًا
خُذْهَا إِلَيْكَ كَأَنَّمَا * كَسَيْتُ زُجَاجَتَهَا عُقُودًا
وَأَجْعَلْ عَلَيْكَ بَأْنَ تَقُو * مَ بِشُكْرَهَا أَبَدًا عُهُودًا

وَمِنْ جَيِّدِ شَعْرِهِ قَوْلُهُ :

بَأْبَى كَرِهْتُ النَّارَ لَمَّا أُوقِدْتُ * فَعَرَفْتُ مَا مَعْنَاكَ فِي إِبْعَادَهَا
هِيَ ضَرَّةٌ لَكَ بِالتَّمَاعِ ضَيَائِهَا * وَبِحَسَنِ صَوْرَتِهَا لَدَى إِيقَادِهَا
وَأَرَى صَنِيعَكَ بِالْقُلُوبِ صَنِيعَهَا * بِسَيِّئِهَا وَأَرَاكِهَا وَعَرَادَهَا
شَرِّكَكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ بِحَسَنِهَا * وَضَيَائِهَا وَصَلَاحِهَا وَفَسَادِهَا

وَمَاتَ الْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ فَرِثَاهُ أَخُوهُ سَلِيمَانُ بْنُ وَهْبٍ :

مَضَى مَذْمُومٌ عِزُّ الْمَعَالَى وَأَصْبَحَتْ * لِأَلِي الْحِجَا وَالْقُبُوبِ لَيْسَ لَهَا نَظْمُ
وَأُضْحِي نَجْمُ الْفَكْرِ بَعْدَ فِرَاقِهِ * إِذَا هُمْ بِالْإِفْصَاحِ مَنَظَّمُهُ كَظْمُ

وكتب الحسن بن وهب يشكر :

مَنْ شَكَرَكَ عَلَى دَرَجَةٍ رَفَعْتَهُ إِلَيْهَا ، أَوْ ثَرَوَةٍ أَقْدَرْتَهُ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ شَكَرِي لَكَ عَلَى مُهِجَةٍ
أَحْيَيْتَهَا ، وَحُشَّاشَةٍ أَبْقَيْتَهَا ، وَرَمَقٍ أَمْسَكْتَ بِهِ ، وَقَمَتٍ بَيْنَ التَّلَفِّ وَبَيْنِهِ ؛ فَلِكُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ
نِعَمِ الدُّنْيَا حَدٌّ تَنْتَهِي إِلَيْهِ ، وَمَدَى يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَغَايَةٌ مِنَ الشُّكْرِ يَسْمُو إِلَيْهَا الطَّرْفُ ، خِلا
هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي فَاقَتْ الْوَصْفَ ، وَأَطَالَتِ الشُّكْرَ وَتَجَاوَزَتْ قُدْرَهُ ، وَأَتَتْ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ غَايَةٍ ؛
رَدَدْتَ عَنَّا كَيْدَ الْعَدُوِّ ، وَأَرْغَمْتَ أَنْفَ الْحَسُودِ ، فَنَحْنُ نَلْجَأُ مِنْكَ إِلَى ظِلِّ ظَلِيلٍ ، وَكَنْفِ
كَرِيمٍ ، فَكَيْفَ يَشْكُرُ الشَّاكِرُ ، وَأَيْنَ يَبْلُغُ جُهْدُهُ الْمُجْتَهِدُ ؟ — .

١٨ - أشجع السلي^(١)

كان متصلا بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، منها قوله في يحيى بن خالد وكان قد غاب:

قد غاب يحيى فما أرى أحدا * يأنس إلا بذكره الحسين
أوحشت الأرض حين فارقتها * من الأيادي العظام والمنين
لولا رجاء الإياب لأتصدعت * قلوبنا بعده من الحزن

وقال أيضا :

رايت بغاة الخير في كل وجهة * لغيبة يحيى مستكين خضعا
فإن يمس من في الرقنين مؤملا * لأوبة يحيى نحوها متطلعا
فما وجه يحيى وحده غاب عنهم * ولكن يحيى غاب بالخير أجمعا

وقال فيه أيضا :

إذا غاب يحيى عن بلاد تغيرت * وتشرق إن يحتلها فتطيب
وإن فعّال الخير في كل بلدة * إذا لم يكن يحيى بها لغريب

وقال فيه حين اعتل :

لقد قرعت شكاة أبي علي * قلوب معاشر كانت صحاحا
فإن يدفع لنا الرحمن عنه * صروف الدهر والأجل المتاحا

(١) هو أشجع بن عمرو بن ولد الشريد بن مطرود السلي، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر إسلامي عباسي، نشأ بالبصرة، وقال الشعر وأجاد فيه حتى عد من الفحول؛ وكان الشعر يومئذ في ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر، فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس. وأقطع إلى البرامكة ومدحهم وأخص بجعفر فأصفاه مدحه، فأعجب به جعفر ووصله إلى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضا وأمده بالمال فأثرى وحسنت حاله في أيامه، وتقدم عنده، وله فيه المدايح المختارة، والقصائد السائرة. وتجد أشعاره وأخباره في الأغاني (ج ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء (ص ٥٦٢).

فقد أمسى صلاح أبي علي * لأهل الأرض كلهم صلاحاً

إذا ما الموت أخطاه فلَسْنَا * نبألى الموت حيث غدا وراحاً

وهو القائل ،

ليس للحاجات إلّا * من له وجهٌ وقَاحُ

ولسانٌ طَرْمَذَارُ^(١) * وغدوٌ ورواحُ

إن أكن أبطالاً الحَا * جهُ عني فاللَّحَا

فعلى الجهد فيها * وعلى الله النجاحُ

ويستجاد له في مدح الرشيد :

وصلت يدك السيف يوم تقطعت * أيدي الرجال وزلت الأقدامُ

وعلى عدوك يا أبا عبد الله * رَصْدَانِ ضوءُ الصبح والإِظْلَامُ

فإذا تنبّه رُعْتَهُ وإذا غَفَا * سلّت عليه سيوفك الأحلامُ

ويُستجاد له أيضاً قوله :

غداً يتفرّق أهلُ الهوى * ويكثرُ بكِ ومسترجعُ

وتختلف الأرضُ بالطاعنين * وجوهاً تُشَدُّ^(٢) ولا تُجَمَّعُ

وتفنى الطلولُ ويبقى الهوى * ويصنع ذو الشوق ما يصنعُ

وأنت تُبْكِي وهم جيئةٌ * فكيف يكون إذا ودّعوا

أتطمع في العيش بعد الفراق * فبئسَ لعمرك ما تطمعُ

وفيها يقول في جعفر بن يحيى :

بديته مثلُ تدبيره * متى هجته فهو مستجمعُ

إذا همّ بالأمر لم يثنه * هُجُوعٌ ولا شادنٌ أفرعُ

ففى كفه للغنى مطلبٌ * وللسر في صدره موضعُ

(١) الطرمذار: المتكثر بما لا يفعل . (٢) تفرق .

وكم قائل إذ رأى بهجتى * وما فى فُضُوبِ الغنى أصنعُ
غدا فى ظلالِ ندى جعفر * يحترى أب الغنى أشجعُ
وما خلفه لأمرى مطمع * ولا دونه لأمرى مقنعُ

وهو القائل فى محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنى فتى الجود إلى الجود * ما مثل من أنى بوجود
أنى فتى أصبح معروفه * منتشرا فى البيض والسود
أنى فتى مص الثرى بعده * بقية الماء من العود
قد نل الدهر به ثلثة * جانبها ليس بمسدود
أنى فتى كان ومعرفة * يملأ ما بين ذرى اليد
فأصبحا بعد تساميهما * قد جمعا فى بطن ملحود
الآن نخشى عثرات الندى * وعدوة البخل على الجود

وُستجد له قوله فى إبراهيم بن عثمان بن نهيك وكان صاحب شرط الرشيد وكان

جبارا عبوسا :

فى سيف إبراهيم خوف واقع * بذوى التفاق وفيه أمن المسلم
ويبيت يكلأ والعيون هواجع * مال المضيع ومهجة المستسلم
جعل الخطام بأنف كل مخالف * حتى استقام له الذى لم يحطم
لا يصلح السلطان إلا شدة * تغشى البرى بفضل ذنب المجرم
ومن الولاة مقحم لا يتقى * والسيف تقطر شفرته من الدم
منعت مهايتك النفوس حديثها * بالأمر تكفه وإن لم تعلم

وقال لأخيه :

أبت غفلات قلبك أن تزوحا * وكأس لا تزالها صبوحا
كانك لا ترى حسنا جميلا * بعينك يا أخى إلا قبيحا

ويستجاده قوله في الرشيد :

لا زلت تنشر أعيادًا وتطويها * تمضي بها لك أيام وتثنيها
مستقبلًا جذة الدنيا وبهجتها * أيامها لك نظم في لياليها
العيد والعيد والأيام بينهما * موصولة لك لا تقف وتقفنها
وليتهنك النصر والأيام مقبلة * إليك بالفتح معقودًا نواصيها

ويستجاده قوله يمدح اسماعيل بن صبيح :

له نظرًا يغمض الأمر دونه * تكاد ستور الغيب عنه تمرق

وهو القائل :

وما ترك المداح فيك مقالة * ولا قال إلا دون ما فيك فائل

وقال أيضا :

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق * ولا مغرب إلا له فيه ماذر^(١)
وما كنت أدري ما فواضل كفه * على الناس حتى غيبته الصفايح^(٢)
فأصبح في الحيد من الأرض ميتا * وكانت به حيا تضيق الصباح^(٣)
سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض * فحسبك مني ما تُجِن الجوانح^(٣)
فأنا من رزء وإن جل جازع * ولا بسرور بعد موتك فارح
كأن لم يمت حتى سواك ولم يقم * على أحد إلا عليك النوائح
لئن حسنت فيك المراتي وذكرها * لقد حسنت من قبل فيك المدائح

(١) الصفايح : أجماع عراض تنطى بها القبور . (٢) الصباح : جمع صحصح : وهي الأرض

الجرداء المستوية الواسعة ذات حصى صغار . (٣) الجوانح : الضلوع .

١٩ - علي بن الجهم^(١)

كان علي بن الجهم قد هجا بختيشوع، فسبه عند المتوكل فحبسه المتوكل . فقال علي بن الجهم في حبسه عدة قصائد كتب بها الى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك الى نخراسان . فقال أول ما حبس قصيدة كتب بها الى أخيه، أولها قوله :

توَكَّلْنَا على ربِّ السماء * وسَلَّمْنَا لأسباب القضاء
وَوَطَّنَا على غيرِ اللَّيَالِي * نفوسًا ساحتْ بعد الإباء
وأفنيةُ الملوك محجَّباتُ * وبابُ الله مبذولُ الفناء
هي الأيامُ تَكُفُّمُنَا ونأسو * وتأتى بالسعادة والشقاء
وما يُنْجِدِي الثراءُ على غِنَى * إذا ما كان محظورَ العطاء
حَلَبْنَا الدهرَ أشطَرَه ومرت * بنا عُقْبُ الشدائد والرخاء
وجربنا وجرب أوْلُونَا * فلا شيءُ أعزُّ من آلِ الوفاء
ولم ندعِ الحياءَ لمسَّ ضرر * وبعضُ الضررِ يذهب بالحياء
ولم نحزنْ على دُنْيَا تولَّتْ * ولم تُسَبِّقْ الى حسن العزاء
تَوَقَّ النَّاسُ يابنَ أبي وأُمِّي * فهم تبَعُ المخافة والرجاء

(١) هو عربي قرشي شاعر فصيح مطبوع، وقد خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية اليه بندمائه فكان اذا خلا به عرفه أنهم يعيرونه ويثلبونه، فيكشف الخليفة عن ذلك فلا يجد له حقيقة، فنفاه الى نخراسان بعد أن حبسه مدة . وكان مذهبه في الشعر مذهب مروان بن أبي حفصة في هجاء آل أبي طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة كقوله :

ورافضة تقول بشعب رضوى * إمام، خاب ذلك من إمام
إمام من له عشرون ألفا * من الأتراك مشرعة السهام

وله أقوال في الغزل والغتاب وفي الوصف، توفي سنة ٢٤٩ هـ . وتجد أخباره في الأغاني (ج ٩ ص ١٠٤)

وابن خلكان (ج ١ ص ٤٩٧) .

ولا يَغْرُكَ من وَغْدِ إِخَاءٍ * لأمرٍ ما عَدَا حَسَنَ الإِخَاءِ
 ألم ترَ مُظْهِرِينَ عَلَى عَتَبَا * وهم بِالْأَمْسِ إِخْوَانُ الصَّفَاءِ
 فَلَمَّا أَنْ بُلِيَتْ غَدَا وَرَاحُوا * عَلَى أَشَدِّ أَسْبَابِ الْبَلَاءِ
 أَبْتُ أَخْطَارُهُمْ أَنْ يَنْصُرُونِي * بِمَالٍ أَوْ بِجَاهٍ أَوْ ثَرَاءِ
 وَخَافُوا أَنْ يَقَالَ لَهُمْ خَذَلْتُمْ * صَدِيقًا فَادْعُوا قَدَمَ الْجَفَاءِ
 تَنَظَّافَرَتِ الرِّوَاغُضُ وَالنَّصَارَى * وَأَهْلُ الْإِعْتِرَالِ عَلَى هِجَابِي
 وَعَابُونِي وَمَا ذَنْبِي إِلَيْهِمْ * سِوَى عِلْمِي بِأَوْلَادِ الزَّهَاءِ
 فَبَخْتِشُوعٍ يَشْهَدُ لَأَبْنِ عَمْرٍو * وَعَزُّونَ لِهَارُونَ الْمُرَائِي
 وَمَا أَبْجَدُ مَا بَنَتْ أَبِي سَمِيرٍ * بِحِذْمَاءِ أَلْسَانٍ عَلَى الْخِنَاءِ
 إِذَا مَا عُدَّ مِثْلَكُمْ رَجَالًا * فَمَا فَضْلُ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ
 عَلَيْكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ أَبْتَدَاءَ * وَعَوْدًا فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْمَسَاءِ
 إِذَا سَمِيتُمْ لِلنَّاسِ قَالُوا * أَوْلَيْتُكَ شَرًّا مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ
 أَنَا الْمَتَوَكِّلُ هَوَى وَرَأْيَا * وَمَا بِالْوَأَقِيَّةِ مِنْ خَفَاءِ
 وَمَا حَبَسَ الْخَلِيفَةُ لِي بَعَارٍ * وَلَيْسَ بِمُؤَيِّسٍ مِنْهُ التَّنَائِي

كان سبب حبس المتوكل على بن الجهم أن جماعة من الجلساء سَعَوْا به اليه وقالوا له :
 إنه يَحْسُ الخدم ويَغْمِزُهُمْ ، وإنه كثير الطعن عليك والعيب لك والإضرار على أخلاقك ،
 ولم يزلوا به يُوعِزُون صدره عليه حتى حبسه ، ثم أبلغوه عنه أنه هجاء ، فنفاه الى خراسان
 وكتب بأن يُصَلَّبَ اذا وردھا يوماً الى الليل ، فلما وصل الى الشاذيَاخ حبسه طاهر بن
 عبد الله بن طاهر بها ، ثم أخرج فُصِّلَ يوماً الى الليل مجزداً ثم أُنزل ، فقال في ذلك :

لم يَنْصَبُوا بِالشَّاذِيَاخِ عَشِيَّةَ الْإِثْنَيْنِ * مُسْبِقًا وَلَا مُجْهُولًا
 نَصَبُوا بِحَمْدِ اللَّهِ مِلءَ قُلُوبِهِمْ * شَرَفًا وَمِلءَ صُدُورِهِمْ تَجْبِيلًا
 مَا أَزْدَادَ إِلَّا رَفْعَةً بَنَكُولَهُ * وَأَزْدَادَاتِ الْأَعْدَاءِ عَنْهُ نُكُولًا

هل كان إلا الليث فارق غيلَه * فرأيتَه في محل محمولا
 لا يأمنُ الأعداءُ من شدَّاته * شدًّا يفصلُ هامهم تفصيلا
 ما عابه أنْ بُزَّعنه لبأسه * فالسيفُ أهولُ ما يرى مسلولا
 إن يُتَدَلَّ فالبدْرُ لا يُزرى به * إن كان ليلةً تمَّ مبدولا
 أو يسلبوه المالَ يُحزنُ فقدَه * ضيفا ألم وطارقا ونزيلا
 أو يحبسوه فليس يُحبس سائرُ * من شعره يدعُ العزيز ذليلا
 إن المصائب ما تعدت دينه * نعم وإن صعبت عليه قليلا
 والله ليس بغافلٍ عن أمره * وكفى بربك ناصرا ووكيلا
 وتعلمن إذا القلوب تكشفت * عنها الأكنة من أضل سبيلا

وكتب المتوكل الى طاهر بن عبد الله بإطلاق علي بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أظاهرُ إني عن خُراسانَ راحلُ * ومُسْتَخْبِرٌ عنها فما أنا قائلُ
 أأصدقُ أم أكني عن الصدق أيا * تحيرتُ أدته اليك المحافلُ
 وسارت به الركبُ وأصطفقت به * أكفُ قيانٍ وأجبتته القبائلُ
 وإني بعالي الحمد والذم عالمُ * بما فيهما نامى الرمية ناضلُ
 وحقا أقولُ الصدقُ إني لمائلُ * اليك وإن لم يحظَ بالود مائلُ
 ألا حرمةٌ تُرعى ألا عقدُ ذمةٍ * لجارٍ ألا فعلٌ لقولٍ مُشاكلُ
 ألا منصفٌ إن لم نجد متفضلا * علينا ألا قاضٍ من الناس عادلُ
 فلا تقطعن غيظا على أناملًا * فقبلك ما عُضت على الأناملُ
 أظاهرُ إن تُحسنُ فإنِّي محسنُ * إليك وإن تبخل فإنِّي باخلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيرا، فإنني لا أفعل بك إلا ما تحب، فوصله وحمله

وقال علي بن الجهم للتوكل :

عفا الله عنك ! ألا حرمة * تجود بعفوك أن أبعداً
لئن جلّ ذنبٌ ولم أعتد * لأنّ أجلّ وأعلى يدا
ألم تر عبداً عدّاً طوره * ومولى عفا ورشيداً هدى
ومفسداً أمر تلافيته * فعاد فأصلح ما أفسدا
أقولنى أقالك من لم يزل * يقيك ويصرف عنك الردى

وأحسن شعر قاله في الحبس قصيدته التي أولها :

قالوا حُيِّسَتْ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضَائِرِي * حَبْسِي وَأَيُّ مَهْنَدٍ لَا يُغَمِّدُ
أَوْ مَا رَأَيْتَ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيْلَهُ * كَبِيراً وَأَوْبَاشَ السَّبَّاحِ تَرَدَّدُ
والشمس لولا أنها محجوبة * عن ناظريك لما أضاء الفرقدُ
والبدر يُدركه السرار فتجلى * أيامه وكأنه متجدد
والغيثُ يحضره الغمامُ فما يرى * إلّا وريقه يراع ويرعدُ
والزاعية لا يقيم كعوبها * إلا الثَّفافَ وجذوةً تَتَقَدُّ
والنارُ في أحجارها مخبوءة * لا تُصْطَلَى إن لم تُثرها الأزدُ
والحبس ما لم تَغْشَه لَدْنِيَّة * شِغَاءُ نَعْمِ الْمَنْزِلِ الْمُتَوَدَّدِ
بيت يحدّد للكریم كرامة * ويُزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحَمَّدُ
لو لم يكن في الحبس إلا أنه * لا يستذلّك بالحجاب الأعبدُ
كم من عليلٍ قد تخطاه الردى * فنجا ومات طيبه والعودُ
يا أحمد بن أبي دؤاد إنما * تدعى لكل عظمة يا أحمد
أبلغ أمير المؤمنين ودونه * خَوْضُ الرَّدَى وَمَخَاوِفُ لَا تَنْقَدُ
أنتم بنو عم النبي محمد * أولى بما شرع النبي محمد
ما كان من كريم فاتم أهله * كُرُمْتُ مَغَارِسِكُمْ وَطَابَ الْحَمِيدُ

أَمِنَ السَّوِيَّةَ يَابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ * خَضَمُ تَقَرُّبِهِ وَآخِرُ تَبَعِهِ
 إِنْ الَّذِينَ سَعَوْا إِلَيْكَ بِبَاطِلٍ * حَسَادُ نِعْمَتِكَ الَّتِي لَا تُجْحَدُ
 شَهِدُوا وَغَيَّبُوا عَنْهُمْ فَتَحَكُّوْا * فِينَا، وَلَيْسَ كِفَائِيٍّ مِنْ يَشْهَدُ
 لَوْ يَجْمَعُ الْخُصَمَاءَ عِنْدَكَ مَجْلِسٌ * يَوْمَا لَبَانَ لَكَ الطَّرِيقُ الْأَقْصَدُ
 فَبَأَى جُرْمُ أَصْبَحْتَ أَعْرَاضَنَا * نَهَبَا تَقَسَّمَا اللَّثِيمُ الْأَوْغَدُ

خرج علي بن الجهم إلى الشام في قافلة فخرجت عليهم الأعراب في خُسَاف، فهرب من
 كان في القافلة من المُقَاتِلَةِ وَثَبَتْ علي بن الجهم، فقاتلهم قتالا شديدا وثاب الناس إليه
 فدفعهم ولم يَحْظُوا بشيء . فقال في ذلك :

صَبَرْتُ وَمِثْلِي صَبْرُهُ لَيْسَ يُنْكَرُ * وَلَيْسَ عَلَى تَرْكِ التَّقَحُّمِ يُعَدَّرُ
 غَرِيزَةُ حَرٍّ لَا اخْتِلَافُ تَكْلُفٍ * إِذَا خَامَ فِي يَوْمِ الْوَغَى الْمُتَصَبِّرُ^(٢)
 وَلَمَّا رَأَيْتَ الْمَوْتَ تَهْفُو بِنُودِهِ * وَبَانَتْ عَلَامَاتُ لَهُ لَيْسَ تَنْكُرُ
 وَأَقْبَلْتَ الْأَعْرَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَثَارَ عَجَاجُ أَسْوَدُ اللَّوْنِ أَكْدَرُ
 بِكُلِّ مُشِيحٍ مُسْتَمِيَةٍ مُشْتَمِرٍ * يَحُولُ بِهِ طَرْفُ أَقْبُ مُشْتَمِرٍ^(٣)
 بَارِضُ خُسَافٍ حِينَ لَمْ يَكْ دَافِعٌ * وَلَا مَانِعٌ إِلَّا الصَفِيحُ الْمَذْكُرُ
 فَقَلَّ فِي عَيْنِي عَظِيمَ جَمْعِهِمْ * عَزِيمَةُ قَلْبٍ فِيهِ مَا جَلَّ يَصْغُرُ
 بِمَعْتَرِكٍ فِيهِ الْمَنَايَا حَوَاسِرُ * وَنَارُ الْوَعَى بِالْمُشْرِفَةِ تُشْعِرُ
 فَمَا صُنْتُ وَجْهِي عَنْ ظُبَاتِ سِيوفِهِمْ * وَلَا أَنْحَزْتُ عَنْهُمْ وَالْقَنَّا تَنْكَسِرُ
 وَلَمْ أَكْ فِي حَزِّ الْكَرِيهَةِ مُحْجَا * إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَرْبِ لِلْوَرْدِ مَصْدَرُ
 إِذَا سَاعَدَ الطَّرْفُ الْفَتَى وَجَنَانَهُ * وَأَسْمَرُ خَطِيٍّ وَأَبْيَضُ مَيْتَرُ
 فَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ الْكَرِيمُ بِنَفْسِهِ * إِذَا أَصْطَلَتْ الْأَبْطَالُ فِي النَّعْ عَسْكَرُ

(١) برية بين بالس وحلب . (٢) خام : نكص وجبن .

(٣) المشيح : المانع لما وراء ظهره . والأقب من الخيل : الدقيق انحصر الضامر البطون .

منعُهمُ من أن ينالوا قُلامَةً * وكنتُ شجاهم والأُسِنَّةُ تقطُرُ
وتلك سجاياتنا قديماً وحادثاً * بها عُرفَ الماضي وعزَّ المؤخَّرُ
أبْتُ لى قرومٍ أنجبتني أن أرى * وإن جَلَّ حَظُّ حاشعاً أنضجِر
أولئك آل الله فهِرُ بن مالكٍ * بهم يُخبرُ العظمُ الكسيرُ ويُكسر
هم المَنِكِبُ العالى على كل منكبٍ * سيوفُهم تُفنى وتُغنى وتُنقِر

كان على بن الجهم يعاشر جماعةً من فتيان بغداد لما أطلق من حبسه ورد من النفي،
وكانوا يتقانون ببغداد ويلزمون منزل مغنٍ بالكرخ يقال له المفضل، فقال فيه على بن الجهم:

نزّلنا بباب الكرخ أطيّبَ منزلٍ * على مُحسناتٍ من قِيانِ المفضل
فلا بن سُرْنَجٍ والغَرِيضِ ومَعْبَدٍ * بدائعُ في أسماعنا لم تبدل
أوانس ما للضيف منهنّ حشمةٌ * ولا رهبن بالجليل المبجل
بسرّ إذا ما الضيفُ قَلَّ حياؤه * ويَغْفُلُ عنه وهو غير مُغْفَل
ويُكثِرُ من ذمّ الوقارِ وأهلِهِ * إذا الضيفُ لم يَأْتَسْ ولم يَتَبَدَّل
ولا يدفع الأيدي المريسة غيرةً * إذا نال حظّاً من لبّوسٍ وأكل
ويطرق إطراق الشجاع مهابةً * ليُطْلِقَ طَرْفَ الناظر المتأمل
أشْرِيْدٍ وأعْمَزَ بطَرْفٍ ولا تَخَفُ * رقيباً إذا ما كنتَ غير مُبْعَل
وأعْرِضْ عن المصباحِ وألْهَجْ بمثله * فإن نَحَمَدَ المصباحَ فادُّ وقبِّل
وسَلْ غيرَ مُنَوَّعٍ وقُلْ غيرَ مُسَكِّتٍ * ونَمِّ غيرَ مَذْعُورٍ وقم غير مُعْجَل
لك البيت ما دامت هداياك جمةً * وكنتَ مَلِيّاً بالبيدِ المعسل
فبادِرْ بأيام الشباب فإنها * تَقْضَى وتَفْنَى والغَوَايَةُ تَجَلِي
ودع عنك قولَ الناس أتلفَ ماله * فلا نُّ فاضحى مُدِرّاً غير مُقْبِل
هل الدهرُ إلا لَيْلَةٌ طَرَحَتْ بنا * أو آخرها في يومٍ لهُوٍ مُعْجَل
سقى الله باب الكرخ من مُنْتَرِهٍ * إلى قصرٍ وَضاحٍ فِرْكَاةٍ زَلَزَل

مَسَاحِبُ أَذْيَالِ الْقِيَانِ وَمَسْرُوحُ الْ * حَسَانٍ وَمَثْوَى كُلِّ خَرَقٍ مُعَدَّلٍ
لَوْ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسَ بْنَ خَجْرٍ يَحْلِيهَا * لَا قَصْرَ عَنْ ذِكْرِ الدُّخُولِ وَحَوْمَلٍ
إِذَا لَرَأَى أَنْ يَمْنَحَ الْوَدَّ شَادَنَا * مُقَصِّرُ أَذْيَالِ الْقَنَا غَيْرَ مُسِيلٍ
إِذَا اللَّيْلُ أَذْنَى مَضْجَعِي مِنْهُ لَمْ أَقُلْ * ”عَقَرْتَ بَعِيرِي يَا أَمْرًا الْقَيْسَ فَأَنْزِلْ“

دخل على بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر في غداة من غدوات الربيع وفي السماء
غيم رقيق، والمطر يهيج قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله عزم على الصبح ففاضته
حَظِيَّةٌ لَهُ، فتنغصص عليه عزمه وفتر، فخبّر على بن الجهم بالخبر وقيل له : قل في هذا المعنى
لعله ينشط للصبح؛ فدخل عليه فأنشده :

أَمَّا تَرَى الْيَوْمَ مَا أَحْلَى شَمَائِلَهُ * صَحْوٌ وَغَيْمٌ وَإِبْرَاقٌ وَإِرْعَادُ
كَأَنَّهُ أَنْتَ يَا مَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ * وَصَلُّ وَهَرُّ وَتَغْرِيْبٌ وَإِبْعَادُ
فَبَاصِرِ الْأَرَاكِ وَأَشْرَبِهَا مُعْتَقَةً * لَمْ يَدْنِرْ مِثْلَهَا كِنْسَرَى وَلَا عَادُ
وَأَشْرَبَ عَلَى الرُّوضِ إِذَا لَحَتْ زَخَارِفُهُ * زَهْرٌ وَنَوْرٌ وَأَوْرَاقٌ وَأَوْرَادُ
كَأَنَّمَا يَوْمُنَا فَعَلَّ الْحَيِيبُ بِنَا * بَذْلٌ وَبُخْلٌ وَإِعَادٌ وَمِيعَادُ
وَلَيْسَ يَذْهَبُ عَنِّي كُلُّ فَعْلٍ كُمْ * عَنِّي وَرُشْدٌ وَإِصْلَاحٌ وَإِفْسَادُ

فاستحسن الأبيات وأمر له بثلاثة دينار وحمله وخلع عليه .

لما أطلق عبد الله بن طاهر على بن الجهم من الحبس أقام معه بالشاذياخ مدة، فخرجوا
يوما الى الصيد . واتفق لهم مَرَجٌ كثير الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا

صيدا كثيرا حسنا، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال على بن الجهم يصف ذلك :

وَطِئْنَا رِيَاضَ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ * عَلَيْنَا الْبُرْءَةُ الْبَيْضُ حَمْرُ الدَّرَاجِ^(١)
وَلَمْ تَحْمِهَا الْأَدْعَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا * أَبْجَحْنَا حِمَاَهَا بِالْكَلَابِ الْبَوَاجِ^(٢)
بِمَسْتَرِوْحَاتٍ سَابِحَاتٍ بِطَوْنِهَا * عَلَى الْأَرْضِ أَمْثَالُ السَّهَامِ الْزَوَاجِ

(١) واخذه دَرَج (بضم الدال وتشديد الراء) وهو طائر على خلقة القطا إلا أنه أَلُفٌ .

(٢) الزواج من السهام : الذي يمشى على وجه الأرض ثم يمضى .

ومستشرفات بالهواذى كأنها * وما عَقِفَتْ منها رؤوس الصَّوَالجِ
ومن دالعاتِ ألسنًا فكأنها * لَحَى من رجال خاضعين كَوَاصِجِ
فَلَيْتَنا بها الغِيْطَانُ قَلِيًّا كأنها * أَنَامِلُ لِمَاحِدَى الغَانِيَاتِ الحَوَالِجِ
فَقُلْ لِبُغَاةِ الصَّيْدِ هل من مُفَاحِرٍ * بصيْدٍ وهل من وَاَصِفِ أَوْخَارِجِ
قَرَنًا بُزَاةً بالصَّقُورِ وَحَوْمَتْ * شَوَاهِينَا من بعد صيد الرواحِ
لَمَّا فُلِجَ آبن أبى دَوَادٍ سَمِتَ به عَلَى بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه :

لَمْ يَبْقَ مِنْكَ سِوَى خَيَالِكَ لَامِعًا * فَوْقَ الْفِرَاشِ مَهْمَدًا بَوَسَادِ
فَرِحْتَ بِمَصْرَعِكَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا * مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِنًا بِمَعَادِ
كَمْ مَجْلَسَ لَهِ قَدْ عَطَلَتْهُ * كَيْ لَا يُحَدِّثَ فِيهِ بِالْإِسْنَادِ
وَلَكُم مَصَابِيحُ لَنَا أَطْفَافُهَا * حَتَّى نَزُولَ عَنْ الطَّرِيقِ الْهَادِي
وَلَكُم كَرِيمَةٌ مَعَشِيرُ أَرْمَلَتِهَا * وَمَحَدَّثَ أَوْثَقَتْ فِي الْأَقْيَادِ
إِنْ الْأَسَارَى فِي السَّجُونِ تَفَرَّجُوا * لَمَّا أَنتَكِ مَوَاصِبُ الْعَوَادِ
وَعَدَا لِمَصْرَعِكَ الطَّيِّبُ فَلَمْ يَحْدِ * شَيْئًا لَدَائِكَ حِيلَةُ الْاَلْمُرَادِ
فَذُقِ الْهَوَانَ مَعْجَلًا وَمُؤَجَّلًا * وَاللَّهِ رَبَّ الْعَرْشِ بِالْمُرْصَادِ
لَا زَالَ فَالْحُكُّ الَّذِي بِكَ دَائِبًا * وَخُفَّتَ قَبْلَ اَلْمَوْتِ بِالْأَوْلَادِ

ومن جيد شعره قوله :

نَطَقَ الْهَوَى بِجَوَى هُوَ الْحَقُّ * وَمَلِكْتَنِي فَلَيْمَنْكَ الرَّقُّ
رِفْقًا بِقَلْبِي يَا مَعْدَبَهُ * رِفْقًا وَلَيْسَ لظَالِمٍ رِفْقُ
وَإِذَا رَأَيْتُكَ لَا تُكَلِّمْنِي * ضَاقَتْ عَلَى الْأَرْضِ وَالْأَفْقُ

وله أيضا :

يَا رَحْمَةً لِلْغَرِيبِ بِالْبَلَدِ النَّا * زَجِ مَا ذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا
فَارَقَ أَحِبَّاءَهُ فَمَا اَنْتَفَعُوا * بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَمَا اَنْتَفَعَا

(١) الراج : الملواح الذى يصاد به الصقور ونحوها من جوارح الطير .

٢٠ - علي بن جبلة^(١)

قال المأمون يوما لبعض جلسائه : أقسم علي من حضر ممن يحفظ قصيدة علي بن جبلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلا أنشدنيها ؛ فقال له بعض الجلساء : قد أقسم أمير المؤمنين ولا بد من إبرار قسمه ، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندي ؛ قال : قم فحطني بها ، فمضى وأتاه بها وأنشده إياها ، وهي :

ذاد رد النخ عن صدره * وأرعوى والله من وطره
وأبت إلا البكاء له * صحكأت الشيب في شعره
ندمى أن الشباب مضى * لم أبلغه مدى أشيره
وأنقضت أيامه سألماً * لم أجذ حولاً على غيره
حسرت عني بشاشته * وذوى المحمود من ثميره
ودم أهدرت من رشاً * لم يرد عقلاً على هديره
فأنت دون الصبا هنة * قلبت فوق على وتيره
جارتا ليس الشباب لمن * راح مخنياً على كبره
ذهبت أشياء كنت لها * صارها حلمي^(٢) إلى صورته

(١) هو علي بن جبلة الأنباري والعكوك لقبه ، وهو من الموالى أبناء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد ، ولد في الحرية منها ونشأ فيها ، وكان ضريراً منذ ولادته مثل بشار بن برد ، وهو شاعر مطبوع عذب اللفظ جزله ، لطيف المعاني ، مداح حسن التصرف ، وقد استنفد شعره في مدح أبي دلف العجلي وأبي غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي ، وزاد في تفضيلهما وتفضيل أبي دلف خاصة حتى فضل ربيعة على مضر ، فاستاء المأمون من ذلك وبلغه أبيات قالها العكوك في أبي دلف منها :

كل من في الأرض من عرب * بين يديه إلى حضره
مستعير منك مكومة * يكتسبها يوم مفتخره

توفي سنة ٢١٣ هـ . وتجد أكثر أخباره في الأغاني (ج ١٨ ص ١٠٠) وابن خلكان طبع بولاق (ج ١ ص ٤٩٥) والشعر والشعراء (ص ٥٥٠) (٢) صارها : أمالها .

دَعَّ جَدَا حَقَّانَ أَوْ مُضِرَّ * فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُضَرِّهِ
 وَامْتَدَّ مِنْ وَائِلٍ رَجُلًا * عَصْرُ الْآفَاقِ فِي عَصْرِهِ
 الْمَنَاسِيَا فِي مَنَاقِبِهِ * وَالْعَطَايَا فِي ذَرَا حُجْرِهِ
 مَلِكٌ تَتَدَّى أَنَامِلُهُ * كَانِبَ لَاجِ النَّوَى عَنْ مَطَرِهِ
 مُسْتَهْلٌ عَنْ مَوَاهِبِهِ * كَابِتْسَامِ الرُّوضِ عَنْ زَهْرِهِ
 جَبَلٌ عَزَّتْ مَنَاصِبُهُ * أَمِنَتْ عَدَنَانُ فِي ثَغَرِهِ
 إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلْفٍ * بَيْنَ مَبْدَاهِ وَخُتْمِهَا
 فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلْفٍ * وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
 لَسْتُ أَدْرِي مَا أَقُولُ لَهُ * غَيْرَ أَنَّ الْأَرْضَ فِي حَقَرِهِ
 يَادَوَاءُ الْأَرْضِ إِنْ فَسَدَتْ * وَمَدِيلُ الْيُسْرِ مِنْ عُسْرِهِ
 كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ بَادِيَةِ إِلَى حَضَرِهِ
 مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرَمَةٌ * يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مُفْتَحِهَا

وفيها يقول :

وَزُحُوفٍ فِي صَوَاهِلِهِ * كَصِيَاكِ الْحَشْرِ فِي أَنْوَارِهِ
 قُدَّتْهُ وَالْمَوْتُ مَكْتَمٌ * فِي مَذَاكِيهِ وَمُسْتَجَرِّهِ
 فَرَمْتُ حَقْوِيهِ مِنْهُ يَدٌ * طَوَّاتِ الْمُنْشُورِ مِنْ نَظَرِهِ
 زَرْتَهُ وَالْخَيْلَ عَابِسَةً * تَحْمِلُ الْبُؤْسَى عَلَى عُنُقِهِ
 خَارِجَاتٍ تَحْتَ رَايَتِهَا * تَخْرُجُ الطَّيْرُ مِنْ وَكْرِهِ
 وَعَلَى النِّعَانِ تُجْتَبَى بِهِ * عَوَجَةٌ زَادَتْهُ عَنْ صَدْرِهِ
 غَمَطَ النِّعَانُ صَفْوَتَهَا * فَزَادَتْ الصَّفْوَةَ فِي كَدْرِهِ
 وَلَقَرْ قُورٌ أَدْرَتْ رَحًا * لَمْ تَكُنْ تَرْتَدُّ فِي فِكْرِهِ

قد تَأَيَّنَتِ البقاءَ له * فأبى المحتومُ من قَدَره
وطغى حتى رفعتَ له * خُطَّةً شنعاءَ من ذِكْره
فغضب المأمون وأغتاظ، وقال : لست لأبى إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه .

وكان يمدح حميد بن عبد الحميد، فلما سمع حميد هذا في أبي دلف قال : أى شىء
بَقِيَتْ لنا بعد هذا من مدحك؟ فقال :

إنما الدنيا حميدٌ * وأياديه الحسامُ
فاذا ولَّى حميدٌ * فعلى الدنيا السلامُ

وهو القائل في حميد :

دِجْلَةٌ تَسْقِي وَأَبُو غَانِمٍ * يُطْعِمُ مَنْ تَسْقِي مِنَ النَّاسِ
وَالنَّاسُ جِسْمٌ وَإِمَامُ الْهَدَى * رَأْسٌ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّاسِ

وقال للحسن بن سهل :

أَعْطَيْتَنِي يَا وَلِيَّ الْحَقِّ مَبْتَدَأًا * عَطِيَّةً كَافَاتٍ مَدْحِي وَلَمْ تَرِنِي
مَا شِئْتُ بِرَقِّكَ حَتَّى نِلْتُ رَيْقَهُ * كَأَنَّمَا كُنْتُ بِالْجَدْوَى تُبَادِرُنِي

وهو القائل في حميد :

إِلَى أَكْرَمِ قَطَّانٍ * وَصَلْنَا السَّهْبَ بِالسَّهْبِ
إِلَى مَجْتَمَعِ النَّيْلِ * وَمُلِقَى أَرْحُلِ الرِّكَبِ
حَمِيدٌ مَفْرَعُ الْأُمَّةِ * فِي الشَّرْقِ وَفِي الْغَرْبِ
كَأَنَّ النَّاسَ جِسْمٌ وَهُوَ * وَمِنْهُ مَوْضِعُ الْقَلْبِ
إِذَا سَآلَمَ أَرْضًا غَدًا * يَنْتِ آمِنَةَ السَّرْبِ
وَإِنْ حَارَبَهَا حَلَّتْ * بِهَا رَاغِيَةُ السَّقْبِ
إِذَا لَاقَى رَعِيْلَ الْمَوْتِ * تِ بِالشَّطْبَةِ وَالشَّطْبِ
وَبِالْمَاذِيَةِ الْخُضْرِ * وَبِالْهَنْدِيَةِ الْقُضْبِ

غداً مجتمع القلب * له جندٌ من الرعب
 فيافوزَ الذي وآلى * وياؤسى أنى الذنب
 أياذا الجود فاسلمَ ما * جرت حُقبٌ الى حُقب
 فانت الغيثُ فى السليم * وأنت الموتُ فى الحرب
 وأنت الجامعُ الفار * قُ بين البعد والقرب
 بك الله تلافى النسا * س بعد العثر والنكب
 وردَ البيضُ والبيض * الى الأعماد والمُجب
 بإقدامك فى الحرب * وإطعامك فى اللُزب
 فكَم أمنتَ من خوفٍ * وكَم أشعبتَ من شغب
 وكَم أصلحتَ من خطبٍ * وكَم أيمتَ من خطب
 وما تمهـرها إلا * دِرَاكَ الطعن والضرب
 تناهت بك قِطابُ * الى الغاية والحسب
 ففانت شرف الأحياء * ء قوت الرأس للعجب^(١)

وما أسرف فيه فكفر أو قارب الكفر قوله فى أبى دلف :

أنت الذى تُنزل الأيامَ منزلها * وتثقل الدهرَ من حالٍ الى حال
 ومامددت مدى طرفٍ الى أحدٍ * إلا قضيت بأرزاق وآجال
 تزورُ سخطاً فتُسمى البيضُ راضيةً * وتستهلُ فنبكى أوجهُ المال

وقال فيها :

كأن خيلك فى أنشاء غمرتها * أرسلَ قَطِرَ تهاى فوق إرسال
 يخرجن من غمرات الموت ساميةً * نشر الأنامل من ذى القرة الصالى

(١) العجب : أصل الذنب .

وقال أيضا :

جلاء مشيب نزل * وأنس شباب رحل
طوى صاحب صاحبًا * كذاك اختلاف الدول
أعاذلتي أقصري * كفالك المشيب العذل
بدا بدلًا بالشبا * ب ليت الشباب البدل
جلال ولكنه * تحاماه حور المقل

وقد كان حميد ركب يوم عيد في جيش عظيم لم ير مثله ، فقال على بن جبلة يصف ذلك :

غدا بأمير المؤمنين ويمنه * أبو غانم غدو الندى والسحاب
وضاقت فجاج الأرض عن كل موكب * أحاط به مستعليا للواكب
كأن سماء النقع والبيض فوقهم * سماوة ليل قرنت بالكواكب
فكان لأهل العيد عيد بنسكهم * وكان حميد عيدهم بالمواهب
ولولا حميد لم تبلج عن الندى * يمين ولم يدرك غنى كسب كاسب
ولو ملك الدنيا لما كان سائل * ولا أعتام فيها صاحب فضل صاحب
له ضخمة تستغرق المال بالندى * على عبسة تشجي القنا بالترائب
ذهبت بأيام العلاء فاردًا بها * وصرمت عن مسعاك شأو المطالب
وعذلت ميل الأرض حتى تعدلت * فلم ينأ منها جانب فوق جانب
بلغت بأدنى الحزم أبعاد قضيها * كأنك منها شاهد كل غائب

شخص على بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى نراسان ، وقد مدحه فأجرل صلته ، واستأذنه في الرجوع فسأله أن يقيم ، وكان بره يتصل عنده ، فلما طال مقامه اشتاق إلى أهله فدخل إليه فأنشده :

زاعه الشيب إذ نزل * وكفاه من العذل
وأنقضت مدة الصبا * وأنقضى اللهو والغزل

قَدْ لَعِمْرَى دَمَلَتْهُ * بِخِضَابٍ فَمَا آتَدَمَلْ
 فَايَكِ لِلشَّيْبِ إِذْ بَدَا * لَا عَلَى الرَّبْعِ وَالطَّلَلْ
 وَصَلِ اللَّهُ لِلْأُمِي * رِعْرَعَى الْمَلِكِ فَاتَّصَلْ
 مَلِكُ عَزْمِهِ الزَّمَا * نُ وَأَفْعَالُهُ الدُّوَلْ
 كَسْرُوئِي، يَجِدُهُ * يَضْرِبُ الضَّارِبُ الْمَثَلْ
 وَإِلَى ظِلِّ عَزِهِ * يَلْجَأُ الْخَائِفُ الْوَجَلْ
 كُلُّ خَلْقٍ سِوَى الْإِمَا * مِ لِإِنْعَامِهِ خَوَلْ
 لَيْتَهُ حِينَ جَادَلِي * بِالْغِنَى جَادَ بِالْقَفَلْ

فضحك وقال : أَيَّتَ إِلَّا أَنْ تُوحِشَنَا، وَأَجْزَلِ صَلَاتِهِ وَأُذُنْ لَهُ .

دخل على بن جبلة العكوك على حميد الطوسي في أول يوم من شهر رمضان، فأنشده :

جَعَلَ اللَّهُ مَدْخَلَ الصُّومِ فَوْزًا * لِحَمِيدٍ وَمُتَعَةً فِي الْبَقَاءِ
 فَهُوَ شَهْرُ الرَّيِّعِ لِلْقُرَّاءِ * وَفِرَاقُ النَّدَمَانِ وَالصَّهْبَاءِ
 وَأَنَا الضَّامِنُ الْمَلِي لِمَنْ عَا * قَرَهَا مُفْطِرًا بِطُولِ الظَّهَاءِ
 وَكَأَنِّي أَرَى النَّدَامَى عَلَى الْخَسَاءِ * نَفْ يَرْجُونَ صَبْحَهُمْ بِالْمَسَاءِ
 قَدْ طَوَى بَعْضُهُمْ زِيَارَةَ بَعْضِ * وَاسْتَعَاذُوا مَصَاحِقًا بِالْغِنَاءِ

وفيها يقول :

بُحْمِيدٍ — وَأَيْنَ مِثْلُ حَمِيدٍ — * نَفَخَتْ طِيَّءٌ عَلَى الْأَحْيَاءِ
 جُودُهُ أَظْهَرَ السَّاحَةِ فِي الْأَرْضِ * ضِ وَأَغْنَى الْمُقْوَى عَنِ الْإِقْوَاءِ
 مَلِكٌ يَأْمُلُ الْعِبَادُ نَدَاهُ * مِثْلَ مَا يَأْمُلُونَ قَطَرَ السَّمَاءِ
 صَاغَهُ اللَّهُ مُطْعِمَ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ * ضِ وَصَاغَ السَّحَابَ لِلْإِسْقَاءِ

فأمر له بخمسة آلاف درهم، وقال : استعن بهذه على نفقة صومك ؛ ثم دخل إليه ثانياً

شوال فأنشده :

علّاني بصفو ما في الدنان * وأترك ما يقوله العاذلان
 وأسبقا فاجع المنية بالعيد * يش فكل على الحديد فاني
 علّاني بشربة تذهب اله * ثم وتنفى طوارق الأحران
 والقيأ في مسمع سدها الصو * ثم رقى الموصلى أودحمان
 قد أتنا شوال فاقبل العيد * ش وأعدى قسراً على رمضان
 نعم عون الفتى على نوب الده * بر سماع القيآن والعيادات
 وكؤوس تجرى بماء كروم * ومطى الكؤوس أيدى القيآن
 من عقار ثيمت كل احتشام * وتسّر النذمان بالنذمان
 وكان المزاج يقدح منها * شرراً في سبائك العقيان
 فاشرب الراح وأعص من لأم فيها * إنها نعم عدة الفتيان
 وأصحب الدهر بارتحال وحل * لا تخف ما يمرّه الحادنان
 حسب مستظهر على الدهر ركناً * بجيد رداء من الحدنان
 ملك يقتنى المكارم كترًا * وتراه من أكرم الفتيان
 خلقت راحتاه للجود والبأ * س وأمواله لشكر اللسان
 ملكته على العباد معدّ * وأفرت له بنو حطان
 أريحي النداء جميل الحيا * يده والسباح معتقدان
 وجهه مشرق الى معتفيه * ويده بالغيث تنفجران
 جعل الدهر بين يديه قسيم * بن بعرف جزل وحر طعان
 فاذا سار بالخميس لحرب * كل عن نصّ به الخافقان
 واذا ما هزرتة لنوال * ضاق عن رحب صدره الأفقان
 غيث جدب إذا أقام ربيع * يتغشى بالسيف كل مكان
 يا أبا غانم بقيت على الده * بر وخلدت ما جرى العصران

ما بُنِيَ إِذَا عَدَّتْكَ الْمَنَايَا * مَنْ أَصَابَتْ بِكَ كَلِّ وَجَرَانِ
 قَدْ جَعَلْنَا إِلَيْكَ بَعَثَ الْمَطَايَا * هَرَبًا مِنْ زَمَانِنَا الْخَوَانِ
 وَحَلَلْنَا الْحَاجَاتِ فَوْقَ عِتَاقِي * ضَامِنَاتِ حَوَائِجِ الرِّبَّانِ
 لَيْسَ جُودٌ وَرَاءَ جُودِكَ يُنْتَا * بٌ وَلَا يَتَعَنَّى لَغَيْرِكَ عَانِي

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: تلك كانت للصوم تخففت وخففنا، وهذه للفطر
 فقد زدتنا وزدناك .

ولما مات حميد الطوسي رثاه بقصيدته العينية المشهورة التي تعد من نادر الشعر
 وبديعه، وهي :

الدهر تبكى أم على الدهر تجزع * وما صاحب الأيام إلا مُقْجِعُ
 ولوسهلت عنك الأسى كان في الأسى * عزاء معزّ لليب ومقنع
 تعز بما عزيت غيرك إنها * سهام المنايا حائمات ووقع
 أمينا بيوم في حميد لو أنه * أصاب عمروش الدهر ظلت تضعع
 وأدبنا ما أذب الناس قبلنا * ولكنه لم يبق للصبر موضع
 ألم تر للأيام كيف تصرمت * به ، وبه كانت تذاذ وتُدفع
 وكيف التقى مثنوى من الأرض ضيق * على جبل كانت به الأرض تمنع
 ولما أنقضت أيامه أنقضت العلاء * وأضحى به أنف الندى وهو أجدع
 وراح عدو الدين جدلان ينتحي * أمانى كانت في حشاه تقطع
 وكان حميد معقلا ركعت به * قواعد ما كانت على الضم تركع
 وكنت أراه كالرزايا رزيتها * ولم أدر أن الخلق تبكيه أجمع
 حاتم رماه من مواضع أمنه * حاتم، كذا الخطب بالخطب يُقدع
 وليس بغرو أن تُصيب منية * حى أختها أو أن يدل المنع
 لقد أدركت فينا المنايا بأرها * وحلت بخطب وهي ليس يرفع

نَعَاءٌ حَمِيدًا لِلسَّرايا إِذا غَدَتْ * تَذادُ بِأَطرافِ الرِّماحِ وتُوزَعُ
 وللرَّهقِ المَكروبِ ضَلَّتْ بِأَمْرِهِ * فلم يَدِرْ في حِوماتِها كيف يَصنَعُ
 وللبيضِ خَلَّتْها البُعبُوبُ ولم يَدَعِ * لها غَيْرَهُ دَاعي الصِّباحِ المُفزعُ
 كانَ حَميدًا لم يَقُدْ جِشَّ عَسْكِ * إلى عَسْكَرِ أَشْياعِهِ لا تَرَوُعُ
 ولم يَبْعَثِ الخَيْلَ المَغِيرَ بالضَّحَى * مِرْاحًا ولم يَرْجِعْ بِها وَهَى ظُلُعُ
 رَواجِعَ يَحْمِلُ النَّهَبَ لم تَكُنْ * كَتائِبُهُ إِلَّا على النَّهَبِ تَرجِعُ
 هوى جَبَلُ الدُّنيا المَنيعُ وَغِيْها الـ * حَرِيعُ وَحامِيها الكَمى المُشيعُ
 وسيفُ أَميرِ المُؤمِنينَ ورُحْمُهُ * ومُفتاحُ بابِ الخُطبِ والخُطبُ أَفْطَعُ
 فاقنَعَهُ من مُلْكِهِ رِباعُهُ * ونائِلُهُ قَفَرٌ من الأَرْضِ بَلَقَعُ
 على أَى شَجْوٍ تَشْجُو النَفْسُ بَعْدَهُ * إلى شَجْوِهِ أَوْ يَذْخُرُ الدَّمْعُ مَدْمَعُ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمسَ حَالَ ضِياؤِها * عَلَيْهِ وَأُضْحَى لَوْنُها وَهُوَ أَسْفَعُ
 وَأَوْحَشَتِ الدُّنيا وَأَوْدَى بِهاؤِها * وَأَجْدَبَ مَرَعاهَا الَّذي كانَ يَمْرُغُ
 وَقَدْ كانَتِ الدُّنيا بِهِ طُمُئِنَّةً * فَقَدْ جَعَلَتْ أَوْتادُها تُنْقَلَعُ
 بَكَ فَقَدَهُ رُوحُ الحِياةِ كَمَا بَكَى * نَداهُ النَّدَى وَأَبْنُ السَّبيلِ المُدْفَعُ
 وفارَقَتِ البَيْضُ الخُدودَ وَأَبْرَزَتْ * عَواطِلَ حَسَرَى بَعْدَهُ لا تَقْنَعُ
 وَأَيَّقُظُ أَجْفانًا وَكانَ لَها الكَرى * وَنامَتِ عِيونُ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ تَهَجُّعُ
 وَوالَكُنْهُ مَقْدارُ يَومٍ ثَوى بِهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُ نِهاً وَمَشْرَعُ
 وَقَدْ رَأَى اللهُ المَلائِئِمَ * وَبالأَصْلِ يَنمى فِرْعُهُ المُتَفَرِّعُ
 أَغْرَ، على أَسِيفِهِ وَرِماحِهِ * تُقَسِّمُ أَنْفالُ الخَمِيسِ وَتُجْمَعُ
 حَوَى عَنِ أَبيهِ بَذَلَ راحَتِهِ النَّدَى * وَطَعَنَ الكُلَى والزَّاعِيَّةُ شَرُّعُ

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فرند زفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثاني

(حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م

فهرست

المجلد الثاني من عصر المأمون

ملحق الكتاب الأول - عصر بني أمية

صفحة	باب المنشور :
١	رسالة أبي بكر على ...
١٢	كلام عائشة رضي الله عنها في الانتصار لأبيها ...
١٤	كلمة أم الخير بنت الحريش ...
١٧	كلمة الزرقاء بنت عدى ...
١٨	كلمة عكرشة بنت الأطرش ...
٢٠	رسالة لعبد الحميد الكاتب كتبها عن مروان بن محمد لبعض من ولاء ...
٥٣	رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب أوصى فيها الكتاب ...
٥٧	رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب في الشطرنج ...
٦٠	رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب وصف بها الصيد ...

باب المنظوم :

٦٣	أنواع الغزل وزعيم كل نوع ...
٦٤	الغزل الإباحي - عمر بن أبي ربيعة ...
١٠٣	الغزل العذري - جميل ...
١٢٤	الغزل الصناعي - كثير ...
١٣٨	الغزل القصصي - قيس بن الملقح (المحبون) ...
١٥٢	قيس بن ذريح ...
١٦٤	الشعر السياسي - النعمان بن بشير ...

ملحق الكتاب الثاني - عصر بني العباس

باب المنشور :

١٦٩	مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان ...
١٨٨	رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشد إلى قسطنطين ملك الروم ...

صفحة	
٢٣٧	رسالة يحيى بن زياد في تقرير الرشد
٢٤٤	كتب الرشد
٢٤٤	كتاب عهد البيعة
٢٤٧	نسخة الشرط الذي كتب عبد الله بن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة
٢٤٩	نسخة كتاب الرشد الى العمال

باب المنظوم :

٢٥٢	بشار بن برد
٢٧٧	حماد مجرد
٢٨٧	مروان بن أبي حفصة
٣٠٠	أبو دلامة
٣١٧	أبان بن عبد الحميد اللاحق
٣٢٦	أخبار حمدان بن أبان
٣٣٣	منصور النمرى
٣٣٩	السيد الحميرى
٣٤٩	سلم بن عمرو الخاسر
٣٥٤	ربيعه الرقى
٣٥٩	الرقاشى
٣٦١	أبو العنايه
٣٧٤	مسلم بن الوايد
٣٩٣	العباس بن الأحنف
٤٠٠	ابن مناذر
٤٠٣	صالح بن عبد القدوس
٤٠٧	سعيد بن وهب
٤١١	الحسن بن وهب
٤١٩	أشجع السلى
٤٢٣	على بن الجهم
٤٣١	على بن جبلة

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٣١٥٠)